مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة "التراث"

ديوان ابن فركون

تقديم وتعليق

محمد ابن شريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة "التراث"

ديوان ابن فركون

تقديم وتعليق
محمد ابن شريفة
عضو أكاديمية المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة "التراث"

ديوان ابن فُركون

تقديم وتعليق

مُحمد ابن شَريفة

عضو أكاديمية المملكة المغربية

الطبعة الأولى 1407-1987

تقديـــم

تنشر أكاديمية المملكة المغربية المشمولة برعاية مؤسسها العاهل العظيم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله هذا الديوان الشعري الأندلسي الذي اكتشف أخيرا في المغرب.

ويرجع الفضل في ظهوره إلى معالي الأستاذ الجليل والأديب الكبير السيد الحاج محمد باحنيني، الذي يملك نسخته الخطية الوحيدة، وقد تكرّم سيادته بما هو معهود فيه من أريحية وسخاء، ونبل وعطاء، فأهدى مشكورا هذه التحفة الفريدة إلى خزانة الأكاديمية.

وعندما انتدبت إلى إعداد هذا الديوان للنشر وتصفَّحته أول مرة لفت نظري أن ناسخه المجهول على ما يبدو كتب في غلافه وعلى طرّة الورقة الأولى منه ما يلي :

ديوان ابن الخطيب، ورغم جمال الخط الذي كتبت به هذه العبارة فمن الواضح أن كاتبها لا يعرف شعر ابن الخطيب، وهو لو قرأ الديوان لوقف خلاله على اسم صاحبه الذي هو أبو الحسين ابن فركون.

أما نسخة الديوان فيبدو من خطّها وورقها أنها نسخة حديثة، ولعلها انتسخت في آخر القرن الرابع عشر الهجري، وقد أشير في بعض طررها إلى الأصل المنتسخ منه، وتجدر الإشارة إلى أن هذه النسخة التي تفتتح الورقة الأولى منها بالبسملة والتصلية خالية من أي مقدمة أو ديباجة، كما أنها تخلو من أي إشارة تشعر بخاتمتها، وتدل بعض الإحالات فيها على أنها لا تمثل الديوان برمته، وهي مرتبة حسب الموضوعات كالعيديات والمقترحات والأخوانيات وغيرها.

وقد عارضت هذه النسخة الوحيدة بما يوجد من قصائدها في مجموع «مظهر النور الباصر»، و«ديوان ملك غرناطة» ؛ وشرحت ما رأيته يتطلب الشرح من الكلمات الغريبة، والإشارات الخفية، وعنيت بالتعليق على بعض أسماء الأعلام والأماكن، ولكني اقتصدت في الشرح والتعليق تجنّبا للطول، كما صَوّبت ما وقع في النسخة من خطأ، وسددت ما ترك بها من فراغ ناصّاً على ذلك أحيانا، وساكتا عنه أحيانا أخرى، وذيلت الديوان بفهارس لأسماء الأعلام والأماكن والأشعار الواردة فيه.

وإنه ليسعدني وقد أنجزت إخراج هذا الديوان أن اتقدم بوافر الشكر إلى معالي الأستاذ الحاج محمد باحنيني على جوده به، وإلى أكاديمية المملكة المغربية على مبادرتها بطبعه، سائلا المولى عز وجل أن يحفظ صاحب الجلالة راعي الأكاديمية العظيم، بما حفظ به الذكر الحكيم.

مقدمة

طالما شكا المؤرّخون من غموض الحقبة الوسطى في تاريخ مملكة غرناطة النصرية، ونعني بها تلك الحقبة التي تقع بين أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل الربع الأخير من القرن التاسع.

وإذا كانت مؤلفات ابن الخطيب، وتاريخ ابن خلدون، وأشعار ابن زمرك، وبعض ما كتبه النباهي، ونبذة العصر لمؤلف مجهول، تؤرخ للحقبتين الأولى والأخيرة من تاريخ الدولة النصرية، فإن المصادر العربية التي تتعلق بالحقبة الوسطى اعتبرت مفقودة، واعتمد المؤرخون في معرفتها على المدوّنات القشتالية، بيد أن هذه المدونات Cronicas إذا كانت وافية ودقيقة فيما يرجع إلى أخبار الممالك المسيحية وأحوالها فإنها ليست كذلك فيما يخص تاريخ مملكة غرناطة الاسلامية، وأشير على سبيل المثال إلى أن المستعرب الغرناطي الاستاذ سيكو دي لوثينا وقف حياته وجهوده على محاولة ضبط تاريخ هذه الحقبة وتصحيح أوهام المصادر المسيحية فيما يخص أسماء بعض ملوك هذه الحقبة وترتيب تولّيهم الملك، وتحديد تواريخ حكمهم، وقد مات وفي نفسه شيء من حتى، وفي ذهنه علامات استفهام شتّى.

ومن حسن حظّنا اليوم أن بعض مصادر الرواية العربية لهذه الحقبة قد أخذت تظهر شيئًا فشيئا كما أشرت إلى ذلك في مقدمة دراستي عن الشاعر البسطي آخر شعراء الأندلس، وهي وإن كانت مصادر ثقافية ككتب التراجم والبرامج، أو أدبية كبعض الدواوين والمجاميع الشعرية، أو فقهية كالوثائق والفتاوي فإنها في عمومها تلقي بعض الأضواء على الجوانب السياسية أيضا.

وإذا كنّا لم نعثر بعد على كتاب «الروض الأريض» لابن عاصم الابن فإن كتابه «جنّة الرضى» الذي ظهر بالخزانة الحسنية العامرة يشتمل على الرواية العربية المفقودة

حول فترة مضطربة هي فترة محمّد التاسع و«دُولِه» الأربع مع ما تخلّلها منْ دُوَل غيره، وهذه الرواية لم يتمكن الأستاذ سيكو دي لوثينا من استخدامها في كتابه. عن محمد التاسع : MUHAMMAD IX SULTAN DE GRANADA

وقد ظفرنا في المدة الأخيرة بمجموع شعري نفيس كان في طي العدم، وليس له ذكر في أي مصدر من المصادر الموجودة حتى الآن بين أيدينا.

وهذا المجموع عبارة عن ديوان للشاعر أبي الحسين ابن فركون الغرناطي، شاعر البلاط النصري في عهد السلطان أبي الحجّاج يوسف الثالث الملقب بالنّاصر.

أما صاحب الديوان فقد كنا نعرف اسمه فحسب من خلال مجموع شعريٍّ عُنوانُهُ : «مظهر النور الباصر، في أمداح مولانا أبي الحجاج الملك الناصر»، يوجدُ السِّفرُ الثاني منه مخطوطًا في الخزانة العامّة بالرباط بِخطِّ أبي الحسين ابن فركون المذكور، وفي مقدمة هذا السفر ما نصه : «يقول العبد الذي شرّفه مولانا الناصر لدين الله بجمع أمداحه على اختلاف فنونها...».

وقد كان هذا المجموع المخطوط في ملك أحمد المنصور الذهبي السعدي وعليه طابعه وتملُّكه، وفي ورقة منه تعليق بخطه.

وأما يوسف الثالث فهو الملك الثالث عشر في ترتيب ملوك غرناطة النصريين، وهو صاحب الديوان الذي نشره مَرَّتَيْن الأستاذ الجليل السيد عبد الله كنون عن نسخة ملوكية عثر عليها في سوس المرحوم الاستاذ المختار السوسي، ويبدو أنّها بخطّ أبي الحسين ابن فركون أيضا.

ويوسف الثالث هو أيضًا ـــ كما تأكد اليوم ـــ مؤلف كتاب «البقية والمُدْرَك، من كلام ابن زمرك» الذي وقف عليه المقري بتلمسان، وقال انه : «من تأليف بعض سلاطينها بني الأحمر، وهو حفيد ابن الأحمر المخلوع سلطان الأندلس» ؛ وقد أثبت في أزهار الرياض ونفح الطيب مقدمته، وأورد معظم ما اختاره الملك الشاعر من شعر ابن زمرك.

وتقدّم هذه المصادر الأربعة ـــ ولا سيما ديوان ابن فركون الذي ننشره اليوم ـــ مادة مهمة، تكشف عن شخصية يوسف الثالث، وأيام ملكه، وسياسته الداخلية والخارجية، وجلّها ـــ إن لم أقل كلّها ـــ كانت مجهولة.

إن لديوان أبي الحسين ابن فركون قيمتين كبيرتين : أولاهما أدبية تشهد أن الشعر الأندلسي حافظ على فخامته التي كان يُظنّ أنها انتهت بانتهاء عصر ابن الخطيب وابن زمرك ؛ والقيمة الثانية تاريخية ووثائقية، وقد تكون أهمّ من الأولى.

وقبل أن نتناول هاتين القيمتين بالدرس والتحليل لا بد لنا من التعريف بصاحب الديوان ابن فركون، فمن هو هذا الشاعر ؟

التعريف بابن فركون :

إنه أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن هشام[1] القرشي المعروف بابن فُرْكون (بضمّ الفاء كما ضبطها هو بخط يده دائما في «مظهر النور الباصر»)[2].

وأبو الحسين هذا هو ولد أبي جعفر أحمد بن فركون[3] أحد تلاميذ ابن الخطيب، ومن خاصتّه الذين انقلبوا عليه، وكادوا له، وقد كان ابن الخطيب، أثنى على أبي جعفر المذكور عندما كان راضيًا عنه، ووصفه بأنه «شعلة من شعل الذكاء والادراك»، فلما كان منه ما كان ذمّه في كتابه «الكتيبة الكامنة»، وقد اشتغل أبو جعفر هذا بالكتابة السلطانية في عهد الغني بالله بترشيح من أستاذه ابن الخطيب، وكان هذا يكلّفه بنسخ مؤلفاته، ولمّا فارق لسان الدين مخدومه الغني بالله وأوى إلى المغرب، كان أبو جعفر ابن فركون مع المحرّضين على ابن الخطيب، كابن زمرك والقاضي النّباهي «وأنكر المعروف، ونسي الظرف والمظروف» حسب تعبير ابن الخطيب ؛ ويبدو أنه بالغ في الإساءة إلى شيخه الذي رَبّاه وخَرّجه، ونلمس شدة حنق ابن الخطيب على تلميذه العاق الجاحد في قوله :«جرْوٌ مَحْقور، وفي جلده كلْبٌ عقور، وسفيه، يقال عند ذكره : كفاك اللهُ شر من احسنت إلَيْهِ» إلى أن يقول : «وعدل الله كفيل باتّباعِه، وقَصّ باعِه، ومجازاة خَتْله، وإهداءِ كبده إلي من بعد قتله، ليُجْعل مَتْنُها على العضّة الدّامية، ويُشوى باقيها على النار الحاميّة». ولا نعلم شيئا عن حال أحمد بن فركون مع ابن زمرك الذي

(1) في سلسلة هذا النسب المرفوع بعض اختلاف بين المصادر.

(2) راجع مظهر النور الباصر، مخطوط خ.ع.ر. رقم 23ج.

(3) انظر ترجمته في الاحاطة 1 : 220 والكتيبة الكامنة : 305 ونفح الطيب 7 : 287. تحقيق د. إحسان عباس.

(4) الكتيبة الكامنة : 306.

خلف ابن الخطيب بقية عهد الغني بالله، وخلال عهد ولده يوسف الثاني، وحفيده محمد السابع، الذي بطش بابن زمرك، فكان مصرعه أشد قسوة من مصرع ابن الخطيب، ونجد لابن فركون والد صاحب هذا الديوان بيتين فيهما غمزٌ ولمز وتعريضٌ بابن زمرك[5].

وقد استطاع بذكائه أنْ ينجو من لهيب تلك الدسائس المتعاقبة، وتحوّل من الكتابة إلى القضاء، إذْ نجد في هذا الدّيوان أنّه كان عام 799 هـ قاضيا في برجه[6]، ويبدو أنه ظل في القضاء حتى آخر حياته، ففي آخر ديوان أبي الحسين هذا نراه يشير إلى سفر والده المذكور من غرناطة إلى موضع قضائه عام عشرين وثمانمائة[7]، وكان يومئذ شيخا في الثالثة والسبعين من عمره، إذ أن مولده عام سبعة وأربعين وسبعمائة.

وكان يمدح السلطان في المناسبات، وقد ذكر له والده مجموعة من القصائد التي مدح بها السلطان يوسف الثالث عام 811 هـ وما بعده. وهي موجودة في «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر».

هذا عن أحمد بن سليمان ابن فركون والد صاحب الديوان، ولا بأس من الاشارة إلى جده سليمان الذي يفهم من كلام ابن الخطيب أنه كان من أهل العلم، إذ أنه استجاز لولده أحمد شيوخ بلده، وصرّح أنه ترجم له في الاحاطة[8]، ولكننا لم نجد هذه الترجمة في النسخة المطبوعة، ولا فيما رجعنا إليه من نسخها الخطية، ولعله أسقطها كما أوصى بإسقاط ترجمة تلميذه أحمد من الاحاطة، وعلى كل حال فإن ابن الخطيب يصف سليمان جدّ صاحبنا أبي الحسين بعد أن تغير عليه بأنه «معدن الحمق الذي أعيا الراقي، والسحر المركّب العراقي»[9]، ويورد ابن الخطيب أبياتا لتلميذه أحمد بن فركون يشكو[10] فيها إليه والده «وقد سَرَق له بعض ما أحسنت به له» كما يقول.

---

(5) نفح الطيب 7 : 287.

(6) انظر ص 168 من هذا الديوان.

(7) انظر ص 259 من هذا الديوان.

(8) يقول ابن الخطيب في ترجمة تلميذه أحمد بن سليمان ابن فركون تحت عنوان أوليته مانصّه : «قد مرّ ذلك في رَسْمِ جده قاضي الجماعة وسيأتي في رَسْمِ والده.»

(9) الكتيبة الكامنة : 305.

(10) المصدر نفسه.

و لابدّ من التذكير في الأخير بأشهر أعلام هذه الأسرة قاضي الجماعة أحمد بن فركون[11]، وهو الجد الأعلى لأبي الحسين صاحب هذا الديوان، وإليه تنصرف شهرة ابن فركون إذا أطلقت، وقد نوّه به ابن الخطيب وابن خاتمه والنباهي وغيرهم من مؤلّفي كتب الطبقات، وأصله من المرية، ولكنّه نشأ في غرناطة، ودَرّس بها، وأصبح قاضي الجماعة فيها، فهو مؤسس هذا البيت الذي سقنا أعلامه في هذا النّسق رفعًا لأيّ التباس، وحتى هذا العلم الشامخ الذي نوه به ابن الخطيب في الاحاطة عاد بعد خصومته مع حفيده، فوصفه في الكتيبة الكامنة بأنه كان «شديد القحَة والصَّلَف، مُزْريا بالخلف والسلف، يدعو المشيخة بأسمائها، فتَشْجَى بغمائها، وينبزها بألْقابها، فَتَنْجَحِرُ بأنْقابِها، تُلوي برِقابِها».

أما أبو الحسَيْن صاحب الديوان، فلا توجد له ترجمة في المراجع الموجودة، ولعل ابن عاصم عرف به في الروض الأريض المفقود الآن.

ولا نعرف له اسمًا إذ أنه يذكر نفسه ويذكره غيره دائما بأبي الحسين، وقد ذكر في ديوانه أخًا له صغيرا بكنية أبي العلى[12]، وقد تكون هاتان الكنيتان اسمين لهما، وذلك ككنية أبي بكر مثلا التي أصبحت من الأسماء.

وقد وجدنا في شعره ما يدل على تاريخ مولده وذلك في قصيدته التي نظمها في الجناب النبوي «وقد أطّل موسم عام ثمانية عشر وثمانمائة» وفيها يقول :

أَ مِنْ بَعْد ما لاحَ المشيبُ بِلِمّتي ... صباحًا هَداني ليلُه وهو مُظلِمُ
تجَهّمَ وَجْهُ الْأنْسِ وهْوَ بِمَفْرِقي ... أزاهِرُ في خُضْرِ الرّبى تتبسّمُ
لعمّتِهِ في الفَوْدِ فضلُ ذؤابَةٍ ... عَلَى لمّةٍ كادتْ بِهِ تتلثّمُ
هوالوارِدُ المرغوبُ عنهُ فكُلّما ... أَلَمَّ بفَوْدٍ وفْدُهُ، يَتألّمُ
جوادٌ ولَمْ يُسْألْ وَفيٌّ ولَمْ يَعِدْ ... مُرَدِّدُ وَعْظٍ وهو لا يَتكلّمُ
ومن بعْدِ ما مَرّت ثلاثونَ حِجّةً ... وسَبْعٌ يُرامُ الأُنْسُ أو يُتَوَهَّمُ
وقاربْتُ مِنْ مَرْمى الأشُدِّ رَمِيّةً ... تُقَرْطِسُها مِنْ حادثِ الدّهْرِ أَسْهُمُ

(11) ترجمته في الاحاطة 1 : 153 والكتيبة الكامنة : 101 وريحانة الكتاب والمرقبة العليا : 138 ودرة الحجال 1 : 41 ونيل الابتهاج : 64.

(12) انظر ص 259 من هذا الديوان.

وصوّح مرعًى للشّبيبَةِ مُــخْصِبٌ وأيّ شبابٍ مونِقٍ لَيْسَ يَهْـرَمُ[13]

ومعنى هذا أنه ولد حوالي 781 هـ.

وقد ورث عن أبيه الذكاء الحاد والنّبوغ المبكر إذ نجدهُ في عام ثمانية وتسعين وسبعمائة يقول الشعر وكان يومئذ طالبًا صغير السن كما يقول، وفي هذا التاريخ اطلع الشريف أبا العباس الحسني على قصائد من نظمه فكتب له ما نصّه :

تباركَ اللهُ من نجلٍ قد اجتمعت محاسنُ الأب فيـه وهْـوَ يــزداد
فَلا بَرِحْتُ أرى منكَ الّذي علمَتْ عَنْ جدّه المُنْتقى مصرٌ وبَغْـدَادُ[14]

يشير إلى الأب أحمد بن فركون وجدّ هذا الأب قاضي الجماعة أحمد ابن فركون، والشريف أبو العباس المذكور هو ولد أبي القاسم الشريف السبتي شارح مقصورة حازم، يقول ابن الخطيب في ترجمته : «رسمت هذا الفتى في الكُتّبَة، سني المرتبة، ثم استعملته في القضاء، خالعًا عليه ملابس الارتضاء...»[15] وقد كان أبو الحسين ابن فركون وثيق الصلة بهذا الشريف وبأخيه أبي المعالي قاضي الجماعة في عهد محمد السابع أخي يوسف الثالث، وبينه وبينهما مطارحات شعرية، جاء في الديوان :

«وكتب إليّ أخوه (أي أخو أبي العباس المذكور) قاضي الجماعة الشريف المعظم أبو المعالي أبقى الله حظوته وقد تقدّم في ذلك العهد للكتابة السلطانية دوني من آثره صاحبُ الخُطّة بها ما نصّه في محرم عام خمسة وثماني مائة»[16].

ومما جاء في قطعة أبي المعالي يواسي أبا الحسين ابن فركون :

اصْبِرْ فعمّا قريبٍ أنتَ واردُ مَـا تَهْوَى من العِزّ غَمْرًا غيْرَ ما ثَمَدِ
وَلاَ يــهِضْكَ بتأخيــرٍ تقدّمُهُـــمْ إن الفَـذالِكَ تَـأتي آخرَ العَـدَدِ[17]

(13) ص 205 من هذا الديوان.

(14) ص 171.

(15) الكتيبة الكامنة : 301 ونيل الابتهاج : 76 وورد ذكره مراراً في جنة الرِّضَى لابن عاصم وكذلك في المعيار للونشريسي ونفح الطيب.

(16) ص 173 وانظر في أبي المعالي هذا نيل الابتهاج : 76. ونفح الطيب 5 : 198.

(17) هذا من قول المتنبي : وأنى فذلك إذ أتيت مؤخرا. والفذلكة هي قول الحاسب إذا أجمل حسابه : فذلك كذا وكذا.

وَكَمْ جوادٍ، جيادُ الخيل تسبقُـهُ   أُولَى الرّهانِ، قد استَوْلى علَى الأَمَدِ

ومن هنا نفهم أن أبا الحسين كان يتطلّعُ ـــ وهو شاب يافع ـــ إلى الانخراط في ديوان الإنشاء بعد أن اكتسب الأدوات وامتلك المؤهلات كجمال الخط ـــ الذي اشتهر به والده كذلك ـــ وجودَةِ الإنشاء، وإحكام النظم وغير ذلك، ولهذا لَمْ يلبث أن تحقق لأبي الحسين ما بشره به قاضي الجماعة الشريف أبو المعالي الحسني «فارتسم ـــ كما يقول ـــ في كتاب المقام العلي في اليوم الرابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وثماني مائة»[18].

وقد هنّأه الفقيه القاضي أبو عبد الله الأَلْيُري[19] بقوله :

هنيئًـا يـا سليـلَ أُولي النّجابَـهْ   بماقُلّـدتَ مـنْ سامـي الكتابَـهْ
ويَهْـنيها فقـد ظفـرَتْ بِكُـفْءٍ   حَوَى من كـلّ مَعْلُـوّة لُبابَـهْ
أراكَ اللـــهُ فيها مـــا تَمَنّـــى   مـن النِّعَـم الـجِسام المُستطابَـهْ
وزادكَ بعدَهـــا جاهًـــا عظيمًـــا   تنـالُ بـه الخَطابَـة والحِجابَـه[20]

ولما مات محمد السابع، وبويع يوسف الثالث، أشار الشريف أبو المعالي قاضي الجماعة على أبي الحسين أن يحتال لنفسه، ويتقدم إلى السلطان الجديد بمدائحه، قائلا له من قطعة :

فاحتَلْ لنَفْسِكَ فيما تتحِفَـنّ بـهِ   كلاّ أو استَرْفِدِ الأعْلامَ تهْـديها
الشّمسُ بالرّبْـوَة الحَمْـراءِ مُشْرِقَـةٌ   كَمْ نِعمَةٍ لِلْهُـدَى لأرَيْبَ تُسْديها

فأجابه أبو الحسين بقصيدة جاء فيها :

سِبْـطُ النبـيّ حباني مـنْ عَقائِلِـهِ   بِبِنْتِ فِكْرٍ يَـروقُ السَّمْـعَ شاديها
مُشيرَةٌ بالْتِماسِ الرِّفْدِ مِـنْ عَلَـمٍ   ماضَلّت الخَلْقُ قَصْدًا وَهْوَ هاديها
قَدْ لاحَ بالرُّبْوة الحمراءِ شَمْسَ هُدًى   فَلَيْسَ يَخْفى عـن الأبصارِ بـاديها

---

(18) ص 180.

(19) ترجمته في نيل الابتهاج : 291.

(20) انظر الديوان ص 180.

فما قَبَضْنا اللُّهى لَوْلا مَكارِمُها ... ولاَ بَسَطْنا يَدًا لَوْلاَأيَاديها[21]

فرفع أبو الحسين قصائد متتابعات ولَعلَّ أولها هي التي يفتتح بها هذا الديوان، ومطلعها :

إلـيكَ تباشيـرُ البشائِـرِ مُقْبِلَـهْ ... تَلـوحُ بآفـاقِ الهُـدَى مُتَهلِّلَـهْ

وفيها يهنّىء السلطان بتولّي الملك قائلاً :

فَهُنِّئْتَ ما استقبَلْتَ يا مَلِكَ الهُدَى ... من العِزِّ لا زالتْ سُعودُك مُقْبِلَهْ

لَقَـدْ قَلَّـدَ الرّحمَـنُ أمْـرَ عِبـادِهِ ... إمامًا لَهُ في العَـدْلِ أرْفَـعُ مَنْزِلَـهْ

ثُمَّ يقول على طريقة المتنبّي[22] :

فَعبْـدُكَ يُهْـديها إلـيْكَ وسائـلاً ... أَبَى اللهُ أن تُلْفَى بجودِكَ مُهْمَلَهْ

أَقِلْـهُ أَنِلْـهُ وَفِّ مـا قَـدْ وعَدْتَـهُ ... قديمًا وبَلِّغْـهُ الـذي مِـنْكَ أمَّلَـهْ

وشفع هذه القصيدة، ليومٍ ثانٍ، بقصيدة ثانية، بدأها بالاشارة إلى خلاص السلطان من السجن وحلوله بدار الملك، قال :

هنيئًا فصُنْع اللهِ وافاكَ بالـبُشْرى ... وأبْـدَى مُحَيّـاهُ الطّلاقَـةَ والـبِشْرا

وهَلْ هو إلاّ الصّنْعُ أهْداكَ آيَـةً ... فكانتْ على نَيْلِ المُنَى آيةً كُبْرى

هُوَ القَدَرُ المحتومُ حَيّا بِهِ الهُـدى ... فَبُعْدًا لعُسْرٍ أُعْقِبَ اليُمْنَ والـيُسْرا

حَلَلْتَ بدارِ المُلْكِ والسّعْدُ يَقْتضي ... لمُلْكِكَ أنْ يَلْقَى بها العِزّ والنّصْرا

وأشْرَقَ ذاكَ الوجْـهُ بالقُبّـة الّتـي ... عَجائبُهـا تُـرْوَى وأنْعُمُهـا تَتْـرَى[23]

وفيها يشير إلى وفائه للملك خلال سجنه فيقول :

---

(21) الديوان ص 176.

(22) أقصد بيته المشهور :

أَقِلْ أَنِلْ اقطَعْ احمِلْ عَلّ سَلِّ أعِـدْ ... زدْ هشَّ بشَّ تـفضّلْ ادْنُ سُرَّ صِلِ

(23) الديوان ص 2.

بِحَقِّكَ يا مولاَيَ لا تَنْسَ عهْدَ مَنْ يُحادثُ مَولاهُ بأفكارِه سِرّا
فَكَمْ باتَ في جَمْرِ الغَضا مُتَقلِّبًا وذكْرُك يُذْكي في جوانحِهِ جَمْرا
إلى أنْ رأى ذاكَ المُحَيّا فأصْبَحَتْ صُدورُ القَوافي تشرَحُ القَلْبَ والصَّدْرا

وكان يطمع أن ينشد قصيدته بين يدي الملك، ولكن ذلك لم يتحقق له فقال :

وقَدْ نذَرَ المَمْلوكُ إنْشادَ هذِهِ لَدَيْكَ، فما وَفَّى يَمينًا وَلا نَذْرا[24]

ثم رفع إلى السلطان في آخر شهر ذي الحجّة أي بعد حوالي شهرين من جلوسه على العرش قصيدته المحبوكة التي مطلعها :

حادِيَها أيْنَ بِها تَذْهَبُ إذْ لَيْس عَنْ وِرْدِ المُنَى مَذْهَبُ

وفيها يقول :

فالْهامِيانِ رحْمَةً لِلْوَرَى : نَوالُهُ، والمطَرُ الصيِّبُ
والنيِّرانِ في ظَلامِ الدُّجَى : جَبينُهُ المُشْرِقُ، والكَوكَبُ
والطيِّعانِ لعُلَى مُلْكِهِ بعَدْله : المَشرِق، والمَغْرِب
والماضِيانِ منه يوم الوَغى : عَزْمَتُهُ، وسَيْفُه المُرْهِبُ
والأشْرَفانِ بِحُلَى مُلْكِهِ : مدحي لمولاي، وما أكْتُبُ
والنّاصران : مَنْ لِمَرْوانِهَا يُنْمى، ومَنْ لسَعْدِها يُنْسَبُ
ذلكَ مَلْكٌ أصْلُهُ مَكّةٌ وذا إمامٌ أصْلُهُ يَثْرِبُ[25]

وقدْ أتَتْ هذه الوسائل أُكْلَها إذ ما لبث السلطان أن اظهر على عبده أثر القبول، وفاتح بتبليغ الأمل والسول، كما يقول[26]، وقد عيّنَهُ أوّلا في وظيفة يقول فيها : «أمَرَ لي أيّدهُ اللّه بِتَنْفيذ الغُزاة بِحَضْرته العليّة وسائِر البلادِ النّصْريّة، وأبطأ الظّهير الكريم بذلك في العَلاَمة، فقلتُ في مُتصَف ربيع الآخِر عامَ أحَدَ عشَر وثماني مائة».

---

(24) الديوان ص 4.
(25) الديوان ص 5 وهو يشير الى عبد الرحمن الناصر الأموي ويوسف الناصر.
(26) الديوان ص 176.

ويبدو في قصيدته شيءٌ من إلحافه وقلّة لباقته إذ يقول :

ولكنّ يا مولايَ أمرُكَ نافذٌ فَما بالُهُ في مَطْلَبِ العبْدِ يُبْطِىءُ[27]

ومع هذا فقد لُبّي مطلبُه بعد خمسة أيام، جاء في الديوان : «ولما وجّه إليّ الظّهيرَ الكريمَ قُلْتُ أشكرُ نعمتَه في اليوم العِشرين من ربيع المذكور»[28]

وفي هذه القصيدة يقول :

أمَوْلايَ، قدْ بلّغتَني كُلّ مطلَب بِفَيْض نوالٍ جودُه يُخجل المُزْنا
ولِمْ لاَ وقدْ وافَتْ علامتُك الّتي لها الحُسْنُ في شفْعِ الزّيادةِ بالحُسْنَى[29]

أما العلامة المذكورة في هذا البيت فهي عبارة «صَحّ هذا» التي كان يوقّعُ بها ملوك بني نصر ظهائرهم، وقد ذكرها ابن زمرك في بعض شعره[30]. وأشار إليها شاعرنا في قوله :

ومَنْ أنْحَلَتْهُ «صحّ هذا» بِوَعْدِها فبالنّاصِرِ المَوْلَى يَصِحُّ ويَبْرأ
تَخُطُّ اليَدُ الغَرّاءُ مِنْها علامَةً يُقَبّلُها وهْوَ الوجيهُ المُهَنّأ[31]

وأما خُطّة تنفيذ الغُزاة فهي مراقبة النفقات المخصّصة لِلْغُزاة والمجاهدين المتطوعين[32].

ومن التاريخ المذكور أصبح أبو الحسين في خدمة يوسف الثالث، وغدا شاعره المختصّ به، المؤرّخ لأيامه بشعره، ثمّ ازداد منه قربًا، بعد أن اختاره لتولّي كتابة سرّه، عام أربعة عشر وثماني مائة[33] ؛ وبهذا صارَ ملازمًا له في الحضر والسفر، ينشد القصائد بين يديه في الأعياد والمناسبات، ويقول الشعر في مختلف الوقائع والأزمات، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة ممّا جرى في عهد الناصر إلاّ سجّلها.

(27) الديوان ص 20.
(28) الديوان ص 20.
(29) الديوان ص 22.
(30) الديوان ص 20.
(31) أزهار الرياض 2 : 135.
(32) انظر كلمة تنفيذ في قاموس دوزي.
(33) الديوان ص 90.

وكان الملك من جهته حفيا بكاتب سره، يسمّي له أولاده، ويمنحه الهبات، ففي الديوان أنه وهبه مرّة سرِّيّة رومية ووَهبه مرة أخرى ثوبًا من حرير[34].

وقد أصبح أبو الحسين ابن فركون بفضل منصبِه وأدبِه مرموقًا في المجتمع الغرناطي، يخطب أهل العلم والأدب ودّه، ويطلبون شعره، فمنهم الشريف أبو المعالي الحسني قاضي الجماعة، وأخوه كبيره أبو العباس، وبين أبي الحسين وبينهما مجاوبات عديدة، أشرت إلى بعضها فيما سبق، وعندما ولد لأبي الحسين ابن فركون ولده أحمد ليلة السبت السابع لرجب عام عشرين وثماني مائة هنأه الشريف أبو العباس بقصيدة أتبعها بنثر يقول فيه : «وقد عجلت الكتب لسيدي تخفيفًا عليه، ثم غلبني الشوق فنهضت نحو الجنان إليه، لتعلموا أني لم أضيع واجبا في جنابكم العالي ولا شغلني شاغل عن قصد تلك المعالي، فعُرِّفت أن الوقت معمور بما شغَف·الباطن من تضييع الخدّام، والتفريط في حال قرة العين عافاه الله ووقاه من جميع الآلام» ونعرف سر انشغال أبي الحسين بأمر ولده المشار إليه في هذه الرسالة من قوله : «لم يبق بقيد الحياة لِهذا العهد من إخوانه غيره، ولعلّه يبقى بفضل الله (الديوان : 262 — 265).

ومن إخوانه الفقيه القاضي أبو عبد الله الأُليري الذي رأيناه فيما سبق يهنئه بمنصب الكتابة.

ومنهم الفقيه أبو القاسم بن حاتم المالقي الذي خاطب أبا الحسين من جبل طارق بقصيدة طويلة ذيلها برسالة في الشوق إلى لقائه فأجابه بقصيدة يتلوها شيء من النثر في آخر شعبان عام أحد عشر وثمانمائة (183 — 189).

ومنهم الفقيه القاضي أبو الفضل ابن أبي جماعة الذي دارت بينه وبين أبي الحسين أشعار مؤرّخة بعام 809 هـ (الديوان : 189 — 193). وهو من أعلام ذلك العصر.

ومنهم أبو عبد الله ابن الأكحل (الديوان : 193)، والفقيه الأستاذ أبو بكر ابن الأيسر (34 م)، والفقيه الكاتب أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم بن قطبة، وهو من الأسرة الغرناطية المشهورة، وبينه وبين أبي الحسين مجاوبة شعرية مؤرخة بعام 808 هـ (الديوان : 194 — 196)، وأبو زكرياء يحيى بن السراج الرُّنْدي، وأبو القاسم

---

(34) الديوان ص 124 و ص 127 و ص 40.

(34) م انظر في ابن الأكحل : الإحاطة 3 : 204 وفي ابن الأيسر : وثائق غرناطية : 143 — 144.

ابن حاتم المالقي، وسيأتي الكلام عليهما.

لا نعرف كيف عاش ابن فركون بعد وفاة يوسف الثالث، ولا ماذا كان مآله خلال الأحداث الناجمة بعد زوال دولة مخدومه، وكل ما نعرفه أنه جمع شعره بعد وفاة الملك الناصر، إذ أنّه يترحم عليه في آخر ما قاله أو جمعه.

بفضل هذا الشعر التسجيلي الجامع أصبحنا نعرف بكيفية مفصّلة تاريخ حياة الملك يوسف الثالث، والعهد الذي ملك فيه، ومدته عشر سنوات ؛ إذ ان الذين تحدثوا باختصار عن هذا الملك من قبل — مثل السيد عنان[35] والسيدة أريبه[36] — إنما اعتمدوا على مصادر قشتالية، أمّا الآن فلدينا رواية عربية كاملة معاصرة لتاريخ هذه الحقبة، تتمثّل في شعر ابن فركون، وفيما جمعه من شعر غيره، وفي شعرِ مخدومه يوسف الثالث نفسه، فقد كان هذا شاعرًا بل لعلّه أكبر شاعر ملك أنجبته الأندلس بعد المعتمد بن عباد، وديوانه المنشور أكبر من ديوان المعتمد.

وكان هذا الملك الشاعر مولعًا ولَعًا شديدًا بالشعر، فقد جمع كما أسلفنا شعر ابن زمرك[37]، كما كان مولَعًا بالمطارحات الشعرية، مقرّبًا للشعراء، يستمع إلى قصائدهم في عيدي الفطر والأضحى وغيرهما من المناسبات، وقد جمع خديمه أبو الحسين ابن فركون الأمداح التي قيلت فيه في مجموع سماه «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» يقع في عدة أسفار، ووَصل إلينا منها السفر الثاني من نسخته الأصلية بخط ابن فركون الملوكي المذهب الجميل، وقد كان هذا المجموع في ملك المنصور الذهبي، وله توقيفات وتعليقات على بعض الأبيات فيه، ثم انتهى إلى خزانة الباشا الجلاوي، ويوجد السفر الثاني ضمن المجموعة التي وصلت من هذه الخزانة إلى الخزانة العامة بالرباط، وهو يشتمل على ما قيل في مناسبات عام واحد هو عام 811 هـ، ويعلم الله عدد الأسفار الأخرى ومآلها.

إن هذه الثروة الشعرية لها — كما أسلفت — قيمة مزدوجة :

قيمة أدبية كما هو واضح، وأغلب الظن أنها كانت نموذجًا يُحتذَى لشعراء المديح في عهد الشرفاء السعديين والعلويين.

(35) انظر كتابه : نهاية الأندلس ص 153 وما بعدها. ط 3.

(36) انظر كتابها : إسبانيا المسلمة في عهد النصريين ص 127 وما بعدها.

(37) أدرج معظمه المقري في أزهار الرياض 2 : 11 — 176 ونفح الطيب 7 : 162 — 265.

وقيمة تاريخية تمثل ـــ كما قلت من قبلُ ـــ الرواية العربية المفقودة حول يوسف الثالث وعصره ؛ وسنعرض هذه الرواية حسب التخطيط الآتي :

1 ـــ يوسف الثالث ومملكة غرناطة في عهده.

2 ـــ شخصيته وسيرته.

3 ـــ علاقاته بالممالك النصرانية.

4 ـــ علاقاته بالمملكة المغربية.

1 ـــ يوسف الثالث ومملكة غرناطة في عهده :

هو السلطان أبو الحجّاج يوسف الملقب بالناصر لدين الله ولد السلطان أبي الحجاج يوسف الملقّب بالمستغني بالله، ولد السلطان محمد الخامس الملقب بالغني بالله.

وُلد في منتصف ليلة الجمعة السابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وسبعين وسبعمائة[38] (15 يوليوز 1376)، وذلك في عهد جدّه الغني بالله، وهو عهد بلغت فيه دولة بني الأحمر ذروة مجدها، وقمّة عزها.

وكان كبير إخوته : أبي عبد الله محمد، وأبي الحسن على، وأبي العباس أحمد، كما أن والده أبا الحجاج هو أكبر أولاد الغني بالله الخمسة.

وقد نشأ هؤلاء الأولاد والأحفاد في رعاية الغني بالله يستظلّون بوارف ظلّه، ويرفلُون في وافر فضلِه، وقد حفظ لنا يوسف الثالث في كتابه «البقيّةُ والمُدْرَكُ، مِنْ كلام ابنِ زَمْرَك» طائفةً من «الاعذاريات» أو القصائد العصماء التي وصف فيها هذا الشاعر الوزير تلك الاحتفالات الكبيرة التي كان الغني بالله يدعو إليها أهل الأندلس والمغرب، وتُجْرى فيها الجياد في الملاعب، ويُستدعَى إليها أصحاب الألعاب على اختلاف أصنافهم، ومنها قصيدة قيلت بمناسبة إعذار يوسف الثالث وأخيه محمد[39]، وأخرى في إعذار أخويهما أبي الحسن وأبي العباس سنة 789 هـ[40]، وأقتبس من الأولى قول ابن زمرك يصف كيف تقدّم يوسف وأخوه في غير خوف إلى العاذر الذي أجرى لهما عملية

(38) ورد هذا التاريخ في رخامة قبره المنشورة في كتاب لفونتي القنطرة عن النقوش العربية الغرناطية ص 41 وكذلك في كتاب لـ بروفنسال حول النقوش العربية الاندلسية ص 171.

(39) أزهار الرياض : 2 : 74.

(40) المصدر نفسه : 81 وصبح الأعشى 5 : 202.

الختان حسبما تقتضيه السنة النبوية :

وقدْ كانَ رَوْعُ الحفْلِ رَوّعَ أهلَهُ — وأُشعرتِ الإشفاقَ تلكَ المحافِلُ
فأبدَتْ به أبناءُ نجلِكَ أوْجُهًا — تُبينُ إلى السّارينَ مِنْها المَجاهِلُ
فلا الحفْلُ مَرْهوبٌ ولا الخطْوُ قاصرٌ — ولا السِّرْبُ مُرْتاعٌ ولا الرَّوعُ هائلُ
ولا القلْبُ مَنخوبٌ ولا الحِلْمُ طائشٌ — ولا العقْلُ معقولٌ ولا الفِكرُ ذاهِلُ[41]

لا نعرف تاريخ إعذار الأمير يوسف هذا ولكنه وقع في الغالب وهو دون العاشرة[42].

وكما دوّن يوسف الثالث قصيدة ابن زمرك التي تسجّل أشهر حدثٍ في صباه، فإنه أشار في مقدمة «البقية والمدرك» إلى بعض شيوخه، وأولهم أبو عبد الله الشّريشي وقد وصفه بقوله : «معلّمُنا الثقة المجتهد» وقال فيه في موضع آخر : «الشيخ العمدة معلّم الجُمْلة منّا كتابَ الله وسنّة رسوله ﷺ» وقد ذكر ابن الخطيب الذي ترجم للشريشي في الاحاطة والكتيبة والريحانة أنه تَرَقّى بإشارته «إلى التي لا فوقها من تعليم وَلَدالسلطان والرياسة القرآنية بباب الإمارة والإمامة بالمسجد الجامع من القلعة»[43].

ومن الشيوخ الذين تثقف بهم أميرنا يوسف : أبو محمد عبد الله ابن جزي، وأبو عبد الله محمد بن علي بن علاق، وأبو مهدي ابن الزيات، وهؤلاء هم الذين اقتصر على ذكرهم مضيفا قوله : «وغيرهم».

لقد تلقى الأمير يوسف ثقافة علمية وأدبية متينة كما تدل على ذلك كتاباته وتعليقاته وأشعاره.

ولما توفي الغني بالله سنة 793 هـ (1391 م) خلفه ولي عهده يوسف الثاني والد صاحبنا وكان هذا يومئذ في الخامسة عشرة من عمره تقريبا، وقد رشحه السلطان والده لولاية عهده نظرًا لأنه أكبر أولاده، ولعلمه وأدبه، وكفاءته ومروءته ؛ وغضب أخوه محمد، وهبّ مع بعض أنصاره إلى الحمراء، وتنسب الرواية المسيحية إلى سفير مغربي

(41) المصدر نفسه.

(42) انظر حكاية توسيط يوسف الثاني الوزير ابن الخطيب ليكلم والده الغنى بالله في شأن إعذاره «إذ كان قد جاوز سن الاثغار، دون إعذار» نفح الطيب 6 : 27.

(43) الاحاطة 3 : 168.

كان موجودا في القصر دورًا في تهدئة الثائرين وتفرقتهم[44]، ولم تطل مدة يوسف الثاني في الحكم، إذ توفي في 16 ذي القعدة عام 794 هـ (3 أكتوبر 1392)[45]، وأفلح ولده محمد المذكور بالاعتماد على حزبه في الاستيلاء على الملك وإبعاد أخيه إلى سجن شلوبانية حيث ظل معتقلا إلى سنة 810 هـ (1408)، وهكذا أصابته حُرْفَة الأدب الذي كان به حفيا، وبأصحابه معتنيا.

إنّ في ديوان يوسف الثالث قصائد متعددة قالها أيام السجن أو «أيام الوحشة» كما يسمّيها، منها ما هو في رثاء والده، ومنها ما هو في عتاب أخيه، وبعضها الآخر في الحنين إلى غرناطة ومعالمها كنجد والسّبيكة والمُصلّى وغيرها.

فمن النوع الأول قوله من قصيدة :

فإن دمِعَتْ عيناكَ فلتبكِ يوسُفًا   فَذاكَ بموصولِ المدامعِ أجْدَرُ
إمامٌ لـه في الصّالحاتِ تقدُّمٌ   وليس لَهُ في المَعْلُوات تأخُّرُ
تولّى فَوَلّى بعدَهُ الأُنسُ وانقَضَى   فَلاَ أثرٌ إلاّ الأَسَى والتفكُّرُ[46]

وقوله أيضا :

خليلَيّ أيْنَ الصّبْرُ منّا ويوسُفُ   وأينَ أياديهِ الكريمَةُ تُعْرَفُ
وأينَ ليالٍ بالسَّبيكَةِ نِمْتُها   ولا مَنْظَرٌ للدّهرِ نحويَ يَطْرِفُ
علَيّ ظِلالٌ مِنْ عنايةِ يوسُفٍ   ودوني حُسامٌ للخلافةِ مُرْهَفُ
تُباكِرُني تَتْرَى عَوارِفُه ضُحًى   وَيَنْتابُني تَسْآلُه والتعَرُّفُ
فَلا هِمَّةٌ للقلْبِ فيها تَهَمُّمٌ   ولاَ كُلْفَةٌ للنّفسِ فيها تكلُّفُ
وَحاجات نفسٍ لَمْ أُراقِبْ مكانَها   فكانَ لَها مِنْهُ الرّضَى والتّعَطّفُ
لَقَلْبيَ أَوْلى أنْ يذوبَ تفطُّرًا   وعَيْني بِقاني الدَّمْعِ تَهْمي وتَذْرِفُ
تَبَلّدَ فِكْري عندَ فَقْدِيَ يوسفًا   وخامَرَ قَلْبي مِنْهُ ما ليسَ يوصَفُ[47]

(44) نهاية الأندلس : 150.

(45) إسبانيا المسلمة في عهد النصريين : 122 ونزهة البصائر والأبصار للنّباهي.

(46) ديوان يوسف الثالث : 67.

(47) المصدر نفسه : 144.

وهو يعاتب أخاه السلطان محمد في مطولته التي مطلعها :

لَعَلَّ خيالَ العامِرِيّة يخطُرُ بأجفانِ عانٍ قَدْ بَراهُ التّستُّرُ

فيقول :

وقدْ يَحفَظُ المَرْءُ الكَرِيمُ إخاءَهُ ويَلْقَى عليْهِ الموتَ والمَوْتُ أَحْمَرُ
ويصبِرُ لِلأزْماتِ صَبْرَ محافِظٍ وفاءً ليَغْنَى خِذْنُه وَهْوَ مُعْسِرُ
فكَيْفَ بمَنْ أصْفاكُمُ الوُدّ كُلَّهُ ويَدْفَعُ عَنْ أعراضِكم حينَ تذكر
أبوكُمْ أبوهُ دونَ وُدٍّ مضاعَفٍ وعطْفٍ على مَرّ الزمانِ يُكَرّرُ
إذا لَيْلَةٌ بالسُّقْمِ ضافَتْ جُفونَكمْ تبيتُ لها أكبادُه تتسَعّرُ
فَهَبْكُمْ تناسَيْتُمْ ذِمامي فَما الّذي دعاكُمْ لذاكَ القولِ وهو مُزَوّرُ
أأضْمَرْتُمُ غَدْرًا لإظْهارِيَ الْوَفا وأظْهَرْتُم ضدًّا لِما أنا أُضْمِرُ[48]

وهذه المطوّلَةُ تربو على الثمانين بيتا، وهي كما يقول : «من أوليات القصائد التي نظمناها» وقد نفهم من هذا أنّهُ لم يبدأ قول الشعر إلا في السجن وأنّهُ كان من العوامل في تفجير موهبته الشعرية، وعلى كلّ حال، فهو عندما سجن كان في العشرين أو دونها من عمره.

وهو في عتابه يميل إلى اللين حينًا، ويجنح إلى العنف حينا آخر كما في قصيدته :

أعاذِلُ يَكْفيكَ التطاولُ بالهَجْرَ ألا نَفسٌ يَسْرِي يُنَفِّسُ من ضُرّ

وفيها يقول مشيرًا إلى الفرق بين أخلاقه وأخلاق أخيه :

وَما غرّني جهلٌ ولكنْ أُبوّةٌ رعَيْتُ لها حقَّ المكانَةِ والبِرّ
أطارِحُهُ شَجْوي فَيُصبحُ لي شجًا تَعَرّضُ لي بينَ اللّهاةِ أو النَّحْرِ
وأوسعتُهُ حِلْمًا فظنَّ بأنّني رَهِبْتُ وأنّ الحِلْمَ يَصْدُرُ عَنْ ذعْر
يمُنّ بما يُسْدي كأنْ لِيَ حاجَةٌ إلَى وُدّه المَمْقوتِ أو خُلْقِه الوَعْرِ
سيُعْلَمُ مَنْ مِنّا يُسِرّ ندامَةً إذا وَضَحَ الإصباحُ عَنْ صادِقِ الفَجْرِ

(48) المصدر نفسه : 68.

ومن ذا يُرى المَفْوودَ مِنّا إذا غَدا رَهينَ الرّدَى يُقْتادُ بالنّاب والظُّفرِ
إذا لم يكن للمَرْءِ دينٌ مع النّهى فَلَسْتُ إلَى ذاك الإخاءِ بِمُضْطَرِّ(49)

وله في الحنين قصائد رقيقة، ومنها قصيدته التي يقول فيها مشيرًا إلى سجنه :

فإنْ سُدّتِ الأبوابُ بَيْني وبَيْنَكُمْ سَتَقْضي مُنَانَا شَمْأَلٌ وجَنوبُ
فَباللّهِ ياريحَ الجَنُوبِ تأمَّلي أَيُلْقَى سَلامِي مِنْ حَبيبي قَبولُ
وإن جُلْتِ بالحَمْراءِ فاقْرِيْ تَحِيّتي دِيارًا خَلَتْ مِنّي فَهُنّ طُلُولُ
وَهُبّي على القَصْرِ الكَبيرِ عَليلَةً فإنّ بِهِ أهْلَ الْحَبيبِ حُلولُ
وَقُولي : غَريبٌ أتْلَفَ الحُبُّ قلْبَهُ لَهُ أنَّةٌ لا تَنْقضِي وَ عَويلُ(50)

ومن ذلك قوله أيْضًا :

إلَى تاجِ السّبيكَةِ فالمُصَلَّى تُغاديكَ الصّبابَةُ والهُيامُ
إلَى سُكْنَى الأُلَى حَلُّوا بنجْدٍ سَقاهُ — غيْرَ مُفْسِدِه — الغَمامُ
رُبوعٌ عافَها قلبي بكُرْهٍ كَما عافَتْ مواردَها الحَمامُ
تَعافُ بها مُجاورَةَ الأعادي وشاقَتْها المعاهِدُ والخِيامُ
تَقَسَّم جيرتي وصحابَ وُدّي رياضٌ في رُباها أو رِجامُ
ففي أطباقِها أطوادُ عِزٍّ وفي آفاقِها قَمَرٌ تَمامُ
فيا هَلْ يَرْتوي مِنْها صَدائي ويا هلْ يَنْطَفي هذا الأُوامُ
وهَلْ بَعْدَ القطيعةِ مِنْ وِصالٍ وهلْ يُلْفَى لِفُرقتِنا نِظامُ

إلى أن يقول في الّذِينَ لم يرعوا عهدَهُ :

رَعيْتُ عهودَهم فأُضيعَ عَهْدي فَسِيّانِ الإضاعَةُ والذِّمامُ
كأنّي لمْ أكُنْ فيهِمْ جَميعًا وتُفْرِدُني التحيّةُ والسّلامُ

---

(49) المصدر نفسه : 82.

(50) المصدر نفسه : 192.

كأنّي لمْ أكُنْ فيهِمْ وسيطًا ... ولمْ يَكُ مَحْتدي المَلِكُ الهُمامُ
كذلكَ دأبُنا أحْمي وأقْني ... فلاَ مالٌ ولا عِرْضٌ يُضامُ
«أضاعُوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» ... إذا حَلَّتْ بعِقْوتِها الطَّغامُ
«أضاعوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» ... لسدّ الثغْرِ ثلّتهُ اللّئامُ
«أضاعُوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» ... كَنَصْلِ السّيفِ جذّادٌ حُسامُ
«أضاعوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا» ... ليومٍ يُرتجى فيه الجَهامُ

إن هذا الشعر الذي ضمنه الأمير الأسير همومه وشجونه، يخلو من الاشارة إلى التواريخ والوقائع، ولكننا مع ذلك نستفيد منه أنه كان يتتبّع الأحوال وهو في السجن، فقد هزته فاجعة ابن زمرك ورثاه وهو في السجن، ثم كتب فيما بعد كتابة يوضح فيها ظروف قتله وأسبابه، وممّا جاء فيها قوله : «وإن سأل سائل عن الخبر الذي ألْمَعْنا بذكره، وضمّنّا هذا البيتَ فظيعَ أمرِه، فذلك عندما نَسَبَ صاحِبُ الأمر (يقصد أخاه السلطان محمد السابع) إليه ما راب، وتلّه وابنيْهِ للجبين مُعَفّرينَ بالتراب، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يدَيْه يتوسّلُ بآياته، ويتشفّع بعظيم بركاته، فأخذته السّيوف، وتعاورَتْه الحُتوف، وأذْهَبه سَلِيبا قَتيلا، مُصَيَّرًا مِصْراعَ مَنْزِلِهِ كَثيبًا مَهيلا، وكنّا على بُعْدٍ من هذه الآزِفَة التي أورثت القلوبَ شجَنًا طويلاً، وذكّرتنا بعناية مولانا الجد الغني بالله بجانبه أعظمَ ذِكْرى، فأغْرَيْنا برثائه خَلَدًا وفِكْرا»(51).

أما الرثاء الذي أشار إليه فهو قوله :

يَا نائمَ الجَفْنِ أسْعِفْ دائِمَ السَّهَرِ ... يَبْكي دَمًا لِقتيلِ الصّارِمِ الذَّكَرِ
كَمْ ذا الرّقادُ وهذا الدّهرُ يفْجَعُنا ... أما تُفيقُ لِهذا الحادِث النّكُرِ
أوْدى الزّمانُ بمَنْ كُنّا نلوذُ بِهِ ... في حالَتَيْه معًا في العُسْرِ واليُسرِ
فلاَ تثِقْ بِجُفونٍ بانَ ناظِرُها ... ولا بمُلْكٍ فقيدِ السّمْعِ والبَصَرِ
غَمِّضْ جفونَكَ لا تَنْظُرْ إلى أحدٍ ... فليسَ بَعْدَ أُفولِ البدر مِنْ نَظَرِ
واعْجَبْ من الدّهر والأيّام إذ طَمَسَتْ ... مَطالعَ الزُّهْر أو أخْفَتْ شذا الزَّهَرِ

---

(51) أزهار الرياض 2 : 13 ونفح الطيب 7 : 164.

هل كان إلاّ حَيًا يَحْيَى العِبادُ بِهِ ... هَلْ كان إلاّ قذًى في عين ذي عَوَرِ
إن قالَ قَوْلاً تَرى الأَبْصارَ خاشِعَةً ... لِما يُخَبِّرُ مِن وَحْيٍ ومن خَبَـرِ
أَوْ قامَ في مُنْتدًى أَوْ حَلّ فيه حُبًى ... أَراكَ حلمَ ابنِ قيسٍ في تُقى عُمَرِ
يا لَهْفَ نَفسِيَ لَوْ قد كُنْتُ حاضِرَهُ ... غَـداةَ جَرَّعـهُ أدْهَى مـن الصَّبرِ
لَمـاَ تَـرَكْتُ لـه شِلْوًا بِمَضْيَعَـةٍ ... ولا تَوَلّى صَريـعَ النّـابِ والظُّفُـرِ
فإنْ عَدانِي عَنْهُ مَنْ علَيـهِ عَـدا ... فلسْتُ أيأسُ أنْ أُدْعَى بمُنْـتصِرِ(52)

ويقول يوسف الثالث في مقدمة البقية والمدرك : «ولمّا تَبلّج الصّبحُ لِذي عَيْنَيْن، وتَلَقّيْنا رايَةَ الْفَرَج بالرّاحَتَين، عَطَفَتْنا على أبنائه عواطِفُ الشّفَقة، وأطلَقْنا لهُم ما عاثَت الأَيْدي عَليه صِلَةً لِرحِمٍ طالَما أضاعَها مَن جَهِلَ الأذِمَّة، وأَخْفَرَ عُهود تخَدُّمِهِ لِمَن سَلَفَ من الأئِمّة، وصَرَفنا للبحْث والتفتيش وجوهَ آمالِنا، وجعَلْنا ضَمّ ما نثرتْه الحوادثُ من منظوماته مِنْ أَكيد أعمالِنا، وكانَ تعلّقَ مِنْهُ بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه، مشتملة على ما راقَ وحَسُنَ من نِثارِهِ ونِظامه، فأضفْنا إلى ذلكَ ما وقعَ عليه اجتهادُنا مِنْ رِقاعه الْحائِلَة المُنْتَهَبة بأيْدي النّوائب، الدائرَة المسْتَلَبة بتَعدّي النّواهِب»(53).

إن اعتناءَ يوسف الثالث برثاء ابن زمرك، واهتمامُهُ بجمع تراثه، وعَمَلَهُ عَلَى إرضاءِ أولاده وأودّائِه، وإرغامَهُ خصومَه وأعْداءَهُ على تأبينه ورثائِه، هُو إمّا مراعاةٌ لروابط أدبية، أو مجازاة على مواقف سياسية، ولا نستبعد أن يكون ما حدثَ لابن زمرك كان بسبب تعاطفه مع الأمير المعتقل أو دعوته إلى تحريره من السجن.

ومهما يكن الأمر فقد حضرت «العناية الإلهية» وظهرت «الالطاف الخفية» فاستقل من «الخَطْب الكبير» كما يقول، وذلك بوفاة محمّد السابع في 16 ذي الحجّة 810 (13 ماي 1408). وكان هذا قد أمر، وهو في النزع، بقتل أخيه المعتقل، ولما وصل الأمر إلى قائد القلعة صادف الحال أنه كان يلعب الشطرنج مع الأمير، فطلب هذا تأخير التنفيذ إلى إكمال اللعب، وهكذا ربح وقتًا مكّنَ أنصارَه من الإسراع إلى اخراجه من

(52) ديوان يوسف الثالث : 75 ونفح الطيب 7 : 164 وأزهار الرياض 2 : 13.
(53) نفح الطيب 7 : 164 وأزهار الرياض 2 : 13 ــ 14.

السجن وإحضاره إلى الحمراء، حيث «تولّى الملك يوم الأحد السادس عشر لذي حجّة عام عشرة وثمانمائة»[54].

وهكذا اعتلى عرش غرناطة يوسف الثالث الذي كان ــ قبل أخيه ــ أحقّ به، بعد سجن طويل، وعاد، بَعْدَ طَرْدٍ وَإبْعاد، وهو ينشد من قطعة له :

[ثُمّ] عُدْنـا، والعـودُ أحمدُ، لَكِـنْ إنْ أساءوا فإنَّنـــا مُحْسِنونــــا

وقد ابتهج الناس بعودته، وأقبلوا على مُبايعته، يتقدّمَهُمْ علماء الحضرة الذين كانوا يهتفون به لغزير علمه، ورفيع أدبه، وشريف خلاله، ونبيل شهامته.

وتبارَى الشعراء في مدحه وتهنئته بقصائد نجدها في مخطوط «مظهر النور الباصر»، وأولهم «الوزير الرئيس أبو بكر بن عاصم» وهو الفقيد المعروف صاحب «التحفة» و«الحدائق» وغيرهما من المؤلفات، وقد سبق لَهُ أن خلَف ابن زمرك في الوزارة ليوسف الثاني، ولكنّه تخلّى عنها بعد أن اغتصب محمّد السّابع حقّ أخيه ولي العهد يوسف الثالث[55].

ومن هؤلاء الشعراء أبو يحيى ابن عاصم ولد المذكور آنفًا ومؤلف «جنّة الرّضَى» و«الروض الأريض» و«شرح التحفة» ورجل الدولة خلال الأحداث التي وقعت بعد عهد يوسف الثالث.

ــ ومنهم عم هذا الأخير وسميه أبو يحيى ابن عاصم شهيد أنتقيرة.

ــ والشيخ أبو جعفر أحمد بن فركون الذي دخل في خدمة الدولة النصرية مُنْذُ أواخر عهد الغني بالله.

ــ وولده أبو الحسين صاحب هذا الديوان، وجامع «مظهر النّور الباصر».

ــ والشريف أبو العباس الحسني ولد قاضي الجماعة أبي القاسم شارح مقصورة حازم.

ــ وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل مؤلف كتاب «تحفة الأنفس، وشعار سكان الأندلس» وغيره، وقد ألّفه برسم محمد السّابع، وأطنب في الدعاء له في المقدمة

---

(54) ورد هذا التاريخ في رخامة قبره؛ أما قصة الشطرنج فهي مذكورة في المصادر المسيحية.

(55) مقالة لويس سيكودي لوثينا حول أسرة بني عاصم.

والخاتمة، ومع ذلك فقد رفع أكثر من قصيدة إلى السلطان الجديد، وهو يشكو في إحدى قصائده من الإقصاء والإهمال (بسبب ما ذُكر غالبا) :

فَعبْدُكَ يا مَوْلايَ أقصاهُ دَهْرُهُ ... وأهملَه إذْ ظَلّ بالأرضِ يُلصقُ

وبلغ به الإملاق مبلغًا جعلَهُ يقول :

وزنْبيلِيَ المثقوبُ ما فيه مُسْكةٌ ... وأنّى لَهُ الإمساكُ وهْوَ مُمَزّق

ويقول إنّهُ يقبل أي وظيفة مدنية كانت أم عسكرية :

فإنْ لمْ يكُنْ في الاشتغالِ ولايةٌ ... فإنّي أصيلٌ في القيادةِ مُعْرِقُ
ومازلتُ في هذا وذاكَ مُسَخّرًا ... ومُسْتَعْمَلاً في حيثُ أسْمو وأسْمُقُ(56)

ـ والفقيه الخطيب أبو عثمان سَعْد بن يوسف الأُلْيُري، ويبدو من شعره أن بضاعته في الأدب مُزْجاة، ولكنه كان أثيرًا لدى يوسف الثالث، خفيفًا على قلبه، وبينهما مداعبات نثرية وشعرية وردت في ديوان السلطان الشاعر(57) الذي كانت له عناية بخطباء حضرته عامة، وخطيب الحمراء أبي عثمان خاصّة، ونفهم سِرّها من قوله يخاطب «أودّاءه الخطباء وهو مخيّمٌ على جبل الفتح» (جبل طارق) :

فيا خُطباءَ المِنْبَرين بحَضْرتي ... حِماكُمْ يُناجيني بمَحْضِ وِدادِهِ
دُعاؤكُمْ في اليَوْمِ ينصُرُ عَبْدَهُ ... ويَجْزيهِ بالفِردَوْسِ يَوْمَ مَعادِهِ
وَكونوا لفَتْحِ المُبْهَماتِ وَسيلَةً ... لسامِعِ نَجْوى حَيِّهِ وجَمادِهِ(58)

وخاطب أبا عثمان بقصيدة مَهّد لها بقوله : «وَمِنْ عِنايتنا بخَطيب حَمْرائِنا أنْ خاطيناهُ مِنْ ظاهِرِ جَبَلِ الفَتْحِ وَقَدْ وجّهَ إلينا منظومًا فنظَمْنا ما نَصُّه» وفيها يقول :

إذا ما ارْتَقَى ذِرْوَةَ المِنْبَرَيْن ... تَرَفّعَ عَنْ خطإٍ أوْ خَطَلْ
وأنّى يُضاهَى يراعٌ لَهُ ... إذا جالَ جَوْلَةَ شَهْمٍ بَطَلْ
أفادَ الكثيرَ وأهْدَى الخَطيرَ ... فلم يُبْقِ لِلْغَيْرِ إلاّ الأقَلّ

---

(56) مظهر النور الباصر : 143.

(57) ديوان يوسف الثالث : 13، 41، 104 ولأبي عثمان الأُليري ترجمة في برنامج المجاري : 147.

(58) نفسه : 49.

فيا مَنْ أعادَ وأبدى الجَميلَ حديثُكَ تَرْداده لا يُمَلّ
دُعاؤُك أنْفَسُ ما يُقْتَنى لِحِزْبِ أقامَ وَرَكْبِ رَحَلْ[59]

— ومن هؤلاء الذين رفعوا قصائد إلى النّاصر الشاعر الكاتب الفقيه أبو عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بالشرّان صاحب المنظومة المشهورة في الفرائض[60].

— ومنهم أبو القاسم بن حاتم المالقي[61] الذي عيّنه السلطان قاضيا لجبل الفتح، وأبو زكرياء يحيى بن أحمد السراج الرندي، ولهما قصّة مع الدولة سنذكرها فيما بعد.

وثمة أعلام آخرون من المشاركين في هذه الأمداح لم نقف لهم على ترْجمَة، وهم أبو القاسم بن سالم المالقي، وأبو الحسن الغافقي، وأبو القاسم العرادي[61م]، وأبو عامر بن أبي منصور الحسيني.

إن مدائح هؤلاء الشعراء تُصوّر ابتهاج الأندلسيين برجوع الحق إلى نصابه، وعودة الأمر إلى مستحقه، يقول أبو زكريا يحيى بن أحمد بن السراج الرندي :

لمّا تولّى الأمْرَ وهْوَ حقيقةٌ نِعْمَ الأحَقُّ بِهِ وأكْرمُ أهلِهِ
وَجَبَ الهَناءُ على العَبيدِ بمَنْ إذا بَخِلَ الغَمامُ أتَى بِهِ في سَجْلِهِ
جاءَ الوفودُ مُبايعينَ إمامَهُمْ مُسْتَمْسِكين بحِلْمِهِ وبِعَدْلِهِ
وأتَى العَبيدُ مُهنّئين وكُلُّهُمْ قَدْ فازَ مِنْ حظٍّ السّرورِ بكُلِّهِ

---

(59) نفسه : 103.

(60) ترجمة الشران في نيل الابتهاج : 311 وأزهار الرياض 1 : 133 وقد أصبح رئيس الكتاب بعد عهد يوسف الثالث، ووالده «الشيخ الفاضل الماجد الأرفع الاعز الأوْجَد أبو إسحاق» كما وصفه بعضهم، وفي احدى القصائد التي مدح بها الشران يوسف الثالث نراه يشكره ويتوسط لوالده المذكور قائلا (مظهر النور : 160) :

لَقَدْ رِشتمُ في الجاهِ سَهْمِي فانْبَرى لأبْعَدِ نَهْجٍ مِنْ مَرامي رامِيا
وإنّ أبي أرْجوكَ فيهِ فَطالَما وَصَلْتَ بأسْبابِ اقْتِراحِي راجيا
يقولُ بلَغْتُ القَصْدَ يوم غَدَوت مِنْ مَقامِ ابن نَصرٍ لانْفِراجِي راجيا

(61) نقل عنه ابن الازرق في كتابه روضة الاعلام وقال في تحليته : الشيخ الفقيه الاديب البارع أبو القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن حاتم العاملي المالقي الشهير بابن البنّا» روضة الاعلام : 395 مخطوط خ.ع.ر.

(61م) من أسرة غرناطية كان أفرادها أمناء العطارين. انظر الاحاطة 2 : 276.

حلُّوا بساحـةِ بابِـهِ فَجَميعُهُـــمْ ما عاش يَحْمَدُ حُسْنَ عُقْبى حَلِّهِ
فلتهْنــأِ الدّنيـــا ويَهْنـــأْ أهلُهـــا بِحُلولِ ميقـاتِ الظُّهـورِ وفَضْلِـهِ
صُنْعٌ مِـن اللـهِ العَظيـمِ تبلّـجَتْ صُبْحًا يَروقُ سَنّى عجائب فِعْلِهِ(62)

وهي تسهب في الثناء على الملك الجديد، وتطنب في تعداد خلاله وخصاله، وتشير إلى الآمال المعقودة عليه.

كان الملك يوسف الثالث ــ غداة مبايعته ــ في الثانية والثلاثين من عمره، وقد قضى حوالي نصفها في سجن شلوبانية، ويبدو أنّه لم يتزوج إلا بعد خروجه من السجن وتوليه الملك، وفي ديوانه أشعارٌ قالها أيام اعتقاله في الحنين والتغزل، وفيها يذكر بعض الأسماء، ومنها اسم إلينورا الأعجمي، ولكن يبدو أنها مجرد أسماء رمزية، وهو يصرح أن تغزله على سبيل المجاز لا الحقيقة، وينبغي أن يكون زواجه وقع في السنة الأولى من حكمه أي في خلال سنة 811 هـ، ولشاعر البلاط ابن فركون قصيدة فَخْمَة مهّد لها بقوله : «وأنشدتُ في إمْلاكِهِ أيّدَ اللهُ مَقامَه، معَ بِنْت القائِد المَرْحوم أبي يَزيد خالد مَوْلَى النِّعْمَة النَّصْرية، بالرِّياض السّعيد، وقد استَدْعى أشْرافَ أهْلِ الأنْدلس لذلك، وتَضمّنَتْ كثيرًا مِنْ وَصْف الْحال»(63). ومطلع القصيدة :

مـا لِلـرّكائبِ لاَ تُحِـلّ حِلالَهـا وتُطيلُ في تلْكَ الرُّبـوعِ سُؤالَهـا

وفيها يذكر الصّنيع الذي أقامه الملك بهذه المناسبة :

هذا وقَدْ وافَـى صَنيـعُكَ لِلْـوَرى فَمـواهبَ الصُّنـعِ الجميـلِ أنالَهـا

ويصف الاحتفالات الشعبية بهذه المناسبة، على نحو ما وصفها ابن الخطيب وابن زمرك قبله :

هذِي السَّبيكَةُ مَلْعبُ الخيلِ الّتـي ألْـقَتْ بأفئـدةِ العُـداة خَبالَهـا
إنْ جُرّدتْ بيضُ السّيوفِ لغـارةٍ لَبِسَتْ مِن النّقْـعِ المُثارِ جِلالَهـا
فإذا المواكِبُ في مَداها استَشْرَفَتْ مالْلكـواكبِ في السّمـاءِ ومالَهـا
يا حُسْنَهُ حَطَبًا ويـا عَجَبًـا إذا جالَتْ بِهِ خيْـلُ السّبـاقِ مَجالَهـا

(62) مظهر النور الباصر : 152.
(63) الديوان : 11.

وقد خصّص الشاعر قسمًا من هذه القصيدة للحديث عن وفود بني مرين الذين قدموا إلى غرناطة بهذه المناسبة، قال :

وبَنو مَرينَ والتّجِلّةُ شأنُها ... أبْدَتْ لَديْكَ وفودُها إجْلالَها
أهْلاً بِهِمْ مِنْ وافِدينَ رِكابُهُمْ ... حطّت بِمَثْواكَ الكَريمِ رِحالَها
قَدْ أقْبلوا مُتَيَمِّنِين بدَوْلَةٍ ... أحْزابُها نَصَرَ الإلَهُ وَآلَها

ويبدو أن يوسف الثالث احتفل بالمناسبة نفسها بإمْلاك أخيه علي، وهذا ما يفهم من قول الشاعر :

واهْنأْ بِهِ إمْلاكَ عِزٍّ لم تَزَلْ ... تَبْغي سُعودُكَ نَحْوَهُ إقْبالَها
وَلْيَهْنِ تالِيكَ الّذي أوْلَيْتَهُ ... مِنْ أنْعُمٍ مَدَّتْ عليْهِ ظِلالَها
حَتّى تُجَرِّدَ في رِضاكَ صِفاحَها ... يَدُهُ وترسِلَ في الوَغى آسالَها

إذ أنّ تالي السلطان هو أخوه معز الدولة كما يصرّح بذلك الشاعر في قصيدة أخرى إذ يقول (الديوان : 81) :

ورَفَعْتَ قَدْرَ أخيكَ تاليكَ الرِّضَى ... قُطْبِ الرَّحَى الأهْدَى أبي حَسَنٍ عَلِي

أما أبو يزيد خالد الذي تزوج السلطان بنته، وترحم عليه الشا عر، فقد خدم الغني بالله[64]، وكان وزيرًا لوالد السلطان، ثم قتله في ظروف ذكرها صاحب «الاستقصا»[65] وغيره، وهو من علوج النصارى الذين سُبوا وأسلموا، ثم أصبحوا قادة في الجيش وحجّابا، مثل القائد رضوان النصري، والقائد مفرج، والقائد بنّيغش، وغيرهم.

وفي عام 812 هـ رُزِقَ السلطان ببكر أولاده، وسمع أبو الحسين ابن فركون بالخبر، وهو بسقيفة الكتاب، فارتجل قصيدة قصيرة صدّرها بقوله : «ولمّا وُلِدَ لمولانا أيّده الله بِكْرُ أولادِه الذي استأْثَر الله به ثانيَ يوْمٍ منْ عَقيقَتِه، وكانَ مِنْ بنت القائد المعَظّم

(64) انظر قصيدة ابن زمرك التي هنا فيها الغني بالله بمناسبة عودة القائد خالد من تلمسان في أزهار الرياض 2 : 40.

(65) الاستقصا 4 : 81.

المَرحوم أبي يزيد خالِد مَوْلَى نعْمَتِهم الكَريمة في آخر مُحَرّم عامَ اثْنَي عشَرَ وثماني مائة ارتجلْتُ بسَقيفة الكُتّاب ساعةَ الإخْبارِ به :

هنيئًا بِهِ مِنْ عالَم الكَوْنِ وافِـدا وقدْ بلغَ الإسلامُ فيه المَقاصِدا»[66]

وقد احتفل السلطان بعقيقة المولود حسب العادة المُتَّبعَة وسَمّاه يوسف باسمه واسم أبيه، «وفي يوم المَوْسم المشهود، وإجْراءِ عوائِد الكرم والجود، وعقيقة هذا المولود..» قام عدد من الاعلام بإنشادِ قصائدهم في المناسبة، يتقدّمهم الوزير الرئيس أبو بكر بن عاصم، والشريف المعظم أبو العباس الحسني، والشيخ القاضي أحمد بن فركون القرشي، والفقيه الوزير أبو محمد بن مَليح، والقائد أبو يحيى ابن الوزير الرئيس أبي بكر بن عاصم والفقيه أبو الحسن بن هذيل، والكاتب أبو عبد الله الشرّان، والشاعر الكاتب أبو الحسين ابن فركون الذي قدّم لقصيدته في الديوان بقوله : «وأنشدت يومَ عقيقتِه السّادسَ لصَفَر عامَ اثنْي عَشَر وثماني مائة»[67] وهي موجودة أيضا في «مظهر النور الباصر» مع قصائد المذكورين، وكلها تطنب في وصف مستقبل الأمير، وتدعوه بولي العهد، وقد شاء الله أن تموت والدة هذا المولود، إثر ولادته، وأن يَلْحَق بها بعد الاحتفال بعقيقته، فتفجّع السّلطان، وأكثر من الرثاء، «ووفي لعَهْد السَّكَنِ الكريم حقَّ الوفاء»، وجاءَ من أجل مُصابه في ولده «بما لا يحصيه القولُ من الإبداع ولا يحُدّه»[68] وتوجد هذه المراثي في ديوان الملك الشاعر، وفي «مظهر النور الباصر» وفي ديوان أبي الحسين ابن فركون.

وكان السلطان الناصر قد تزوج ــ بعد زواجه من بنت أبي يزيد خالد على ما يبدو ــ بينت قائد آخر كان له ولأولاده فيما بعد ذكر في مملكة غرناطة، وهو القائد أبو السرور مفرج[69]، وهذا ما تدلّ عليه مقدمة قصيدة لأبي الحسين ابن فركون في

(66) الديوان : 22.

(67) الديوان : 23.

(68) مظهر النور الباصر : 64.

(69) انظر رسماً نشره لويس سيكودي لوثينا في مجلة الاندلس 1946 يتعلق بوفاة زهر الرياض بنت أبي السرور مفرج المذكور وزوج السلطان محمد التاسع الملقب بالغالب بالله وكانت وفاتها عام 835 هـ ويفهم من الرسم أنها كانت متزوجة قبله فهل تكون هي أرملة يوسف الثالث هذه أم أنها أخت لها، وفي جنة الرضى ذكر للقائد مفرج بن فتوح الذي كان مكين الحظوه عند محمد التاسع المذكور، وفي النقوش العربية الاندلسية لليفي بروفنسال (ص 174) رخامة القائد أبي النعيم رضوان بن القائد ابي النصر فتوح بن القائد ابي النصر فتوح بن القائد أبي السرور مفرج، وانظر الاخبار التي أشار اليها سيكودي لوثينا حول أسرة مفرج في المصدر أعلاه.

المناسبة تقول : «وأنشدتُ في إمْلاكه أيّدهُ الله ونصَره، ودُخولِه ببنْتِ القائد الوَجيه أبي السُّرور مُفَرّج مَوْلى نِعْمته الكريمة، وقد استْدْعي وُفود أهْلِ البلاد النّصرية لحضُور هذه الوَليمة بالرّياض السّعيد»[70].

ونجد بعد القصيدة التي ذكرنا مقدمتها قصيدة أخرى هذه مقدمتها : «وقلت أهَنّيءُ مَقامه الكريم، ببنْتٍ وُلِدَتْ له، على إثْر وفاة مَوْلود، وبتاريخ يوم السبت الثامنِ لَرَجَب عامَ اثنْي عشَر وثماني مائة»[71].

ولابدّ أن بنت السلطان هذه هي من زوجه بنت القائد مفرج، أما الولد المشار إليه فأغلب الظن أنه يوسف البكر المتقدّم الذكر.

ثم وُلِد للسلطان ولدُه محمّد الذي سيصبح ولي العهد، ويخلفَ والده في الملك[72]. وعندما كان السلطان بمالقة في ربيع الأول عام 814 هـ جاءهُ البشير بميلاد ولده أبي الحسن علي الذي سُمّي باسم عمّه الأثير عند أخيه السلطان، وقد نظم الشاعر قصيدة بهذه المناسبة، قدم لها بقوله : «وقلتُ مُهنّئًا مقامَه الكريم بِولادة السّيّد الأمير أبي الحسن أصْغَرِ وَلَدَيْه الآن، وصلَ الله سعادته، وفي ربيع الأول عام أربعة عشر وثماني مائة وصلَ التعريفُ به من الحَضْرة، والرّكابُ العَلِيُّ بمالَقَة»[73]. ووُلِد للسلطانِ بعد هذا ولدٌ آخر سُمّي باسم عبد الله، وقد نظم الشاعر قصيدة في التهنئة بِهِ جاء في تقديمها : «وفي الموفي ثلاثينَ لِرَجَب عامَ ثمانية عشرَ وثمانِ مائةِ المذكور، وُلِدَ لهُ وَلَدُه عبدُ الله، الذي استأثَر الله به، بعد ذلك بيسير، زمَن الوَباء، فقلت في الهَناء بذلك، مرتجلاً من غير روية»[74].

وفي هذه السنة احتفل السلطان احتفالا كبيرًا جمع فيه بين عقيقةٍ وإعذارٍ وولاية عهد، ونظم الشاعر قصيدة مطولة تشتمل على 136 بيتا، وذكر المناسبة على عادته قائلاً :

«وفي العَشْر الأُخَر لشَهْرِ شَعْبان عامَ ثمانية عشر وثمانِمائة، احْتَفلَ في عَقيقَة ولِده

(70) الديوان : 27.

(71) الديوان : 30.

(72) الديوان : 59 — 60 ولم ترد إشارة الى تاريخ ميلاده.

(73) الديوان : 61.

(74) الديوان : 214.

عبْد الله، وإعْذار أخويْه، وعقْد البيْعة لِوَلّي عهْده، متولّي الأمرِ بعْده، أيّده الله، وأنْعَمَ على الخاصّة والعامّة بما قَدُمَ العَهدُ بمِثْلِه، واستدْعى لذلك أكابرَ أهْلِ البلاد النّصْرية، وآثَرهُمْ برَفيع الثّياب، وفاخِر الكُسا، ونَظَمَ خُدّامُ بابِه منَ الشّعراء في ذلك قَصائد، فأُنشدت بقُبّة الرّيّاض قصيدةٌ أُعْجِبَ بها رَحْمَةُ الله ورضْوانُهُ علَيْه»[75].

وفي هذه القصيدة نرى ابن فركون يصف هذه الألعاب التي وصفها قبله ابن زمرك في إعذارياته، فابن زمرك يبدأ وصفه بقوله :

وصاعـدَةٍ في الجَـوّ مِـلْءَ عِنانِهـا تُسامِتُ أعْنـانَ السّمـا وَتَطـولُ[76]

وابن فركون يفتتحه بقوله :

وصاعِدَةٍ في الجَوّ ألْقَتْ ذيولَهـا فَـراقَ بآفـاقِ السّحـابِ انْسحابُهـا

يذكر الشاعر أن هذا الاحتفال «قَدُمَ العَهْدُ بمثله»، ولعله يشير إلى احتفالات الغني بالله بميلاد أولاده وأحفاده، تلك الاحتفالات التي سجّلها ابن زمرك في قصائدَ جمعها يوسف الثالث، وقد كان حفيد الغني بالله هذا يتشبّه بجدّه في عوائده، ويقتدي به في سياسته الدّاخلية والخارجية كما يقول أبو جعفر ابن فركون :

تَشبّـهَ بالجَـدِّ الرّفيـعِ مَقامُـهُ فأَعْظِمْ بهِ عَزْمًا وأحْسِنْ بِهِ هَدْيا[77]

وكما احتفل يوسف في مناسبات أولاده وجدناه يحتفل أيضا في مناسبات أخَويْه، فقد احتفل بإملاك أخويه : أبي الحسن علي الملقب بمعز الدولة، وأبي العباس أحمد، وفي «مظهر النور الباصر» قطعة رفعها الفقيه القاضي أبو القاسم بن حاتم قاضي جبل طارق إلى السلطان، بمناسبة إملاك أخيه الأمير أحمد يقول فيها :

مَـدَدُ البَحْـرِ للجَـداوِلِ فـاضَا مَـلأَ الصِّنْـوُ مِـنْ نَداكُـمْ حِيـاضَا

إنّ أرْضَ السُّرورِ كانتْ مَوَاتًـا فاستقـامتْ بكُـمْ وعـادَتْ رِيَـاضَا

مَـلِكٌ جَـدّ في مِـلاَكِ أخيـهِ فتَناهـى عَـلاؤُهُ واسْتَفـاضَا

(75) الديوان : 216.

(76) أزهار الرياض 2 : 77 وهذه الالعاب الموصوفة نوع من الاراجيح أو النواعير التي كانت شائعة عندنا الى عهدٍ قريب.

(77) مظهر النور الباصر : 86.

إنّ يومًا تأسّسَ العقْدُ فيهِ   مِنْهُ يَسْتَنْبِطُ النّهارُ البَياضَا
لَيْسَ بِدْعًا مِنْ يوسُفٍ أنْ تَراهُ   قادَ لِلإخوةِ الأماني ورَاضَا
هُوَ أجْرى لَهُمْ عيونَ التحَفِّي   بَعْدَ ما كان فيضُها قدْ غاضَا[78]

ونجد بعض الشعراء يذكرون اسميهما في المدائح السلطانية، يقول أبو جعفر ابن فركون :

وعلِيُّها السّامي العَلاءِ وأحْمَدٌ   يَسْتقبِلانِ العِزّ من سُلْطانِها[79]

وقد كسب يوسف الثالث بهذا محبّة أخويه، وطاعتهما وإعزازهما لدولته، ولم يقع في عهده ما سيقع في العهود التالية من تناحر على الملك بين الاخوة والأقارب[80]. وكان ليوسف تعلق شديد بأخيه علي الملقب بمعزّ الدولة، فعندما توفي هذا رثاه الملك بعددٍ من المراثي التي تذوب كمدا وحسرة[81].

كان يوسف الثالث يحافظ على أبّهة الملك، ويعتني بإقامة رسومه المعهودة، ويحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى بما جرت به العادة، من استقبال رجال الدولة، وإطعامهم وإكرامهم، وتقبل البيعة المجدّدة منهم، والاستماع إلى الشعراء، ويحتوي «مظهر النور الباصر» على القصائد التي أنشدت بين يدي السلطان بمناسبة عيد الأضحى لعام 811 هـ، كما يشتمل ديوان أبي الحسين ابن فركون هذا على العيديات التي نظمها طوال عهد يوسف الثالث في أعياد السنوات الآتية :

— عيد الفطر عام 811 هـ بغرناطة[82].

— عيد الأضحى عام 811 هـ بغرناطة[83]

(78) الديوان : 134.

(79) الديوان : 41.

(80) في المصادر المسيحية أنه سجن ولد عمه محمد بن نصر في شلوبانية، وهذا هو الذي سيتمكن فيما بعد من الخروج من السجن وينتزع الملك من محمد ولد يوسف الثالث ويتلقّب بالغالب بالله، وهو الذي ألف في حقه ابن عاصم كتابه جنة الرضى.

(81) انظر هذه المراثي في ديوان ص 106 و ص 139 و ص 167 و ص 169.

(82) الديوان : 75.

(83) نفسه : 78.

ــ عيد الفطر عام 812 هـ بغرناطة[84]

ــ عيد الأضحى عام 812 هـ بغرناطة[85]

ــ عيد الفطر عام 813 هـ بمالقة[86]

ــ عيد الأضحى عام 813 هـ بجبل طارق[87]

ــ عيد الفطر عام 814 هـ بغرناطة[88]

ــ عيد الأضحى عام 814 هـ بجبل طارق[89]

ــ عيد الفطر عام 815 هـ بمالقة[90]

ــ عيد الأضحى عام 815 هـ بغرناطة[91]

ــ عيد الفطر عام 816 هـ بغرناطة[92]

ــ عيد الأضحى عام 816 هـ بغرناطة[93]

ــ عيد الفطر عام 817 هـ بغرناطة[94]

ــ عيد الأضحى عام 817 هـ بغرناطة[95]

ــ عيد الفطر عام 818 هـ بغرناطة[96]

---

(84) نفسه : 41، 80.

(85) نفسه : 82.

(86) نفسه : 84.

(87) نفسه : 87.

(88) نفسه : 90.

(89) نفسه : 93.

(90) نفسه : 96.

(91) نفسه : 99.

(92) نفسه : 102.

(93) نفسه : 206.

(94) نفسه : 110 ــ 112.

(95) نفسه : 113.

(96) نفسه : 238.

ـ عيد الأضحى عام 818 هـ بمالقة[97]

ـ عيد الفطر عام 819 هـ بغرناطة[98]

ـ عيد الأضحى عام 819 هـ بغرناطة[99]

وتشتمل قصائد الشاعر التي نظمها بهذه المناسبات على إشارات إلى وقائع وأحداث سنذكرها فيما بعد.

وفي هذه الأعياد، كما في مناسبات العقيقة والإعذار التي أشرنا إليها فيما سبق، كان يوسف الثالث، يعتني على الخصوص بتوجيه الدعوة إلى أعضاء المجلس العلمي بغرناطة، جاء في ديوانه ما يلي : «ووَجّهنا ارتجالاً إلى مجْلسِ عُلماء حَضْرتِنا في وَليمَةٍ شَرْعيّة، اتخذنا صَنيعها بالرّياض منْ قُصورِنا، على ماقتَضتْه عِنايتُنا بمَجْلِسِهِمْ، وتَحفّينا بالمزيد منْ تأنُّسِيهِمْ :

يوْمُنـا يـوْمُ صبـاحٍ مُشْرِقِ ... فَأجيبُوا يَا نُجُـومَ الأُفُـقِ
يوسُفِيّا قـدْ أقـامَ سُنّـةً ... نُظِـمَتْ أشْرافُهـا في نَسَقِ
في رِيـاضٍ حُسْنُهـا مُتّجِـدٌ ... شائِـعٌ في مَغْـرِبٍ أو مَشْرِق
وأنَـا يوسُفُهـا مِـن دَوْلَـةٍ ... أُطْلِـعُ الأنْجُـمَ مِـلْءَ الحَـدَقِ
بيْـنَ أبطـالِ جِهـادٍ تَمْتَطِـي ... للْوَغـى غُـرَّ الجيـادِ السُّبّـقِ
ووُفـودُ المُـلْكِ قـدْ حَفّـوا بِـهِ ... دُرَرَ العِقْـدِ وتـاجَ المَفْـرِقِ
بَـذَلَتْ يُمْنـايَ مـا شاءَ النّـدَى ... وعَلَـى اللّـهِ جَـزاءُ المُنْفِـقِ
هـذه ـ يـومَ احتفـال المُنْتَـدَى ... يا حُماةَ الدّينِ ـ أسنى خُلُقِي»[100]

وهذه القطعة أشبه ما تكون بلوحة تمثّل الحفل الذي دعا إليه الملك بمناسبة عقيقة أول مولود له عام 811 هـ، وكان صباح العقيقة مشرقا في ذلك «الرياض» العجيب

---

(97) نفسه : 242.

(98) نفسه : 245.

(99) نفسه : 249.

(100) ديوان يوسف الثالث : 148 ومظهر النور : 9.

من قصور الحمراء، وكان الملك يتوسط المدعوين، وقد حف به قادة الجيش ورجال الدولة، وهو ينثر الهبات على الحاضرين.

2 ــ شخصيته وسيرته :

يُجْمِعُ الشّعراء الذين مدحوا يوسف الثالث على وصف جمال هيئته، وبهاء طلعته، ويذكرون أن اسمه وافق مسماه، وأنه كان بدري الوجه.

وقد ارتجل الشيخ أبو جعفر ابن فركون عندما رآه :

تجلّى مُحَيّاكَ الكَرِيمُ بِهالَةٍ مِنَ القُبّة الغَرّاءِ في أَبْدَع الحُلا
تَرفّعَ يا مَوْلاَيَ وجْهُكَ عِنْدَها فما زادَكَ التّرفيعُ إلاّ تَهلُّلا
فَلَمْ أَلْقَ نورَ الشّمْس إلا تَمثّلاً ولا قَمَرَ العَلْياءِ إلاّ تَخَيّلا
ولَمْ أمْلِكِ النّفْسَ المَشوقَةَ عِنْدَما رَأَتْكَ رؤوفًا مُنْعِمًا مُتَفَضّلا
ولَوْلاَ حَيائي مِنْكَ أَلْقَيْتُ في الثّرى بِوَجْهي ولَمْ أَبْرَحْ لَدَيْكَ مُقَبِّلا[101]

كما ارتجل الشريف أبو العباس الحسني في مثل هذا الموقف :

أقولُ وقد أَبصَرْتُ مَوْلاَيَ جالسًا بكُرسِيِّهِ، والنُّورُ مِنْ حوْلِهِ ٱئْتلَقْ :
تبارَكَ رَبّي بارِىءُ الخَلْقِ كُلِّهِمْ وإنّ الذي أَبصَرْتُ أَحْسَنُ ما خَلَقْ
فَعَوَّذْتُ بالسَّبْعِ المثاني كَمالَهُ وَزِدْتُ لَها الإِخْلاَصَ مَع سورة الفَلَقْ

وقد علّق السلطان أحمد المنصور الذهبي على هذا في النسخة الخطية التي كانت مِلْكًا له بقوله : «لاينبغي لعاقل ان يخرج من فيه، مثل هذا القولِ السفيه»[102].

وأما من حيث شخصيته وأخلاقه، فالمستفاد من شعره، ومن وصف المصادر المسيحية له أيضًا، أنه كان فارسًا نبيلا، مولَعا بركوب الخيل والقنص، وكانَ سياسيا ماهرًا، يميل إلى الرفق بالرعية، ويأخذ بالعفو والصفح، ولو أنه يقول «من باب المداعبة» حسب عبارتِهِ :

---

(101) المظهر : 89.
(102) نفسه : 145.

لايَغُـرنَّكَ مِـنْ طِباعـي سُكـونٌ ومُحَيًّـا يَجـولُ فيـه العَفـافُ
أنـا كالصِّلِّ إنْ لَـمَسْتَ فَلِيـنٌ وَهْوَ سُمٌّ مَتَى أُهيـجَ ذُعَـافُ(103)

وكان — كما رأينا — مثلاً فريدًا في البرور بأخويه وأقاربه، حريصًا على الاعتناء بالعلماء والخطباء، وقادة الجند، ورجال الدولة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى عنايته بخطباء الحضرة، وعلى رأسهم الخطيب أبو عثمان الأُلَيْري، وذلك لما كان لهم من تأثير على الجمهور. أما التفاتاتُه إلى الجند وقادته فيشير إليها أبو جعفر ابن فركون في إحدى مدائحه قائلاً :

ولِلّـهِ في يَـوْمِ السّلامِ التفاتـةٌ إلى جُنْدِهِ تُنْسي رَشيدًا ومَهْدِيّـا(104)

ومن مخاطبات الاعتناء برجال دولته قوله فيمن اسمُه أبو عثمان سعيد — ولعله سفيره سعيد الأمين — :

واشْكُرْ سَعيدًا لِمَا أوْلَى ومَنْ كأبي عُثمانَ إن حَلّ عَقد الأمْرِ أوْ رَبَطَا
فَتًى سَما في سَماءِ العِزّ مَنْزِلَـةً لَوْ رامَها زُحَلٌ من عُلْوِهِ سَقَطَـا
يُصْفِي الوِدادَ ويُولِي الخِلّ صَفْوتَهُ إذا الوِدادُ بِمَذْقٍ شِيبَ أوْ خُلِطَا
نِعْمَ الفَتَى إنْ تركْتُ الأمْرَ في يَدِهِ أرضَى الإلَهَ ولم يَحْفِلْ بمَنْ سَخِطَا
جُزيتَ عنّي أبـا عثمانَ أفْضَلَ مـا يُجْزَى الكَريمُ وَعِشْتَ الدَّهْرَ مُغْتَبِطا(105)

وله في حفظ الود، ورعي العهد لرجال دولته، أشعار عديدة، منها مرثية في مملوك نعمته وصهره القائد مفرج المتوفّى شهيدًا، وفي هذه المرثية المُخَمّسة يقول مشيرًا إليه وإلى من استُشْهِد معه من المجاهدين :

قَضَوْا فِتْيَةً — طَوْعَ الجِهادِ — رئيسَةً حَوَتْ أثَـرًا مَسْموعَـةً وَمَقِـيسَةً
فإنْ أصْبحوا نَهْبًا وعادوا فـريسَةً فمـا بَذَلُـوا إلاّ نُفـوسًا نَفـيسَةً
وَلَمْ يقصِدوا إلا الجَنابَ المُكَرّما(106)

---

(103) ديوانه : 145.
(104) نفسه : 86.
(105) نفسه : 182.
(106) نفسه : 118.

ومن هذا القبيل مخاطباته للشّريف أبي العباس أحمد، ورثاؤه له، ومخاطباته السالفة لأبي عثمان الأُلُيري، ولكاتبَيْهِ أبي الحسين ابن فركون، وأبي محمد ابن جزي وغيرهم.

وقد اكتسب يوسف الثالث بهذا كلّه محبة شعبه ولم تشهد مملكة غرناطة فتنًا في عهده إلا ما كان من انفصال أهل جَبَل طارق عام 813 هـ، وهرج البيازين عام 815 هـ.

وكان يوسف الثالث ملكا حازمًا ويقظًا، ومن مظاهر حزْمِهِ ويقظته، كثرة تنقلاته في مملكته، وفي ديوان ابن فركون قصائد كثيرة تسجل هذه التنقلات، وهي إما تنقّلات لتفقّد أحوال البلاد أو لمعالجة القضايا الطارئة أو للاشراف على تنفيذ خِططِه السياسية أو للنزهة والراحة والصّيد.

وله قطعةٌ ارتجلها في إحدى «حركاته» يقول فيها (ديوانه ونفح الطيب) :

فَعَوَّضْتُها لَيْلَ الصّبَابَةِ بالسُّرى ... وَأُنْس التّلاقي بالحَبيبِ المُفارِقِ

وَلَمْ يَثْنِنِي طَرْفٌ مِنَ النُّورِ ناعِسٌ ... ولاَ مَعْطِفٌ لِلْبانِ وَسْطَ الحدائِقِ

ولاَ مَنْهَضُ الأشبالِ في عُقْرِ غيلِهِمْ ... ولا مَلْعَبُ الغِزْلانِ فَوْقَ النّمارِقِ

وعاطَيْتُها صُبْحَ الدّياجي مُدامةً ... تَميلُ بها الرُّكْبانُ فَوْقَ الأيانِقِ

إذا ما قَطَعْنا بالمَطِيّ تَنوفَةً ... دَلَجْنا لأُخْرى بالجِيادِ السَّوابِقِ

ولعلّ أول خروج له من غرناطة بعد مُبايعته بالملك بقليل هو الذي يسجله الشاعر أبو الحسين في قصيدة صدّرها بقوله : «وَممّا قلتُهُ مُهنّئًا مَقامَه الكريم أيّده الله عند عَودَتِه من الوِجْهة إلى قَرْيَةِ وَادَ متنَزّها.. في التاسعِ والعشرين لربيع الأوّل عامَ أحدَ عشَرَ وثماني مائة»[107]. وَممّا جاء في القصيدة :

بِوادٍ حَلَّ مَوْلاَنَا فَعَمّتْ ... رَكائِبُهُ الغَوائِرَ والنِّجادَا

تَرى كُلاًّ لَدَيْهِ مِنْ يَدَيهِ ... يُراوَحُ بالمَكارِمِ أوْ يُغادَا

لقَدْ شَرّفْتَ مَغْناهُ فقُلْنا ... بحَقٍّ أنْ يَسُودَ ولَنْ يُسادَا

ستُثْني بالّذي أولَيْتَ فيهِ ... بَنُو الآمالِ مَثْنَى أوْ فُرَادَى

---

(107) انظر هذا الديوان : 8.

وقَـدْ أوحَشْتَهـا خَمْـراءَ مُـلْكٍ ... فأبْدَتْـهُ خُلُـوصًا واعتقـادَا

كأنَّ الرُّوحَ قَدْ عادَتْ لِجِسْمٍ ... غَداةَ احْتلّهـا المَوْلَى وَعـادَا[108]

ويبدو من وصف الشاعر للطبيعة في هذا المكان أنه يقع على وادي شنيل حيث القصر السلطاني الذي كان الغني بالله يخرج إليه للنّزهة[109]

وفي عام 811 هـ زار مالقة أول مرة، يقول أبو الحسين ممهّدًا لِقصيدة له بالمناسبة «وممّا صدَرَ عَنّي وقد احتلّ رِكابُهُ العِليُّ بمالقة برَسْمِ عَرْضِ جنْدها، في شعبان منْ عام أحدَ عشر وثماني مائة، وأمر أيّده الله، بإراقة الخُمور، وتغيير المُنْكر، وإذاعة أفعال البِر»[110]، وممّا جاء في القصيدة :

أسَلْتَ دَمَ العُنْقودِ في الله مُظْهِرًا ... لأفعالِ بِرٌّ في الوُجودِ تُذيعُها

لذلك جادَ الغَيْثُ منْها أباطحًا ... بِها زَهْرُ أزْهارٍ جَلاَهـا رَبيعُهـا[111]

وفي مثل هذا يقول الفقيه الخطيب أبو القاسم بن سالم المالقي :

ولَقَدْ غَدَتْ بِكَ «رَيّةٌ» مُرْتاحَةً ... مِنْ بَعْدِ طُولِ تَشَوّقٍ وَغَليلِ

أضْحَتْ بِكُمْ كالرّوضِ باكَرَه الحَيَا ... وهَما علَيْها بَعْدَ فَرْطِ ذُبولِ[112]

وصنيع الملك الناصر هذا في إراقة الخمور، هو كصنيع الحكم المستنصر الذي شكا منه الرّمادي في قصيدته المشهورة[113]. وكصنيع ابن جهور الذي نوه به ابن زيدون في ديوانه[114].

ولمّا عاد السلطان إلى غرناطة، في آخر شعبان المذكور، نَظَم الشاعر قصيدة يهنئه

---

(108) نفسه : 10 ــ 11.

(109) أنظر أزهار الرياض 2 : 122 ويبدو أنّ قرية وادّ المذكورة هي قرية واطّ (أو حصن واطّ) الواردة في مقدمة الإحاطة وخلال ترجمة عبد الملك بن حبيب.

(110) الديوان : 16.

(111) نفسه : 16.

(112) مظهر النور : 166.

(113) جذوة المقتبس.

(114) ديوانه : 34 شرح وتحقيق كيلاني.

بالقدوم على حضرته العلية، ومنها نفهم أنّه كان يقيم في مالقة بالقصر المعروف بالمُحْدَث :

لمالَقَــةٍ حَــقُّ الــتشرُّفُ إذْ لها بناصِرِ دينِ اللّهِ فَضْلُ التقَــدّمِ
وَ«مُحْدَثُها» جادَ الحَيا مَعْهدًا لَـهُ وعَهْدًا كريمًا فيهِ غَيْـرَ مُذَمّــمِ[115]

وقد أشار الشاعر في هذه القصيدة إلى المنافسة بين غرناطة ومالقة في اجتذاب السلطان إليهما تلك المنافسة التي ستكون موضوع مقامة معروفة للفقيه عمر الزجّال[116].

ثم انتقل يوسف الثالث، بعد شهور من تفقد أحوال مالقة، واستعراض جيشها، إلى حصن كان له دوره في حماية مملكة غرناطة، ألا وهو حصن المتلين ــ كذا ــ يقول أبو الحسين ابن فركون : «ولّما احتلّ رِكابُه العلي، بظاهِر حِصْن المُتْلِين ــ كذا ــ، برسْم البناءِ في الزيادةِ بقصَبَتِه، أمر أيده الله، أهل الحضرة بالوصول إليها إدالة... في الثاني والعشرين لجمادَى الآخرةِ عامَ اثنَيْ عَشَر وثماني مائة»[117].

ويبدو أن حصن المتلين الوارد هكذا في الديوان وكذلك في كتاب «جنّة الرّضى» هو تحريف لحصن المُكْلين المعروف الواقع شمال غربي غرناطة ؛ وقد وصف الشاعر المبنى الجديد الذي باشر السلطان أمْرَه بنفسه في قصيدتين، فمما قالَه في الأولى واصفًا عُلُوّ الحصن :

إذا ماعدُوُّ الدّينِ جاسَ خِلالَــهُ ورامَ استراقَ السّمْعِ كَفَّ مَرِيدُهُ
تَمُــرُّ بِـه هُـوجُ الرِّيــاحِ فتَنْثَنِــي وقَدْ سَدَّ مَسْرَاها الرّفيعَ صُعُــودُهُ
تَـرومُ سُمُـوًّا فَوْقَهُ وهْـيَ دونَــهُ فتَــقصُرُ عَمّــا تشتهي وَتُريــدُهُ
دعَوْتَ لَهُ أهْلَ الجِهاد فأهْطَعُـوا كَما زارتِ البَيْتَ العَتيقَ وُفــودُهُ
ودارَتْ حوالَيْــهِ الجنــودُ كَأنَّهــا وِشاحٌ عَلَى خَصْرٍ يَروقُ فريدُهُ[118]

(115) الديوان : 17.
(116) انظرها في أزهار الرياض 1 : 125 ــ 132.
(117) الديوان : 32.
(118) نفسه : 35.

ومما قاله في الثانية ذاكِرًا معدنَ البارود الذي عُثر عليه بالموضع واتّخاذ الأنفاض المزوّدة منه :

وفي مَعْدِنِ البـارودِ أعْظـمُ آيَــةٍ   بَدَتْ فالنُّهى فيهَا يطولُ اعتبارُهـا
نَصَبْتَ بها للنّفْطِ أبْرَاجَهـا الّتـي   يُضاهِي بُـروجَ النيِّـراتِ جِدارُهـا
فَكَيّـفَ مِنْـهُ اللّـهُ لِلْحـربِ عُــدّةً   ففي القَفْرِ مِنْهُ ما إليهِ افتقارُها[119]

وقد ظلّ هذا الحصن المنيع شجًا في حلْق القشتاليين، ويبدو أن بعض أسوار هذا المبنى قد تهدمت في السنوات التالية إذ يخبرنا مؤلف «نبذة العصر» أنه «في التاسع من شهر شعبان عام 890 هـ خرج الأمير محمد بن سعد بأهل غرناطة إلى حصن المُكْلِين لبناء بعض أسواره»[120] فكانت موقعة المكلين المشهورة.

وفي شعبان من عام 813 هـ حلّ بمالقة، ومنها انتقل إلى جبل طارق في شهر ذي القعدة من العام نفسه[121].

وفي 16 لذي القعدة عام 814 هـ، خرج من غرناطة، قاصدًا جبل طارق، ومنه إلى مالقة، حيث ألمّ به مرض كان إبْلاَلُه منه في 16 صفر من العام نفسه، ولم يعد إلى غرناطة إلا في 15 شعبان[122].

ونجده عام 815 هـ في مالقة من جديد حيث يقول أبو الحسين : «ولمّا أطلّ عيدُ الفِطْر من عام خمسةَ عشر وثماني مائة أنشدتُ مولانا، أيده الله، برياض السيّد من خارج مالقة، حرسها الله، وقد تدارك الله الوجود برحمته، واسترسلت الأمطار بعد حلول رِكابِه العلي بها، إثر قَحْطٍ أصابها، وجَهْدٍ عظيم رابَها»[123] ؛ ولمّا كان مُقيما بقصر السيّد من مالقة، وصله مكتوب طويل، من خطيب الحضرة أبي عثمان الأُلْيُري أكثر فيه من تكرار لفظة سيّد، فأجابه السّلطانُ نظمًا ونثرا، وممّا جاء في النظم قولُه مشيرا إلى تكرار كلمة سيّد :

(119) نفسه : 36.

(120) نبذة العصر : 14 ط. تطوان.

(121) الديوان : 50.

(122) نفسه : 55، 57.

(123) نفسه : 96.

وأعَادَ لَفْظَةَ سَيِّدٍ عَنْ سَيِّدٍ   مِنْ سَيِّدٍ حتّى لِقَصْرِ ٱلسيِّدِ[124]

ونفهم من الديوان أن السلطان كان في قصر نُبْلُه خارجَ الحضرة غرناطة عام 815 هـ[125].

ويخبرنا يوسف الثالث نفسُه في ديوانه أنه كان بقصر الحَمّة أول رجب من عام 816هـ[126].

كما يخبرنا أيضا أنه توجه إلى مدينة المنكب أول شهرِ ربيع الأول من عام 818 هـ[127] ويؤكد هذا قولُ أبي الحسين في ديوانه : «وممّا حقُّه أن يُلْحقَ بما تقدّم من قصائد التّهاني اليوسُفية المتقدّمة قبل هذا قصيدة نظمتها في هَناء المولى المنعم السلطان أبي الحجاج الناصر لدين الله رحمة الله عليه ورضوانه وقد احتل ركابه بقصر نُبْلُه خارجَ حضرته آيبًا منْ وِجْهته الأولى إلى المنكّب وشلوبانية بتاريخ اليوم الثامن عشر لربيع الأول عام ثمانية عشر وثمان مائة[128].

وفي عام 818 قضى عيد الأضحى بمالقة ؛ يقول أبو الحسين : «وأنشَدْتُهُ بالقَصْر المُسَمّى بالمُحدث منْ مالَقة في عيد الأضحى منْ عام ثمانيةَ عشر وثمان مائة، وقد اسْتَدْعى فُقَهاءَها وجُنْدَها وأشياخها، لإقامة ما جَرَتْ به العادةُ في حضرته من البَيْعَة والإطْعام، واحتفل في ذلك»[129].

ويقول في موضع آخر : «وَلمّا عَادَ رِكَابُه العلي منْ مالَقة المَحْروسة، اسْتَقَل بقَصْرِ نُبْلُه مُتَلَوِّمًا به أيّامًا للرّاحةِ والصّيد، في يوم الخميس الخامس عشر لشعبان عام تسعة عشر وثماني مائة، وقَدْ أمَرَ جُنْدَ حضرته بتلقّي ولي عهده، وإيصالِهِ إلى حَمْرائِهِ العلية، وعرَّجَ هو إلى حيْثُ ذُكِر»[130].

وقبل هذا التاريخ في جمادى الثانية من العام نفسه نجدُه بوَلْجَر، من سفح جبل شُلّير،

---

(124) ديوان يوسف الثالث : 42.

(125) الديوان : 138.

(126) ديوان يوسف الثالث : 153.

(127) نفسه : 112.

(128) نفسه : 206.

(129) نفسه : 223 — 224.

(130) نفسه : 215.

حيث نرى شاعره أبا الحسين يهنّئه بنجاته من كبوة فرسه به[131]، ويخبرنا الشاعر في موضع آخر قائلا : «ولمّا توفّي أخوه الأمير أبو الحسن علي الذي كان لقبه مُعز الدولة، بالحضرة، وركابه العلي بوَلْجَر، وكان تلك الليلة راحلاً إلى الخَرُّوبة، فَعرّج رحِمَه الله إلى الحمْراء لمُواراةِ شقِيقِه المذكور، وبعْدَ ذلك، خرجنا في العِشاءِ الآخرة إلى قرية هَمْدان، منْ قُرى الحضرة، ثمّ إلى الخَرُّوبة من قُرى مُلْتِماس بعْدَ مرحلتين، فقلت أُعزّيه، على ظهر الفرس أثناءَ الطّريق إلى مرحلَة وادي النّبيل منْ أُحواز الحمّة»[132].

وفي يوم الأحد الثامن لرجب عام 820 هـ أعْمَل رِكابَه إلى قصر نُبْلُه[133].

وفي هذه النصوص أسماء أماكن وهي نُبْلُه EL NUBLO قرية في مرج غرناطة، كان فيها قصر ملكي، تردّد عليه يوسف ثلاث مرات حسبما في الديوان، وولجر : قرية من حوز غرناطة تسمّى اليوم «GUEJARSIERRA» والخرّوبة قرية من قرى ملتماس أو (منتماش) BENTOMIZ وهمدان قرية في مرج غرناطة وَاسمها اليوم AL HENDIN ووادي النبيل : NIVAR.

وكانت آخر سفرة ليوسف الثالث هي سفرته الثانية إلى المُنَكّب، حيث كان على موعدٍ مع الموت، في هذا البلد المجاور لشلوبانية، التي قضى في سجنها زهرة شبابه، ويحدثنا أبو الحسين عن ظروف هذه الرحلة فيقول : «وكانَ رَضيَ الله عنه قد اشتدّ بِهِ المرضُ الّذي قَضَى عليه، وهُو قَدْ شرَع في حركة توجيه السّلْطان أبي يوسُف يعْقوب أيده الله ! وتوجّه على ما بِهِ منَ الألم إلى المُنكّب ليُباشِر بنفْسِه إجازَتَهُ مِنْها، فأنفذَ الله عزّ وجلّ حُكْمه في وفاته، بعْدَ جواز السُّلطان (المَريني) بأربعَةِ أيام فجأةً، وأصْبَحَ ميّتًا يومَ الأرْبعاء التّاسِعِ والعشرينِ لرَمضان عامَ عشْرينَ وثمانِمائة بَعْدَ أن كان أمر بالتأهُّب لإقامةِ ما جَرتْ به العادةُ منْ رسْم العيدِ بالطّعام وغيره»[134].

ثم يقول : «وأسْرَيْنا بِتابُوتِه تلْك اللّيْلة، فوصَلْنا الحَضْرةَ ضُحَى يوْم العيد، ولَم يشعُرْ أحدٌ منْ أهل البلد، لاشتغالِهِمْ بصلاة العيد، حتّى استقرّ الجميعُ بالحَمْراء وعندَ ذلك شَرَعْنا في بَيْعَةِ ولي العَهْد، أيّده الله، ومُواراة المولى المُنعّم، رحْمة الله ورِضْوانه عليْه.

(131) نفسه : 228.

(132) نفسه : 234.

(133) نفسه : 225.

(134) نفسه : 253.

وفي أوّل يومٍ أُجْلِسَ وليّ عَهْدِه بقبّة مشْورِه، حيْثُ جَرتْ عادةُ السّلام قمتُ بين يديه منشدًا هذه القصيدة في هَنائِه بالمُلْك وَرِثاءِ والِدِه قَدّسَ الله روحَه، وبرّد ضريحَه»[135].

إن هذا المرض الذي انتهى به أجل هذا الملك الكبير، هو ثالث مرضٍ اعتراهُ خلالَ سنوات مُلْكِه العشْر حسبما في الديوان ؛ فقد ألمّ به المرض كما رأينا في عام 814 هـ على إثر توجُّهه إلى جبل الفتح، وبقي في مالقة مريضًا بضعة أشهر ؛ وفي عام 818 هـ عاقهُ المرض عن الخروج من غرناطة لمجابهة البرتغاليين الذين أقاموا بالجزيرة الخضراء أيامًا قبل أن يتوجّهوا إلى سبتة، ويصف الشاعر مرضه هذا بأنه «مرضٌ شديد، فُتِحَتْ منْ جِسْمِه فيه مَواضِعُ بالحَديد»[136].

ويبدو أن عقابيل السجن، وأعباء الدولة، وكثرة التنقلات، والتفجّع على الأهل من الزوج والأولاد والاخوة، وما شغل به أيامه من التضريب بين بني مرين، كُلّها كانت وراء هذه الأمراض التي أودت بحياته، وعجلت بوفاته، وهو لم يتجاوز الأربعين إلاّ بقليل.

لابدّ ان ابن فركون سجّل المراثي التي قيلت في الملك الناصر، ولكن هذه المراثي توجد في القسم المفقود من الديوان، وقد وصلتنا مرثية نقشت على شاهد قبره المدروس منذ القرن السادس عشر، وهي تتألف من ثلاثين بيتًا، وأغلب الظنّ أنها من نظم أبي الحسين ابن فركون، ففيها تكرار عبارة «أمّا كَانَ»، وهذه طريقة الشاعر المذكور في عددٍ من قصائده، ولكن خاتمتها لا تخلو من إشكال، فهي تقول :

وإنّ ابنَ نصْرٍ وارثَ المُلْكِ بَعْدَهُ   لأَعْلَى مُلوكِ الأرْضِ أيّدهُ اللّـهُ
هُوَ الغالِبُ الّذي حَمَى المُلْك منْ إتْلافِهِ   هُوَ المُنْعِمُ الأرْضَى وتَلافاهُ[137]

ومحل الاشكال عِبارة «ابن نصر» إذا كانت تعني البُنوّة المباشرة، وكلمة «الغالب» إذا كانت اختصارًا للقب «الغالب بالله».

ومهما يكن الأمر فإن قصيدة أبي الحسين التي أنشدها بمناسبة بيعة السلطان الجديد،

(135) نفسه : 256.

(136) نفسه : 209.

(137) لـ. بروفنسال في كتابه : نقوش عربية في اسبانيا : 172 ـــ 173.

صريحة في أنه ولي عهده محمد الذي لقبه الغرناطيون بمحمد الصّغير، لكونه بويع بالملك، وهو ابن ثماني سنوات، وقد جاءَ في أول القصيدة :

قَضَى نَحْبه مَوْلى المُلوكِ وأعْمَلَتْ ركائبُـهُ حتّـى المَعـادِ تَرَحُّـلاَ
وفازَ ابنُهُ الأرضَى وحافظُ عهْـدِهِ بما حازَهُ من مُلْك آبائِهِ الأُولَـى
على صِغَـرَ السّنِّ استَقـلَّ برُتْبَـةٍ تحَمَّـلَ مِـنْ أعْبائِهـا مـا تحَمَّـلا(138)

وممّا جاءَ فيها قول الشاعر مسمّيا الملك وذاكرًا مكانته هُوَ عند والده :

وحَيُّوْا منَ المَوْلى الإمامِ مُحمّـدٍ كَريمًـا حَليمًـا مُنْعِمًـا مُتَـفضِّلاَ
أمـوْلاَيَ مَوْلاَنـا أبـوكَ أنالَنـي منَ العِزِّ ما سامَ النّجومَ تَنَـزّلاَ
وأوْلَى مِنَ النّعماءِ ما كانَ عاقدًا عَلَيّ بـه عَقْـدَ الـوَلاء مُسَجّـلاَ
وجَرَّرْتُ ذَيْلَ العُجْبِ إذْ كُنْتُ عِنْدَهُ أباهِـي بأمْداحـي جَريـرًا وأخْطَـلاَ
ولَوْ كانَ يُفْدَى بالنّفوسِ وسابَقَتْ لِتَلْقَى المَنايا دونَـهُ كُـنْـتُ أوّلا(139)

وكلام ابن فركون هذا يُمَثِّل نصًّا جديدًا يُصَحح الخطأ الذي وقع فيه عدد من المؤرخين الاسبان المحدثين حول خلف يوسف الثالث، ويؤيّد ما انتهى إليه الأستاذ لويس سيكودى لوثينا من أن هذا الخلف هو ولده محمد الثامن المدعو بالصغير أو EL PEQUEÑO، وليس محمّد التاسع ابن نصر الملقب بالغالب بالله، على أن هذا قام على آبن عمّه، وأفلح في نهاية الأمر بعد أحداث مشروحة في المدوّنات المسيحية من اعتقاله في شلوبانية، والقضاء عليه وعلى أخيه أبي الحسن(140).

كان يوسف الثالث يقدّرُ مسؤوليات الملك، ومع ما رأيناه من عزمه وحزمه، ويقظته وحركته، وقيامه بالواجبات، فقد وجدناه يعبّر عن خوفه من عدم القيام بحقوق الخلائق، وتَمنّى في لحظة من اللحظات أن لو لم يكن ملكًا، قال :

مَنْ ذا يُعامِلُني الخُمـولَ بِجاهِـي مَنْ يشْتَري سَرَفي بِبَعْضِ كَفـافِ

(138) الديوان : 256.

(139) نفسه : 258.

(140) انظر كتاب محمد التاسع ص 47 و ص 51 و ص 149.

مالِي عَلَى هذِي الخَلائِقِ قُدْرةٌ   إلاّ بِمَا عوّدْتَ مِنْ ألْطافِ(141)

وفي هذه القصيدة يشكو ذهاب الوفاء والأمانة والصدق والإخلاص، ويصوّر محنته مع من يعينهم في الخُطط المختلفة، قال :

ذَهبَ الوفاءُ معَ الأمانَةِ مُذْ قَضَى   أخْيارُ قَوْمِي السّادَةِ الأشْرافِ
هَلْ عالِمٌ أوْ شاهِدٌ أو حاكِمٌ   يأْتي الّذي نَرْضاهُ دونَ خِلافِ
قَدْ أُشْرِبوا حُبّ الحياةِ فَهُمْ لِذَا   يَسْعَوْنَ لِلإسْلامِ في الإتْلافِ
كَمْ أسْهَروا الجَفْنَ القَريحَ بِفِعْلِهِمْ   كَمْ أرْسلوا مِنْ دَمْعي الوَكّافِ
ما مِنْهُمْ مَن أرْتضِيهِ لِخُطّةٍ   إلاّ وقابَلَني بِفِعْلٍ جافِ
واهًا لَهُمْ تَرَكوا الانابَةَ جانِبًا   وإنِ انْصِفوا يَأْبَوْا عن الإنصافِ
جاهَدْتُ جُهْدي في سَبيلِ صَلاَحِهِمْ   ورَضيتُ مِنْهُمْ بالمُطيعِ الوافِ
لَمْ يُلْهِني عَنْهُمْ مَحاسِنُ مَنْزِلٍ   وجَميلُ رَوْضٍ رَائِعِ الأوْصافِ(142)

وقد قدّم ذات مَرّة في عام 816 هـ أحد هؤلاء لخُطة من الخطط فلم يصلح فعَزله، وتعصّب له أو تشفع فيه بعض العلماء، وكان قد صدر من هذا المذكور كلام أو شعر سفيه، ومع ذلك عفا عنه الملك، وأقال عثرته إرْضاءً لهؤلاء العلماء، وفي هذا يقول :

يا قَوْمُ لَوْلا حِلْمُ رَبّي لَمْ يَكُنْ   في العَفْوِ مِنّي يَطْمَعُ الأقْوامُ
لا سِيّما مَنْ فاهَ بالسَّفَهِ الّذي   يُدْمي كُلومَ القَلْبِ وهْوَ كَلامُ
شخصٌ يَهيمُ بِكُلِّ وادٍ مِثْلَما   لَعِبَتْ بمَجْنون الحِمى الأوْهامُ
جاءَتْ بِهِ أيامُ دَهْرٍ قَدْ قَضَى   أنْ تَعْدِلَ الآراءُ والحُكّامُ
قَدْ كُنْتُ أعْذِر في السّفاهَة أهْلَها   فاعْجَبْ لِمَا تأْتي بهِ الأيّامُ
ولأَنْتُمْ يا رافِعيها رايَةً   لِلْعِلْمِ نِعْمَ الحِزْبُ والأعْلامُ
صُرِفَتْ إلَيّ قُلوبُكُمْ بِمَوَدّةٍ   يُرْعَى بِها عَهْدٌ لَكُمْ وَذِمامُ

(141) الديوان : 143.

(142) نفسه : 143 ـ 144.

نَظَرَتْ إلَيّ عُيونُكُمْ في يقظَـةٍ تَصِلُ الدّعـاءَ إذا العُيونُ تَنـامُ
لَكُـمُ أُبَيّـنُ مـا قَصدتُ بَيانَـهُ وأقولُ حُكْمـي شأنُـهُ الإحْكـامُ

إلى أن يقول :

فأقَلْتُ من عَثراتِهِ مَـنْ كانَ في مَهْـواهُ قَـدْ زَلَّتْ بِـهِ الأقْـدَامُ
وأقَـمْتُ فَـرْضًا لِلْجَميـلِ وَسُنّـةً فبإذا الوجـودُ تَحِيّـةٌ وَسَلاَمُ(143)

وقد أشار ابن فركون في مقدّمة عيدية أضحي عام 815 هـ إلى «هَرْجٍ وقَعَ بالحضرة من أهل رَبَض البَيّازين وسواهم ممّن تبعهم» ويفهم من قوله في العيدية المذكورة أنهم من الفقهاء، قال :

وإنْ فِئَةٌ لِلدّيـنِ تُنْمَـى وأذْنَـبَتْ لَدَيْـهِ غَـدَتْ مَغْفـورَةً هَفَواتُهـا
فَيَمْحُو الخَطايا حِلْمُهُ وَهْوَ قـادِرٌ إذِ العَفْوُ مِنْـهُ أَمَّلَتْـهُ جُناتُهـا(144)

وكان صبورًا على نوائب الدهر وصروف الزمان، فقد امتحن بوحشة السجن ومثول الموت وفقد الزوج والأولاد والاخوة ممّا جعله يقول :

خَليلِـي مـالي والزّمـان كأنّمـا غَدا بينَنا وِتْـرٌ وهـا هُـوَ طالِبُـهْ
فَمـا الْتـأمَتْ إلاّ عَلَـيّ صُروفُـهُ وَلا اشْتَمَلَتْ إلاّ عَلَيّ نوائِبُـهْ(145)

ولكنّ الأزمات لمْ تؤثّر على ثقته بالرّب المستعان كما يقول :

إذا أزْمَـةٌ شدّتْ عَلَـيْكَ خِناقَهـا وضِقْتَ فَلَمْ تُلْفِ لِنَفْسِكَ مَخْرَجا
فَثِقْ بِرَجاءِ اللـهِ وارْضَ بِحُكْمِـهِ فَكَمْ أزْمَةٍ نَجّاكَ مِنْها وَفَرّجـا(146)

وقد اكتسب من هذا كلّه معرفة بالزمان وقلّة اكتراث بصروفه :

تَغافَلْتُ عَنْ هذا الزّمـانِ وصَرْفِـهِ فَلَسْتُ أُبـالي أيّ حالاتِـهِ تَجْـري

(143) ديوان يوسف الثالث : 115.
(144) الديوان : 99.
(145) ديوان يوسف الثالث : 183.
(146) نفسه : 183.

فَما فِي اللّيالي مَا أُسَرُّ بِحُسْنِهِ ... ولا في رَداهَا ما يَضيقُ بِهِ صَدْري
وَلسْتُ عَلَى شيْءٍ مَضَى مُتَلَهِّفًا ... وَلَوْ كانَ عَيْني في النّفاسَةِ أَوْ ثَغْري
وأَوْسَعْتُ هذا الدّهْرَ عِلْمًا وفِطْنَةً ... وحِلْمًا فَلَسْتُ بالغَرِيرِ وَلاَ الغِرِّ(147)

ونختم هذه الفقرة بأبيات تبين عن عاطفته الدينية، وقد نطق بها بين الضراعة والاستغاثة، ناصبًا يديه إلى الله سبحانه، رغبةً في المطر :

يا رَحْمَةَ اللّهِ ويا عَفْوَهُ ... شَكى لَكَ الإسْلاَمُ مِنْ ضُعْفِهِ
القَحْطُ قَدْ حَلّ بأَرْجائِنا ... وحِلْمُكَ المَرْجُوُّ في صَرْفِهِ
فَلاَ تُؤاخِذْنا بأفعالِنا ... يا مَنْ تَوَكّلْنا على لُطْفِهِ
قَدْ مَسّنا الضرُّ ولاَ حيلَةٌ ... إلاّ لُزومَ البابِ مِنْ خَوْفِهِ
شَفيعُنا التّوْحيدُ يا مَنْ غدا ... المَنْحُ والإعْطاءُ في كَفِّهِ(148)

هذا وقد كان ليوسف الثالث نصيب موفور في البناء والتشييد، وسبق أنْ رأينا عنايته ببناء حصن المكلين وترميم قلْعته، كما رأيناه يتردّد على عددٍ من القصور في نُبْلُه والحَمّة وقرية وادَ في شِنيل وغيرها، ولا بد أن له يدًا في بنائها أو الزيادة فيها.

أما الحمراء فقد يكون الملكَ الثّالثَ بعد أبي الحجاج يوسف الأول، ومحمّد الغني بالله، في العناية بها، والزيادة في مبانيها، وفي ديوانه وديوان شاعره ابن فركون أخبار وأشعار في الموضوع، ففي ديوانه قصيدة نظمها لتُكْتب في إحدى قِباب الحمراء من تشييده، أولها :

يادارُ شُكْرًا للخليفة يوسُفٍ ... فهْوَ الّذي والَى الجميلَ وأنْعَما
وحَباكِ مِنْ «روْضِ العريف» بنَسْمةٍ ... تَرْوي الجوانِحَ مِنْ تَباريحِ الظّمَا

وهي تقع في 13 بيتا(149).

---

(147) نفسه : 183.
(148) نفسه : 145.
(149) نفسه : 114.

وفيه قطعة ارتجلها لترسم في الجهة اليسرى من القُبّة التي أمر بتجديدها وتناهت العناية في تشييدها[150].

وفيه قطعة من نظمه أمر أن ترسم في مبنى جاء فيها :

وأمَامـــــي وقَـــــفَتْ رَبّـــة الثّغْـــرِ البَـــرودْ
خُصّةٌ مُعْجَبَـــــةٌ أخَـــذَتْ أوْجَ الصّعـــودْ
كُلّمـــا تُـــبْصِرُني تَترامَـــى للسّجُـــودْ
خَجِـــلَتْ في مَشْيِهـــا حِيـــنَ ريـــعَتْ بـــالأسودْ
لا تُراعِـــي إنّنـــا في حِمَـــى مَوْلَـــى الوُجـــودْ[151]

وثمّة قطعة رابعة نظمت لترسم في مبنى[152].

وفي ديوان ابن فركون تفصيل وتحديد لتواريخ هذه المباني، قال «ولمّا شرَعَ أيّدهُ الله في إعْلاء المَبْنَى المائِل الآنَ على باب الدّارِ الكبيرة، أمَرَني بنَظْمِ أبْياتٍ تُكْتبُ دائرَةً بالطّبقة الثانية، فقلتُ حَسَبَ ما ٱقترحَهُ مَعْنًى وقافيةً وعَروضا وعدَدَ أبيات، بتاريخ الثاني لشَعْبان عامَ خمسةَ عَشَرَ وثمانمائة»[153]

ومما جاء في هذه القصيدة التي تتألّف من 18 بيتا :

حَلَلْتُ مِنْ بابِ دارِ المُلْكِ مَنْزِلَةً مِنْ دونِها الشّهْبُ في عليائِها تَقِفُ
مَوْلايَ جَدّدَ آثـارى وأكْمَـلَ مـا قَدْ كانَ أغْفَلَهُ من قَبْلِهِ السّلَـفُ
طِيقَانِيَ الغُرُّ مَهما حُـلّ مظهَرُهـا لاَ قَصّرَ إلاّ وبالتقْصيرِ يَعْتَـرِفُ
قابَلْتُ بحْرًا من الصّهْريجِ لُجّتُـهُ كَأنّها مِنْ نَدَى كَفّيْـهِ تَغْتَـرِفُ[154]

ونقرأ في الديوان بعد هذا قول ابن فركون :

---

(150) نفسه : 104.

(151) نفسه : 53.

(152) نفسه : 54.

(153) نفسه : 155.

(154) نفسه : 156.

«وأمَرني كَذلكَ أعْلى الله مَقامه بمَنْظوم يُكتَبُ بطيقانِ الطَّبقَةِ العُلْيا مِنْ هذا المَبْنَى في الخامِسِ عَشَرَ لشعبان عامَ خمْسَةَ عشرَ المذكور، فحذَوْتُ حَذْوَ الأمْر الكريم في ذلك غَرَضًا وَعروضًا وقافيةً وعَدَدَ أبيات»(155).

ثمّ أورد ما كتب في الطاقة الكبرى منه. وهو 12 بيتا. وفي الطاقة الكبرى المشرفة على الحمراء المقابلة للكبرى، 8 أبيات. وفي الطاقة الثالثة التي ليمين الكبرى، 8 أبيات أيضا. وفي الطاقة الصغرى الخامسة 5 أبيات ورد فيها هذا البيت :

إنّمـــا «جنّــةُ العريــفِ» عَــــروسٌ وأنَــا تاجُهــا الرّفيــعُ المُحَــلاّ

وفي الطاقة الصغرى أيضا السادسة، 5 أبيات أيضا. «وفي الطاقة السابعة وموضع الثامنة وهو المدخل للمصنع نظم مولانا أيده الله أبياتا تكتب فيه وثبتت في غير هذا. 5 أبيات كذلك»(156).

ويتحدث عن تجديد قبتين متقابلتين بينهما بحيرة، وفيها خصة، فيقول :

«ولَمّا شرَعَ أيّدهُ الله في تَجْديد القُبَّتَيْن الرّائقَتي الشّكل، خَلْفَ هذه الدّار الكبيرة، وإحياء رَسْمِهما، أمَرَني بنظْمِ أبياتٍ كُتِبَتْ دائرةً في إحْداهُما، وبتاريخ الثامنِ والعِشْرينَ لربيع الأول عامَ خمسةَ عشر وثَماني مائة فقلت» ثم أورد 16 بيتا، منها :

أنـــا قُبّـــةٌ للصّنـــعِ إذْ أنـــا لِلصّنيعَـــةِ مَـــوْضِعُ
قابَـــلْتُ مِـــثْلي فانْثَـــنَتْ في نَيْـــلِ وَصْفـــي تَطْمَـــعُ
وتـــرى البُحَيْـــرَة بيْنَنَـــا مـــرآةَ هِنْـــدٍ تَلْمَـــعُ
والـــخُصّةُ العُلْيـــا بِهـــا كاسٌ بكَـــفٍّ يُرْفَـــعُ
والماءُ في جَنَبـــــاتها مُتَدَفّـــقٌ مُتَدَفّـــعُ
فكأنّهـــا القَـــلْبُ الّـــذي شَمْـــلَ المَكـــارِمِ يَجْمَـــعُ(157)

وممّا يتصل بهذا قوله :

(155) نفسه : 156.
(156) انظر هذه الأشعار في الديوان : 156 ــ 159.
(157) نفسه : 159 ــ 160.

«وبتاريخ الثّاني لرَمضان عام 816 هـ أمَرَ أيّدهُ الله بنظم مقطوعات تُكْتَبُ في طيقانٍ مَحْكية بالجِصّ غير مُفتّحة فقلت» ثم أورد ما كتب في هذه الطيقان الست[158].

ولانشك في أن هذه المعلومات عن الحمراء في عهد يوسف الثالث تحمل شيئًا من الجديد حول تاريخ هذا القصر الرائع الذي ما يزال محطّ الأنظار، وقبلة الزوار.

وقد كان ليوسف الثالث الملك الشاعر ذوق حضاري رفيع تجلّى في اقتراحه أو نظمِه ما يكتب على بعض الأشياء كالقِناع والحائِطِي والقوس والسّيف وغيرها[159].

وتظهر عنايته بهذه الأشياء من هذا النص الطريف الذي يتحدث فيه ابن فركون عن بعض هوايات هذا الملك الشاعر الفنّان، قال :

«وابتدَعَ أيّده الله أقْداحًا حُمْرًا تَتخلّل بعْضًا منْها زُرْقةٌ، وبعضَها بياضٌ، وكُلُّ ذلك مِنْ نوع المُذَهّب المالَقي، فقلْتُ في ذلك، بتاريخ التاسِع لَرجَب الفرد، من عام أربعةَ عَشَرَ وثماني مائة»[160] ثم أوردَ سَبْعَةَ نماذج ممّا نظم لهذا الغرض، كل نموذج يتألف من بيتين، وفي النموذجين الأخيرين نجدُ اسم «المعلم» الذي كُلّفَ بإنجاز هذا الاختراع المَلَكي، ففي أحدهما :

بَبَدائـــع الـــحُسْنِ الّتـــي تُحْيـــي فُـــؤادَ الهائِـــمِ
حَيّـــا الخَليفَـــةَ عَبْـــدُهُ يَحْـــيَ بْـــنُ عَبْـــدِ الدّائِـــمِ[161]

وفي هذا العصر اشتهر الانجبار الغرناطي والفخّار المالقي، وقد حدثنا الرحالة المصري عبد الباسط الذي زار غرناطة بعد هذا التاريخ عن كيزان (أقداح) غرناطة المصنوعة من «الانجبار» ووصفها بأنها «كيزان رقيقة غاية في جودة الصناعة»[162] كما حدثنا سفير خلَفِ يوسف الثالث إلى مصر عن الفخار المالقي والانجبار الغرناطي اللذين أُهديا إلى الظاهر جقمق المملوكي[163].

ومن اختراعات هذا السلطان ـــ فيما يبدو ـــ أنه أمر شاعره ابن فركون بنظم

(158) نفسه : 163 ـــ 164.

(159) انظر هذا الديوان : 151 ـــ 154، 161، 167 وديوان يوسف الثالث : 104، 130.

(160) الديوان : 162.

(161) نفسه : 163.

(162) مجلة الاندلس 1933 ص 315.

أبيات تكتب في سَمَاية اتخذها لاستخراج القبلة، فنظم ثمانية نماذج، كلها تتألف من بيتين، نورد منها قوله :

طلَعْتُ نَجْمًا في سَماءِ اليَدِ يُهْدَى بِيَ الرّائحُ والمُغْتدِي
حتّى ابْنُ نَصْرٍ وهْوَ قُطْبُ الهُدى بالنّجْمِ مِنّي لَمْ يَزَلْ يَهْتَدي[164]

وسماية هكذا وردت في الأصل المخطوط، ويبدو من وصفها في الأبيات أنها اختراع يشبه «البوصلة»، ولم أقف لهذا الاسم على ذكر فيما رجعت إليه من معاجم.

وفي سياق الحديث عن الفنون نشير إلى أن الموسيقى الأندلسية كانت شائعة في عصر يوسف الثالث، واشتهر من اعلامها شخص يدعى المريني، ونسبته تدل على أنّه مغربي ينتسب إلى بني مرين، وقد أشار إليه ابن فركون في قصيدة وصف فيها حفْلة عرس لبعض أصدقائه، وفيها يقول :

وأفادَتْ سَمْعي وَكَفّي غِناءً وَغِنًى راقَني ونَعّمَ بالي
صَوْتُ شادٍ عَلَى تَرنّم عُودٍ يَهَبُ السُّولَ مِنْهُ قَبْلَ السّؤالِ
عُودُهُ ناطِقٌ بغَيْرِ لِسانٍ بِخَفيّ الضّميرِ دونَ مَقالِ
نَغَماتٌ عن «المَرينيّ» تُرْوَى وَهْيَ بالمَوْصِليّ ذاتُ اتّصالِ
ولَكَمْ راقِصٍ يَروقُ انْعِطافًا كَقَضيبٍ في دَوْحِهِ مَيّالِ
طَرَبًا مالَ عِطفُهُ وَتَثَنّى كالرُّبَى في يَدِ الصَّبا والشّمالِ[165]

وهذا «المريني» هو من موسيقيي العصر المريني الذين نعرف منهم ابن الطرّاحة وابن يعقوب وابن أبي ضربة[166].

أما الحركة العلمية والأدبية فقد وجدت في الملك الناصر نصيرًا لها من حيث إنه عالم وأديب وشاعر، وقد عرفنا ممّا سبق أسماء عدد من رجال الأدب والعلم في عصره،

---

(163) مجلة كلية آداب القاهرة، مايو 1954 ص 105.

(164) الديوان : 160 – 161.

(165) نفسه : 197.

(166) انظر المسند الصحيح الحسن : وجذوة الاقتباس : 224، والرسائل الكبرى لابن عباد : 251.

ويكفي أن أذكر منهم ابن عاصم صاحب التحفة، والفقيه الشرّان صاحب الأرجوزة الفرضية، وأبا يحيى ابن عاصم تلميذ الشاطبي وخلَفه في اتجاهه، وابن أبي حاتم المالقي صاحب المقامات الأدبية، وأبا الحسن ابن هذيل ذَا المؤلفات المتعدّدة، وابن فركون صاحب هذا الديوان، وولي نعمته يوسف الثالث موضوع هذه المقدمة، وله كما عرفنا كتاب «البقية والمُدْرَك، مِنْ شِعْر ابن زَمْرَك» بالاضافة إلى ديوان شعره الذي نتحدث عنه باختصار فيما يلي :

تدلُّ أشعار يوسف الثالث وارتجالاته على أنه كان ذا موهبة شعرية، صقلها محفوظ شعري متنوع، يمتد من العصر الجاهلي حتى عصر الملك الشاعر، ويبدو لنا شعره كَنَسيجٍ تشتبك فيه خيوط مختلطة مشرقية ومغربية، وهو ينسج كثيرًا على منوال غيره، ولا تتسع هذه المقدمة لدراسة شعره دراسة مفصّلة ولذلِك سنكتفي بذكر بعض العلامات البارزة في إنتاجه الشعري، وأولُ هذه العلامات : المعارضة والتضمين البارزان في شعره، فمن ذلك قصيدته التي مطلعها :

خَطَرَتْ فـأَزْرَتْ بالـغُصون المُيّـد وَرَنَتْ فَأَوْدَتْ بالغُصونِ المُيّـدِ(167)

فقد عارض بها «طريقة النابغة» — كما يقول — في قصيدته الدالية، وضمّن بيتها المشهور :

بمُـخَضّبٍ رَخصٍ كَـأنّ بَنانَـهُ عَنَمٌ يَكادُ مِـن اللّطافـةِ يُعْقَـدُ

وكذلك قصيدته التي يقول فيها :

يا خليلي لَوْ كُنْتَ تَرْثِي لِمَا بِي(168)

فقد حذا فيها حذو قصيدة لعمر بن أبي ربيعة، وختمها ببيت له معروفٍ تصرّف فيه على هذا النحو :

مَنْ شَفيعي يَوْمَ الرَّسولِ فإنّـي ضِقْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهـا والكِتـابِ

وبنى قصيدَة في النسيب على هذا البيت وضَمّنه في الأخير :

جَنَيْتُ النّوى لاَ عَنْ مَلاَلٍ وَلاَ قِلًى فَمِثْلي بمَـوْصولِ الملام جَديـرُ(169)

(167) ديوان يوسف الثالث : 170 — 171.

(168) نفسه : 10 — 11.

(169) نفسه : 60.

وبنى أخرى كذلك في النسيب على هذا البيت وضمنه، وهو :

تخيّرتُ مِنْ نُعْمان عودَ أراكةٍ لِهِنْدٍ ولكن مَنْ يُبَلِّغُهُ هِنْدُ[170]

وله دالية أخرى استوحى قافيتها من هذا البيت، وضمنه :

ما أبْعَدَ الشّيءَ تَرْجوهُ فتحرَمُهُ قدْ كُنْتُ أحْسِبُ أنّ الصَّبْرَ طَوْعُ يَدي[171]

وفي ديوانه خمْرِيّة دَيْرِيّة، قال إنه نظمها «على وجه المجاز على طريقة أبي نواس»[172].

وعارض قافية للمتنبي مضمّنا عجز مطلعها هكذا :

«عَيْنٌ مُسَهّدَةٌ وقَلْبٌ يخفقُ» هذي تصوبُ وذاكَ دأْبًا يُحْرَقُ[173]

كما عارض داليةً له مضمنا في الختام صدر مطلعها هكذا :

واسْتَعَدْنا حَمْدَ الالَهِ وقُلْنا : «حَسَمَ الصّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأعَادي»[174]

واقتدى بعدد من شيوخ الأندلس الذين وُلعوا بمعارضة غينية تنسب إلى المعري، فعارضها على سبيل المساجلة حسب قوله[175].

كما تابع عددًا من الأندلسيين والمغاربة في معارضة بيتين لابن الجوزي في ذكرى الامام الحسين[176].

ولا تقتصر معارضاته على الشعر المشرقي، فقد عارض أيضا سينية ابن الأبار

---

(170) نفسه : 46.

(171) نفسه : 39.

(172) نفسه : 124.

(173) نفسه : 150.

(174) نفسه : 40.

(175) نفسه : 141 وقد أورد أبو الربيع الكلاعي بعض هذه المعارضات في مؤلفه : المسلسلات : 27 ــ 29 مخطوط ويوجد بعضها الآخر في ديوان ابن الأبار : ورحلة العبدري : 252 ونفح الطيب 3 : 474، 516، 5 : 115 والاحاطة 3 : 22. والكتيبة الكامنة : 61 وعنوان الدراية : 176 ــ 177.

(176) نفسه : 133 ــ 134 وانظر ما قيل في هذا الموضوع في السفر 8 من «الذيل والتكملة» من ص 465 إلى ص 472.

المعروفة[177]، وعارض رائية للرصافي البلنسي[178]، كما عارض أبياتًا لابن عياض صاحب المقامة الدَّوْجية[179]، وأبياتًا أخرى لحمدة الوادي آشية[180].

وقد ضمن قول زهير :

وَهَلْ يُنْبِت الخَطِّي إلاّ وَشيجهُ[181]

وضمن في قطعة له قول ابن وهبون :

وأقـولُ لا شلّت يَميـنُ القاتِـل[182]

وضمّن في أخرى قول عَمرو بن مَعْدي كَرب :

عَذيرَكَ مِنْ خَليـلِكَ مِـنْ مُـرادِ[183]

وضمّن في ثالثة قول العرْجي :

أضاعُـوني، وأيّ فَتًـى أضاعــوا[184]

وضمّن في رابعة قول ابن درّاج :

وفي المَهْدِ مَبْغومُ النّـداءِ كأنـه[185]

وضمّن في خامسة قول الوادي آشية :[186]

وَقلّت حُماتي عِنْدَ ذاكَ وَأنصاري[187]

وقد وجدنا عبد الله بن جزي — وكان من المقرّبين إلى يوسف الثالث — يقول

---

(177) نفسه : 154.

(178) نفسه : 72.

(179) نفسه : 160.

(180) نفسه : 61 — 92.

(181) نفسه : 93.

(182) نفسه : 99 وفي ص 140 : «وأقول لا شلّت يمين القاطع».

(183) نفسه : 110.

(184) نفسه : 109.

(185) نفسه : 16.

(186) نفسه : 62.

(187) نفسه : 62.

في بعضهم مكنّيًا عنهُ بابن فَعْل ولعلّه يعنيه :

لَقَدْ صِرْتَ في غَصْبِ القَصائِدِ ماهِرًا ... فمَالَكَ حَظٌّ في قريضِكَ غيرُ لِي
ولَمْ تُبقِ شِعْرًا لِامْرِىءٍ مُتأخِّـرٍ ... ولم تُبْقِ شِعْرًا يا ابْنَ فَعْلٍ لأوَّلِ
فَشِعْرَ جَريرٍ قَـد غَصَبْتَ ورؤبَـةٍ ... وَشِعْرَ ابْنَ مَرْجِ الكُحلِ وابْنِ المُرَحِّلِ
وإنْ دامَ هذا الأمرُ أصْبَحْتَ تَدّعي ... «قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ»[188]

على أن الشاعرين المفضّلين عنده، هما الشريف الرضي وتلميذه مهيار الديلمي، فقد نظم على طريقتهما في لَفِّ الغزل بالفخر، وحذا حذوهما في النسيب الحجازي، وهذا التيار الشعري ظهر لدى شعراء القرن السادس وما بعده في الأندلس، وقد وجد فيه الشاعر الملك مثلَه الأعلى في الفخر والغزل، وهما الغرضان الغالبان على شعره.

وثمة تيارٌ مشرقي قريب من عهده، ظهر أثره في الأندلس مع ابن الخطيب في بعض مقطعاته، ألا وهو تيار المدرسة الشّعْرية المصْرية، ومن اعلام هذه المدرسة ابن النبيه الذي يجاريه الملك الشاعر في بعض اغراضه[189].

ويظل الشاعر مع ما ذكرناه قريبا من تراث ابن الخطيب الذي ينظر إليه في بعض معانيه[190]، كما أن له موشحاتٍ لا بد أنه تتلمذ في صناعتها على موشحات ابن زمرك التي كان له الفضل في جمعها، وفي جمع شعره على العموم.

والعلامة الثانية في شعر الملك يوسف أنه كان يتخذ الشعر لعبة للتسلية، وتبدو هذه العلامة في إقباله على تشطير شعره وتخميسه، وفي تذييل شعر غيره، كما تبدو في اقتراح مثل ذلك على شاعر بلاطه أبي الحسين ابن فركون، وثمة امثلة عديدة من هذا النمط في ديوانيهما.

والعلامة الثالثة هي توظيفه الشعر في أغراض زخرفية كالقصائد والمقطوعات التي نظمها لتنقش على جدران وطيقان مبانيه في قصر الحمراء، وما نظمه ليكتب على بعض الأدوات الحضارية.

---

(188) الكتيبة الكامنة : 98 ــ 99.

(189) ديوان يوسف الثالث : 18.

(190) نفسه : 22، 38، 14.

وله عدا هذا شعر سياسي سجل فيه الحوادث الوقتية، وهو ذو قيمة تاريخية واضحة كما رأينا.

أما من حيث الشكل فإنّ هذا الشعر يَتّسم بالسّهولة والبساطة والضّعف اللغوي أحيانًا وفي بعض أبياته شيء من الخلل العروضي قد يكن مصدرهُ منْ ناسخ الديوان، وعلى العموم فإن يوسف الثالث شاعر مطبوع ارتجل كثيرًا وأرْسلَ نفسه على سجيتها وقال ما قال غير محتفل، وكان له في أسره وشعره وفخره مثالٌ من أبي فراس كما أشار إلى ذلك في صدر ديوانه. وهو ينزِع مَنْزعه في مثل قوله :

فنَحْـنُ أُنـاسٌ لـيْسَ فينـا تَـوَسُّطٌ فإمّـا لِهُـلْكٍ أوْ لِرِفْعَـةِ مِقْـدارِ[191]

وقد أداه إعجابه بشعره إلى أن يأمر بتدوينه في ديوان استجابة لمن طلب ذلك، قال : «وصدَرَتْ عَنّا ناَشِئاتٌ في حُجور العناية، وَسافِراتٌ عنْ وجوه الحُسْن جاءَتْ من الحُسْن بآية بَعْدَ آية، بين مُطَوّلَة في فُنونٍ تعَدّدَتْ، وبيْن مَقْطوعَةٍ رمَت الشّاكِلَةَ فَأقْصَدَتْ، وعَطَفَنا الإشْفاقُ علَيْها مِنْ أن ينالَها إغفال، أو لا يكونُ لها مَحلٌّ من الاحتفاءِ والاحْتِفال، فَظَهَرَ لنا أن نَعْرِض منها عَلَى مَنْ مَدّ يَدَ الرّغبة إلينا، وأخذَ في حفظِ الشّيء اليَسير يَسْتَفيدُهُ بَيْنَ يَدَيْنا، وأن نُسْعِفَه كِفاءً لرَغْبته وضَراعتِه، ونتقبّلَ عمَلَه على إظْهار المسْتَحْسَن وإذاعته»[192].

ولقد ظل ديوان يوسف الثالث مختفيا زمنا طويلاً إلى أن ظهر في إقليم سوس كما ظهر مجموع «مظهر النور الباصر» الذي يحتوي على جملة من شعر يوسف الثالث الموجود في ديوانه المذكور، ولم نكن نعرف من شعر هذا الملك قبل ذلك إلاّ نماذج محدودة وردت في نفح الطيب[193].

إن شعر يوسف الثالث ـــ بما تضمّنه من تضمينات وتمليحات ومعارضات ـــ يدّل على ثقافته الأدبية، وتبدو هذه الثقافة أيضا في مؤلفه «البقية والمدْرَك، من شعر ابن زمْرَك»، وهي تتجلى كذلك في تعليقاته الأدبية والتاريخية، ومنها هذا التعليق الطريف الذي يكشف عن ظروف تأليف «الاحاطة» لابن الخطيب، وقد وقف عليه المقري في

(191) نفسه : 62.

(192) نفسه : 2.

(193) نفح الطيب 4 : 303 تحقيق د. إ.عباس.

جملة كلام لهذا السلطان، ونقله في نفح الطيب، ونثبته هنا للدلالة على ألمعية هذا السلطان واطلاعه، قال المقري :

«وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله... إلى ما يتعلق بكتاب الاحاطة في جملة كلام نصّه : «وتلقّينا ممّن نثقُ به أن الكاتِب المُجيد الأصيل حَسَبًا، البارِعَ أدبًا، أبا عبد الله ابن جزي، وفدَ على السُّلطان أبي عِنان صاحب المَغْرب، في حدود عام ثلاثةٍ وخمسين وسبْعمائة، فأكْرَمَ جَنابَه، وكَمَّل من تقريبه واصْطناعِه آرابَه، فانتدب إلى ذكْرِ وطَنه الأندلُس وصاحَ بمَنْ عذَلَه :

أيا وَيْحَ الشَّجِيِّ مِـنَ الخَلِــيِّ

وبرع غايَةَ البراعة في التاريخ الذي جَمَعَه، ورفعَ رايةَ البلاغة لِما كَلِف بِهِ ووَضَعَه، فلم يكنْ شيءٌ من الكلام إلاّ قال : الاحسانُ وأنا معَه، استوْعَب ما شاء، وأبدعَ في كلّ ما نقل سواءٌ كان شعرًا أو إنشاء، لكنّ سابقَ أجلِه، منَع من الامتناع بمُجْمَلِه ومُفَصَّله، وجاءت الحادثةُ العُظْمى من وفاةِ مَولانا والِد جَدّنا أمير المسلمين أبي الحجّاج في غرة شوال مِنْ عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فعُيِّن لتعريف صاحِب المغرب بالكائِنة، خاصُّ الدولة، ورئيس الجُمْلة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب، فوقف منْ تاريخ ابن جُزي على شاطىء نَهْر فيّاض، وانتشَقَ منْ ورقاته أزاهِرَ رياض، وحمَلَه النظر في بدائعه عَلى أنْ يأخذ في جمْع كتابه المسمّى بالإحاطَة، فيما تَيسّر مِنْ تاريخ غرناطة، ووجد لذلك موجِبًا أغْراه بجمعه، وهو أنّ الشّيخ الحُجّة الشّاعر المُفْلِق أبا إسحاق ابن الحاج وفَدَ على الأندلس، بعد جَوْبه في الآفاق، وتَرَحُّله إلى ما وراءَ الشامِ والعراقِ، واعلامه أنّهُ يذْهب في بداْة تاريخ مذْهَبَ ابن جُزي وغيره، وكانَ وحيدًا في فنون الآداب، والمساجَلَة لأعلام الكُتّاب، وبحكْم الاتفاق على إثْر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسُّلطان أبي عنان، وجد الحاجب الخطير أبا النّعيم رِضْوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم منْ ذلك المُسَمّى، بأن أقنعَهُ دونَ طُموحِه إلى عادته من المَرْقَب الأسْمى، فأنتج الانتباذُ من تلك الرّياسة الخطيبية أن ألْغَى الخُطّة على جلالَة مِقْدارِها، وتَوَضُّح أنوارِها، في مُرْتقى إجلالِها وإكْبارِها، وأخذَ في تأليف الاحاطة مستدعِيا تصحيح الموالِد والوفيات، والأسْماء والمُسَمّيات، ومستكثِرًا مِنْ طُرف المصنّفات، ليتِمّ قَصْدَه من الإطْناب، ونقْله العيونَ الرّائقة منْ كلّ كتاب، وألْقَى جميعَ مَقاصِدِه، والمُعْظَمَ منْ تنظيم فرائِده، بيدِ الشّيخ العُمْدة مُعلّم الجُمْلَة مِنّا كتابَ الله وسُنّة رسولِه ﷺ أبي عبد الله الشّريشي، قدّسَ الله ضريحه، وهذا الشيخ الذي لم يجاوز

سنّ الكُهولة في ذلك الوقت، هو الذي تولّى من المبيضات نقلَه، وأحْكَمَ جنسَه وفَصْلَه، واختَم على مجلّداتٍ ستّة، ولمّا عاد ابنُ الخطيب إلى الاندلس بعَوْدة جدّنا الغني بالله تعالى إلى مُلْكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروعُ من كِتاب الإحاطة بالأصول، وأُنجز من التبحّر فيه الوعدُ المَمطول ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتمّمة من اثني عشَرَ سفرًا»[194] .

أتينا بهذا النص على طوله لدلالته على ثقافة يوسف الثالث واطلاعه على خبايا الأمور، وفيه كذلك دلالة على أسلوبه، ولا يماثل هذا النص في طرافته إلا المقدمة التي وضعها بين يدي مجموعة «البقية والمدرك، من شعر ابن زمرك»[195]، وقد حلّل فيها أسباب محنة هذا الشاعر الوزير، وكل ذلك يضع الملك الناصر بيْن الصفوة من أهل الأدب والعلم في عصره.

3 ـ علاقات يوسف الثالث بالممالك النصرانية

تراوحت سياسة يوسف الثالث تجاه قشتالة وأرغون بين الحرب والسلم والمجاهدة والمهادنة، فقد اعتلى عرش غرناطة في أعقاب هدنة عقدها سلفه مع فرناندو عم ملك قشتالة خوان الثاني والوصي عليه والذي سيصبح ملكا على أرغون أيضًا وهوَ يُدْعى في شعر الملك يوسف وشعر شاعره ابن فركون بالإفنت AL INFANTE ومعناها الولد، وهو اصطلاح أندلسي مغربي يطلق على المرشح لوراثة الملك.

كان هذا الإفنْت قد استولى قبل الهدنة على بعض الحصون كحصن الصخرة ZAHARA في ناحية رندة. ولما بويع يوسف الثالث كان أول ما باشره هو أمر الهدنة، وتقول الرواية المسيحية إنه وجّه لهذا الغرض عبد الله الأمين سفيرًا إلى بلاط قشتالة، ووقع الاتفاق على هدنة تمتد إلى فاتح أبريل 1409م ثم زيدت إلى متم غشت من نفس السنة، ثم إلى فاتح ابريل 1410م، ولكنها كانت هدنة على دخن، لأن المسلمين انتهزوا فرصة سانحة فزحفوا على حصن الصخرة واستباحوه وقضوا على حاميته وبهذا نقضت الهدنة[196].

(194) نفسه 7 : 107 ـ 108.

(195) انظرها في أزهار الرياض 2 : 11 ـ 12 ونفح الطيب 7 : 162 ـ 170.

(196) تاريخ اسبانيا المسلمة في عصر بني نصر للسيدة أريبة ص 127.

وأما الرواية العربية في هذا فنجدها في هذه الاشعار التي قيلت في تهنئة السلطان بمناسبة اعتلائه العرش، وفي المناسبات التي تلتها. وهي تشير إلى قضية الهدنة وتلمّح إلى تعدّد الرأي فيها، فالفقيه الشاعر ابن السراج الرندي يعبّر عن رأي الدّاعين إلى الجهاد. فيقول في مدح السلطان :

خَفقَتْ بِمَيْدانِ الجهادِ بنودُهُ   واسْتَرسَلَتْ فيهِ سَوابِقُ خَيْلِهِ
رُمِيَ الضّلاَلُ بنافِذٍ منْ عَزْمِهِ   وَدَمُ العِدَى بِمُبيحِهِ ومُحِلّهِ

* * *

ولسَوْفَ يَفْتَحُ واثقًا من رَبّهِ   كُلَّ البِلادِ بِعَوْنِهِ وبِحَوْلِهِ
ويُبِتّ شَمْلَ الكُفْرِ سَيْفُ جِهادِهِ   حَسْمًا لِكُثْرِ فَرِيقِهِ وَلِقُلّهِ
ويُجيلُ خيلَ اللّهِ تَمْرَحُ مِثْلَما   غَرَضَ الفُتوحِ يُصيبُ صائِبُ نَبْلِهِ
فَهُبوبُ ريحِ النَّصْرِ آنَ أوانُهُ   وَوُصولُ وَقْتِ الفَتْحِ دانَ بوَصْلِهِ
حكَمَتْ ميامِنُهُ بِعِزٍّ جُنودِهِ   وقَضَتْ بِهونِ عَدُوّهِ وبذُلّهِ
يا صُقْعَ أنْدَلُسٍ حَييتَ بناصِرٍ   للدّينِ والدُّنْيا مُجَرّدُ نَصْلِهِ
مَطَلَ الزّمانُ بوَعْدِ نَصْرٍ بُرْهَةً   فأتَى بِهِ مُسْتَغْفِرًا مِنْ مَطْلِهِ
لاَ غَرْوَ أنّ الشّرْكَ أُنْذِرَ حِزْبُهُ   بِمُبيدِهِ ومُبيرِهِ ومُذِلّهِ(197)

والشيخ أبو جعفر ابن فركون يرى أن الحالة الداخلية في قشتالة يومئذ مواتية لإعلان الجهاد، ويترك الاختيار للسلطان في المبادرة أو التمهل ريثما يُجْمع أمْرَه :

قَد فَتَّ في عَضُدِ «الإِفَنْتِ» وَحِزبِهِ   فِتَنٌ تُثَلُّ عُروشَهُ وتُصَوّحُ
لاَ تُخْشَ عَزْمَتُهُ وَلا زُعَماؤُهُ   فالرّأْيُ مِنْهُمْ هادِرٌ لاَ يُلْقِحُ
ما مِلّةُ الإسْلامِ يَسْلَمُ مُلْحِدٌ   مِنْ بأسِها كَلاّ ولا مُسْتَفْتِحُ
فالسّابقاتُ لَقَدْ أقَرّ عيونَها   مَرْمًى إلَى الفَتْحِ المبينِ ومَطْمَحُ
والسّابِحاتُ ومَنْ بها لَكَ أجْرُها   فَمُهَلّلٌ أثْناءَها ومُسَبّحُ
لا كنْ إذا بادَرْتَ أوْ أمْهَلْتَها   فَلِمُلْكِكَ الرّأْيُ الأصيلُ الأرْجَحُ

(197) مظهر النور الباصر : 141.

أوَيَقْتضي العَقلُ الحَصيفُ قَضِيّةً فبِكَ المَعاقِلُ تُستَباحُ وتُفْتَحُ

ويكرّر هذا المعنى في القصيدة نفسها إذ يقول :

لأكنْ إذا أرجأْتَ عَزْمَكَ بُرْهَةً فَظُباكَ تجمَعُ كُلَّ طاغٍ يَجْمَحُ
كالْبَحْرِ يُمْسِكُ لُجَّهُ فإذا ارْتَمَى لاَ البَرُّ يَسْتَعْصِي وَلا يتَنَزَّحُ
إنْ رَجَّحوا يَوْمًا مُهادَنَةَ العِدى فوزانُ رأيك في جِهادِكَ أرْجَحُ[198]

ويقول في قصيدة أخرى :

والسِّلْمُ إن جَنَحَت لَها هِمَمُ العِدَى فالحَربُ تؤذنُ باقْترابِ أوانِها
لا يَسْكُنُ الرّوعُ المُلِمّ بأرْضِهِمْ حَتّى تَرى الإسلامَ منْ سُكّانِها[199]

ويشير الوزير أبو بكر بن عاصم إلى نية السلطان في هذا الأمر فيقول :

واخلصْتَ للّه الجهادَ فأصْبَحَتْ بلادُ العِدَى مِنْ خَوْفِ بَأْسِك ترجُفُ
ورُعت قُلوبَ الرّومِ قَبْلَ قِتالِهِمْ فليْسَ لَهُمْ عَنْ مطْلَبِ السِّلْمِ مَصْرِفُ
فَما نومُهُمْ بالذعْرِ إلاّ تَهَوّمٌ ولاَ شأنُهُمْ في الدّهْرِ إلاّ تَخَوُّفُ
فَكَيْفَ إذا قُدْتَ الجُيوشَ لأرضِهِمْ تُزَلزِلُ منْها ما اطمَأنّ وتَنْسِفُ[200]

أما أبو الحسين ابن فركون ولد السابق الذكر، فهو يميل إلى سياسة المهادنة، وينصح السلطان بقبول الهدنة المعروضة عليه من قبل الروم، يقول :

تأتي وفودُ الرّوم تخْطُب سَلْمَهُ فيكُفُّ كَفَّ القادِرِ المُتَعَفِّفِ
وَوَلِيُّهُمْ يَخْشَى — فَيُرْدف رُسْلَهُ — إرْسالَ جَيْشٍ بالمَلائِكِ مُرْدَفِ
أعِرِ الجوابَ بِها عَلَى ظَمإٍ لَها تَنْقَعْ جَوَى المُتَشَوّقِ المتشوّفِ
واجْنَحْ إليْها مُنْعِمًا مُتَفضّلاً لا زِلْتَ أكْرَمَ واهِبٍ مُتَعَطِّفِ[201]

(198) نفسه : 92.
(199) نفسه : 40.
(200) نفسه 75.
(201) نفسه 61.

وأخيرًا نجد السلطان يوسف الثالث نفسه يعلن رأيه في الموضوع، ويعبّر عن ميله إلى الجهاد، ولكنه يتحسّر على ما آلت إليه أحوال الثغور من إهمال، وما أصبح عليه الناس من فساد وانحلال، وبخل بالنفس والمال، فيقول :

لهْفُ نَفْسي عَلَى الثُّغورِ تَخَلّتْ   فَهْيَ صِفْرٌ مِنَ الكُماةِ الحُماةِ
وَأُناسٍ عَلَى المَعاصي جِهارًا   قَدْ أباحُوا حَريمَنا لِلْعُداةِ
لَسْتُ لِلصِّيدِ مِنْ خَلائفِ نصْرٍ   يَوْمَ أهْنا بِسِلْمِ تِلْكَ العُتاةِ[202]

ثم يقول من قصيدة أخرى :

وإنَّ «إفَنْتَ الرّومِ» يَنْقادُ خاضِعًا   كَما انقادَ مِنْ بَعْدِ الإباءِ جَموحُ
سَيَرْضَى بِحُكْمِ السَّيْفِ مِنْهُ مُسَوِّفٌ   ويَسْمَحُ بالمالِ العَريضِ شَحيحُ
وذلكَ سَهْلٌ في مَشيئَةِ قادِرٍ   يُنيلُ مَرامًا مُرْتَجًى ويُتيحُ
أمّا نحنُ ــ واللّهُ العَليمُ بقَصْدِنا ــ   نُهَجِّرُ في نَصْرِ الهُدى وَنُريحُ
بأفئِدَةٍ لا يسْتقِرُّ قَرارُها   وهَلْ بمُثارِ النقْعِ تَهْدَأُ ريحُ
يُصَرّحُ مَلكُ الرّوم جَهْدًا بصُلْحِهِ   وبُرْهانُ مَقْصودي لَدَيْهِ صَريحُ
وهَلْ لي إلى غَيْرِ الحُروبِ تطلّعٌ   وهَلْ لي إلى غَيْرِ الجِهادِ طُموحُ[203]

وإذا كانت المدائح تقتضي بطبيعة الحال أن يكون «الإنْفَنْتِ» هو الطالب للهدنة، كما رأينا، فإن شِعْر الملك يفهم منه أن «الإنفنت» تلكّأ في الاستجابة لطلب الهدنة أوّلاً، ثم انقاد بَعْد إباءٍ، ولكنها كانت «هدنة على دخن» كما يقول المثل، فالملك الناصر كان يطمح إلى الجهاد، ويأمل أن يسمح الناس بالمالِ العريض الضروري لإعداد العُدّة والعَدَد.

ويبدو أن عدم انقياد فرناندو لطلب الهدنة المشار إليه في شعر يوسف الثالث، كان خلال حصار أنتقيرة، فالرواية المسيحية تقول إنّه طلب بواسطة سفيره سعيد الأمين من فرنندو هدنة لمدة سنتين، وحاول شراء انسحاب المسيحيين بأي ثمن، ولكن هذا أبى

---

(202) ديوان يوسف الثالث : 5.

(203) نفسه : 21 ــ 22.

أن ينقاد لذلك.[204]

وأما ما يشير إليه ابن فركون من توارد الوفود النصرانية على بلاط الناصر فلعلّه كان بعد واقعة أنتقيرة، وذلك عندما شغر عرش أرغون واحتاج فرناندو إلى بعض الوقت لِيُتِمَّ أمر الاستيلاء عليه، فأرسل دييجو فرنانديث القرطبي سفيرًا إلى غرناطة لطلب الهدنة.[205]

إن ديوان ابن فركون وديوان الملك يوسف يقدمان لنا أخبارًا وأشعارًا في الموضوع نعرضها حسب تسلسل تواريخها، يقول ابن فركون :

«ولمّا دخلَ المُسْلمون منْ أهْلِ رُنْدةَ صَخْرةَ عَبّادٍ ــ أعادَها الله ــ واسْتأصَلُوا مَنْ وجَدوا بها قَتْلاً وَإسارًا إلاّ قليلاً منهم اعْتصَموا بقَصَبتِها، وورَد البشيرُ بذلكَ، قُلْتُ أُهَنّيءُ مَقامَه الكريم لِلْحين، وهيَ من المُرْتجلات، في يوم الأربعاء الرّابع عشر لذي الحِجّة عامَ اثنَيْ عشَرَ وثماني مائة»[206].

وقد كان هذا «بكْر الفتوح» حسب تعبير كلّ من الملك يوسف في ديوانه وشاعره أبي الحسين الذي وصف «الصّخرة» الشمّاء، واجتياح «جند الله» لها ثم قال :

وإنّ «إفَنْتَ» الرّوم يجْهَدُ كُلّما أراهُ المَقامُ اليوسُفيّ جِهادَهُ
وكان وَلِيُّ الشرْكِ وَافَى مُطاوِعًا هَوًى ساقَهُ نَحْوَ الهَوانِ وَقادَهُ
فَفازَ بِها طَوْعًا، وحَلّ بأُفْقِها وأَلْقَى لَدَيْها ذُخْرَهُ وَعَتادَهُ
وسارَ إلى أوْطانِهِ وَهْو ظافِرٌ لَها لاَ إلى الأُخرى يُرَجّي مَعادَهُ
وكانَ إليها الآن يأتي بزعْمِهِ يُريدُ ويأْبى اللّهُ إلاّ مُرادَهُ
غَدا جاهِدًا قَدْ شفّهُ لاَعِجُ الصّدى يُؤَمّلُ فيها وِردَه وَمَرادَه
يَقودُ لَها جَيْشَ الضّلالَةِ قاصِدًا فَجَلاّهُ المِقْدارُ عَنْها وَذَادَهُ
إلَى أنْ أتَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٌ فَجَدّ وأبْدَى عَزْمَهُ وأعادَهُ[207]

---

(204) تاريخ اسبانيا المسلمة في عصر بني نصر للسيدة أربية : 128.

(205) المرجع نفسه.

(206) الديوان : 46.

(207) نفسه : 27.

ويقول يوسف الثالث في المناسبة نفسها من قصيدة له في الموضوع :

لئِنْ فاتَ في أمْسِ فَناءُ «إفنْتِهِمْ» سيَلْقى غدًا رِجْزَ العَذابِ أليمـا
وسُحْقًا لَهُ حيْثُ آستخفّتْ حُلُومُهُ ولَمْ يَرْجُ فَيّاضَ الهِبـاتِ حَليمـا
ولمْ يتّخذْ للصُّلْحِ مِنْهـا وَسيلَـةً يُرَضّي مَسيحًا قَصْدُهـا وَكَلِيمـا[208]

وكان رد الفعل هو زحف النصارى بقيادة «الإنفنت» فرناندو، وقد نزلوا على ثغر «أنتقيرة»، وحاصروه من جيمع الجهات، وظل الحصار من شهر يونيو إلى شهر سبتمبر 1410م، حِينَ وجدوا ثلمة في السور دخلوا منها[209]، وقد دافع أهل البلد، والمجاهدون من أهل غرناطة، وفيهم الشهيد أبو يحيى بن عاصم، ويقصّ علينا ابن أخيه وسميُّه أبو يحيى ابن عاصم ظروف استشهادِهِ قائلاً :

«فُقِدَ يومَ المُناجَزة الكُبْرى بظاهر أنتقيرة الجاري على المُسلمين فيها التّمْحيص العَظيم، صابرًا محتسبًا، رابط الجأش، ثابت القدَم، وفي ذلك الموقف الصّعب ـــ وقد طاشت الأحلام، ودُهِشت الأعْلام ـــ عَرَض عليه بعضُ منْ معه التحيّز بعدَ الوصول لِلْمحلة [التي] انكشف عنها المُسْلمون، وهو من غير تُرْس، فأبى ذلك، وقال له : لا يجوزُ لهم تجاوز محلّتهم، إذ هم الفئة المتحيز إليها، فتركه وأقبل بوجهه على الكَفَرة القاصدة له، يدافعهم بجَهْده، ورماحُهُم تَنوشُهُ، وانصرف عنهُ الحاكي، فكان آخر العَهْد به، وذلك في صدر المُحرّم عام ثلاثة عشر وثمانمائة»[210] وقد دافع أخَوَا السلطان أبو الحسن علي وأبو العباس أحمد خلال هذه المناجزة الكبرى ما وسعهم الدفاع، ولكن قضاء الله نفذ، فسقطت أنتقيرة في يد المسيحيين[211].

---

(208) نفسه : 122.
(209) تاريخ اسبانيا المسلمة في عهد النصريين للسيدة أرية ص 128.
(210) نيل الابتهاج : 285. وفي النص بعض اضطراب في الأصل، وفيه إشارة إلى آية «وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَه» الآية.
(211) تاريخ إسبانيا أعلاه ص 128 ـــ 129.

وفي ديوان يوسف الثالث تخميسٌ نظمه عند «نزول العدّو على ثَغْر أنتقيرة» نراهُ يتهم فيه بعضهم بالتهاون، وعدم الصدق في الدفاع، قال :

وَيَا عَجَبًا مِنْ تاركٍ حَقّ رَبِّهِ تُعُرّفت البَغْضاءُ مِنْ كُنْهِ حُبِّهِ
فَلَمْ ينتشِقْ رَوْحَ الرضا مِنْ مَهَبِّهِ ومهْما دَعا داعي الهُدَى لَمْ يُلَبِّهِ
فأنّى لَهُ بالفَخْرِ والفَوْزِ بالأَجْرِ

* * *

أقَمْتُ عَلى سَهْلِ الأمورِ وصَعْبِها مُعِدًّا أوانَ السِّلْمِ أوْزارَ حَرْبِها
وكَمْ دِنْتُ بالعُتْبى وإلغاء عَتْبِها نفوسًا توارَتْ في غَياهِبِ حُجْبِها
فأبْدَتْ خفايا حالِها ألْسُنُ الدّهْرِ

* * *

وهَلْ يَرْتَضِي أنّ الكَفورَ مُؤيَّدُ سِوَى مُلْحِدٍ، فَضْلَ الهِداية يَجْحَدُ
مَلائِكَةُ السّبْعِ السّمَواتِ تَشْهَدُ عَلَى جامحٍ في غَيّةٍ يَترَدّدُ
ويرْتاحُ وإلاسلامُ في قَبْضَة الكُفْرِ(212)

ولعلّ الفقيه الشاعر الشران يشير إلى هؤلاء المنافقين إذ يقول مخاطبا الملك الناصر :

عَدُوّكَ خوفًا مِنْ صِيالِكَ لَمْ يَزَلْ عن الحَرْبِ يختارُ التوانِي وانِيا
سَيَغْشاهُ يومٌ مِنْ وَغاكَ يَوَدّ أنْ يَرى مِنْهُ لو يُعْطَى التفادِيَ فادِيا
وويْلٌ لمَنْ أمْسَى لأكنافِهِ الّتي بِهَا سَخِطَ اللهُ المَساعيَ ساعِيا
ومنْ لاذَ بالكُفّارِ أصبحَ حيْثُ قَدْ أعدّ لَهُ الهُلْكُ المَهاوِيَ هاوِيا
وهَلْ هُو إلاّ الجَهْلُ عَمّ عُقولَهُمْ عَمًى لَمْ يَزَلْ يَغْشَى المُداجِي داجِيا
لَقَدْ طُهِّرَتْ منهُمْ مَنازِلُكَ الّتي سَقَى وِرْدُ نُعْماها المُصافِيَ صافِيا

(212) ديوان يوسف الثالث : 71.

وما آمتسَكَتْ إلاّ بِمَنْ جَدّ عَهْدُهُ   فَلَيْسَ إذا لاَقَى الدّواهي واهِيـا[213]

أما ديوان الشاعر ابن فركون فلا نجد فيه شيئا حول واقعة أنتقيرة، ولعله عرض لها في باب المراثي من القسم المفقود.[214]

ومن أحداث هذه الحقبة الحملة التي قادها الأمير معز الدولة أبو الحسن علي إلى شقورة SEGURA في أرض أرغون، ويحدثنا عنها الشاعر قائلا :

«وقُلْتُ أهنِّئُهُ، أيدهُ الله، ونصره، بعيد الفطر عام 812 هـ، وقد وصل السيد الأمير أبو الحسن، شقيق مولانا أيده الله، بالجيش من غزْو شُقُورة»[215]

وممّا جاء في القصيدة المشار إليها :

لَمّا الْتَقى الجَمْعانِ في أرْضِ العِدَى   ورمَيْتَ جمْعَهُمُ ببَـأْسٍ مُعْجِـلِ
نادَى بأبطـالِ الجهـادِ ألا اقْدِمـوا   وأجـالَ فيهِمْ نَظْـرَةَ المُتَأَمِّـلِ
فَتسارَعـوا إلَـى داعـي الهُـدى   والرّومُ عنْ سُبُلِ النّجاةِ بمَعْـزِلِ
ضاقَتْ علَيْهِـمْ أرْضُهُـمْ فَتوقّفـوا   والماءُ يجْمَـعُ نَـفْسَهُ في الجدْوَلِ
وتَجَمّعَتْ فِرَقُ العِدَا ثـمّ انْثَـنَتْ   مـا بيْـنَ مُنْهَزِمٍ وبيْـنَ مُجَـدّلِ
شالَتْ نَعامَتُهُـمْ سَريعًـا بَعْدَمَـا   وقَفـوا وُقـوفَ الخاضِعِ المتذلِّـلِ
وتسَلّلُوا طَـوْعَ الفِـرارِ وجَمْعُهُـمْ   قَـدْ ريعَ بيْـنَ مُذلَّـلٍ ومُضَلّـلِ[216]

وفي ديوان الملك يوسف قصيدة تشير إلى مجابهة مع القشتاليين حول حصن منتشاقر MONTEJICR وقد وقعت والسلطان مريض خلال سنة 814 هـ.[217]

لقد وقفت حركة الجهاد المحدودة التي دشن بها يوسف الثالث عهده عند هذا الحد،

---

(213) مظهر النور الباصر : 159.

(214) أشار الشاعر في ص 120 إلى العتابيات وفي ص 234 الى المراثى ولا وجود لهذين البابين في هذا الديوان، ولعلهما في قسم آخر منه.

(215) الديوان : 40.

(216) نفسه 81.

(217) ديوان يوسف الثالث : 124.

واتجه بعد ذلك إلى عقد الهدنة، وطلَبِ تجديدِها إلى وفاته، وقد فعل هذا لسببين على الأقل :

أولهما التفرغ لاسترجاع جبل طارق الذي أعلن أهله الانضمام إلى بني مرين عام 813 هـ.

وثانيهما التشغيب على بني مرين والتضريب بين ملوكهم وأمرائهم.

ومع هذا نرى شاعره ابن فركون في عيدياته وغيرها لا يفتأ يذكر أن السلطان سيغزو أرض الشرك ويَسْتَرجع الحصون وما إلى هذا.

فيقول من قصيدة (107) :

سيغـزو أعاديـه بشُهْبِ كتـائِب ... تطاولُها شُهْبُ الدُّجى فتطُولُها
تحُلُّ دِيارَ الكُفرِ منْها سوابـقٌ ... تَجِلّ عنِ التشْبيهِ حينَ تجولُها
تخوضُ إلى الأعْداءِ بحْرًا منَ الْقَنَا ... سِراعًا وهَوْلُ الرَّوْعِ لَيْسَ يَهُولُها
فَتَرْتاحُ خيلُ الله لِلْمُلْتَقَى الّذي ... يُجيبُ بهِ داعي الهدى ويُجيلُها

ويقول من أخرى (114) :

سَتَتْركُ أرضَ الشِّرْكِ وهْيَ بَلاقعٌ ... وتُلْقي عَلَيْها النَّقْعَ في الجوِّ ميسَمَا
بحَيْثُ تراع الوحْشُ أن تصل السُّرى ... بِبَيْدائِهـا والطَّيْـرُ أنْ تَتَرَنَّمـا
لَقَدْ خَطَبَ الخطِّي فَتْحَ بِلادِهِ ... وخَاطَبَهُ الهِنْدي عَنْكَ فَأَفْهَمَا
فَلِلّهِ مِنْها إذْ تَحُلُّ جِلالَهُ ... صَنائِعُ جلّتْ قبْلَ أن تُتوهَّما

وقد تكررت هذه الجعجعة في قصائد أخرى، وهذا في الوقت الذي «سادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل، و لم تشهد غرناطة من قبل عهدًا كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمّتين الخصيمتين» كما يقول المرحوم عبد الله عنان، ومع ذلك وجدنا ابن فركون يهنىء سلطانه بوفاة فرناندو بقصيدة يقدمها بقوله :

«وفي آخر صَفَر منْ عام تِسْعَةَ عَشَرَ وثَمانِ مائَة، ورَدَ الخَبَرُ عَلَى الحَضْرةِ بِوفاةِ طاغيَة رَغُون، المُلَقّب بالإِفَنْتِ عَمّ صاحِبِ قَشْتالَةَ وَوَصِيِّهِ، وهو المُتَغَلِّبُ قبلُ عَلَى

مَعْقَلِ أنتقيرة والصَّخْرَةِ وغَيْرِهِمَا منْ حُصونِ الغَرْبيّةِ أعادَها الله، فقُلْتُ أُهَنِّئُهُ رَحْمَةُ الله عليْهِ بذلِكَ».[218]

وقد عبر الشاعر في قصيدته عن إبتهاج المسلمين بوفاة فرناندو الأول، ومما جاء فيها :

أصيبَ «إفَنْتُ» الرّوح فارْتاعَ قَوْمُهُ   وأضْحَتْ بطاحُ الرُّشْدِ وهْيَ أوَاعِثُ
تَجَرَّعَ صابَ المَوْتِ، لاَ دَرَّ دَرّهُ،   فأيْدِي المَنَايَا كَيْفَ شَاءَتْ عَوابِثُ
أصابَتْهُ مِنْ صَرْفِ الزَّمانِ مُصيبَـةٌ   بهَا المَوْتُ عاثٍ في حِمَاهُ وَعائِثُ
وَهَى رُكْنُ عُبّادِ الصّليبِ بِمَوْتِـهِ   فَها هُوَ مِنْ بَعْدِ العُلَى متقاعِثُ[219]

تلكم كانت نظرة سريعة على علاقات يوسف الثالث بالممالك المسيحية، ونتعرف فيما يلي على علاقاته مع بني مرين.

4 ــ علاقات يوسف الثالث بالمملكة المغربية

ــ بوفاة أبي سالم المريني، وعودة الغني بالله من منفاه في المغرب إلى الأندلس، بدأ فصل جديد في العلاقات الأندلسية المغربية، فقد تنكّر هذا الملك النصري لبني مرين الذين آووه وساعدوه على العودة إلى عرشه، واستغلّ ظروف الفوضَى التي عمت المغرب بعد مقتل أبي سالم، فاستولى على جبل طارق الذي كان أبو الحسن المريني جعل منه حصنًا حصينا، وبذلك اغلق الغني بالله الباب في وجه المجاهدين المغاربة الذين كانوا يأتون للرباط في هذا الحصن، ولَطالما حضّ ابن الخطيب المرينيين في شعره ونثره على التمسُّك به، كما أن الغني بالله هذا استولى فترة على سبتة، وأبطل مشيخة الغزاة التي كانت تسند إلى المغاربة فصارت تسند إلى أمراء نَصريين، وصرفَ همّه إلى التضريب بين بني مرين، والعمل على إضعافهم، حتى أصبحوا ألعوبة في يده ؛ وهكذا انقلبت الآية، فبعد أن كانت كفة المرينيين هي الراجحة غدت شائلة، وبعد أن كانت فاس تستقبل رسل بني الأحمر أصبحت غرناطة مقصدًا لضعاف بني مرين ؛ وظل الحال هكذا في عهد خلفاء الغني بالله، ومنهم مخدوم ابن فركون يوسف الثالث. فإن هذا الملك الذي مدح بَعْضُهُم سياسته الداخلية، هادن النصارى ليتفرغ إلى التشغيب على بني

(218) الديوان : 222.

(219) نفسه.

مرين، وكان لجوء أفراد من البيت المريني إلى غرناطة يساعده على هذه السياسة التي تمسّك بها حتى آخر يوم من حياته، فقد أدركه الموت بالمنكب وهو يجهز — كما رأينا — صنيعة من هؤلاء إلى المغرب.

إن ديوان ابن فُركون يرسم لنا صورة قاتمة عن العلاقات بين الدولتين الجارتين، وبين الملكين المتعاصرين : يوسف الثالث النصرى وأبي عثمان سعيد بن أحمد بن أبي سالم المريني، فقد كان النصري يطمع ان يكون له من النفوذ في المغرب مثل ما كان لوالده وجده وقد لقبه شاعره بملك العدوتين :

مَــلِكُ العُدْوَتَيْــنِ شرقًــا وغربًـــا مَنْ يُضاهِيهِ في العُلى أو يُنافِسْ[220]

ولكنّه وجد أمامه ملكًا شابًّا صَلْبا سبقه إلى الحكم وكان له مساعدون من ذوي السياسة والحزم مثل الحاجبين : القبائلي والطريفي.

ولسنا ندري متى بدأت الخصومة والمناوشة بين الملكين، ولا من كان البادىء منهما، ولقد رأينا أن وفودًا مرينية حضرت إلى غرناطة لتهنئة يوسف الثالث بعد إعلانه ملكًا عام 810 هـ.

وفي عام 813 ثار أهل جبل طارق وأعلنوا تبعيتهم للمغرب، وفي السنة نفسها جهّز يوسف الثالث السّعيد المريني ووجهه في أسطول إلى المغرب ليطالب بالملك في محاولة لاسقاط أبي سعيد عثمان.

وأغلب الظن أن هذا الاجراء جاء ردّا على عصيان أهل جبل طارق، وانضمامهم لبني مرين، نظرا لسمعتهم في الجهاد والدفاع عن الأندلس، ولأن الجبل كان حتى آخر عهد أبي عنان تابعًا للمغرب.

ومن هذا التاريخ يبدأ صراع لا ينتهي إلاّ بوفاة يوسف الثالث وهو صراع أضعف الدولتين معًا وتسبب للمغرب في ضياع سبتة وفي خراب كثير من المدن والمداشر[221]،

(220) نفسه : 70.

(221) تسببت حروب «السعيد» الذي حركه ابن الأحمر في خراب كثير من الجهات وخصوصا في نواحي مكناس يقول ابن غازي : «وكانت المجاشر محدقة بها من كل جهة، كلّ مجشر بمزارعه وغراساته ومراعيه، إلى أن ظهر فساد السعيد بن عبد العزيز في أرض المغرب وذلك في العشرة الثانية من القرن التاسع فخلت المجاشر وانجلى عنها أهلها، فيقال خلا من مجاشرها حينئذ اثنا عشر الف مجشر والبقاء لله وحده» (الروض الهتون : 38، المطبعة الملكية — الرباط) وذكر الحسن الوزّان انه تخرب =

كما تسبّب للأندلس في ضياع أنتقيرة ومُنْتِشاقر وحصن الصخرة أو صخرة عَبّاد بالقرب من رُنْدَة وغيرها من الحصون كما رأينا ممّا سبق.

ولقد صرف يوسف الثالث جهْدَهُ كُلَّه في أمرين :

أولهما العمل على استرجاع جبل طارق، ولم يكن أمْرًا سهلا كما يفهم ممّا في الاستقصا نقلا عن تاريخ منويل.

فالديوان يخبرنا أن «المحلّة» الغرناطية بقيت محاصِرة للجبل من سنة 813 هـ إلى سنة 817 هـ، وقد انتقل الملك النصري مرارًا من غرناطة إلى «المحلّة» المرابطة، وكان أخوهُ أبو الحسن علي الملقب بمعز الدولة هو الذي دخل الجبل، واستردّه بعد حصارٍ بري وبحري، وصفه الشاعر في عددٍ من عيدياته وصفًا مفصلا، ونوه بشجاعة معز الدولة، وهنأ مَلِكَهُ بهذا الفتح، ومما جاء في إحدى هذه القصائد قوله :

صار إرْثًا مِنَ الغَنِيّ لِعَلْيا ... تِلْكَ ما شادَهُ عَلِيٌّ وَفارِسْ[222]

يعني أن جبل الفتح، وما شاده فيه أبو الحسن المريني، وولده أبو عنان، صارَ إرثًا ليوسف الثالث ورثه عن جده الغني بالله.

ونجد في ديوان يوسف الثالث عددًا من القصائد، يذكر فيها حصار جبل الفتح، ويفخر باسترجاعه، ويفهم من شعره أن أوّل ما استُرجِع منه هو الحصن المعروف بالقَشْتور وفي هذا يقول :

وسائِلْ بها «القَشْتورَ» إذْ عَزّ مَطْلَبٌ ... فَها هُوَ مِنْ أسْرِ السّيوفِ عَتيقُ
نَهَدْنا إليْهِ بَعْدَ مَا هَوّمَ الدُّجى ... ونادَى فَنَجّيناهُ وهْوَ غَريقُ[223]

وقد أكثر شاعر البلاط النصري من وصف أهل جبل طارق بالمروق والخيانة مع أنهم، ومعهم طائفة من أهل التقوى والصّلاح، إنّما أقدموا على ما أقدموا عليه غيرةً

= خلال حروب هذا «السعيد» مع أبي سعيد عثمان قرى ومدن وقصور عديدة في جميع انحاء المملكة وذكر منها فنزارة والمعمورة وتافلفلت (تفلت) وجامع الحمام وبني بازيل والمقرمدة ومدينة الجمعة في أزغار انظر وصف افريقيا (اسم السعيد في الفهرس).

(222) الديوان : 67.

(223) ديوان يوسف الثالث : 146 وقد ورد ذكر القشتور في الاحاطة على أنه اسم حصن من حصون جبل طارق. ج. 2 ص 87.

على دينهم، وحمايةً لبلدهم، وهذا ما يشرحه منويل القشيلي في تاريخه إذ يقول : «لمّا كانت دولة السلطان أبي سعيد المريني، كان المسلمون أهل جبل طارق، قد سئموا مُلْك ابن الأحمر صاحب غرناطة، وتحققوا بأن المريني أقوى منه شوكةً، وأقدر على تخليصهم، ممّا عسى أن ينالهم به الاصبنيول، من حصارٍ ونحوه، فبعثوا إليه يخطبون ولايته، ويعرضون عليه الدخول في طاعته، إن هو أمدّهم بما يدفعون به في نَحْر ابن الأحمر، فأعجب أبا سعيد ذلك، وللحين بعث إليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدي عبّو ومعه طائفة من الجيش إمدادًا لهم.» (الاستقصا 4 : 93 وجذوة الاقتباس : 417).

ثم إن المرابطين في جبل طارق يومئذ كانوا من أهل المغرب، وكان الجبل في يد المغاربة منذ استرجعهُ أبو الحسن المريني من النصارى، وقد حصنه بأبراج وأسوار، وصفها المؤرخون، وما تزال ماثلة إلى يومنا هذا، كما بنى فيه دار صناعة، وجدّد أبو عنان تحصينه وتحسينه، وكان عقلاء الأندلسيين كابن الخطيب يوصون بني مرين بالتمسّك به والمحافظة عليه، ولهذا رأينا أبا عنان يولّي عليه ولده أبا بكر السعيد «وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل، وكفاة الرجال، ودرّ عليهم الأرزاق، ووسّع لهم الإقطاع، وحرّر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الاحسان، وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحُصُونِهِ وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عُدَده وأهْرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء، فَصُنِعَ ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلا عجيبًا، أتقنه الصناع إتقانا، يعرف قدره من شاهد الجبل، وشاهد هذا المثال، وما ذلك إلا لتشوفه أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهمّمه بتحصينه وإعداده، والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه، ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفّار وشتّ شمل عباد الصليب.» (رحلة ابن بطوطة 2 : 185).

فلا عجب ــ بعد هذا الكلام الذي هو لأندلسي غرناطي هو ابن جزي ــ أن يظل أهل جبل الفتح على ولائهم للمرينيين، بعد أن تمكن الغني بالله من أخذه منهم، خلال فترة من فترات الاضطراب، وما عبر عنه ابن جزي في آخر كلامه لم يكن ليعجز أبا عنان وأبا الحسن من قبله، ولكن سياستهمَا، اتجهتا إلى توحيد المغرب الإسلامي ليكون مدد الجهاد في الأندلس قويا وفعّالا، ثم إن دولة بني نصر قامت على أساس التحالف التام مع المغرب، والاستعانة الدائمة به، ونِظامُ مَشيخة الغزاة المغاربة دليل على ذلك، وقد كان أبو الحجاج وولده الغني بالله يخاطبون أبا الحسن بالوالد، ومن هنا فقد اكتفى

المرينيون بمشيخة الغزاة مع مواقع أقدام في جبل طارق ورُنْدة والجزيرة الخضراء.

ولكن الاضطرابات التي وقعت في المغرب بعد أبي عنان، والنوايا السيئة لملوك بني الأحمر، وتهافت بعض شيوخ الغزاة وغيرهم من أبناء الأسرة المرينية على الملك، والعوامل الأجنبية، كل ذلك أدّى إلى ما أدى إليه من سوء الأحوال، وفساد الأوضاع، وأصبح الشغل الشاغل للغني بالله، بعد عودته من منفاه في المغرب، الذي أحسن إيواءه، وأكرم وفادته، هو التشغيب على بني مرين، والعمل على انتزاع مواقعهم في الأندلس، والتطلع إلى سبتة المغربية، والتدخل في شؤون المغرب الداخلية، وسار على هذه السياسة من جاء بعده، مستغلين فترات الاضطراب التي استشرت في المغرب، ووجودَ اللاجئين الطامعين من بني مرين في غرناطة وهكذا، أنقض النصريون الظُّهر الذي يَسْنُدهم، وأنهكوا البلد الذي كان يحميهم، ومع ذلك نراهم يرمون أهل المغرب بدائهم وينسلّون، وما أفعال هذا الملك الملقب بالناصر لدين الله إلاّ مثالٌ صارخ على ما نقول.

وفي الديوان معلومات أخرى حول قضية جبل طارق، لعلّ من أطرفها اتهام ابن فركون لشخصيات علمية أندلسية بالخيانة من أجل انحيازهم إلى جانب المغرب في مسألة جبل طارق، قال في مقدمة قصيدة كتب بها إليه أبو القاسم بن حاتم المالقي : «وهو شاعر مفلق، وقد تولّى قضاء جبل الفتح الولاية التي ظهر فيها من سوء رأيه، ما قضى لمبنى عزّةَ بِسقوطه ووهيه، وهو الآن بعد خطوب فادحة مقيم بسبتة»(224) هكذا يقول ابن فركون.

ونقرأ في غلاف مقامة هذا القاضي الأديب، المدعوة «حضرة الارتياح، المغنية عن الراح» المطبوعة في فاس وتونس، أنه كان قاضيًا بجبل الفتح، ثم إنه امتحن، وأخذ وحمل إلى فاس، واعتقل بها مدة طويلة، فصنّف وهو في السجن كِتابَ «جمع المقال، في الاعتقال»(225).

والشخص الثاني الذي كان له دورٌ في قضية جبل طارق هذه هو أبو زكرياء السّراج

(224) الديوان : 183.

(225) تقع مقامة «حضرة، الارتياح» في 15 صفحة أما مؤلفها فلا نعرف عنه إلا ماورد على غلاف هذه المقامة وشعره في «مظهر النور الباصر» وما أشار إليه أبو الحسين ابن فركون وقد نقل عنه ابن الازرق في روضة الاعلام حكاية مهد لها بقوله : «رأيت بخط الشيخ الفقيه الأديب البارع أبي القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن حاتم العاملي المالقى الشهير بابن البنا..» روضة الاعلام : 395 مخطوط خ.ع.ر.

الذي يخاطبه الشاعر بقصيدة مؤرخة بعام ثمانية وثمانمائة، جاء في التمهيد لها : «وكانت بيني وبين الفقيه أبي زكرياء يحيى بن السّراج، من أهل رندة، مكاتبات أيام القراءة، إلى أن زلّت به قدمه، وخانته هِمَمُه، ونزع أيام فتنة الرئيس البائس الواصل إلى جبل الفتح، إليه، ثم استقر أخيرًا بفاس، وبها وافته منيته، أعاذنا الله من سوء العاقبة»(226).

أمّا هذا «الرئيس البائس» الواصل من المغرب إلى جبل الفتح لإعادته إلى السيادة المغربية فلم نتمكن من تحديد هويته، وقد وردت الاشارة إليه مرة أخرى في الديوان بما يلي : «وقلْتُ أهنّىء مَقامَه الكريم، أسْماهُ اللهُ، بعيد الأضْحى، منْ عام ثلاثةَ عَشَرَ وَثمانمائة، بالمَحَلّة، من ظاهِر جبل الفَتْح، عَصَمَهُ اللهُ، عِنْدَ مُحاصَرَتِه والأخذِ بمُخَنّقِهِ بَرًا وبَحْرًا، والتّضْييقِ عَلَى المَحَلّةِ الغَرْبِيّة النّازلةِ بإزائِهِ، مَعَ الرّئيسِ البائِسِ المُحَكَّم فيهِ سَيْفُه اليوسُفِي بَعْد ذلك، وقَدْ فَرَّ إليْهِ بَعْضُ الغادِرين المارِقين مُرُوق السّهْمِ عَن الدّين»(227). كما ذكِرَ مرّةً ثالثة في التقديم الآتي لبعض القصائد :

«وقُلْتُ أمْدَحُ المَقامَ الكَريم اليُوسُفِي، أسْماهُ اللهُ، وقَدْ وافَقَ ذلك إيصالَ الرّئيسِ البائِس الواصِلِ منَ المَغْرب مُعْتَقَلاً»(228)

ويقول الشاعر مشيرًا إلى هذا «الرئيس البائس» :

أتى وثيابُ الهونِ تَعْلو قُيُودَهُ — فَيَرْسُفُ طَوْعَ الذّلّ فيها وَيَرْفُلُ
وجَاءَ وقَدْ حَفّتْ بِهِ الشّيعَةُ التي — لَها من ذميم الغَدْرِ ما لَيْسَ يُجْهَلُ
تَحامَى طَريقَ الرُّشْدِ منْ قَبْلُ فاغْتدَى — تُذَلّلُهُ آراؤُهُمْ وتُضَلّلُ
ولَوْ أمَّلَ المَوْلَى الخليفَةَ يُوسُفًا — لَما رَاعَهُ خَطْبٌ منَ الدّهْرِ مُعْضِلُ
ولَوْ أمَّ للْبابِ الكَريمِ لأصبحَتْ — وجُوهُ الأماني نَحْوهُ تتَهَلّلُ
ولكنّه ما جَدّ إلاّ لأنْ يُرَى — كَما شاءَه المِقْدارُ وَهْوَ مُجَدّلُ(229)

ويقول أيضا فيه من قصيدة أخرى :

(226) الديوان : 197 — 180.

(227) نفسه : 87.

(228) نفسه : 59.

(229) نفسه : 30.

فيا مجْمَعَ البَحْرَينِ أهْوِنْ بمَنْ أتى   يَرومُ لِشَمْلِ الدّينِ فيكَ تَفَرُّقا
توارَى وقَدْ حَفّتْ بهِ شيعَةُ الهُدى   وأضْحى بهِ جُنْدُ العَزائمِ مُحْدِقا
وضَلَّ طريقَ الرُّشْدِ لا دَرّ دَرُّهُ   فَلَمْ يُلْفَ إلاّ ساهِرَ الجَفْنِ مُطْرِقا
فَمِنْ فَرَقٍ عنْ حَربِه كَفَّ إذْ رأى   يَدَ اللهِ تَعْلو منهُ بالسَّيفِ مَفْرِقا[230]

ولا نعرف هل هذا الرئيس من بني مرين أم من بعض بني الأحمر الذين كانوا في خدمتهم، وقد ورد وصف «الرئيس البائس» في «جنّة الرضى» لابن عاصم، في حق بعض النصريين الخارجين على محمد التاسع الغالب بالله[231]، فهل يكون هذا الرئيس البائس هو الرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر رئيس الأسطول المغربي في عهد أبي عنان ومن جاء بعده، وهو الذي أسهم بأسطوله سنة 788 هـ في استرجاع سبتة إلى الايالة المرينية[232] ؟ قد يكون ذلك، ولا سيما أنّ ابن فركون يقول فيه، مشيرا فيما يبدو إلى أعماله السابقة، وتفانيه في نصرة بني مرين على بني أسرته :

تحامَى طريق الرشد مِنْ قَبْلُ فاغْتَدَى   تُذَلِّلُهُ آراؤهم وتُضَلِّلُ

أما وصوله من المغرب إلى غرناطة مُعْتَقلاً، فلعلّه تم على يد أنصار السعيد.

وأمّا يحيى السّراج المشار إليه فأمْره مشكلٌ كذلك، إذ يوجد عندنا الشيخ القاضي الخطيب أبو زكرياء يحيى ابن السراج الذي كان مرابطًا في جبل الفتح، حيث لقيه كلّ من ابن الخطيب وابن بطوطة سنة 751 هـ، وهذا الشيخ ـــ كما نعته الأول ـــ توفي في حياة ابن الخطيب، إذْ نراه يترحّم عليه في الكتيبة وريحانة الكتاب[233]، وإذن فليس هو المقصود هنا ؛ وعندنا أبو زكرياء يحيى ابن السراج النفزي الرندي الأصل، وصاحب ابن عباد الرندي الصوفي المعروف، ولكن هذا كما في فهرسته فاسي المولد[234]، وليس في الموجود من هذه الفهرسة ما يدل على أنه كان في رندة، أو دخل الأندلس[235]،

(230) نفسه : 88.

(231) هو الرئيس الأبكم من بني الأحمر. راجع الاستقصا 4 : 73 وفيض العباب وقد اشترك في استرجاع سبتة الى الايالة المرينية عام 788 هـ.

(232) جنة الرضى. مخطوط الخزانة الحسنية.

(233) الكتيبة الكامنة : 124 وريحانة الكتاب ورحلة، بن بطوطة 2 : 183.

(234) فهرسة السراج : 24 ـــ 25 مخطوطة خ.ع.ر..

(235) راجع في هذا الموضوع أطروحة الأب نويا عن ابن عباد الرندي : 11 ـــ 14.

هذا فضلا عن أنه — كما في ترجمته — توفي عام 804 هـ أو 805 هـ[236] أي قبل مكاتبة ابن فركون المؤرخة بعام 808 هـ، وقبل حادثة طارق التي كانت عام 813 هـ.

وأما أبو زكرياء يحيى ابن السراج الّذي ذكره ابن فركون، فكل ما نعرفه عنه أنه كانت بينه وبين ابن فركون مكاتبات ومجاوبات نثرية وشعرية، وممّا جاء في قصيدة ابن فركون المشار إليها قوله متشوقا إلى زيارة صاحبه في رندة ومادحًا أباه :

فيا لَيْتَ هذا القلْبَ تُوسَى كُلُومُهُ　　بزَوْرةِ خِلٍّ أحْرزَ المَجْدَ أوْ سِيّا
وحُبُّ أبيهِ الماجِدِ العَلَمِ الـرِّضَى　　يدينُ بهِ منْ يَقْصِدُ الدّينَ والدُّنْيا
فمَـنْ شاءَهُ لِلْعِلْـم ألْفَـى إمامَـهُ　　يُجَلّي لَهُ في كُلّ مُشْكِلَةٍ هَدْيا
ومَـنْ حَـلّ مَثْـواهُ يجِدْهُ مَثَابَـةً　　بهَا يَرِدُ العافُونَ مُسْتَعْذَبَ السُّقْيَا
وأمّا إذا ألْقَى مِـن الذّكْـر آيـةً　　فَدونَكَ ما تَبْغيهِ منْ غايةٍ قُصْيا
فللهِ دَرّ اللّفْظِ إن نصّ خُطْبَـةً　　وللّه بَحْرُ الحِفظِ إنْ فَسَّر الوحْيا[237]

وقد اختار له ابن فركون في مظهر النور الباصر 3 قصائد في مدح يوسف الثالث[238]، وقال في تحليته : «الفقيه الأعز أبو زكرياء يحيى بن أحمد ابن السراج من أهل رندة»[239]، وهذا الأخير يتفق في الحقيقة مع الذي قبله في الكنية والاسم واسم الأب والنسبة إلى رندة، ويتفق معه في كون والد كلٍّ منهما كان مقرئا وخطيبًا، ويتفق معه في الوفاة بفاس، فهل يكون ابن السراج صديق ابن فركون هو نفسه صاحب ابن عباد، ووقع خطأ ما في كتابة وفاته بأن سقط منها شيء كأن يكون تاريخ الوفاة 814هـ أو 815 هـ بدلاً من 804 هـ و805 هـ وقد ورد تاريخ وفاة السراج في فهرسة المنتوري هكذا : «توفي في يوم الأربعاء السابع لشعبان عام ثلاثة وثمان مائة» ونقل هذا التاريخ أحمد بابا السوداني في نيل الابتهاج فقال : «توفي السراج بفاس عام ثلاثة وثمانمائة» ومن الممكن أن يَسقط عدد عشرة فيبقى التاريخ كما ورد.

---

(236) نيل الابتهاج 356 وجذوة الاقتباس : 539 وسلوة الأنفاس 2 : 143.
(237) الديوان : 199 — 200.
(238) مظهر النور الباصر : 140 — 153.
(239) المصدر نفسه.

وهذا الافتراض الأول، يدعونا إلى افتراض آخر، وهو أن هجرة أسرة السراج الرندية النفزية، وهجرة أسرة ابن عباد الرندية النفزية كذلك إلى المغرب، كانتا لسبب سياسي، هو ولاء هاتين الأسرتين لبني مرين، الذين ظلوا يحتفظون برندة إلى آخر عهد الغني بالله، وثمة خبر مُبْهَم قد يستفاد منه أن ابن عباد سجن بسجن أرباب الجرائم في الأندلس لميوله المغربية[240]، ومن المعروف أن هذا الزعيم الروحي كانت له مكانة كبرى عند السلطان أبي العباس أحمد بن سالم المريني، وأنه ولّي أكبر خطة دينية في المغرب، وهي خطبة القرويين بفاس، ولما مات شهدَ السّلطان المذكور جنازته.[241]

ومع أن افتراض لجوء ابن عباد وبعض الرنديين ـــ الذين سماهم ابن بطوطة في رحلته ـــ إلى المغرب، كان بسبب النفرة من بني نصر، يظل افتراضا وجيهًا، فإن افتراض أن يكون السراج الشاعر الذي ذكره ابن فركون هو صاحب ابن عباد يبقى محل نظر، ومما يقف في وجهه أن هذا المحدث الخطيب لم يشتهر بقول الشعر، وإن وجدنا له أبياتا في رسائل ابن عباد الكبرى (ص 126)، وقد ساق في فهرسته ثلاث قصائد غير منسوبة في رثاء ابن عبّاد، وعرفنا منها واحدة لعلي ولد ابن الخطيب السلماني (الفهرسة : 29 ـــ 31) فلو كان يحسن قول الشعر لقاله في مربيه الروحي.

وهذا بالاضافة إلى ما يذكره في فهرسته من أن والده فاسي الولادة والوفاة، وما تنطق به من عدم دخوله الأندلس إلى تاريخ كتابة الرحلة عام 792 هـ، كما أنه يستعمل في حق بعض الأندلسيين الوافدين على فاس مثل هاتين العبارتين :

«قدم علينا رسولاً من جزيرة الأندلس» «ثم ورد علينا أيضا رسولا»، ومع ذلك فيبدو من رسائل ابن عباد أن أسرة السراج لم تكن قد اندمجت تمامًا في المجتمع الأندلسي، ولم يكن يعتبر كفاسي صميم.

ويبقى بعد هذا كله افتراض أخير، ولعلّه الأقرب، وهو أن يكون يحيى بن أحمد السراج صاحب ابن فركون الذي كان يعيش مع والده في رندة عام 808 هـ حفيدًا ليحيى بن السراج، ذلك الشيخ المسن الذي لقيه ابن الخطيب وابن بطوطة في جبل طارق عام 751 هـ، وقد جرت العادة أن يُسَمّى الحفيد باسم الجد، ولو أن ابن فركون رفع نسب صاحبه إلى جدّه لَحُلّ الاشكال، وممّا يجعل هذا الافتراض الأخير مقبولاً عامل

(240) الاحاطة 3 : 252.

(241) فهرسة السراج وجذوة الاقتباس وغيرهما.

السن، فابن فركون يتحدث عن هذا السراج وكأنه من أترابه، وقد عرفنا أن أبا الحسين من مواليد 781هـ في حين أن السراج الفاسي ولد بعيد 740 هـ.

ومهما يكن الأمر فقد وجدنا ابن فركون يذكر اسم يحيى مع أخ أو صديق له كان لهما دور في أحداث جبل طارق، وذلك إذ يقول :

وَيَحْيَى الذي قَدْ فَرّقَ اللهُ جمْعَهُ ... فَفرّ إلى أقْصَى البلادِ وفَرّطا
وكانَ لمولاهُ حقوقٌ عَظيمةٌ ... عليْهِ، وجلّتْ أن تُضاعَ وتُغْمَطا
ولكنَّ مَن تُرضيهِ أفعالُ غَدْرِه ... إذا رامَ أن يَرى رِضَى اللّهِ أسْخطا
فلا أمَلٌ منْ قَبْلُ إلاّ مُخَيّبٌ ... ولاَ عَمَلٌ من بَعْدُ إلاّ وأُحْبِطا
فَقَدْ غادَرَتْهُ حالُهُ واهِيَ القُوَى ... وفي وَحَلٍ من غَدْرِهِ مُتورِّطا
وأظْهَرَ تَقْوى اللهِ حينًا وقدْ غَدا ... لَئيمًا ذميمًا فائلَ الرأيِ أمْعَطا
وخادعَ بالرُّجْعَى إليهِ فَعِنْدَما ... تَروّعَ في نارِ الجحيمِ تَوَرّطا
ونادى على بُعْدٍ أخاهُ فجاءَهُ ... وحَلّ حِماهُ بَعْدَ ما كانَ أخْلَطا
لقَدْ خَبَطا عَشْواءَ إذ خطبا التي ... بِها كُلُّ شرٍّ في الوجودِ تَأبّطا
يَرُومانِ بالغَدْرِ آهتداءً وإنّهُ ... لَيقضي دُجاهُ أنْ يتيها ويَخْبِطَا
وأذْكَيا سِقْطَ الزَّنْدِ في الفتْنةِ الّتي ... قَضَتْ بَعْدُ فيها أن يَزِلاّ ويسْقُطا
وخَطّتْ بهُجْرِ القولِ شُلّتْ يداهُما ... وما عَرَفا خطًّا ولاَ تَركا خطَا
فقال لسانُ الخَطْبِ إذْ جارَ فيهما ... ألاَ فاخطُبا إن شئْتُما اليَوْمَ واخْطُطَا(242)

وأحسب أن الابيات الاخيرة تشير الى يحيى السرّاج الذي ربمّا كان خطيباً أو طامعاً في خطة الخطابة بجبل طارق، شأن جده فيما نَفْترِضُ، كما أنها فيما نفهم تشير أيضا إلى أبي القاسم بن حاتم قاضي الجبل، وشريك السراج، في الانضمام الى بني مرين، وقد يتضح هذا حينما نُقارن قول ابن فركون فيهما هنا :

وَأذْكَيا سِقْطَ الزَّنْدِ في الفِتْنَةِ آلّتِي ... قَضَتْ بعدُ فيها أنْ يَزِلاّ ويَسّقُطَا

---

(242) الديوان : 74 — 75.

بقوله في أحدهما أيضاً فيما سبق : «ظَهَرَ فيها مِنْ سوء رأْيِه، مَا قَضَى لِمَبْنَى عِزِّهِ بسُقُوطِهِ وَوهْيِهِ» وقوله في الآخر : «زلّتْ بِهِ قَدَمُه»؛ وقارن أيضا قوله في يحيى المذكور في القصيدة :

فلا أمَلٌ مِنْ قبلُ إلاَّ مُخَيّبٌ ولا عَمَلٌ مِنْ بَعدُ إلاَّ وأُحْبِطا

بقوله فيه فيما سبق : «أعاذَنَا اللهُ مِنْ سوء ٱلعاقِبة».

كثير هو الشعر الذي يؤرخ حصار يوسف الثالث جبل طارق، وتجهيزه من يشغّب على أبي سعيد عثمان المريني، سواء في ديوان يوسف، أو في ديوان شاعره ابن فركون هذا، ومن حسن الحظ أن هذا الشعر مؤرَّخٌ، ومسبوق بمقدمات تشرح مناسباته، وسنستعرضه حسب تاريخ صدوره، جاء في ص 50 ما يلي : «وَمِمَّا صَدَرَ عَنّي في هَنائِه أَيَّدَهُ ٱللهُ بحُلولِ رِكابِه الْعَلي، بظاهِرِ مالَقَة، بإثْرِ مُخالَفَةِ ٱلْمارقين، من أهْلِ جبلِ ٱلْفَتْح، وهِيِ السُّفْرَةُ الأولَى الّتي أجازَ فيها السُّلْطانَ ٱلسَّعيدِ إلَى الغَرْب، ودَخَل مالقَة في يوْمِ الاثْنَينِ الثّالثِ لِشعْبان عامَ ثلاثَةَ عَشَرَ وثَمَاني مائة».

والسعيد المذكور هو محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، بويع بالملك بعد موت أبيه، وهو ابن خمس سنين، ودبر أمور الدولة الوزير أبو بكر بن غازي، ثم خُلع أول 776هـ وغرّب إلى الأندلس. وها هو يعود بعد 38 سنة و 7 أشهر للمطالبة بالملك ومنازعة أبي سعيد عثمان عليه[243]، وقد دفعه الى ذلك يوسف الثالث انتقاماً من السلطان عثمان، لسعيه في استرجاع جبل طارق، وقبوله بيعة أهله.

وقد كان جواز السعيد في أجفان أندلسية أمدّه بها يوسف الثالث، ويبدو أنَّ جوازه كان من مالقة.

ويذكر ابن فركون أن الأخبار وَرَدَتْ «بحُلُولِ أجْفانِهِ الْمُؤَيّدَة بساحِلِ ٱلْمَغْرب، و نُزول السُّلطان ٱلسعيد ببّر العُدْوَة، بالفُرْسانِ والرُّماة، في آخرِ رَمضان عامَ ثلاثَةَ عَشَر»، ويقول مشيراً الى هذا السعيد ٱلمُتَوَجّه لأخذ المدينة البيضاء (فاس المرينية) :

وَكَمْ مِنْ يدٍ بَيْضاءَ طَوَّقْتَها فَتًى إلى مَنْزِلِ «البَيْضَاءِ» قد أعْمَلَ ٱلرُّجْعَا

رَمَى «دَارَهُ ٱلبَيْضَاءَ» أخذاً بِثأرِهِ بِمَا قَدْ رَمَى سَيْفُ بْنِ ذي يَزَنٍ صَنْعَا

دَرَأْتَ بِهِ في صَدْرِ كُلِّ مُعانِدٍ سِهَامُ ٱلْمَنَايا نَحْوه أُحْكِمَتْ وَقْعَا

(243) انظر في السعيد هذا جدوة الاقتباس : 209 والضوء اللامع 8 : 62.

ويقول في الأجفان التي حملته وأتباعَه :

وللهِ مِنْهَا مُنْشآتٌ قد ارتَمَتْ عَلَى اللُّجِّ رَفْعاً حينَ أحْكَمْتَها وضْعَا
سَرَتْ وظلالُ الأمْنِ واليُمْنِ فوقَها فَأَحْسِنْ بِهِ مَسْرًى وأنْجِحْ بِهِ مَسْعًا[244]

ويذكر أن توجيه هذا «السعيد» وإعانته كان استجابة لبني مرين :

وَآلِ مَرِينٍ إذْ دَعَوْا مِنْكَ ناصِراً وَلَمْ تُهْمِلِ الدَّعْوَى، ولم تُغْفِلِ المَدْعَى

وبهذه المناسبة ــ على ما يبدو ــ نظم يوسف قصيدة في مخاطبة أوليائِهِ من بني مرين، وعرب بني حسين، والأحلاف.

وقد نعت في هذه القصيدة أبا سعيد عثمان بالشؤم والتعاون مع النصارى والتفريط في الثغور، ثم دعا أولياءه المذكورين إلى تأييد مرشحه السعيد، وخصَّ بالذكر منهم محمد بن يعيش، ولد وزيره في دولته الأولى، قال :

قُومُوا إلَى نَصْرِ «السّعيدِ» حِمايَةً فالدّينُ إنْ لَمْ تَجْمَعوهُ يُبَدَّدُ
وتَمَكّنوا في فاس مِنْ «عُثْمانِهَا» واسْتَبْصِرُوا بسَنَى الْحَقيقَةِ واهْتَدوا

وهو يزعم أن القصد هو العودة الى العهد القديم، وإحياء الاتحاد بين الدولتين من أجل جهاد العدو :

إنّ النَّصارَى قَدْ تَجمّعَ شَمْلُها فَعَسَى ببأسِ سيُوفِكُمْ تَتَبَدّدُ
وتَروعُهُمْ مِنْكُمْ سُيوفُ حِمايَةٍ يَجْلو دُجَاهَا يُوسفٌ ومحمَّدُ
أَخَوانِ قدْ قامَا بِنُصْرَةِ دينِهِ فالدَّهْرُ يَبْلَى والثّنَاءُ مُخَلَّدُ[245]

وهو يعني بيوسف نفسه، أمّا محمد فهو اسم «السعيد» المريني.

ومهما يكن الأمر فقد تمكن السعيد من دخول تازة في 19 ذي القعدة عام 813 هـ وانتظمت جهاتها في طاعته[246].

---

(244) الديوان : 52.

(245) ديوان يوسف الثالث : 51.

(246) الديوان : 53.

ووصل البشير بذلك الى يوسف الثالث وهو محاصر جَبَل طارق فنظم ابن فركون قصيدةً جاء فيها

وَلَقَدْ جاءَتِ البَشائِرُ حَتَّى أَعْذَبَتْ مَوْرِدَ السُّرُورِ وأَحْلَتْ
بِعُلاَكَ السَّعِيدُ مُلِّكَ أرضاً لَكَ أَلْقَتْ ما عِنْدَها وتَخَلَّتْ(247)

وكان مع السعيد في هذه الحركة المشؤومة ولدان له، وقد أشار إليهما ابن فركون في قوله من قصيدة (الديوان : 88) :

نَضَيْتَ عَلَى الأَعْداءِ مِنْهُ مُشَهّراً وأَرْسَلْتَ مِنْ نَجْلَيْهِ سَهْمَيْنِ فُوِّقا

وهذان الولدان هما عامر والمسعود، فأما عامر فيذكر الشاعر أنه تمكن في ذي القعدة عام 813 هـ بواسطة الاجفان الأندلسية من فتح طنجة ودخول قصبتها وفي ذلك يقول :

هذه فاسٌ الجديدُ تشكّتْ فأَنَلْتَ السَّعِيدَ مِنْها آختيارَهْ
وابْنُهُ «عامرٌ» مِنَ «الرِّيفِ» يُمْسي عامِراً رَبْعَهُ المُنيفَ ودارَه(248)

وأمّا المسعود فقد ذكره في قصيدة مؤرخة بربيع الأول عام أربعة عشر وثماني مائة، وذلك إذ يقول (الديوان : 62) :

وقَبْلَهُ وافَتِ الأَجْفانُ مُهْدِيَةً بُشْرَى بِهَا فَوْقَ لُجّ البَحْرِ قَدْ سَبَحَتْ
بُشْرَى أَتَتْكَ مِن «الْمَسعود» قائلةً: هذي الصِّفاحُ دَمَ الأَعْدَاءِ قَدْ سَفَحَتْ
فَمِنْ مَطالِعِ أَنْوارٍ بِها اتضَحَتْ ومِنْ ميادينِ آمالٍ بها آنْفَسَحَتْ
وقبلُ، والدُهُ الأَرْضى وهَبْتَ لَهُ مالا تجودُ بِهِ نَفْسٌ ولاَ سَمَحَتْ
لا كِنَّ ضيّعَ بَعْضَ الْحَزْمِ حينَ رأى مَيْلاً إلى فِئَةٍ غَشّتْ وَما نَصَحَتْ
فَقُمْتَ بالأَمْرِ ثَبْتَ الْعَزْمِ ثانيةً حَتَّى كَأَنَّ جُيُوشَ النَّصْرِ ما بَرِحَتْ
وَفَّيْتَهُ حَقَّهُ مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ وَإِنْ نَأَتْ بِكَ عَنْهُ الدارُ أَوْ نَزَحَتْ

وقد كان يوسف الثالث يطمع في أن يتغلب السّعيد على فاس وعَلى أبي سعيد عثمان، ويبعثه مقيداً إلى غرناطة :

---

(247) نفسه : 54.

(248) نفسه : 54.

عَـــنْ قَـــريبٍ يَزورُنـــــا في قُيـــودِ الأداهِـــــم[249]

بيد أن أمله خاب، فقد جرت الهزيمة على السعيد بظاهر فاس، واختلف أتباعه، وفي ذلك يقول ابن فركون :

وَكَيفَ تُدْفَعُ عَن فاسٍ أُسودُ وَغىً ... ومـــا مَرابِضُهـــا إلاّ مَرابِعُهـــا
إنْ أجْفَلَتْ فِئَةُ التَّوحِيدِ هَا هِيَ قَدْ ... عادَتْ تُنـازِلُ فيهَـا مَـنْ يُنازِعُهـا
وَقَائـعٌ مـحّصَ اللهُ ٱلْعِبَـادَ بِهـا ... حَتّـى تَبَيَّـنَ عَـاصِيها وطائِعُهــا
إنْ كانَ ضُيِّعَ حَزْمٌ عِنْدَما ٱفْتَرقَتْ ... فَـإنّ جـودَكَ حَامِيهَـا وَجامِعُهـا[250]

وأشار الى تضييع الحزم مرة ثانية في قصيدة أخرى[251].

ولمّا أعاد السّعيد الكرة تلو الكرة دون جدوى، وشكا يوسف من «مخالَفاتِ السّعيد لِما أَرْدَنَاهُ مِن الابقاءِ عَلَى رَمَقِه، وتَرْكِ الرّعايا لِما يَنْتَعِشونَ بِهِ منَ الأمْنِ وتَمْهيدِ طُرُقِه، ونَظَرْنَا إلى ٱلأمْرِ الّذي أجْهَدَنا تَشَعُّبُ خَرْقِهِ»[252]. استجاب لطلب «الصُّلْح الّذي رغِبَ السُّلطان أبو سَعيد في عَقْده بَيْنَهُ وبَيْنَ ٱلسّلطان ٱلسّعيد عَلى قِسْمَةِ ٱلْبِلاَدِ ٱلْغَرْبيَة بَيْنَهُمَا»[253] وفي هذا يقول شاعره بمناسبة عيد الأضحى من عام 815 هـ :

ولَمّا تواَلَتْ فِتْنَةُ الْغَرْبِ واعْتَـدَتْ ... عَلَى أَهْلِهِ في كُلِّ حَيٍّ طُغاتُهــا
وما ٱتَّفقَتْ إلاّ عَلَى صُحْبَةِ الرَّدى ... كَمــا اخْتَلَـفَتْ آراؤهــا ولُغاتُهــا
دَعَتْكَ لِعَقْدِ السِّلْمِ بَيْنَ مُلوكِهــا ... أَكَـارِمُ حـيّ في يَـدَيْكَ حَياتُهــا
فـأَصْدَرْتَ للأَمْـلاكِ مِنْكَ أوامِــراً ... إذَا نُطِقَتْ في الحَفْلِ طالَ صُماتُها[254]

وبعد هذا التقسيم الذي ذكره الشاعر، كانت نهاية السعيد في أول محرم 816 هـ، إذ «تَقَطّر به فَرَسُه بِخَنْدَقٍ، وهُو سَكرانُ، فأُدْرِكَ بِهِ، وحُزّ رَأسُهُ.. وجيءَ بِهِ إلى أبي

(249) ديوان يوسف الثالث : 117.

(250) الديوان : 97.

(251) نفسه : 62.

(252) ديوان يوسف الثالث : 52.

(253) الديوان : 99.

(254) نفسه : 101.

سَعيد» كما يقول السخاوي في الضوء اللامع[255]، ووقع إثر ذلك صلح بين أبي سعيد عثمان ويوسف الثالث، وعاد «الْوداد، بَعْد النُّوب الشِّداد» حسب عبارة هذا الاخير[256]، وفي ديوانِهِ قصيدة نظمها بهذه المناسبة في 27 صفر عام 816 مطلعها :

هِيَ بُشْرى دَعَتْ جَميعَ الْعِبادِ   للتّمادي عَلى صَرِيحِ الْـوِدادِ

وقد ختمها مضمّناً قول المتنبي :

«حَسَمَ الصُّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأعادي»[257]

وهو يعود في هذه القصيدة إلى مدح بني مرين، بعد أن كان قد هجاهم[258]، ويثنى على أبي سعيد، ويذكر فضل جدّه أبي سالم على النصريين، فيقول :

هَكَذا الفَخْرُ يا أعَزَّ قَبيلٍ   مُحْرِزٍ للسّباقِ خَصْلَ الْجِيَادِ
جَدُّ سُلْطانِكُمْ أفادَ العَوالي   فَظَفِرْتُمْ بِذُخْرِهِ المُسْتَفادِ
وَعَلَيْنا لِسِبْطِهِ حِفْظُ عَهْدٍ   مُسْتَقِلٌّ مُصَحَّحِ ٱلإسْنادِ
إذْ نُحَيِّي أبا سَعيدٍ بأزْكَى   مَا تُحَيَّا بِهِ صُدُورُ النّوادي
فاتَحَتْنا يَمِينُهُ بِكتابٍ   فأرانا كَتيبَةَ اسْتِعْدادِ[259]

ويتفاءل بأن هذا الصّلح سيمكن من الالتفات إلى العدو المشترك الذي أفاد كثيراً من الهدنة التي عقدها مع الطرفين :

حجّةُ السّلمِ أكسبَتْهُ عُتوّاً   وَبَلاَيَا مُحيطَةً بالبِلادِ

ولا نعلمُ مبلغ هذا الصّلح من الصدق، ولا مآله، غير أننا نجد الشاعر أبا الحسين يُنْشِد سُلطانه قصيدة في مناسبة عيد الاضحى 816هـ، «بالمَشْوَرِ السَّعيد، مِنْ حَمْرائِهِ

---

(255) 265 الضوء اللامع 8 : 62 أما الحسن الوزّان فيذكر أنّه هلك بالطاعون. وصف افريقيا 1 : 210.

(256) ديوان يوسف الثالث : 40.

(257) نفسه : 50.

(258) انظر قصيدته التي يقول فيها (109) :

فَلَيْسَ حمَامَةٌ مِثْلَ آبْنِ نَصْرٍ   وَلا آباؤُهُمْ شُمٌّ وِسامُ

(259) ديوان يوسف الثالث : 40.

العَلِيّة، وقَدْ وَرَدَ عَلَى بابِه ٱلكَرِيم جُمْلَةٌ وافرةٌ مِنْ أكابر بَنِي جَنابِه، مُتَمَسّكين بأَوْثق أَسْبابِه، فأولاهم أيده الله مواهب أنعمه وآواهم، ووفّر نزلهم عندَ وفادتهم وكرّم مثواهم، فاطْمأنَّت بِهِمُ ٱلدَّار، وقرَّ بحَضْرَتِهِ ٱلْقَرار». ويقول في القصيدة :

وَجاءَتْ مَرينٌ مِنْ أقاصي بِلاَدِهَا فَكَانَ لَدى مَوْلَى ٱلْمُلُوكِ حُلُولُهَا
تَحُلُّ مَطَايَاهَا بِهَا مِنْ جَنابِهِ مَنَازِلَ عِزٍّ ليسَ يشقَى نَزِيلُهَا[261]

وقد أشار الشاعر إلى هذه الوفادة، أو وفادة أخرى قبلَها، في عيدية الفطر من العام نفسه، وذلك إذ يقول :

وقفتْ بِبَابِكَ مِنْ مَرينٍ أُسْرَةٌ طَوْعَ ٱلْوَفاءِ فَمَا تُضاعُ عُهُودُهَا
وافَتْكَ لاَ تَثْنِي أعِنَّةَ سَيْرِهَا وَرَجاؤُهَا إذْ يَمَّمَتْكَ يَقُودُهَا
فأَنَلْتَ ما شاءَتْ مِنَ ٱلنِّعَمِ ٱلّتي يُرْجَى، وإنْ عَظُمَتْ لَدَيْكَ، مَزِيدُهَا[262]

ومهما يكن الأمر فإن أسباب الخلاف بين الملك النصري والملك المريني تكون قد انتهت، أو خفّت، بعد مقتل السعيد، وعودة جبل طارق إلى مملكة غرناطة، ومع ذلك فقد رأينا سلطان غرناطة يستقبل وفود المرينيين اللاجئين إليه، كما أنه ظل يتدخل في شؤون العدوة، وهذا ما يدلّ عليه قول ابن فركون : «وقَدْ وَصَلَ العبّاسُ بن غمراسَن، وَوَلَدُ اللُّبابي مِنْ قِبَلِ السُّلْطانِ أبي سَعيد، مُسْتَنْصِراً بهِ عَلى أخيه أبي عَلي المُتوفى أثناءَ إقامتِهما بالحضرة قتيلاً، بَعْدَ هَزيمة انجرّتْ عَلَيْهِ بظاهِر فاس، وقُبضَ عَليْه بَعْد ذلِك، وسيقَ لِمَصْرعه بَيْنَ يدَيْ أخيه، وكان رسوله قد ٱنْصَرَفَ صُحْبة قاضي الجماعة، وجازَ ٱلْبَحْر قَبْلَ ذلِكَ بيسير»[263].

لا نعرف من هؤلاء الاشخاص المذكورين في هذا الخبر إلاّ اللّبابي، وهو فيما يبدو، عبد العزيز ابن أبي لُبابة حاجب السلطان أبي سعيد، وقد كان خراب المغرب، وتلف دولة بني مرين على يد هذا الحاجب الذي «غَدَر مَوْلاهُ ومَخْدومَه، وَهَتَكَ سِتْرَهُ، وَخَرَّبَ

(260) الديوان : 106.

(261) الديوان : 108.

(262) نفسه : 105.

(263) نفسه : 249.

دارَه، وعَبَثَ بحَريمِه، وقَتَلَ أوْلاده وإخْوانَه»[264]، وذكر الوزان أنه فعل ذلك انتقاماً لشرفه[265]، واللّبابي المذكور من بيت بني لبابة من بيوتات فاس، وما يزال درب اللبابي معروفا في فاس بأسفل حومة المنية قريباً من زقاق الماء. (البيوتات 46).

وممّا يدلّ على استمراره في التدخّل في أمور المغرب، قول ابن فركون : «لَمَّا وُلِدَ ٱلْوَلَدُ أحْمَدُ، حفِظَهُ ٱللهُ، الّذي لَمْ يَبْقَ بقَيْدِ الْحياة بهذا الْعَهْدِ مِن إخوانِهِ غَيْرُه، ولعلّه يبقَى بفضْلِ ٱللهِ، ومَوْلِدُه ليلَةَ ٱلسَّبْت السَّابعِ برجَب عام عِشْرينَ وثماني مائة، كَتَبْتُ لمَوْلانا أبي الْحَجَّاجِ، رَحِمَهُ الله، ساعَتَئِذٍ...

وأعْمَلَ رِكَابَه ثانِي يَوْمٍ مِنْ وِلادتِهِ إلَى قَصْرِ نُبْلُه، وأنا صُحْبَتَهُ عَلَى الْعَادةِ، ثُمّ تَشَاغَلَ يومَ عَقيقَتِهِ عَنْ تَسْمِيتِه، بأمْرِ تَوْجيهِ ٱلْوزير أبي عَبْد الله ٱلْقَبَائِلِي إلَى ٱلْمَغْرِب»[266].

ولا بدّ أن هذا القبائلي، هو قريب أبي العباس القبائلي، حاجب أبي سعيد الذي أُعْدِمَ سنة اثنين أو ثلاث وثمانمائة. ويحدثنا ابن فركون عن آخر محاولات يوسف الثالث لإسقاط خصمه أبي سعيد فيقول : «وكانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَدِ ٱشتدّ بِهِ ٱلْمَرَضُ ٱلذي قَضَى عليه، وهُوَ قدْ شَرَعَ في حَرَكَةٍ تَوْجيه السُّلْطان أبي يوسُف يَعْقوب، أيَّدَهُ ٱللهُ ! وَتَوَجّه عَلَى مابِهِ مِنَ الألَم إلَى ٱلْمُنَكَّب ليباشِرَ بَنَفْسِهِ إجازَتَهُ مِنْهَا فأنْفَذَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلّ حُكْمَه في وَفاتِه، بَعْد جَواز ٱلسُّلْطانِ بأرْبَعة أيّام فَجْأةً وَأصْبَحَ مَيّتاً يومَ ٱلأربعاء التاسعِ والْعِشرينَ لِرَمضان، عام تسعَةَ عَشر وثماني مائة، بَعْد أنْ كانَ أمَرَ بالتأهُّب لإقامَةِ ما جَرَتْ بِهِ ٱلْعادةُ مِنْ رسْم العيد بالطّعامِ وَغَيْرِهِ»[267].

ثم يقول في قصيدته عن هذا الصّنيعة الدّعي ما يلي :

بُشرَى بوَعْدٍ لنَصْر الدّين مَرْقوبِ ... أتَى بِهِ مُلْكُ يَعْقوبَ بْنِ يَعْقوبِ

وَلّيْتَهُ العِزّ فارتاعَتْ لمقْدِمِهِ ... فَمُلْكُه بينَ مَوْهوبٍ ومَرْهوبِ

أنلْتَهُ مِنْ نَدَى كفّيْكَ صَيّبَةً ... تجودُه بين تَشْريقٍ وتغريب

كَثَّرْتَ سائِلَهُ إذ جدت ماحِلَهُ ... فَرَوْضُهُ بينَ مطلولٍ ومَطْلُوب

(264) نفسه : 251.

(265) وصف افريقيا : 318 ترجمة د. حجي و د. الأخضر.

(266) الديوان : 262.

(267) نفسه : 253.

إلى أن يقول :

وَلا كَيَعْقوبَ إذْ صالَتْ خلافَتُهُ بما آستحقتْهُ مِنْ فَرْضٍ وتَعْصيبِ
أنْهَجْتَهُ سُبْلَ آباءٍ لَهُ دَرَجوا حَتّى استقلَّ بأمْرٍ غَيْرِ مَغْصوبِ
أرْكبْتَهُ البَحْرَ قصداً ان تُبَلِّغَهُ مِنْ صَهْوَةِ المُلْكِ أسْنى كُلِّ مَرْكوبِ(268)

إن المصادر المغربية لم تشر مطلقاً إلى يعقوب هذا وانما وجدنا ذكره عند السخاوي الذي يقول : «وأرسل ابن الأحمر يعقوب المريني الى فاس فلم يتم له الأمر»(269) وقال في ترجمته :

«يعقوب بن عبد الله الجاناتي (أو الياباني). كان من ابناءِ البربر، وتعلّق بالأشغال.

فَلَمَّا رأى الفساد الحادث بفاس بسبب الفتنة بين السعيد وبين أبي سعيد، في سنة 817 هـ، صار يامر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكف أيدي المُفْسِدينَ، فتبعتْهُ جماعةٌ، وقويت شوْكَتُه، بحيث حاولَ ملوكُ فاس القَبْضَ عليه فأعياهُم أمره إلى أن قَتَلَهُ أبو سعيد»(270).

ويبدو من تسمية الشاعر لهذا الصنيعة النصري بيعقوب بن يعقوب، ومن سياق الضوء اللامع كذلك أنهما شخصان : يعقوب الوالد، الذي يمكن أن يكون هو المشار إليه في قول يوسف الثالث (ديوان : 126) :

لو كانَ يعقوبٌ يخافُ حِمامَهُ لَنَجا بِهِ مِنْهُ جوادٌ مُلْجَمُ
ولكانَ مِنْ شَرَكِ آلْحُتوفِ بحَيْثُ لا يَرْجو اللّحاقَ بِهِ العُقاب آلْقَشْعَمُ
لكنَّهُ لما تقارَبَ يومُهُ لَمْ يَدْفَعِ الْحَدَثانَ عَنْهُ مُنَجِّمُ

والاخر هو يعقوب ولده، وهو هذا الذي وجهه يوسف الثالث، بعد مهلك والده، وقد ذكر السخاوي أسماء مرينيين آخرين أرسلهم من خلَف يوسف الثالث لطلب ملك فاس، وإثارة الفتنة في المغرب(271).

(268) نفسه : 253 ـ 254.

(269) الضوء اللامع 10 : 283.

(270) نفسه.

(271) نفسه.

بعد هذا نتساءل عن سبب حنق يوسف الثالث على أبي سعيد، هل كان لأن والد هذا الأخير سم والد الأول في حُلّة مسمومة أهداها إليه كما تزعم الروايات[272] ؟ أم أنه كانَ ردّ فعل على محاولة أبي سعيد استرجاع جبل طارق ؟ أم أنه كان من فعل الجيران المسيحيين الذين كانوا يطبّقون سياسة «فرّق تَسُدْ» ونجحوا بأساليب محكمة في التضريب بين النصريين والمرينيين ؟ أم أنه طموح الملكين الفارغ لِيَتَغَلَّب أحدهما على الآخر ؟ أم أنه طمع المتهافتين المرينيين على طلب الملك ؟ أم أنه كل ما ذكرنا ؟ ثم من الذي استفاد من هذا الصراع المدمّر ؟ وما هي نتائجه ؟

أما المستفيد فهم القشتاليون ــ والبرتغاليون ــ الذين استغلوا ظروف هذا الصراع.

وأما النتائج فمنها ما هو عام ومنها ما هو خاص، فمن النتائج العامة ضعف الدولتين معاً، فقد انقرضت الدولة المرينية في أعقاب هذه الاضطرابات الدّموية، وانحدرت الدولة النصرية نحو السقوط، وعاشت بين الحياة والموت بقية أيامها.

وتظهر النّتائج الخاصّة بغرناطة في استيلاء القشتاليين على أنتقيرة في قلب المملكة النصرية، وفي سقوط عدد من حصون الحدود.

وأمّا النتائج الخاصة بالمغرب فأخطرها استيلاء البرتغاليين على سبتة، وعلى غيرها فيما بعد.

ولقد وصلت إلينا روايات مختلفة في كيفية هذا الاستيلاء، فالقادري في نشر المثاني يروي قصة قال عنها صاحب الاستقصا إنها تشبه قصة قصير مع الزباء، وتلك هي قصة الصنادق المملوءة بأربعة آلاف رجل التي أنزلت بمرسى سبتة والناس منشغلون بصلاة الجمعة، ونجد صدى هذه الرواية في أبيات يقال إن أهل سبتة خاطبوا بها السلطان عبد الحق المريني (اختصار الاخبار : 77 والاستقصا 4 : 92).

وفي إنباء الغُمر لابن حجر رواية مفصلة نسوقها فيما يلي، قال : «وفيها (أي في سنة 816 هـ) أخذ الفرنج سبتة، وكان السبب في ذلك أنّ أحمد بن أبي سالم المريني نزل عنها لابن الأحمر صاحب غرناطة، فانتقل ما كان فيها من العُدَد والأسلحة والذخائر إلى غرناطة، ثم اتفقت الفتنة المتقدّم ذكرها في سنة أربع عشرة بين السعيد وقريبه أبي سعيد إلى أن قتل السعيد، وأعقب ذلك الغلاء والوباء بمدينة فاس والغرب كلّه، فولّى

---

(272) الاستقصا 4 : 82.

السعيد على سبتة رجلاً سامهم سوء العذاب، ثم أرسل أبو سعيد إليها رجلاً من أقاربه يقال له صالح بن صالح فتناهى في الظلم وفشا فيهم الموت، وبلغ ذلك الفرنج فعمّروا عليهم عدّة مراكب فجمع صالح أهل الجبال وأنزلهم على البلد، فرجع الفرنج إلى جزيرة بين سبتة وجبل الفتح تسمّى طرف القنديل فأقام بها، فطال الأمر على أهل الجبال وظنّوا أن الفرنج رجعوا إلى بلادهم وقلت على أهل الجبال الأزْواد فتفرقوا، فبلغ ذلك الفرنج فنازلوا أهل سبتة فقاتلوه فغلبهم بالكثرة وملك منهم المينا فخرج المسلمون بأهلهم وأموالهم وما قدروا عليه، فدخل الفرنج البلد في سابع شعبان من هذه السنة ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية، وكان بها منها شيء كثير إلى الغاية، ونقلوا ما وجدوا بها من الرخام والآلات والأمتعة حتى الأنوال، وتركوها قاعاً خراباً ومع ذلك فهي بأيديهم فلا قوة إلا بالله».

كما يقدّم لنا الديوان مادة تاريخية حول احتلال سبتة، يقول ابن فركون في مقدّمة قصيدته :

«ولَمّا ظَهَرت ٱلعِمارةُ ٱلْبُرْطُقالية ببَحْرِ الزُّقاق، وأقامَتْ أيّاماً بِمَرْسَى ٱلْجزيرَةِ الْخَضْراء، ثُمّ كانَ بَعْدَ ذلِكَ استيلاؤها عَلَى سَبْتَة أعادَها ٱللهُ عاقَهُ ــ يَعْنِي السّلطان ــ رَحِمَهُ ٱللهُ عَنِ ٱلْخُروجِ بِنَفْسِهِ، لِقَصْدِ مُدافَعَتِها، مَرَضٌ شَديد، فُتِحَتْ مِنْ جِسْمِهِ مواضِعُ بالْحَدِيد، بَعْدَ أيّامٍ كثيرَة، فَقُلْتُ في وسَطِ جُمادَى الثّانية، من عامِ ثمانيةَ عَشَرَ وثَماني مائة؛ وظُهُورُ الأجْفان ــ وعَدَدُها مائتانِ ثِنْتانِ وأرْبَعةٌ ــ في السّادس والْعِشْرين لجمادَى الأولى مِنه»[273]

وجاء في القصيدة :

هَـذا وإنّ وَلـيّ ٱلكُفْـرِ أرْسَلَهــا ... سُفْناً لنارِ الْوَغَى في مائِها وَهَـجُ
هَذَا الْعَدُوُّ ٱلـذي وافَتْ مواكِبُـهُ ... لِلْحَرْب يرفَعُها مِـنْ بَحْرِهـا ثَبَـجُ
أقامَ في صَدْرِ مَرْسىً لاَ حَراكَ لَهُ ... كَأَنَّهُ ٱلصدْرُ مِنْـهُ ضَيّـقٌ حَـرِجُ
أتَـى بِقَـوْمٍ قَـد استَهْواهُـمُ أمَـلٌ ... يعتادُهُمْ هَوَسٌ، يقتادُهـم هَـوَجُ[274]

وهو يزعم أن البرتغاليين قصدوا أولا احتلال جبل طارق والسواحل الأندلسية، ولما

(273) الديوان : 209.

(274) نفسه : 210.

رُدّوا على اعقابهم، توجّهوا إلى سبتة التي لم يكن لها مُدافع، قال في مقطع من قصيدة طويلة عنونَهُ بقوله :

«ذكر رجوع الْعِمَارة البرطقالية عن جبل الفتح والبلاد الأندلسية ودخولها سبتة أعادها الله» :

وَمَنَعْتَ أندلُساً وقَدْ رامَ الْعِدَى ... أنْ يوسِعُوا جَمْعَ الْهُدَى تَبْديدا
خاضُوا اْلْبحَارَ لَها وعَزْمُكَ دُونَها ... فثناهُمُ وَحَمَى الفَلاَ والْبِيدا
قَصُرَتْ خُطاهُمْ عَنْ منالِ قُصورِها ... والنّصْرُ قَدْ مَدّ الطِّوالَ الْمِيدا
أقْفَرْتَ مِنْ أهْلِ الضّلالةِ أرْضَهَا ... ومَلأْتَ آفاقَ السّماءِ بُنودا
وجلَوْتَ مِنْ آياتِ عَزْمِكَ أنْجماً ... فارْتَدَّ شَيْطانُ الضّلالِ مَريدا
وثَنَى عِنانَ القَصْدِ عَنْها بَعْدَما ... وافَى طريقاً، حادَ عَنْهُ طريدا
واحتَلّ بالوطَنِ الذي لم يَتَّخِذْ ... عُلْياكَ رُكْناً في الْخُطوبِ شَديدا
سُحْقاً لمَنْ لَمْ يَنْتَصِرْ بمُؤَيَّدٍ ... لَمْ يَلْوِ طَوْعَ وَفَائِهِ مَوْعودا»[275]

وقد ردّدَ الشاعر في عددٍ من قصائده، أن سلطانه سيهب إلى غزو سبتة، وطرد البرتغاليين منها، استجابةً لنداء أهلها واستدعاء قبائلها[276]، ولكنه — فيما يبدو — مجرد كلام قاله تملقاً للسلطان، وإرضاء للعامّة أي أنه كان كلاما للاستهلاك المحلّي كما يقال اليوم، وقد أكثر الشاعر من نعت أبي سعيد خصْم مَلِكه بولي الضلال والبغي، وظهير الكافرين كقوله :

وَوَلِيُّ الضَّلال والبَغْيِ لَمّا ... أنْ غدا وهْوَ مُظْهِرٌ طُغْيانَهْ
ظاهَرَ الْكافِرينَ واعْتَزَّ حَتَّى ... أظهرَ الحَقُّ والهُدَى بُرْهانَهْ
لكأنّي بِهِ وقَدْ خابَ سَعْياً ... وَجَلَتْ دعوة الرّدَى بُهْتانَهْ[277]

ويقول فيه من قصيدة أخرى :

---

(275) نفسه : 240. وطريقا في البيت قبله هكذا وردت في الأصل، ولعلّها : طَرِيفاً أي جزيرة طريف.

(276) انظر الصفحات : 218، 224، 240، 246.

(277) نفسه : 64.

وَمَنْ أسْلَمَ الإيمانَ للشِّرْكِ عامِداً أيُفْلِتُ مِنْ قَيْدِ الْهَوانِ ويُفْلِحُ
وحلَّ عُرَى الاسْلامِ فِي عَقْدِ سَلْمِهِ غداةَ انْثَنى طوْعاً لَهَا وَهْوَ يَجْنَحُ(278)

ويقول أيضا في قصيدة اخرى :

وهذا وَلِيُّ الكُفْرِ أخْفَقَ سَعْيُهُ وخابَ وأعْلامُ الْجِهادِ خوافِقُ
وأحْكَمَ عَقْدَ السِّلْم يُرضي بهَا الْعِدى فحُلّتْ عُهودٌ عِنْدَهَا ومواثِقُ
لَئيمٌ غَدا بالسُّوءِ يَبْسُطُ كَفّهُ لِيَقْبِضَ بَسْطَ الرِّزْقِ واللهُ رازِقُ(279)

ويقول أيضاً مخاطباً ملكه أيضاً :

ولما رايتَ الغَرْبَ قَدْ فُلَّ غَرْبُه وأقْفَرَ مِنْ رَبْعِ الخلافَةِ عامِرُ
وقامَ وَلِيّ الكافرينَ بِعِبْئِها فَكَمْ مُسْلِمٍ قَدْ ذَلَّ واعْتَزّ كافِرُ
تَداركْتَها بابنِ الْخَلائِفِ مُنْعِماً وسَيْبُكَ مَبْذُولٌ وسَيْفُكَ قاهِرُ(280)

والمقصود بابن الخلائف محمد السعيد، صنيعة يوسف الثالث، كما أنّ في ديوان هذا الاخير قصيدة وجهها الى بني مرين يقولُ فيها كما سبق :

قوموا الَى نَصْرِ السّعيدِ حمايةً فالدّينُ إن لَمْ تَجْمَعوهُ يُبَدّدُ
وتَمَكّنوا في فاسٍ من عُثْمانِها واسْتَبْصِروا بِسُنَى الْحَقِيقَةِ واهْتَدُوا
أوَ لَيْسَ قَدْ أعْطَى الْعُداةَ بِلاَدَنا إعطاءَ مَنْ يُرْضي الكَفورَ ويَرْفِدُ
لم يَتّقِ الرحمنَ في الوطَنِ الذي مِنْ أجْلِهِ قَدْ عاث فيهِ المُلْحِدُ(281)

ونشير من باب الموضوعية الى أن أبا سعيد متهم بالتفريط وعدم الدفاع عن سبتة، ونجد هذا الاتهام زيادة على ما سبق عند الحسن الوزان الذي يقول : «استولى أسْطول البرتغال على سبتة عام 818 هـ وفرّ من كان بها، فدخلها النصارى دون عَناء، ومكثوا

(278) نفسه : 91.

(279) نفسه : 94.

(280) نفسه : 84.

(281) ديوان : يوسف الثالث : 51.

فيها نحو ثلاثة أسابيع، متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد الذي كان ملكاً على فاس انذاك تخاذلَ و لم ينهض الى استردادها بل بالعكس أتاه الخبر، وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال»[282].

ومهما يكن أمرُ هذا الاتهام فإنَّهُ شاعَ في المغرب والمشرق، ففي ديوان. «جَنَى ٱلْجَنَتَيْن» لابن حجة الحَمَوي قصيدة دالية وجّه بها صاحب الاندلس محمد ابن الاحمر، ولد يوسف الثالث، إلى تونس والقاهرة يطلب نجدة الملك أبي فارس الحفصي والملك المؤيد، فأجاب عنها من تونس أبو محمد القفصي وأجاب من مصر ابن حجة الحموي، وكلتا القصيدتين فيهما اتهام للسلطان أبي سعيد، وممّا جاء في قصيدة ابن حجة معرّضا به قولُهُ، مُخاطباً ابن الأحمر :

وإنْ كانَ ذَاكَ «ٱلْجَارُ» صادَقَ«شِرْكَهُمْ» عَلَيْها، وَعادَى بَعْدَ ذَاكَ «مُحمّدا»
فَمَصْرَعُهُ مَعَ عُصْبَةِ الشِّرْكِ قَدْ دَنا مِنَ الْيَوْمِ لَكِنْ حَشْرُهُ مَعَهُمْ غَدَا»[283]

ونشير إلى أن هؤلاء الذين اتهموا أبا سعيد، وخاصة الملك النصري، والملك الحفصي، كانوا من خصومه، كما أنهم هم أيضا لم يفعلوا شيئا سوى الكلام، قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب في صدر أحداث سنة سبع عشرة، وثمانمائة ما نصّه :

«في سابع شعبانها دخل الفرنج مدينة سبتة من بلاد المغرب، وخرّبوها، وأخذوا ماكان بها من الأموال والذخائر حتى الكتب العلمية، وتركوها قاعاً خراباً، ومع ذلك فهي بأيديهم، فلا قوة إلا بالله، وكان أهلها وهم محاصَرون أرسلوا قصيدة طنانة يستنجدون فيها أهل الاسلام، من أهل مصر وغيرها، مطلعها :

حماةَ الهُدى سَبْقاً وإنْ بعُد المَدَى فَقَدْ سألْتكُمْ نصرَها مِلَّةُ الهُـدَى

فلم تفدهم شيئا غير أن اجيبوا بقصيدة من نظم ابن حجة وياليتها مثلُها.»[284]، ومعنى هذا أنه كان تضامنا بالكلام، وتراشُقًا بسهام الاتهام.

وتجدر الاشارة إلى أن الروايات الاسبانية والبرتغالية تفيد أن التقصير كان من والى

---

(282) وصف افريقيا 1 : 318.

(283) جنى الجنتين (مخطوط).

(284) شذرات الذهب 7 : 124.

سبتة صالح بن صالح الياباني[285]. وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن حجر في حق هذا الوالي.

كما ان الروايات البرتغالية تذكر أن أبا سعيد أرسل جيشاً مهمّاً لتحرير سبتة بقيادة ولد الحاجب عبد الله الطريفي، ولكنه هزم[286]، وتذكر هذه الروايات أيضاً أن صلحاً انعقد بعد ذلك بين بلاط فاس وبلاط غرناطة، وتم على إثره حصار مشترك لسبتة سنة 822 هـ ولكنه كان بدون جدوى[287].

أما وصف الشاعر ابن فركون للسلطان المريني نبولي الكافرين فيشير به الى علاقته بفرناندو الأول ملك أرغون، هذه العلاقة التي أفردها الباحث الاسباني أرياس بلاو بدراسة نشرت في تطوان سنة 1956، درس فيها السفارات المتبادلة بين المَلِكين، ونشر رسائل ووثائق تتعلق بالموضوع.

ونحسب أن فرناندو الأول آستغلّ ظروف آلسياسة العدائية والعدوانية التي سلكها سلطان غرناطة مع أبي سعيد، فعَرض على السلطان المريني مساعدته، بتوجيه قطع من أسطوله لحماية الشواطئ المغربية، والحيلولة دون وصول إمدادات من يوسف الثالث إلى صنيعته السعيد[287]، ولكن هذا العرض كان مشروطا بتسليم جبل طارق الى القشتاليين، وتسليم النصارى الأسرى عنده، وتحسين معاملة التجار الارغونيين في فاس، وقد يكون أبو سعيد وعد بتحقيق الشرط الاخير فقط.

ومن الغريب أن يكون ملك غرناطة الذي كان ينعت ابا سعيد بولي الكافرين ويوحي الى شاعره ابن فركون بنعته بذلك أيضا، كان يبيح لنفسه ربط علاقات هدنة وصداقة مع فرناندو الاول، بل تذكر الروايات المسيحية أنه كان يحشر في اتفاقيات الهدنة اسم سلطان المغرب، ويعتبر نفسه مفوّضاً عنه[288]، وهذه الهدنات بين غرناطة وقشتالة في عهد يوسف الثالث وفرناندو الاول ملك ارغون والوصي على مملكة قشتالة، درسها أيضا الباحث أرياس بلاو المذكور في كتاب مستقل نشر بتطوان كذلك سنة 1956.

وعندما يتحدث الشاعر ابن فركون عن هذه الهدنات يؤيدها ويحض ملكه على قبولها، جنوحاً الى السلم وركونا إلى العافية، ويقول :

---

(285) بحث أوغست كور في نشرة الجمعية الجغرافية بالجزائر عام 1905. وانظر ترجمة صالح المذكور في جذوة الاقتباس : 358 ودرة الحجال 2 : 330.

(286) نفسه.

(287) نفسه.

(288) تاريخ بني نصر للسيدة أربية ص 130 ج1.

أعرِ ٱلْجوابَ بِهَا عَلَى ظمإٍ لَهـا تَنْقَـعْ جَـوى المُـتَشَوِّقِ الْمُـتَشَوِّفِ
واجْنَــحْ إليها مُنْعِمــاً مُتَــفَضِّلاً لاَ زلتَ أَكْرَمَ واهبٍ متَعَطِّـفِ(289)

وكرّر هذا المعنى في قصائد أخرى، وهذا عجيب، فعندما يستقبل السلطان المريني سفراء فرناندو الأول يكون وليا للكافرين، وعندما يستقبلهم السلطان النصري، ويعقد معهم روابط الهدنة والصداقة لا يكون كذلك، وهذا هو التناقض الواضح والنفاق الفاضح.

وكما عبّر الشاعر عن غيظ ملكه وحقده على السلطان المريني أبي سعيد، نجده يصلت سيفه على حاجبه الطريفي، فيقول من قصيدة :

والطّريفــيّ كانَ أصلاً لهذا الْــ قَصْدِ لا نَالَ ما ارْتَضَى واخْتارَهْ
وهَلِ الـغُصْنُ حينَ يُجْتَثّ مِنْـهُ أصْلُـهُ تَجْتَنِــي يَــدٌ أثْمـــارَهْ
أخَـذَ اللهُ مِنْــهُ خَبّــاً كَفــوراً أمِــنَ آللهَ كانَ يَرْجُــو فِــرارَهْ
كَمْ شَكَى ٱلثّغْرُ ظُلْمَهُ عِنْدمَا قَدْ أوْرَثَ الكُفْــرَ أرْضَهُ وديـــارَهْ
أصْبَحَ الْبَغْيُ شاهِراً مِنْـهُ سَيْفـاً رَيْثَما فلّتِ الخُطوبُ غِـرارَهْ(290)

ويقول فيه من قصيدة أخرى عقب هجاء أبي سعيد :

والطّريفـــيّ عَبْــدُه عَبْــدُ سوءٍ جَمَـعَ اللّـؤْمَ والخَنــى والخِيانَــهْ
سَارَ مِــن قبــلُ للْجَــحِيمِ بشيراً مُخْبِــراً أنَّ بَعْــدَه إتيانَـــهْ
أخْــذَةٌ رَوَّعَتْ وبالـــدّمِ رَوّتْ حين وافَتْ جَنابَــهُ وجنانَــهْ(291)

والطريفي هذا هو أبو محمّد عبد الله، ولي حجابة أبي سعيد بعد وفاة الحاجب فارح بن مهدي وَوصف بأنه «كان من فضلاء الحجاب»(292)، وهو باني المسجد المعروف اليوم في فاس بمسجد للاّ غريبة، وقد حبس عليه كتبا كثيرة نقلت فيما بعد الى خزانة

(289) الديوان : 61.
(290) نفسه : 55.
(291) نفسه : 65.
(292) الاستقصا : 4 : 90.

القرويين حيث ما تزال بقية منها وعليها تحبيساته[293]. وفي بيوتات فاس (47) أن «القائد عبد الله بن موسى العلج من نصارى مدينة طريف التي بأيدي الاصبنيول».

وفي الديوان إشارةٌ إلى علاقة يوسف الثالث بأبي فارس عبد العزيز الحفصي فقد وجّه هذا هدية الى الاول سجلها الشاعر في قصيدة مهد لها بما يلي : «وقلت أهنىء مقامه الكريم بالهدية المشتملة على الخيل المسومة وسوى ذلك من عجائب افريقية الواصلة من قبل السلطان بها أبي فارس عبد العزيز الحفصي»[294] وتذكر المصادر التاريخية التونسية أن هذا الملك «وظّف لأهل الأندلس في كل عام من الطعام وغيره إعانة لهم على جهاد أعداء الدين»[295].

وفي الديوان أيضا إشارة إلى علاقته مع بني عبد الواد، جاء في إحدى قصائده قوله :

هـذا وإنّ تِلِمسانـاً بـِهِ آنْـتَصَرَتْ   مُلوكُهـــا ومَعاليـــه تُراجِعُهَـــا[296]

ومهما يكن الأمر فقد اتبع يوسف الثالث سياسة جده الغني بالله في تشجيع بني عبد الواد وتحريضهم على عصيان بني مرين وفي التحالف معهم ومع الحفصيين ضد بني مرين.

ورغم مناورات بني الأحمر فقد كانت تلمسان خاضعة في فترة من الفترات لنفوذ أبي سعيد كما تشير الى ذلك بعض الوثائق[297]، كما أن ابا سعيد استجاب لاستنجاد أعراب افريقية فوجّه معهم جيشاً من بني مرين وصل الى غاية بجاية، وكان هذا سببا في حدوث نزاعٍ بين أبي سعيد وأبي فارس الحفصي[298].

من هذا العرض السريع تبدو قيمة ديوان ابن فركون، كوثيقة تاريخية نفيسة، حول فترة دقيقة وغامضة في تاريخ المغرب والأندلس، وذلك بسبب ضياع مصادرها الأصلية مثل «الروض الأريض» لابن عاصم، «وتاريخ دولة أبي سعيد» للتاورتي الذي نفهم الآن

---

(293) الخزانة العلمية بالمغرب للمرحوم العابد الفاسي : 30.

(294) الديوان : 37.

(295) الحلل السندسية 2 : 186 وتاريخ الدولتين : 125.

(296) الديوان : 98.

(297) بحث الاستاذ أرياس حول تبادل السفارات بين أبي سعيد وفرناندو الأول ملك أرغون ص 11.

(298) الاستقصا 4 : 90 — 91.

سرّ وضعه لهذا التاريخ، إذ كانت دولة أبي سعيد مليئة بالأحداث المؤلمة، ومن الغريب أن أبا سعيد هو ثاني سلطان مريني يُخَصُّ بالتأليف بعد جده الأعلى أبي الحسن المريني غير أن هذا يمثل الدولة في أوج عظمتها وذاك يمثلها في وهدة انحدارها.

ولقيمة هذا الديوان التاريخية آستجبتُ للترغيب في تحقيقه والتقديم له والتعريف بصاحبه الذي هو أبو الحسين ابن فركون، لا ابن الخطيب، كما كتب بعضهم في أوله، مع التعريف كذلك بمخدوم الشاعر يوسف الثالث النصري وعصره، وعلاقاته مع جيرانه؛ واعتمدتُ في ذلك على المضامين التاريخية في الديوان، وهي مضامين تعرف لأول مرة، وتكشف النّقاب عن محنة دولة مجيدة هي دولة بني مرين التي قدمت الكثير لأهل الجزيرة اليتيمة، وضحّت بالغالي والنفيس، في سبيل نصرة الاسلام بالفردوس المفقود، فلم تلق إلا نكران الجميل، وجحود الصنيعة، وحبك الدسائس والمؤامرات.

أمّا قيمة الديوان الأدبية فلا يتسع ما بقي من هذه المقدمة لإبرازها بتفصيل، ولهذا سنكتفي بالاشارة إلى أن هذا الديوان هو خامس ديوان شعري يصل إلينا من العصر الغرناطي، بعد دواوين ابن خاتمه وابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك(*)، وهؤلاء — كما هو معروف — هم فرسان الشعر الذين تسنّموا صهوات جياده، وحازوا قصبات السبق في ميدانه، خلال القرن الثامن الهجري في الأندلس، وهم يشكلون سلسلة متصلة الحلقات، فابن الخطيب لابن الجياب وابن زمرك تلميذ لابن الخطيب، وهؤلاء الشعراء الكتّاب يؤلفون مدرسة مشتركة السمات، إذ كانوا رجال دولة، وشعراء بلاط، وشيوخ علم، يجمعون بين تحرير الرسائل الديوانية، وتحبير القصائد السلطانية، وتسيير الأمور المخزنية، وقد كان أهل الأدب يظنون أن ابن زمرك هو آخر شعراء غرناطة المجيدين، وخاتمة أدبائها المحسنين، وذهب بعضهم إلى أن الشعر الوفيع انتهى بموت هذا الشاعر، ولكن اكتشاف ديوان ابن فركون هذا يطلعنا على شعر لا يقل جودة عما قبله، ويعرفنا بشاعر لاحق بطبقة أولئك الأعلام، فقد استطاع هذا الشاعر أن يرقى إلى مستواهم في إتقان البناء وإحكام الصّنعة، بل لعله أن يكون أكثر منهم افتِتانا في التصنيع وافْتِتانا

(*) ديوانه هو «البقية والمدرك» الذي نقل معظمه المقري في النفح والأزهار ويضاف إلى هذه الدواوين ديوان البسطي القيسي.

بالبديع، على أنّه إذا كان قد ترسّم خطى هؤلاء الأسلاف فإنه اقتبس في مديحه ونسيبه بعض طرائق المتنبي والرضي ومهيار ونحافي التجنيس والتورية شيئا من مناحي ابن النبيه وابن نباته والبهاء زهير، ويحتاج هذا إلى شرح وتمثيل سنقوم بهما في مناسبة أخرى إن شاء الله، أما الآن فإن جملة القول في قيمة الديوان الأدبية هي أنه يعرفنا بشاعر أنموذج لجيل من الشعراء الأندلسيين ضاعت أشعارهم وأخبارهم، كما أنه يطلعنا على حالة الشعر الأندلسي خلال العقود الأولى من القرن التاسع الهجري.

وفي الأخير فإن هذا الديوان وديوان البسطي القيسي يعتبران حلقتين ــ كانتا مفقودتين ــ من حلقات الشعر الأندلسي في العصر الغرناطي، وإن ظهورهما يبعث الأمل في ظهور غيرهما من تراث الفردوس المفقود.

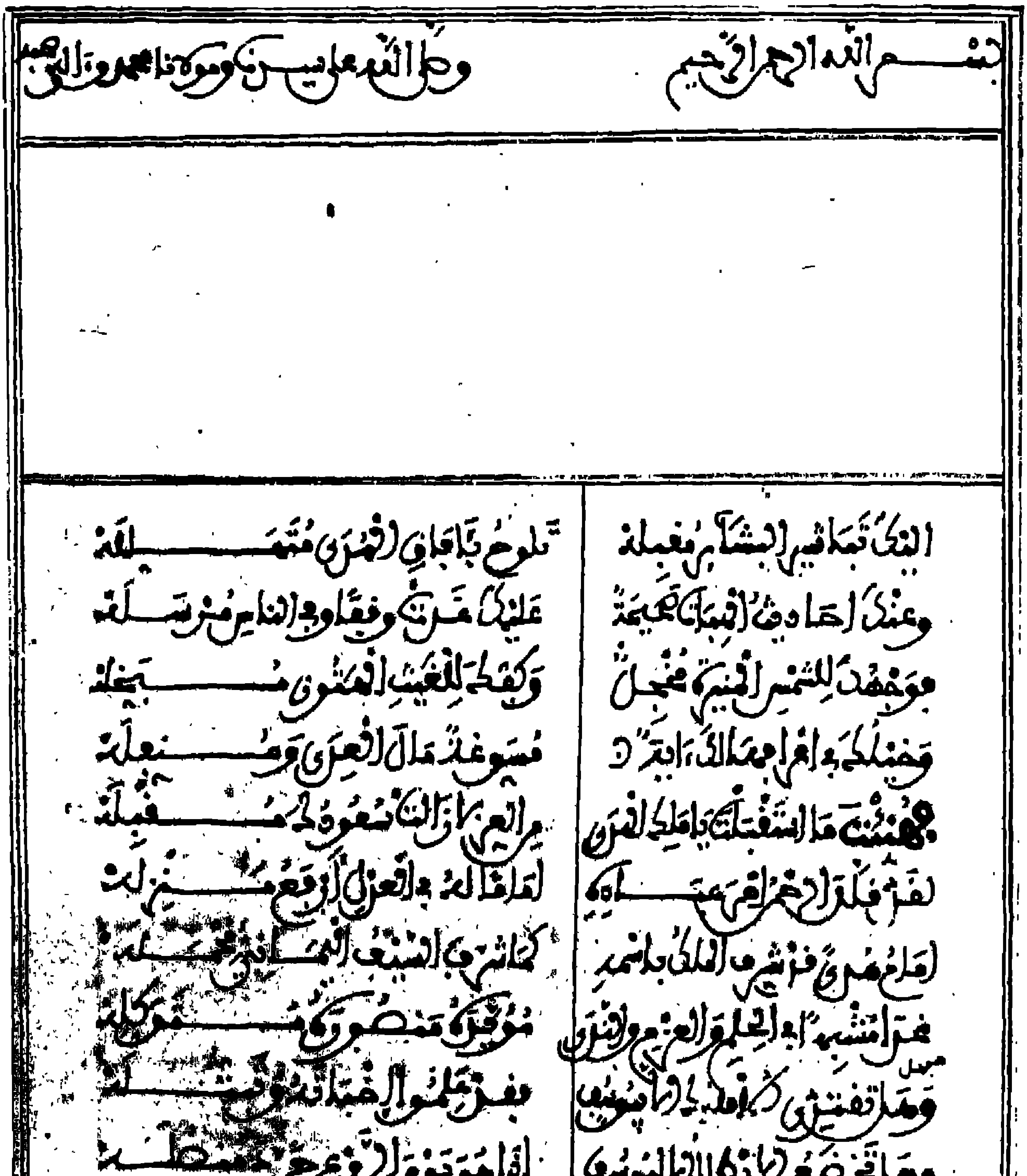
بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

أليك تباشير البشائر مقبلة — تلوح بآفاق الفخر متهللة
وعندك أحاديث الأماني صحيحة — عليك حسن وفقا وفي الناس مرسلة
ووجهك للشمس المنيرة مخجل — وكفك للغيث الهتون مسجلة
[illegible] — فسوغك مال العز [illegible]
هنيئا ما استقبلت يا ملك الورى — من العز [illegible]
لك [illegible] — لما قاله في العز [illegible]
[illegible] — كما شرف السبع المثاني [illegible]
[illegible] — موفق منصور [illegible]
وهل تفتخر [illegible] — بغير [illegible]
وهل تخضع [illegible] — إذا [illegible]
كأنك [illegible] — لفتح بلاد الكفر [illegible]
ومن [illegible] — [illegible]
وأنت [illegible] — ترى [illegible]
أفاق [illegible] — فلله ما [illegible]
ملأت [illegible] — [illegible]
وكم وارد [illegible] — فبادر [illegible]

صورة الصفحة الأولى من مخطوط الديوان

أميري الرضى هذا أوان التي ... تملّى ما تمنّى ابن الثناء
هنيئا والهناء لنا جميعا ... بمولود يحوز به الهناء
بأمر كان مرتقى الثناء ... من الملأ الكرام كما أتاه
كأنك بديوان الفضل منه ... لها والبيته ولك البقاء
ويرقى من تقاك بعز قوم ... يكون له على ذاك استواء
تقر به العيون ويرتجيه ... ذوو الآمال الآكل بلا رجاء
فما بسعود ذي المهد احتفالا ... قياما ما على هذا غطاء
لقد كرمت أواصره وطالت ... وعز فما لها تعزى انتهاء
أبوه أبو الحسين وأكرم ما ... عليه المجد رفعا والعلاء
تبين لنا كما تهوى المعالي ... عظيم القدر ما طلعت ذكاء
دعونا لك الإله دعاء صدق ... وأرجو أن يجاب لي الدعاء

سيدي أبقاكم الله تتبع للخاطر ما ترون مما لا يباع ولا يبتاع، وإنه حاشو ذكري فيه لمن سقط المتاع، وكان لها عنه مكتتب، وعهدتكم أن لا أعود فيكتتب، حسبنا علم الله بما احتسبته، ولداعي المجد فيما اجتنبته، وقد كلفنا الكتب ليس تخفيفا عليه ثم غلبني الشوق ونمضت عنوا لمطارف البديع التي تعلموا أنهم أضيع وأصحبنا في جنا بكم العالي، ولا تشغلوننا عن قصد تلك المعالي، تعرفت أن الوقت مغمور بما شغب الناس من تضييع الحزن، والتعزيه في حادثة الغير عاملة الله ووقاه من جميع الأحزان، ولا تزال شآبيب الله من بارئكم هناك، والسلوان على أوضح المسالك، والله عز وجل يصل إسعادكم، ويفسح في الخير والعافية آمادكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من معظم قدركم، ومن أن يحمد كم وشكركم، أخو التشريف المعالي السيد

فراجعته بديهة على منظومة

يجد في اعتلائه واعتلاء ... فرام لقدرك السامي العلاء

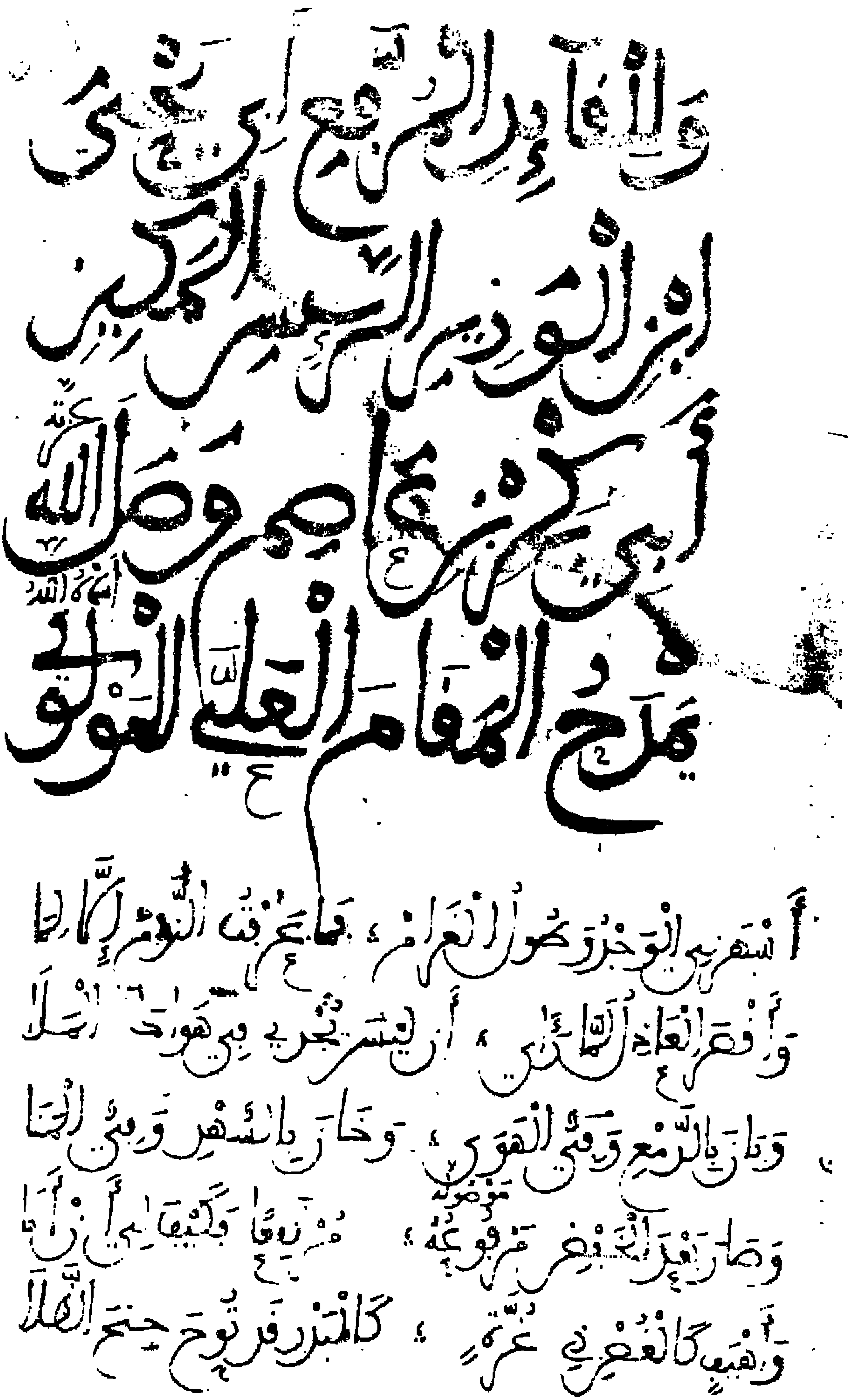

صفحة من مجموع «مظهر النور الباصر» في أمداح الملك الناصر
من جمع الشاعر أبي الحسين ابن فركون وبخطه عن مخطوط خ.ع.ر (رقم 23 ج)

ديوان ابن فركون

بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

إِلَيْكَ تَبَاشِيرِ البشَائِرِ مُقْبِلَهْ   تَلوحُ بآفاقِ الهُدَى مُتَهَلِّلَهْ[1]
وعنْكَ أحاديثُ الهِباتِ صَحيحَةٌ   عَلَيْكَ غَدَتْ وَقْفًا وفي الناسِ مُرْسَلَهْ[2]
فَوَجْهُكَ للشمْسِ المنيرةِ مُخْجِلٌ   وكَفُّكَ لِلغَيْثِ الهَتُون مُبَخِّلَهْ
وَخَيْلُكَ في أعْرافِهَا لكَ آيَةٌ   مُسَوِّغَةٌ مَالَ العِدَى ومُنفِّلَهْ
فهُنِّئْتَ ما استَقْبَلْتَ يا مَلِكَ الهدَى   مِن العِزِّ لازالتْ سُعودُكَ مُقْبِلَهْ
لقَد قَلَّدَ الرحْمانُ أمْرَ عبادِهِ   إمامًا لَهُ في العَدْلِ أرْفعُ مَنْزِلَهْ
إمامُ هُدًى قدْ شرَّف الملكُ باسْمِهِ   كما شَرَّفَ السّيفُ اليَمانيُّ مِحْمَلَهْ
غَدا مُشْبهًا في الحِلمِ والعزْمِ والنّدَى   مُؤيِّدَهُ مَنصُورَهُ مُتوكِّلَهْ[3]
وَهَل تقتدِي الأملاك إلا بيُوسفٍ   فقدْ عَلِمُوا إخْباتَهُ وتَبتُّلَهْ[4]
وهل تخضَعُ الابطال إلا لِيُوسُفٍ   إذا هو يَومَ الرَّوعِ جَرَّد مُنصُلَهْ
كأنّي بخَيْلِ اللَّهِ وهوَ يُجيلها   لفتح بلادِ الكُفْرِ غرًّا محجَّلَهْ
وهِندِيهُ قد صحّ أنّ هُيامَهُ   بِهامِ العِدَى أنحى عليها وأنْحلَهْ
وأسْمَرُهُ الخَطِّيُّ من طرَبٍ بِها   تَرنَّحَ في كفِّ الكَمِيِّ فأرْسَلَهْ

---

(1) وردت هذه القصيدة الأولى في الديوان بدون تقديم، ويبدو أنها أوّل قصيدة رفعها الشاعر إلى الملك يوسف الثالث غداة بيعته.

(2) فيه تورية بالصحيح والمرسل المعروفين في مصطلح الحديث.

(3) المؤيد والمنصور والمتوكل ألقابٌ لخلفاء عبّاسيين وغيرهم، ولعلّه يقصد العبّاسيين، ويمكن أن تنطبق الصفات المذكورة عليهم فيكون في البيت لفّ ونشر مرتّب.

(4) فى الأصل : وَهَلْ، وفوقها : فهل.

أقامَ صَغاهُ في نحور عُدَاته ... فللهِ ما أعْداهُ حُكمًا وأعْدَلَهْ[5]
مَلائِكَةُ السبْعِ الطِّباقِ تَحُفُّهُ ... إذا ما غَدا والنَّصْر يَقْدُمُ جَحْفَلَهْ
وكمْ وَارِدٍ يَبْغي النَّدَى أَمَّ بابهُ ... فأورَدَهُ جَدوَى يَديه وأنْهَلَهْ -1-
هو المِلكُ المَوْلى الهمامُ الذي لهُ ... مَكارِمُ تُزْري بالغمَائم مُسْبَلَهْ
ورَأيٌ رشيدٌ لوْ تَقادَمَ عَهْدُهُ ... لأمَّلَهُ فيه الرَّشيدُ وأمَّ لَهْ[6]
مِن النفَرِ الغرّ الذينَ وُجوُهُهُمْ ... لإشراقِها تعْنو البُدورُ مُكمَّلَهْ
لك المَجْدُ في الأمْلاكِ يُروى حَديثُهُ ... وقَيْسُ بنُ سعْدٍ في القَديم تأثَّلَهْ[7]
فآباؤُكَ الأنصارُ جاءت بذكْرهمْ ... لنا سُوَرٌ في مُحْكَمِ الذكر مُنزَلَهْ
هُمُ أوْضحوا نَهْجَ الهِدايةِ للوَرى ... وهمْ نصرُوا دينَ الإلاهِ ومُرسلَهْ
سَعى نحْوَهُ السيْفُ الصقيلُ فَراعَهُ ... وجَدّ لَهُ الرمْحُ الطويل فَجدّلَهْ
بِماذَا عَسَى يُثْني ٱلبَليغُ وقَدْ أتَتْ ... بِذلك آياتُ ٱلكِتابِ مُفَصَّلَهْ
أمَوْلايَ لاَ ياتي بوَصفكَ شاعرٌ ... ولوْ أنَّ قُسًّا فيه أعْمَلَ مِقْولَهْ
ولكن بالامْداحِ آتي فإنَّها ... بأغراضِ من ياتِي بها مُتكفِّلَهْ
فعبْدُكَ يُهْديهَا إليك وسائِلاً ... أبَى اللَّهُ أنْ تُلفَى بجُودك مُهْمَلهْ
أقِلْهُ أنِلْهُ وفّ ما قدْ وعَدتَهُ ... قديمًا وبَلِّغْهُ الذي منكَ أمَّلَهْ
نَداكَ غَمامٌ والنّظامُ حديقةٌ ... بهِ قدْ غدتْ أدْواحُها مُتهَدِّلَهْ
وهل هُوَ إلا الرَوْضُ باكرهُ الحَيَا ... فأوْدَعَ ريَّاهُ صَباهُ وشَمْألَهْ
فتأْخُذُ من جَزْلِ النِّظام قلائِدًا ... وتعطِي جَزيلَ المَالِ من غَيْر مَسألَهْ
فَدُمْ ناصِرَ الدِّين الحنيفِ وكَهْفَهُ ... ومَلجَأهُ في الحادثاتِ ومؤئِلَهْ

---

(5) صغاه : ميله.

(6) في البيت تجنيس، والرشيد هو الخليفة هارون.

(7) قيس بن سعد بن عباده الانصاري صحابي ولد صحابي، وله أخبار في المجد والجود، ومن ذريته بنو نصْر ملوك غرناطة.

وشفَعْتُها ليوْمٍ ثانٍ بقصيدةٍ ثانيةٍ ولَها
حِكَايَةٌ مُتقدّمَةٌ حسَبَما يظْهَرُ مِنْهَا(8)

هَنيئًا فَصنْعُ اللّهِ وافَاكَ بالـبُشرى   وأبْـدَى مُحيَّاه الطَّلاَقـةَ والـبِشْرا
وهل هو إلا الصّنعُ أهْداكَ آيـةً   فكانتْ على نَيْلِ المنَى آيَةً كبْرَى
هُوَ القدَرُ المحْتُومُ حيًّا به الهُدَى   فُبعْدًا لِعُسْرٍ أعقبَ اليُمنَ واليُسْرا
حَلَلْتَ بدارِ المِلكِ والسّعْدُ يقتَضِي   لِمُلْكِكَ أن يلْقَى بهَا العِزَّ والنَّصْرا
وأشرقَ ذَاكَ الوجْـهُ بالقُبّـةِ التِـي   عَجَائِبُهَـا تُـرْوَى وأنعُمُهـا تُتْـرَى - 2 -
لِـذاك لَثمْنَاهَـا يمِينًـا كَريمَـةً   ولوْ لَمْ يكُنْ عَذْبًا نَدَاها غَدَتْ بحْرَا
لغِرْناطَـةٍ أعْمَـلتَ وِجْهَـةَ نَـاصِرٍ   يَهُزُّ لِنَصْرِ الدّين صَعْدَتَهُ السّمْـرا
مَدَدت إلى التّقبيـل رَاحَـةَ مُنْعِـمٍ   أطَلّنَا علَى تقبيلِهَا الحمْدَ والشكْرَا
فلِلّـهِ أعْـلامُ الجِهَـادِ كأنَّهَـا   سَحَابٌ وشمْسُ الأفق طَلْعتُكَ الغَرَّا
سَتُنْهِضُ لِلغـاراتِ خَيْـلاً مُـغيرةً   تُطيلُ ارْتياحًا وهْيَ ما قارَبَتْ خمْرَا
وما ذاكَ إلا حيْث أنت مُملكٌ   قواعدَهـا طَوْعًـا وكفّارَهـا قَهْـرَا
تَسُلُّ عليْهِمْ في لَظى الحَرب مُرْهَفًا   فَتُورِدُهُـم منه على ظمَـإٍ نهْـرَا
وتَفْتَـحُ أقطـارَ العَـدُوِّ بعَزْمَـةٍ   فَتَقْمَـعُ مغْتـرًّا وتُـوسِعُ مُعْتـرًّا
فَلِلّـهِ في الاسْلامِ أيـامُكَ التِـي   أقَرَّتْ له عَيْنًا كَما شَرَحتْ صَدْرَا
فكَم من ثُغور كَالعَذارَى تَبَرّجَتْ   وقد أضْحكَ الفَتْحُ المُبينُ لهَا ثَغْرَا
فَيا راكِبَ الوَجْناء يَطْوى بها الفَلاَ   يَرُومُ بطَيّ القَفرِ أن يُذْهِبَ الفَقْرَا
وقدْ أُرْسِلَتْ مثل السّفينِ ملجّجًا   وما اتّخذت إلا السّرَابَ بها بَحْرَا
إذا كنتَ تبغِي مَوْرِدَ الجُود فاعتَصِم   بِمن تُرْتَجي الأمْلاكُ نائِلَهُ الغَمْرَا
بأعْلَى مُلوكِ الأرْضِ ذَاتًا ومَحْتِدًا   وأرْفَعِهِـمْ قَدْرًا وأشهَرِهِـمْ ذِكْـرَا

(8) هذا التقديم يشيرُ إلى كلام سبق ذكره في سفر سابق لعلّه السفر الأول من الديوان، وقد يكون الشاعر حكى فيه كيفية تخلّص يوسف من سجنه بشلوبانية وتمكنه من الملك بعد موت أخيه محمّد.

بأكْرَمَ من يكسُو المَلابسَ قد ضَفَتْ	وأشرَفَ من يمْطِي المحَجَّلَةَ الغرّا
فكَمْ آمِلٍ قد أمَّ جُودَ يمينِهِ	فيُسِّرَ لليُسْرى وفُوتِحَ بالبُشْرى
إذا فاض نيلُ الجُودِ من كفّ يُوسُفٍ	كفَى نيْلُهُ العافين أن يَهْبِطوا مصْرًا(9)
وإن لاحَ نورُ الصّبحِ من وجْهِ يوسُفٍ	رأيْتَ نجُومَ الأفْقِ قدْ رَعِشَتْ ذُعْرَا
سيُطلِعُ في ليْلِ العَجاجِ نُصولَهُ	نُجُوما ويُبْدي مِنْ عزيمَتِهِ فجْرَا

منها بعْدَ أبيَاتٍ

بحقِّكَ يامَوْلايَ لا تنسَ عهدَ مَن	يحَادِثُ مَوْلاهُ بأفْكارِهِ سِرَّا
فكَمْ باتَ في جَمْرِ الغَضى مُتَقلّبًا	وذكرُكَ يُذْكِي في جَوانحِه جَمْرَا
إلى أن رَأى ذاكَ المحَيَّا فأصبحَتْ	صُدُورُ القوافِي تَشْرحُ القلبَ والصّدْرَا
فَدُونكَهَا تهْدي الهَناءَ حَديقَةً	مُهَدَّلَةً دَوْحًا مُؤَرَّجَةً نشْرَا
وقد راقَ لوْنُ الحِبْرِ فوقَ بَياضِهَا	كما راقَ لوْنُ الخالِ في وجْنَةِ العَذْرا
ومِن فكْرِ مولانا وخط يمينِهِ	غدَا العَبْدُ في جيدِ العُلى ينظِمُ الدُّرَّا
فَرُحْماكَ فيها بنتَ فكْرٍ كأنها	أتَتْكَ على استحيَائِها تَشْتَكِي الدَّهْرَا
ومَقصَدُها منكَ القبُولُ فجُدْ بهِ	لعبْدٍ محبٍّ أخلصَ السِّرَّ والجَهْرَا
بَدائعُ هَبَّتْ للثناءِ نواسِخٌ	وما اتخذتْ إلاّ حدَائقها مَسْرَى
فنثرٌ يُباهي نثْرةَ الأفْقِ بهْجَةً	وشِعْرٌ يُضاهي في مَحاسِنِها الشِّعْرَى(10)
ولِلهِ كمْ أبْدَت يداهُ يَراعَةً	يَفُلُّ شبَاهاَ البيضَ والأسَلَ السُّمْرَا
سَقاهَا مُدامَ الحِبْرِ حتَّى استَمالَها	فهلْ سَجَدتْ شُكْرًا كما رجَحتْ سُكْرَا
وقدْ نَذَرَ المملوكُ إنشادَ هَذِهِ	لَدَيْكَ فما وَفَّى يمينًا ولا نَذْرَا

(9) فيه اشارة إلى الآية الكريمة : اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ؛ وفي البيت تورية وتجنيس.
(10) النثرة والشعرى من أسماء النجوم والمنازل المعروفة.

ولكنَّ حسْبِي مِنْكَ أدْنَى إشارَةٍ ... إلَيَّ بلحْظِ اللحْظِ ترْفَعُ لي ذِكْرَا
بَقيت لدينِ اللّهِ تنْصرُ أهْلَهُ ... مُطاعًا إذا ما تُنْفذُ النهْيَ والأمْرَا

وصَدَرَ عَنّي في مَدْح مقَامه الكَريم أعْلاهُ اللهُ في آخر شهْرِ ذِي الحجّة المذكُور قبْل[11]

حَاديَها أيْنَ بهَا تَذْهبُ ... إذْ لَيْسَ عن ورْدِ المنى مَذْهبُ
هَذا هُوَ الربْعُ بِهِ للظِّبَا ... والأنْجُمِ المَرتعُ والمَرْقبُ
إن تسْأَلِ الرِّفْدَ يجُدْكَ الحَيَا ... أوْ تسْتَضِيء فالنُّورُ لا يُحْجَبُ
لا يُظْمِئُ الوَجد الحُمُولَ التي ... سَرَتْ ومن دمْعي لها مَشْرَبُ
شَامت سَنَا بَارِقِها كُلّما ... يجِيءُ في الظلْمَاءِ أوْ يذْهبُ
إنْ هُزّ فهْوَ ذابِلٌ مُشْرَعٌ ... أوْ سُلّ فهْوَ صارِمٌ مُذْهَبُ
وأدْهَمُ الليْلِ يُجِدُّ السُّرى ... يَتْبعُهُ منْ صبْحِهِ أشهَبُ
قد عُقِدَ الفجْرُ لهُ رَايَةً ... عِقْدُ الدّرَارِي تحْتَهَا يُنْهَبُ - 4 -
وجيرَةُ الحَقّ لهُمْ أوْجُهٌ ... نورُ الضحَى بحسْنِها يعْجَبُ
يَشِيبُ وَجْدُ القلبِ من ذِكْرِهمْ ... مهْما تبَدّى فَوْدُهُ الأشيَبُ
سَعَى بيَ الوَاشِي لهمْ عندَما ... قدْ خَيَّمُوا والسَّعْيَ ما خَيَّبُوا
مالِي ولِلعذّال ما شأنُهمْ ... كُلُّ مُحِبٌّ بِهِمُ مُتْعَبُ
قدْ عَلِموا بأنَّ أهْلَ الْهَوَى ... كُلُّ عَذابٍ عِنْدَهُمْ يَعْذُبُ
هَلْ أعْيُنٌ فُوّقْنَ أمْ أسْهُمٌ ... تُصْمِي بِها قُلُوبَنَا الرَّبْرَبُ
هذا وكَمْ للدّهْرِ من جَفْوةٍ ... لاتُبْلِغُ الآمِلَ ما يَطْلُبُ

(11) لم يتقدم ذكر لشهر ذي الحجّة فيما سبق، وعليه فالإحالة على ماورد في سفر سابق على هذا السفر الذي بين أيدينا من الديوان، وهذا ما تدل عليه أيضا اشارات أخرى في هذا السفر، وقد وردت هذه القصيدة في مجموع «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» من ص 177 إلى ص 181 مخطوط خ.ع.ز. (ج 23). وعلى ضوئها أصلحنا ما وقع في الديوان من خلل ونقص.

كَمْ قَلَّبَتْ قلبيَ في جَمْرِهَا ... وإنهُ لحُوَّلٌ قُلَّبُ
دَهْرٌ جَهامٌ سُحْبُهُ كُلَّمَا ... يُرجَى الحَيَا وبَرْقُهُ خُلَّبُ
فأيْنَ منهُ يا إمَامَ الهُدَى ... إلاّ إلى عليَائِكَ المَهْرَبُ
حَدَائِقُ الآداب مُذْ أمْحَلَتْ ... ما هَبَّ منهَا نَفَسٌ طَيبُ
ولمْ يجُدْ للْجودِ غَيْثٌ بهَا ... فلاَ جَنابٌ عندَها مُخْصِبُ
لكِنَّ مَوْلانا لهُ راحَةٌ ... ديمَتُها الآن بها تَسْكُبُ
لا عَجَبٌ ممَّا جَفا أوجَنى ... فكُلُّ دَهْرٍ شأنُهُ مُعْجِبُ
كَمْ منَعَ المَرْغوبَ لي مانحًا ... ما كُنْتُ عنهُ دائمًا أرْغَبُ
كَمْ صَدَّني عن مَطلبي ظَالِمًا ... وسُدَّ لِي دُونَ المُنَى المَذْهبُ
كَمْ حَمَّلَ المُغْرَمَ مَا لا يَفي ... بِحَمْلِهِ رَضْوَى ولا غُرَّبُ[12]
كَمْ ليلَةٍ قَدْ بِتُّها سَاهِرًا ... تَكادُ فيها الشُّهْبُ لا تَغْرُبُ
وَبَدْرُها كأنَّهُ بَيْنَها ... وجْهُ ابْنِ نصْرٍ حَفَّهُ المَوْكِبُ
يُوسُفٌ النّاصِرُ بحْرُ النَّدى[12م] ... ومَن له قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ أبُ
فَالهامِيَانِ رَحْمَةً لِلْوَرَى ... نَوالُهُ والمَطَرُ الصَّيِّبُ
والنَّيرانِ في ظَلامِ الدُّجَى ... جَبينُهُ المُشْرِقُ والكَوْكَبُ
والطَّيعَانِ لِعُلَى مُلْكِهِ ... بعَدْلِهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ - 5 -
والماضِيانِ منهُ يَوْمَ الوَغى ... عَزْمَتُهُ وسيفُهُ المُرْهِبُ
والأشْرفانِ بِحُلَى مُلكِهِ ... مَدْحِى لمَوْلاَيَ وما أكْتُبُ
والناصِرانِ مَن لِمَرْوانِها ... يُنْمَى وَمَن لِسَعدِها ينسَبُ
ذلك مَلْكٌ أصْلُهُ مكَّةٌ ... وذَا إمَامٌ أصْلُهُ يثرِبُ[13]

(12) جبل رَضْوَى معروف، أما غُرّب فهو اسم جبل في الشام، وقد ورد ذكر غُرّب في شعر لبيد وجران العود والمتنبّي وغيرهم. راجع المادة في معجم البلدان لياقوت.

(12م) بحر الندى : في المظهر : بدر الهدى، وفوقها رواية الديوان.

(13) الناصر المرواني المكي الأصل هو عبد الرحمن الثالث، والناصر السعدي المدني الأصل هو يوسف الثالث ممدوح الشاعر.

أنصارُ دينِ اللّهِ آباؤُهُ ... لِلّهِ مَوْلًى منهُمُ أنجَبُوا[13م]

مَوْلًى يُنيلُ الخلقَ إرْفادَهُ ... إن سألُوا والعَفْوَ إنْ أذْنبُوا

مَكارِمُ الأخلاقِ تقضي لَهُ ... أن يَبْذُلَ العُتْبَى ولاَ يَعْتُبُ

فالحِلْمُ والعِلْمُ لَهُ شِيمَةٌ ... والحزمُ والعَزمُ الذي يُرْهَبُ

مَآثِرٌ لَيْسَتْ لمَلْكٍ مَضَى ... هَيْهاتَ لا تحْصَى ولا تُحسَبُ

لَوْ أبصرتْ منْهُ مُلوكٌ مضتْ ... مآثرًا عن ذاتِهِ تُعرِبُ

بالنَّصرِ والهَدْيِ وبالرّشْدِ في ... آرائِهِمْ وَالأمنِ ما لقّبُوا

في حَرْبِهِ أو سلْمهِ سيْفُهُ ... وسَيْبُهُ المُرهِبُ والمُرْغِبُ

إنْ قَطَّبَ الخَوْفُ وُجُوهَ العِدَى ... فكُلّ ثَغْرٍ ثغْرُهُ أشنَبُ[14]

سوْفَ يُرَى يَفْتَحُ مِنْ أرْضِهِم ... ما هُوَ مُسْتَعْصٍ ومُسْتَصْعَبُ

والبِيضُ قد قامت لديْه عَلى ... منَابرٍ مِنْ هَامِهِمْ تخطُبُ

والسُّمْرُ ترْتاحُ إذا ما غَدا ... سِنانها مِنْ دَمِهِم يُخْضَبُ

يا مَلِكَ الدنْيا الذي عَدْلُهُ ... [به] آنجلَى عن أفْقِهَا الغَيْهَبُ

بَلَغتُ آمالي بمَا نِلْتُهُ ... لمْ يَبْقَ لي منْ بَعْدِها مَطلَبُ

فلا يخيبُ اليَوْمَ لي مقْصَدٌ ... ولا مَرَامٌ رُمتُهُ يَصْعُبُ

مَوْلايَ خذهَا مِدْحَةً فَذَّةً ... ولَفظُها عنْ مَقْصَدِي مُعْرِبُ

قَبُولُكَ القَصْدُ فمَن نالَهُ ... فَوْقَ السّحابِ ذيْلَهُ يَسْحبُ

وصْفُكَ لا ياتِي بهِ شاعِرٌ ... سِيَّان مَن يُطنِبُ أوْ يُسْهِبُ

قَدُمْتَ لِلإسْلامِ ما أصبَحَتْ ... شمْسُ الضحَى أنوَارَها تصْحَبُ - 6 -

---

(13م) رواية مظهر النور : أنجبُ، وهي هكذا نعت مولى.

(14) في البيت تجنيس على طريقة قول الشاعر عبد الله بن طاهر :

وإنّي للثّغرِ المخوفِ لَكالِئٌ ... وللثّغرِ يجْري ظَلْمُه لَرَشوفُ

ورواية المظهر في آخر البيت قبله : المرغب والمرهب.

وقلتُ في مدحهِ أيّده الله في أوَّل
محرّم عام أحَدَ عَشَر وثماني مائة حسَبما يظهر منها[15]

أمِن بـارِقٍ أعْـلامَ نَجْـدٍ يصافـحُ ... تذكَّرْتَ عهْدًا بالحِمَى وهْوَ نازحُ
يلـوحُ بآفـاقِ الثّنَايَـا كأنَّـهُ ... مُصَافِـي وِدادٍ بـالسَّلامِ مُصَافِـحُ
كَلِفْتُ على بُعْـدِ المَزارِ بجيـرَةٍ ... جوَانِحُنـا وجـدًا إليهِمْ جوانِـحُ
لَقَدْ قيّـدَ الأَبصارَ حسْنُ أوَانِسٍ ... لهُـنّ قلُـوبُ الهَائِـمِين مَسَارِحُ
ومَا هِمْتُ حَال البُعْدِ إلاّ لأنهَا ... قلوبٌ تـلاَقتْ والجسُومُ نـوَازِحُ
ومـا ارْتـاحَتِ الركْبان إلاّ لِأنّـه ... تُطارِحُنـا بَثّ الهَـوى ونُطـارِحُ
وما انعَطفَت إلاّ غُصُونٌ نَواعِـمٌ ... ومـا الْتَفـتَتْ إلاّ ظِبـاءٌ سَوانِـحُ
وما حَلَّتِ القلبَ المَشُوق سِوَى حُلًى ... بها الجفْنُ في روْضِ المحَاسِن سَارِحُ
وما سال دَمْعُ العَيْنِ إلاّ مُصرِّحًا ... بما أضمَرَت منْ حُبهِـن الجَوَانِـح
وَمـا ضُمِّـنَتْ إلاَّ أحـاديثَ خلَّـةٍ ... أُتيحَ لَها منْ صاحِبِ العَيْنِ شارِحُ[16]
وما طَابَ عَرْفُ الزّهْرِ إلاّ لأنّهُ ... تُمازِجُـهُ مِـنْ ذِكْرِهِـنَّ نَوافِـحُ
وما رَاقَ نَظمُ الشّعْرِ إلا لِأن غَدَتْ ... لِناصِرِ دينِ اللهِ فيـهِ المَدائِـحُ
وما أشرَقَ الإِصبَاحُ إلا لأن بَدَتْ ... عَلى الشمْسِ من وجْهِ ابْنِ نَصْرٍ مَلامِحُ
وما رَاعَ نَسْرَ الشهْبِ إلاّ جَمَالُهُ ... فَحُطَّ جَنَاحٌ منهُ لِلغَربِ جَانِـحُ
ومـا ارْتـاعَتِ الشهْبـانُ إلا لأنـهُ ... تعالَى لهُ قَدْرٌ على الشهبِ طَامِحُ[17]
ومـا رَعِشَتْ إلاَّ لِتَأْخُـذَ حِذرَهـا ... وقدْ راقَ صُبْحٌ من مُحيَّاهُ لَائِحُ
ومـا اعْتَـزَّ دينُ اللَّـهِ إلاّ لأنَّـه ... يُدافِعُ أحْـزابَ العِـدَى ويُكافِـحُ

(15) توجد هذه القصيدة أيضًا في مجموع «مظهر النور الباصر» من ص 181 إلى ص 185 وبين النّسختين تطابق تام.

(16) صاحب «العين» هو «الخليل» بن أحمد الفراهيدي.

(17) الشُّهْبان : الشهُب

وما سَيْفُهُ إلاّ دَمَ الكُفْرِ سافِحٌ   وما حِلمُهُ إلاّ عن الذنْبِ صافِحُ
هُو المَلِكُ الأعْلَى الهُمامُ الذي بهِ   تجلتْ من الدَّهر الخُطوبُ الفَوادِحُ
وهَل يـوسُفٌ إلاّ إمـام مؤيَّـدٌ   لهُ تخْضَعُ الصِّيد المُلوك الجحَاجِح[18] - 7 -
وهـل يُـوسفٌ إلاّ إمَـامٌ لعزمـهِ   تَلينُ صُرُوفُ الخطبِ وهْيَ جوَامِحُ
يُعَـوِّذُ بالسَّبْـعِ المَثانِـي كَمَالُـهُ   وتُتْلَى عليه المُحْكَمـاتُ الفَواتِـحُ
تـواضَعَ لِلّـهِ العَظيـمِ وقَـدْرُهُ   لـهُ فـوْقَ آفاقِ النُجومِ مَطامِـحُ
يَنِـمُّ من الأمْـداحِ طيبُ ثنائـهِ   فَـتَسْرِي برَيَّـاهُ الرِّيَـاحُ اللَّواقِـحُ
- 8 - يَفيضُ عَلَى العَافيـنَ جُـودُ يَمينِـهِ   فَترْوي النَدَى عَنهُ السَّحَابُ الرَّوائحُ
لَقَـدْ أمَّـلَ الـقصَّاد منـهُ مَثابَـةً   لهَا القَصْدُ مَبْرورٌ بها السَّعْيُ ناجِحُ
كأنّ عَطايَا يُوسِفٍ وَاهِبِ النّدَى   غَـوَادٍ غَـوَادٍ بالنّـوالِ روَائِـحُ[19]
كأنَّ سجَايَا يُوسِفٍ مِلِكِ الهُـدَى   كَواكِبُ في أفْقِ السَّمـاءِ لَوائِـحُ
كأنّ مَذَاكِي يُوسِفٍ يـوْمَ حرْبِـهِ   سَفائِنُ في بَحْرِ النَّجيعِ سَوابِـحُ[20]
كأنّ عوالي يُوسِفٍ قُضبُ دَوْحَةٍ   تُظِـلُ وَمشبُـوبُ الهواجِـرِ لآفِـحُ
سَتَغـزُو الأعَـادي والبُـروقُ صَوارِمٌ   يَحُـفُّ بها لِلشهْبِ رامٍ ورَامِـحُ
وتَمْلك أرْضَ اللّهِ غَرْبًـا ومشرِقًـا   وهَل مانِعٌ من ذاكَ واللّهُ مانِـحُ
حسَامُكَ مسْلولٌ وسَهْـمُكَ صائِبٌ   وجُنـدُكَ مـنصورٌ وسعْـدُكَ فاتِـحُ
ورِفْـدُكَ ممْنـوحٌ وعَفْـوُكَ شامِـلٌ   وبِشْرُكَ مبْـذُول وفضْلُكَ واضِحُ
وها أنا يا مولايَ قصْدي مُبَلَّغٌ   بما كُنْتُ أرْجوهُ وتجْـرِي رابِـحُ
وَربْعِـي مَعْمـورٌ وأفْقِـي نيِّـرٌ   ورَوْضِي مَمْطورٌ وزهْـرِي نافِـحُ
فخذْهـا كما شاءَ البَيـانُ عَقيلَـةً   إليك بهَا طِرْفُ البَلاغَةِ جامِـحُ

(18) الجحاجح جمع جحجاح وهو المسارع إلى المكارم.
(19) غوادٍ الأولى جمع غادية وهي السحابة الممطرة، والثانية تقابلها روائح.
(20) المذاكي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.

وما أنا في نظمي مُجيدٌ وإنّما قَبُولُكَ زَنْدَ الفكْرِ منّي قادِحُ
وهلْ طائِرُ الفكْرِ الذي أمّل النّدى إلى الورْدِ صادٍ وهْوَ بالمدحِ صادِحُ
وكيفَ تُضاهَى في النّظامِ مَكَانتي لَدَيْك ولمْ يمْدَحْكَ قبْلِي مادِحُ

وممّا قلته مهنّئا مقامَهُ الكَريمَ أيّده اللّهُ عند عوْدته منَ الوجهة إلى قرية وادَ مَتنزّهًا وضمنتها تنبيهًا على وعد سبَق حسبَما يظهَر منهَا في التاسع والعشرين لرَبيع الأوّل عام أحدَ عشر وثماني مائة(21)

أجلْهـا في أباطِحِهَا جِيَادَا تُجِدُّ السّيْرَ طَوْعًا وانقِيادَا
وعرّسْ بالرّكائِبِ في رُباهَا فَتِلْكَ حُدَاتُها تَبغي ارْتيَادَا
على أنّي عَميدُ القَلبِ شاكٍ ــ وإن قرُبَتْ مَعاهِدُها ــ البِعَادَا
ستعْلَمُ دوْلةُ العُشَّاقِ أنّي عَميدٌ قدْ جُعِلتُ لها عِمادَا
خَبالُ القلْبِ يُذْهِبُهُ خَيالٌ إذا هو قدْ ألمَّ دُجًى وعَادَا
ففي الطّيْفِ المُلِمّ لهُ شِفاءٌ ولكِن جفْنُه ألِفَ السُّهَادَا
حديثَ الوَجْدِ أكْتُبُهُ فألْقِي بصَفْحِ الخدِّ من دَمْعي مدَادَا
وكمْ زمنٍ قطَعْنا في التّصَابِي حَسِبناهُ غَيّنا فيهِ رشادَا

---

(21) قرية وادَ الواردة في هذا التقديم من قرى غرناطة القريبة منها ولعلها هي «قرية الوطا» الواردة هكذا في مقدّمة الاحاطة، ووردت عند ابن الخطيب أيضًا في ترجمة عبد الملك بن حبيب هكذا : «حصن واط من خارج غرناطة» ومنها أصل الفقيه المذكور، ويُظن أنها المعروفة اليوم باسم Huétor Vega كما في حاشية الاحاطة أو Huétor de Santillan كما أخبرني صديقي الاستاذ الدكتور بالبيه.
راجع الاحاطة 1 :132، 3 :548. وقد ضبط اسم واد بفتح الدال في التقديم ولكن الشاعر اضطرّ إلى كسرها وتنوينها إذ يقول :
بوادٍ حلّ مولانا فعَمّت ركائِبُه الغوائِرَ والنّجادا
أما رسمها بالطاء في الاحاطة وفي الكتابة اللاتينية فهو من باب قولهم في قنفد قنفط وقولهم في جخدب جخطب. راجع لحن العامة للزبيدي. وقد كان بواد هذه عين تسيل على نهر شنيل وفيها يقول ابن زمرك من موشح له :
شنِيلُها مُدَّ مِنْهُ نِيلُ والشّينُ ألِفٌ لِمُسْتَنِيلْ
وَعَيْنُ «وَادٍ» بِهِ تَسِيلُ مِنْ فَوْقِ خَدٍّ لَهُ أسِيلْ

تعَاطيْنا كؤُوسَ الوُدِّ تُبْدي   لِشمْلِ الأُنسِ جمْعًا واحْتِشادَا
أجَلْناها جِيادًا قَدْ أقمْنا   بمَيْدانِ السُرُورِ لها طِرادَا
وسَاحِرَةِ الجُفونِ أرتْ حُلاَهَا   فَلَمْ تَتْرُكْ بلا وجْدٍ فُؤَادَا
فواتِرُ وَهْيَ تمْنَحُنا فتونًا   نواعسُ وهْيَ تَمْنَعُنا الرُّقَادَا
فَلولاها لَما هِمْنا غرامًا   ولاَ مِلْنا إلى الذِّكرَى ودَادَا
ولَوْلا ناصِرُ الدّين ابْنُ نَصْرٍ   لما نِلنَا مِنَ الدنيَا مُرَادَا
ولَوْلاه لَأوْجَفْنَا سِرَاعًا   رَكَائِبَنَا نَجوبُ بهَا البِلاَدَا
وقَدْ كُنَّا نسيرُ بِلاَ آثنَاءِ   ونتّخِذُ الثّنَاءَ عليهِ زَادَا
إلى أنْ جاءَنا وعْدٌ كَريمٌ   أفَادَ مِنَ المَكَارِمِ ما أفَادَا
فأمْرَعَ بعْدَهُ رَوْضُ الأمَاني   وأخصَبَ كلَّمَا رُمْنا مَرَادَا
ومَن أوْفَى بِعهْدٍ منكَ يَا مَن   تعَاهَدُنا مَكَارِمُهُ عِهَادَا
وعبْدُ مقامِكُمْ نظمًا ونثْرًا   أجادَ وعَن سَبيلِ الجُودِ حَادَا
وسَائِلُهُ لَدَيْكَ لَها صُعُودٌ   تَرُدُّ البِيضَ والسُّمْرَ الصِّعَادَا
بها لاَقَى خُطُوبَ الدّهْرِ دِرْعًا   ويَوْمَ الفَخرِ قَلَّدَها نِجادَا
سَتكْسُونا الملاَبِسَ ضافيَاتٍ   وتُعْطينا المُحَجّلة الوِرادَا - 9 -
ومازِلنا على عِلْمٍ بأنَّا   لذلِكَ لَن نُضامَ ولَن نكَادَا
فإن جارَ الزمَانُ ورَاحَ مِنَّا   خضوعًا كيفَ نعْطيهِ قِيادَا
وكَيفَ ورَاحَةُ المَوْلَى ابْنِ نصْرٍ   تزيدُ من النوَالِ مَن اسْتَزادَا
تقولُ لِمن هَوى مِنّا خضوعاً :   «أرى العَنقاءَ تكبُرُ أن تُصَادَا»
إذا سُئِلَ الملوكُ فآلُ نصْرٍ   بحُورٌ قَدْ أمَدَّتْها ثِمَادَا
ويُوسُفُ للْملُوكِ غدَا إمَامًا   بمَا مَلَكَتْ أنامِلُهُ جَوَادَا
ويُوسُفُ قدْ غَدَا بَدرًا وبحْرًا   لديْه لَن نضِلَّ ولن نُذَادَا
فبَدْرُ هُدَاهُ لا يَلْقَى مَحَاقًا   وبحْرُ نَداهُ لا يخْشَى نَفادَا
لقَدْ فاقَ المُلوكَ نَدًى وعِلْمًا   فلاَ مَلِكٌ يرُومُ لهُ عِنادَا

لِنُصْرَةِ مُلْكِهِ الأَعْلَى تجَلَّتْ ... مَلائِكُ تَرتقِي السَّبْعَ الشِّدَادَا
لوِ الأُفْقُ اقتَدَى بحُلَى عُلاَهُ ... هُدًى ونَدًى أَنَارَ سَنًى وجادَا
ولَوْ صَدَرَتْ أوامِرُهُ لأَضحَى ... مطِيعًا أمْرَهُ فيما أَرَادَا
فأمْطَى مِنْ بوارِقِهِ جِيادًا ... وَوَثَّرَ من كَوَاكبِهِ مِهَادَا
ومِن عَجبٍ نَوَالُكَ حين يَهْمِي ... يَزيدُ الفِكْرَ صَيِّبُهُ اتِّقَادَا(22)
وكَمْ لِعلاكَ من صُنْعٍ جميلٍ ... لجسْمِ الدَّهرِ قدْ أضحَى فُؤَادَا
ولا كالنُّزهَةِ الغَرَّاءِ لمَّا ... لَدَيها العِزُّ أصْبَحَ مستَفَادَا
بَوادي الحُسْنِ قدْ لاحتْ بوَادٍ ... مَنَحْنَاهُ المَحبَّةَ والْوِدَادَا
فأنوَاعُ الجَمَالِ وإن تنَاهَتْ ... حَوَى جمعًا لها وبهَا انفرَادَا
بَدَا لِلأُنسِ ربْعًا حِين أضحَتْ ... ظِباءُ الإنسِ تحْسِبُهُ مَرَادَا
إذا جالَ النسِيمُ لَدَى رُبَاهُ ... وعادَ حَديثَ بهْجَتِهِ أعَادَا
تَثَنَّى الغُصنُ إذْ أثْنَى عليْهِ ... خَطيبُ الطيْرِ من طَرَبٍ وَمَادَا
بِوَادٍ حَلَّ مَوْلانا فعَمَّتْ ... رَكائِبُهُ الغَوائِرَ والنِّجَادَا
تَرَى كُلاًّ لديْه مِنْ يَدَيْهِ ... يُرَاوَحُ بالمَكارِمِ أَوْ يُغَادَى
لقَدْ شرَّفْتَ مغْنَاهُ فَقُلْنَا ... بِحَقٍّ أنْ يسُودَ ولَنْ يُسَادَا
سَتُثْنِي بالذي أَوْلَيْتَ فيهِ ... بَنُو الآمَالِ مَثْنَى أَوْ فُرَادَى
وقَدْ أوْحَشْتَهَا حمْراءَ مُلْكٍ ... فأبْدَتْهُ خلُوصًا واعْتِقَادَا
كأنَّ الرُّوحَ قدْ عادَتْ لِجسْمٍ ... غَدَاةَ احْتَلَّها المَوْلَى وَعَادَا
فلُقِّيتَ المُنَى ظَعَنًا وحَلاًّ ... وهُنِّئْتَ الثَّنَاءَ المسْتَجَادَا
إذا نَادَى الوَرَى غرْبًا وشرْقًا ... إمَامَ مُلوكِهَا كُنتَ المُنَادَى
بَقِيتَ لِنَصْرِ دينِ اللهِ تُعْلِي ... مَعَالِمَهُ دِفاعًا أَوْ جِهَادَا

---

(22) في الأصل : صَيْبُهُ، وهو تحريف يسقط به الوزن ؛ يقال سحاب صيّب وغيث صيّب أي غزير.

وأنشَدت في إمْلاكِه أيّدَ الله مَقامَهُ معَ بنتِ القائِدِ المرْحومِ أبي يَزيد خالد مؤلَى النّعمة النّصْرية بالرّياض السعيد وَقَد استدعَى أشرافَ أهلِ الاندلس لذلك وتضمنتْ كثيرا من وصْفِ الحَالِ(23)

مَا لِلرَّكائبِ لا تحُلُّ جِلالَها ... وتُطيل في تلكَ الرُّبُوعِ سُؤالَها
كَلَفًا بمَن طَلَعَتْ بأفْقِ خيامِهَا ... كالشَمْسِ تتخِذُ السّحَابَ حِجَالَها
كَمْ مُغْرمٍ تَصلَى جَوانِحُهُ الجوَى ... صَالَتْ عَلَيْهِ ولمْ تُنِلْهُ وِصَالَها
يُبْدِي الحنينَ إذَا سَرَى بَرْقُ الحِمَى ... وإذا صَبا نجْدٍ تَهُبُّ صَبَا لَهَا
يَهْوَى شمَائِلَهَا فهلا أوْدَعَتْ ... منهَا القَبُول قَبولَها وشمَالَهَا
ظَنَّ النّواسِمَ إذْ تَهُبُّ بَلِيلَةً ... تشْفِي النفُوسَ فهيجَتْ بَلْبالَهَا
تَهْدِي خبَالَ الوَجْدِ نَارُ غَرَامِهِ ... ليْلا وما تهْدِي إليْه خَيالَهَا
عجبًا لهُ ما بَالُهُ لا يَهْتدِي ... بِجَوانحٍ يُذْكِي الغرَامُ ذُبالَهَا
لِلهِ كَمْ نَفْسٍ شَعَاعٍ أُتْلِفَتْ ... حتَّى تَلافاها ونَعَّمَ بَالَها
رِفْقًا بنفسِكَ يا حَليفَ غرامِهِ ... فهْيَ الصبَابَة قدْ أحالَتْ حَالَها
هَذي مَنازِلُهَا فَحَيِّ رُبوعَهَا ... وأنِخْ جِمَالَكَ تستَفِدْ إجْمالَهَا
[وانْظُرْ] سَنَا أقمَارِها واسْتَجْلِ مِنْ ... هَالاتِ هاتيكَ القِبَاب كَمالَهَا
فلكَمْ لَهَا الرُّكْبانُ وَاصَلتِ السُّرى ... والعزْمُ مِنْهَا يَقْتَضِي اسْتعجالَهَا - 11 -
تزْجِي المَطَايَا والهَواجِرُ تَلتَظِي ... حتّى تشكّتْ أينها وكَلالَهَا
حَنّتْ إلى كُثبِ المَنازِل فارْتَمَتْ ... تَطْوِي بهَا كثبانَهَا ورِمَالَهَا
لِمْ لاَ تحِنُّ لها الرّكَابُ وَطالَما ... حَمِدَت على بُعْدِ المَدَى تَرْحَالَهَا
كمْ أُصْدِرَتْ عَنها نَوَاهِلَ بَعْدَمَا ... قدْ أُورِدَتْ وهْيَ الظِّمَاءُ زُلالَها
فأسِلْ دُمُوعَكَ في مَعَاهِدِها إذا ... عَهْدُ الغمائِمِ لمْ يجُدْ أطْلالَهَا

---

(23) راجع ما كتبناه في المقدمة حول أبي يزيد خالد هذا.

كَمْ مُرْسِلٍ فيهَا مَدامِعَهُ انْثَنَى ... مُتَوَلِّيًا لِلظِّلِّ حِينَ سَقَى لَهَا[24]
ولكَمْ تمَايَلَتِ الغُصونُ بِدَوحِهَا ... لمَّا أدَارَتْ سُحْبُهَا جِرْيالَهَا
مَا لاَحَتِ الغُدْرَانُ فيه مَدارِعًا ... حتَّى أرَتْكَ الذّارِيَاتُ صِقالَهَا
شَقّ النّسيمُ جيُوبَهُ فيها وَمِن ... وشْيِ الرّبيعِ قدِ اكْتَسَتْ سِرْبالَها
فهْيَ الربُوعُ . نَزِيلُهَا مُتَوَسِّدٌ ... أو وَارِدٌ أنهَارَهَا وَظِلاَلَهَا
لِلْمُجْتَنَى إن شئْتَ أوْ للمُجْتَلَى ... عَرّسْ تَنَلْ أحْمالَهَا وجمَالَها
وإذا العُفَاةُ استَقْبَلتْها قِبْلَةٌ ... وفّتْ صَلاَةُ صِلاتِهَا آمَالَهَا
هي حضْرةُ المُلْكِ التي قد أصْبَحَتْ ... غيْثًا وغوثًا ان حلَلْتَ حِلاَلَهَا
مَثْوَى إمَامٍ حلَّ أُفْقَ خِلافَةٍ ... تجْلُو عليْهِ جَمالَهَا وجَلاَلَهَا
هُوَ ناصِرُ الدّين الخليفةُ يوُسُفٌ ... مَلكٌ غدَا كهفَ المُلوكِ ثِمالَهَا
مَلِكٌ كأنّ الشمسَ غُرةُ وجْهِهِ ... تهْدِي إلى سُبُلِ الهُدَى ضُلاَلَهَا
ملِكٌ كأنّ الغَيْثَ جودُ يَمينِهِ ... مهْمَا أنالَ القَاصِدِين نَوالَهَا
ولِيَ الخلافَة فاستقلَّ بعبْئِهَا ... فعُفَاتُهُ لا تشتَكِي إقلاَلَهَا
يامَنْ يشبَّهُ بالغمائِمِ كفُّهُ ... ما ساجلتْ سُحُبُ الغمَامِ سِجالَهَا
لوْ أُلْفِيت بالشُّهْبِ عَارِفَةُ النَّدَى ... لأنالَهَا كَرَمًا وقَالَ أنا لَهَا[25]
فمشَارِقُ الأنْوارِ منهُ قدْ أتَتْ ... بِشِهابِ هَدْيٍ مُوضِحٍ إكْمالَها
أضْحَى بأوْطان الجهَادِ مُؤَمَّلاً ... لِعُفَاتِهَا ومُؤَمّنًا أعْمالَهَا
ما جَابَ آفاقَ البلادِ بقُطْرِهَا ... أوْ جَالَهَا إلاّ شَفَى أوْجالَهَا[26] - 12 -
تُلْفِي لديْه عُفاتُهُ وَعُداتُهُ ... سَلْمًا وحَرْبًا نُزْلَهَا ونِزالَهَا
فالعزْمُ يفْضَحُ في المَضاءِ صِفاحَهَا ... والحِلْمُ يرْجحُ في الوَقارِ جبَالَهَا

(24) فيه إشارة إلى الآية الكريمة : «فسَقَى لهُما ثُمّ تولّى إلى الظلّ»

(25) لاحظ التجنيس في قوله : أنالها أي أعطاها، وقوله : أنا لها أي أنا صاحبها. ومثل هذا وغيره من ألوان البديع واضح في شعر هذا الشاعر.

(26) لاحظ التجنيس أيضا في قوله : أو جالها، أوجالها.

يرْتاحُ في حرْبِ العِدَى خَطِّيُّهُ   ليكُفَّ إن أهْوَى لَها أهْوالَها[27]
وسُيوفُهُ هامَتْ بصُحبَةِ هَامِهَا   فَغَدَتْ لذلِكَ تشتَكي إكْمالَها
وقِسِيُّهُ من غيْرِ رمْيٍ طَالَمَا   رَامَتْ لِتُثبِتَ في العُداةِ نِبالَها
من ذا يُضاهِي في المَكارِمِ أسْرَةً   في الذّكرِ قد ذكر الإلاهُ خِلالَهَا
قوْمٌ إذا لبسُوا الدّرُوعَ حَسِبْتَهُمْ   أُسُدًا حَمَتْ في غِيلِهَا أشبَالَها
وإذا نضوْها عنهُمْ فَأرَاقِمٌ   أبْقَتْ على أجْسامِهِمْ أشكَالَها
وتهُزُّهُمْ أمْداحُهُمْ فكأنَّمَا   جَالَ النّسيمُ بدَوْحَةٍ فأمَالَها
هذِي العَساكِرُ والمنابِرُ إن بدَتْ   ألْفيْتَهُمْ فُرسانها وَرجالها
أوَلَيْسَ والدُكَ المنيفُ بصوْلةٍ   حَمِدَ الكماةُ دِفاعها وصيالَها[28]
خضَعَتْ رِقابُ الكافِرينَ لمُلْكِهِ   فاللّهُ شاءَ بِعِزِّهِ إذْلالَها
وكفى بمَوْلانا الغني بربِّهِ   أسَدًا يُجَدِّلُ في الوَغى أبطالَها[29]
كمْ أُسْرَةٍ لِلكُفْرِ شَدّ وَثاقها   ومَعاقِلٍ لِلشِّرْكِ حَلَّ عِقالَها
كمْ شيِّدتْ من مَعْقِلٍ حتّى أتَى   فوهَى لهَا ما قدْ بَنَتْهُ وَهَالَها[30]
قَسَمًا بِقومكَ في مَعَالِمِ مَكَّةٍ   ما رُتْبَةٌ إلاّ وجَدُّكَ نالَها
قيْسُ بْن سعْدٍ مَن عَلِمْتَ خِلاَلَهُ   بالخَيْلِ خيْل الله جَاسَ خِلاَلَها
كانتْ بها العُزى تُنيفُ بِعِزّةٍ   فأذَلَّها دينُ الهُدَى وأزالَها
والنَّصْرُ لِلأنْصارِ والخَلَفِ الذي   لَوْ شاءَ زُهْرَ سَمَائِهَا لَسَما لَها
كَمْ من جُمُوعٍ لِلضّلالِ وحِزبِهِ   جاءتْ لِأمْرٍ قاطِعٍ آجالَها
ما أمّلتْ لو لمْ يكنْ لكَ إرْثُهَا   إبْقاءَهَا لِمَدًى ولاَ إمْهالَها

(27) تجنيس آخر في قوله : أهوى لها، أهوالها.
(28) والد الممدوح هو يوسف الثاني ولد محمد الخامس.
(29) الغني بالله هو محمد الخامس أبرز ملوك بني نصر.
(30) تجنيس في قوله : وهى لها، وهالها.

فالنّصر يقْدُمُ إن أردت لقاءَهـا   والسَّعْدُ يرمي إن أبيْتَ قِتالَها
لِلّهِ نِيَّتُكَ التي قَدْ أخْلَصَتْ   لقَبُول رَبكَ حالها ومآلها - 13 -
أهْدَتْ لك الدنْيا تَبَاشيرَ السّنا   لتنَالَ في أُفُقِ السَّناءِ مَنالَها
حيْثُ الأهِلّةُ مَا ارْتقتْ واسْتشْرفَتْ   إلاَّ لِتُطلِعَ بالمُنَى إهْلاَلَها
وَبَنو مَرينٍ والتّجلّةُ شأنُها   أبْدَتْ لَدَيْكَ وُفودُها إجْلاَلَها
تبغي الهِدايَةَ منْ خليفَةِ ربِّها   وترى القبُولَ أجلّ ما أهْدَى لَها
لَمْ يدْرِ كُنْهَ صِفاتِهِ مُتَمَثِّلٌ   منْها إذا ضربَت بِهِ أمْثالَها
هلْ بَدْرُ مَمْساهَا وشَمْسُ صَباحِها   أمْ وجْهُهُ مُسْتَقبِلٌ أرْسالَهَا
أهْلا بهمْ من وافِدين ركَابُهُمْ   حَطَّتْ بمَثْواكَ الكَريمِ رِحالَها
قَدْ أقبلُوا مُتَيَمِّنِينَ بدَوْلَةٍ   أحْزابُها نصرَ الإلاهُ وآلَهَا
وقد اقْتَفَوْا من وُدِّكَ النَّهْجَ الذي   نالَتْ عُدَاتُكَ مِنْ هُداه ضلالَها
هذا وقدْ وافَى صنيعُك لِلْوَرَى   فمواهِبَ الصُّنْعِ الجميلِ أنَالَها
واسْتَقْبَلتْهُ أوْجُهُ البشْرَى التي   بالبِشْرِ أبْدَتْ والرِّضَى آسْتِقْبالَها
فَغَدَتْ يمِينُكَ فيهِ ديمَةَ رَحْمَةٍ   كُلّ الوُجُودِ يُؤمِّل آسْتهلاَلَها
هَيْهاتَ يَظْمأُ وارِدٌ من بعْدِ ما   أوردت كُلّ مُؤمِّلٍ سَلسَالَها
لكَ حِكْمَةُ الوَهّابِ سابقُ حُكْمِها   نَادَى بخَيْلِكَ أن تجُولَ مَجالَهَا
أعْرافُها فيهَا لِمُلكِكَ آيَةٌ   مَتْلُوَّةٌ أنْ سَوّغتْ أنفَالَها(31)
لِلّهِ منهَا والذّوابِلُ شُرَّعٌ   خيْلٌ تُريكَ منَ النّجيع نِعالَهَا
حَمَلتْ كُماةً لوْ أزرْتَ جَميعَهُمْ   أرْض العُداةِ لزُلزِلت زِلزَالَها

(31) يشير إلى الآية الكريمة الواردة في سورة الأعراف في حق الأنصار وهي قوله تعالى : «فالذينَ آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى في قصائد سابقة.

مِن كُلِّ أرْوَعَ باسِلٍ يوْمَ الوَغَى ... لَبِسَ العَجاجَةَ ساحِبًا أذْيالَها
قدْ أرسَلَ الغرَّ السَّوابِقَ لِلمَدَى ... والنّصْرُ يَقدُمُ دائِمًا إرْسالَها
ثَبَتَتْ قَوائمُها بِه ولقَدْ مَحَتْ ... آجال أهْلِ الشِّرْكِ حِينَ أجَالَها
سَتَخِفُّ طَوْعًا نحْوَهمْ والأرضُ منْ ... أنفالِهِمْ قد أخرَجت أثقالَها[32]
فترى الكتائِب لِلعِدَى أوْ فِي النَّدَى ... إنْهادَها في اللّهِ أوْ إنهالَها
هَذِي السَّبيكَةُ مَلْعَبُ الخيْل التي ... ألْقَتْ بأفئِدَةِ العُداةِ خَبالَها[33] - 14 -
إن جُرِّدتْ بيض السُّيوف لِغارةٍ ... لبِسَتْ من النَّقْعِ المثارِ جِلالَها
فإذا المَوَاكِبُ في مَداهَا استَشْرفتْ ... مَا لِلْكَواكِبِ في السّماءِ وما لَها
يا حُسْنَهُ خَطَبًا ويَا عَجَبًا إذا ... جالتْ بِهِ خيْلُ السَّباقِ مجَالَها
يُذْكِي قُلوبَ الحاسِدِين مَشاعِلاً ... والنارُ ما أبدَتْ بِهِ إشعَالَها
لِلهِ كَمْ صُوَرٍ بِهِ مَجْلُوَّةٍ ... كادَتْ تُحَقِّقُ في العيُونِ مثالَها
لوْ أفصحتْ أشكالُها بخِطابِها ... لِلْمُبْصِرينَ لأوْضَحَتْ إشكالَها
يا مَلْجأَ القُصّادِ كَفُّكَ كُلّما ... وكَفَتْ غمائِمُها كَفَتْ أمَّالَها
للخَطِّ والخَطِّيِّ فيها آيَةٌ ... مَهْما أرَتْكَ جِلادَها وجِدالَها
ولقَدْ فَرَعْتَ من الخِلاَفَة مَرْقَبًا ... أطْلَعْتَ فيه للعُيونِ هِلالَها
فَلْيَهْنِها لمَّا حَلَلتَ بأُفْقِها ... شَمْسُ اهْتِداءٍ لا نخافُ زوَالَها
واهنأْ به إمْلاكَ عِزٍّ لمْ تزَلْ ... تبْغِي سعُودُكَ نَحْوَهُ إقبالَها
وليَهْنِ تالِيَكَ الذي أوْلَيْتَهُ ... من أنعُمٍ مَدَّتْ عليْهِ ظِلالَها[34]

---

(32) فيه اقتباس من الآية الكريمة : «وأخرجت الأرضُ أثقالها».

(33) السبيكة (أو مدرج السبيكة كما في الاحاطة) بسيط كان يقع جنوب شرقي الحمراء ويدل شعر ابن الخطيب وابن زمرك وابن فركون هنا على أن السبيكة كانت ملعبا للخيل وميدانا للفروسية في الاعياد والمناسبات ؛ وقد ذكرت في أشعار عديدة في الاحاطة وغيرها.

(34) يعني بتالي السلطان الممدوح أخاه معز الدولة أبا الحسن علي، فهو تالي أخيه في الرتبة والمكانة ولعلّه تاليه أيضا في السن والولادة.

حتّى تُجرِّدَ في رِضاكَ صِفاحَها ... يدُهُ وترْسِلَ في الوَغى آسالَها
لِلعبْدِ أيُّ مَدائِحٍ تُتْلَى فما ... يخْشَى تَناسِيَها ولاَ إغْفالَها
ولمُلْكِكَ الأعلى مَواهِبُ رَحْمَةٍ ... ومَكارِمٌ لا تَقْتَضي إهْمالَها
فلقَدْ كَفَفْتُ بها زمانًا راعَني ... بزمانةٍ شرَعَتْ إلَيَّ نِصالَها
أوْلَيْتَني مالاً أقوم بشكرِهِ ... منْ أنعُمٍ أجْمَلْتَ لي إجْزالَها
وصَف العبِيدُ وقدْ عَطَفْتَ مُوكّدًا ... أسْبابَ رِفْدِكَ مانِعًا إبْدالَها
فإلَيْكَ من حُسْنِ آلثّناءِ عَقيلَةٌ ... حلَّ البيانُ إلى المَديحِ عِقالَها
جاءَتْ تُريكَ من النّظامِ لآلِئًا ... جيدَ اللّيالي طَوَّقَتْ مُنثالَها
جادَتْ حَدائِقها غمائِمُ للنّدى ... لا تشْتَكِي من بَعْدِها إمْحالَها
ودَعَتْ قَوافيهَا مَدائِحَك التي ... فكْري لَدَيْكَ أطاعهَا وأطالَها
ولأنت خيْرُ مُؤمِّلٍ أصْغَى لَها ... وأقامَ مَائِلَ دَوْحِها وأقالَها
أعْظِمْ بدَوْلتِكَ التي أنا ناظِمٌ ... أوْصافهَا والكلُّ قدْ أصْغَى لَها
لأزلتَ يا شَرَفَ المُلوك مُخَلّدًا ... فبِعِزِّ نصْرِكَ بَلّغَتْ آمالَها
سأَلَتْ لكَ اللهَ البَرِيَّةُ كُلُّها ... طُول البَقاءِ وقدْ أجابَ سُؤالَهَا

وممَّا صَدرَ عنّي وقد احْتَلَّ رِكَابُهُ العَلي بمَالقَة برسْم عَرْضِ جُنْدهَا في شعبان من عام أحد عشر وثماني مائة وأمرَ أيَّده الله بإراقةِ الخمُور وتغيير المنكر وإذاعَة أفعَال البر

بُدُورٌ بأُفْقِ المُلْكِ راقَ طُلُوعُها ... فمالقَةٌ قد أشرَقَتْ وَرُبُوعُها
إذا ابْتَسَمتْ فيها الأزَاهِرُ لَمْ تَزلْ ... لذلِكَ سحْبُ الأفْقِ تهْمي دُموعُها
تحُلُّ بِواديها الكبيرِ وفُودُها ... فيعْذُبُ فيه وردُها وشرُوعُها[35]

(35) يقصد وادي مالقة الذي يسمى أيضا وادي رية، وقد اشتهر باسم وادي المدينة، وهي التسمية الباقية GUADALMEDINA. والكبير في قول الشاعر : بواديها الكبير، إنما هو نعت لا غير. وراجع ماورد في وصف هذا الوادي في المغرب لابن سعيد ج 1 ص 423 ط. 3.

وكَمْ حَلتِ الركْبانُ منها مَعاهِدًا ... لِتُصبِحَ والآمالُ دانٍ شسُوعُها
فبُلِّغَ راجِيها وأُسْعِفَ قصْدُهُ ... وأُمِّنَ مِن رَيْبِ الزَّمانِ جَزُوعُها
ومُذْ أمَّلتْ مَوْلَى الخلائفِ يُوسُفًا ... فهَلْ حادِثَاتُ الدهْرِ يُخْشَى وُقوعُها
ووافَت إلى المَيْزِ السَّعيدِ وُفودُها ... فَراقت على تِلكَ البِطاحِ جمُوعُها
وناصِرُ دِين الله يطْلِعُ وجْهُهُ ... كَشَمْسِ الضحَى يُعْشِي العيُونَ طُلوعُها
وهلْ يكْتُمُ الشمْسَ المنيرةَ كاتِمٌ ... وأنوارُها في الخافِقَيْن تُشِيعُها
بناصِرِ دِين اللَّهِ عز جنابُها ... فمَن طائِعُ الأمْلاكِ أوْ من مُطِيعُها
أسَلْتَ دَمَ العُنْقودِ في اللّهِ مُظهِرًا ... لِأفعالِ برٍّ في الوجودِ تذيعُها
لذلِكَ جادَ الغيْثُ منها أباطحًا ... بها زهرُ أزهارٍ جَلاهَا ربيعُها
لك الحُكْمُ فيمَا شِئْتَ غيْرُ مُدافَعٍ ... إذِ الأرضُ في كِلْتَا يديْك جَميعُها
وتاتِي بما تُبغِي سُعُودُكَ في العِدَى ... وقَدْ ضَلَّ عاصيهَا وفازَ مُطيعُها
وتَتْرُكُ آثارُ الجيادِ مَحارِبًا ... لها في الوَغَى يبْدي السُّجودَ صَرِيعُها
بحَيْثُ الحُسَامُ الصَّلْتُ نهْرُ حديقةٍ ... يَروقُ عَلَى شطَّيْهِ ورْدًا نَجيعُها - 16 -
تَرومُ عُداةُ الدّين عنْهُ فرارَها ... وأيْن لها عن مضْربيْهِ نزُوعُها
ومن كَبني نصْرٍ إذا شهِدوا الوَغَى ... لدَيْهِم من الأبطالِ يبدو خُضوعُها
فكَمْ فئةٍ منهُمْ بإفْنائهَا العِدَى ... وبذْلِ النّدَى لِلْمعْتَفينَ وَلوعُها
وفي دوْحَةِ الانْصارِ طابَتْ أصُولُها ... وليْسَ عَجيبًا أن حَكتْها فُروعُها
كأنْ ببلاد الكافرينَ بأسْرِها ... لِملك مليك العُدْوتيْن رُجُوعُها
وكَمْ سابِحٍ يُربِي عَلَى كلّ سانحٍ ... إذا ما ظِباءُ القَفْرِ يبْدُو مَروعُها
فتحْنو على الأبطالِ حتّى كأنهُمْ ... لديْهِ قلوبٌ ضمّنتْها ضُلوعُها
مدائِحُكَ الأزهارُ طِيبًا فإن سَرَتْ ... نَواسِمُ أفكاري عليْها تُذِيعُها
وهَا هِيَ قدْ ذاعَتْ لَديْك وسائِلاً ... وحَاشاكَ يا مَوْلَى المُلوكِ تُضيعُها
أُجيلُ بمَيْدان البيانِ قِداحَها ... فيَلتاحُ في الأوْصاف منْك بديعُها

ومن لي بوَصْفِ البعْضِ منها وإنها   لَيَقْصُرُ عنْها لوْ أتاها بَديعُها[36]
أمَوْلايَ دُم لِلْمَكْرُمَاتِ تُنِيلُها   نَدًى ولِأحداثِ الزمانِ تُرُوعُهَا
ومَمْلوكُ نُعمَاكَ الكريمَةِ كُلّمَا   تَعرَّضَ للشكْوَى فأنتَ سَميعُها
عبيدُكَ يا مَولايَ مِثلي حَقيقَةً   بعزّك حَاشَى أنْ يُرامَ خُضوعُها

وقلتُ أهَنّئُهُ بالقدُوم على حَضرته العليّة من هذه الوِجْهَة المبَارَكةِ في آخر شعبَان المذكُور

هَناءٌ كَعَرفِ الزَّهْرِ للمُتَنَسِّمِ   وبُشْرَى كنورِ الزَّهرِ للمُتَوسِّمِ
فقدْ قامَت الدنيَا على قدَمِ الرِّضَى   تهَنِّىءُ مَوْلانا بأسْعَدِ مَقْدَمِ
وقد لَهِجَ الإسْلامُ حتّى كأنّهُ   يُشيرُ لعُلْياهُ بكَفٍّ مُسَلِّمِ
وَرَقّ ثناءً كُلُّ لَفْظٍ مُمَنَّعٍ   وَراقَ آنْثِناءً كُل غُصْنٍ منعَّمِ
لذلكَ عَرْفُ الرَوْضِ عنْها مُتَرجمٌ   وترْجيعٌ شَدْوِ الطائِرِ المُترنِّمِ
لِمالقةٍ حقُّ التَّشرُّفِ إذْ لَها   بناصِرِ دِينِ اللَّهِ فضْلُ التَّقدمِ
ومُحْدَثُها جادَ الحيَا معْهَدًا لَهُ   وعهْدًا كريمًا فيهِ غيْرَ مُذَمَّمِ[37] - 17 -
فلِلهِ منهُ منزِلٌ جاءَ أُفْقُهُ   ببَدْرٍ من الوَجْهِ الكَريم مُتَمِّمِ
ولكنّ من شأن البُدورِ انتقالُها   وما الكرُّ إلا للجَوادِ المُطَهَّمِ[38]
وغرْناطَةٌ للّهِ منها مَعاهِدٌ   تعيرُ الخَلِيّ القَلبِ وَجْدَ المُتَيَّمِ
وغرْناطَةٌ دارُ الخِلافةِ لَمْ تَزَلْ   مجالاً لأفراسِ الخَميسِ العَرمْرَمِ
أيَجْهَلُ في مِصْرٍ وشامٍ حديثُها   وشمْسُ الضحَى ما نورُها بمُكتَّمِ

(36) يقصد بديع الزمان الهمداني.

(37) المحدث اسم قصر بمالقة شاده الغني بالله محمد الخامس ؛ ولابن زمرك موشحة في وصف المحدث ؛ راجعها في أزهار الرياض 2 : 197 — 198.

(38) جواد مطهّم : تامّ الحسن.

لقد حل بالحَمراءِ هالَةَ مُلْكِهِ ... ولاَحَ بها بَدرًا يُحَفُّ بأنجُمِ
أيُنسبُ للبَدْرِ المُتَمّمِ نورهُ ... وقدْ يختفي في جَوِّهِ المُتغيمِ
أيُرْوَى عن الرّوْضِ الانيقِ ثناؤُهُ ... ومنهُ استْفادَ الزهْرُ طيبَ التنسُّمِ
أتُعْزى إلى الغَيْثِ الملثِّ يَمينهُ ... ومَاسَاجَلتْها في نـدَى وتكـرُّمِ[39]
نـدَى يدِهِ العُلْيا غمَامٌ وسَيْفُهُ ... وَميضٌ بأفْقِ للعَجاجَةِ مُظلِمِ
كذلكَ سُحْبُ الغَيْثِ تهمي دُمُوعُها ... إذا لاَحَ نورُ البارق المُتَبسّمِ
إذا هو في يوْمِ الوغَى جَرَّدَ الظّبا ... غَدا الدّينُ في ثَوْبٍ من العِز مُعْلَمِ
وَإن نشَرَ الأعْلامَ حُمْرا خَوافِقًا ... طَوَى كُلّ ربْع للْعَدُوّ ومَعْلَمِ
أمَولايَ لا يُحْصِي مآثِرَك التي ... هيَ الشهْبُ تُسْتَجْلَى بنَانِي ولا فَمِي
وماذا يَنُصُّ العبْدُ منهَا وقدْ أتَى ... ثَناؤكَ في نصٍّ من الذّكْر محْكَمِ[40]
وإنّ يَراعِي كالذوابِلِ شُرَّعًا ... ولَفْظِي يمْضِي كالحُسَامِ المُصَمِّمِ
وما رَوّعتْ قلبي الْحَوادثُ بعْدَما ... تقلّبْتُ في نعْماكَ يا خيرَ مُنْعِمِ
ولكنّنِي أخْشى مقالَةَ حاسِدٍ ... رَمانِيَ من زُورِ الكلاَمِ بأسْهُمِ
فرُحْماكَ في ممْلوكِ نعْمتِكَ التي ... أتى قاطِعًا أسْبابَها كُلّ مُجْرِمِ
فهَا أنا أرْجو أن تكُفَّ مَنِ اعْتَدَى ... وأبْسُط كَفّ الآمِلِ المُتظلّمِ
ودونَكها من خِدْرِ فكْرِيَ غادَةً ... تُيمِّمُ من مثْواكَ خيْرَ مُيَمَّمِ
وأهْدَيْتُها قِدمًا إليْكَ مَدائحًا ... كزَهْرٍ نضيرٍ أو كَدُرٍّ مُنظَّمِ - 18 -
ولمْ أكُ ذا جَهْلٍ بأن تملِكَ الْوَرَى ... فقدْ كان مَولانا بِذلِكَ مُعْلِمِي
وأوْلَيْتَنِي النعمى فَيا مَلِكَ الهُدَى ... بَدأتَ به صُنْعًا جميلاً فتَمِّمِ
وَأوْرَيْتَني الوجْهَ الجميلَ ولمْ تُعِدْ ... فمن لي برُؤيا بَعْدَها أوْ تكَلُّمِ
وما يُمْنَعُ المَمْلوكُ إن مُنِعَ اللِّقا ... إذا يتمنّى أوْ يَرى بالتّوهُّمِ

(39) الغيث الملِثّ : المداوم.
(40) يشير إلى آية الأعراف في حق الأنصار سلف الممدوح. راجع ما تقدم.

وقبل ذلك أمَرَ لي أيّدَهُ الله بتنفيذ الغزاة بحضرتِهِ
العليّة وَسائِرِ البلاد النّصْرية وأبْطأ الظهير الكريمُ بذلك
في العلامة فقلتُ في مُنْتَصَفِ رَبيعِ الآخرِ عام أحدَ عشر وثماني مائة[41]

مقَامُكَ للقصّادِ كَهْفٌ وملْجأٌ … وللآمِلِ المحْتاجِ وِرْدٌ مهَنَّأُ
وَجودُكَ بَحْرٌ لِلعُفاةِ فإنْ جَرَتْ … بِهِمْ سُفُنُ الأطْماعِ بابُكَ مَرْفأُ
وَواللهِ ما أدْري ووَجْهُكَ لائِحٌ … أنُورُ الضحَى أمْ نُورُهُ يتلألأُ
إذا استَفْتحَ المُدّاحُ يوْمًا كلامَهُمْ … فكلٌ بما تُبْدِي سُعُودُكَ يبْدأُ
ولاَحَتْ لدين اللهِ منكَ مخَايِلٌ … تَدُل على النَّصْرِ العَزيز وتُنبىءُ
كَذلكَ سُحْبُ الأُفْقِ يُرجَى آنسِكابُها … إذا ما آستَنارَ البَارِقُ المُتَلألىءُ
إذا لمْ يَلُحْ بَدْر الدُّجُنَّةِ مُشْرِقًا … فوجْهُكَ أهْدَى منهُ نورًا وأضْوأُ
وإنْ بخِلَ الغيْثُ المُلِثُّ بجودِهِ … فجُودُكَ آفاقَ البسيطَةِ يمْلأُ
فَلا قُطْرَ إلاّ وهو يبْغيكَ مالِكًا … ولا قَطْرَ إلاّ عن سَحابِكَ ينْشأُ
فنورُ الهُدَى للمُجْتَلِي غيْرُ آفِلٍ … ونارُ القِرَى للمُجْتَدي ليْسَ تخْبأُ
إذا ذُكِرِ المَوْلَى الخليفَةُ يوسُفٌ … به يختَمُ الذّكْرُ الجَميلُ ويُبْدَأُ
وحسْبُ مُجيدِ النّظمِ والنثرِ أنّهُ … يُقَصِّرُ فيما يسْتجيدُ ويُنْشِيءُ
لأنّ أبا الحجّاجِ مَولايَ حُجّةٌ … إذا عُدِّدَ الأعْلامُ فهْوَ المبدأُ
إذا احْتفَلَتْ هَالاَتُ أُفْقٍ فإنّها … لِمَجْلسِهِ منها المِهادُ المُوَطَّأُ
ومنْ ذا يبالي بالهَواجِرِ تلتَظِي … ونائِلهُ يرْوي إذا هِيَ تُظْمِىءُ

(41) في التقديم ذكر لخُطّة تنفيذ الغزاة، وقد شرحتها في مقدمة الديوان، وفيه ذكر لكلمة الظّهير، وما تزال مستعملة عندنا وقد شاع استعمالها منذ عهد الموحدّين ؛ أما العلامة فهي التوقيع المصطلح عليه في دولة من الدول كعلامة «الحمد لله وحده» عند الموحدين وعلامة «وكتب في التاريخ» أو «وكتب في التاريخ المؤرخ به» عند المرينيين. راجع كتاب مستودع العلامة.

(42) وردت هذه القصيدة أيضا في «مظهر النور الباصر» من ص 185 إلى ص 188 وقد مهد لها فيه بقوله : «وقلت أمدحه أيده الله وخلّد ملكه».

يُنَادِي نَـداهُ والظِّـلالُ مُريحَـةٌ ... ألاَ أوْرِدوا ما شِئتُمُوا وتَهَنَّـأوا - 19 -

ومَـنْ أنْحَلتْهُ صحَّ هـذا بوَعْدِهـا ... فبالنّـاصِرِ المَوْلَـى يصِحُّ ويَبْـرَأُ[43]

تخُطُّ اليَـدُ الغَـرّاءُ منْها عَلامَـةً ... يُقَبِّلُهـا وهـوَ الوَجيـهُ المُهَنّـأُ

هو المَلِكُ الأرْضَى الذي عَزماتُـه ... بها كُـلُّ قصْدٍ ناجـحٍ يَتَهيَّـأُ[44]

يَصولُ ومَشْحـوذُ النّصَالِ كأنّهـا ... تـذُودُ عـنِ الأرْجـاءِ مَن يتَجـرَّأُ

وبالسّعْدِ قبْلَ السّيفِ إنْ شَهِدَ الوغَى ... يكُفُّ عن الدِّين الحنيفِ ويـدْرأُ

فَيرتاحُ فيها الرّمْحُ والروْعُ عـابِسٌ ... ويخْطُبُ فيها السَّيْفُ والخَطْبُ يفْجَأُ

بِهِ في ثبات العَزْمِ والحَزْمِ يُقْتَدَى ... إذا تَخْفِقُ الرَّايَاتُ حينًا وتهْـدأُ

مُجاهَـدةُ الانْصارِ قـامَ بعِبْئِهـا ... هُمامٌ بأمْلاكِ العِـدَى ليْسَ يَعْبـأُ

رأى المصْطَفَى من سَعْدِهِمْ أنّ نجْلَهُ ... بمَكَّةَ يغْني عن كثير ويجْـزِيءُ[45]

كفَى بكِتـابِ اللهِ مَدحـا لأسْرَةٍ ... بطَيْبَةَ منهُـم طـابَ أصْلٌ ومَـنْشأُ

وإنّ كِتـابَ اللّـهِ جَـلّ جَلالَـهُ ... لهُ قوْلُ صِدْق من مُحالٍ مُبَـرَّأُ

إذا الخَزْرَجُ الأعْلَوْن عُدّدَ فضْلُهُم ... فمَن عامِرٌ أوَ مَن سُلَيْمٌ وَطيِّـءُ

أمَولايَ لا يـاتي بـوَصفكَ شاعـرٌ ... ولَـوْ أنـهُ الطّائِـيُّ والمُتنبِّـيءُ

وكيْفَ يَرومُ الحمدَ والمَدْحَ كاتِبٌ ... وذِكْرُك يتْلَى في الكِتابِ ويُقْـرَأُ

ولكِـنَّ يـا مَـولايَ أمْـرُكَ نافـذٌ ... فَما بالُهُ في مطْلبِ العَبْدِ يُبْطِيءُ

إذا لمْ يُؤمِّلْ منْ جَنابِكَ مَلْجَـأً ... إلى أيْـنَ يامَوْلَـى الخلائِـفِ يَلْجـأُ

ولمْ يجْنِ من روْضِ المُنَى زَهْرَ رِفْدِهِ ... فـأيَّ ظِـلالٍ للنّـدَى يتَفيَّـأُ

وسَهْمُ رَجائِي صائبٌ كُلّما رَمَـى ... بِهِ المَدْحُ فاعْجَبْ كيْفَ يَرْمي ويُخْطىءُ

نَوالك عَذْبٌ للوُرُودِ وكُـلُّ مَـنْ ... يؤَملُـهُ عـنْ وِرْدِهِ لاَ يُحَـلأُ[45م]

---

(43) «صحّ هذا» هي علامة ملوك بني نصر، وتوجد في عددٍ من ظهائرهم الباقية.

(44) في الأصل : العظمي، والتصويب من «مظهر النور الباصر».

(45) يشير إلى مكانة قيس بن سعد بن عبادة عند رسول الله ﷺ.

(45م) لاَ يُحَلأُ : لا يطرَد ولا يمنع.

وَمَا راقَ منّي النظْمُ إلاّ لأنــهُ ... بِبَحْرِ نَـوالٍ من يَميـنكَ لُؤلُـؤُ
بَقيتَ لديـن الله تـنصُرُ أَهْلَـهُ ... وتحفَظُهم من كلّ خطبٍ وتكْلأُ

ولمّا وجّه إليّ الظّهيرَ الكريمَ قلتُ أشكر نعمَتهُ في اليَوْمِ العِشرين من ربيع المذكور[46]

- 20 -

ألا يا مَشوقًا يمّمَ الرّبْعَ وَالْمَغْنَى ... هنيئًا فوجْهُ الحسْنِ حيّاكَ بالحسْنَى
عطفْت على سَلمَى الرّكابَ مُسَلّمًا ... فأهْدَتْ جَوابًا رائقَ اللفْظِ والمعْنَى
ويا طالَما صَدَّت ولمْ تَثْنِ مَعْطِفًا ... ولَذّتْ وقد جاذَبْتُها غُصنًا لَدْنـا[47]
وَأَمّـا وقـدْ لاحَ المحَيّا وحُسْنُـهُ ... فمِنْ طَلْعَةٍ تجْلَى ومِنْ دَوْحَةٍ تُجْنَى
وقِدْمًا سَرَيْنـا بالـرَّكائِبِ مَوْهِنًـا ... ونجْمُ الدُّجَى بالأفْقِ لمْ يعرِفِ الوَهْنا
تخُوضُ بنا بحْرَ السَّرابِ ظَعائِـنٌ ... فَلِلّهِ عيْنَا من رأى البحرَ والسُّفْنَا
ولمْ أَنْسَ بالحَيِّ الحِلالِ وُقُوفَهـا ... وسُكّانُـهُ المغْنَـى فمالِـي ولِلمَغْنَـى
وهــل شَغَفِـي بالبَـانِ إلاّ لأنّـهُ ... بِهِ شَبَهٌ مِمَّنْ كَلِـفتُ بها معْنَـى
هِيَ الظّبْيُ جيدًا والقَضِيبُ تَـأَوُّدًا ... تَنْثَنِي مِلْكًا دُونَ شَرْطٍ ولا اسْتِثْنَا
بنَيِّــرِ مَرْآهَــا وحُسْنِ قَوامِهــا ... إذا ما تَبَدَّتْ تُخْجِلُ البَدْرَ والغُصْنَا
فَيا لَيْتَ منْها الطيْفُ قد زارَ في الدُّجَى ... ومن لي بِهِ والسُّهْدُ قد أَلِفَ الجَفْنَا
أطارَ فُؤادِي الشّوْقُ بعْـدَ بِعَادِهـا ... فلَمْ يتخِذْ في الصّدْرِ وكْرًا ولا وَكْنَا
عَجِـبْتُ لها إذْ أتْلَفَتْـهُ بِبُعْدِهــا ... وما اتخَذَتْ لمَّا نأتْ غَيْرَهُ سُكْنَى
لَقَدْ عَذَرَتْني ثـمَّ ضَنّتْ بوَصْلِهـا ... وأعْجَبُ شَيْءٍ عاذِرٌ بالمُنَى ضَنَّا

---

(46) توجد هذه القصيدة أيضا في «مظهر النور الباصر» من ص 188 إلى ص 191 وقدمها بقوله : «وقلْتُ في مدْحِهِ ــ أيده الله ــ وشُكْر نِعَمِه، وتَقْرير ما أَسْدَى مِنْ مواهب كَرَمِه»

(47) في الأصل : ولذّت، والصواب : ولدّت، كما في مظهر النور الباصر.

وقد رَجمَ الواشِي ظنُونًا كَواذِبًـا … فمنْ عاذِرٍ قدْ ضنَّ أو عاذِلٍ ظنَّا
وأبْدَعُ شيءٍ طائِرُ الدوْحِ صادِحًا … يُذَكِّـرُ بالمَغنَى ويُبْـدِعُ إن غنَّـى
أذِنْتُ لهُ والسمعُ بـابٌ لِسَجْعِـهِ … فَثابَ ولَمْ يعرِفْ حِجابًا ولا إذْنَا
وطـوَّق بالأنـدَاءِ جيـدًا كأنَّـهُ … حَبَى يُوسُفًا مَوْلاَيَ بالمَدْحِ فاستْغْنَى
هوَ المَلِكُ الأعْلَى هو النّاصِرُ الذي … مَعالِـي عَوالِيـهِ مُـؤسّسَةُ المَبْنَـى
فَحَسْبُ مُلوكِ الغربِ والشّرقِ أنّهُ … يُؤمِّلُه الأقْصَى من الخلْقِ والأدْنَـى
إذا ما تَبَدَّى البَدْرُ نُورًا ورِفْعَـةً … أرى قدْرَهُ أسْمَى وطلعَتَـهُ أسْنَـى
تُـيَسِّرُ يُسْراهُ لِسائِلِـهِ المُنَـى … وتَـبْسُط يمْنَـاهُ لآمِلِـهِ الأمْنَـا - 21 -
فَيُـرْدِي أعَادِيـهِ ويُحْيِـي عُفاتَـهُ … بِمَكْرُمَةٍ قدْ سَنَّ أوْ غـارَةٍ شَنَّـا
حَبانَـيَ بالآمَـالِ والمَـالِ رِفْـدُهُ … فأُغْنَى وَعَنْ تسْآل مَنْ دونَهُ أغْنَى
مَدائِحُـهُ كانَتْ وَسائِـلَ لِلْغِنَـى … فَلِلّهِ ما أغْنَى ولِلّـهِ ما أعْنَـى
أمَوْلايَ قدْ بَلَّغْتَني كُلَّ مطْـلَبٍ … بِفَيْضِ نَوالٍ جَوْدُهُ يُخْجِلُ المُزْنَـا
وَلَمْ لاَ وقدْ وافتْ عَلامَتُكَ التي … لها الحسْنُ في شفْعِ الزّيادةِ بالحُسْنَى
وجُدت بما قد أمَّلَ العَبْدُ مُنعِمًـا … فشكرًا بما أوْلَيْتَ من مقْصَدٍ أسْنَى
وشرَّفْتَ عبْدًا قـدْ أتـاكَ مُسَلِّمًـا … يَرى اليُمْنَ في تَقْبيلِ راحَتِكَ اليُمْنَى
نَـوالُكَ كافٍ كافِلٌ كلَّ سائِـلٍ … لهُ في الورَى معْنًى تَناسَوْا بِهِ مَعْنًا(48)
يمِينًا بمنْ حَثّ الركَائِبَ في مِنًـى … ومنْ حَجَّ بيت اللّهِ والحجْرَ والرُّكْنا
ومنْ قدْ سَرى لَيْلاً لِتَكْليمِ رَبهِ … إلَى أن تَدَلَّى قابَ قوْسَيْنِ أو أدْنَى
لمَا ساجَل البَدْر المُنيرُ ولاَ الحَيَا … يَلوحُ ويَهْمِي منكَ حُسْنًا ولا مَنَّا
ودُونكَهَـا بالحمْـدِ راقَ جَمالُهـا … وبالمَدْحِ فاقتْ كُلَّ غانِيَةٍ حَسْنَـا
فأثنى علَيْكَ العَبْـدُ بَـدْءًا وَعـوْدَةً … إلى أنْ ثَنَى صَرْفَ الزّمانِ بما أثْنَى

---

(48) معنا الثانية، يعنى بها معن بن زائدة، من أجواد العرب.

ولما وُلد لمولانا أيّده الله بكرُ أولادِهِ الذي اسْتأثر الله بِهِ ثاني يوْم من عقيقته وكان من بنت القائد المُعظَّم المرحُوم أبي يزيد خالِد موْلَى نعْمتِهم الكريمة في آخر محرم عام اثني عشر وثماني مائة ارْتجَلتُ بسَقيفَة الكتابِ سَاعة الإخبار به[49]

هَنيئًا بِهِ مِنْ عاَلَم الكَوْنِ وافِـدَا ... وقَدْ بلَغَ الإِسْلامُ فيه المقَـاصِدَا[50]

فما زالَ رَبُّ العَرْشِ جَل جَلالُهُ ... يرِيكَ مِنَ الصُّنْعِ الجميلِ عَوائِـدَا

لَقَدْ سُلَّ في الأَعْداءِ منْهُ مُشَهَّـرٌ ... تَـراهُ بسَيْـفِ اللّهِ فيهِمْ مجَاهِـدَا

يُجَـدِّلُ عُبَّـادَ الصّلـيبِ مُؤيَّـدًا ... ويعْمُـرُ لِلدّيـن الحنيـفِ مسَاجِـدَا

ويُرْسِلهَـا في القاصِديـن مَواهِبًـا ... فتعْمُـرُ منهُـنّ العُهُـودُ المَعَاهِـدَا

ونحْـنُ العَبيـدُ الكاتِبُـونَ جَميعُنَـا ... يُنَظِّـمُ فيـه مِـن حُـلاهُ فَرائِـدَا - 22 -

ونبْلـغُ مِـن أوْصافِـهِ كُـلَّ غايَـةٍ ... يجُوزُ بِها المَدْحُ المَدَى المُتَباعِدَا[51]

أمَا لِوَلـيّ العَهْـدِ غـرٌّ مَخائِـلٍ ... تُؤَمّـنُ مُرْتَاعًـا وتُسْعِـفُ رَائِـدَا

أما لِوَلـيّ العَهْـدِ منكَ شَمائـلٌ ... لها صِلة في الجوُدِ تُعْقِبُ عائـدَا

بَشائِرُ ظِلِّ العِزّ تُضْفيهِ سَجْسَجًـا ... وتُضْفِي لِـقصَّادِ النّـوَالِ مَـوارِدَا

بَقـيتَ لِأمْـلاكِ الزّمـانِ مُؤَمَّـلاً ... ومُتَمْتِعًـا بالمُـلْكِ نجْـلاً وَوَالِـدَا

---

(49) سقيفة الكتاب هي المبني الخاص لجلوسهم وكان في قصور بني الأحمر وبني مرين سقائف للكتاب والحراس وغيرهم.

(50) وردت القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر : 30 ـــ 31.
وذكرها فيه بآخر ما قيل في هذه المناسبة وقدم لها بقوله : «وارتجل مملوك مولانا نصره الله أبو الحسين بن فركون كاتب هذا».

(51) يحوز كما في الأصل، وفي مظهر النور : يجوز، وكتب فوقها الشاعر بخط يده : ينال.

وأنشدتُ يومَ عقيقتِهِ السَّادِسَ لِصَفَر عام اثنَيْ عَشَر وثمَاني مائة(52)

قف بالرَّكائِبِ ساعَةً واستوقِفِ ... تحظَ الرَّكابُ ضُحًى بأشْرَفِ مَوْقِفِ
وارْبَعْ بها دِمَنًا أَلِفْتُ بهَا الهَوَى ... أكْرِمْ بها من مَرْبَعٍ أوْ مألَفِ
رَاقت مَحَاسِنُها ورقّ نسيمُها ... فالرَّوْضُ بيْنَ مُؤرَّجٍ ومُفَوَّفِ
تَسْرِي الصّبا بِشذاهُ حين تُميلُهُ ... فالقُضْبُ بَيْنَ تعطُّرٍ وتَعَطُّفِ
وافَى عَليلُ نسيمِها ثمّ انثنَى ... والقلْبُ من ألَمِ الصبَابَةِ يخْتَفِي
لولاَ النُّحُولُ وإنَّهُ لمَزيَّةٌ ... لمْ تَرْهَبِ الأبطالُ حَدَّ المُرْهَفِ
يا أهْلَ نجْدٍ هَل لنَا في حَيّكمْ ... أو حُبّكمْ مِن مسْعِدٍ أوْ مُسْعِفِ(53)
فإلَى مَعاهِدِكمْ أطَلتُ تَشَوُّفِي ... وعلى عُهودِكُمُ قَصرتُ تَشَوُّفِي
هَامَ الفُؤادُ بِظَبْيَةِ البَانِ التي ... منهَا استَفاد البانُ لِينَ المَعْطِفِ
لمْ يَثْنِها قولُ الوُشاةِ وإنمَا ... ريحُ الصبَا مَالَتْ بغصْنٍ أهْيَفِ
وتَبَسَّمَتْ بعَقِيقِهَا عن لُؤْلُؤٍ ... شَفَةٌ شفَتْ وجْدِي وإنْ لم تُرْشَفِ
ولطالَما أذكَتْ جَوًى بجَوانِحي ... فَطَفِقْتُ بيْنَ تَلَهّبٍ وتَلطُّفِ
دَعْ ما يَريبُ فإنَّني أصْبَحْتُ مِن ... رَيْبِ الحَوادثِ تحتَ ظِلٍّ أوْرَفِ
حَكَمِي ابْنُ نصْرٍ ناصرُ الدّين الرضا ... إن لمْ يَكُنْ حُكْمُ الزّمانِ بمُنْصِفِ
حَسْبِي مِن العَلياءِ أنّي عبْدُهُ ... وكَفَى به شرَفًا بذلكَ أكْتَفِي - 23 -
وبِأنَّني في القَوْمِ أوّل ناظِمٍ ... فيه المَديحَ تَرفّعِي وتَشَرُّفِي
إيهٍ أعِدْ ذِكْرَ المَعاهِدِ جادَهَا ... عهْدُ الحَيَا مِن دمْعِيَ المُتوكِّفِ

---

(52) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 59 إلى ص 64 وقد مهّد لها الشاعر هناك بقوله :

«وأنشد مملوك مولانا نصره الله كاتب هذا أبو الحسين ابن فركون»

(53) نجد هنا من معالم غرناطة التي تغنّى بها الشعراء مثل السبيكة وعين الدمع وغيرها.

وإذا رَوَيْتَ بها أحاديث الهَوَى ... فاصْرِفْ عِنانَ القَوْلِ أحْسَنَ مَصْرِفِ
خذْ عن فُؤادِي حين صدَّ به الجوَى ... وجدًا يصِحُّ حديثُهُ عَنْ مُدْنَفِ
والهَدْيَ عن شُهُبِ الدجَى عَنْ بَدرِهَا ... عن وَجْهِ مولانا الخليفَةِ يُوسُفِ
لِلّهِ آثارٌ لَهُ ومآثِرٌ ... لِلْمُقْتَدِي إن شئْتَ أوْ لِلْمُقتَفِي
كَمْ رغبَةٍ أو رَهْبَةٍ في سَيْفِهِ ... أو سَيْبِهِ للمُعتدي والمُعْتَفِي
لَمْ أدْرِ ما عَمَّ البَسيطَةَ هَلْ نَدَى ... كَفَّيْهِ أمْ صَوْبُ الغَمامِ الوُكَّفِ
مِصْرُ البِلاَدِ أفَاضَ في أرْجائِهَا ... نِيلَ الندَى وجَلا الجَمالَ اليُوسُفِي
وقْفٌ عليْهِ الجود يُرْسِلُ جَوْدَهُ ... فيعُمّ بيْنَ تَوَقُّفٍ وتَوكّفِ
ولَقَدْ تَناهَى للمَكارِمِ جمْعُهُ ... فلذاكَ عَن قصَّادِهِ لَمْ تُصْرَفِ
رَفَّتْ ظِلاَلُ الأمْنِ وانعَطَفَتْ عَلَى ... وطنِ الجهادِ برأفَةٍ وتعَطُّفِ
بِمُبَدّدٍ في الحَرْبِ كُلَّ مُبَدّلٍ ... ومُحَرّمٍ إبْقاءَ كُلِّ مُحَرِّفِ
تأتي وفودُ الرُّومِ تخْطُبُ سَلْمَهُ ... فيكُفُّ كَفَّ القادِرِ المُتَعَفِّفِ
وَوَلِيُّهُمْ يخشَى فيُرْدِفُ رُسْلَهُ ... إرْسالَ جَيْشٍ بالمَلائِكِ مُرْدَفِ[54]
أعِدِ الجَوابَ بهَا عَلى ظمَإٍ لَهَا ... تَنْقَعْ جَوَى المُتَشوِّقِ المُتَشَوِّفِ
واجْنَحْ إليْهَا منعِمًا مُتفضِّلاً ... لازِلْتَ أكْرَمَ واهِبٍ مُتَعَطِّفِ
يا ناصرَ الإسلامِ والمَلكَ الذي ... نالَ العُلاَ طَوْعًا بغَيْرِ تكَلُّفِ
أنْسَيْتَ أمْلاكَ الزّمان مَناقِبًا ... والشُهْبُ يخْفيها الصّباحُ فتَخْتَفي
فإذا نَهَيْتَ الدّهرَ أذْعَنَ صاغِرًا ... وإذا أمَرْتَ النَّصْرَ لَمْ يتوَقَّفِ
وإذا أجَلْتَ الخَيْلَ خلّفتِ العِدَى ... صَرْعَى ونصْرُ اللّهِ لَمْ يتَخَلَّفِ
وتَشُقُّ أنهَارُ الظُّبا رَوْضَ القَنَا ... عَجَبًا ونارُ حُرُوبها لا تنْطَفِي
يا أيُّها الملك الذي قصَّادُهُ ... ونَدَاهُ بيْنَ تَفَرُّقٍ وتآلُفِ - 24 -
بُشْرَى بأكْرَم وافِدٍ آباؤهُ ... قِدْمًا تَلافَوْا كُلَّ خطبٍ مُتْلِفِ

---

(54) من قوله تعالى: «فاستجاب لكم أني مُمِدُّكمْ بألفٍ من الملائكة مردفين».

واهنأ بأسعدِ ناجمٍ أنوارُهُ ... يُجْلَى بها جنحُ الظَّلامِ المُسْدِفِ[55]
تُنبي مَخايِلُهُ الكريمةُ أنَّهُ ... للجُودِ يُنجِزُ كُلَّ وعْدٍ مُخْلَفِ
تقْضي مَناسِبُهُ الشَّريفةُ أنَّهُ ... بسِوَى المَكارِمِ والعُلَى لمْ يَكْلَفِ
عُقِدَتْ لهُ زُهْرُ النُجومِ تَمائِمًا ... فتَشَرَّفَتْ قَبْلَ الحسَامِ المَشْرَفِي
وقَفَت تُعيذُ من العُيون كمالَهُ ... فكأنهنَّ نَواظِرٌ لمْ تُطْرِفِ
وافى فهنَّأنا إمامًا مُنْعِمًا ... لولاهُ عارفةُ النَّدى لمْ تُعْرَفِ
ولَقَدْ لثِمناها يَمينًا أمَّنَتْ ... وطَنًا مُناويهِ رَهينُ تَخَوُّفِ
وتهلَّلتْ دارُ الخِلافةِ عِندما ... حيَّا بهِ وجْهُ الزّمانِ المُسْعِفِ
وخوافقُ الأعْلامِ فيها قدْ حكَتْ ... قلبَ العَدُوِّ المُلحِدِ المُتَخَوِّفِ
تهْفُو على أُفُقِ الهُدَى عَذَباتُها ... مِثلَ الكريمِ يجُرُّ ذيْلَ المِطْرَفِ
واسْتَشْرفَتْ أوْطانُها لِوُرُودِهِ ... ولكَمْ بها لِعُلاهُ من مستَشْرِفِ
ولِرَاحتيْهِ ارْتاحَ شَوْقًا ما بها ... طَوْعَ العُلَى من ذابِلٍ أوْ مُرْهَفِ
وانسَابَ نهْرُ الجُودِ في رَوْضِ المُنى ... من تحْتِ ظِلٍّ للأمانِ مُسَجَّفِ[56]
ومَنابِرُ الدّينِ الحنيفِ زهتْ بهِ ... زَهْوَ الخِلافَةِ بالامِامِ الأشرفِ
وأسِرَّةُ المُلْكِ العَزيزِ سُرُورُها ... قد هَزّ للاسْلامِ أكْرمَ مَعْطِفِ
وارْتاحَتْ الخيلُ السَّوابِقُ وانْثَنَتْ ... تختالُ بيْنَ تشوُّفٍ وتَشَرُّفِ
ولَسَوْفَ تُتْلِعُ كُلَّ جِيدٍ مُشْرِفٍ ... في الرَّوْعِ يُرْدِي كُلَّ بَاغٍ مُسْرِفِ
ولسَوْفَ يُعْلَمُ أنَّ نصرَ اللّهِ قدْ ... حيّا بوَعْدٍ منْهُ غيْرَ مُسَوِّفِ
فاسْعَدْ بهِ لازلتَ تَمنَحُهُ الرِّضا ... وتُريهِ منْ سُبُلِ الهُدَى ما يَقْتَفِي
وإذا سَلِمْتَ فما أُصيبَ بحادِثٍ ... جَلَلٍ ألَمَّ ولا بِحالِ تَأسُّفِ
أوَ ما وُجودُكَ لِلخلائِقِ عِصْمَةٌ ... تَقْضي لِشمْلِ وجُودِهِمْ بتألُّفِ

(55) الظلام المسدف : الكثيف.
(56) مسجّف : مُستَّر.

أَوَ ما دوَامُكَ منْ عِدَاهُمْ جُنَّـةٌ ... تكْفيهِـمُ وبهَـا المؤمّـلُ يَكْتَفِـي
أَوَ مـا سُعُـودُك في لِقاهُـمْ آيَـةٌ ... تَشْفِي وصَدْرُ الدّين مِنهُمْ يَشْتَفِي
مَـوْلاَيَ سَمعًـا لِامْتِـداحِكَ إنّنِـي ... ولئن أطَلْتُ ببَعْضٍ وَصْفِك لَمْ أفِ
إن استِمـاعَكَ للمدائـحِ طالَمـا ... رَقَّـى عبيـدَكَ لِلمحَـلّ الأشْرَفِ
أنـا غَرْسُ نِعْمَتِكَ الـذي آدابُـهُ ... رَوْضٌ أزاهِرُ مَدْحِهِ لـمْ تُقْطَـفِ
صَدَفُ الطُّروسِ يَضُمُّ منْهُ جَواهِرًا ... أَفْكارُهُ عـن نظمِهـا لـمْ تَصْدِفِ
مَوْلًـى وعبْـدٌ والنّظـامُ لآلِـىءٌ ... تَوّجْ وَطَوّقْ كيْفَ شِئْتَ وشَنِّفِ
لازِلْتَ للأمـلاكِ وِجْهَـةَ قصْدِهَـا ... فَجميعُهُمْ يُبْدِي اعْتِرافَ المُـنْصِفِ

وكانَتْ والِدَةُ هذَا المَوْلُودِ قَد تُوُفيتْ إثْرَ ولادَتِه ولحِقَ بها في سادِسِ صَفَر عام اثْني عشَر وثماني مائة فقلتُ للحِين مرْتَجلا[57]

يمِينًا لقَدْ جازَ الأسَى منتَهى الحَدّ ... فيا لَيْتَ حُسْنَ الصبْرِ في مِثْلِهَا يُجْدِي
مصابٌ به بانتْ من الدّهرِ عثْرةٌ ... وَضَلَّتْ بِهِ الأيّامُ عن سَنَنِ الرُّشْدِ
هُوَ الدّهرُ مَنْ أضحَى عميدًا بغايَةٍ ... تُصِبْهُ اللّيالي دونَ ذاكَ على عمْدِ
وهل كان إلاّ النجمَ أطْلَعَ نيِّـرًا ... ووَجْهُكَ صبْحٌ لاَحَ في أُفُقِ المَجْدِ
فلاَ تعْجبُوا لما بَـدا مـن غرُوبِـهِ ... أيلتاحُ نجْمٌ والضُّحَى نورُهُ يَهْدِي
وكان كَما تهْوَى المَكارِمُ قدْ بَدَتْ ... مَخايُلُ من قيْسٍ عليْهِ ومن سَعْدِ
وكانَ كَما تَبْغِي الخلافَةُ قدْ غدَتْ ... على وَجهِهِ سيمَا من الأبِ والجَدِّ
وقدْ كان منهُ المُلك هزّ مُهَنّدًا ... وشمّرَ منهُ النّصرُ عن سَاعِدِ الجِدِّ
وهَل هُوَ إلا السَّيفُ جُرِّدَ لِلعَدَى ... فلمّا تمادَى سَلْمُها رُدَّ في غِمْـدِ

---

(57) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 70 إلى ص 71 ومهّد لها فيه بقوله : «وارتجل عند ذلك مملوك مولانا نصره الله أبو الحسين بن فركون» ويستفاد من أشعار الملك يوسف في رثاء ولده أن وفاته كانت يوم خميس.

وهلْ هُوَ إلاّ الرُّمْحَ أُشْرِعَ نَصْلُهُ ... فـقصَّدَهُ دَهْـرٌ ثَـنـاهُ عـنِ الـقَصْدِ
وهلْ هُوَ إلاّ الطِّرْفُ أُرْسِلَ سَابقًا ... إلى أَمَـدِ العَلْيـاءِ فارْتـاحَ لِلـرَّدِّ[58]
وهلْ هُوَ إلاّ الغيْثُ أقلعَ إذْ سَقَى ... مَعاهِدَنا من أُفْقِـهِ واكِـفُ العَهْـدِ - 26 -
ولمّا انقضَتْ غُرُّ الولائِم وانثنَتْ ... وُفودُ النّدى تُثْني عَلى صَيِّبِ الرِّفْدِ
جَـرَى قَـدَرٌ فاسْتأثَـرَ اللـهُ رَبُّـهُ ... بهِ وَخَلَتْ مِنْ بدرِهِ هالَةُ المَهْدِ
شِهَابٌ تَوارَى في الثّرى بعدَما بَدَا ... مَـلاَذًا لِمُسْتَنْجِـدٍ وَنُـورًا لمسْتَهْـدِ
فما غابَ إلا بعْدَما نالتِ الهُدَى ... ولا غاضَ إلاّ حينَ كَفَّت عن الورْدِ
ومـا ضمّـهُ بَطْنُ الضّريحِ وإنّمـا ... تضَمَّنَ مِنْهُ جوْهَرًا صَدَفُ اللَّحْدِ
تَعَـزَّ أميـرَ المُسلـمين فإنّنـا ... نَرى كُلّ شيءٍ في الوُجُودِ إلى حدِّ
تَـأَسَّ أمير المسْلـمين فإنَّمـا ... هو القدَرُ المَحْتومُ جاءَ إلىٰ وَعْدِ
بأفْعـالِكَ الغُـرِّ الكـريمةِ يُقْتَـدَى ... فجمْعُ المَعالي مِنكَ في العالَم الفَرْدِ[59]
فلازِلتَ من ريْبِ الحَوادِث آمِنًـا ... تَنالُ المُنى فيما تُعيدُ وما تُبْدي

وأنشدت في إمْلاكِه أيّده اللّهُ ونصَره ودخُوله ببنْتِ القائد الوجيه أبي السُّرور مفرج موْلى نعْمتِهِ الكريمة وقد استدعَى وُفودَ أهْلِ البلاد النَّصْريّةِ لحضُور هذه الوليمة بالرياض السعيد[60]

نسيمُ الصّبا راعَ الصَّبابةَ وفْـدُهُ ... فما للجَوَى طَيّ الجوانـحِ وقْـدُهُ
عليلٌ سَرَى يشْفِي الغلِيلَ بوافِـدٍ ... قدْ ابْتَلّ منْ دَمْعِ الغَمامَةِ بُـرْدُهُ
يذَكِّـرُ مـن تـلك المَعَاهِـد حَلَّـةً ... سَقَى عَهْدَها من دمْعِ عيْني عَهْدُهُ
وحيًّـا فأهْـدَى المُسْتَهـامَ تحِيَّـةً ... سَنا بارِقٍ في السُّحْبِ يُقْدَحُ زندُهُ

(58) الطِّرْف : الفرس الكريم.
(59) في مظهر النور : وجمع المعالي.
(60) راجع ما كتبناه في المقدمة عن القائد مفرّج.

يُؤجّجُ دَمْعَ العَيْنِ نارَ غَرامِهِ   متَى ودّ أنْ يلَقى خليلاً يَوَدُّهُ
وَتبْلَى الليالِي في الهَوَى وفُؤادُهُ   جديدٌ على مرِّ الجَديدَيْنِ وُدّهُ
فلا منجِدٌ إلا أسَاهُ ودَمْعُهُ   ولا مُسْعِدٌ إلا جَواهُ وسُهْدُهُ
ومائلةِ الأعْطافِ لَمْ أنْسَ عَهْدَها   بمَعْهَدِ أُنْسٍ قد تقادَمَ عهْدُهُ
على حُسْنِ مرْآها وقَفْتُ مَحَبّتي   وإنْ جَدَّ بالقلْبِ المُتَيّمِ وجْدُهُ
وفوْقَ مُتُونِ العِيسِ رَكْبٌ حَدا بِهِمْ   إلَى المُلْتقَى نَصُّ المَسيرِ ووَخْدُهُ(61)
يميلونَ للذّكْرى كأنّ وُرُودَهَا   نسيمٌ بِهِ مالَتْ من الدّوحِ مُلْدُهُ - 27
يَقُولون ما بالُ المَطَايَا ضوامِرًا   ولَوْلاَ نحُول السّيْفِ مَا رَاعَ حَدُّهُ
وما ورْدُها عذبٌ إذا لمْ يَبِنْ لها   على كثَبٍ بانُ العُذَيْبِ ورَنْدُهُ
وروْضٍ ترَى الآمالَ قدْ حُلّتِ الحُبَا   لَدَيْهِ وعَهْدُ الأُنْسِ أحكِمَ عَقْدُهُ
كأنّ الرُّبَى والنّوْرُ فوقَ بِطاحِها   لآلِىءُ في جيدٍ تَناثَرَ عِقْدُهُ
كأنّ النسيمَ اعْتَلّ فيها وقدْ أتَى   رَسُولاً فلمْ يمْكِن على البُعْدِ رَدُّهُ
كأنّ وميضَ البَرْقِ يَبْدُو حُسامُهُ   دُجًى فيُوَاريهِ من السّحْبِ غِمْدُهُ
كأنّ ضِياءَ الفَجْرِ سيْفٌ مُشَهّرٌ   مَتَى ادّرَعَ الليْلُ البَهيمُ يَقُدُّهُ
كأنّ نجومَ الأفْقِ جَيْشٌ مُجَلاًّ   تَواريهِ في نَهْرِ النّهارِ ووِرْدُهُ
كأنّ طلوعَ البَدْرِ عِنْدَ تمَامِهِ   مُحَيّا ابْنُ نصْرٍ والكَواكِبَ جُنْدُهُ
كأنّ الضحَى وَجْهُ الخليفَةِ يُوسُفٍ   وما احْمرّ فيهِ من سَنَا الفَجْرِ بَنْدُهُ(62)
كأنّ سَنَا الأُفْقِ المُوَرّدِ سَيْفُهُ   وقد رَاقَ مِنْ تحْتِ النجيعِ فِرِنْدُهُ(63)
فَللهِ رَوْضٌ باكَرَ الغيْثُ زَهْرَهُ   وذاعَ بِهبّاتِ النّواسِمِ نَدُّهُ
تُحَيّا بِهِ الآفاقُ لكِنْ يفُوقُهُ   ثناءُ أمير المسْلمين وحَمْدُهُ

---

(61) النص : السّير بأقصى سرعة، والوخد : السير بأوسع خطوة.

(62) البند : العلم الكبير، ويستفاد من البيت أن أعلام بني نصر كانت حمر الألوان.

(63) الفرند : وشي السيف وجوهره وحليته.

ولله زُهْر الأُفْقِ إذْ لاحَ نوُرُها ... وأشرَق غوْرُ الجَوِّ منها ونجْدُهُ
ولَكنّها تخْفَى ونورُ الهُدَى الذي ... يريه آبنُ نصْرٍ ليْسَ يُمْكِنُ جحْدُهُ
فقدْ راقَها منهُ الكَمالُ وقُرْبُهُ ... وقدْ راعَها منهُ المَنَالُ وبُعْدُهُ
ولِلهِ مَولانا الخليفَةُ يُوسُفٌ ... إمامَ هُدًى عمَّ البَريَّةَ رِفْدُهُ
تَؤُمُّ عُفاةُ الجُودِ منهُ مؤمَّلاً ... غَدا مُسْعِفًا قصْدَ المُؤمّلِ قَصْدُهُ
جَوادٌ جوادٌ إنْ تُسُوبِقَ للنَّدَى ... فَيُعْجِزُ من يَبْغي مَدَى الجُودِ شَدُّهُ
فلوْ أمَّنَ المامُونَ فازَتْ قِداحُهُ ... وأهْدَى الرّشِيدَ الهَدْيَ وافاهُ رُشْدُهُ
إذا قِيسَتِ الأمْلاكُ بالنّاصِرِ الرضَى ... فما يَسْتَوي هَزْلُ الكَلامِ وجِدُّهُ - 28 -
وَكيْفَ يجَارى في مَدًى ملكٌ غدَتْ ... مَلائِكَةُ السَّبعِ الطِّباقِ تُمِدُّهُ
فَيَنْهَدُ قَبْلَ الجَيْشِ للفتْحِ عزْمُهُ ... ويَضْرِبُ قبْلَ السّيْفِ في الحَرْبِ سَعْدُه
بطِيْبَةَ منْهُ طابَ أصْلٌ ومَنشأٌ ... وفي طَيْبَةٍ أعْظِمْ بمَا حاز جدُّهُ(64)
فَفي هذه للفتْحِ قُدِّم قَيْسُهُ ... وآوَى رسُول الله في تِلْكَ سَعْدُهُ(65)
وَمنْ كانَ لِلصّحب الكِرامِ انتِسابهُ ... فكيفَ يُضاهَى في الخلائِفِ مجْدُهُ
بهِمْ عزّ دينُ اللهِ لمَّا أعدَّهُمْ ... لنصْرِ الهُدَى عدْنانُهُ ومَعَدُّهُ
لقد انجبوا منهُمْ خلائِفَ فارْتَقَتْ ... إلى العِزّ مرْقًى لا يجاوَزُ حدُّهُ
فإنْ غَرُبَتْ منهُمْ نجُومُ هِدايَةٍ ... فأنتَ هوَ البَدْرُ الذي طالَ رصْدُهُ
وإن غاضَ من جَدْواهُمُ نيلُ نائِلٍ ... فنائِلُكَ البحْرُ الذي فاضَ مَدُّهُ
وإنْ دَرَجوا قد خلّفُوا منكَ ناصِرًا ... غَدا الدّينَ للنّصْرِ العَزيزِ يُعِدُّهُ
لِيَعْلَمَ أهْلُ الشّرْكِ أنّكَ فيهِمُ ... تُجاهِدُ حتّى يُوهِنَ الكُفْرَ جَهْدُهُ
وإنّ العُلَى منْ بَعدِهِم بكَ شُيّدتْ ... مَعالِمُها والفتْحُ أُنجِزَ وَعْدُهُ

(64) وفي طيبة، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : وفي مَكّةٍ، بدليل البيت بعده.

(65) الاشارة إلى ما كان من تقديم الرسول الكريم لقيس بن سعد بن عبادة إذ كان يحمل راية الانصار ويلي أموره، وفي صحيح البخاري أنّه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير.

وإنّ نُجُومَ الأفْقِ لمْ يخْبُ نورُهَا ... وإن سحابَ الجودِ ما عزّ وجْدُهُ
وإنَّ مَدَى العَلْيَاءِ لمْ يكْبُ طِرْفُهُ ... وإنّ لِواءَ النصْرِ ما حُلَّ عَقْدُهُ
وإنّ قَناةَ العِزِّ ما رُدَّ نصْلُها ... وإنَّ حُسامَ المُلْكِ ما فُلَّ حدُّهُ
خلَفْتَهُمْ عِلْمًا وحِلمًا وعزْمةً ... حليفُكَ نصْرُ اللّهِ فيها وعَضدُهُ
فلاَ أمَلٌ إلاّ تُسدّدُ سهْمَهُ ... ولا خَلَلٌ في الثغْرِ إلاّ تَسُدُّهُ
وما شَيَّدَ الإشْراكُ مَعْلَمَ دينِهِ ... وأعْلاهُ إلاّ والعَوالِي تهُدُّهُ
يرُومُ عدُوُّ الدّين في الدّين فُرْصَةً ... فَتمْنَعُهُ عنْ قَصْدِهِ وتصُدُّهُ
وكَمْ وارِدٍ قدْ أمّ بابَكَ آمِلاً ... لِيَحْظَى بِجَدْواكَ المُهَنّإِ وِرْدَهُ
فأنجَحَ مَسْعاهُ وأمّن سِرْبُهُ ... وفازَ مُعَلاّهُ وبُلِّغَ قَصْدُهُ
ولِلّهِ إمْلاكٌ سَعيدٌ أقمْتَهُ ... مُلوكُ الورَى فيه القِيامَ تَوَدُّهُ
وقد طَلَعَتْ للسَّعْدِ فيه كَواكِبٌ ... تَحُلُّ حُباها حَيْثُ أحكِم عَقْدُهُ - 29 -
دعَوْتَ له أهْلَ الجهادِ فأهْطَعوا ... كَما زارَ بيْتَ اللّهِ للحَجِّ وفْدُهُ
ولله من أُفْق السّبيكَةِ ملْعَبٌ ... تُجارِي لَدَيْهِ مُرْسَلَ الرّيحِ جُرْدُهُ(66)
تَروقُ جيَادُ النّصْرِ فيه متى ارْتَمَتْ ... إلى لعِبٍ فيه المَسيرَ تُجِدُّهُ
تجولُ كما شاءَ الكَمِيُّ فَيُجْتَلَى ... بإقْبالهَا عكْسُ الغوى وطَرْدُهُ
وتُصْمِتُ عُجْبًا كُلَّ ذي لجَب إذا ... أغارَتْ وغابُ الحَرْبِ تزأرُ أُسْدُهُ
تَرى الصبْحَ يَتْلو حُمْرَةَ الفَجْرِ كُلَّما ... يُلاعِبُ منْها الأشْهَبَ اللوْن وَرْدُهُ
فَهُنِّئْتَهُ صُنْعًا جميلاً تشوَّفَتْ ... لهُ صِينُ معْمور البلادِ وهِندُهُ
أمَولايَ أمّا الوَصْفُ منْكَ فَمُعْجِزٌ ... ومنْ ذا الذي يحْصِي الحَصَى أوْ يعُدُّهُ
وعبْدُكَ يُلْقِي منهُ ما يَسْتَطيعُهُ ... فإحْصاؤُهُ يُعْيِي البلَيغَ وعَدُّهُ
فخذْ منْهُ ما يُنسي اللآلِيءَ إذْ غدَتْ ... نَسيئَتُهُ لا نَقْدَ فيها ونَقْدُهُ
يُؤَمِّلُ من مولاَيَ عادةَ صَفْحِهِ ... إذا حادَ عَن نهجِ الهِدايَةِ عبْدُهُ

(66) الجُرْد جمع أجرد وهو الفرس السبّاق.

وما تخلِق الأيامُ ثوْبَ مَآمِلِي   ونُعْماكَ يا مَوْلَى الورَى تَسْتَجِدُّهُ[67]
فَدُمْ وعَدُوُّ الدّين إنْ أمَّ مقْصَدًا   لِملكِكَ رُجْعَى مُلْكِهِ ومَرَدُّهُ
فأفضَلُ ما يَرْجوُهُ كل مُوحِّدٍ   بَقاءُ المَقامِ اليُوسُفِيِّ وخُلْدُهُ

وَقُلْتُ أُهَنّيءُ مَقَامَهُ الكَرِيمَ ببِنْتٍ وُلِدَتْ لهُ عَلى إثر وفاةِ موْلودٍ وبتاريخ يوْم السَّبْتِ الثامِنِ لِرجَبَ عام اثني عشر وثماني مائة

هنيئًا هنيئًا إمامَ الهُدَى   وغوْثَ الوُجودِ وغيث النَّدَى
وبُشْرَى بوافدةٍ قدْ أتَتْ   لَها شَرَفٌ حازَ أقصَى المَدَى
على إثْر مَن جَدَّ في سَيْرِهِ   وحادِي المَنايا بِهِ قدْ حَدَا
ولَوْ كان يُفْدَى لكانَتْ لَهُ   نفُوسُ البَرَايَا جَميعًا فِدَا
لقَد طَلَعَتْ هذه عنْدَما   رأتْ سَيْفَهُ في الثّرَى أُغْمِدَا
وكانَ سَحابًا إذا يُرْتَجَى   وكانَ شِهابًا بهِ يهْتَدَى
فإنْ غابَ بَدْرُ الدّجَى مشرِقًا   فشمْسُ الضُّحَى نُورُها قدْ بَدَا
أنارَتْ ومنْ شأْنِها أنَّها   متَى طَلَعَتْ لمْ تَدعْ فرْقَدَا[68]
فأيْمِنْ وأسْعِدْ بها طَلْعَةً   وأعْظِمْ وأكْرِمْ بهِ مَوْلِدَا
ويا ناصِرًا جاءَ يَطْوي الْفَلاَ   يُجدُّ السُّرى طالبًا لِلْجَدا[69]
بمثْوَى إمامِ الهُدَى يُوسُفٍ   أنِخْ رَكْبكَ المتْهمَ المُنْجِدَا
ويَمِّمْ عَلى ظَمإٍ بَابَهُ   تَجِدْ عندهُ الظِّلَّ والمَوْرِدَا
فَما ذَلَّ مَن بعُلاهُ اعْتَلَى   ولا ضَلَّ منْ بِهُداهُ اهْتَدَى
أما ناصِرُ الدِّينِ مَنْ لَمْ يَزَلْ   يُنيلُ النَّدَى وَيُجِيبُ النِّدَا

---

(67) مآمِل جمع مأمول.

(68) هذا من قول النابغة : إذا طلعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكب.

(69) ويا ناصرًا، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : ويا قاصدًا.

أما ناصِرُ الدِّينِ منْ كَفُّهُ ... حَيَاةُ العُفَاةِ وحَتْفُ العِدَى

من القوْمِ قامُوا بنَصْرِ الرسُولِ ... قِيامًا ولِيِّ العِدَى أقْعَدَا

فكمْ وافدٍ إذْ أتَى حَيَّهُمْ ... على المُعْتَدينَ بِهِمْ أُيِّدَا

ويُوسُفُ منْ بعْدِهمْ قدْ أتَى ... فَجادَ وعَهْدَهُمُ جَدَّدَا

فكمْ خَلَلٍ سَدَّهُ في الثُّغُورِ ... وسَهْمٍ لِحرْبِ العِدَى سَدَّدَا

وكمْ منْ حِمًى قدْ حَماه وَكَمْ ... جِهادٍ به نَفْسَهُ أجْهَدَا

وكمْ من بِنَاءٍ بِتَشْييدِهِ ... أبانَ مَعالِمَ دينِ الهُدَى

وأنت الذي تُرْتَجَى مُنْعِمًا ... يُجيرُ إذا مَا الزّمانُ اعتَدَى

فما ذلّلَ الدّهْرُ إلاَّ أعَزَّ ... ولاَ ضلَّلَ الغَيُّ إلاّ هَدَى

سَيُعْطِي ولِيُّ العِدَى راغِمًا ... زمامًا لمَا شِئتَ أوْ مِقْوَدا(70)

مَتَى قَصدَتهُ الجِيَادُ التي ... تُضَمّرها نالتِ المَقْصَدَا(71)

إذا ما أغَارَت عَلى خيْفِهِ ... أغَارَ بهَا الخَوْفُ أوْ أنْجَدَا(72)

بِذِكْرِكَ تَعْنُو وُجوهٌ غَدَتْ ... إلَى ربّها رُكّعًا سُجَّدَا

بِحُبّكَ دَانت قلوبُ الوَرى ... فهَاهِيَ جَمْعٌ حَوَتْ مُفْرَدَا

ومَدْحُكَ هَامَتْ بتَرْدادِهِ ... فَكُلّ لِسانٍ به قدْ شَدَا - 31 -

فَهُنِّئْتَها كيفَ تبْغي العُلَى ... صَنائِعَ أرْغَمَتِ الحُسَّدَا

ولازِلتَ تُحْيي رُسومَ النّدَى ... كَما شِئتَهُ ووُقِيتَ الرَّدَى

تُشيِّدُ لِي مَعْلَمًا لِلْقَبُولِ ... فَيغْدُو لِسانِي بِهِ مُنْشِدَا

سِواكَ عَلى الدّهْرِ إذْ جارَ لَمْ ... نَجِدْهُ مُعينًا وَلا مُنجِدَا

لئن مَطّلَتْ بكَ أيّامُهُ ... فَقَد أنجزَتْ مِنكَ لِي المَوْعِدَا

وَدُمْتَ تُجيبُ نِداءَ العُفَاةِ ... بمَا تَرتجي من جَزيلِ النَّدَى

(70) راجع ما كتبناه في المقدمة.

(71) يضمّرها : يعلفها.

(72) الخيف : عرين الأسد.

ولمّا احتَل رِكابُهُ العَليُّ بظاهر حِصْنِ المُتْلِين[73] برسْمِ البناء في الزيَادةِ بقِصَبَته وأمرَ أيّدهُ الله أهْلَ الحضرة بالوُصولِ إليهَا اذالَةً وكنتُ قَد تخلّفتُ عنهُ لِعُذْرٍ فكتَبَ إلَيّ أيّده الله بخطٍّ يَده الكريمة من نظْمِهِ ما نصُّهُ في الثاني والعشرينَ لجمادى الآخرة عام اثني عشر وثماني مائة

إليْنـا إلَيْنَـا سَقـتْك العِهـادْ وخصّكَ مَوْلَـى الـوَرى بالمُـرادْ
فمـنْ يكُ يجْمَـعُ شَمْـلَ ٱلْعُلَـى سَيَحْظَـى بـودّيَ دونَ العبَـادْ
ومن شاءَ نظمًا ومـن شاءَ نثـرًا فـأنتَ العميـدُ وأنت العِمـادْ[73م]
ألسْتَ الصَّديـقَ ألسْتَ الَولـيَّ زمانَ عَـدَتْ عَن لِقانا الأعَـادْ
فكـمْ مـنْ خُطـوبٍ تَجَرَّعْتَهـا وغيْـرُكَ يُهْنـا بأسْمَـى مِهـادْ
يُحـاولُ منّـيَ إبْعادَكُـمْ ويأْبَـى وفَائِـي لكـمْ والـوِدادْ
فَـدُونكَ أقبِـلْ فـإنّ القَبـولَ ضميـنٌ لكُـمْ باقْتِبـالِ الـرّشادْ[74]

فرحلتُ للحِين ونظمتُ الجَوابَ أثناءَ الطَّريقِ

أ يـا رحْمـة اللـهَ فَـوْقَ العِبـادْ ومَوْلَـى المُلُـوكِ وحَامـي البِـلاَدْ
لأمَّـنْتَ أرْجاءَهـا نَـاصِرًا ببِيض السُّيوف وَسُمْـرِ الصِّعـادْ
ولِلّـهِ ثَغـرٌ أقـامَتْ بِـهِ جُنـودُكَ بين الربَـى والوهـادْ
وشَيَّـدتَ مظْهـرَهُ مُظْهِـرًا لِعِـزٍّ قَضَى ذُلَّ أهْـلِ العِنـادْ

---

(73) حصن المتلين، كذا في الأصل، والصواب : حصن المكلين. راجع ما ذكرناه في المقدمة، وقد ورد محرفا على الصورة المذكورة أيضا في نفح الطيب 4 : 518.

(73م) يمكن أن يقصد ابن العميد والعماد الأصفهاني.

(74) لا توجد هذه القطعة من نظم الملك يوسف الثالث في ديوانه، وهي تدلّ على طبيعة العلاقة بين ابن فركون ومخدومه وعلى أنه كان من أنصاره وأوفيائه أثناء محنته.

أقمْتَ شعائِرَ دينِ الهُدَى ... لديْهِ وقُمْتَ بفرْضِ الجِهادْ - 32
تمُدُّ الكتائبَ في أرْضِهِ ... ملائِكَةٌ فوْقَ سَبْعٍ شِدَادْ
إلى أن تُعيدَ ديارَ العِدَى ... مجالاً إلى الصَّافِناتِ الجِيادْ
ولمّا نأتْ بإمامِ الهُدَى ... رَكائِبُ أدْنتْ زَمانَ البِعادْ
وخَلَّفَ من عبْدِهِ مُغْرَمًا ... مَديدَ الهُيامِ طَويلَ السُّهادْ
يوَدُّ المَسيرَ وأجْفانُهُ ... تَهيمُ من الدّمْعِ في كلِّ وَادْ
وَلا غيث إلاّ الذي بالجُفُونِ ... ولا بَرْقَ إلا الذي بالفُؤادْ
وما خَلَّفوهُ ولكنَّهُمْ ... رَمَوْهُ بأسْهُمِ لَفْظِ الآعادْ
فقوْمٌ يقولونَ لمْ يتركوهُ ... سُدًى وتَحامَوْا طَريقَ السَّدادْ
وقوْمٌ أشاعُوا بأنّي هُجِرْتُ ... فأذْكَوْا هَواجِرَ ذاتَ اتِّقادْ
أما علمُوا أنَّني عبْدُ مَنْ ... تُعاهِدُني من نداهُ عِهادْ(75)
وأنَّ إمامَ الوَرى لمْ يَزلْ ... يَزيدُ من العِز إذْ يُستَزادْ
فناصِرُ دينِ الهدَى ناصِري ... على رغمِ مَن جاءَ يبْغِي العِنادْ
مَعاذَ وسائِلِنا أنْ تَخيبَ ... وحَاشَا لِعَنْقائِنا أنْ تُصادْ
وإنِّي حُبِيتُ بتشْريفِهِ ... فَلِلعَبْدِ كمْ نِعمةٍ قدْ أفادْ
خِطابٌ أتَى من إمامِ الوَرَى ... فكانَ المُرادَ وكانَ المَرادْ(76)
وحَيًّا عَلى ظَمَإٍ غيْثُهُ ... فَجَدّ اشْتِيَاقِي لهُ حينَ جَادْ
فمِنْهُ بكفّيَ أمْضَى حُسامٍ ... وفي عاتِقِي منهُ أبهَى نِجادْ
ومَولايَ لمْ ينْسَ مَمْلوكَهُ ... عَلى البُعْدِ حَتَّى أبانَ الوِدادْ
ويا طَالَما جادَ لي مُنعِمًا ... وما بَدأ الفَضْلَ إلاَّ أعَادْ
ولِلهِ ما نلتُه عنْدَمَا ... حَلَلْتُ لَدَيْهِ وَثِيرَ المِهادْ

---

(75) العِهاد : المطر بعد المطر.

(76) المُراد بضم الميم المقصود، والمَراد بالفتح المرعى والموضع المستراد.

فَيَا ساعَةً لِلتَّلاَقِي انقضَتْ — أَمَالَكَ يوْمًا [لَنَا] مِن مَعاَدْ
ويَا زَمنًا لِلرِّضَى قَدْ مَضَى — لَعَلَّكَ مِمَّا مَضَى ثُمَّ عَادْ
وسَوْفَ يُعِيدُكَ بَحْرُ ٱلنَّدَى — وهَادِي ٱلْوَرَى لِسَبِيلِ ٱلرَّشادْ - 33 -
فَرُؤيةُ مولاَيَ أَقْصَى المُنَى — وفيها المُرادُ ونِعْمَ المُرادْ
فلَيْتَ بهَا جادَ لِي دائمًا — فكمْ أَمَلٍ عِنْدَها مُسْتَفادْ
سَأَبْلُغُ مَا أَرْتَجِي إنَّني — عَلى غيْر مَوْلاَيَ مالِي ٱعْتِماَدْ

وَعَلِمتُ أنهُ أيده اللَّهُ يَطلبُ منْظومًا في وصْفِ الحَالِ فنَظمْتُ لحِينِ وُصُولي لِلمَحَلَّةِ مَا نَصُّهُ[77]

عَسَى الطَّيْفُ في جِنحِ الدُّجَى إذْ يعودُهُ — يجَدِّدُ عهْدًا لِلرِّضَى وَيُعيدُهُ
نَرومُ إجتِماعًا بالخَيالِ إذَا سَرَى — لِيَدْنُو وإنْ شَطَّ المَزارُ بَعيدُهُ
عجبْتُ لهُ إذ لا يُلمُّ بِمَضْجِعِي — وجَمْرُ الجَوى يُذْكَى بقَلبي وَقُودُهُ
بنارِ فُؤادِي في الظَلاَمِ اهْتِداؤُهُ — وفي أدْمُعِ الأَجْفانِ منّي وُرُودُهُ
دَعُوا أدْمُعِي تهْمِي متَى بَخِلَ الحَيَا — وأَخْلَفَ ربعًا للحَبيبِ تجُودُهُ
ألاَ بأَبِي تِلْكَ المعاهِدُ إذْ بها — لنا عهْدُ أُنسٍ قدْ تقضَّى حَميدُهُ
عَلى أنّ ربْعَ الصَّبْرِ بعْدَكَ قدْ عَفَا — تَهائِمُهُ قَد أَقفَرتْ ونُجودُهُ
رحَلتُ عن الأَوْطانِ فالدّمْعُ لم تَجُدْ — مَعَاهِدَ ذاكَ الأُنسِ إلا عُهُودُهُ
رَماني زماني مِنكَ بالبُعْدِ عامِدًا — وأيُّ حَبيبٍ ليْسَ يَشْقَى عَميدُهُ
ومنْ عادَةِ الأَيَّامِ أن تَمْنَعَ المُنَى — وان تمْنَحَ الشَّيْءَ الذي لا نُريدُهُ
ولكِنَّ مولانا الخَليفَةَ يُوسُفًا — يَزيدُكَ عِزًّا كُلما تستَزيدُهُ
وَلا سِيَّمَا مِثلِي فَمَوْلاَيَ كَفُّهُ — لجودٍ وأفكارِي لمَدْحٍ تُجيدُهُ

(77) المحلة في اصطلاح الاندلسيين والمغاربة هي الجيش الذي يخرج مع السلطان أو يوجهه إلى جهة من الجهات، وهذا من تسمية الحال باسم المحل.

فيا ناصرَ الإسْلامِ والمِلكَ الذي   يعُمُّ نَداهُ القاصِدين وَجودُهُ
كَأنْ بوَلّي الكُفْر قد خابَ سَعْيُهُ   وقُدّتْ هوادِيهِ وقِيدَ شَرُودُهُ
بكَ اسْتَنصَرَ الدينُ الحَنيفُ فأصْبَحَتْ   تُجَدِّدُ عَهْدًا بالجِهادِ جُنودُهُ
ولا مثْلَ مبْنًى مُعْجِبٍ قدْ وضَعْتَهُ   يُقَرِّبُ آمالَ المَرُوعِ بعيدُهُ
وباشَرْتَ بالنّفسِ الكَريمَةِ أمْرَهُ   وذلِكَ فخْرٌ ليْسَ يَبْلَى جديدُهُ
يَرومُ وَلِيُّ النّظمِ والنّثرِ وصْفَهُ   فَيَعجِزُ عنهُ سجْعُهُ وقصيدُهُ - 34 -
تَبَسَّمَ ثغرُ الثّغرِ عنْهُ مسَرّةً   بمَظهَرِ عزٍّ منهُ عَزَّ وُجودُهُ
وَلاَحَ بأعْلاَهُ شِهابًا لمُهْتَدٍ   تُقابِلُ بَدرَ الأُفْقِ منكَ سُعودُهُ
إذا مَا عَدُوُّ الدِّينِ جاسَ خِلالَهُ   ورامَ استِراقَ السَّمْعِ كُفَّ مَريدُهُ
كحسْناءَ تستَجْلِي العُيُونُ جمالَها   فتُبْدِيءُ مغْنَى حُسْنِها وتُعيدُهُ
وقد أوْمأتْ بالكَفِّ تَدْعُو ضَراعَةً   لِمُلكِكَ أن يُفنِي العُداةَ خلودُهُ
لدَى جَبَلٍ بالشُّهْبِ نِيطَتْ هِضابُهُ   فصافَحَتِ الكَفُّ الخَضيبَ نُجودُهُ(78)
أشمَّ بَعيدَ الصِّيتِ بَادٍ وقارُهُ   ومُرْتاحَةٌ أعْلامُهُ وبُنُودُهُ
تَمُرُّ بهِ هُوجَ الرِّياحِ فَتَنثَنِي   وقدْ سَدَّ مَسْراهَا الرّفيعَ صُعُودُهُ
تَرُومُ سُمُوًّا فوْقَهُ وهْيَ دُونَهُ   فَتَقْصُرُ عمّا تَشتَهي وتُريدُهُ
دَعوْتَ لَهُ أهْلَ الجِهادِ فاهْطَعُوا   كما زارَتِ البيْتَ العَتيقَ وُفودُهُ
ودارَتْ حَوالَيْهِ الجُنودُ كأنّها   وِشاحٌ عَلَى خَصْرٍ يَروقُ فَريدُهُ(79)
تَحُلُّ كأسْرابِ القَطَا منهُ موْرِدًا   يَطيبُ بِجَدْوَى راحَتَيْكَ وُرُودُهُ
بمشْرَعِهِ ارْتاحَتْ عوَالِيكَ شُرَّعًا   تَرُدُّ العَدُوَّ المعْتَدي وتَذودُهُ
فما هُوَ مَغْنًى حَلَّ مَغْناهُ أهْلُهُ   ولكنَّهُ غِيلٌ حَمتْهُ أُسودُهُ

(78) الكف الخضيب : تطلق على نجم معين.

(79) فريده : جوهرُهُ ودُرّه.

وَدُونكَ يـا مَـوْلاَيَ منها لآلِئًـا فَنظِمِي عِقْدَ صَفْحَةُ ٱلطِّرْسِ جيدهُ
وأنتَ الذي مازِلتَ للدّين نـاصِرًا ومُلْـكُكَ أمْـلاكُ الزّمـانِ عَبيـدُهُ

وقبْلَ وُصُولِ هٰذِهِ إلى يَده الكَريمَةِ وقد وجَّهْتها إليْهِ وَصَلَتْنِي بَراءَةٌ بخطّ يَدهِ الكَرِيمةِ تأمُرُني فيهاَ بوَصْفِ المبْنَى وذِكْر معْدِنِ البَارودِ الذي عُثِرَ عليْهِ بالمَوْضِعِ وَوافَقَ ذٰلِكَ سَاعَةَ رُكُوبهِ إلَى الصَّيْدِ فتَلَقيتُه عندَ رجُوعِي بِمَا نصُّهُ(80)

هِيَ الهَضْبَةُ الشَّمّـاءُ بـادٍ وَقارُهَـا تَحامَـى حِماهَـا ليلُهـا ونَهارُهـا
لقَدْ أخذَتْ مِنْ حادِثِ الدّهْرِ حِذْرَها إلَـى مَالـهُ يـوْمَ الجَزاءِ انتِظارُهَـا
فلمْ يَرْمِهـا مَـرُّ الجديديْـنِ بالبِلَـى ولاَ راعَها مِثْـلَ البُـدورِ سِرارُهـا - 35 -
سِوَى أن بَدَتْ منهَا الهضابُ مَفارقًا بِبنْيَتِهـا البَـيْضاءِ شابَ عِذارُهـا
ومَوْلَى المُلوكِ البَرُّ يوسفٌ الـذي لهُ راحَةٌ بالجُـودِ مـاجَتْ بحارُهـا
تَـواضَعَ لِلّـهِ العَظيـمِ بوَضْعِهـا تُصافِحُ عُلْـوِيَّ الـدَّرارِيِّ دارُهَـا
عَلَـى البِـر والتقـوَى أقامَ بِناءَهَـا فقَـرَّ عَلَـى رَغْـمِ العُـداةِ قَرارُهـا
وأسَّسَ مَبْناهَـا بكَـفٍّ كَريمَـةٍ سحَـابُ نَداهَـا لِلعُفـاةِ انهِمَارُهـا
وقد حَجَرَ الأعْداءَ عَن ربْعِهَا الذي تَناقَـلُ بالأيْـدي لدَيْـه حِجارُهـا
تروقُ عَلى الرّاحاتِ حُسْنا كـأنها كُـؤوسُ مُـدَامٍ بالأكُـفِّ مَدَارُهـا
ودارَتْ بهَا دوْرَ السّوارِ كَتـائِبٌ بناصِر ديـنِ اللّـهِ فيهَـا انتصارُهَـا
كَتَائِب عِزٍّ إن أغارَتْ وانجَـدَتْ تُغيـرُ فَيُـرْدِي بالعُـداةِ اغْتِرَارُهـا
لَقَدْ فَرَعَتْ نَحْرَ الكتائِبِ وارْتَقتْ وان عَـزَّ مَرْمَاهَـا وَشَطٌّ مَزارُهَـا
فعُدّتْ مِنِ الشُّهْبِ الثّواقبِ عندَما أنارَتْ لَدَى جِنْحِ الدُّجُنَّةِ نارُهـا

(80) في هذا التقديم كلمة البراءة ومعناها عندنا البطاقة والرسالة.

حَمَيْتَ حِمَاهَا كالضُّبَارِمِ والظُّبَا   مُشَهَّرةٌ في الخافِقَيْنِ اشْتِهارُهَا[81]

وقدْ نِلْتَ بالإنفاقِ بِرًّا وَرِفْعَةً   فكَمْ بِدَرٍ نحْوَ الأكُفِّ بِدارُهَا

وَجالَتْ بهَا خدَّامُ مُلْكِكَ جَوْلَةً   فَبانَ عَلَى الصُّنْعِ الجميلِ اقْتِدَارُهَا

تطوفُ بهَا لِلأَمْنِ واليُمْنِ كَعْبَةً   فِللرُّكْنِ منْها حجُّها واعْتِمارُهَا

وترْمِي بأعْلاَهَا الحجارةَ آخِرًا   كأنَّ وفُودَ الحَجِّ تُرْمَى جِمارُهَا

وفي معْدِنِ البَارُودِ أعْظَمُ آيةٍ   بدَتْ فالنُّهَى فيها يَطولُ اعْتِبارُها[82]

نَصَبْتَ بِها لِلنَّفْطِ أبراجَها التِي   يُضاهِي بُرُوجَ النَّيِّراتِ جِدارُهَا

فكَيَّفَ منهُ اللهُ للحَرْبِ عُدَّةً   ففي القَفْرِ منه ما إليْهِ افْتِقارُها

وقابَلَها المَبْنَى الرَّفيعُ مُجاوِرًا   لهَا إذْ بِمَوْلَى الخَلْقِ عزَّ جُوارُها

يُرِيكَ لدَى الظَّلْمَاءِ غُرَّةَ أدْهَمٍ   بِهَا غرَّةُ الأعداءِ فُلَّ غِرارُها

عَمرْتَ به ثَغْرًا كأنْ بعُداتِهِ   وقد أقفَرتْ أوْطانُها وَدِيارُها - 36 -

تسُلُّ عليْهَا سَيْفَ عَزْمِكَ إذْ لَهَا   بِهِ حالَتاها قَتْلُها أو إسارُهَا

أقمْتهمَا كالفرْقَدَيْنِ لِذاكَ قَدْ   بَدَا منْ شَياطِينِ الضَّلالِ نفارُها[83]

ودُونَكَ يا مَولايَ منْها عُجالَةً   تَبَيَّنَ لِلتَّقْصير فيها اعْتِذارُها

عَلى أنَّ أفْكاري بوَصْفِكَ لا تَفِي   فَسِيَّانِ فيهِ طُولُها واختِصارُها

---

(81) الضّبارم : الأسد المجتمع الخَلْق المُوَثَّق التكوين.

(82) في هذا البيت، وما بعده، ما يدلّ على معرفة حقيقة البارود، واستعمال الأنفاض، وثمة بعض النصوص التي تشير إلى توصل بني مرين أيضًا إلى هذا، غير أن المسيحيين في الأندلس طوّروا هذا السلاح وكان من أسباب غلبتهم.

(83) نِفارُها كذا في المتن، وفي الطرّة : فِرارها.

وقلْتُ أُهَنِّىءُ مَقامَهُ الكَريمَ بالهَدِيَّةِ المُشْتَمِلَةِ عَلى الخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَسِوَى ذلِكَ مِنْ عَجائِبِ إفْرِيقْيَةَ الواصِلَةِ مِنْ قِبَلِ السُّلْطانِ بها أَبي فارِسَ عَبْدِ العَزيز الحَفْصِي(84)

سَلْ بالغَميمِ معاهِدًا لَمْ أنسَها ... اتعيدُ أيّامُ التّواصُلِ أُنْسَهَا(85)
أَبْدَتْ لديْكَ مِن المَعَاطِفِ مُلْدَهَا ... أَهْدَتْ إِليْكَ مِن المَراشِفِ لُعْسَها
عَهْدِي بهَا وزَمانُنا مُتَكَفِّلٌ ... بِشَوارِدِ الآمالِ يُدنِي شُمْسَها
نامَتْ عيُون الحَادثاتِ ونحْنُ في ... دَعَةٍ وصرْفُ الدَّهْرِ عنَّا قَدْسَها
باتَتْ جوانِحُنا إليْها نُزَّعًا ... لاَ منْ جميلِ الصَّبْرِ تنزِعُ لُبْسَها
لمْ يُشْجِهَا الطَّيْفُ المُلِمُّ وإنَّمَا ... زارَ الخبالُ مع الخَيالِ فمَسَّهَا
فَقلوبُنا لولاَ التعلُّلُ بالمُنَى ... لأَحَلَّها طُولُ التسَوُّف رَمْسَها
ونفُوسُنا لولاَ الخَليفَةُ يُوسُفٌ ... لاَسْتَشْعَرَتْ فيمَا تُؤمِّلُ يأسَهَا
لِلّه سابقَةٌ لهَا أنِستْ بِهَا ... مَوْلَى الخلائِفِ يُوسُفٌ لمْ يَنْسَها
فلكَمْ جَلوْتُ لديْهِ غُرَّ فرائِدٍ ... ضَمَّنتُ أزهَارَ الحَديقَةِ طِرسَهَا
مَلِكٌ صَلاَةُ صِلاَتِهِ وَخِلالُهُ ... شمسٌ تُزيلُ عن النّواظِرِ لَبْسَها
حزْمٌ وإقْدامٌ وعزْمٌ في تُقًى ... في جود كَف قدْ أقامَتْ خمْسَها
إنَّ الخِلافَةَ إذْ رأتْهُ وَلِيَّها ... وَهَبَتْ لهُ شَرْعًا وَطبْعًا نفْسَها
كَفَّ العُداةَ فلَمْ تُرَوِّعْ سِرْبَها ... وكَفَى الخُطوبَ فَلمْ تُكَوِّرْ شمْسَهَا

---

(84) إفرقية كما رسمت في الأصل أو افريقية هي المغرب الأدنى أو تونس، وأبو فارس عبد العزيز الحفصي ولي من سنة 796 هـ إلى وفاته سنة 837 هـ انظر أخباره في الحلل السندسية 2 : 185 — 193 وقد كان بينه وبين يوسف الثالث تحالف على بني مرين، ويبدو أن الخيل التي زعم الشاعر أنهاستغير على الروم وجهت في الغالب مع المسمى بالسّعيد لإثارة الفتن في المغرب، فقد ذكر ابن حجر في إنباء الغمر أن ابا فارس المذكور كاتب ابن الأحمر بان يفرج عن «السعيد» ويوجّهه إلى المغرب لمحاربة ملكه أبي سعيد عثمان. إنباء الغمر 6 : 237.

(85) الغميم : وادٍ بين الحرمين على مرحلتين من مكة.

مَوْلاَيَ هلْ في الخافِقيْنِ كَيوسُفٍ ... مَوْلًى يُشرِّفُ مِصْرَها أوْ قُدْسَها - 37 -
لوْ لُحْتَ للأمْلاكِ قِدْمًا لمْ يَسُدْ ... كِسْرَى وقيْصَرُ رُومَها أوْ فُرْسَها
أيّي الخلائـفِ دَوْلَـةٌ مـا فُقْتَهـا ... أوْ أيُّ أشرفِ حُلَّةٍ لمْ تُكْسَها
هـذا ومُلْكُكَ في هَدِيَّةِ تـونُسٍ ... لَكَ يَوْمُها في العِزِّ يُنسي أمْسَها
هي دوْلَةٌ حفصيَّةٌ بِكَ حَقَّقَتْ ... مَظنُونَها فيما رَجَتْهُ وحَدْسَها
شادَتْ مَعالِمَ قد أقمتَ على الرِّضَى ... وَعلى المُـوالاَتِ الجَميلةِ أُسَّهـا
لوْلا آنتسابُ خيولِها نُسِبَتْ إلَـى ... هوجِ الرِّياحِ 'ولمْ تخالِفْ جِنْسَها
تختـالُ زَهْـوًا في أعِنَّـةِ سَيْرِهـا ... مثْل النّدَامَى قـدْ أدارت كأْسَها
لِتحُلّ حَضرةَ ناصِرِ الدّين الـذي ... بِحُلَى عُـلاهُ اللّـهُ شَرَّفَ قُدْسَها
أضْفَى عَلَيْها الحُسْنُ حُلّتَهُ الـتي ... لمْ تستَطِعْ أيْدي التّنـاوُلِ لَمْسَها
فـإذا أحَسَّ الـرُّومُ منهـا غـارَةً ... كادَتْ مُلوكُهُـمُ تُفـارِقُ حِسَّهَـا
لَلْخزْرَجيّيـنَ الألى لكَ نِسْبَـةٌ ... طـاوِلْ بها ذُبْيانَهـا أوْ عَبْسَهـا
وإلَيْكَهـا عَـذْراءَ راقَ جمالُهـا ... بالطِّرْسِ قدْ لَفّتْ حَياءً رأْسَها
وَافَتْ فَما راعَ الوَسائِلَ ردُّهـا ... كَلاَّ ولاَ الأثْمانُ تخْشَى بَخْسَها
لَمْ تُصْمِتِ الأيّامُ ألسُنَ فِكْرَتي ... إلاّ وأنصَفَتِ المَـواهِبُ خُرْسَهـا
لَمّا انثَنَتْ تُثْنِي عَلَيكَ عَقائِلي ... سَحْبانُهـا خجَلاً ثَنَتْهُ وقُسُّهَا
كُلُّ المَقاصِدِ منك ها أنا أرْتَجي ... إسْعافَهـا ان رامَ دَهْـرٌ عَكْسَها
أنا غرْسُ أنعُمِكَ التي عَمّتْ وَمن ... زَهْرِ المَدائِحِ فيكَ تَجْني غَرْسَها

وقبْلَ هَذِهِ المَنْظوماتِ اسْتَدْعَانِي أَيّدَهُ اللّهُ إلى بَيْنَ يديه وهي أوّل مرّة شافَهَني بالحديثِ وأمَرَني بنَظم قصيدة أوَطّىء تخلصَها عَلى البَيْتَين اللتَيْنِ ينسَبُ التَشْطيرُ منهُما لِلسُّلطان أبِي العبّاس صاحب المَغرب فقلتُها في ذلك اليَوْم وأمَر لي إذ ذاك بمِحْبَرَة رائقة الصّنْعة فَضمّنتُ وصْفَها فيها وبتاريخ الرّابعِ والعشرينَ لربيع الثاني عام اثنَيْ عَشَر وثماني مائة (86) - 38 -

ما للمدامعِ فَوْقَ الخدِّ تنسَكِبُ ... وما لِقَلبِي بنارِ الوَجْدِ يَلتَهِبُ
فلا تَسَل عنْ فُؤادٍ حَلَّ ساحَتَهُ ... جَمْرُ الجَوَى عِنْدَما بانَتْ بها النُّجُبُ
يالَيْتَ شِعْرِيَ والأيّامُ مُسْعِدَةٌ ... والبُعْدُ يُعْقِبُها منْ حَيِّها كَثَبُ
ورُبَّ لائِمَةٍ تُلقي المَلامَ عَلَى ... حُبُّ التي وَدُّها طَبْعٌ ومُكْتَسَبُ
قالَتْ لِما هِمْتَ منْ بعْدِ السُّلوِّ بها ... فقلتُ كُلُّ فَتًى قدْ هَزَّهُ الطَّرَبُ
قالتْ تَمتَّعْ ببِدْعٍ من محاسِنها ... فقلتُ قدْ سُدِلَتْ من دونِها الحُجُبُ
قالتْ أتَخفَى عنِ الأبصارِ بهْجَتُها ... فقلتُ هيْهاتَ نورُ الشّمْسِ يحْتَجِبُ
قالتْ فما تتمَنّى بعْد رُؤْيَتِها ... فقلتُ لمْ يَبْقَ لِي في غيْرِها أرَبُ
قالَتْ لما أنتَ بالأوْصافِ ذو كَلَفٍ ... فقلْتُ وَصْفُ حُلاَها للرِّضَى سَبَبُ
قالَتْ فَراسِلْ إذا عَزّ اللّقاءُ وَصِفْ ... فقُلْتُ لَيسَ تَفِي الأقْلامُ والكتُبُ
قالتْ فمالَكَ إلاّ الطّيفُ تَرْقُبُهُ ... فقلتُ مَن لي به والنّوْمُ مُسْتَلَبُ
عَهْدِي بها وَرياضُ الأُنسِ يجْمَعُنا ... والدّهْرُ طَلْقُ المُحَيَّا شأنه عَجَبُ
واللّيْلُ يُلْحِفُنا أسْتارَهُ وَبِهِ ... من عَسْكَرِ الشهْبِ جَمْعٌ لَيْسَ يُنْتَهَبُ

---

(86) اللتين كذا في الأصل، والصواب اللذين وأبو العبّاس صاحب المغرب هو السلطان المريني أحمد بن أبي سالم وكان شاعرًا مجيدًا. ترجمته في جذوة الاقتباس : 1 : 112 ـ 114 ط. دار المنصور وروضه النسرين : 34 ـ 38.
والاستقصا 4 : 61 ـ 69 ـ 73 ـ 79

أقُولُ والبَرْقُ يحْكِي في مطالِعِهِ … خفّاقَ قلْبِ إذا جَنّ الدُّجَى يجِبُ :
يـا بارِقًـا بأعالِـي الرَّقْمَتَيْـنِ بَـدَا … في سُدْفَةِ اللَّيْلَةِ الظلْما لَهُ لَـهَبُ
أرَدتَ تحكي ثغورًا راقَ مَبْسِمُهـا … لَقَدْ حَكَيْتَ ولكِنْ فاتكَ الشَّنَبُ[87]
وجِئْتَ بالبشرِ من وَجه الخَليفة إذْ … يُعْطِي ولكنَّ أيْنَ العِلْـمُ والأدبُ
ورُمْتَ تحكي جيادَ العِزِّ مُرْسَلَـةً … لكنَّ أين الشِّيَاتُ الغُرُّ والـنّسَبُ
وكِدْتَ تُشْبِهُ سَيْفَ النّصرِ مُنْصَلِتًا … لكنَّ أيْـنَ مَضاءُ الحَـدِّ والشُّطَبُ
إنْ هَزَّهُ يوسُفُ الأمْلاكِ يوْمَ وَغًى … تهابُـهُ ثُـمَّ تَرْجـوهُ إذا يَـهَبُ
فَيـوسُفٌ مَـلِكُ الدُّنْيَـا وبَهْجَتُهَـا … وناصِرُ الدّين مهْمَا راعَـهُ رَهَبُ
مَن كابْن نَصْرٍ إذا عدّ الملوكُ بها … مَوْلًى لصحْبِ رَسول اللهِ ينتَسِبُ
آبـاؤهُ النَّفَـرُ الغُـرُّ الذيـنَ لَهُـمْ … مآثِـرٌ عَظَّمَتْهـا العجْـمُ والعَـرَبُ - 39 -
هَذِي الكتائِبُ تُزْهَى والكِتابُ بِهِمْ … في اللّهِ ما كَتَّبوا في اللهِ ما كَتَبُوا[88]
فأيْنَ مُسْتَنْصِرُ الأمْلاكِ منْهُ نَـدًى … وسَيْفُ دولَتِهمْ تُزْهَى بِهِ حَـلَبُ[89]
لِعَبْـدِهِ الـرّاغِبِ الرّاجـي برُؤْيَتِـهِ … فَوْق السّحَابِ ذُيولَ الفخْر تنسَحِبُ
كلَّمتَ عبْدَكَ يَا مَوْلَى المُلوكِ فمَا … بالنَّظمِ والنَّثْرِ وفّى بَعضَ ما يجِبُ
إذا رأيْتُ مُحيَّـاكَ الكَريـمَ فقَـدْ … بلغْتُ ما كنتُ أرْجو وانْتَهَى الطّلب

---

(87) ورد تشطير السلطان المريني في ديوان يوسف الثالث كما يلي :
(يـا بارِقًـا بأعـالي الرقمـتين بـدا) … للّحظ في سدفة الظلما لـه لهب
كم رمت باللمع أن تحكي الثغور سنًا … (لقد حكيت ولكن فـاتك الشّنَبُ)
قال يوسف الثالث :
فعارضنا القصد الذي قصده، بأن ارتجلنا اصلاحًا لما أورده :
(يـا بارِقـاً بأعـالي الرقمـتين بـدا) … في مفرق الليل مـن لألائـه لهب
اردت تحكـي ثغـورًا راق مبسمهـا … (لقد حكيت ولكن فـاتك الشّنَبُ)
ديوان ملك غرناطة : 5 (الطبعة المصرية الثانية)

(88) كتّب الكتائب : جيّش الجيوش

(89) المستنصر لقب أبي العباس المريني، وقد تطاول الشاعر على مقامه تقرّبا إلى ملكه، وفي قوله : وسيف دولتهم إلخ تورية واضحة.

وإنّ أيسَرَ لحْظٍ مِـنكَ يُقْنِعُنــي   دون العِنايَة عِندِي المالُ والـنّشَبُ
هذا ولمْ يَكْفِ ما أوْلَيْتَ من نِعِمٍ   ومن مَكارِمَ تأتي دُونَها السُّحُبُ
حَتَّى وهَبْتَ التي أضْحَتْ مَلابِسُها   يَروقُ منهُ اللّجَيْنُ البحْتُ والذّهَبُ
وَهَبْتَها فَـذّةً صَفْراءَ قـدْ جُلِيَتْ   كأنَّها بَعْضُ ما تَرْمِي به الشُّهُبُ
لا تعْجَبوا إنْ بَدا كالنّجْمِ ظاهِرُهَا   فــإنَّ باطِنَهـا لِلّيْــلِ يَنْــتَسِبُ
دَارَ الجُمانُ بأعْلاها يَرُوقُ سَنًــا   كأنّما هـي كـأْسٌ فوْقَهـا حَـبَبُ
إنْ أخفَـتِ الحِبْرَ رَهْنَ الصَّدْرِ تَحْجُبُهُ   لا تعْجَبُوا فَسوادُ القلْبِ محْتَجَبُ
إذا اليَرَاعَةُ جالتْ عِنْدَهـا فَعَـلتْ   ما لَـيْسَ تفْعَلُهُ الهِندِيَّةُ الـقُضُبُ
مَولاَيَ هذا الذي قدْ كنتُ آمُلُهُ   هَذا الزّمانُ الذي مازِلْتُ أرْتَـقِبُ
لازِلتَ يا مَلِكَ الإسْلامِ في دَعَةٍ   ومن عُلاكَ جميل الصُّنْعِ مُرْتَقَبُ

ولِثاني يوْمٍ منْ هَذا وجَّهَ إلَيَّ كُسْوَةَ حَرير فقُلْتُ أشْكُرُ نِعْمَتَهُ

ثَنــاؤُكَ مــا هَبَّ للنّــاسِمِ   ضُحًى أمْ شَذَى الزّهَـرِ البـاسِمِ
ومَدْحُكَ ما قَدْ بَدا بالطُّـرُوسِ   أمِ الــدُّرُّ في راحَــةِ النّاظِــمِ
وهَـذْيُكَ مـا قَـدْ بَـدا لِلــورَى   دُجًـى أمْ سَنَا الكَـوكبِ العــاتِمِ
وعزْمكَ ما قد بـدَا في الأمــورِ   لنــا أم شَبــا صفحَــة الصَّارِمِ
وَجـودُكَ مـا قـدْ هَمَـى جَـوْدُهُ   أمِ السُّحْبُ في غَيْثِهـا السَّاجِـمِ - 40 -
فــإنّ أحــاديثَ بــذْلِ النّــدى   لمَرويَّــةٌ عــنْكَ عــنْ حاتِــمِ
كتــائبُ جــودِكَ أرْسَلْتَهــا   لَـدَى عَبْـدِكَ الكـاتِبِ النّاظِـمِ
مَــلابِسُ رِفــدِكَ لمّــا أتَتْ   كَلِـفْتُ بِهـا كَلَـفَ الهائِـمِ
إذا اللّـوْنُ أشرَقَ مـنْ ثَوْبِهـا   حَكَـى الـورْدَ في رَوْضِهِ النّاعِـمِ
وفيها الــذي حُسْنُ الوانِــهِ   كَزَهْـرِ الربَـى الرّائـقِ البَـاسِمِ

قَدِمْتُ عَلى مدْحِ مَوْلَى الوَرَى ... فهيَّأ لي تُحْفَةَ القَادِمِ
أَلَذّ من المَاءِ بَعْدَ الصَّدَى ... وأحْلَى مِنَ الطَّيْفِ لِلْحالِمِ
فأوْرَدتني لِلمُنَى سَلْسَلاً ... يُرَوِّي ظَما غُلَّةِ الحَائِمِ(90)
وجَاهُكَ مازالَ سَيْفًا بِكَفِّي ... ولَيْسَ لَهُ الدَّهْرَ من ثالِمِ
يَكُفُّ الخُطُوبَ وهَل غيْرُهُ ... لِجَمْعِ الحوادِثِ من هازِمِ
ألاَ يا إمَامَ الهُدَى هَل يُرَى ... سِواكَ عَلَى الدّهرِ مِنْ حاكِمِ
إمَامِ مُوالٍ لبَذْلِ النَّدَى ... وعالٍ بدين الهُدَى عَالِمِ
جَوادٍ إذا سُئِلَ الرِّفْدُ منهُ ... لهُ شِيمَةُ المُشْفِقِ الرّاحِمِ
ويَوْمَ الوَغَى سَيْفُهُ في العِدَى ... لهُ سُطْوَةُ الظَّافِرِ الغانِمِ
وإنّي أتيْتُ فَقَبَّلْتُ منْهُ ... يَميِنًا هِيَ اليُمْنُ لِلاثِمِ
بِمَدْحِكَ شُرِّفْتُ بَيْنَ الوَرَى ... عَلَى رغْمِ كل امْرِىءٍ راغِمِ
أَقَرَّتْ بِفَضْلِكَ أمْلاكُها ... وهَلْ لِسَنَا الشمْسِ مِنْ كاتِمِ
فَدُمْتَ وَدَهْرُكَ ما إن يُرَى ... لِفِعْلِ نَوالِكَ بالجَازِمِ

ولمّا أجْلَسَني أيّدهُ اللّهُ بقُبَّةِ مَشْوَرِهِ السَّعِيد بيْنَ يَدَيْهِ
وأوّلُ يَوْمٍ جَلسْتُ فيِهِ يوْمُ عيدِ الفِطْرِ منْ عامِ اثْنَي عَشَر
وثمانِي مائَة قُلْتُ أشكرُ نِعْمتَهُ وأمْدَحُهُ أدامَ اللّهُ أيّامَهُ(91)

ألا ليْتَ شِعْرِي أيَّ نُعْماكَ أشكُرُ ... وأيَّ جَزيل مِنْ عَطاياكَ أذْكُرُ - 41 -

---

(90) الحائم : العطشان.

(91) المَشْوَر : مصطلح مغربي يطلق في أصله على المكان الذي يجلس فيه الملك للشورى وتسيير أمور الدولة، وما يزال يطلق على ساحة القصر الملكي حيث يحضر رجال الدولة، ويجتمع الناس لرؤية الملك في الأعياد والمناسبات، وقبة المشور هي القاعة المخصّصة لِلا ستقبالات، وقد وردت الكلمة في نصوص أخرى من العهد المريني والنصري.

لأَوْلِيتَني النعْمَى التي جَلّ قدْرُهـا وأمّنتَنـي مِمّـا أخـاف وأحْـذَرُ
ومنْ أمَّل المَوْلَى الخليفة يُوسُفًـا فـلاَ مَـقْصَدٌ يَنـأى ولاَ يَتَعَـذَّرُ
ومِثلِي مَمْلُوكُ ابْـنِ نَصْرٍ حَقيقَـةً عَلَى كُلِّ مَن ناواهُ في الدَّهْرِ يُنْصَرُ
كَفَفْتُ بكَ الأَيَّامَ عنْ أن تُضيمَني فجاهُكَ في كَفِّـي حُسامٌ مُشَهَّـرُ
وَبَلَّغْتَنِي القَصْدَ الذي كُنْتُ آمِـلاً ومِثْلُكَ منْ يولي الجميـلَ ويَقْـدِرُ
وأحْللتَني منْ حَضْرَة المُلْكِ منْـزلاً بـهِ راقَ لِلدنيـا ولِلدّيـنِ مَظْهَـرُ
لَـدَى قبّـةٍ غَـرّاءَ عَـزّ مَكانُهـا بمُلـكِكَ منها راق خُبْرٌ ومَخْبَـرُ
يَلـوحُ سَريـرُ المُـلْكِ فيها كَهالَـةٍ بها مِـنكَ فَيّـاضُ الأشِعَّـةِ نَيِّـرُ
تحُفُّ بها من جُنْدِ نصْرِك أنجُمٌ ووَجْـهُكَ وَضّاحُ الأَسِرةِ مُقْمِـرُ
وتَرتـاحُ قضبٌ لِلقـواضِبِ عِنْدهـا فهـا هـيَ رَوْضٌ بالغَمائِـمِ مُزْهِـرُ
لكَ المُلْكُ أضحى تُبَّعٌ تابعًا لـهُ وقصَّرَ عنهُ في مَدَى الجُودِ قَيْصَرُ[92]
مُحَيَّاكَ عنْهُ مَطلِعُ الصّبْحِ مُشْرِقٌ وكَفُّكَ فيها عارِضُ الجودِ مُمْطِـرُ
ومهْمَا أفادَ الرَّوْضُ بالعَرفِ والجَنى فمدْحُكَ أو كَفَّاكَ أعْطَى وأعْطَرُ
وان راقَ مَرْأى الشمْس نورًا ورفْعَةً فَمَـرْآكَ أوْ مَرقـاكَ أبْهَـى وأبْهَـرُ
بِمَولاَيَ قدْ نِلتُ المَكارِمَ والعُلَى فأصبـحْتُ في أثوابهـا أتبخـتَـرُ
هُوَ النّاصِرُ المَوْلَى الذي جُودُ كَفِّهِ منَ الغَيْثِ أندَى أوْ منَ الشمْسِ أشْهَرُ
إمـامٌ هُمـامٌ خـاشِعٌ مُتَبَتِّـلٌ أغَرُّ وَهوبٌ واضِحُ البِشْرِ أزهَـرُ
يُطاوِلُ أمْلاكَ الزّمانِ إذا انتمـى قَبيـلٌ إلى صَحْبِ النَّبيّ ومَـعْشَرُ
وفي حَرْبِهِ يَرْتـاحُ سَيْفٌ وذابِـلٌ وفي سَلمِه يُزهَـى سَريـرٌ ومِنْبَـرُ[93]
ويُطْلِعُ منهُ الوَجْهُ أزْهَرَ باسِمًـا ولِلأُفْـقِ وجْـهٌ بالعجاجَـةِ أغْبَـرُ
سَيعْمُـرُ بالتّوحيـدِ كـلَّ ثَنِيَّـةٍ ورَبْعُ العِدَى من آهلِ الشِّرْكِ مُقْفِرُ

---

(92) تبع لقب لملوك اليمن وقيصر لقب لملوك الروم.

(93) الذابل من القنا هو الرقيق.

أمولايَ أمّا الوَصْفُ منكَ فمُعْجِزٌ ... فسِيَّانِ فيهِ مُطْنِبٌ أوْ مُقَصِّرٌ
لسانِيَ عنْ شكْرِ الذي نِلْتُ قاصِرٌ ... نعَمْ بَاذِلُ المَجْهودِ في الشكْرِ يُعْذَرُ - 42 -
ومالِيَ الاّ أن أرَى الدّهْرَ مادِحًا ... أنمِّقُ أوْصافَ العُلَى وأُحَبِّرُ
فلا زِلتَ لِلدِّين الحَنيفِيِّ ناصِرًا ... بلادُ العِدَى تُطْوَى وبَنْدُكَ يُنْشَرُ

وقلتُ وقد وجّهَ إلي أبياتًا من نظْمِهِ أيّدهُ اللهُ علَى هذا الرّويِّ والعَروضِ وإذا وَقَعَتْ لليَد تثْبتُ علَى وجْهِ التّشْريف إنْ شاءَ اللهُ في عشِي يَوْم الخميس الثامن لِربيع الآخِر عام أحَدَ عَشَر وثمَاني مائة(94)

بَدْرٌ بقُبَّتِكَ الغرّاءِ مَطْلعُهُ ... تبارَكَ اللّهُ مُبْدِيهِ ومُطْلِعُهُ
حَمْراؤُها هالَةٌ تَبْدُو أشِعَّتُها ... لأُفْقِها مَرْقَبٌ بالعِزِّ تَفْرَعُهُ
فأنتَ يا مَلكَ الاسْلامِ ناصِرُهُ ... من كُلِّ حادِثَة في الدهْرِ تَمْنَعُهُ
وأنتَ فوْقَ المُلوكِ الصِّيدِ منزلَةً ... وتحْتَ طوْعِكَ مُلْكُ الأرْضِ أجْمَعُهُ
فإن دَجَا لَيْلُ رَوْعٍ أنتَ مَلجَأُهُ ... وان تفاقَمَ أمْرٌ أنتَ مَفْزَعُهُ
لِلجُودِ تمَنَحُهُ لِلدِّينِ تمْنَعُهُ ... لِلسَّيْفِ تسْرِعُهُ لِلرُّمْحِ تَشْرعُهُ
لِلسَّعْدِ تحْرِزُهُ لِلوَعْدِ تُنجِزُهُ ... لِلصَّدْرِ تَشْرَحُهُ للقدْرِ ترْفعُهُ
يا طالبًا معْهَدًا للرِّفْدِ يَنْزِلُهُ ... ارْبعْ قليلاً فقدْ حَيَّتكَ أرْبُعُهُ
بناصر الدّين قد لاَحَتْ مَعالمُهُ ... وراقَ في أُفُقِ العَلْياءِ مَصْنَعُهُ
ويُوسُفٌ شرّف المُلْكُ العَزيزُ بِهِ ... فأيْنَ قَيْصَرُهُ صيتًا وتُبَّعُهُ
فَقيصرٌ قاصِرٌ عنْ جودِ راحَتِهِ ... وتُبَّعٌ في مَضاءِ العَزْمِ يَتْبَعُهُ
أبْدَى الجَمالَ وقدْ أوْلى الجميلَ بِهِ ... فالحُسْنُ يُبْدِيه والإحْسانُ يُبْدِعُهُ

(94) لعل القصيدة المشار إليها هي التي مطلعها :
يا آل يوسفَ لي في قصْرِكُمْ قمرٌ ... قد هَلَّ من فلك الأزْرار مطْلعُهُ
ديوان ملك غرناطة : 137. وهي تذكرنا بقصيدة ابن زريق المشهورة.

كَلَّمْتَ يا مَلِكَ الأَمْلاكِ من كَثَبٍ ... عبْدًا يُناديكَ مِن بُعْدٍ فتَسْمَعُهُ
فما اعْتِذاري لمَوْلًى لمْ يُحِطْ خجلاً ... سَمْعي بلَفْظٍ لهُ في القلْب مَوْقِعُهُ
كَمْ حلَّ في كَبِدِ المَمْلوكِ من ظَمَإٍ ... إذْ لمْ يُمَتَّعْ بعَذْبِ اللَّفظ مِسْمَعُهُ
أستغفرُ اللّهَ كَمْ راقتْ حديقتُهُ ... وكَمْ على ظَمإٍ روّاهُ مَشْرَعُهُ
هَذي صَلاَةُ صِلاتٍ والنّداءُ لَها ... إن كانَ وتْرًا فموْلَى الخَلْقِ يَشفَعُهُ - 43 -
وكَمْ عجائِبَ أبْدَاها النّظامُ بها ... قدْ راقَ من زَهَرِ الآداب أيْنَعُهُ
ولا كَعَذْراءَ من مَوْلَى المُلوكِ أتَتْ ... بَابَ القَبول أمامَ العَبْدِ تشرَعُهُ
إذا بَدَا طِرْسُها لِلهِ كَمْ حِكَمٍ ... وكَمْ بَدائِعَ مِلْءَ العَيْنِ تُودِعُهُ
بحْرُ المَكارِمِ أبْدَى من بَدائِعِهِ ... دُرًّا يرُوقُ بجيدِ المُلْكِ أنْصَعُهُ
فَلَفْظُها الدُّرُّ والزّهْرُ الانيقُ إذا ... ما راقَ أضواؤُهُ أو رقَّ أضْوَعُهُ
مالتْ بنا طَرَبًا أوْ لوْعَةً فَحَكَتْ ... كأْسَ المُدامِ أمالَ القَوْمَ مُتْرَعُهُ
لها النَّسيبُ إذا مَرَّ الخلِيُّ بهِ ... يَعُودُ وهْوَ شَجِيُّ القلبِ مُولعُهُ
يُبْدِي الذي قدْ أكَنَّتْهُ جوانِحُهُ ... وضُمِّنَتْهُ من الأشواقِ أضْلُعُهُ
ماذا يقولُ بَليغٌ في محاسِنها ... وأبْلَغُ القوْل فيها ليسَ يُقنعُهُ
لكَنَّ ياتِي بما تُبْديهِ فِكْرتُهُ ... وفَضْلُ مَولاَيَ في الإغْضاءِ يُطْمِعُهُ
لا تُنْكِرُوا نَفَحاتِ الزّهْرِ منْ مِدَحي ... فَرَوْضُ فِكْرِي نَدَى كَفَّيْكَ يُمْرِعُهُ
مَدْحٌ يَروقُ ذوي الألْبابِ ناظِمُهُ ... يُذيعُهُ في إمامٍ لاَ يُضَيِّعُهُ
قد سالَمتْهُ الليالي إذْ عِنايَتُهُ ... قدْ أمَّنَتْهُ فلا دَهْرٌ يُرَوِّعُهُ
بَقيتَ لِلحمدِ أوْ للمَدْحِ مُنْفَردًا ... بهِ ودُمْتَ لِشمْلِ الدّينِ تجْمَعُهُ

وَوَجَّه إلَيَّ أيَّدهُ الله بَيْتَي شِعْرٍ أوَّلُهمَا : وَكَم عائدٍ، وأمَرَنِي بالتَّصْديرِ لهُما والتّذْييل عَلَيْهما فقلتُ بِحَسَبِ الغَرَضِ في الإنْحِطاطِ عنِ الجزَالةِ وفي قريبٍ منَ التّاريخِ.

أمِنْهـا سَرَى طَيفٌ إلـيّ حَبـيـبُ ... ولَيْسَ سِوَى نجْم السَّماءِ رَقـيبُ
أتَى وَظـلاَمُ اللَّيلِ يَسْحَبُ ذَيْلَـهُ ... ولِلبَرْقِ ثَغرٌ في دُجـاهُ شَنِـيبُ
تَطَلَّـعَ خفّـاقَ الجَنـاحِ كأنّـهُ ... فُؤادُ مُحِبٍّ قـدْ جفـاهُ حَبـيبُ
وهَيْهاتَ يشفِي القَلْبَ طيْفُ خيالِها ... وقدْ عَلِمَتْ أنّ الخَيـالَ كَـذوبُ
إذا قـرُبَ الاصْبـاحُ غـادَرَ بَعْـدهُ ... فـؤادِيَ يَصْبـو والدّمـوُعَ تَصوبُ - 44 -
أبانَ غرامِي يوْمَ بانَ عنِ الحِمَى ... وقدْ بانَ من فوْدِ الظلامِ مَشيبُ
فأذهبَ صَبْرِي والفـؤادَ وَسَلوَتِـي ... فلـمْ يَبْـقَ إلاَّ مَدْمَـعٌ وَنَحِـيبُ
ألاَ فِي سَبيلِ الْحُبّ قَلْبٌ مُقَلَّبٌ ... مَشُوقٌ لِتَذْكَـارِ العُهـودِ طَـرُوبُ
ألا إنّها الذِّكرى وإنْ بعُدَ الحِمَى ... تُجِدُّ لَـدَيَّ الوجْـدَ حيـنَ تَثـوبُ
وإنّ التي قد هِمْتُ وجْدًا بِحُسْنِها ... وبالقَـلْـبِ منها لوْعَـةٌ ووجـيبُ
لَتُخْجِل بدْرَ الوَجْـدِ وهْوَ مُتَمّـمٌ ... وتُزرِي بغصْنِ البانِ وهوَ رَطيبُ
فلوْلاكِ يا أخْتَ الغزالَةِ لمْ أهِـمْ ... ولا رابَ قلْبِي من هَواكِ مُريبُ
إذا ألَّمَ المُشْتاقَ وجْدٌ علَى النّوَى ... فَلَيْسَ سِوَى ذِكْرِ الحبيبِ طبِيبُ
«وكَمْ عائِدٍ زادَتْ عِيادَتُـهُ الأسَى ... ولوْ عُدْتِ قَـرَّتْ أعْيُـنٌ وقُلُـوبُ
فَذِكْرُكِ حَظّ النَّفسِ في كُلِّ خَطْرةٍ ... فَيا لَيْتَ حَظَّ العَيْنِ منكِ قَريبُ»[95]
عَجبتُ لِمِثلِي كَيْفَ أصبحَ بالحِمَى ... يُنادي وما بالحَيِّ منكِ مُجيبُ
عَلى أنّ لفْظِـي لؤلـؤٌ مُتنـاسِقٌ ... لَدَى النّظمِ عذْبٌ لِلْوُرودِ شَرُوبُ
إذا أعمَلْتُـهُ في الطروس يَراعَتـي ... يـروق مديـحٌ أوْ يَـرِقُّ نَسيبُ

(95) لا يوجد البيتان في ديوان يوسف الثالث.

نَسِيبِـيَ مَمْـدُودٌ ولَكِـنْ قَصرْتُـهُ   عَلَى مَن لَهَا البَدْرُ المُنيرُ نَسِيبُ
ومَدْحِي عَلى منْ جادَ قبْلَ سُؤالِهِ   ومنْ أرْكَبَ الآمالَ وهْيَ رَكوبُ
هوَ المَلِكُ الأعْلَى الهُمامُ الذي غدا   لدَيْـهِ مَجالُ العِز وهْـوَ رَحـيبُ
فَيَهْمِـي نَـداهُ كُلَما بَخِلَ الحَيَـا   وإن مَطَلَ الإصْباحُ عنه يَنُـوبُ
فَتُسْعَـفُ قُصادٌ وتُـقْضَى مَـآرِبٌ   ويَمْرَعُ من ربْعِ العُفاةِ جَـديبُ
يَنِـمُّ مـن الأمْـداحِ طيب ثنائِـهِ   فتَنعَـمُ أسْمـاعٌ بـه وقُلـوبُ
أمَوْلاَيَ عُذْرًا إنّ وصْفَكَ مُعْجِـزٌ   ولَـوْ جـاءَ بَشّارٌ بـه وحَبِـيبُ
ولكنني أرْجـوكَ في كُلّ حالَـةٍ   عَلَى أن منْ يَرْجوكَ لَيْسَ يَخيبُ
فكُـلّ مَـرامٍ أبْتَغِيـه مُبَلَّـغٌ   وكُـلّ بَعيـدٍ أرْتجيـهِ قَـريبُ

- 45 - ووجَّهَ أيَّدَهُ اللهُ هَذيْن البَيْتيْن بِرسْمِ الاجَازةِ

في فِتْنَةٍ مِـلْءَ الزَّمـانِ مَكارِمًـا   نالُـوا العُلَـى وأصالَـةَ الأحْسَابِ
مـا مِنْهُـمُ إلاّ مُـرَدًّى بالحجـى   مُتَـوَشّحٌ بـالصَّارِمِ القِـرْضابِ[96]

فارْتجَلتُ مذيّلاً

مِـن كُـل فَـذٍّ مَاجِـدٍ ألْفاظُـهُ   مُسْتَمْتَـعُ الأسْمـاعِ والألْبـابِ
إنْ أحكَموا الآياتِ من آدَابِهـمْ   كَمْ حِكْمَةٍ فيهَا وَفصْلِ خِطـابِ
قـد أحْـرَزوا للسّبْقِ أقصَى غايَـةٍ   بمَدَى الكَتائِبِ أوْ مَدَى الكُتّـابِ
قومٌ إذا مـا حَارَبُـوا أوْ سالَمُـوا   قامُـوا بِحِفْـظِ كَتـائِب وكِتـابِ
وهَبُوا الجَزيلَ مِنَ الفَواضِلِ وانثَنَوْا   يَرْجُـونَ فَضْلَ المُنْعِـمِ الوَهّـابِ
نالُوا المَعالِيَ في مَعَالِمَ أُنْـزِلَتْ   مِنْهـا رِكائِبُهُـمْ أعَـزَّ جَنـابِ

(96) البيتان من قصيدة ليوسف الثالث. راجع ديوانه : 10

وتَسارَعُوا قَصْدًا إلى دَاعِي الهُدَى   يُهْدُونَ لِلقُصّادِ كُلَّ عُجَابِ
بالنّاصِرِ المَوْلَى الهُمامِ قدِ اقتدَوْا   لَمَّا اهْتَدَوا من هَدْيِهِ بشِهابِ
كَمْ نِعْمَةٍ أسْدَى وكَم من آيَةٍ   أَبْدَى من الإحْسانِ والإحْسابِ
أمْداحُهُ وَهِباتُهُ قد أصْبَحَتْ   رَوْضًا وغَيْثًا دائِمَ التّسْكَابِ
والكاَتِبونَ عَبيدُ مَوْلانا الذي   عَمَّ الوُجودَ بجُودِهِ المُنْسابِ
ما راقَهُمْ إلا بَديهَتُهُ التي   يصْبُو الرّضِيُّ لها وترضي الصّابِي(97)
رامُوا إجازَتَها وكُلُّ لفظُهُ   سَيْفٌ عنِ القَصْدِ المُؤمَّلِ نابِ
مَنْ ذا يُجاري نظْمَ مَوْلًى .وصْفُهُ   لمْ يُحْصَ بالإسْهابِ والإطْنابِ
لَكن أجزْتُ وإن عادَةَ صَفْحِهِ   لِلعَبْدِ خيْرُ مَثابَةٍ وثَوابِ

ولمَّا دخَلَ المُسْلِمون من أهْلِ رُنْدَةَ صَخْرَةَ عنادٍ أعادَها الله واسْتأْصَلُوا مَنْ وجدُوا بها قَتْلاً وإسَارًا إلا قليلاً منهُمْ اعْتَصَمُوا بَقَصَبَتِها وَوَرَدَ البَشيرُ بذلِكَ قلتُ أُهنِّىءُ مَقامَه الكَريمَ للحينِ وَهيَ مِنَ المُرْتَجَلاتِ في يوْمِ الأرْبعاء الرّابع لذي الحجّة عَام اثني عشر وثماني مائة(98)

- 46 -

هو الفَتْحُ قدْ ألْقَى إلَيْكَ قِيادَهُ   هو النّصْرُ قدْ أجْرَى لدَيْكَ جِيادَهُ
أتَى الدهْرُ يذْنِي العِزّ مِنكَ بِعادَهُ(99)   أما هذه بكْرُ الفُتوحِ التي بها

(97) الرضي هو الشريف الرضي الشاعر المشهور والصابي هو المترسل المعروف.

(98) صخرة عناد كذا جاءت في الأصل بالنون المشدّدة وكذلك في نظم السلوك للمَلْزوزي مرتين، وفي أعمال الاعلام والاستقصا : صخرة عبّاد من أحواز رندة، وفيها استقبل السلطان يعقوب بن عبد الحق الفونسو الملقب بالعالم أو الحكيم ورهن هذا عند السلطان تاجه الذي كان من ذخائر دار بني مرين (راجع حكاية هذا اللقاء في المصدرين المذكورين والاستقصا 3 : 55) ويمكن ان يكون لاسم عبّاد الذي تضاف إليه الصخرة علاقة بجد ابن عبّاد الرندي الصوفي المعروف. وراجع ماكتبناه في المقدمة.

(99) بكر الفتوح : كتب فوق بكر كلمة أولى وهي إمّا رواية أو تفسير.

أما هَذِه في الخَلْقِ دِيمَةُ رَحْمَةٍ ... بها اللّهُ قد حَيًّا الوُجُودَ وجَادَهُ

هي الصَّخرةُ الشمّاءُ قدْ حَلّها ... الهُدَى فعمَّ رُبَى مَعْمورِها وَوِهادَهُ

وَطُهِّرَ مَغْناها من الشّرْكِ وانثَنى ... يكيدُ بها التّوحيدُ من كان كادَهُ

وسَيْفُكَ سَيْفُ اللّهِ إذ حَلَّ رَبْعَها ... أباحَ به جَمْعَ العِدَى وأبادَهُ

وجُنْدُكَ جُنْدُ اللّهِ قدْ جال جوْلَةً ... يَسُلُّ ظُباهُ أوْ يَهُزُّ صِعادَهُ

فكُلُّ كَمِيٍّ هَزَّ كُلَّ مُقَوَّمٍ ... يُقيمُ بمَيْدانِ الحُرُوبِ طِرادَهُ

وسَالَ نَجيعُ الكُفْر فوْقَ بِطاحِها ... فلمْ يوردِ العَذْبَ الزلاَلَ وِرادَهُ

وعادَتْ جُموعُ المُسْلِمينَ برَبْعِها ... تُفَرِّقُ جمْعَ المُعْتَدِي واحْتِشادَهُ

مَعاهِدُ والإسْلامُ فيها كأنّها ... وقدْ حلّها جسْمٌ يَضُمُّ فُؤادَهُ

أذَلَّ بها اللّهُ الصّليبَ وحِزْبَهُ ... وبالنّاصِرِ المَوْلَى أعَزَّ عِبادَهُ

وجرَّدَ سَيْفَ النَّصْرِ في الروع مُلْقِيًا ... عَلى عاتِقِ المَوْلَى الهُمامِ نجادَهُ

فكانَ وَلِيُّ الكُفْر يُبْدِي تَجَلُّدًا ... إلى أن أراهُ حَرْبَهُ وَجِلادَهُ

وناصِرُ دينِ اللّهِ في اللّه مُظْهِرٌ ... عَلى اللهِ في كُلِّ الأمُورِ اعْتِمادَهُ

وإنّ إفَنتَ الرُّومِ يَجْهَدُ كُلَّما ... أراهُ المَقامُ اليُوسُفِيُّ جِهادَهُ(100)

وكانَ ولِيّ الشّرْكِ وافَى مُطاوِعًا ... هَوًى ساقَهُ نحْوَ الهَوانِ وقادَهُ

فَفازَ بها طوْعًا وحلّ بأفْقِها ... وألْقَى لدَيْها ذُخْرَهُ وعَتادَهُ

وَسارَ إلى أوْطانِهِ وهْوَ ظافِرٌ ... لها لا إلى الأخرى يُرَجِّي مَعادَهُ

وكانَ إليها الآن يأتي بِزَعْمِهِ ... يريدُ ويأبَى اللّهُ إلاّ مُرادَهُ

غَدا جاهِدًا قدْ شَفَّهُ لاعِجُ الصّدَى ... يُؤَمِّلُ فيها وِرْدَهُ ومَرادَهُ

---

(100) إفَنْت هي الكلمة القشتالية Infante أي الولد، وهي مصطلح أندلسي مغربي أطلق في عهد الأمويين بالاندلس وفي عهد الموحدين على ولد الخليفة المرشّح لولاية العهد ثم استُعْمِلَ كذلك في الممالك المسيحية بالأندلس، وإفَنْت الروم هنا هو فرناندو المدعو بصاحب انتقيرة إثر تغلبه عليها والذي أصبح فيما بعد فرناندو الأول ملك أرغون وكان أيضًا وصيا على عرش قشتالة. راجع ما كتبناه في المقدمة.

يقودُ لها جَيْشَ الضّلالَة قاصِدًا فَحَلأَهُ المِقْدارُ عنْها وذادَهُ
إلَى أنْ أتَى مَوْلَى الخلائِفِ يُوسُفٌ فَجَدّ وأبْدَى عَزْمَهُ وأعادَهُ
وقامَ بأعْباء الخِلافةِ مُظْهِرًا فَجَدّ وأبْدَى عَزْمَهُ وأعادَهُ(٠) - 47 -
لِذاكَ عَدُوُّ الدّينِ رُوِّعَ سِرْبُهُ بحَيْثُ حَكَى خَفْقُ البُنُودِ فُؤادَهُ
كأن بِوَلي الكُفْرِ قدْ خابَ سَعْيُهُ وكفَّ التّلاقِي بَغيَهُ وَعِنادَهُ
كأنّي بِهِ قدْ سارَ والسَّيْفُ خَلفَهُ وخَلَّفَ لِلفَتْحِ المُبينِ بِلادَهُ
ولمْ يتخِذْ إلاّ الفِرارَ وِقايَةً ولمْ يَدَّخِرْ إلا المَذَلَّةَ زادَهُ
فيا ناصِرَ الإسْلام والمَلكَ الذي أرانا بأشْتاتِ الكَمالِ انْفِرادَهُ
هَنيئًا بِهِ صُنْعًا جميلاً لديْكَ قد أجالَ بِهِ النّصْرُ العزيزُ جَوادَهُ
وهُنِّئْتَ ألفًا منهُ فالحالُ تقتَضي بِعِزِّكَ أنَّ الجمْعَ يتْلُو اتِّحادَهُ(100م)
وخذها علَى أنّ البديهَة لمْ تَزَلْ تَرُدُّ البَليغَ اللّفْظِ عما أرادَهُ
وأوْصافُ مَولانا الخليفَةِ يوسُفٍ تُبكِّتُ قُسًّا حيْثُ لاَقَى إيادَهُ
فلازالَ يا مَوْلايَ عَهْدُكَ سافِرًا يجودُ فتَسْتَجْدِي العُفاةُ عِهادَهُ

ووجَّه إلَيّ أيّده الله قطعَتيْن إحْداهُما وَجوَابُها يُثْبَتانِ بعْدُ إنْ شاء الله والثّانية نصُّها وكِلاهُما من نظمِهِ نصرَه الله :

لوْ وجدْنا إلى العَزاءِ سَبيلاً لمْ تكُنْ وجْنَتِي لِدَمْعِي مَسيلاً
أوْ رغِبْنا حُكْمَ الغرامِ اخْتِيارًا لمْ يكُنْ يغْلِبُ الغَرامُ العُقولاَ
من نَصيرِي عَلى فُؤادِي وطَرْفِي إنّما يَشْتَكِي الخَليلُ الخَليلاَ
قَدْ أعانَا حُبِّي عَلَيَّ فَمَنْ ذا في غَرامي يُجْدي ويُغْنِي فَتيلاَ
كُلُّ خِلٍّ أعْدَدْتُهُ لِزَماني فَزَمانِي يُحيلُ ذاكَ الخَليلاَ

(٠) كذا في الأصل ورد هذا الشطر مكررا.
(100م) اتّحاده، كذا في الأصل، ولعلّ الصواب : آحاده، وفيه إشارة حِسابية.

لَـيْسَ خِـلٌّ على الزّمـانِ ببـاقٍ   هاكَ عَيْني وهَـاكَ قَلْبـي دَليـلاَ[101]

فَقلْتُ في الرّوي وَهْيَ منَ المرْتجلاتِ وفي الثاني والعشرين
لِجُمدى الأولى عام ثلاثة عشر وثماني مائة وهي لزوميّة.

- 48 -

أَصْبَـحَ الْقَـلْبُ بالْبِعَـادِ عَليـلاَ   إذْ نَأَيْنَـا وَمَـا شَفَيْنَـا غَليـلاَ
جِيـرَةَ الحَيّ هـلْ عَلمْتُـم بأنّـي   لا أذوقُ المَنَـامَ إلاّ قَليـلاَ
دونَكُـمْ قلبِـيَ الـمَشوقَ فحُلّـوا   طَلَـلاً منْـهُ بالبعَـادِ مُحِيـلاَ
آهِ لـوْ لـمْ تُضيِّعُـوهُ لكنْتُـم   قـدْ وجَدتُـمْ مُعـرَّسًا ومَقيـلاَ
أيُّهَـا العَاذلُـونَ كُفُّـوا فإنّـي   لـمْ أجِدْ لِلسُّلوّ عنهُـمْ سَبيـلاَ
لا وَشَرْعِ الغَرامِ ما رُمْتُ يوْمًا   عن مَغانِيَ الجَمالِ صَبْرا جَميـلاَ
يا نَسيمَ الصَّبا أزِلْ عن فُـؤادِي   خلَـلَ الوَجـدِ نتّخِـذْكَ خَليـلاَ
وتَحمَّـلْ رسالَـةً مِـن مَشُوقٍ   تُلْـفِ فيها البَيـانَ والتحْصيـلاَ[102]
إنّ وَصْفَ الجَمـالَ يَعْجِزُ عنـهُ   من يرُومُ الإجْمـالَ والتّفْصيـلاَ[103]
والتي هِـمْتُ في حُلاَهـا غَرامًـا   بعُـدَت مأْخَـذًا وعَـزّت قَبيـلاَ
ظَبْيَـةٌ أصْبَـحَ الفُـؤادُ رَهينًـا   عنْدَهـا مـا ابتَغَى سِوَاهـا بَديـلاَ
آه يـا رَبَّـةَ الجَمـالِ أمالِـي   أن أرَى الدّهْرَ لِلـوِصَالِ مُنيـلاَ
إنّمـا أنتِ لِلمَحَـاسِنِ رَوْضٌ   حيـنَ تُبْدِي قـدًّا وخـدًّا أسيـلاَ
وانْعِطافُ الغُصونِ يُرْجَى وما إنْ   يَمنَـعُ الـرّوْضُ غُصْنَـهُ أن يَميـلاَ

---

(101) وردت هذه القطعة ضمن قصيدة في ديوان ملك غرناطة ص 109 مع اختلاف في بعض ألفاظها وترتيب أبياتها.

(102) قد يكون فيه تلميح إلى عنوان «البيان والتحصيل» لابن رشد.

(103) كأنه يشير إلى قول ابن الرومي في وحيد :

يَسْهُـلُ القَـوْلُ أنّهـا أحْسَنَ الأشْيـاءِ طُـرًّا ويَصْعُبُ التّفْصيـلُ

لوْ أعرْتِ القَبولَ عَرْفًا وَطيبًا ... لمْ يَهُبَّ النَّسيمُ إلاّ بَليلاَ
ولوِ الوجهُ منكِ أُطْلِعَ لَيْلاً ... لاتَّخَذْناهُ هادِيًا وَدليلاَ
أنتِ لولاكِ ما كَلِفْنا ولَوْلاَ ... ناصِرُ الدّينِ ما اهْتَدَيْنا سَبيلاَ
عَثَرَ الدّهرُ دونَ قَصْدٍ فَلَوْلاَ ... ناصِرُ الدّينِ ما وجَدْنا مُقيلاَ
ضَلَّ قَصْدَ الصّوابِ والرشْدِ مَن لمْ ... يَتّخِذْ منْ عُلاَهُ ظِلاً ظَليلاَ
لِصِحابِ النبيّ يُنْمَى فأَكْرِمْ ... بِهِمُ أُسْرَةً وأعْظِمْ قَبيلاَ
كُل منْ شاءَ وَصْفَهُمْ وَحُلاهُمْ ... وَعُلاهُمْ فلْيَقْرإِ التّنزيلاَ
جادَ قبْلَ السّؤال حتّى ظننّا ... أنّنا لَيْسَ نعْرِفُ التّأميلاَ
ليْتَني دائِمًا أطَلْتُ لَدَيْهِ ... حيْثُ يُلْقِي نِعالَهُ التّقبيلاَ
لِلعِدَى قد أعدّ رُمْحًا طويلاً ... وجَوادًا وَرْدًا وسَيْفًا صَقيلاَ - 49 -
وَلِقصّادِهِ جَنابًا مَريعًا ... ومُحَيًّا سَمْحًا ورفدًا جَزيلاَ
وَعَدُوُّ الإسْلامِ خابَ فأَمْسَى ... خاسِرًا لمْ يَنَلْ مُناهُ ذَليلاَ
والتي حلّ سَوْفَ يَرْجِعُ عنْها ... جيْشُهُ الأخسَرُ اللّئيمُ فَليلاَ(104)
هو فألٌ والسَّعْدُ ينطِقُ عنهُ ... إنَّ ما قيلَ منْهُ أصْدقُ قِيلاَ
والذي قَدَّرَ الأمُورَ كما قدْ ... شاءَ في الخلقِ قادِرٌ أن يُنيلاَ
دُمْتَ لِلدّينِ والخَلائقُ تَدْعُو ... لَكَ بالنّصْرِ بكْرَةً وأصيلاَ

---

(104) فليلا : مفلولا ومكسورا.

ومِمَّا صدَرَ عَنّي في هَنائِهِ أَيَّده الله بِحُلولِ رِكابِهِ العَلِيِّ بِظاهِرِ مالَقَةَ بإِثْرِ مُخالَفَةِ المَارِقِينَ من أَهْلِ جَبَلِ الفَتْحِ وَهِيَ السَّفْرَة التي أجازَ فيها السُّلْطانَ السَّعيد إلى الغَرْبِ ودخَلَ مالَقَةَ في يَوْمِ الاثْنَيْنِ الثّالث لِشَعْبانَ عام ثلاثَةَ عَشَر وثماني مائة(105)

هُنِّئْتَ يا مَوْلى الوَرَى مَقْدَمـا ... اطْلَعْتَ لِلسَّعْدِ بِـه أَنْجُمَـا
حَلَلْتَ مِـن مالَقَـةٍ مَنْـزِلاً ... زَاحَـمَ في العَلياءِ شُهْبَ السَّمـا
يَسْرَحُ منـهُ الطَّـرْفُ في مَرْبَـعٍ ... يُقَيِّـدُ المُنْجِـدَ والمُتْهِمَـا
تَسابَـقَ الاعْـلامُ مِـن أَهْلِهـا ... لِيَلْبِسُوا ثَـوْبَ العُلَـى مُعْلَمَـا
قالُـوا وقَـدْ وافَيْتَ لِلّـهِ مـا ... أشفَـقَ مولانـا ومـا أرْحَمَـا
هـذا مِصْباحُ الهَـدْيِ حَيَّاكُـمُ ... هَيْهاتَ جَـلَّ الصُّبْحُ أن يكْتَمـا
هَـذا المَقـامُ اليُوسُفِـيُّ الـذي ... لِلّـهِ مـا أَعْلَـى ومـا أعْلَمَـا
تكُـفُّ كَـفُّ الظلـمِ أحْكامُـهُ ... وهَدْيُـهُ يَجْلُـو الدُّجَـى المُظْلِمَـا
مَـدَدْتَ لِلتَّقْبيـلِ كَفّـاً وَمِـن ... قَبْـلُ غَمـامُ الأُفْـقِ لَيْـلاً هَمَـى
فحـارَتِ الأذهـانُ في شَأْنِهـا ... لَمْ تَدرِ ما صَوْبُ الحَيا مِنْهُمـا
تَحْسِبُهُـمْ في حيـنِ تَقْبِيلِهَـا ... قَطّـا على مَوْرِدِهـا حُوَّمَـا
ثُـمَّ انْثَنَـوْا بَعْـدَ الثنـاءِ الـذي ... تَلَـوْا لِـدَيْكَ ذِكْـرَهُ المُحْكَمَـا

---

(105) راجع ما كتبناه في المقدمة عن خروج أهل جبل طارق عن حكم بني نصر ورجوعهم إلى طاعة بني مرين، أمّا السعيد المذكور فهو محمد بن عبد العزيز بن أبي سالم المريني الذي كان بعد خلعه لاجئًا أو معتقلاً في غرناطة مع جماعة من بني مرين ممن يرشح للملك فأفرج عنه يوسف الثالث «وسلطنه في أول شعبان من سنة 813 هـ وجهّزه، فأجاز البحر حتّى نازل فاس في ذي الحجّة» إنباء الغمر 6 : 237 وقد شقي المَغرب بهذا الملقّب بالسعيد، وكان خرابه على يديه. انظر ترجمته وأخباره في جذوة الاقتباس : 208 الضوء اللامع 8 : 62 وإنباء الغمر 6 : 236 ـ 237، 7 : 28 ـ 29، والروض الهتون : 78 (المطبعة الملكية) ووصف افريقيا للوزان 1 : 209، 210، 211، 213، 216، 217، 227، 228، 292، 302.

عَـــوْدةُ مَـــــولايَ لِأَوْطانِهِـــــمْ قَدْ جَعَلـوهُ العِيـدَ والمَوْسِمَـا[106]
مـا جَبَـلُ الفَتْـحِ ومَـن أهْلُـهُ إذْ أصبحُـوا قَـدْ كَفَـرُوا الأنعُمَـا
كـأن بِهِـمْ والرَّوْعُ في أرْضِهِـمْ يَأبَى لِشَمْـلِ الأمْـنِ أنْ يُنْظمَـا[107]
كـأنْ بِهِـمْ قـدْ عـادَ مُرْتابُهُـمْ مُغْـرًى بمَـا أوْلَيْتَـهُ مُغْرَمَـا
مُؤَمِّـلا مـنكَ لـنصْرِ الهُـدَى مَوْلًـى هُمامًـا بـاذِلاً مُنْعِمَـا
أيْنَ التُّقَى والعَدْلُ والفَضْلُ مـن قَـوْمٍ غَـدا الجَـور لَهُـمْ مِيسَمَـا
وَسوْفَ يَكبُـو منهُـمُ كُـلُّ مَـنْ أجْـرَى جِيَـادَ البَغْـيِ أوْ أجْرَمَـا
كـأن بِمَـولايَ الهُمـامِ الـرِّضَى في مَجْمَـعِ البَحْرَيْنِ قدْ حُكِّمَـا[108]
كـأن بمَـوْلايَ إمـامِ الهُـدَى لِلدِّيـن يعْلِـي عِنْـدهُ مَعْلَمَـا
وَكُـلِّ كَفَّـارٍ عنيـدٍ لَـدَى مَغنَى الجهـادِ قـد غَـدَا مَغْنَمَـا
مَـولايَ مَـدحُ العَبْـدِ قِدْمًـا إلى نَيْـلِ مُنـاهُ لـمْ يَـزَلْ سُلَّمَـا
يا آيَةً مـذْ أطْلِعَت قـدْ جَـلَتْ بالعَدلِ أمْرًا لـمْ يَـزل مُبْهَمَـا
يـا رَحْمَـةً مـن كُـلِّ ما أتَّقِـي جَعَلتُهـا كَهْفًـا ومُسْتَعْصَمَـا
يـا نعمـةً سُمِّـيتُ مَمْلوكَهـا قَـدْري بِهـا بيْـنَ البرايَـا سَمَـا
هـا أنـا كالْعِيسِ وقـدْ حُمِّـلَتْ عَـذْبَ الوُرودِ وهْيَ تشكُو الظَّمَا[109]
جاهُكَ فَـوْقَ العَبْـدِ ظِلٌّ ومِـنْ بُعْـدِكَ جمْرُ الوَجْـدِ قـدْ أُضْرِمَـا
لا زِلْتَ والنَّصْرُ كَمـا تَـرْتَضِي يَحُـلُّ مـن بَـابِكَ أعْلَـى حِمَـى
بالنَّصْرِ والعِـزِّ لكُـمْ قـدْ دَعَـا مَـن طـافَ بالبَيْـتِ ومَـن أحْرَمَـا

---

(106) في طرة بالجانب الأيمن لهذا البيت ما نصّه : «ومنها بعد أبيات»
(107) أرضهم. كُتب فوقها : رَبْعِهم. وكأنه اختيار أو رواية أخرى.
(108) مجمع البحرين : يقصد به مضيق جبل طارق
(109) هذا من قول الشاعر :
كالعيسِ في البَيْداءِ يقتُلها الظَّمـا والماءُ فـوْقَ ظُهورِهـا محمـولُ

وقُلتُ وقد ورَدَتِ الأخبارُ بحُلول أجْفانِهِ المُؤيَّدَةِ بِساحِلِ المَغْرِبِ ونزُولِ السُّلْطانِ السَّعيد بِبَرِّ العُدْوَةِ بالفرْسانِ والرُّمَاةِ في آخِرِ رَمضان عام ثلاثة عَشَرَ

- 51 -

أناصِرَ دينِ اللّهِ هُنِّئْتَهُ صُنْعَا ... بَشائِرُهُ تُهْديكَ ما يَمْلأُ السَّمْعَا
جمعْتَ قُلوبَ المُسْلِمين بعَزْمَةٍ ... تَكُفُّ مَنِ اسْتَعْدَى تجيبُ مَنِ اسْتَدْعَى
رمَيْتَ عُداةَ الدّين منْها بفادِحٍ ... لَدَى مُلْتَقَى الهَيْجاءِ يترُكهُمْ صَرْعَى
وكَمْ من يَد بَيْضاءَ طَوَّقتها فَتًى ... إلى منزِلِ البيْضاء قدْ أعْملَ الرُّجْعَى(110)
رمَى دارَهُ البَيْضاءَ أخْذًا بِثارِهِ ... بما قَدْ رَمى سَيْفُ ذي يَزَنٍ صَنْعَا(111)
وقمْتَ بأعْباء الوَفاءِ حَقيقَةً ... وَلاَ كُلْفَةٌ فيما أتَيْتَ بِهِ طَبْعَا
ولِلهِ مِنها مُنشآتٌ قدِ ارْتَمتْ ... عَلى اللّجِّ رَفْعًا حين أحْكَمتَها وَضْعَا
سَرَتْ وظِلالُ الأمْنِ واليُمْنِ فوْقَها ... فأحْسِنْ به مَسْرًى وأنْجِحْ بِهِ مَسْعَى
دَرَأْتَ بهِ في صَدْرِ كُلّ مُعانِدٍ ... سِهامُ المَنايَا نحْوهُ أُحْكِمَتْ وَقْعَا
أتَتْكَ بها البُشْرَى صَنيعَةَ مُنْعِمٍ ... حَباهُمْ بهَا وِتْرًا وعادَتْ لهُ شفْعَا
وشَيَّدتَ لِلدّين الحَنيفيِّ مَصْنَعًا ... وفي أوْلياءِ اللهِ أظهرْتَهُ صُنْعَا
يُحِلُّ بمَن والَى الضّلالَ وأهْلَهُ ... حَوادِثَ جَلّتْ أنْ يُطيقَ لهَا دَفْعَا
غَوِيٌّ به التّثلِيثُ عَزَّ مكانُهُ ... فكَمْ ضارِعٍ لِلهِ ضاقَ بِهِ ذَرْعَا
فلا آيَة تتْلَى ولاَ نعْمةٌ تُرَى ... ولاَ سُنَّةٌ تُحْيا ولاَ ذمَّةٌ تُرْعَى
عَلى الدّين ظُلمًا قدْ جَنَى وَهْوَ رَوْضَةٌ ... جَنَى زَهْرَها قَطْفًا وأغْصانَها قَطْعَا
إلى أن تَدارَكت البلادَ وأهْلَها ... فأوْسَعْتَها منْحًا وحصّنْتَها مَنْعَا

---

(110) الفتى يقصد به «السعيد» المذكور، والبيضاء هي مدينة المرينيين في فاس.

(111) يشير إلى حكاية سيف بن ذي يزن الذي لجأ إلى كسرى من أجل مساعدته على طرد الأحباش من اليمن وصنعاء فجهزه بسفائن مملوءة بالرجال، والشاعر يشبّه صنيع مليكه مع «السعيد» بصنيع كسرى مع سيف بن ذي يزن.

صَدَعْتَ بأمْرِ اللّهِ فيه مُحَكَّمًا ... فما تَجْبُرُ الأيامُ بَعْدُ له صَدْعَا
وأرْسَلْتَ من رُحْماكَ شامِلَ رَحْمَةٍ ... تُبَدِّدُهُ شَمْلاً تُفَرِّقُهُ جَمْعَا
فبَايَنْتَهُ رُشْدًا وَضَلّلْتَهُ هُدًى ... ودافعْتَهُ حُكْمًا وجاهَدتَهُ شَرعَا
دِيارٌ خَلَتْ منهُ فقَدْ أقْفَرَ الحِمَى ... وقدْ بَعُدَ المَرْمَى وقدْ صَوَّحَ المَرْعَى
وآلُ مَرينٍ إذْ دَعَوْا منكَ ناصرًا ... ولمْ تُهمِلِ الدّعْوى ولمْ تُغْفِلِ المَدْعَا
أجَبْتَ ومنْ أرْسالِكَ السّيْفُ والْقَنَا ... شِهابًا وبَرْقًا قدْ أثارَا به نقْعَا
أعوِّذُ بالسّبْعِ المثاني خلائِقًا ... لَدى مُفْرَدٍ بالعزّ أحْرَزَها سَبْعَا
عفَافًا وإقدامًا وعِلْمًا وعَزْمَةً ... وحِلْمًا وحَزْمًا يوجِبُ المنحَ والمَنْعَا[112] - 52 -
لهُ برْقُ سَيْفٍ في غمامَةِ راحَةٍ ... يَروقُكَ لمْحًا في دُجَى الحَرْبِ أوْ لمْعَا
وَهاكَ من النظْمِ البَديعِ قَوافِيًا ... فسَمْعًا إمَامَ الأكْرمين لها سَمْعَا
تُطوِّقني طَوْقَ الحمامَةِ مُنْعِمًا ... فبالمَدْحِ في رَوْضِ المُنَى أسْمِعُ السَّجْعَا
وقد جِئْتُ باللفْظِ البَديعِ ومَن أتَى ... بوَصْفِكَ نظمًا لَيْسَ إبْداعُهُ بِدْعَا
فلازِلْتَ تُولِي النّصْرَ بَدءًا وَعَودةً ... وتَعْمرُ للدّينِ الحنيفِ بهِ رَبْعَا

ومنَ المَنْظومِ الصَّادِرِ عَنّي والركَابُ العَلي اليُوسُفِيّ أسْماهُ الله بظاهِرِ جَبَلِ الفَتحِ عَصَمَهُ الله في السّفْرَةِ الأولَى وقد وصَلَ البشيرُ في التّاسِع عَشَرَ لِذي قَعْدَة عام ثلاثة عشرَ المذكورِ بدُخولِ السُّعيدِ مَدينَة تازَةَ وانتِظامِ الجِهاتِ في طاعَتِهِ[113]

سَلْ ركابَ الحِمَى غَداةَ اسْتَقَلَّتْ ... مَنْ حَوتْ في رِحالِها وأقَلَّتْ

(112) أخذ بعض العَدّ من قول المعري : عفاف وإقدام وحزم ونائل.
وقوله : وحزمًا يقتضي المنح والمنعا. لعله يقصد الصفة التي تأتي بعدها وهي : ونائلا. لأن الذي ينيل ويمتنع قادر على أن يمنع كما قال طرفة :
إن تنوِّلْهُ فقَدْ تَمْنَعُه ... وتُريه النّجْمَ يجْري بالظّهُرْ
وبهذا يصح للشاعر عدد الخلائق السبع.

(113) ليس ثمة نصّ على الطريق الذي سلكه السعيد إلى تازة وأغلب الظن أنه نزل بسواحل الرّيف ثم توجّه هو إلى تازة ووجّه ولده عامرًا إلى طنجة كما سيذكر ذلك الشاعر في القصيدة التالية لهذه

وثَنَتْ للسُّرى هوادِيَ لوْلا ... أنْ هداها بَرْقُ الثّنايَا لضَلَّتْ
أهِيَ السُّفْنُ في بِحارِ سَرابٍ ... أمْ مَطايَا لدَى الكَثيبِ أطَلَّتْ
غَرُبَتْ في خدورِهِنَّ بُدُورٌ ... أفَلَتْ لاَ بَلْ غرْبَ صَبْري فَلَّتْ
كَمْ بُدور لها الهَوادِجُ أُفْقٌ ... نورُها قَدْ جَلاَ الدُّجى إذْ تَجَلَّتْ
جَدَّدَتْ حالَةَ الهَوَى حينَ جَدَّتْ ... وتوالَى الغَرامُ حينَ تَوَلَّتْ
حالَ ما بَيْننَا الزّمانُ ولكنْ ... لمْ تَزَلْ طَيَّ أضْلُعِي حيثُ حَلَّتْ
لمْ يَهُلْنا المَغيبُ لوْ هِيَ وافَتْ ... لمَواقِيتِ عوْدِها وأهَلَّتْ
أيُحِيلُ البعَادُ عَهْدَ فَتَاةٍ ... حالَةَ الوجْدِ بالفؤادِ أحَلَّتْ
سَلْ عَنِ الأنْفُسِ الْكَريمَة هَلاَّ ... بَعْدَ حِفْظِ العُهُودِ عَنْهَا تَسَلَّتْ
وَعَنِ الناصر بْنِ نَصرٍ أجَدْوَى ... راحَتَيْهِ أمِ الغُيوثُ اسْتَهَلَّتْ
هُوَ مَولَى المُلوكِ شرْقًا وغرْبًا ... فَحُلاهُ عَلى مَزاياهُ دَلَّتْ
حَفِظَ اللّهُ مِنْهُ لِلمُلْكِ ذَاتًا ... بِحُلَى الفَضْلِ والكَمالِ تحَلَّتْ - 53 -
أيُّها النّاصِرُ الإمَامُ المُرَجّى ... فِئَةُ العزِّ لِلمُناوِي أذَلَّتْ
جَبَلُ الفَتْحِ قَدْ حَللتَ لَدَيْهِ ... ذِرْوةً قد علَتْ مَكانًا وجَلَّتْ
ولأهْلِيهِ في الخِلافِ نُفُوسٌ ... بشياطينَ للضَّلالِ اسْتُزِلَّتْ
فَترامَتْ لهمْ كتائِبُ عِزٍّ ... لوْ رَمَتْها يَدُ الزَّمانِ لَشُلَّتْ
لوْ تُجارِي الرِّياحُ منها جيادًا ... لانْثَنَتْ عَنْ مَدَى السّباقِ وكَلَّتْ
بِهوادٍ غُرٍّ الفتوحاتِ أهْدَتْ ... إذْ أطَلَّتْ جُموعُهُمْ وأضلَّتْ
أرِياضٌ أنْهارُهُ فيهِ سالَتْ ... أمْ سُيوفٌ في مُلْتَقَى الحَرْبِ سُلَّتْ
وعَوالٍ يجْلو الظّلامَ سَناهَا ... أمْ نجومٌ من السَّماءِ تَدَلَّتْ
وَلقدْ جاءَتِ البَشائِرُ حتّى ... أعْذَبَتْ مَوْرِدَ السُّرور واحْلَتْ
بعُلاكَ السَّعيدُ مُلْكَ أرْضًا ... لَكَ ألْقَتْ ما عِنْدَها وتخلَّتْ(114)

---

(114) من الآية الكريمة : وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلّت.

فَتهنَّا صَنائِعًا حيـنَ وافَتْ   شَيَّدَتْ مَصْنَعَ القَبولِ وأعْلَتْ

وَمنَ المُرْتَجَلاتِ في مثْلِ ذلكَ قوْلي وقدْ عادَتِ الأجْفانُ المنصُورَةُ من فَتْحِ طنْجَة وحُصولِ ولد السُلْطانِ السَّعيد في قَصَبَتِها وذلِكَ عَشيّ السَّابعَ عَشَر لذي قعْده عَام ثلاثَة عَشَر المذكُورِ

ناصِرَ الدّين خُذ إلَيْكَ بشارَهْ   قدْ كَسَتْها الفُتوحُ أبْدَعَ شارَهْ
تُجْتَلَى في البلادِ غَرْبًا وشَرْقًا   فَتُباهِي الكَواكِبَ السَّيَّارَهْ
فتهنَّأْ صُنعًا جميلاً وفَتحًا   يَحْتَلِي كُلُّ مِسْمَعٍ أخْبارَهُ
جلَّ وصْفًا وطارَ في الخلقِ ذِكْرًا   قَصُرتْ عن مَداهُ كُلُّ عِبارَهْ
هذهِ فاسُ الجَديدُ تشكَّتْ   فأنلتَ السَّعيدَ منْها اخْتيارَهْ(115)
وابْنُهُ عامِرٌ من الرّيفِ يُمْسي   عامِرًا رَبعَهُ المنيعَ ودارَهْ(116)
إذا أتتْكَ الوُفودُ كُلٌّ يُرجّي   منكَ جُودًا يَحْكِي السَّحابَ انهمارَهْ
قاصِدًا كَعْبَةَ المكارِمِ منهُ   جاعِلاً حجَّهُ لها واعْتِمَارَهْ - 54 -
قَطعَ البَحْرَ والمَهامِهَ يُبْدِي   كيفَ تَبغي في الطّاعةِ اسْتِبصارَهْ
قابَلتْ والقَبولُ بعْضُ حُلاهَا   بِدَرُ المَالِ مَنْ أطاعَ بِدارَهْ
وأتتْكَ الأجْفانُ منها ببُشْرَى   كُلّ وَجْهٍ يُبْدِي لها اسْتِبْشارَهْ(117)
والذي أمَّل العِنادَ ذَليلٌ   قدْ أبَى الدّهْرُ أنْ يُقيلَ عِثارَهْ
خانَهُ الدّهْرُ فارْتَقى الذُّعْرُ منهُ   مُرْتَقًى حطَّ في الوَرَى مِقْدارَهْ(118)

---

(115) فاس الجديد : ما يزال هذا الاسم معروفا إلى اليوم.

(116) عامر ولد «السعيد» السالف الذكر، والريف : اقليم معروف في المغرب وربعه المنيع مدينة طنجة.

(117) الأجفان : السفن.

(118) يعني بهذا البيت والذي قبله السلطان أبا سعيد عثمان

والطّريفي كان أصلاً لهذا الـقَصْدِ لا نالَ ما ارْتَضَى واختارَهْ(119)
وهَل الغُصْنُ حينَ يُجْتَثُّ منهُ أصْلُهُ تجتَنِي يَدٌ إثمارَهْ
أخذَ اللهُ منهُ خَبًّا كَفورًا أ مِنَ اللهِ كانَ يَرْجو فرارَهْ
كَمْ شَكَا الثّغْرُ ظُلْمَهُ عندَما قدْ أوْرثَ الكفْرَ أرْضَهُ وديارَهْ
أصْبَحَ البَغْيُ شاهِرًا منْهُ سَيْفًا رَيْثَما فَلَّتِ الخُطوبُ غِرارَهْ
لا يَخيبُ السّعيد إذْ بابْنِ نصْرٍ ناصِرِ الدّين قدْ رأيْنا انتِصارَهْ
دونَ مولايَ من نظامِيَ رَوْضًا فَرْطُ حُبِّي مُفتّحٌ أزهارَهْ
وَدُعائِي بأن تدُومَ عُلاهُ ما أرَى الدّهْرُ ليْلَهُ ونَهارَهْ

وَفي الوِجْهَة الثّانية إلى حِصارِ جبَل الفَتْح عَصَمَهُ اللهُ عِنْدَ خِلافِ أهْلِهِ وكانَ الانْفِصالُ إلَيْهِ عِنِ الحَضْرَةِ في السّادسَ عَشَرَ لِذي قعْدة عَامَ أرْبَعةَ عَشَر وثماني مائَةٍ صَدَرَت عَنّي منظوماتٌ كثيرةٌ منها :

إنّ التي شَغَفَ الفُؤادَ هواهَا قَضَتِ اللّيالِي أن تُطيلَ نَوَاهَا

(119) الطريفي نسبة إلى جزيرة طريف، ويقصد به الحاجب القائد عبد الله بن موسى الطريفي، وأصله كما يقول صاحب بيوتات فاس ــ علجٌ من نصارى مدينة طريف، ثم دخل في خدمة بني مرين وغدا صاحب السقيف (قائد المشور) في عهد أبي سعيد عثمان الأصغر وكان مزاحما الحاجب أحمد القبايلي وهو الذي تسبب في عزله ومقتله وأصبح حاجبا بعده إلى جانب الحاجب فارح بن مهدي، أما ما يشير إليه الشاعر هنا فقد بيّنه ابن حجر في إنباء الغمر إذ قال : «وفي هذه السنة (813 هـ) كانت الحادثة العظيمة بفاس من بلاد المغرب حتى خربت، وذلك أن ملكها وهو أبو سعيد عثمان بن أحمد بن ابراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق قرّر في تدبير مملكته الحاجب عبد الله بن الطريفي فأوقع بينه وبين أبي فارس صاحب إفريقية فجهّز محمّد بن أبي يحيى [الحفصي] بالعسكر ليحاصر تونس فمازال أبو فارس ينصب له أشراك المكايد حتى أوقعه وهزمه ومزّق عسكره، فلمّا تمكّن من ذلك كاتب ابن الأحمر بأن يفرج عن محمد بن عبد العزيز بن أبي سالم وكان معتقلاً عنده مع جماعة من ذرية بني مرين ممن يرشح للملك، فافرج عنه وسلطنه في أول شعبان منها وجهّزه فأجاز البحر حتى نازل فاس في ذي الحجّة، فخرج عبد الله الطريفي لقتاله فكَبا بِهِ فَرَسُه فقبض عليه محمد (السعيد) وأمر به فأحرق» إنباء الغمر 6 : 236 ــ 237 وانظر أيضا جذوة الاقتباس : 125، 511 وبيوتات فاس : 47 (ط. دار المنصور) وراجع أيضا ما كتبناه في المقدمة.

عجَبًا لها إذْ أتْلَفَتْ بِبعادِها   قلبًا مَشوقًا لمْ يَزَلْ مَثواهَا
يا ليتَها رَحمَتْ مُعَنًّى مُغْرَمًا   لمْ يدرِ ما مَعْنَى الهَوَى لوْلاَها
زعَمَ العَواذِلُ أنّ قلبِيَ عاشِقٌ   صَدَقُوا وَلكن لا يُريدُ سِواهَا
هَيْهاتَ يَطْمَعُ أنْ يدِينَ لِسَلْوَةٍ   بَعْدَ الذي فعَلتْ به عَيْناها
قالُوا تناسَتْ عَهْدَ وُدّكَ إذْ نَأتْ   عَنها الرّكَابُ وأنتَ لا تَنسَاها
فأجَبْتُ كُفُّوا لسْتُ أسْمَعُ عَذْلَكُمْ   أوَ ما عَلِمْتُمْ أنّني أهْواها
كمْ بِتُّ أسْهَرُ قائلاً يا لَيْتَها   لوْ أنها سَمحَتْ بِيَوْمِ لِقاهَا
لوْ أنها جَادَتْ بِأيْسَرِ لَحْظَةٍ   فازَتْ يَدِي من دَهْرِها بمُناهَا
لَوْ أنها رَضِيَتْ لجُدتُ بكُلِّ ما   مَلَكَتْ يَميني في سَبيلِ رِضاهَا
حتّى أباحَتْ لَمْحَةً من وصْلِها   سَمَحَتْ بهَا الأيّامُ بعْدَ جفاهَا
بَخِلَتْ زمانًا بالوِصالِ وعندَما   جادَتْ عَليَّ نَوَى الزّمانُ نَواهَا
قدْ كان طيبُ الوَصْلِ لَمْحَةَ بارِقٍ   آهًا عَليْها بَعْدَ ذلِكَ آهَا
عَهْدِي بهَا والسِّحْرُ مِن أجْفانِها   كُلُّ النُّهَى عن صَبْرِها ينْهاهَا
عَهْدِي بِها والوَرْد من وجَناتِها   باللحْظِ يُمْنَعُ مَن يَرومُ جَناهَا
عَهْدِي بِها والطِّيبُ يُذْكَى عَرْفُهُ   مِنْها فأحْيا النّفْسَ إذْ حَيَّاهَا
تحْكِي الحَدائِقَ نضْرَةً وَشمائِلاً   فلذاكَ أصْبو إذْ تَهُبُّ صَباهَا
تحْكي الكواكبَ رفعةً وتَهلُّلاً   فأبيتُ منْ كَلَفٍ بها أرْعاهَا
للَه طَلْعَتُها التي قدْ أُطْلِعَتْ   فجَلتْ عَلى العُشّاقِ شمْسَ ضُحاهَا
لِلهِ ما أحْلَى محاسِنَ وجْهِها   وأرقَّ معْناها وأعْذبَ فاهَا
لِلهِ ما أحْلَى شَمائِلَها التي   تَركَتْ فُؤادِي هائِمًا بحُلاَهَا
عَجَبًا لها حَلَّتْ فؤادَ مُتَيَّمٍ   كَلِفٍ بغيْرِ الفكْرِ لاَ يَلْقاهَا
ولَئِنْ كَلِفْتُ بَربْعِها فتَشوُّقِي   من أجْلِ مَعْناهَا إلى مغْناهَا
وأجيبُ من قدْ لاَمَني في ذكْرِها   دارُ الحَبيبِ أحَقُّ أن تهْواهَا

هي حضرةُ المَوْلَى الخَليفَةِ يوسُفٍ ... شَرَفِ الملوكِ إمامِهَا مَولاهَا

رَحَلتْ رَكائِبُهُ ضحًى عن ربْعِها ... والنصرُ يَقدُمُهَا إلى مَدْعاهَا

تُنضِي إلى الجَبلِ المُنيفِ عَزائِمًا ... أبتِ المَكارِمُ أن تُفَلَّ ظُباهَا(120)

تَرْمِي إلى الغَرَضِ القَصِيّ بأسْهُمٍ ... نَزَعَ الوَفاءُ بهَا إلَى مَرْماهَا

لِتَحُل ذِرْوَتَهُ كَما تَبغي العُلَى ... وتحُلُّ من فِئَةِ الضّلالِ عُرَاهَا

أوَ ما عَزائِمُهُ صِباحٌ كُلَّمَا ... حَادَتْ عنِ النَّهْجِ القَويمِ هَداهَا - 56 -

حَلَّ المَعاهِدَ منهُ مولًى ناصِرٌ ... وَفَّى حُقوقَ المَجْدِ إذْ وافَاهَا

تَبًّا لهمْ لمْ يَقْدُروا قَدْرَ الذي ... جادَتْ به يُمْناهُ منْ جَدْواهَا

فهِيَ التي ما ساجَلَتْ سُحُبَ الحَيَا ... إلاّ وَفاقَ الغَادِيَاتِ نَداهَا

أوَ لَيسَ مِن أوْصافِكَ الشّيَمُ التي ... غَدتِ المُلوكُ بذِكْرِها تتباهَى

أوَ لَيسَ من أوْصافكَ الهِمَمُ التي ... تبغي النُّجُومُ النيراتُ عُلاَهَا

هَذا ويا لِلّهِ منْ غَرْناطَةٍ ... دارٌ نُعيدُ على النّوى ذِكْراهَا

لمّا نأى مَوْلايَ عنْها أصبَحَتْ ... وقدِ اسْتحالت حالُها وحُلاهَا

إذْ حَيثُ حَلّ الناصِرُ المَلكُ الرِّضَى ... نلقَى المَكارِمَ والعُلَى والجاهَا

ما رَجَّعَتْ شَوْقًا إلَيْهِ حَنينَها ... إلاّ وَصَدَّ العَزْمُ عن لُقْياهَا

ما أظْمأَ الشّوقُ الحَثيثُ بِطاحَها ... إلاّ وَغيثُ الدّمْعِ قدْ رَوّاهَا

سُحُبُ المَدامِعِ كلّما بَخِلَ الحَيَا ... تَحْدُو بهَا الذّكْرى إلى سُقْياهَا

فقلوبُ أهْلِيهَا يُقَلِّبُها الجَوَى ... لمَّا تحامَى بالبِعادِ حِماهَا

ونُفوسُ أهْلِيهَا تَهيمُ بذِكْرِهِ ... كَلَفًا بمَا من رِفْدِهِ أوْلاهَا

بَسَطَتْ بنصْرِكَ للدعاءِ أكُفَّها ... واسْتَوْهَبتْ لَكَ في البقاءِ اللّهَ

---

(120) تنضي : تجرّد، والجبل المنيف يقصد به جبل طارق.

وقلْتُ أُهَنِّىءُ مَقامَهُ الكَريمَ بإبْلاَلِهِ منْ ألَمٍ ألَمَّ بهِ وذَلكَ في السَّادِسَ عشرَ لِصَفَر منْ عامٍ أرْبَعَةَ عَشَر وثماني مائة وبمدينَةِ مالَقَةَ المحْروسَةِ(121)

أَلَـمَّ بمَوْلانـا الخَلِيفَـةِ يـوسُفٍ … تُلفِي القُلُوبَ بـه رَهينَ تـأسُّفِ
أَلَمَّ يُقَلِّبُ قَـلْبَ كُـلِّ مُوَحّـدٍ … ويُغـادِرُ الإسْلامَ حِلْـفَ تَخَـوُّفِ
ما كانَ نُورُ الصبْحِ لمَّا أن بَدَا … مُتَهَلِّلاً عِنْدَ الطُّلـوعِ بِمُـنْصِفِ
حَتَّى يُرَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٌ … مِمَّا لَدَيْهِ من التَّأَلُّمِ قَدْ شُفِـي
أوَ مـا تخال الزَّهْـرَ غيْـرَ مِنيـرَةٍ … في أُفْقِهـا والزَّهْـرَ غيْـرَ مُفَـوَّفِ
والنّورَ لا يُبْدِي ٱبْتِسامَ ثُغـورِهِ … والغُصْنَ لا يَثْنِيهِ لين المَعْطِـفِ
والخَيْـلَ ساهِمَـةَ الوُجـوهِ كـأنها … مـا أُرْسِلَتْ لِقِتـالِ بـاغٍ مُسْرِفِ
والسّابِقـاتِ كأنّهُـنَّ نَواظِـرٌ … بُهِتَتْ فهُنَّ لأجْلِهِ لَـمْ تَطْـرِفِ
والمُرْهَفـاتِ تقـول في أغمادِهـا … يُشفَى الامَامُ وَفِي عِداهُ نَشْتَفِـي
مـوْلايَ عَبْـدُكَ عِنْـدَ ذلِكَ شأْنُـهُ … دمْعٌ يصوبُ ولَوْعَـةٌ لا تَنْطَفِـي
فالقلـبُ قَلَّبَـهُ عَلى جمْـرِ الـغَضَى … كَلَفٌ به قدْ حَلّ دونَ تَكَلُّـفِ
أمْسِي وأُصْبِحُ لا أرى مَلكَ الهُدَى … كَلِفًـا أُطيـلُ تَشوّقِـي وتشوّفِـي
وقد اغْتَدى اليومَ البشيرُ مُبَشّري … وبراحَـةِ المَوْلَـى الهُمـامِ مُعَرِّفِـي
فَبَذَلْتُ من روحِي وما كَسَبَتْ يَدي … ما عَزّ عِندي في الوُجُودِ ولَمْ أَفِ
فَوُرُودُهُ أحْلَـى لَـدَيَّ على الظمَـا … مـن مَـوْرِدٍ عَـذْبٍ وظِـلٍّ أوْرَفِ
قَصْدِي لَدى مَوْلايَ تقْبيـل الثرى … فبـهِ علـوُّ مَكانَتِـي وتَشَرُّفِـي
وهَنـاءُ عُلْيـاهُ براحَتِـهِ التـي … هَزَّتْ لدينِ اللّهِ أشرَف معْطِـفِ
قدْ كان غابَ عنِ العُيونِ فلَمْ أزَلْ … أرْجُـو مُشاهَـدَةَ المحَـلِّ الأشْرفِ

(121) قابل هذا بما في ديوان ملك غرناطة (ص 96) إذ يقول :
«ومن ذلك وقد ألمّ بنا ألمٌ على إثر الوجهة إلى جبل الفتح في وسط صفر عام 814»

وأقولُ ليتَ الدّهْرَ يُسْعِفُ مَقصدِي بِلقائـهِ والدّهْـرُ لـيْسَ بِمُسْعِفِـي
والشّوْقُ يُذْهِبُ سَلوَتي وتَصبُّـرِي حتّى لجأتُ لِكُتْبِ هاذِي الأحْرُفِ
جُـدْ باللّقـاءِ فَـذاكَ أيْسَرُ مطْـلَبٍ لفَتًى يَهُبُّ [لَهُ] هُبوبَ المَشْرِفِي
لازِلْتَ يا مَولَى الملـوكِ مُصاحِبًـا للنّصرِ وَالتّخليـدِ وَاللُّطْـفِ الخَفِـي

وَفِي مَطْلَبٍ يَظْهَرُ مِنَ النَّظْمِ

أذَكّـرُ مَولاَنـا ولـمْ يَنْسَ عَبْــدَهُ عَلى مطْلَبٍ يُحْظِي بما شِئْتُ عِنْدَهُ
وأرْغَبُ مـن عُلْيـاهُ تتْميـمَ نعْمَـةٍ تُنيلُ مُنَى الرّاجِي وتسْعِفُ قصْدَهُ
بأن يُوقفَ المَمْلوكَ يَـوْمَ سَلامِـهِ بقبّتِـهِ في شمْـلٍ مـنْ أمّ رِفْــدَهُ
لِيَبْقَـى وإن عَـزّ اللِقـاءُ بِنَظْـرَةٍ يُجَـدّدُ بالـذّاتِ الكَريمَـةِ عَهْــدَهُ - 58 -

وفيما حَقُّهُ أنْ يتَّصِلَ بالتّهانِي

قلتُ أمْدَحُ المَقامَ الكريمَ اليُوسُفِيَّ أسْماهُ اللهُ وقدْ وافَقَ ذلِكَ إيصَالَ الرَّئِيسِ البائِسِ الواصِلِ من المغربِ مُعْتَقَلاً وعَوْدَةَ السُّلطان السَّعِيدِ إلى حِصَارِ فاس بعد هَزِيمَةٍ جَرَتْ عَلَيْهِ بَظاهِرِها ومِيلادَ أحدَ السَّادةِ الأمراءِ حَسَبَمَا تُسْتَوْفَى هذِه الأغْراضُ منهَا وهِيَ أوَّلُ قصيدة مدحْتهُ بها بعْدَ أن وَلاَّنِي كتابةَ سرّهِ شكرَ اللهُ نعْمَتهُ وأبْقَى حُرمَتَهُ(122)

هنـاءٌ كأزْهـارِ الرُّبَـى مُتَحَمَّــلُ وبُشْرَى كأنْوارِ الضّحَـى تَتَهلّــلُ
هُوَ الصُّنْعُ صُنْعُ اللهِ معْنًى وجودِهِ سَبيلٌ لمَا شاءَتْ عُلاكَ مُـوَصَّلُ
ولاَ كالـذي رامَ العِنـادَ سَفاهَــةً يَرى الدّهْرَ عنْهُ مُعْرِضًا وهْوَ مُقْبِلُ

(122) راجع ما كتبته في المقدمة عن هذا الذي ينعته الشاعر في تقديمه بالرئيس البائس، وهو المعني في القسم الأول من القصيدة.

وأمّـلَ مثوَى العِـزِّ لاَ دَرَّ دَرّهُ ... ولَيسَ له عن مَرْتَعِ الذّلّ مَرْحَلُ
ألمْ يَدْرِ أن النّاصِرَ المَلكَ الرِّضَى ... إذا قالَ فالمِقْدارُ ما شاءَ يَفْعَـلُ
لَهُ شِيَمٌ في الحِلْمِ والعِلْمِ والنّدَى ... يَفـوقُ بها كُـلَّ المُلوكِ وَيَـفْضُلُ
فَحَزْمٌ كَلَيْثِ الغَابِ يحمِي ذِمـارَهُ ... وعَزْمٌ كما قدْ هُزّ في الروْعِ مُنْصُلُ
وَجودٌ كما جادَتْ لَدى المَحْلِ ديمَةٌ ... وَبِشْرٌ كما حَيَّا الضّحَـى المُتَهَلِّلُ
تـواضَعَ فاسْتَعْلَـى بصِدْقِ يَقينِـه ... وَعـزّ فَـذلَّ المَاكِـرُ المُتَحَيِّـلُ
أتَـى وثيـابُ الهونِ تعْلـو قُيـودَهُ ... فَيَرْسُفُ طَوْعَ الـذُّلِّ فيها وَيرْفُـلُ
وجاءَ وقدْ حَفَّتْ بهِ الشّيِّعَةُ التي ... لهَا من ذميمِ الغَدْرِ ما لَيْسَ يُجْهَلُ
تحَامَي طَريقَ الرُّشْدِ مِن قَبْلُ فاغْتَدَى ... تُزَلِّلُـهُ آراؤُهُـمْ وتُضَلّـلُ
ولَوْ أمَّلَ المَوْلَى الخليفَـةَ يوسُفًـا ... لَما راعَهُ خَطْبٌ من الدّهْرِ مُعْضِلُ - 59 -
ولَوْ أمّ لِلبَابِ الكريمِ لأصبَحَتْ ... وُجـوهُ الأمانِـي نحْـوَهُ تَتَهَلَّـلُ
ولَكنّـهُ ما جَـدَّ إلاّ لِأنْ يُـرَى ... كما شاءَهُ المِقْـدارُ وهْـوَ مجـدَّلُ
وقدْ عَزَّ من وَلَّيْتَهُ المُلْكَ مُنْعِمًا ... وأضْحَى الذي ناواكَ وهْوَ مُذَلَّلُ(123)
حُلاَ المُلْكِ حَلْيٌ منهُ هذا مُطَوّقٌ ... كَما شاءَتِ النعْمَي وذاكَ مُعَطَّلُ
صَنائِعُ جَلتْ أن يُحيطَ بوَصْفِها ... نِظـامٌ بَليـغٌ أوْ نِثـارٌ مُـفَصَّلُ
وقدْ كان فيها الحزْمُ ضُيِعَ بُرْهَـةً ... ونالَ العِدى ما أمَّلوا حينَ أُغْفِلُوا
وأمّـنَ فيها خائِـنٌ ومُخـادِعٌ ... وصُدّقَ فيها مُلْحِـدٌ وَمُعَطِّـلُ
بحَيْثُ جميـعُ الغَادِريـن تَفرّقـوا ... وفَرُّوا عَنِ النّهْجِ القَويمِ وأجْفَلُوا
لقدْ كَفَرُوا نُعْماكَ بَغيًا وطالَمَـا ... وَهَـبْتَ وأنتَ المُنعِـمُ المُتَطَـوِّلُ
تحامَوْا جَنابًا عِنـدَهُ العِزُّ والعُلَـى ... لهُمْ منهُ كَهْفٌ في الخُطوبِ ومَوْئِلُ
أينعَـمُ فيـهِ الغـادِرونَ تخَيُّـلاً ... وقَد كَفَرُوا النعْمَى التِي فيهِ خُوِّلُوا

---

(123) يتحدث في هذا القسم عن «السعيد» صنيعة ممدوحه، وينال من السلطان أبي سعيد عثمان.

وقد عادَ للقَصْدِ الذي كانَ آمِلاً وَلَيْسَ لَهُ إلاّ عَلَيْكَ مُعَوَّلُ[124]

وحُكِّمَ سَيْفُ النّصْرِ فيهم وإنّهُ لَحُكْمٌ بِما شاءَتْ علاَكَ مُسَجَّلُ

بحَيْثُ الوَغَى تُبْدِي ظُباهَا جَدَاوِلاً عَلَيْهَا مِنَ الخَطِّيِّ دَوْحٌ مُهَدَّلُ

وَبُشْراكَ يا مَولَى المُلُوكِ بِراحَةٍ تُتَمِّمُ ما شاءَ الهُدَى وتُكَمِّلُ[125]

فلَوْ أنصَفَ الخدّامُ أضحَت نفوسُهُمْ وأرْواحُهُمْ طوْعَ البَشائِرِ تُبْذَلُ

ومِنْ قَبْلُ هنَّأْنا عُلاكَ بِوافِدٍ مَخائِلُه يقْضِي بهَا المُتَأَمِّلُ[126]

مُحَيّاه وضّاحُ الأسِرة نَيِّرٌ تَرى الشهْبَ تَستَهدِي سَناه وتسْأَلُ

تَلاَ صِنْوَهُ الأرْضَى وإنَّ كِلَيْهِما لَهادٍ رَشيدٌ مُهْتَدٍ مُتوكِّلُ

فهذا إلى بذْلِ المكارِمِ يُرْتَجَى وذاكَ لِنيْلِ المَعْلُوَاتِ يُؤَمَّلُ

لِذلكَ أزْهارُ الفتوحاتِ تجْتَلَى وَروضُ المُنَى أدْواحُها تتَهَدَّلُ

وإنَّ عَدُوَّ الدّينِ سَوْفَ تخالُهُ لَدَيْكَ وقدْ وافاهُ حَتْفٌ مُعَجَّلُ

وأوْطانُهُ تُمْسي وَكُلُّ مُوَحِّدٍ يُكَبِّرُ في أرْجائِهَا وَيُهَلِّلُ

فَيا راكِبَ الوجْناءِ يَطوي بِهَا الفَلاَ إلى طِيّةٍ آثارُها لَيْسَ تُجْهَلُ

إلى معْهَدِ الانسِ الذي في بطَاحِهِ تُفَسَّرُ أوْصافُ الجمالِ وتُجمَلُ

إلَى مَنْزِلِ العِز الذِي كُل آمِلٍ يُجِدُّ لَهُ السَّيْرَ الحثيثَ ويُعْمِلُ

أرِحْهَا فَقَدْ حَلتْ بمثوى خليفَةٍ لَهُ السَّبْقُ وهوَ الوَادِعُ المُتَمَهِّلُ

إمامٌ لَهُ حِلْمٌ وعلمٌ وَنائلٌ وحَزْمٌ وإقْدامٌ ومجْدٌ مؤثّلُ

إذا أعْمَلَ القصّادُ نحْوَ جنابِهِ رَكائِبهُمْ أعمالُهُمْ تُتَقَبَّلُ

يجودُ غَمامُ الجُودِ من أُفْقِ كَفّهِ فَيفْضَحُ صَوْبَ العَادِياتِ ويُخْجِلُ

إذا ما حَلَلْنا تحْتَ ظِلّ جَنابِهِ فمَا ضَرّ أن ينْأى حَبيبٌ ومَنْزِلُ

---

(124) يشير في هذا البيت وما بعده إلى عودة «السعيد» إلى حصار فاس.

(125) يهنىء ممدوحه براحته من المرض الذي ألمّ به.

(126) راجع ما كتبناه عن أولاد يوسف الثالث في المقدمة.

أُعيذُ العُلَى مِن أنْ تخِيبَ عِصابَةٌ ... بِحُبِّ المَقامِ اليُوسُفِيّ تَوَسَّلُوا

فَمِثْلِي مَن رَقَّيْتَ يا مَلِكَ الهُدَى ... ومثْلُكَ من يُولِي الجَميلَ وَيُجْزِلُ

وَهَبْتَ وقدْ أَمَّنْتَ مِمَّا أخافُهُ ... فلمْ يبْقَ ما يُخْشَى ولاَ ما يُؤَمَّلُ

وَأوْلَيْتَنِي النّعْمَى التي كنتُ آمِلاً ... فَخِلْتُ حُلاَهَا فَوْقَ ما يُتَخَيَّلُ

وألْبَسْتَنِي ماشِئْتَ من خِلَعِ الرّضَى ... فأصْبَحْتُ في أثْوابِهَا أتَسَرْبَلُ

بماذا أُوَفّي شُكْرَ نِعْمَتِكَ التي ... حَديثُ تَوَاليهَا صَحيحٌ مُسَلْسَلُ

فدامَت على المُلوكِ مِنها مَلابسٌ ... تَبيدُ اللّيالِي وهْيَ لا تَتَبَدّلُ

ودُمْتَ لدينِ اللّه أكْرَمَ نَاصِرٍ ... وهَدْيُكَ يُسْتَجْلَى وَجودُكَ يُسْأَلُ

وقلْتُ مُهَنّئًا مَقامَهُ الكريمَ بِولادةِ السّيد الأمير أبِي الحسن أصغر وَلَديْهِ الآنَ وصَلَ اللهُ سَعادَته وفي رَبيع الأوّل عَام أرْبَعة عَشر وثماني مِائة وصَلَ التّعْريفُ به منَ الحَضْرَة والرّكابُ العليّ بمَالقة(127)

مَعالِمَ الدَّولَةِ النّصْرِيَّةِ اتّضَحَتْ ... بِيوسُفٍ ومَرامي قصْدِهِ نَجَحَتْ

مَوْلًى لبذْلِ النّدَى والبأْسِ راحَتُهُ ... بالسّيفِ كَمْ سَفَحَتْ لِلسّيْبِ كَمْ صَفَحَتْ - 61 -

حُسامُهُ تحتَ دوْحٍ من عوامِلِه ... يسيل نهْرًا ونارُ الحَرْبِ قدْ لَفَحَتْ

يحمِي ويَبْذُلُ ما تَحْوي خَزائِنُهُ ... للهِ ما مَنعَتْ يُمْناهُ أوْ مَنَحَتْ

ثَبْتٌ إذا ارْتاعَتِ الأبطالُ يَوْمَ وغًى ... سَمْحٌ يُنيرُ مُحَيَّاهُ وقدْ كَلَحَتْ

(127) أبو الحسن علي ولد يوسف الثالث هذا سمّاه والده باسم أخيه معز الدولة أبي الحسن، وقد كان له دور في الأحداث التي عصفت بمملكة غرناطة في عهدها الأخير فقد وقف إلى جانب أخيه محمد الصغير الذي بويع بعد والده يوسف الثالث وخاض غمرات الصراع الرهيب الذي نشب بين أخيه وابن عمّه محمد التاسع، وكان أبو الحسن على رأس جيش أخيه في ذلك الصراع، وتمنحه المصادر القشتالية لقب EL INFANTE وقد تمكن محمد التاسع من التغلّب على أبي الحسن وأخيه الملك الشرعي وسجنهما في شلوبانية حيث سجن والدهما من قبل، وبقيا فيه إلى أن صدر الأمر بإعدامهما في مارس 1431 م.

راجع كتاب محمّد التاسع للأستاذ سيكودى لوثينا ص 47، 51، 75.

تراهُ بَدْرًا وليْـلُ النقْـعِ مُـنْسَدِلٌ ومَوئلا وبحارُ الرّوْعِ قدْ طَفَحتْ
ومَوْلِـدٍ عـمّتِ الدُّنْيَـا بَشائِـرُهُ كالشمْسِ أنوارُها في أفْقِها وَضَحَتْ
وافَى بهِ شهرُ ميلادِ الذي بِظُبا كَفَّيْكَ مِلتُهُ الغرَّا قـدِ اتّضَحَتْ
رَاقت بهِ دَوْحَةُ الإسْلامِ وابتَهَجَتْ واليُمْنُ فوْقَ رُباهَا طَيْرُهُ سَنَحَتْ
فارتاحَتِ السُّمْرُ والبيضُ الرّقاقُ إلَى يُمْناهُ والخيل في ميدانِها مَـرِحَتْ
جَلا مُحيًّا يروقُ النّاظِريـنَ سَنًـى لوْ أنّ شمْسَ الضحَى جارتْهُ لافتضَحَتْ
أهْلاً بِها غرةٌ غَرَّاء لوْ لَمَـحتْ صبْغَ الدّياجي بأنوَارِ الهُدَى لَمَحتْ
فاهْنـأْ بـهِ وبِصِنْوَيْـهِ وَقِـرَّ بهِـمْ عَيْنًا ودُمْ ماهَدَتْ عَيْن وما سَرَحَتْ
وقبْلَـهُ وافَتِ الأجْفـانُ مُهْدِيَـةً بُشْرَى بِها فوقَ لُجِ البحْرِ قدْ سَبَحَتْ
بُشْرَى أتَتْكَ مِـن المسْعـودِ قائِلَـةً هَذي الصِّفاحُ دَمَ الأعْداءِ قدْ سَفَحَتْ[128]
فَمن مطالِعِ أنـوارٍ بها اتَّضَحَتْ ومن ميادين آمـالٍ بها انـفَسَحَتْ
وقبْلَ والِـدُهُ الأرْضَى وهَبْتَ لـهُ مَالاً تَجودُ به نَفْسٌ وَلا سَمَحَتْ
لكِنَّ ضَيَّعَ بَعْضَ الحَزْمِ حِينَ أرَى مَيْلاً إلى فِئةٍ غَشّتْ وما نَصَحَتْ
فقُمتَ بالأمْرِ ثَبْت العَزمِ ثانِيـةً حتّى كأنّ جُيوشَ النّصْرِ ما بَرِحَتْ
وفَيْتَـهُ حَقَّـهُ مِـن كـلِّ مكْرُمَـةٍ وإن ناتَ بِكَ عنهُ الدّارُ أوْ نَزَحَتْ
أدارَتِ الرُّومُ أكْواسَ السُّرورِ إلَى أن صحَّ عزْمُكَ فارْتاعَتْ لهُ وَصحَتْ
بالأمْسِ قدْ جَمَحَتْ في غيّها ودَعَتْ للحرْبِ واليَوْمَ نحْوَ السِّلْم قدْ جَنَحَتْ
هذا هُوَ النصْرُ وافتْ من كتائبه جِيادُ عِزٍّ بمَيْدانِ العُلَى جَمَـحَتْ
هذا هـوَ الصُّنْـع راقتْهـا مَصانِعُـهُ لمُرْتقَى أوْجِهـا أبصارُهـا طَمَـحَتْ
سُدَّتْ عَلى المُعْتَدِي أدْنَى مذاهِبِهِ وان أقْصَى بـلادٍ عنـدهُ فُتِـحَتْ - 62 -

(128) المسعود ولد «السعيد» وقد ورد ذكره في الضوء اللامع، ويفهم من كلام الشاعر أن المسعود بَعْدَ نهاية والده الشنيعة أصبح على رأس الجماعة الذين يعملون بأمر غرناطة. أما المصادر التاريخية فإنها لا تتحدث عنه ولا عن أخيه عامر.

فيا مُكَثِّرَ حُسَّادِي بأنْعُمِهِ ... ويا مُغَرِّبَ آمالي التي نَزَحَتْ
أوْلَيْتَني من عَميمِ الجودِ ما بَهِجَتْ ... بِهِ النُّفوسُ ونالَتْ كلّما اقْتَرَحَتْ
لِذاكَ يا مَلِكَ الدنيَا وبَهْجَتَها ... حَمائِمُ الفِكْرِ في رَوْضِ المُنَى صَدَحَتْ
وعَبْدُ نعْماكَ يُبْدِي مِن مَدائِحِهِ ... أزاهِرًا في رياضِ الطِّرْسِ قَدْ نَفَحَتْ
أفْكارُهُ عنْ بُلوغِ القَصْدِ قدْ وَقَفَتْ ... في المَدْحِ إذْ سَرَحَتْ والوَصْفَ ما شَرَحَتْ
أنَّى أُوَفِّي وَقَدْ أصبَحْتُ مُمْتَدِحًا ... ذاتًا بآيِ كِتاب اللّهِ قدْ مُدِحَتْ
تُبْدِي المَدائِحُ من أوْصافِها دُرَرًا ... بها إذا انتَظمتْ أجيادُها اتَّشَحَتْ
قَدُمْتَ ما أعْقَبَ الصُّبْحُ المنيرُ دُجًى ... في جنحِهِ الشُّهْبُ نحْوَ الغَرْبِ قدْ جَنَحَتْ

وَعِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ هذِهِ السَّفْرة لِحَضْرَتِهِ العَلِيّة قلتُ في الخامِسِ عشَرَ لشَعْبان عام أرْبَعَة عَشَر وثماني مِائة وَالدّخول في الثالِثِ عشر قبْلَهُ.

صَرَفَ الوجْدُ نحوَ قلبي عِنانَهْ ... مُعْمِلٌ فيهِ سَيْفَهُ وَسِنانَهْ
والِهًا قدْ جَفاهُ دَمْعُ جُفوني ... حينَ أبْدى غرامَهُ وأبانَهْ
ما لِقَلْبي وَجيرةَ الحَيِّ لمَّا ... أتْلَفوهُ وأصْبَحُوا سُكّانَهْ
ولمُغْرًى بحبّهم حينَ أمْسَى ... ساهِرَ الجَفْنِ بَعْدهُمْ يَقظانَهْ
وبِرَبْعِ الحِمَى غَداة اسْتَقلّوا ... طَلَلٌ بَثّ عِنْدهُ أشجَانَهْ
مَالَهُ والوُقوفَ طَوْعَ هَواهُ ... بِرُسومٍ قد أنكَرَتْ عِرْفانَهْ
والتي هامَ في صِفاتِ حُلاهَا ... قَدْ جَفا النّوْمُ بعْدَها أجْفانَهْ
ذَهَبَتْ كلَّ مَذْهَبٍ في هَواها ... بفُؤادٍ لاَ يَرْتَجِي سُلْوَانَهْ
أينَ منْها بَدْرُ الدُّجى إنْ تَجلَّتْ ... وهوَ يخشَى في أفْقِهِ نقْصانَهْ
لحْظةُ الظَّبْي في شَذا الزَّهْرِ طِيبًا ... في سَنَا الشّمسِ في انعِطاف البَانَهْ
أيْنَ يا راكِبَ المَطِيَّةِ تَبغِي ... دُونَكَ الحَيّ فاتَّبِعْ رُكْبَانَهْ - 63 -

أيضِلُّ الرَّكْبُ اليمانِيُّ قَصْدًا ... وسَنَا البَرْق قَدْ هَدَى أظْعانَهْ
وَرياضٍ جالَ النسّيمُ لديْه ... فَثَنى فيهِ لِلّقَا أغْصانَهْ
وأدارَتْ كأسُ السّحابِ مُدَامًا ... رَدَّد الطيْرُ عِنْدَها ألْحانَهْ
ما لِغُصْنِ النّوى وقدْ مالَ زَهْوًا ... لوْ أقامَتْ ريحُ الصبا نَشْوانَهْ
أتُرى السحْبُ أمْ دموعِيَ جادتْ ... ريَّةً فانثَنَتْ بِها رَيَّانَهْ(129)
لاَ ولَكن جودُ الخَلِيفَة لمّا ... جادهَا أمْسَكَ الحَيا هَتَّانَهْ
ثُمَّ وَافى أُمَّ البِلاَدِ مُعِيداً ... بِنَداهُ لِعَهْدِهَا رَيْحَانَهْ(130)
ساجَلَ الغيْثُ إذْ أتاهَا نَداهُ ... فثنى حين لمْ يُطِقْهُ عِنانَهْ
وتوارتْ شمْسُ الضحَى إذ تَبَدَّتْ ... شمْسُ مَرْآهُ فَذّةٌ حُسّانَهْ
حَسَد البَدْرُ والغمَامُ سنَاءً ... وَسَنَى نورَ وجهِه وبَنانَهْ
قدْ قضيْنا أوْطارَنا عِنْدَما قدْ ... حلَّ مَوْلَى مُلوكِها أوْطانَهْ
واصَلَ الرَّبْعَ وهْوَ أشْوَقُ شيْءٍ ... لِلّقَا بَعْدَ أن أرَى هِجْرانَهْ
كمْ عُيونٍ تشوَّفَتْ لِلقاهُ ... وقلوبٍ مَشوقَةٍ هَيْمانَهْ
مَن يُضاهِي في الأرْضِ يوسُفَ مَوْلًى ... قدْ خَبَرْنا تمْكينَهُ وَمكانَهْ
مَن يُضاهِيه يوسُفِيُّ خِلالٍ ... بيْنَ دُنْيا أعْظِمْ بهَا وَدِيَانَهْ
يوسُفُ الصِّدْق مُعْجِبٌ بيْنَ وصْفَيْ ... حجّتَيْهِ إنابَةً وإبَانَهْ
لِعُلاهُ في الغَيْبِ سِرٌّ عَجيبٌ ... كُلّ مَلْكٍ يبْدِي لهُ إذْعانَهْ
فالشقِيُّ الذي اعتَدَى قبْلَ هَذا ... قرَّبَ الدّهْرُ حَتفَهُ وأحَانَهْ(131)
ألمَوْلَى الملوكِ شَرْقا وغرْبًا ... يوسُفٍ يظهِرُ امْرُؤٌ عِصْيانَهْ
كَانَ حلفَ النجاةِ لوْ قدْ أتاهُ ... راجيًا منْهُ لطْفَهُ وحَنانَهْ

---

(129) ريّه : هي الاسم القديم لمالقة. ومعناها : المَلِكة.

(130) أم البلاد : يعني بها غرناطة.

(131) يعني في هذا البيت وما بعده من نعته فيما سبق بالرئيس البائس.

وَولِـــيُّ الضَّلالِ والبغْـــي لمَّـــا — أن غَـدا وَهْـوَ مُظْهِـرٌ طغْيانَـــهْ[132]
ظاهَـرَ الكَافِريـن واعْتَـزّ حَتّـــى — أظهَـــرَ الحَقُّ والهُـدَى بُرْهانَـــهْ
لكـأنّي بـهِ وقـدْ خـاب سَعْيًـا — وَجَـلَتْ دَعْـوةُ الـرَّدَى بُهْتانَـــهْ - 64 -
وسُيـوفُ الهُـدَى تُحكِّـمُ فِيـــهِ — قدْ أحانَتْهُ كيفَ شاءتْ مَكانَــهْ
ولسانُ الزّمـانِ يـنشِدُ لمَّـــا — أعْدَمَ اللَّهُ في الـورَى وِجْدانَــهْ
سُمْتَ أهْلَ الغرورِ منهُمْ نَكـالاً — وخَبـــالاً وذِلّــــةً وَإهانَــــهْ
لـمْ يَزالـوا لِلغـدْرِ والمكْـرِ أهْــلاً — وهَواهُـمْ قـدْ أصبَحـوا عُبْدانَــهْ
كان فيهِمْ [عُثْمَانُهُمْ وَهْـ]وَ منهُمْ — فأباحُـوا حِمـاهُ بَـلْ سُكّانَــهْ[133]
والطّرِيفِـيُّ عبْـدُهُ عبْـدُ سَوْءٍ — جَمَعَ اللُّوْمَ والخَنَى والخِيانَـهْ[134]
سارَ مِـنْ قبـلُ للجَحيـمِ بَشيـرًا — مُخبِــرًا أنّ بَعْـدَهُ إتْيانَـــهْ
أخْـذَةٌ روّعَتْ وبالــدّمِ رَوّتْ — حين وافَتْ جَنابَــهُ وجَنانَـــهْ
أوَ لـمْ يَعْلَمـوا بـأنّ ابْـنَ نَصْرٍ — يُوسُفًـا كَفُّـهُ كَـفَتْ عُدْوانَـــهْ
خابَ قَصْدُ المُلوكِ إن لمْ تُؤَمِّلْ — منْـهُ إحْسابَـــهُ ولاَ إحْسَانَـــهْ
ربّمـا حَـلَّتِ السُّعـودُ حُباهَـــا — لوْ تَلقَّى [مِنَ ٱلسَّعِيدِ] أمَانَــهْ[135]
ولأصْفَـى لَــهُ مشارِبَ نعْمَـــا — ةُ وأوْلاهُ فضْلَـــهُ وامْتِنانَـــهْ
أخـذَ اللّـهُ منـهُ خَبًّـا لَئيمًـــا — تابعًـــا في ضَلالِـــهِ شَيْطانَـــهْ
وَهْـوَ يُبْـدِي عَلى مُظاهَـرة الكفْـرِ — مـعَ البَغْـي والخَنَـى جَرَيانَـــهْ
يَتمـادَى علَى الخِـلافِ ويَـدْرِي — أنـهُ غيْـرُ مُفْلِـحٍ مَـن خانَـــهْ
تَـرْكَ المُـلك والمَمالِكَ والمَـا — لَ لَديْـهِ وكُـلَّ عِلْـقٍ صَانَـــهْ
وكـأنْ بالسّعيـدِ وارِثَ مـا قـدْ — أظْهَــرُوهُ أوْ أضمَــرُوا كِتْمانَـــهْ

(132) يقصد بهذا البيت والأبيات بعده السلطان أبا سعيد عثمان.
(133) ما بين معقوفين بياض في الأصل، وقد أستأنست في إكماله بما في ديوان يوسف الثالث.
(134) راجع ما تقدم ذكره.
(135) ما بين معقوفين بياض في الأصل.

وكـأن بالسّعيـدِ قـد ساعَدَتْـهُ … نِيَّـةٌ مـنكَ مَهَّـدت بُلْدانَـهْ
أسَّسَتْ مُلكَـهُ عَلى البـرِّ حتّـى … أصْعَدَتْـهُ وشَيَّـدتْ أرْكانَـهْ
حَـلَّ منـهُ السَّعيـدُ ذِرْوَةَ عـزٍّ … فهوَ عيـنٌ وقـدْ غـدا إنسانَـهْ
بكَ أضْحَى والمُلْكُ طَوْعُ يَدَيْـهِ … حـيْثُ رَقَّيْتَـهُ لأعْلَـى مَكانَـهْ
يُـورِدُ السَّيـفَ في دِمَـاءِ عِـداهُ … فُيـرَوِّي في بَحْـرِه ظَمْآنَـهْ
إنمَـا الغَـرْبُ في يَـدَيْكَ مجالٌ … مَـلأَتْ شيعَـةُ الهُـدَى مَيدانَـهْ[136] - 65 -
فتهَنَّـأْ يـا نـاصِرَ الدّيـنِ مُلكًـا … فـاقَ مـنصورَهُ شأى مَرْوانَـهْ
لـوْ أتـى قـيْصَرٌ لـقَصَّرَ عنـهُ … ولألقَـى كِسْرَى لـهُ تيجانَـهْ
وَهَنيئًـا بِمَقْـدَمِ العِـزِّ يـا مَـنْ … ألْـبَسَ العِـزَّ مُضْفِيًـا أرْدانَـهْ
وَهنيئًـا بها سَوابِـحَ تاتِـي … وهْـيَ بيْـن اسْتِمالَـةٍ واسْتِكانَـهْ
وحَكـتْ صَفْحَـةُ البحـارِ مُحَيًّـا … فيـه تُلْفِـي أجْفانُهـا أجْفانَـهْ
والـذي جـاءَ بالـبِشارَةِ مِنْهَـا … رَفَـعَ اللَّـهُ في الشَّوانِـيِّ شَانَـهْ[137]
تاخُـذُ الرِّيـحُ عَـنْ حُـلاهُ وتابَـى … أنْ تُبـارِي هُبوبُهـا جَريانَـهْ
لـوْ بذلنـا النّفـوسَ كانَ قَليـلا … للـذِي قـدْ أتَـى بـهِ وأبانَـهْ
وتَهنَّـأْ مـنْ قَبْـلِ ذلكَ فتحًـا … قَـرَّبَ الدّهْـرُ وقتَـه وأوانَـهْ
لا تَسَلْ عَنْ سِواهُ إذْ سَوفَ تُلْفِي … جبـلَ الفَتـحِ تابعًـا ثمانَـهْ[138]
قَدْ عَلِمْتُمْ والشِّعْرُ أصْدقُ قـالاً … ما دَعَا المُصْطَفَى لـهُ حَسَّانَـهْ[139]
دونَ مَـوْلايَ مـن نِظامِـيَ خَـوْدًا … فَـذَّةَ الـحُسْنِ والحُلَـى فَتَّانَـهْ
راقَ منها بالمَـدْحِ فيـكَ بيَـانٌ … أفُـقُ الطِّـرْسِ مُطْلِـعٌ شُهْبانَـهْ
أنـا عبْـدٌ غذَتْـهُ نُعْمـاكَ حَتّـى … رفَـعَتْ قـدْرَهُ لـديْكَ وشانَـهْ

---

(136) الغرب : المغرب

(137) الشواني : نوع من المراكب البحرية، وكذلك الأجفان الأولى في البيت قبله.

(138) جبل الفتح هو جبل طارق وثمانه هي Jimena القرية منه.

(139) يشير إلى قول النبي ﷺ لحسّان بن ثابت

نِعمَةٌ منكَ لِي بِأنَّ نِظامِي   زَهَرٌ تجتَلِي النُّهَى بسْتانَهْ
أيُوَفِّي علَيْكَ حُسْنُ ثَناءٍ   وَبهِ اللهُ مُنزِلٌ فُرقانَهْ
دُمْتَ والنّصْرُ عِند بابِكَ رَكْبٌ   يَجْذُبُ السَّعْدُ نحْوَهُ أرْسانَهْ

وقُلْتُ عِنْدَ وُصولِ البَشيرِ منَ السَّيِّدِ الأمِيرِ أبِي الحَسَنِ وَصَلَ اللهُ عزّه بدخولِهِ جَبَلَ الفَتْحِ عَصَمَهُ اللهُ في يَوْمِ السَّبتِ السَّادسَ عشَرَ لِجُمَدى الأولَى عام سَبْعَةَ عَشر وثماني مائة ودُخولِهِ يوْمَ الجمعَةِ قَبْلَهُ قصيدة نصها[140]

تَجلَّى صَباحُ الفَتحِ من جَبل الفَتحِ   فَهنّئتها بُشْرى تَجلُّ عَن الشَّرحِ - 66 -
هو الصُّنعُ صُنعُ اللّهِ حيَّاكَ أفْقُهُ   بوكّافِ غيْثٍ طالَما ضَنَّ بالنّضْح
كما راقَ نُورُ البَدْرِ بَعْدَ سِرارِهِ   وعادَ لِحُسْنِ النّظْمِ مُنْتَثِرُ الوُشْحِ
وما عَاوَدتْهُ دَعْوةٌ يوسُفِيَّةٌ   ولكِنّها روحٌ أُعيدَتْ إلى شَبْحِ
عَقيلَةُ حُسْنٍ طارَدَتْ بِوصالِها   لِتعْظُمَ بَعْدَ المَنعِ فائِدَةُ المَنحِ
فَبُشْرى بهذا الصُّنعِ يا مِلكَ الهُدَى   وهُنِّئْتَ هذا الفَتحَ يا جَبلَ الفَتحِ
فَلَوْلاهُ كانتْ لِلْعِدَى فيكَ أسْرَةٌ   تَروحُ إلى قَسٍّ وتغدو إلَى فِصْحِ[141]
تَجلَّى مُعِزُّ الدَّوْلَةِ الأكْرَمُ الرِّضَى   بمَرْقَبِكَ المَشهورِ من جانِبِ السَّفحِ
لَكَ الدولَةُ العُلْيا عَلِيٌّ مِعزُّها   بهدٍّ الذي أعلَتْ يَدُ البغْي من صَرْحِ
فيا مَلكًا يسْتَقبِلُ النَّصرَ عَزْمُهُ   وما الفَجْرُ إلاّ أن يدُلّ عَلى صبْحِ
فأجْهَدَ نفْسًا في رِضاكَ زكِيَّةً   تجاهِدُ مَن قدْ حادَ عنْ سَنَنِ النصْحِ

(140) أبو الحسن هو معز الدولة علي أخو يوسف الثالث، وفي هذه القصيدة قواف من الغريب، وقد اكتفينا بشرح بعضها.

(141) الفصح عيد معروف من أعياد النصارى.

بكلّ كَمِّي حينَ يدْعَى إلى الوَغَى   فَغَيْرُ جزوعٍ في الحُرُوبِ ولاَ طِلْحِ[142]
وأتْبَعْتَـهُ غـرَّ الكَتـائِبِ مُنْعِمًـا   فكَمْ حَلَّ من سَفْحٍ بما هَزّ من صَفْحِ
فمَا قَصرتْ فيه الجيادُ عن المَدَا   ولاَ نُهْنِهَتْ أسْدُ الرجالِ عن الكَفْحِ
وقدْ نشأتْ لِلنَّقْعِ فيهِمْ غمائِـمٌ   وما أمْطَرَتْ إلاَّ سِهامًا إلى النضْحِ
إذا أظْمأ الرَّوْعُ الجوانِحَ خِلْتَهـا   تُزادُ فَتسَتَسْقِي، تَـراعُ فتَسْتَصْحِـي
وأرْسَلْتَ فوْقَ البَحْرِ أجفانَكَ التي   بِها حَرَكاتُ الرَّفْعِ تُبْنَى عَلى الفَتْحِ
سَوابِحُ تُغْنِي حين تَجْنَحُ لِلعِـدَى   بأجْنِحَةِ النّصْرِ العَزيزِ عنِ السَّبْحِ
كأنّ ظِباءَ القفْرِ ضَلّتْ فأتْلَـعَتْ   هواديَ بيْنَ الأيْكِ والبانِ والطّلْحِ
وقدْ كُسِيَتْ مِن دامِسِ القارِ صِبْغَةً   كما التَفَتِ الرُّهْبانُ في خَلَقِ المِسْحِ
وَتَشْدو طُيورُ اليُمْنِ فيها وإن غَدَتْ   خُطوبًا عَلَى الأعْداءِ رائِعَةَ الفَدْحِ
يُبَدِّدُ شَمْلَ المُعْتَدينَ اجْتِماعُهـا   فذاكَ إلى صَدْعٍ وتِلْكَ إلى صَدْحِ
إذا جَمَعَتْ طوْعَ السُّبَّاقِ جِيادُها   فمَـا تَنْثَنِي منها الأعِنَّـةُ بالكَبْـحِ
وفي مجْمَعِ البَحْرَيْنِ قـوْمٌ تمنَّعـوا   زَمانًا ونارُ البَغْيِ مشبوبَةُ اللَّفْـحِ - 67 -
فكَـمْ مُعْتَـدٍ منهُـمْ وخافِرِ ذمَّـةٍ   عَلى قلبِهِ غيْم من الجَهْلِ لاَ يُصْحِي
غَدا خابطًا عشْواءَ في ظُلَمِ الرَّدَى   فلا جَوُّهُ يُصْحِي ولا لَيْلُهُ يُضْحِي
سَقَتْهُ صروفُ الدَّهرِ صِرْفَ مُدامِها   فيا قَدَحًا جَلتْ حُلاهُ عَنِ القَدْحِ
لقدْ قصَّدَتْ رُمْحَ الضّلالِ عزائِمٌ   مقاصِدُها أضْحَتْ سَبيلاً إلى النُّجْحِ
لئِنْ كَدحُوا خفْرًا لِذمّةِ مُنْعِـمٍ   فيا خَيْبَةَ المَسْعَى ويا ذِلَّة الكَدحِ
وطافَ من الشيطانِ في القوْمِ طائِفٌ   لما عَزَّ منْ خَطْبٍ وما مَسَّ منْ قَرْحِ
وما حُلَّ منْ عَقدٍ وعُجِّلَ منْ أذًى   وبُدِّدَ من شمْلٍ ورُوِّعَ منْ سَرْحِ
فاطْلَعْتَ فيهِمْ من جُنودِكَ أنجُمًا   تجَلَّتْ وليْلُ الرَّوْعِ مُنْسَدِلُ الجِنحِ[143]

(142) طلح : ضعيف.

(143) الجِنْح : الجناح.

لِمَا شُدَّ من أزرٍ وشُيِّدَ مَن حِمًى وما راقَ مِن صُنْعٍ وما بانَ من نُجْحِ
وما عَمَّ من أمْنٍ وما لاَحَ من هُدًى وما اعْتَزَّ من نصْرٍ وما فاز من قِدْحِ
لقـدْ طَرقَتْهُـمْ في مَنازِلِ طـارِقٍ كَتائِبُ لا تنجِي ولكنّها تُنْجِـي
فألْقَوْا يَدَ التسْليمِ طَوْعًا ولم يكُنْ لِيَنْقادَ بَاغِيهِمْ إلى السِّلْمِ والصُّلْحِ
وجـادوا بمَـا ضَنُّـوا بـهِ ولَطالَمـا تعَدَّوا بمَا اعْتادُوهُ مِن عادَةِ الشُّحِّ
وهَيْهاتَ عَن طَوعٍ يجودُ بواكِفٍ من الغَيْثِ لِلوُرَّادِ منْ ضَنَّ بالنَّشْحِ(144)
لقَدْ كَشَفَتْ عن سَاقِها الحَربُ وانثَنَتْ كَما صَدَرتْ بِلْقِيسُ عنْ لُجّةِ الصَّرحِ(145)
وقَدْ وَضَعَتْ أوْزارَهَا بَعْدَ عَزْمَـةٍ ثَنَتْ مِنهُمُ الأكْبادَ دامِيَةَ الجُـرْحِ
فللّـهِ منهاَ حيـنَ تابـوُا وأصْلَحُـوا صِفاحٌ ثَنَتْها عنهُم عادَةُ الصَّفْـحِ
فما شُرِعَتْ سُمْرٌ تَرى الطّعْنَ شِرْعَةً ولاَ أعْمِلَتْ بِيضٌ تُوَكَّلُ بالمَسْحِ
مَآثِرُ مَوْلًـى جـادَ حِلْمًـا ورأفَــةً بمَا لَمْ تجُدْ يوْمًا بهِ راحَة السَّمْحِ
وأوْلاهُمُ النُّعْمَى عَلى طـوُلِ فَتْـرَةٍ فمن ديمَةٍ سَحٌّ على ظماءٍ بَـرْحِ
وكَـفٌّ تكُـفُّ المُعْتَديـنَ ونائِـلٍ يجودُ على القـصَّادِ بالوابِـلِ السَّحِّ
تَرَدُّدُ بين السَّيْفِ والسَّيبِ كَفُّـهُ لِمَا شئتَ من منْعٍ وما شئْتَ من مَنحِ
فَجودٌ كَما جادَتْكَ واكِفَةُ الحَيـا وهدْيٌ كَما حَيّتْكَ طالِعَةَ الصبْحِ - 68 -
فَطَلْعَتُهُ تحْكي لَنا صورَةَ الضحَى وَعزْمتُـهُ تَتْلـو لـهُ سُورَةَ الفَتْـحِ
فيا شُهُبَ الهَدْيِ اسْتَبِينِي بأفْقِـهِ ويا سُحُبَ الإنْعامِ مِن كَفّه سُحّي
وكَمْ منْ جهادٍ مجْهِدٍ نفْسَهُ التي مَتاجِرُهـا في اللـه نامِيَـةُ الرِّبْـحِ
عَواليـهِ في النَّقْـعِ المُثارِ تخالُهـا كَواكِبَ تَبْدو لِلدُّجُنّةِ في جنْـحِ
وأسْيافُهُ تُبدِي إذَا احْتَـدَمَ الوغَـى من اللّمْعِ ما يَحْكِي البَوارِقَ في اللّمحِ

---

(144) النشح : الماء القليل.

(145) يشير إلى ما ورد في سورة النمل عن بلقيس : «قيل لها ادْخلي الصّرح، فلمّا رأتهُ حَسِبَتْه لُجّةً وكَشَفتْ عنْ ساقيها».

فلاَ بَرْقَ إلاّ ما جَلاَ الغِمْدُ مَتْنَهُ ... ولا نجْمَ إلاّ ما عَلاَ عامِلَ الرُّمْحِ

تَصولُ عَلى الأعْداءِ حيْثُ نَجيعُها ... مَوارِدُ يُذْكِي وِرْدُها لأعِجَ البَرْحِ

أمَــوْلاَيَ خُذْهَــا لِلهَنــاءِ حَديقَــةً ... مُهَدَّلَــةَ الأدْواحِ صَبِيّـــةَ النَّفْـــحِ

تُريكَ من النَّظْمِ البَدِيــعِ قَلائِــدًا ... من الدُّرِّ تُزْري بالقلائِدِ والفَتحِ[146]

عَلى أنّني قصَّرتُ في وَصْفِكِ الذِي ... هُوَ البَحْرُ لا يفْنى على كَثْرةِ المَنْحِ

إذا اللهُ قد أثنى عليْكَ فمَا الذي ... يُوَفّيهِ عبْدٌ مِـن عبيـدِكَ بالمَــدْحِ

وعِنْدَما احْتَلَّ رِكابُهُ العَلِيُّ اليوسُفِيُّ إثْرَ ذلِكَ بجَبَلِ الفَتْحِ
قلتُ أصِفُ الحَالَ في السَّادِسِ والعشْرينَ لِجُمدى الأولى من العام.

نَفَّــرَتْ نَــوْمَكَ الظِّبـــاءُ الأوانِسْ ... ونأتْ وَهْيَ في الضلُوعِ كَوانِسْ

وانْثَــنَتْ لِلــوداعِ ثــمَّ تَــولَّتْ ... فغَــدَا القــلْبُ بَيْــنَ راجٍ وَآيِسْ

أيْنَ رَبْعُ الحِمَى سَقَى فيهِ عَهْدًا ... قـدْ ألِفْنــاهُ كُــل عهْــدٍ بــاجِسْ

معْهَــدُ الأنْسِ لِلصِّبــا والــتّصابي ... باعِثُ الوَجْدِ عِندَهُ الفِكْرُ هاجِسْ

إذْ تجَـلَّتْ مِـن الخُـدورِ بــدورٌ ... فانجَلَتْ فيهِ من دُجاها حَنـادِسْ

وانثَـى الظَّبْيُ فيهِ غيْـر مَـرُوعٍ ... يَتْـرك الصَّبْـرَ شارِدًا وهْــوَ آنِسْ

مُجْتَلَــى رائِــق وطـرْفٌ كَحيــلٌ ... وقَــوامٌ لَــدْنٌ وعِطْــفٌ مــائِسْ

أوُجـــوهٌ أمِ البُـــدورُ تجَــلَّتْ ... وقُـــدودٌ أمِ الــغُصونُ مَــــوائِسْ

وخُدودٌ يُحْنَـى بِهَـا الـوَرْدُ لَـولاَ ... أنْ علَيْهـا مِـن العُيـونِ حَــوارِسْ - 69 -

وعُيـــونٌ تُصيبُ كُـــلَّ مُعَنّـــى ... فكِلاهَـا مَـا بَيْــنَ رامٍ ورامِسْ[147]

فعْلُهـا في القُلـوبِ إن لَحَظَتْهــا ... أيْـنَ منهُ فعلُ الكَمِـيِّ المَمَــارِسْ

---

(146) القلائد الثانية والفتح يشير بهما إلى كتاب قلائد العقيان للفتح ابن خاقان.

(147) في الأصل : فكلا. ويبدو أنّ الناسخ نسي ها، وحقها أن تكون : فكلّها، ولكن الوزن لايقبلها، ولها وجه. ورامس من الرمس وهو الدفن أو الرمي.

قَدْ هَدتْ لِلغرامِ وهْيَ حَيارَى ... وأَتَتْ بالسُّهادِ وهْيَ نَواعِسْ
ولقَدْ جَدَّدَتْ هَوايَ فَتاةٌ ... تَرَكَتْ أَرْبُعَ السُّلُوِّ دَوارِسْ
فالذي قاسَنِي بقَيْسٍ وقَدْ ها ... مَ بلَيْلاهُ مُخْطِىءٌ في المَقايِسْ
آهَ يا راكِبَ المَطِيَّةِ يَبْغِي ... مغربَ الشَّمْسِ قِفْ بها واسْتَانِسْ
ولْتَسَلْ عن منازِلِ القَوْمِ حَلُّوا ... بيْنَ بَحْرٍ طامٍ ورَبْعٍ طامِسْ
أَصْبَحوا والقِبابُ فيها صُدورٌ ... وَهُمُ كالظُّنونِ فيها هَواجِسْ
فإذا ما الغَمامُ جادَ بمَاءٍ ... خِلتَ فيهَا الرِّمَالَ وَهْيَ مَقابِسْ
أُفُقٌ تَبْسِمُ البَوارِقُ فيه ... لِدُموعٍ من الغَمامِ بَواجِسْ
وكذا يوسُفٌ لَدَى الرَّوْعِ يُلْفَى ... بَاسِمَ الثَّغْرِ والوُجوهُ عَوابِسْ
جَبَلُ الفَتْحِ قَدْ حَلَلْنا لَدَيْهِ ... طَلَلاً موحِشًا بنا مُسْتانِسْ
يعْذُبُ الوِرْدُ فيهِ وهْوَ عَذابٌ ... مُرْسَلٌ للغَليلِ في القَلْبِ حابِسْ
بِمجانِي الفَتحِ التي قَدْ أُتيحَتْ ... لِجَوادِ المجالِ بَدْرِ المجالِسْ
مَلِكُ العُدْوَتَيْنِ شَرْقًا وغَرْبًا ... مَن يُضاهِيهِ في العُلَى أَوْ يُنافِسْ
يوسُفٌ ناصِرُ الخلائِفِ حَقًّا ... مَن يُجارِي خِلالَهُ أَوْ يُجانِسْ
يُنجِزُ الوَعْدَ والزَّمانُ خَؤُونٌ ... ويُوَفِّي الحُقوقَ والدَّهْرُ بَاخِسْ
إِنْ طَغَى مُعْتَدٍ وصَوَّحَ مَرْعًى ... أَسَدٌ عابِسٌ وغَيْثٌ بَاجِسْ
صابَ غَيْثًا وصَالَ لَيْثًا وحَيًّا ... صُبْحَ هَدْيٍ يجْلُو الخُطوبَ الروامِسْ
لِعَوالِيهِ في المَعالِي حَديثٌ ... صَحَّ إِسْنادُهُ لِأَيْدِي الفَوارِسْ
يتَثَنَّى الخَطِّيُّ مِنها فيَجْلو ... ظُلَمَ الرَّوْعِ مِنْهُ جِذْوةُ قابِسْ
وكذا سَيفُهُ نَحيلٌ ولكن ... تتجافَى عنهُ الأُسُودُ العَوابِسْ
رَقَّ حَتَّى كَأَنَّ مِنْهُ بصدْرِ الـــغِمْدِ لَوْ لَمْ يَشِمْهُ سِرٌّ هاجِسْ
هو فجْرٌ يجْلو الدَّياجي مُنيرٌ ... ومُثيرٌ من العَجاجِ حَنادِسْ
فَيُريكَ الصَّباحَ واللَّيْلُ داجٍ ... ويُعيدُ الظَّلامَ واليَوْمُ شَامِسْ

كم جُمـوعٍ لِلغادِريـنَ تَـلاشَتْ   في مَجالِ الأُسودِ مِنْهُمْ هَجارِسْ(148)
قـدْ أفاقُـوا مـنْ غفْلَـةٍ كان فيها   ناظِـرُ الدَّهْـرِ عنْهُـم مُتَنـاعِسْ
ما لهُمْ والكَرَى لَدى الأُسْدِ الوَرْ   دِ الـذي تتَّقِـي سُطاهُ الكَـرادِسْ
دانَ بالغَـدْرِ منهُـمُ كـلُّ بَـاغٍ   حيْثُ أمْسَى وَهْوَ الشَّقِيُّ البـائِسْ
جَـرَّ ذيْـلَ الغُـرورِ والتّيـهِ حَتَّـى   خَلَعَ الّدهْرُ عنـهُ تِـلكَ المَـلاَبِسْ
مَن غَدا المَكْرُ فيه طبْعًا يُنافِـي   شِيَـمَ المَكْرُمـاتِ كَيْـفَ يُنـافِسْ
حَالِكُ الرَّأيِ تحْتَ بيضٍ مَواضٍ   يَنثنِـي وهْـوَ بيْـنَ دامٍ ودامِسْ
فَهُدَى اللّهِ قـدْ تَحامَـىٰ حِمـاهُ   ومَـدا الحَتْـفِ قَرَّبتْـهُ المَـداعِسْ
يوسُفٌ نَاصِرُ الهُـدَى كَـفٌّ مِنْـهُ   كَفَّ نـاهٍ عـنِ المَكـارِمِ نَـاهِسْ
يـا إمامًـا بِذِكْـرِهِ يَتَحَلَّـى   مـا عَـلاَ مـنَ مَنابِـرٍ ومَـدارِسْ
جَبَـلُ الفَتْـحِ قـدْ أتَـيتَ يُـوالِي   جُنْـدُكَ السَّيْـرَ نحْـوَهُ ويُـوالِسْ(149)
وأحَـاطَتْ بِـهِ كَتـائِبُ تُنْمَـى   لِعُلَـى اليُوسُفِـيِّ غُـلْبٌ أشَاوِسْ
بَـذَلَتْ في رِضَـى عُـلاكَ نُفـوسًا   قدْ أبَتْ أن تَذِلَّ وهْـيَ نَفـائِسْ
وجَـلَتْ أوْجُـهُ الحُـروبِ عَلَيْـهِ   أيْنَ مِنها حُروبُ جَلْوَى وداحِسْ(150)
طالَمـا كان في نعيـمٍ مُقيـمٍ   وعَلَيْـهِ مِـن ظِـلِّ أمْنِكَ حـارِسْ
تألَـفُ السُّهْـدَ كَـيْ تؤمّـنَ مِنْـهُ   في رِضَى اللّهِ كُلّ جَفْنٍ نـاعِسْ
صارَ إرْثًـا مِـنَ الغَنِـيِّ لِعَلِّيـا   ثِكَ مـا شَادَهُ عَلِـيٌّ وفـارِسْ(151)
وقضَى اللّـهُ أن تنكّـرَ حِينًـا   طَوْعَ حادٍ في القَوْمِ للمَكْرِ حادِسْ

---

(148) هجارس جمع هجرس وهو القرد والثعلب.

(149) يوالس : يخادع. وناهس في قافية سابقة مثل ناهش وزنا ومعنى.

(150) داحس فرس لقيس بن زهير قامت بسببها حرب دامت أربعين سنة بين عبس وذبيان أما جلوى فهي أم داحس.

(151) الغني هو الغني بالله محمد الخامس وهو الذي انتزع جبل طارق من يد بني مرين وعلي هو أبو الحسن المريني وفارس هو ولده أبو عنان.

كُلُّ هـذَا لأن يُرَى لكَ مِلْكًا ... برقــاقٍ فَــوارِثٍ وفَــوارِسْ
وَتُوقِّـي الخُطـوبَ وَهْـيَ عَـوادٍ ... وتوَفِّي الحُقوقَ وهْـيَ بَـواخِسْ
هَـذهِ مِنْحَـةٌ أعَـزُّ وأسْنَـى ... كـلُّ مَـلْكٍ منها خِـلافكَ آيِسْ - 71 -
كُـلُّ مَـنْ أمَّهـا ورامَ سِباقًـا ... في مداهَا لِقَصْدِه الدَّهـرُ عـاكِسْ
طالَمـا رَوَّعَ الحوادِثَ قهْـرًا ... ذو أَنـاةٍ لِلامَـةِ الصّبْـرِ لاَبِسْ
ولكـمْ بِتَّ إذْ حَلَـلْتَ حِمـاهُ ... كافِيًـا مِـن مُنافِـقٍ وَمُنـافِسْ
بِمُعـاطٍ كاسَ الحُتـوفِ عِـدَاهُ ... مُرْغِـمٍ بالفتُـوحِ منهُـمْ مَعـاطِسْ
وخَميسٍ حَفُّوا بهِ حيْثُ يُرْجَـى ... مَـوْرِدُ الأمْـنِ كَالعِشار الخَـوامِسْ
وتَلقَّـوْكَ والعُيـون تُوالِـي ... نَظَـرَ الخوْفِ والرَّجـا وتُخـالِسْ
ذنبهُـمْ يُـوحِشُ النفـوسَ ولكـنْ ... مـنكَ بالحِلْـمِ والرّضَى تَسْتـانِسْ
فتَجلَّـى صَبـاحُ عَفْـوِكَ يَمْحـو ... من دُجَى الذّنْبِ كُلّ لَيْلٍ دامِسْ
وهَمَى مِن نـدَاكَ صَوْبُ غمَـامٍ ... أيْنَ مِنْهُ نَدَى الغُيـوثِ الهَـواجِسْ
وأخـوكَ المُعِـزُّ أيْـنَ حُـلاهُ ... في العُلَى منْ حُلا المُعِزِّ بن بادِسْ(152)
جَـدَّ لِلفَتْـحِ في رِضـاكَ فكَـمْ جَـــدَّدَ لِلنّصرِ منْ عُهودٍ دَوارِسْ
فَهَنِيئًـا لَكَ الحُلـولُ بأُفْـقٍ ... في مَعاليـهِ مَالَـهُ مِـن مجانِسْ
غـرَسَ الجُـودُ مِنْكَ دَوْحَةَ عِـزٍّ ... وستَجْنِي ما جُودُ كَفّكَ غـارِسْ

وَقلتُ فيمَا يَظْهَرُ مِنْها في الخامِسِ والعِشرينَ لرَمضانَ
عام سَبْعَة عَشر وثمَاني مِائة

هَنيئًا بِصُنْعٍ نَحْوَهُ النصْرُ قَدْ خَطا ... تَرامَى لهُ سَبْعًا وما قَصَرَ الخُطَا

(152) المعز الأول هو أبو الحسن علي معز الدولة أخو يوسف الثالث والمعز بن بادس الصنهاجي ملك افريقية ولد سنة 398 وتوفي سنة 454 انظر ترجمته في وفيات الأعيان 5 : 233 ـــ 235 وتبدو صيغة المقايسة مقلوبة إذ أن الشاعر يقصد تفضيل معز الدولة على المعز بن باديس.

وأقبَلَ طَوْعَ الفَتحِ لاَ مُتوانِيًا   عنِ الغَرَضِ الأقْصَى ولاَ مُتَثَبِّطَا
بطاعَتِكَ اعْتَزَّ المُلوكُ فبادَرُوا   سِراعًا إلَى مَا شِئْتَهُ لَيْسَ بالبِطَا
وأيُّ غمامٍ الأفْقِ لَيْسَ يُمِدُّهُ   نَدَى يَدِكَ العُلْيَا بِبَحْرٍ منَ العَطَا
بِذِكْرِكَ حادِي الرَّكْبِ في البِيدِ قد شَدَا   فَحَلَّى بهِ الأسْماعَ دُرًّا وقُرْطَا
ومَن كابْنِ نصْرٍ مُنْعِمًا مُتطَوِّلاً   يجودُ ويُجْدِي رأْفَةً وتَبَسُّطَا - 72 -
إذا عبَس الروْعُ اغْتَدَى مُتَبَسِّمًا   وإنْ قُبِضَتْ أيْدِي النَّدَى مُتَبَسِّطَا
رَوى جودُهُ عَنْ كفِّهِ صِلَةَ النَّدَى   فَللهِ ما يَرْوِيهِ عَن وَاصِلٍ عَطَا[153]
وإنْ عَدَلَتْ عن مَنْهَجِ الحَقِّ أُسْرَةٌ   غَدَا حُكْمُهُ بالسَّيْفِ والسَّيْبِ مُقْسِطَا
بِعَزْمَتِهِ حاطَ البلادَ فَما يُرَى   بأعْطَفَ مِنهُ في المُلوكِ وأحْوَطَا
رؤوفٌ عَطوفٌ منعِمٌ متَفَضِّلٌ   كَرِيمٌ حَليمٌ يغفِرُ العَمْدَ والخَطَا
هوَ العادِلُ الأرْضَى هُوَ الحَكَمُ الذي   إذا قَسَطَ الأملاكُ في الحُكْمِ أقْسَطَا[154]
يَضِلّ مُناوِيهِ وإنَّ يَمِينَهُ   لأهْدَى لِطُرْقِ المَكْرُماتِ من القَطَا[155]
وكَمْ قد سَرَى يسْتَقْبِلُ النصْرَ عَزمُهُ   سُرًى ليسَ يُلْفَى للعَدُوِّ بِها سُطَا[156]
يَنالُ المعالِي بالعَوالِي سِوَى الذي   عَلا صَهْوَةَ الأخْطارِ لِلعِزِّ وَامتَطَا
ومَن خطَبَ العَلْياءَ بالسُّمْرِ والظُّبَا   ويمَّمَ أقْصاهَا أُبِيغِي تَوَسُّطَا
فَلا صارِمٌ إلاّ إلى النَّصْرِ مُنْتَضًى   وَلاَ صاهِلٌ إلاّ إلى العِزِّ مُمْتَطَا
عَزائِمُ لوْ أعْمِلْنَ للبَدْرِ ما ارتَقَى   وللبَحْرِ مااسْتَعْصَى وللدّهْرِ ما سَطَا
تهبُّ إلَى دَاعِي الرّشادِ جيادُهُ   بأسْرَعَ مِن لَمْعِ البُروقِ وأنْشَطَا
فَمِنْ أشْهَبٍ كَالصُّبْحِ إذْ تَبِعَ الدُّجَى   وَغادَرَ مِنْهُ الفَوْدَ بالفَجْرِ أشْمَطَا[157]

(153) واصل وعطاء من اسماء رواة الحديث، وقد ورّى بهما الشاعر عن الوصل والعطاء.

(154) قسط : جار وأقسط : عدل.

(155) أهدى من القطا : مثل معروف، وقد استعمله الشاعر في غير ما استعمله الذي يقول :
تَميمٌ بطُرْقِ اللُّؤْمِ أهْدَى مِن القَطا   ولَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ الرّشادِ لَضَلَّتِ

(156) سطا : جمع سطوة.

(157) أشمط : أبيض.

وأدْهَمَ يَحْكِي والصّباحُ حُجولُـهُ ... دُجًى والثُّريَّا حَلْيُـهُ حِيـنَ يُمْتَطَـا
بعُلْياهُ تاهَ الطِرْفُ وارْتاحَ عِندَمـا ... غدَا مُفْرِجًا خَطبًا من الروْعِ مُفْرِطَا
فلمْ يَرْضَ في نَهْرِ المجَرَّةِ مَـوْرِدًا ... ولاَ بإزاءِ الانْجُمِ الزُّهْـرِ مَرْبطَـا
ومَن كابْنِ أنصارِ الرسُولِ الذي هَدَى ... إلَى الرُّشْدِ مَنْ ضَلّ السَّبيلَ وَخَلَّطَا
ومَنْ جَعَلَ الرُّوحَ الأمِينَ مصاحِبًا ... إذا هُوَ نَاجَى والبُراقَ إن امْتَطَا
وَطـابَتْ إلى يوْمِ القِيامَـةِ طَيْبَـةٌ ... بـهِ عِندَمـا آوَى إلَيْهـا وافْرَطَـا
فأضْحَتْ حِلاَلاً طالَمَا اغْتُفِرَتْ بِهَا ... خَطايَا البَرَايَا إذْ لَها تُعْمِلُ الخُطَا
وأُفُقًا إلَى الذّكْرِ الحَكيمِ ومَطْلِعًا ... ومَرْمًى إلى الوَحْيِ الكريمِ وَمَهْبِطَا
فهـمْ نصَرُوهُ حيـنَ آوَى إليْهـمُ ... وكَفُّوا الغَوِيَّ المسْرِفَ المتَخَمِّطَا(158) - 73 -
فكُلٌّ يُرَى حيْثُ الذّوابِـلُ تَنثَنِـي ... لِلقْيَا الأعـادِي منشِطًـا ومُنَشِّطَـا
وكُلٌّ يُرَى حيْثُ الصّواهِلُ تَرْتَمِي ... لهَـا في رِضاهُ مُفْرطًـا لاَمُفَرِّطَـا
وقيْسُ بْن سَعْدٍ لمْ يَدَعْ مُتَخَلِّفًا ... بكُفْرٍ عن الدّينِ الحَنيفِ مُخَلِّطَـا
إذَا حادَ عن نهْجِ الهِدايَةِ مُلْحِدٌ ... تَمادَى علَى الحَقِّ المُبينِ وَاغْبَطَا
وإن مالَ في الرَّوْعِ المروعُ أقامَهُ ... وثَبّتَ من يبْغِي الفِرارَ وَثَبَّطَـا
وقَدْ أنْجَبُوا من ناصر الدِّينِ يُوسُفٍ ... إمَامًا يفوق السُّحْبَ في البَذْلِ والعَطَا
تَرَى نـورَ مَـرْآه وَجُـودَ يمِينِـهِ ... إذَا البَدْرُ حَيًّا أوْ إذَا الغيثُ أفْرَطَا
وإن قَبَضتْ يُمْناهُ سَيفًا قَضَتْ بأنْ ... يَمُدَّ ظِـلالَ الأمْـنِ فينـا ويَبْسُطَـا
وإن أرْسَلَتْ في حَوْمَةِ الحَرْبِ ذابِلاً ... تتَبَّـعَ مـن لـمْ يَبْـغِ عنهُ تَثَبُّطَـا
يضيقُ مجالُ الفَوْزِ عنْ كُلّ مُعْتَدٍ ... إذا هُوَ لِلْخَطِّيِّ قد فَسَحَ الخُطَـا
فلِلّه أعْمـالُ العَوامِـلِ في الوَغَـى ... لقَدْ أمِنَتْ من أن تُراعَ فَتَخْبَطَا
وقدْ صُفّتِ الأبطالُ حيثُ سُطُورُها ... تُخَطُّ فَتَثْنِي الخَطَّ لِلهَامِ مَسْقِطَا

---

(158) المتخمّط : الثائر.

سُطورٌ عَلاَ حَدُّ الحَسَام حُروفَها ... لِيَشْكُلَها والسَّمْهَرِيُّ لِيَنْقُطَا(159)

ويَحْيَى الذِي قدْ فَرَّقَ اللّهُ جَمْعَهُ ... فَفَرَّ إلَى أَقْصَى البِلادِ وَفَرَّطَا(160)

وكانَ لَمَولاهُ حُقوقٌ عَظيمَةٌ ... عليْهِ وجَلَّتْ أن تُضاعَ وتغْمَطَا

ولكنَّ منْ تُرضيهِ أفعالُ غَدْرِهِ ... إذا رامَ انْ يُرْضِي اللّهُ أسْخَطَا(161)

فلاَ أمَلٌ مِن قَبْلُ إلاّ مُخَيَّبٌ ... وَلا عمَلٌ من بَعْدُ إلاّ وأُحْبِطَا

فقدْ غَادَرَتْهُ حالُهُ واهِيَ القُوَى ... وفي وَحَلٍ منْ غدرِهِ مُتَوَرِّطَا

وأظهَر تَقْوَى اللهِ حِينًا وقدْ غَدَا ... لَئيمًا ذَميمًا فائِلَ الرَّأيِ امْعَطَا(162)

وخَادَعَ بالرُّجْعَى إلَيْهِ فَعِنْدَمَا ... تَروَّعَ في نارِ الجَحيمِ تَوَرَّطَا

ونَادَى عَلَى بُعْدٍ أخاهُ فجاءَهُ ... وحَلَّ حِمَاهُ بَعْدَما كانَ أحْلَطَا(163)

لقَدْ خَبَطَا عشْواءَ إذْ خَطَبَا التي ... بها كُلُّ شَرٍّ في الوُجودِ تَأبَّطَا

يَرومانِ بالغَدْرِ اهْتِداءً وإنَّهُ ... لَيَقْضِي دُجاهُ أن يَتيهَا ويخْبِطَا - 74 -

وأُذْكِيَ سِقْطُ الزَّنْدِ في الفتْنَة التي ... قَضتْ بعْدُ فيهَا أنْ يَذِلاَّ وَيسْقُطَا

وخَطَّتْ بِهُجْرِ القَوْلِ شُلَّتْ يَداهُمَا ... وما عَرَفَا خطًّا ولاَ تَرَكَا خَطَا

فقالَ لسَانُ الخَطْبِ إذْ جارَ فيهِمَا ... ألا فاخْطُبَا إن شِئْتُمَا اليَوْمَ واخْططَا

أتَى بهِمَا المِقْدارُ قَسْرًا إلى الرَّدَى ... وقدْ أُنْشِطَ المَغْرورُ منْ حَيْثُ أنشِطَا

فَظَنَّ بأنَّ الأرْضَ تحْمِي ذمَارَهُ ... فأصْبَحَ فيهَا نادِمًا حِينَ أهْبِطَا

فبُشْرَى بهَا أسْرار غيْبٍ تحَجَّبَتْ ... بِنَيْلِ المُنَى عنْهُنَّ قدْ رُفِعَ الغِطَا

ودُونَكَ يا مَولاَيَ مِنهَا قَوافِيًا ... تُؤَمِّلُ حَظًّا مِن قَبُولِكَ مُنْشِطَا

فَحَظِّيَ لِلأطْمَاعِ أمْسَى مُقَرِّباً ... ولفْظِيَ لِلأسْماعِ أمْسَى مُفَرِّطَا

---

(159) السَّمْهري : الرّمْحُ الصلب. وفي الأصل، والسمهدي وهو تحريف.

(160) راجع ما كتبناه في المقدّمة حول يحيى هذا.

(161) الشطر الأخير مكسور، ولعله هكذا : إذا رامَ أنْ يَرى رِضَى الله أسْخَطا.

(162) أمْعَطَ : خبيث.

(163) أحْلَطَ : تردّد.

بَقيتَ تُبيدُ الكُفْرَ ما وَضَحَ الضُّحَى   وَمَا قَطَعَ البَيْدَاءَ للمَوْرِدِ القَطَا

وَمِنَ العِيدِيَّاتِ

قُلْتُ أهَنِّئُ الخِلافَةَ اليوسُفِيَّةَ النَّاصِرِيَّةَ أدَامَ اللهُ أيَّامَها بعيد الفِطْرِ مِنْ عامِ أحَدَ عَشر وثَمَاني مِائة وَهِيَ أوَّل عِيدِيَّةٍ هَنَّأتُهُ بِها مِنْ غَيْرِ إنْشَادٍ[164]

أمِنْ بارِقٍ في الدُّجَى أوْمَضَا   حَنَنْتَ إلى ذِكْرِ عَهْدٍ مَضَى
كأنَّ تألُّقَهُ مَوْهِنًا   شِهابٌ إلى الرَّجْمِ قَدْ قُيِّضَا[165]
كأنَّ الدُّجَى سَلَّ زَنْجِيُّهُ   حُسَامًا عَلَى أُفْقِهِ وانْتَضَى
كأنَّ سَنَا الزهْرِ أزهَارَ رَوْضٍ   مِنَ النَّوْرِ بالنُّورِ قَدْ عُوِّضَا
كأنَّ طَوالِعَ شُهْبانِهَا   طَلائِعُ شُهْبٍ مَلأْنَ الفَضَا[166]
كأن بها القَلْبَ قَلْبٌ مَشوقٌ   تَقَلَّبَ في جَمَراتِ الغَضَى
كأنَّ بها النّسر قُصَّ الجناحُ   لَهُ عِنْدَمَا رامَ أن يَنْهَضَا
كأنَّ أخاهُ أخو لَوْعَةٍ   فَلا هُوَ أغْفَى ولاَ غَمَّضَا[167]
كأنَّ السُّهَى خَبرٌ هاجِسٌ   بصَدْرٍ أبَى السَّمْعُ أنْ يُرْفَضَا
كأنَّ الهِلاَلَ عَلى أدْهَمٍ   مِنَ اللَّيْلِ سَرْجٌ وقَدْ فُضِّضَا
كأنَّ ثُرَيَّاهُ راحَةُ خَوْدٍ   تُعَوِّذُهُ خَمْسُهَا إذْ أضَا
كأنَّ الظَّلامَ غَدا راحِلاً   أمَامَ الضُّحَى رَحْلُهُ قُوِّضَا

---

(164) وردتِ هذه العيدية أيضا في مظهر النور الباصر، وقد مهّد لها الشاعر هناك بقوله : «وقلْتُ أهنّئُ مَقامه الكريم بعيد الفِطر من عام أحدَ عشَر وثماني مائة» (من ص 206 إلى ص 212).

(165) موهنًا أي في نحو نصف الليل.

(166) الشهبان : النّجوم، والشهب جمع أشهب نعت للخيل.

(167) يقصد ما يعرف بالنسْر الطائر وأخيه النسر الواقع.

كأنَّ سَنَى الصُّبحِ وجْهُ ابنِ نَصْرٍ   إمَامِ الهُدَى المَلِكِ المُرْتَضَى
إمَامٌ يَكُفُّ صرُوفَ الخطوبِ   ويَقضِي الزّمانُ بما قد قَضَى
مَظاهِرُهُ في العُلَى تُجْتَلَى   مَقاصِدهُ في النَّدَى تُرْتَضَى
فأعْلَى بهِ الدّينُ دِينَ الهُدَى   وكَمْ حجَّةٍ لِلعِدَى أدْحَضَا
وإنَّ مُحَيَّاهُ مَهْمَا بَدَا   أعَادَ ظَلامَ الدُّجَى أبيَضَا
• فيوسُفُ شَيَّدَ مَغْنَى العُلَى   ويوسُفُ مبْنَى العِدَا قوَّضَا
أناصِرَ دينِ الهُدَى أشْبَهَتْ   عَزائِمُ منْكَ الظُّبَا في المَضَا
فَقُمْتَ بمَا قَعَدَ الدّهْرُ عَنْهُ   وداوَيْتَ بالجُودِ ما أمْرَضَا
تجودُ إذا ضَنَّ صَوْبُ الحَيَا   وتُقْبِلُ والدّهْرُ قَدْ أعْرَضَا
وتُقبِلُ عنَّا دَياجِي الخُطُوبِ   بنور هُدًى منكَ قدْ أعْرَضا(168)
وضَلَّتْ عُداتُكَ لمَّا غَدَا   بكَفِّكَ سَيْفُ الهُدَى مُنتضَى
فَتَرْجوكَ لِلسِّلْمِ أمْلاكُها   وتَخْشاكَ في الرَّوْعِ أسْدُ الغَضَى
لكَ الصدْقُ فادْعُ وَلِيَّ الهُدَى   إلَى ما ابْتَغَى وإلَى ما ارْتَضَى
وأعرِضْ عنِ الكفْرِ أوْ قُلْ لَهُ   أصَرَّحَ سَعْيُكَ أمْ عَرَّضَا
صِفاحِيَ لِلصَّفْحِ إرْجاؤُها   وَعَزمِيَ لِلبأسِ قدْ قُيِّضَا
وما لِحُلومِيَ أن تُسْتَخَفَّ   وما لِقَبولِيَ أنْ يُعْرِضَا
هوَ الحَقُّ مَوْلاَيَ فاصْدَعْ بهِ   مَرامًا تَسَنَّى وَحُكْمًا مَضَى - 76
وناصِرُهَا وابنُ أنصارِها   مَقامُكَ مُسْتَنْفِرًا مُنْهِضَا
فَما فَوَّقَ السَّهْمَ إلاّ رَمَى   ولاَ قَلَّدَ السَّيْفَ إلاّ نَضَى
لكَ انعَطفَتْ جَامِحاتُ الأمَاني   كَما تعْطِفُ السّابِقَ الرّيضَا
وادْرَاعُ حَرْبِكَ عَن نقْعِها   يَروقُ اجْتِلاءُ الوُجوهِ الوِضَا

(168) أعرض في البيت قبله ضد أقبل، أما اعرض في هذا البيت فهي بمعنى ظهر.

وَرِيـــحُ الصَّبَـــا نُشَرًا بيْنَهـــا ... تُثِيـــرُ جَداوِلَهـــا الفُـــيَّضَا
سَتُفْضِي إلَى الهُلْكِ أعْـداءُ مَـنْ ... إلَـــى رَبِّـــه أمْـــرَهُ فَـــوَّضَا[169]
نَبـــا سَيْفُهـــمْ وَكَبـــا طِرفُهُـــمْ ... ومَـــن لِلْمُقَيَّـــدِ أنْ يَنْـــهَضَا
فَهـــا أفْـــقُ أنجُمِهِـــمْ لانْـــقِضَاضٍ ... وَغايَـــةُ آمادِهِـــمْ لِانْـــقِضَا
ومَـــا قَـــدُّ ذابِلِهِـــمْ لِانْتِهـــاءٍ ... وَلاَ حَـــدُّ مُرْهَفِهِـــمْ لِانْـــتِضَا
لأعْجَزْتَ مـــن هُـــوَ آتٍ كَمـــا ... بعَـدْلِكَ أنسَيْتَ مَـا قَـدْ مَضَى
وَهُنِّـــئْتَ عِيـــدًا أتَـــى بالمُنَـــى ... دُيُـــونُ المَعالِـــي بِـــهِ تُقْـــتَضَى
ووَدَّعَ شهْـــرُ الصِّيَـــامِ الـــذي ... إلَـــيكَ المَـــوَدَّةَ قَـــدْ أمْـــحَضَا
ووَدَّ المُقـــامَ بمَثْـــوَى العُلَـــى ... كَمـــا شاءَ إخْـــلاصُهُ واقْـــتَضَى[170]
ولكِنَّـــــهُ عائِـــــدٌ عيـــــدُهُ ... بِمُقْتَبَـــلِ الـــنَّصْرِ لَمَّـــا انْـــقَضَى
بَقِـــيتَ لِأمْثالِـــهِ سَالِمًـــا ... وجَفْنُ الرَّدَى عنْكَ قَدْ أغْـمَضَا
أمَـــوْلايَ لِـــي أدبٌ روْضَةٌ ... نَـــداكَ مَتَـــى جـــادَهُ رَوَّضَا
مَعـــاذَ قِداحِـــي بِـــهِ أن تَخِيبَ ... وحـــاشَى عهـــودُكَ أن تُنْـــقَضَا
ومَا العَهْدُ إلاّ الذي لا انْتِقَـاضَ ... لِمَا أحْكَـمَتْ منْـهُ أيْدِي الـقَضَا
ولَـيْسَ جُنَـــاحٌ عَلَى الدَّهْـــرِ إذْ ... أبَـــى لِجَناحِـــيَ أنْ يُخْـــفَضَا
فإنِّـــي مَمْلُـــوكُكَ المُرْتَجِـــي ... نَـــداكَ المُؤَمِّـــلُ مِـــنكَ الـــرِّضَا
أأخْضَعُ يومًـــا وَمِنِّـــي لَـــدَى ... سواكَ الوسائِـــلُ لَـــن تُعْـــرِضَا
فَـدُمْ للزَّمـانِ الـذِي لا يُـرَى ... لِأيَّـــامِ مُلْـــكِكَ فِيـــهِ انـــقِضَا - 77 -

---

(169) أعداء من، كذا في الأصل، وفي مظهر النور الباصر : أعداء من، بخط الشاعر، وكتب فوق من كلمة مَوْلَى، وكأنَّهُ يقترح الثانية بدلا من الأولى.

(170) في الأصل : ووَدّع، وهو سبق قلم من الناسخ، وفي مظهر النور الباصر : ووَدّ

وَقُلْتُ مُهَنِّئاً المَقامَ العَلِيَّ اليُوسُفِيَّ أَسْماهُ اللهُ بأَضْحَى عامِ أَحَدَ عَشَرَ وَثَمانِي مائة المُتَقدِّمِ الذِّكْرِ(171)

أَثارَ هَواهَا نُزَّعًا تَشتَكِي الوجَا سَنا بارِق يهْدِي الرَّكائِبَ في الدُّجَا(172)
تأَلَّقَ خَفَّاق الجَناحِ كَأَنَّمَا غدا مُزْجِيًا رَكْبَ السَّحائِبِ مُزْعِجا
أنارَ وقدْ أخفَى الظَّلامُ سَبيلَها فأسْرَعَ لِلتَّأْوِيبِ مَنْ باتَ مُدْلِجَا(173)
تَقولُ حُداةُ العِيسِ إِذْ غالَها السُّرَى أَلَمْ يانِ لِلإِصْباحِ أَنْ يَتَبَلَّجا
أَلاَ يا خَليلَيَّ انزِلاَها مَعاهِدًا وَمُرَّا عَلَيْها بالرِّكابِ وعَرِّجَا
لَعَهْدِي بهَا والحَيُّ في عَرَصاتِها يُحَيَّا بمَا يُهْدِي جَنًى وتأَرُّجا
وَصَوْبُ الحَيَا حَلَّ الحُبَا فِي بِطاحِهَا فَلِلّهِ مَا أَبْهَى حُلاَهَا وأَبْهَجَا
كأَنَّ سَقيطَ الطَّلِّ منْ قُضْبِ دَوْحِها مُرَدَّدُ لَفْظٍ مِن لِسانٍ تَلَجْلَجَا
مَعاهِدُ لاَ تُخْفِي الصَّبابَةَ إذْ غَدَا نَسيمُ صَباهَا لِلْغَرامِ مهَيِّجَا
ولِلوَخْدِ طِرْفٌ ما كَفَفْنا جِماحَهُ فجالَ بِمَيْدانِ التَّصابِي وَهَمْلَجا(174)
ومائِلَةِ الأَعْطافِ لَمْ نَدْرِ قَبْلَها بأَنَّ شُموسَ الأُفْقِ يَحْلُلْنَ هَوْدَجا
هِيَ الشَّمْسُ يُسْتَجْلى سَناهَا وقدْ غَدا لَها البَدْرُ والجَوزاءُ قُرْطًا وَدُمْلُجا
فمَن لَمْ يُشاهِدْ وجْهَهَا وقَوامَها فَما البَدْرُ مُلْتاحًا ولاَ الغُصْنُ رَجْرَجا
ومَن هامَ بالحَسْناءِ مِن غَيْرِ حَيِّها فما القَدُّ مُرْتاحًا ولاَ اللَّحْظُ أَدْعَجا
ومَنْ أَمَّ بَحْرَ الجودِ وَالعِلْمِ لاَ يُرَى عَلَى غيْرِ مَولانا ابْن نصْرٍ معَرِّجا
هُوَ اليُوسُفِيُّ الناصِرُ المَلكُ الذي عَزائِمُهُ تُخْشَى وَرُحْماهُ تُرْتَجَى

---

(171) توجد هذه القصيدة أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 212 إلى ص 216. وهذا نص تقديمها هناك : «وقلت أهنئه أيّده الله في عيد الأضحى من عام أحد عشر وثماني مائة».

(172) نزّعًا أي إبلا غريبة، والوجا : الحفا ؛ وقوله : سنا بارق هو فاعل أثار.

(173) التأْويب : سير النهار كله، والإدْلاج سير الليل كله.

(174) هملجَ : سار سَيْرًا حسنًا.

هُوَ اليُوسُفيُّ العالِمُ العَلَمُ الـذي ... عوامِلُهُ شُهْبٌ مِن النَّقْعِ في دُجَى
ألاَ عَدِّ عَنْ ذِكْرِ القَياصِرَة الألَى ... لَديْهِ ودَعْ كِسْرَى المُلوكِ مُتَوَّجَا
فَهذا إمَـامٌ تابِـعٌ جَـدَّهُ الـذي ... غَدا سَيِّدَ الأنْصار أوْسًا وخَزْرَجَا
وهذَا الذي مازالَ في الأرْضِ أمْنُهُ ... عَلى الخلقِ ظِلاًّ في الهواجِرِ سَجْسَجَا[175] - 78 -
وهذا الذي مازالَ في اللّهِ سالِكًا ... سَبيلاً إلى النّصْرِ العَزيـزِ وَمَنْهَجَـا
شَمائِلُـهُ تحْكـي الشمائِـلَ رِقَّـةً ... وأمْداحُـهُ زَهْـرَ الرِّيـاضِ تَأرُّجَـا
رَجَوْنا بـهِ نيْـلَ المَكـارِمِ والعُلَـى ... فلمَّـا رأينـا وَجْهَـهُ صَدَقَ الرَّجَـا
فمِنْ عزْمَةٍ تكفي العِدَى وتكُفُّهـا ... ومِنْ جُودِ كَفٍّ لا تُخيِّبُ مَن رَجَا
إذا ماجَ بَحْرُ الرَّوْعِ خاضَتْ غِمارَهُ ... صَوافِنُهُ تَحْكِي السّفيـنَ المُلَجَّجَـا
ومَهْمَا دَجَا لَيْلُ العَجاجِ أراكَ مِنْ ... مُحَيَّـاهُ صُبْحًـا لِلهُـدَى مُتَبَلِّجَـا
وقد أسْمَعَتْ غرُّ الجيَـادِ صَهيلَهَـا ... ورَاقَتْ حَوالَيْهـا العَوالِـي تَوشُّجَـا
فتَحْسِبُ أن الحرْبَ أبْدَتْ حديقَةً ... بهَا القُضْبُ مُلْدًا والحَمائِمُ هُزَّجَا
أمَوْلاَيَ إنّ اللّهَ مـازالَ مُلْهِمًـا ... لأجْمَلِ صُنْعٍ جاءَ بالنّصْرِ مُلْهِجَا
تعوجُ الأعَادِي عَن لقائِكَ كُلّمَـا ... تُقوِّمُـهُ رُمْحًـا وتَعْلـوهُ أعْوَجَـا[176]
فأسْمَـرُكَ الخَطِّـيُّ يلتـاحُ نَصْلُـهُ ... شِهابَ هُدًى لَيْلَ العَجاجَة مُفْرِجَا
وكَـفُّكَ للعَافيـنَ تنـدَى غمامَـةً ... وسَيْفُكَ يُذْكِـي جَاحِمًـا مُتَأجِّجَـا
كَذلِكَ مِن شَأنِ الغَمامِ انسِكابُها ... إذا مـا تُـريكَ البـارِقَ المُتَوَهّجَـا
كَـأنَّ مُثارَ النَّقْعِ لَيْلٌ وَفَجْـرُهُ ... حُسامُكَ يَبْـدو خاضِبًـا مُتَضَرِّجَـا
كَـأنَّ ميادِيـنَ الطِّـراد صَحيفَـةٌ ... يُرِيكَ بها الخَطِّيُّ خَطًّا مُثَبَّجَـا[177]
ولكنَّـهُ معْنَـى سُعـودِكَ مُـوضِحٌ ... وُضوحَ النّجومِ الزُّهْرِ وَاللّيْلُ قدْ سَجَا

---

(175) ظلٌّ سجسج : لاحرٌّ ولا قرٌّ.

(176) أعوج : فرس مشهور تنسب إليه الخيل الأعوجية.

(177) التّثبيج : تعمية الخط، وخطٌّ مثبّج : غير بيّن.

لَكَ العَزْمُ إنْ أمْضَيْتَ أحْكامَهُ فَفي ... نُحُورِ عُداةِ الدّينِ قدْ أصْبَحَتْ شَجَا
لَكَ العِلْمُ يَهْدِي كُلَّ مَنْ ضَلَّ رُشدَهُ ... وعَاجَ عنِ النّهْجِ القَويمِ وَعَرَّجا
وقدْ عادَ عيدٌ كان منْ قبْلُ مُطْلِعًا ... مُحَيّاكَ وَضَّاحَ الأسِرَّةِ أبْلَجَا
فَلِلهِ يَوْمٌ قدْ أرانَا حَقيقَةً ... منَ الطَّلْعَةِ الغَرَّاءِ صُبْحًا تَبلَّجَا
مَدَدتَ لِتَقْبيلِ الخَلائِقِ راحَةً ... يفُوقُ نَدَاهَا الزَّاخِرَ المُتَمَوِّجَا
وهَلْ بَعْدَ أنْ قَبَّلْتُ كَفَّكَ آمِلاً ... أكونُ إلَى شَيْءٍ مِنَ الدَّهْرِ مُحْوَجا
رَدَدتَ سِهامَ الدَّهْرِ حَتَّى تَقصَّدَتْ ... وقَدْ كان بَابُ القَصْدِ دونِي مُرْتَجا - 79 -
فدُونَكَ يا مَوْلَى الوَرَى مِن مَدَائِحِي ... ثَناءً كَأزْهارِ الرِّياضِ مُؤَرَّجا
أتَيْتُ بهَا كالزُّهْرِ وَالزَّهْرِ في الرُّبَى ... فَراقَتْ ورَقَّتْ بَهْجَةً وتَأرُّجَا
حَياءً مِن التَّقْصيرِ بالطِّرْسِ حُجِّبَتْ ... عَلَى أنّها حَسْناءُ تُبْدِي التَّبَرُّجَا
فَهُنِّئْتَهُ عِيدًا كَريمًا وَمَوسِمًا ... جَميلَ المُحَيَّا رائِقَ الحُسْنِ مُبْهِجَا
وَبُلِّغْتَ ما تَرْجوهُ بَدْءًا وَعَودَةً ... ولاَزِلْتَ في الأمْلاكِ أكْرَمَ مُرْتَجَى

وَقُلْتُ أهنِّئُهُ أيَّدَهُ اللهُ ونَصَرَهُ بِعيدِ الفِطْرِ عامَ اثنَيْ عَشَرَ وثَماني مِائَة وقدْ وَصَلَ السَّيِّدُ الأميرُ أبو الحَسَن شَقيقُ مَوْلانا أيَّدَهُ اللهُ بالجَيْشِ منْ غَزْوَةِ شُقورَه(178)

مَوْلايَ بُشْرَى بالزّمانِ المُقْبِلِ ... وبِما جَلاَ مِن وجْهِهِ المُتَهَلِّلِ
زَمَنٌ لِبُشْرَاهُ وَرائِق بِشرِهِ ... يَرْتاحُ كُلُّ مُكَبِّرٍ وَمُهَلِّلِ
زَمَنٌ جَلا وَجْهَ الفُتوحِ كأنّهُ ... شَمْسُ الظَّهيرَةِ قَدْ بَدَت لِلْمُجْتَلي
وافَى مِن الفَتحِ المُبينِ بكُلِّ مَا ... بَهَرَ العُقولَ ولَمْ يَدَعْ مِن مَعْقِلِ
تَرْتاحُ أعْلامُ الجِهَادِ خَوافِقًا ... تَهْفُو بهَا رِيحُ الصَّبا والشَّمْأَلِ

(178) شقورة Segura كانت تقع في الحدود الشمالية لمملكة غرناطة.

هَذا الجِهادُ وإنّ مِثْلَكَ يَقْتَدِي ... فيهِ بآثارِ النّبيّ المُرْسَلِ
هذا الهُدَى قدْ لاحَ نورُ صَباحِهِ ... يَهْدِي سَبيلَ الرُّشْدِ كُلَّ مُضَلَّلِ
هذِي الفُتوحُ تَجِلُّ عنْ إخْفائِهَا ... فالحالُ ناطِقَةٌ بشَرْحِ المُجْمَلِ
وَافَتْكَ خافِضَةً لديْكَ جناحَها ... وعِمادُ مُلْكِكَ يَسْتَقِلُّ ويَعْتَلِي
فانْهَضْ لِمَا قَدْ شِئتَ غيْرَ مُدافَعٍ ... تَفْتَحْ بسَعْدِكَ كُلَّ بابٍ مقْفَلِ
حلَّ العُداةُ بمَأْمَنٍ أجْهدتَهُمْ ... فيهِ بيُمْنِ جِهادِكَ المُتَقَبَّلِ
للهِ منْكَ مناقِبٌ بصِفاتِها ... طاوَلْتَ أمْلاكَ الزّمانِ الأوَّلِ
للهِ مِنْكَ مكارِمٌ ومَآثِرٌ ... مَن للرّشيدِ بها وَلِلمُتوكِّلِ[179]
وجْهٌ إذا لاحَتْ أشِعَّةُ نورِهِ ... يُجْلَى الدُّجَى بصباحِهَا المُتَهلِّلِ
كَفٌّ تَعُمُّ القاصِدينَ هِباتُها ... فتكُفُّ غائِلَةَ الزّمانِ المُمْحِلِ
تُنْضِي حُسامَكَ في الوَغَى فَتَخالُهُ ... نهْرًا بدَوْحِ لِلْقَنا مُتَهَدِّلِ
وتَهُزُّ ذابِلَكَ المُقَوَّمَ وهْوَ في ... لَيْلِ العَجاجَةِ كالشِّهابِ المُشْعَلِ
فلأنتَ منْصُورٌ وسَيْفُكَ قاهِرٌ ... وحِماكَ مأمُونٌ وَقَدْرُكَ مُعْتَلي[180]
شِيَمٌ لأنْصارِ النّبيّ حَديثُها ... يَرْويهِ مِنْكُمْ آخِرٌ عنْ أوَّلِ
ولأهْلِ أندلُسٍ بِكَ النّصْرُ الذي ... وَرَدُوا بهِ لِلفَتْحِ أعْذَبَ مَنْهَلِ
من مِثْلُ مَوْلانا الخليفَةِ يُوسُفٍ ... مَلِكٌ صِفاتُ كمالِهِ لمْ تجْهَلِ
مَلِكٌ يُقَسِّمُ حَرْبَهُ أوْ سَلْمَهُ ... بَيْنَ الكَتائِبِ والكِتابِ المُنزَلِ
ما جالَ في آفاقِها مُتَطَلِّعًا ... إلاّ وَحَلَّ كُلَّ خَطْبٍ مُعْضِلِ
يا ناصِرَ الدّينِ الّذي بوُجودِهِ ... نادَى الهُدَى بُشْرَى لِكُلّ مُؤَمِّلِ
أرْسَلْتَ في الآفاقِ ديمَةَ رحْمَةٍ ... نِعَمِ الوجُودُ بجَوْدِها المُسْتَرْسِلِ
ورَفَعْتَ قَدْرَ أخيكَ تاليكَ الرّضَى ... قُطْبِ الرّحَى الأهْدَى أبي حَسَنٍ عَلِي[181]

---

(179) الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس.

(180) يُوَرّي بأسماء الخلفاء المذكورين.

(181) سقطت كلمة «الرحى» من الأصل.

اتْبَعْتهُ مـنْ جُنْـدِ نَصْرِكَ مـا بـه   أوْهَـنـتَ كَيْـدَ الكَافِـرِ المُتَحَيِّـلِ
فَـرَعَتْ ثَنايَـا المُعْتَديـنَ كُماتُـهُ   بِعَزائـمٍ تَـمضِي مَضاءَ المُـنصُلِ
وبكَ اهْتَدى في الحَرْبِ لمَّا أن بدَا   والدِّيـنُ قـدْ آوَى لأمْنَـعِ مَوْئِـلِ
وبكَ اقْتَدَى في الرَّوْعِ لمَّا حَلَّ مِن   صَدْرِ الكَتيبَـةِ في الرَّعِيـلِ الأوَّلِ
لَمّا الْتَقَى الجَمْعان في أرْضِ العِدَى   ورمَيْتَ جمْعَهُـمُ بِبـأسٍ مُعْجِـلِ
نادَى بأبْطالِ الجِهـادِ ألاَ اقدُمُـوا   وأجـالَ فيهِـمْ نَظْـرةَ المُتأمِّـلِ
فتسارَعُـوا إلى دَاعِـي الهُـدَى   والرُّومُ عن سُبُلِ النَّجاةِ بِمَعْـزِلِ
ضاقَتْ عَليْهِـمْ أرْضُهُـمْ فَتوقَّفُـوا   والمَاءُ يجْمَعُ نفسَهُ في الجَـدْوَلِ
وتجَمَّعَتْ فِرَقُ العِدا ثـمَّ انثَـنَتْ   مـا بَيْنَ مُنْهَزِمٍ وبَيْـنَ مُجَـدَّلِ
شالَتْ نَعامَتُهُـمْ سَرِيعًـا بَعْدَمـا   وقَفوا وُقوفَ الخاضِعِ المُتَذَلِّـلِ[182]
وتَسَلَّلوا طَوْعَ الفرَارِ وَجَمْعُهُـمْ   قَـدْ رِيعَ بَيْـنَ مُذَلَّـلٍ وَمُضَلَّـلِ - 81 -
وأتَى وقدْ نالَ الـذي قـدْ شاءَهُ   مِن مَقْصَدٍ أسْنَى وَصُنْعٍ أجْمَـلِ
فاهْنأْ بمَقْدَمِـهِ الـرِّضَى وَحُلولِـهِ   مِـن دارِكَ العُلْيَا بـأشْرَفِ مَنـزِلِ
واهْنأْ بأسْعَدِ مَوْسِمٍ وانْعَـمْ بِـهِ   فَـوُرُودُهُ يـقْضِي بنَيْـلِ المَأْمَـلِ
وإلَيْكَها يا خَيْرَ مَن وَثِقتْ يَدي   مِنْـهُ بأكْـرَمِ واهِبٍ مُتَـفَضِّلِ
وبِملْكِ رِقّي أيُّها المَلِكُ الـرِّضَى   لَكَ لا بمَا أُبْدِي لَديْكَ تَـوَسُّلي
لازِلتَ مَـنْصورَ اللِّـواءِ مُؤَيَّـدَا   تَكْفِي العِدَى في الحالِ والمسْتَقْبَلِ

وقُلْتُ أُهَنِّئُهُ أيَّدهُ الله ونَصرَهُ وأعْلَى مُلْكَهُ
وأظْهَره بأضْحَى عَامِ اثْنَي عَشرَ وثمَاني مِائة

هوَ الهَدْيُ يُرْوَى إذْ تَجَلَّى فَحَيَّاكَا   عنِ البدْرِ عنْ شَمْسِ الضُّحَى عَن مُحَيَّاكَا

(182) شالت نعامتهم : كناية عن هزيمتهم.

وهذا حَديثُ الجودِ قَدْ صحَّ مسْنَـدًا عنِ البَحْرِ عَن سُحْبِ الحَيا عَن عَطاياكَا[183] - 82 -

وَقُلْتُ مهَنِّئًا بِعِيدِ الفِطْرِ عَامَ ثَلاثَةَ عَشَرَ وثمَاني مِائَةَ وَقَدْ احْتَل رِكابُهُ العَلِيِّ بمَالَقَةَ ووَجَّه السُّلْطانَ السَّعيدَ مِنْها إلى بِلادِ المغرِبِ في السَّابِعَ عَشَر لرَمضان قَبلَهُ بمَا نَصُّهُ

هَنيئًا فقَـدْ وافَتْ إلَيْكَ البشائِـرُ وعَـزَّتْ لأنصارِ النَّبــيِّ عَشائِــرُ
عَلَتْ بكَ للدّينِ الحَنيفِ وأهْلِـهِ مَـراقِبُ في أفْـقِ العُلَـى ومَظاهِـرُ
لكَ الطَّلْعَةُ الغَرَّاءُ والشّيمَـةُ التـي بهَا المُلْكُ زاهٍ رائِقُ الوَصْفِ زاهِرُ
فَجودُكَ عنْ صَوْبِ الغمامَةِ واكِفٌ ووَجْهُكَ عَن نور الهِدايَـةِ سَافِـرُ
تَرومُ مُلوكُ الأرْضِ شَأوَكَ في العُلَى وكُلٌّ عَنِ القصْدِ المُؤَمَّل قـاصِرُ
لَئِنْ عَظُمَتْ أقْدارُها في العُلَى فَما تُـوازِيكَ في العَلْيـاءِ لَكـن تـوازِرُ
ولمَّا رأيْتَ الغرْبَ قَدْ فُلّ غَرْبُـهُ وأقْفَرَ مِن رَبْعِ الخِلافَـةِ عامِـرُ[184]
وقـامَ ولــيُّ الكافِريــنَ بعِبْئِهـــا فكَمْ مُسْلِمٍ قد ذَلَّ واعْتَزَّ كافِرُ[185]
تَدارَكْتَهـا بابْـنِ الخَلائِـفِ مُنْعِمًـــا وسَيْبُكَ مبْـذولٌ وسيْـفُكَ قاهِـرُ[186]
ومَاهِـيَ إلاَّ غــادَةٌ طالَمـــا دَعَتْ إمَامًا لهُ حِلمٌ عَن البَغْـي زاجِـرُ
ثَناهُ وفاءُ العَهْدِ عَنْها فلَمْ يَـزَلْ يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِها وهْوَ قــادِرُ[187]
إلَى أنْ شكَتْ ما نالَها وتَظَلَّمَتْ لَديْكَ وَقَدْ دارَتْ عَلَيْهـا الدوائِـرُ

(183) بعد هذا بياض في الأصل مقداره صفحتان، وفي الطرة كتب الناسخ ما يلي : «كذا وجدت البياض في الأصل المنتسخ منه».

(184) الغرب : المغرب

(185) يعني السلطان أبا سعيد عثمان.

(186) يعنى بابن الخلائف السعيد.

(187) الشطر الثاني للمتبي ضمّنه الشاعر

فأوْلَيْتَ من نُعْماكَ ما قدْ تَسَحَّبَتْ ... عَلَى ظَمإٍ فيه السَّحابُ المَواطِرُ
وجَهَّزْتَ لِلنَّصْرِ العَزيزِ كَتائِبًا ... تُسارِعُ نحْوَ المُلْتَقى وَ تُبادِرُ - 84 -
يطولُ سُجودُ المُعْتَدينَ لهَا وَلا ... مَحارِبَ إلاَّ ما أرَتْهَا الحَوافِرُ
وَلِلهِ كَمْ رامٍ لَديْهَا نِصالُهُ ... كَواكِبُ أُفْقٍ والقَتامُ دَياجِرُ
سِهامُ قِسِيٍّ كالأهِلَّةِ تَرْتَمِي ... لِرَجْمِ العِدَى مِنْها نجومٌ زَواهِرُ
وأرْسَلْتَ في البَحْرِ الأساطيلَ نُزَّعًا ... تُراوِحُ أقْطارَ العِدَى وتُباكِرُ
يُراوِغُ بعْضٌ بَعْضَها مُتَلاعِبًا ... كَما لَعِبَتْ وَسْطَ الفَلاةِ جآذِرُ
وقَدْ جَلَّلُوهَا بالسَّوادِ كأنَّمَا ... مَجادِفُها هُدْبٌ وَهُنَّ نَواظِرُ
ويَطْفو حَبَابُ المَاءِ في جَنَباتِها ... كَما فتحَتْ وَسْطَ الرِّياضِ الأزاهِرُ
فَللهِ منهَا مُنْشآتٌ إذا رَسَتْ ... لهَا فَلَكٌ بالسَّعْدِ واليُمْنِ دائِرُ
وانْ هِيَ سارَتْ فهْيَ وقْفٌ عَلَى الهُدى ... تَدافِعُ عَنْ أحْزابِهِ وَتُصادِرُ
طِوالٌ عَلَى المَبْنَى الرَّفيعِ قَصرتَهَا ... فَكانَتْ كَغيدٍ قدْ حَوتْها المَقاصِرُ
إلى أنْ دَعا داعِي العزائِمِ بَعْدَما ... تَعيَّنَ مَشْروعٌ وبانَتْ مَعاذِرُ
جَلَوْتَ لِأهْلِ الأرْضِ مِنْها عَجائِبًا ... لهَا مَثَلٌ في الغَرْبِ والشَّرْقِ سَائِرُ
وقدْ حمَلَتْ مِن كلِّ أرْوَعَ باسِلٍ ... نَمَتْهُ إلى العَلْيَاءِ صِيدٌ أكابِرُ
دَرِيٍّ بِغاراتِ الحُروبِ مُثاقِفٌ ... عَلِيمٌ بأسْرارِ الخِلافَةِ مَاهِرُ
يَقومُ بأعْباءِ السُّرى وهْوَ قاعِدٌ ... يُقِيمُ صَغْا الهَيْجاءِ وهْوَ مُسافِرُ
يُغادِي العِدَى في مُلْتَقَى الحَرْبِ بالتي ... إذا دَهِمَتْ ما مِنْهُمُ مَن تُغادِرُ
ألَمْ يَعْلَموا أنَّ الخليفَةَ يُوسُفًا ... مَناقِبُهُ شُهْبَ السَّماءِ تُكاثِرُ
ألَمْ يَعْلَموا أنَّ ابْنَ نصْرٍ حُسامُهُ ... عن الرَّوْعِ لاَ وانٍ ولاَ مُتَقاصِرُ
إذا حارَبَ ارْتاعَتْ لِذابِلِه العِدَى ... وإنْ سالَمَ ارْتاحَتْ إليْهِ المَنابِرُ
لِناصِرِ دينِ اللّهِ عَزَّ جَنابُهُ ... تُخَلَّدُ آثارٌ وتُتْلَى مَآثِرُ
عَلَى الفَوْزِ بالحُسْنَى مُعينٌ ومُنْجِدٌ ... وَللدِّينِ والدُّنْيا وَلِيٌّ وَناصِرُ

إلا إنّ مُلْكَ الغَرْبِ لم يُلْفَ بَعْدَها … بِشاكٍ ولكِن للِصَّنيعَةِ شاكِرُ
بعِزّكَ قد أضْحَى السَّعيدُ ممَلَّكَا … لهُ النَّصْرُ خِدْنٌ والنَّجاحُ مُوازِرُ - 85 -
وكانتْ نفوسُ الخَلْقِ تَرْتاحُ نحْوَهُ … ولـلشَّوْقِ ناهٍ في القلوبِ وآمِرُ
ونادَتْ مَرينٌ في أقاصِي بِلادِهَا … ألاَ سارِعُوا نحْوَ المَعالِي وبادِرُوا
ألاَ إنّها أسْرارُ غَيْبٍ تحجَّبَتْ … تُقصِّرُ عَنْ إدْرَاكِهِنَّ الضّمائِرُ
أبَى الله ألاّ أن يَكُفَّ العِدَى وَهَلْ … يُغادَرُ في المُلْكِ المُهَنَّإِ غادِرُ
وما الغَدْرُ الاّ خُطَّةٌ ذَلّ رَبُّهَا … كَفَى بأَمينِ المُلْكِ أنْ عَزَّ طاهِرُ(188م)
وإنَّ وَلِيَّ الغَدْرِ في كَلِّ حالَةٍ … عَنِ الرُّشْدِ ساهٍ أو منَ الرَّوْعِ ساهِرُ
هُوَ الدهْرُ أبْدَى ذُلَّهُ بَعْدَ عِزِّهِ … وأظْهَرَ ما أخْفَتْهُ مِنْهُ السَّرائِرُ
وأوْرَدَ آراءَ النَّجاحِ بِزَعْمِهِ … مَوارِدَها لوْ أمْكَنَتْهُ المَصادِرُ
وَهَلْ تَنفَعُ الأبصار إن لمْ يَبِنْ لهَا … مِنَ الرشْدِ ما تُهْدِي إلَيْها البصائِرُ
وهَل دانَ بالتّوْحيدِ مَن كان دائِمًا … يُوالِي مُوالِي شِرْكِهِ ويُظاهِرُ
فهُنِّئتَهُ صُنْعًا جميلاً خَطيرُهُ … يَرُدُّ الذي والَى العِدَى وهْوَ صاغِرُ
وهُنِّئْتَ يا مَوْلَى الخَلائِفِ مَوْسِمًا … أتَى مِنْهُ بالبُشْرَى لبابِكَ زائِرُ
تَرحَّلَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكرَمَ ظاعِنٍ … بمَا قُمْتَهُ منْ حقِّه لكَ شاكِرُ
وأقْبَلَ عيدُ الفِطْرِ أشْرَفَ قادِمٍ … يُوالِي حَثِيثًا سَيْرَهُ ويُبَادِرُ
لِمالَقَةٍ جَدَّدْتَ عَهْدًا حَميدُهُ … مَدَى الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى ولاَ هُوَ داثِرُ
حَلَلْتَ بِمَغْناهَا وَسَعْدُكَ واضِحٌ … وحِزْبُكَ منْصُورٌ وجُنْدُكَ ظافِرُ
وأوْحَشْتَ من دارِ الخِلافَةِ مَنْزِلاً … حَديثُ عُلاهُ شائِعٌ مُتَواتِرُ
سَتَرْجِعُ والصُّنْعُ الجَميلُ مُحالِفٌ … وَمُلْكُكَ لِلأمْلاكِ ناهٍ وَآمِرُ
وتَبْقَى عَلَى مَرّ الجَديدَيْنِ ناصِرًا … وَسَعْدُكَ فيهِمْ مالَهُ الدَّهْرَ آخِرُ(189)
أمَولاَيَ خذْها كالحَديقَةِ كُلّما … يهِبُّ نسيمٌ من ثَنائِكَ عَاطِرُ

(188م) يقصد طاهر بن الحسين الذي قتل الأمين ومهّد الخلافة للمامون.

(189) وسعدك، كتب فوقه : وجَدّك، أي أنّهما روايتان.

وأُهْدِي لبَحْرِ الجُـودِ منها قلائِـدًا ... وَمنْ عَجَبٍ للبحْرِ تُهْدَى الجَواهرُ
إذا اللَّهُ قد أثنى عَلَيْكَ فما الذي ... يقــولُ بَليــغٌ أَوْ يُنَظِّــمُ شَاعِــرُ

- 86 - وقُلْتُ أُهَنِّىءُ مَقامَهُ الكَريمَ أسماهُ اللهُ بعِيدِ الأضْحَى مِنْ عَامِ ثَلاثَةَ عَشر وَثماني مِائَة، بالمحَلةِ مَنَ ظاهِرِ جبَلِ الفَتحِ عَصَمَهُ اللهُ عنْدَ مُحاصَرَتِهِ والأخْذِ بِمُخنَّقِهِ برًّا وبَحْرًا والتَّضْييق عَلى المَحَلةِ الغَربيَّةِ النَّازِلَةِ بإزائِه مَعَ الرَّئيسِ البَائِسِ المُحكَّم فيه سَيْفُهُ اليُوسُفِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ وقدْ فَرَّ إليْه بَعْضُ الغَادِرِينَ المَارقِينَ مُرُوقَ السَّهْمِ عَنِ الدّينِ[190]

لكَ الهَدْيُ تجْلُوهُ الْعَزائِمُ مشْرِقَـا ... فتَعْنو لهُ الأمـلاكُ غَرْبًا وَمَشْرِقَـا
تلوحُ ومِن مَرْعاكَ شَمْسُ هِدايَـةٍ ... أنَـارَ بأُفْـقِ المَعْلُـواتِ وأشْرَقَـا
جَلَوْتَ مِنَ الآياتِ مَا كانَ مُبْهَمًا ... وفتَحْتَ لِلحاجاتِ ما كانَ مُغْلَقَا
فجودٌ كَما أخْبرْتَ عَن واكِفِ الحَيَا ... وعَزْمٌ كَما حُدِّثْتَ عنْ أسَدِ اللّقَا
ومَن مِثْلُ مَولانا الخليفَـةِ يُـوسُفٍ ... عُلًى وحُلًى يا مَا أبَرَّ وأشْفَقَـا
إمـامٌ حَبَـاهُ اللهُ بالمُـلْكِ بَعْدَمـا ... تَخَيَّرَهُ مِن دَوْحَة النّصْرِ وانْتَقَـى
له الحَزْمُ وَالإقْدامُ والشِّيَـمُ العُلَـى ... وبَذْلُ النَّدَى والحِلْمُ والعِلْمُ والتُّقَى
لَـهُ عَزْمَـةٌ تُدْنِي القَصِيَّ وَهِمَّـةٌ ... تَناهَتْ إلى أعْلَى الكَواكِبِ مُرْتَقَى
فَيَجلُو خُطوبَ الدَّهْرِ نَيِّرُ عَزْمِـهِ ... كَما صَدَعَ الظَّلْمـاءَ بَـرْقٌ تَألَّقَـا
مُحَيَّـاهُ يحْكِـي البَـدْرَ لَيْلَةَ تَمِّـهِ ... ويُمْنـاهُ تحْكِـي العـارِضَ المتَدَفِّقَـا
فإن مَطَـلَ الإصْباحُ حَيًّا جَبينُـهُ ... وإنْ اخْلَفَتْ سُحْبُ الحَيَا جودُهُ سَقَى
حيَاةُ من اسْتَجْدَى وهُلْكُ مَنِ اعْتَدَى ... وأمْنُ مَنِ اسْتَعْدَى وَفوْزُ مَنِ اتَّقَى
غَدا فألْقَى قَبْلَ اللّقَا صُبْحَ عزْمِهِ ... وأقْدَمَ قَبْلَ الجَيْشِ لِلرعْبِ فَيْلَقَـا

(190) المحلة الغربية : يعني بها الجيش المغربي.

وإنْ وَعَدَ الوَعْدَ الجميلَ رَأيْتَهُ ... عَلَيْنَا وفينَا صادِقًا مُتَصَدِّقَا
أمَوْلَى الوَرَى لِلهِ سَيْفُكَ كُلَّمَا ... يُفَرِّقُ مِنْ جَمْعِ العِدَى ما بِهِ التَقَى
بِهِمْ بحُبِّ الهَامِ والحِلْمُ عاذِلٌ ... وبالعَذْلِ لاَ يَزْدادُ إلاّ تَعَشُّقَا
وأحْلَلْتَ جُنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَ طَارِقٍ ... فَطَأْطَأَ منهُ الكُفْرُ راسًا وأطْرَقَا - 87 -
وقَدْ كَفَرَتْ نُعْماكَ فِيهِ عِصابَةٌ ... فأرْعَدَ شَيْطانُ الضَّلالِ وأبْرَقَا
ومازِلتَ مَوْلًى مُنْعِمًا مُتَفَضِّلاً ... عَطوفًا رَحيمًا بالخَلائِقِ مُشْفِقَا
ومَازِلتَ في الأمْلاكِ أعْظَمَ قادِرٍ ... يُرَى مُعْتِبًا أهْلَ الجِناياتِ مُعْتِقَا
فَيا مَجْمَعَ البَحْرَينِ أهْوِنْ بمَنْ أتَى ... يَرومُ لِشَمْلِ الدّينِ فيكَ تَفَرُّقَا
توارَى وقَدْ حَفَّتْ بِهِ شيعَةُ الهُدَى ... وأضْحَى بِهِ جُنْدُ العَزائِمِ مُحْدِقَا
وَضَلَّ طَريقَ الرُّشْدِ لاَ دَرَّ دَرُّهُ ... فلَمْ يُلْفَ إلاّ ساهِرَ الجَفْنِ مُطْرِقَا
فَمِن فَرَقٍ عَنْ حَرْبِهِ كَفَّ إذْ رأى ... يَدَ اللَّهِ تَعْلو مِنهُ بالسَّيْفِ مَفْرِقَا
عَجِبْنا لِمَن ناواكَ يَبْغِي تَعَزُّزًا ... ولَمْ يُلْفَ مِن قَيْدِ المَذَلَّةِ مُطْلَقَا
أيامُلُ يَوْمًا في البِلادِ تَقَلُّبًا ... وقَدْ رُدَّ عَنْهَا عانِي القَلْبِ مُوثَقَا
وَهَلْ يَعْقِدُ الرَّاياتِ لِلنَّصْرِ غادِرٌ ... وَقَدْ حَلَّ عَهْدًا لِلْوَفاءِ ومَوْثِقَا
كأن بِلِسانِ الدَّهْرِ يُنْشِدُ مُفْصِحًا ... تَبَدَّدَ جَمْعُ المُعْتَدِي وتفَرَّقَا
ألاَ مَتِّعُوا الأحداقَ في الفِئَةِ التي ... أحاطَ بها رَيْبُ المَنونِ وأحْدَقَا
أتَى أوْلِياءُ المُلْكِ مِن كُلِّ جانِبٍ ... يَؤُمُّونَ غَيْثًا مِن نَوالِكَ مُغْدِقَا
وَجَدُّوا كمَا جَدَّ الكَمِيُّ لَدَى الوَغَى ... وقَدْ هَزَّ مَصْقولَ الغِرارَيْنِ أزْرَقَا
مَرِينٌ وتُجينٌ وكُلُّ مُجاهِدٍ ... مِن العُرْبِ إنْ يلْقَ العِدَى تُلْفِهَا لَقًا(191)
وكُلُّ شَرِيفِ المُنْتَمَى دَعَواتُهُ ... مِنَ اللَّهِ تُدْنِي حِينَ تَبْعُدُ مُرْتَقَى
ولِلهِ فُوَّادٌ لَدَيْكَ تَخالُهُمْ ... لَدَى الرَّوْعِ أسْبَى لِلْعُداةِ وأسْبَقَا
وإنْ خَذَلَتْ نُعْماكَ في القَوْمِ أسْرَةٌ ... فمَا أحْقَرَ المَسْعَى وأخْفَى وأخْفَقَا

(191) تجين : بنو تجين قبيل معروف. وَلَقًى أي ملقاة ومطروحة على الأرض.

لَكَ العِزُّ لا تحْفِلْ كَما شاءَتِ العُلَى ... بمَنْ دَحَضَتْ رِجْلاهُ فِي دَرْكِ الشَّقَا
ولاَ مِثْلَ من أرْسَلْتَ والنّصْرُ خِدْنُهُ ... وَرقّيْتَـهُ أوْجَ الخِلافَـةِ فارْتَقَـى
وأحْلَلْتَهُ مِـنْ مَنْـزِلِ العِزِّ والعُلَـى ... جَنابًا مَريعًا مُعْجِبَ الحسْنِ رَيِّقَـا
نَضَيْتَ عَلى الأعْداءِ منْـهُ مُشَهَّـرًا ... وأرْسَلْتَ مِن نجْلَيْهِ سَهْمَيْنِ فُوِّقَا(191م)
فَلاَ أنْجحَ الرَّحْمانُ مسْعَى مُعانِدٍ ... إذا أخفقَتْ أعلامُ نَصْرِكَ أخْفَقَـا - 88 -
ولا فَلَّ سَيْفًا قَدْ سَلَلْتَ مُشَهَّرًا ... ولاَ ردّ سَهْمًا قَدْ رَمَيْتَ مُفوَّفَا
تَلاَفَيْتَ مُلْكَ الغَربِ إذْ فُلَّ غَرْبُهُ ... وجَدَّدتَهُ مِـن بَعْدِمَا كانَ أخْلَقَـا
وجَرَّدتَهـا مِـلْءَ العُيـونِ سَوانحًـا ... تُباهِي بِها زُهْرَ الكَـواكِبِ سُبَّقَـا
وأرْسَلْتَها طَوْعَ الفُتـوحِ سوابحًـا ... كَرَكْبِ السُّرَى يُبْدِي جِيادًا وأيْنُقَا
يَفِرُّ لَدَيْها المَاءُ فِي حالِ جَرْيِـهِ ... وقَـدْ منَـعَ المِقْـدارُ أن يَتفرَّقَـا
وتَجْذُبُ أيْدِي القَوْمِ مِنْها مَجاذِفًا ... كَما جَذَبَتْ رِيحُ الصَّبا غُصُنَ النَّقَا
وكم من شِراعٍ ظَلّلَ الأُسْدَ فانْثَنَى ... سَحابًا وغابًا كُلما انحطَّ وارْتَقَـى
تَرى الجَفْنَ مِنها يَنْثَني بَعْدَ سَيْرِهِ ... كَما التَفَـتَ الحادِي هَوًى وتَشَوُّقَا
فَتَحْسِبُهُ فِي مَهْمَـهٍ ظَبـيَ مَكْـنِسٍ ... تَولّـى نُفـورًا ثـمَّ أصْغَـى مُحَدِّقَـا
وهَذا كِتابُ الفَتْحِ وافَاكَ للـذِي ... لَدَيْكَ مِن الصُّنْعِ الجَميلِ مُصَدِّقَا
أتاكَ مَن البُشْرَى بأصْدَقَ حُجَّـةً ... وأعْـجَبَ إخبَـارًا وأعْـذَبَ مَنطِقَـا
تَحمَّلَ مِنْها الرَّكْبُ أكْرَمَ شيمَـةٍ ... فـأشْأمَ بالذّكْـرِ الجَميـلِ وأعْرَقَـا
وقد أقْبَلَ الأضحَى فَوَفّيْتَ حَقّـهُ ... وإن كانَ رَبْعُ المُلْكِ أبْعَدَ مُلْتَقَى
سَتَرْجِعُ مامُونًا وقدْ جِئْتَ نـاصِرًا ... تُواخِـذُ مـنْصورًا وتَعْفـو مُوَفّقَـا
ودُونَكَ يَـا مَـوْلاَيَ دُرًّا مُـفَصَّلاً ... قَدِ احْتَلّ مِنْ جَدْوَاكَ بَحْرًا تَدَفّقَا
أغوصُ عَلَيْـهِ للمَدائِـحِ فِـيكَ لاَ ... لِيُنظَـمَ فِي مَثْنَـى العُقـودِ ويُنْسَقَـا
أُحِبُّ مِنَ الأمْداحِ ما فيكَ نَظْمُهُ ... وما البِرُّ إلاّ أنْ أرَى مِنْهُ مُنْفِقَا
سَقَيتَ رُبَى فِكْرِي وأذْكَيْتَ نَارَهُ ... فَزَنْدِي قَدْ أوْرَى ورَوضِيَ أوْرَقَـا

(191م) يتحدّث في هذه الأبيات عن «السّعيد وولديه عامر والمسعود».

وَهَبْتَ وقدْ رَفَّعْتَ عبْدَكَ مُنْعِمًا فَرُحْمَاكَ فينَا منْفِقًا أوْ مُنَفِّقَا
إذا أنتَ بالإصْغاءِ قابَلْت مِدْحَتِي فمِثْلُكَ مَن رقّى وَمِثْلِي مَن رَقَا
وهَيْهاتَ لِلأيَّامِ أخْضَعُ بَعْدَمَا تَفَيَّأْتُهُ دَوْحًا مِن العِزّ مُونِقَا
بَقيتَ لدينِ اللهِ تُعْلِي جَنابَهُ وَهُنِّئْتَهَا بُشْرَى ودامَ لكَ البَقَا

- 89 -

وأنْشَدتُهُ أيّدهُ اللهُ
بالقبّةِ مِنَ المشْوَر السَّعيد في عيد الفِطْرِ عَام أربَعَةَ عَشَرَ وَثَماني مِائة وهي أوّل عِيديَّةٍ أنْشَدْتُهَا بِلَفْظِي بَيْنَ يَديْهِ بَعْدَ وِلاَيَتِي كِتابَةَ سِرِّهِ شَكَرَ اللهُ انعامَه، وأدامَ أيّامَه

مُحَيّاكَ يَهْدِي فَجْرُهُ المُتَوَضِّحُ فَمَرْآهُ لِلأَبْصارِ مَرْقًى ومَطْمَحُ
وكَفُّكَ تَسْتَجْدِي العُفَاةُ سَحابَهَا فَتُخْجِلُ صَوْبَ الغادِياتِ وتَفْضَحُ
إذا ما غَمامٌ سارَ أوْ عَلَمٌ رَسَا فَمِنْكَ النّدَى والحِلْمُ أرْجَى وأرْجَحُ
وإنْ صابَ غَيثٌ أوْ تَطلَّعَ نَيِّرٌ فَقَدْرُكَ أسْمَى أوْ عَطاياكَ أسْمَحُ
خلائِقُ مَا رَوْضُ المَكارِمِ عِنْدَها هَشيمٌ وَلا مَرْعَى الأمَاني مُصَوِّحُ
عَوالِيكَ في الهَيْجاءِ تَهْوِي كأنَّها كَواكِبُ في لَيْلٍ من النّقْعِ جُنَّحُ
أشِعَّتُها في مُلْتَقَى الحَرْبِ أنجُمٌ بلَيْلِ عَجاجٍ عَن مُحَيّاكَ يُصْبِحُ
إذا ما انجَلَى النقْعُ المُثارُ حَسِبْتَها أزاهِرَ في خُضْرِ الرُّبَى تَتَفَتَّحُ
تَهُبُّ رِياحُ النَّصْرِ والحَرْبُ تَلْتَظِي فَتَنفَحُ هَاذِي حَيْثُ هاتيكَ تَلْفَحُ
تَمُرُّ بَرَبْعِ الشِّرْكِ غَيْرَ لَواقِحٍ فَتَسْفِي ثَراهُ والعَوامِلُ تَسْفَحُ
كأنِّي بمَغناهُ وكُلُّ مُوَحِّدٍ يُهَلِّلُ في أرْجائِهِ وَيُسَبِّحُ
وهامُ العِدَى تَعْلُو النَّجيعَ كأنّها حَبابٌ بِمَتْنِ اللُّجِ يَطفُو وَيَطفَحُ
عَنِ النّاصِرِ المَوْلَى الخَليفَةِ يُوسُفٍ تُرَوَّى احَاديثُ العُلَى وتُصَحَّحُ

شَمائِلُهُ كالرَّوْضِ هَبَّتْ شَمالُهُ ... فأزْهارُهُ غِبَّ الغَمائِمِ تَنْفَحُ
إذا جادَ أُفْقٌ فهْوَ أنْدَى سَجِيّةً ... وان لاَحَ صُبْحٌ فهْوَ أجْلَى وأوْضَحُ
وتَجْمَعُ بيْنَ السّيْفِ وَالسَّيْبِ كَفُّهُ ... فتَمْنَعُ عنْ أقصَى البِلادِ وتمْنَحُ
يُناجيهِ عِنْدَ المنْعِ بالمَنْحِ جُودُهُ ... فيسمَعُ ما تُلْقِي عُلاهُ وَيَسْمَحُ
تَرَى الخَطّ والخَطِّيَّ طَوْعَ يَمينِهِ ... أزاهِرَ دَوْحٍ قُضْبُهُ تتَرَنَّحُ
ألاَ أنهُ مَولَى الخَلائِفِ يوسُفٌ ... إمَامُ الهُدَى الفَذُّ الأغَرُّ المُمَدَّحُ
إمَامٌ يفوقُ الدَّهْرَ صَرْفًا عَلَى العِدَى ... ويَعْفو عَن الذنْبِ العَظيمِ وَيَصْفَحُ
أقَرَّ لَهُ بالفَضلِ كُلُّ معانِدٍ ... فَقَرَّتْ عُيونُ المُومِنينَ وأفْلَحُوا
نَظَرتَ لِمُلْكِ الغَرْبِ يا مَلِكَ الهُدَى ... بمَا الرَّأْيُ أنْجَى فيهِ والقَصْدُ أنجَحُ
وأضْمَرْتَ طَوْعَ الحِلْمِ كامِنَ عَزْمَةٍ ... إلَى أنْ تَجَلَّى فجْرُها المُتَوَضِّحُ
فخابَ شَقِيٌّ قدْ ثَنَيْتَ عَنانَهُ ... غَداةَ انثَنَى في غَيِّهِ وهْوَ يجْمَحُ
رَمَيْتَ بِنورِ الهَدْي لَيْلَ ضَلالِهِ ... فَلاَ فجْرُهُ منْ بَعْدِها يَتَوضَّحُ
تلاَفَيْتَ دينَ اللّهِ وهْوَ عَلَى شَفاً ... يُعَرّضُ بالإتْلافِ ثُمَّ يُصَرَّحُ
وأمَّلَتْ تَمْهيدَ البِلادِ وإنَّها ... لَيُذْكَى زِنادُ الخَوْفِ فيهَا ويُقْدَحُ
وإنَّ الذي بالمُلكِ عَزَّ لَصاغِرٌ ... أيطمَعُ فيهِ أوْ لِمَرْقاهُ يَطْمَحُ
يَرومُ سَبيلاً لِلنّجاةِ مُمَنَّعًا ... أيَنْجِدُهُ القَصْدُ الذي لَيْسَ يُنْجِحُ
نَبا في يديْهِ الصَّارِمُ الصَّلْتُ وانثنَى ... عنِ القَصْدِ فيهِ الذَّابِلُ المُتَرَنِّحُ
ومَن أسْلَمَ الايمَانَ للشِّرْكَ عامِدًا ... أيُفْلِتُ منْ قَيْدِ الهَوانِ وَيُفْلِحُ
وحَلَّ عُرَى الاسْلامِ في عَقْدِ سَلْمِهِ ... غَداةَ انثَنَى طَوْعًا لَها وهْوَ يجْنَحُ
إلى أنْ غَدا قدْ أطْفَأَ اللّهُ نارَهُ ... وكانَتْ لِنَصْرِ المشرِكينَ تُلَوِّحُ
صَنائِعُ جَلَّتْ أنْ يُحيطَ بِوَصْفِها ... بَليغٌ ولاَ في رَوْضِها الفِكْرُ يسْرَحُ
وقدْ كانَ فيهَا الحزمُ ضَيَّعَ بُرْهَةً ... وَصدَّقَ فيها المَاكِرُ المُتَنَصِّحُ
فَدارَكْتَ مَن أوْلَيْتَهُ النَّصْرَ مُنْعِمًا ... بعَزْمٍ يَفوقُ الرَّاسِياتِ ويَرْجَحُ

وأُسْدِ رِجالٍ مِنْ جُنودِكَ كُلّمــا   أُزِيحُوا عَنِ الهَيْجاءِ لَمْ يَتزَحْزَحُوا
كَتائِبُ تُلْقِـي عنْـدَ بـابِكَ كُتْبُهــا   مِنَ النَّصْرِ والتَّأْييدِ ما لَيْسَ يُشْرَحُ
كأنّ مذاكيهَا لَدى الحَرْبِ تَرتَمي   ظِباءٌ على كُثْبـانِ رامَـةَ تَسْنَـحُ
تَخِفُّ إلَى الأعداءِ وَهْـيَ ثـوابِتٌ   وتَخْتالُ زهْوًا في مَداهَـا وتَمْـرَحُ - 91 -
إذا استَشْرَفَتْ فَهْيَ الظّباءُ وان بَدَتْ   لَها غرَرٌ فَهْـيَ الكَـواكِبُ تُلْمَـحُ
عَلى انّ هَذي حيْثُ تسبِقُ لِلْعِدَى   وتَبْدُو بليْلِ النَّقْعِ أسْنَى وأسْنَـحُ
وحَضْرتُكَ العَلْيـاءُ عَـزَّ جَنابُهــا   حَـديثُ عُلاهَـا مُسْنَدٌ ومُصَحَّــحُ
أقَامَتْ زَمانًا لَيْسَ تُطْلِعُ مِن سَنَـا   مُحَيَّـاكَ بَـدْرًا نـورُهُ يتَـوَضَّحُ
إلى أنْ حَلَلْتَ الآنَ هَالَةَ أُفْقِهــا   كَما راقَ مِن شَمْسِ الصَّباحِ تَوضُّحُ
لقَدْ أبْصر القُصّادُ مَرْآكَ عِنْدَهــا   فلِلْعَيْـنِ والآمـالِ مَرْمًـى ومَلْمَـحُ
فبُشْرَى لَهُمْ أنْ أبصَروا بشْرَكَ الذي   يُتَرْجِمُ عَن نَيْلِ الأمـاني وَيُـفْصِحُ
وبُشْرَى بِهِ عيدًا يَعودُ بكُلّ مَـا   إلى نَيْلِهِ الآمالُ تَسْمُو وتَطْمَـحُ
أتـاكَ وقـدْ شَفَّ الغَـرامُ هِلالَــهُ   وأنحلَـهُ الشّوْقُ الحَثيـثُ المُبَـرِّحُ
وَوَدَّعَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكْرَمَ ظاعِـنٍ   يُـرَوِّي أحـاديثَ العُلَـى وَيُصحّــحُ
نأى وَهْوَ يثْنِي بالذي أنتَ أهْلُهُ   وعَنْدَ جَميلِ الذكْرِ يُمْسِي وَيُصْبِحُ
يُرَجِّيكَ لِلدّنْيـا وَ للدِّيـنَ عِصْمَـةً   لَدَيْها غَدا حُكْمَ المُقامِ يُرَجِّـحُ
ومَن ألفَ الإيمانَ والعِلْمَ والتُّقَـى   ونَيْلَ المَعالِي والنّدَى كَيفَ يَبْرَحُ
فَهُنِّئْتَـهُ يوْمًـا أغـرَّ ومَوْسِمًــا   غَدَتْ فيـهِ أبْـوابُ القَبـولِ تُفَتَّـحُ
ودُونَكَها مِنْ بحْرِ فكْـري لآلِئًـا   بمَنْظومِهَـا جيـدُ العُلَـى يَتَـوشَّحُ[192]
تَروقُ النُّهَى وصْفًا كأنَّ حَديقَـةً   بِها لِلصَّبَا مَسْرًى وَلِلعَيْـنِ مَسْرَحُ
إذا اللّهُ قدْ أثْنَى عَلَيْكَ كِتابُـهُ   بماذا عَسَى يُثْنِـي البَليـغُ وَيَمْـدَحُ
فـأيُّ بيـانٍ عـن مَعاليكَ مُنْبِـىءٌ   وأيُّ لِسَانٍ عَن صِفاتِكَ مُـفْصِحُ

(192) في الأصل : ودونها، وهو سهو من الناسخ.

عَلَى أنّ مِن نعْماكَ صبْحَ هِدايَةٍ ... يُبينُ لي النّهْجَ القَويمَ وَيُوضِحُ
تُطَوِّقُنِي طَوْقَ الحمامَةِ منعِمًا ... فأُصْبِحُ في رَوضِ المَدائِحِ أصْدَحُ
فَللنّثْرِ مِنها في المعاني مَدائِحٌ ... وبالدُّرِّ مِنْها للغَواني تَوَشُّحُ
دَعا لكَ بالتّأييدِ كُلّ مُوَحِّدٍ ... لِذلِكَ أبْوابُ السَّماءِ تُفَتَّحُ
وتَدْعو لَكَ الرُّكْبان حَيثُ يَضُمُّهَا ... مَقامٌ ورُكْنٌ يسْتَلامُ وأبْطَحُ - 92 -
فَخُلِّدتَ ما سَارَ الحَجيجُ إلَى مِنًى ... ومَا هَلَّلُوا بالذِّكْرِ فيهِ وَسَبَّحوا

وأنْشَدْتُ في عِيد الأضْحَى مِنْ عَامِ أرْبَعَة عَشَرَ المذْكورِ بالمَحَلّةِ مِنْ ظاهِرِ جَبَلِ الفَتْحِ عَصَمَهُ اللهُ في السَّفْرَة الثانِيَة إليْهِ في مجْتَمَعٍ هائِلٍ، يَقصُرُ عنْ وَصْفِهِ قوْلُ القائِلِ

هُدًى تَتجَلّى مِنْ سَناهُ المَشارِقُ ... كَما لاَحَ صُبْحٌ أوْ تَطَلَّعَ شارِقُ
وَعَزْمٌ كأنّ الروْعَ سُلَّتْ سُيُوفُهُ ... ونابَتْ عَنِ الأغْمادِ فيهِ المَفارِقُ
وَجود كأنَّ البحْرُ لَذَّ مذاقُهُ ... أوِ السُّحْبُ يَهْمِي جَوْدُهَا المتَدافِقُ
وَذِكْرٌ كأنَّ الرَّوْضَ هَبَّ بِعَرْفِهِ ... نسِيمُ الصَّبا فارْتاحَ لِلطّيبِ ناشِقُ
وَغُرٌّ جيادٍ في مَدَى النَّصْرِ تَرْتَمِي ... إلى مِثْلِها يُعْزَى الوَجيهُ ولاَحِقُ
وَبيضُ ظُبًى مَهْمَا أثارَ جِلادُهَا ... سَحابَ قَتامٍ فَهْيَ فِيهِ بَوارِقُ
وسُمرُ قَناً لوْلاَ الأسِنَّةُ لاخْتَفَتْ ... بِليْلِ عَجاجٍ هُنَّ فيهِ شَوارِقُ
فَيا راكِبَ الوجْناءِ يَبْتَدِرُ السُّرى ... بِهَا وَهْوَ لِلحَيّ الحِلالِ مُفارِقُ
ولمْ يَثْنِهِ من بارق الأُفْقِ نَيِّرٌ ... كَعَذْبِ الثّنايا ما العُذَيْبُ وبَارِقُ
ولاَ راقَهُ خَيْفٌ بهِ الوَجْدُ كامِنٌ ... ولاَ شاقَهُ طيْف عَلَى البُعْدِ طارِقُ
وَلكِنّهُ يَبْغِي المَحامِدَ والعُلَى ... فَيُهْدَى لَها حادٍ وتُحْدَى أيانِقُ
لِيَحْيَا ذَمَا القَلْبِ المقلَّبِ كُلَّما ... تُحَيِّيهِ مِن رَوْضِ الأماني نَواشِقُ
عَلَيْكَ بمَوْلانا الخَليفَةِ يُوسُفٍ ... فَهاتِيكَ أوْصافٌ لَهُ وخَلائِقُ

إمَـامٌ لـهُ عِلْـمٌ وَحِلْـمٌ ونائِـلٌ … بِهِ خَابَ لأَحٍ كلّما فازَ لأَحِقُ
مَآثِـرهُ والـوَصْف يَعْجِـزُ نَظْمُـهُ … لَئالٍ بِهَا عِقْدُ العُلَى مُتَنَاسِقُ
مَكارِمُـهُ والأفْـقُ يُـمْسِكُ غَيْثَـهُ … تَسيلُ عَلى العافيـنَ مِنْها مَدافِقُ - 93 -
عَزائِمُـهُ والخَيْـلُ تَبْتَـدِرُ الوَغَـى … تُقَصِّرُ عنهُنَّ الجِيادُ السَّوابِقُ
كَتائِبُهُ مَنْ ذا إذا هِي حارَبَتْ … يُساوِي وأمْلاكُ السَّماءِ تُساوِقُ
وَآراؤُهُ والـرَّوْعُ يَـذْهَبُ بالنُّهَى … تُصيبُ العِدَى مِنْها سِهامٌ رَواشِقُ
حَمَى وَهَمَى غيثا فَبالبَأْسِ والنَّدَى … حَقائِبُ تُثْنِي دائِمًا وحَقائِقُ
وأرْسَلَها طَوْعَ الفُتوحِ سَوابِقًا … إذا ما انْبَرَتْ هوج الريَاحِ تُسابِقُ
وَقَيَّدَتِ الأجْفَانَ أجْفَانُهُ سَنًا … فَلاَ قَلْبَ إلاَّ وهْوَ في الحسْنِ عاشِقُ
قَدِ انْتَظَمَ الأبطالُ في جَنَباتِها … صُفوفًا كَمَا قد نظم العِقْدَ ناسِقُ
فَلِلّهِ مِنهَا في مَدَى الحَرْبِ تُجْتَلَى … سَوابِحُ أوْ في البَرِّ مِنْها سَوابِقُ
لقدْ أنجَبَ الأنْصارُ مِنهُ خَليفَةً … فَوافَى أخيرًا وهْوَ في المَجْدِ سابِقُ
إلَى اللّهِ هادٍ وهْوَ في اللّهِ ناصِرٌ … مِنَ اللهِ مَنصورٌ وباللّهِ وَاثِقُ
إذا نامَ للبيضِ الرِّقاقِ مُضاجِعٌ … وانْ قامَ لِلسُّمْرِ الطِّوالِ مُعانِقُ
هُوَ الدَّهْرُ يا مَوْلَى المُلوكِ مُبادِرٌ … لِما تَرْتَضِي مِنكَ المَعالِي مُسابِقُ
مَقامُكَ مَحمودٌ وَسَعيُكَ ناجِحٌ … وَرِفْدُكَ مَبْذولٌ وَوَعْدُكَ صادِقُ
وَرَأْيُكَ لِلصُّنْعِ الجَميلِ مُوافِقٌ … وَعَزْمُكَ لِلنَّصْرِ العَزيزِ مُرافِقُ
ومُلْكُكَ للدّينِ الحَنيفِ وأهْلِهِ … يُصادِرُ عَن أوْطانِهِم وَيُصادِقُ
تُجرِّدُ سَيْفَ اللهِ كَفُّكَ في الوَغَى … كَما لاَحَ أثناءَ الغَمامَةِ بارِقُ
ولِلنَّقْعِ سُحْبٌ فَوقَ رَوْضٍ منَ القَنَا … وحُمرُ الظُّبا في جانِبَيْهِ شَقائِقُ
وهَذا وَلِيُّ الكُفْرِ أخفَقَ سَعْيُهُ … وخابَ وأعْلامُ الجِهادِ خَوافِقُ[193]

---

(193) يقصد أبا سعيد عثمان وعقده السلم مع فرناندو الأول ملك أرغون. راجع المقدمة.

وأحْكَمَ عَقْدَ السّلْمِ يرْضِي بهَا العِدَى ... فَحُـلّتْ عُهـودٌ عِندَهَـا ومَواثِـقُ
لَئِيـمٌ غَـدا بـالسُّوءِ يَبْسُطُ كَفَّـهُ ... لِيَقْبِضَ بَسْطَ الرِّزْقِ وَاللّـهُ رازِقُ
صِلاتُ النّدَى لاَ تُرْتَجَى مِنْهُ إذْ لهُ ... عَوائِدُ عَن قصْدِ النَّجاحِ عَوائِـقُ
ولَمَّـا تَدَلَّـى فِي مَهـاوِي غـرُورِهِ ... وضَلَّلَـهُ داجٍ مِـن الغَـدْرِ غـاسِقُ
خَطَبْتَ بِـلادَ العُدْوَتَيْـنِ فأَطْـعَتْ ... وَمِن قبْلُ ما صَدَّتْ خُطوبٌ طَوارِقُ - 94 -
وعادَ السَّعيدُ اليوْمَ وهْـوَ مُمَـلَّكٌ ... فَأُمِّـنَ مَذْعـورٌ وأُفْـرِجَ ضَائِـقُ
يَحُـلُّ مِـنَ البَـيْضاءِ دَارَ إقامَـةٍ ... وليْسَ عَنِ القَصْدِ المؤمَّلِ عائِـقُ(194)
وتَعْلُو المَعالِي مَعْلَمَ النَّصْرِ عِنْدَهَا ... وتُجْلِي مجانِي الفتْحِ فيهَا المجانِـقُ
فَتسْتَنْـزِلُ الأرْواحَ وهْـيَ صَواعِـدٌ ... وتَرْفَعُ طُورَ العِزّ وهْـيَ صَواعِـقُ
وما سَجَـدَ الخَبُّ اللّئيمُ وإنمَـا ... تَجَلَّى لهُ نُورُ الهُدَى فهْوَ صاعِقُ
وَلِلّـهِ مِنْهَـا وِجْهَـةٌ ناصِرِيَّـةٌ ... مَـذاهِبُ فيها لِلْعُلَـى وَطَرائِـقُ
إلَى جَبَلِ الْفَتْحِ ابْتَـدَرْتَ بعَزْمَـةٍ ... يَخِـيبُ مُنـاوٍ عِندهَـا ومُنافِـقُ
طَرقْتَ حِمَى أقصَى البِلادِ تَمَنُّعًـا ... بِمَا لمْ يَحُزْ في الفَتْحِ مُوسَى وطارِقُ
وسَيْفُكَ صَلْتٌ حَيْثُ بَأسُكَ كامِنٌ ... وقَلْبُكَ ثَبْتٌ حيْثُ بَنْدُكَ خافِـقُ
تَفوقُ بُـروجَ الأُفْقِ أبراجُهُ فَمـا ... كَواكِبُـهُ إلاَّ خَـوافٍ خَوافِـقُ
ولَـمْ لا تُباهِـي أُفْقَـهُ ونجومَـهُ ... قَلائِـدُ في لَبَّاتِهَـا .وَمَناطِـقُ
ولكِـن بـهِ قَـوْمٌ أباحُـوا ذِمـارَهُ ... بِبغْـيٍ فَنـاعٍ في ذُراهُ وناعِـقُ
لَقَدْ كَفَرُوا نعْماكَ لاَ درَّ دَرُّهُـمْ ... فَجَلَّتْ بِهِمْ طَوْعَ البَـوارِ البَوائِـقُ
ولَـوْ قَـدْ أجابُـوا دَعْـوَةً يوسُفِيَّـةً ... لَمُدَّ مِـن السِّتْـرِ الجَمِيـلِ سُرادِقُ
إذا ما دَجَى .لَيْلُ الخَطايَا فيوسُفٌ ... لِصُبْحِ الرِّضَى والعَفْوِ والحِلْمِ فالِقُ
يَقـولُ لِسانُ الفَتْـحِ في عَرَصاتِـهِ ... ألاَ سارِعُوا لِلعِزّ طَوْعًـا وَسابِقُـوا
وقَدْ نالَ منهُمْ قصْدَهُ جُندُكَ الذِي ... لَهُ قائِدٌ مِـن عِزِّ نَصْرِكَ سائِـقُ

---

(194) البيضاء هي فاس الجديد.

وَيَسْتَوْقِفُ الأَبصارَ رَمْيُ قِسِيِّهِ ... فَراقَ النُّهَى رامٍ لَدَيْهِ ورَامِقُ
تَمَنَّعَ واسْتَعْصَى كَما كَتَمَ الهَوى ... على الرَّغمِ صَبٌّ لِلمَحاسِنِ شائِقُ
ومَا هُوَ إلاّ في يَدَيْكَ زِمامُهُ ... كَما آبَ مِنْ بعْدِ القطيعَةِ آبِقُ
عَقيلَةُ حُسْنٍ طَارَدَتْ بِوِصالهَا ... لِكَيْما تُوافِي بالرِّضَى وتُوافِقُ
فَلِلْمَنْحِ بَعْدَ المَنعِ أعْذَبُ مَوْقِعٍ ... أَيَحْظَى بمَعْنَى القُرْبِ مَن لاَ يُفارِقُ
وقدْ جاءَكَ الأَضحَى فَوفَّيْتَ حَقَّهُ ... بِما هُوَ بالدنْيا وبالدِّينِ لاَئِقُ
لِذلِكَ تُثْنِي بالذي أَنْتَ أهْلُهُ ... مَغارِبُ مِن آفاقِهَا ومَشارِقُ
فهُنِّئْتَهُ يوْمًا أغرَّ ومَوْسِمًا ... كَريمًا لهُ الصُّنْعُ الجَميلُ مُرافِقُ
أمَوْلاَيَ ما وَفَّى وإنْ كُنتُ مُبْدِعًا ... مِنَ الوَصْفِ قصْدِي ما بهِ أنا ناطِقُ
وَلَوْ كان مِن جِنحِ الظلاَمِ أمِدَّةٌ ... لَدَيَّ ومِن نُورِ الصَّباحِ مَهارِقُ
فَدونَكَها مِن خِدْرِ فكرِيَ غادَةٌ ... تُقَصِّرُ عنْهَا في الخُدورِ العَواتِقُ
فَلَوْلاكَ ماذاعَتْ نَواسِمُ فِكرَتِي ... ورَقَّتْ فَراقَتْ لِلنِّظامِ حَدائِقُ
ولاَ كانَ مِنْ نَظْمِي إذا رُمْتُ مِدْحَةً ... يُحَيِّيكَ رَوْضٌ رائِعُ الحُسْنِ رائِقُ
فَخُلِّدَت ما سارَ الحجيجُ إِلَى مِنًى ... ومَا لاَحَ في جنحِ الدُّجُنَّةِ بَارِقُ

ولمَّا أطَلَّ عِيد الفطْرِ مِنْ عَامِ خمسَةَ عشَرَ وَثماني مائَة
أنشَدتُ مَولاَنا أيَّدَهُ الله برِياضِ السَّيِّد[195] من خارِجِ مالَقَة حرَسَها
الله وقدْ تَدارَكَ اللهُ الوُجودَ بِرَحْمَتِهِ واسْتَرسَلتِ الأَمْطارُ بعْدَ
حُلولِ رِكابِهِ العَلِيِّ بهَا إثرَ قَحْطٍ أصابَهَا وجَهْدٍ عَظيمٍ رَابَها
وأَلْمَمْتُ بِذِكْرِ هَزيمَةٍ انجَرّتْ عَلَى السُّلْطانِ السَّعِيدِ بِظاهِرِ فاس

هذِي سُعودُكَ قدْ حَيَّتْ طَوالِعُها ... وَاسْتَشْرَفَتْ مِن ثَناياهَا طَلائِعُهَا
آثارُ مُلْكِكَ لا تَبْلَى نَضارَتُها ... أَنْوارُ أُفْقِكَ لاَ تَخْبو سَواطِعُها

(195) رياض السيد : قصر بمالقة أسسه أحد «السادة» الموحدّين.

آياتُ حَمْدِكَ تُسْتَجْلَى مواقِعُهَا إيَاتُ هَذِيكَ تُسْتَجْلَى نَواصِعُهَا
ما يَمَّمَتْ بابَكَ القُصَّادُ آمِلَةً إلاَّ تَدانَى مِنَ الأمالِ شَاسِعُهَا
أبْوابُ عزٍّ بِهَا الأخبارُ وَارِدَةٌ فالسَّيْفُ شارِحُهَا والسَّيْبُ شارِعُهَا
بيوسُفٍ مَلِكِ الأمْلاكِ ناصِرِهَا بَانَتْ شَعائِرُهَا قامَتْ شرائِعُهَا
أمَا له الهِمَّةُ العُلْيَا فَمَا وَضَحَتْ مَراقِبُ العِزِّ الاّ وهْوَ فارِعُهَا - 96 -
أما لَهُ الكَرَمُ المَحْضُ الذي أخذَتْ عَنْهُ الغَمائِمُ إذْ جادتْ هَوامِعُهَا
أمَا لَهُ الشِّيَمُ الغُرُّ التي جُلِيَتْ كَواكِبًا لَمْ تَزَلْ تَهْدِي طَوالِعُهَا
أمَا لهُ العَزَماتُ المَاضِياتُ كَما هُزَّ الحُسامُ وخاضَ الحربَ دارِعُهَا
أمَا لَهُ المَكْرُماتُ السَّائِرَاتُ ثَنًى كالشَّمْسِ يُجْلَى عَلى الآفاقِ شائِعُهَا
فالشُّهْبُ مِن نُورِ مَرْآهُ أشِعَّتُهَا والسُّحْبُ مِن جودِ كَفَّيْهِ يَنابِعُهَا
والغربُ يا طالَمَا وَدَّتْ خِلافَتُهُ لَدَيْهِ لَوْ أنَّهَا رُدَّتْ ودائِعُهَا
هذا مُناوِيهِ قدْ وَلَّتْ كَتائِبُهُ والرُّعْبُ يَقْدُمُها والسَّيْفُ تابِعُهَا
كأنَّنِي بلسَانِ الدهْرِ يُنْشِدُهَا أنّي بأسْبابِ عِزٍّ وهْوَ قاطِعُهَا
تَبًّالطائفةٍ طافَ الهَوانُ بِهَا تُخادِعُ اللهَ سِرًّا وهْوَ خادِعُهَا
مِنَ الفِرارِ إلى دارِ البَوارِ مَضَتْ فَمَا مَصارِفُهَا إلاَّ مَصارِعُهَا
ولِلعَوامِلِ في هَامِ العِدَى عَمَلٌ فالسَّيْفُ خافِضُهَا والرُّمْحُ رافِعُهَا
كأنَّ بيضَ الظُّبَا والنقْعُ مُنْسَدِلٌ بَوارِقٌ قدْ جَلاَ الظَّلْماءَ صَادِعُهَا
وربَّمَا جالَتِ الأبطالُ حيْثُ غَدَا لَيْلُ العَجاجَةِ تَجلُوهُ مَدارِعُهَا
كانَتْ خِلافَتُهُ رَوْضًا فَها هِيَ قَدْ أضحَى هَشيمًا بنارِ الحَرْبِ يانِعُهَا
أيَخْطُبُ السِّلْمَ والبَيْضاءُ مانِحَةٌ حُلولَ أرْجائِهَا لا كانَ مانِعُهَا
كَتائِبُ النَّصْرِ إذ حَلَّتْ بسَاحَتِهَا كَرْهًا تُوَدِّعُهَا طَوْعًا تُوادِعُهَا
وكَيفَ تُدْفَعُ عنْ فاسٍ أُسودُ وَغًى ومَا مرابِضُهَا إلاَّ مَرابِعُهَا
إنْ أجْفَلَتْ فِئَةُ التوْحيدِ ها هِيَ قدْ عَادَت تنازِلُ فيها مَنْ يُنازِعُهَا

وقائِعٌ محَّصَ اللهُ العِبادَ بِها — حَتَّى تَبيَّنَ عَاصِيهَا وَطائِعُهَا
إن كان ضُيِّعَ حَزْمٌ عِندَمَا افْترقَتْ — فإنَّ جودَكَ حامِيهَا وجامِعُهَا
هذَا نداكَ بهِ نيلتْ مَطالِبُهَا — هذَا هُداكَ بِهِ راقتْ مَطالِعُهَا[196]
وإنَّ مُلْكَكَ وافِيهَا وقَدْ عَرَضَتْ — لَها الحَوادِثُ حَتَّى خيفَ واقِعُهَا - 97 -
فاسْتَشْعَرَتْ بِجَميلِ الصُّنْعِ حينَ عَلَتْ — بالنّصْرِ مِنْكَ عَلَى الشّعْرى مَصانِعُهَا
فَقَرَّ عيْنًا كَمَا شاءَ الوَليُّ بهَا — وفازَ بالعِزِّ رائيهَا وسامِعُهَا
إذْ شيَّدَ الصُّنْعُ لِلنّصْرِ العَزيزِ بِهَا — مَصانِعًا يَبْهَرُ الألْبابَ رائِعُهَا
مَن كابْنِ نَصْرٍ حُلاً مأْثورَةً وعُلاً — مُضيعُهَا قاصِرٌ عَنْهَا وطائِعُهَا
هَذا وإنّ تِلِمْسانًا بهِ انتَصَرَتْ — مُلوكُها ومَعاليهِ تُراجِعُهَا[197]
فَحَثَّ سائِحُهَا سَيْرًا لِسابِحِهَا — وَبَثَّ نجْواهُ داعِيهَا وَضارِعُها
هوَ الجهادُ فإن باعُوا نُفوسَهُمُ — مِن رَبِّهِمْ فازَ بالدَّارَيْنِ بائِعُها
وحَلَّ مالَقَةَ والنّاسُ قدْ يَئِسُوا — مِن رحْمَةٍ عَنهُمُ ماضاقَ واسِعُهَا
أضْحَتْ لَديْهَا نُفوسُ الخلْقِ خائِفَةً — لا يَهْتَدِي لِسَبيلِ الأمْنِ جازِعُهَا
قدْ أوْبَقَتْهُمْ خَطايَاهُمْ وليسَ سِوَى — جِهَادِهِ في سَبيلِ اللهِ شافِعُهَا
صَنائِعُ اللّهِ لمَّا حَلَّ ساحَتَها — فَضْلاً بهَا قدْ حَباهُ اللّهُ صانِعُهَا
فأشْرَقَتْ أوْجُهُ البُشْرَى بناشِئَةٍ — مِن الغَمامِ قدِ انْهَلَّتْ مَدامِعُهَا
حَيًّا الحيَا وجُفونُ الزَّهْرِ نائِمَةٌ — والآن لا يالفُ الإغْفاءَ هاجِعُهَا
لِلّهِ ناضِرَةٌ مِنهَا وناظِرَةٌ — تَنَبَّهَتْ بعْدَمَا أغْفَتْ هَواجِعُهَا
هَذي بَواسِمُهَا رَقّتْ نَواسِمُها — هِذي مَنازِلُهَا رَقّتْ منازِعُهَا
خَيْلُ النواسِمِ لا تَثْنِي أعِنَّتَهَا — عَنِ الرَّوابِي التِي راقَتْ رَوائِعُهَا
ومالَتِ القُضْبُ زَهْوًا كُلَّمَا نَزَعَتْ — لَها فنازِلُهَا يَثْنِيهِ نَازِعُها

(196) يشير الشاعر إلى الأموال التي كان ممدوحه يبذرها في إثارة الفتنة.

(197) هذا يشير إلى تواطؤ الممدوح مع بني عبد الواد على بني مرين.

وربَّما قدْ تُقيمُ الرِّيحُ مائِلهَا　　كَما يُقيمُ صَغا الأبطالِ وَازِعُهَا
هذَا وهُنِّئتَ عِيدَ الفطْرِ إذْ ورَدَتْ　　فيهِ البَشائِرُ تُستَحْلَى مَواقِعُهَا
طَلَعْتَ فيهِ وَمِن مَرْآكَ شمْس ضُحًى　　تُجْلَى فَيَجْلُو دُجَى الظَّلْماءِ سَاطِعُهَا
فاهْنأْ بِهِ ولنَا الهَناءُ بأنْ　　مُدَّتْ لنَا يَدُكَ العُلْيَا نُبايِعُهَا
ماذا تُسطِّرُ أقْلامُ البَليغِ إذَا　　أبْدَى وأبْدَعَ باريهَا وبارِعُهَا - 98 -
شُهْبُ المَعانِي وأطْراسِي مَراقِبُهَا　　ظِباءُ ألفاظِهَا فِكْرِي مَراتِعُهَا
بنَصرِ مُلْكِكَ أعْلَى اللّهُ مظْهَرَهُ　　لِلّهِ سَاجِدُهَا يَدْعُو وراكِعُهَا
دامَتْ خِلافَتُكَ العُلْيا التي خَضعَتْ　　لَهَا الخَلائِقُ والدُّنْيَا تُطاوِعُهَا

وأنْشَدتُ في هَنائِهِ أيَّدَهُ الله ونَصرَهُ بعيدِ الأضْحَى مِن عام خمْسَةَ عَشَرَ وَثماني مِائة إثْرَ الهَرَجِ الواقِعِ بالحَضْرَةِ مِن أهْلِ رَبَضِ البَيَّازينَ وسِواهُمْ مِمَّن تبِعَهُمْ وألْمَمْتُ فيهَا بذكرِ الصُّلْحِ الذي رغبَ السُّلْطانُ أبو سَعيدٍ مِنْ مَوْلانا نَصرَهُ الله في عَقْدِهِ بَينَهُ وبَيْنَ السُّلْطان السَّعيدِ عَلى قِسْمَةِ البِلادِ الغَربيَّةِ بَيْنَهمَا.

وأجابَهُ أعْلَى الله مَقامَهُ إلى ذلك[198]

لِمَنْ أوْجُهٌ غُرٌّ تَروقُ سِماتُهَا　　فَتُشرِقُ مِن نُورِ الهُدَى قَسَماتُهَا
تَلوحُ بأُفْقِ المُلْكِ حيْثُ خِلالَهَا　　كَواكِبُ هَدْيٍ تُجْتَلَى نيِّراتُهَا
فآياتُهَا أجْلَى وأوْضَحُ كُلَّمَا　　جَلَتْ داجِيَ الخَطْبِ المُلِمِّ إياتُهَا[199]
فَلِلهِ مِنْ أبْناءِ نَصرٍ خلائِفٌ　　إذا جَنَتِ الأيَّامُ هُمْ حَسَناتُهَا
إلَى دَوْحَةِ النَّصرِ العَزيزِ انتِسابُهُمْ　　وهُمْ سِرُّهَا إنْ عُدِّدُوا وَسَراتُهَا

(198) راجع ما كتبناه في الموضوع في المقدمة، وليوسف قصيدة في الصلح المذكور (ديوانه : 39 — 40).

(199) إياتُها : ضوءها.

لهُمْ كَيفَ شاءَتْهُ المَكارِمُ والعُلَى — عَزائِمُ بانتْ في العِدَى فَتكاتُهَا
فَما لِلعِدَى تَبغِي حِمَى مِلَّةِ الهُدَى — وأبْناءُ أنْصارِ الرَّسولِ حُماتُهَا
فَهُمْ إن دَعَا دَاعِي النِّزالِ كُماتُهَا — وهُمْ إنْ دَجا لَيْلُ الضّلالِ هُداتُها
غيُوثٌ ولكِنْ كُلَّمَا شَهِدوا الوَغَى — لُيُوثٌ ومُلْتَفُّ القَنَا أجماتُهَا
قُلوبٌ إلى دَاعِي الرَّشادِ مُجيبَةٌ — إذا ما العِدَى ألْوَتْ بهَا غَفلاتُهَا
فأيْنَ مَضاءُ السَّمْهَرِيَّةِ والظُّبَا — إذا أُبرِمَتْ في المُلْتَقَى عَزماتُهَا - 99 -
إذا ما دَجَى النَّقْعُ المُثارُ بأُفْقِهِ — أنارَتْ فجَلَّتْ جنْحَهُ مرْهَفاتُهَا
وقَد أنجَبُوا مَوْلَى المُلُوكِ الذي غدتْ — تُؤَمِّلُ جَدْوَى راحَتَيْهِ عُفاتُهَا
فَما وجِّهَتْ إلاّ إلَيْهِ وُجوهَهَا — ولاَ خَلصَتْ إلاّ لَهُ دَعَواتُهَا
إذا نُصِبَتْ شرْقًا وغَرْبًا مَنابِرٌ — فتَخْطُبُ باسْمِ اليُوسُفِيِّ دُعاتُهَا
لهُ كلَّما تُتْلَى صَحائِفُ مَجْدِهِ — مآثِرُ قدْ راقَتْ بهَا ورَقاتُهَا
وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ العَزائِمَ مِنْهُ لاَ — تَحامَى حِمَى أعدائِهِ فَتكاتُهَا
وإنْ فئةٌ لِلدّينِ تُنمَى وأذْنَبَتْ — لدَيْهِ غَدَتْ مغْفورَةً هَفَواتُهَا
وهل هيَ إلاَّ هِمَّةٌ خزْرَجِيَّةٌ — تلوحُ عَلَى شهْبِ السَّماءِ سِماتُهَا
وهل هيَ إلاَّ عَزْمَةٌ غالِبِيَّةٌ — إذَا خَفَّتِ الأعْلامُ راعَ ثَباتُهَا
وهل هيَ إلاَّ قُدْرَة ناصِرِيَّةٌ — ثَنَى البَطشَ مِنْهَا حِلْمُها وأناتُهَا
وهل هيَ إلاَّ شيمَةٌ يُوسُفِيَّةٌ — قَضَى صَفْحُهَا أنْ أغْمِدتْ صَفحاتُهَا
فَيَمْحُو الخَطايَا حِلْمُه وهْوَ قادِرٌ — إذا العَفْوُ مِنْهُ أمَّلتْهُ جُناتُهَا
ويَلْقَى عَدُوّ الدِّين طَوْعَ جِهادِهِ — بِصَفْحَةِ عَزْمٍ لا تُفَلُّ شَباتُهَا
وأُسْدِ رِجالٍ مِن ذَوي الحَزْمِ لمْ تَزَلْ — لِحَرْبِ العِدَى مَأْخُوذَةً أُهْباتُهَا
فَيورِدُهَا للأمْنِ أعْذَبَ مَشْرَعٍ — تَذودُ العِدَى عَن وِرْدِهِ مُشْرَعاتُهَا
تُقيمُ صَغَا الهَيْجاءِ راحَةُ يُوسُفٍ — وقدْ قُوِّمَتْ في الدّارِعِينَ قَناتُهَا
فَللهِ ما أوْهَى قُوَى الصَّبْرِ كلّما — ألَمَّتْ بأوْهامِ العِدَى خَطَراتُهَا

وقَدْ منَحُوا الأكتافَ إذْ صافَحَتْهُمُ ... سُيوفٌ تَروقُ المُجْتَلِي صَفَحاتُها
وتُخفقُ مَسْعَى الكافِرِينَ بُنودُهُ ... إذا خَفَقَتْ في أُفْقِها عذَباتُها
وراقَ النّهَى ما رَاعَ مِن قَطْفِ هَامِهَا ... وقَدْ أيْنَعَتْ لِلمجْتَنِي ثَمراتُها
دَعُوا فِئَةَ الإشْرَاكِ لا دَرَّ دَرُّها ... كَأنّي بِها لا تَنْقَضِي حَسَرَاتُها
كأنّي بخَيلِ اللّهِ تَبْتَدِرُ الوغَى ... وقَدْ حَمَلَتْ أُسْدَ الشَّرَى صَهَواتُها
سَوابِقُ تَرتَدّ الرّياحُ وتَنْثَنِي ... بِحَيْثُ تُجارِي هُوجَها مُرْسَلاتُها
تَروعُ الأعادِي في مَدَى السَّبْقِ نُزَّعًا ... تَروقُ النُّهَى ألوانُها وشِيَاتُها
إذا هِيَ بالأبطالِ جالَتْ رأيْتَها ... تُقَرِّبُ آجالَ العِدَى مُقْرَباتُها
فَيا ناصِرَ العَلْياءِ والمَلِكَ الذي ... بِهِ مِلَّةُ الإسْلامِ كُفَّتْ عُداتُها
تَرومُ مُلوكُ الأرْضِ شَأْوَكَ في العُلَى ... وقَدْ قَصُرَتْ عَن نَيْلِهِ خُطُوَاتُها
ولمّا تَوالَتْ فِتْنَةُ الغَربِ واعْتَدَتْ ... عَلى أهْلِهِ في كُلِّ حَيٍّ طُغاتُها
وما اتَّفَقَتْ إلاّ عَلى صُحْبَةِ الرَّدَى ... كَما اخْتَلَفَتْ آراؤُها ولُغاتُها
دَعَتْكَ لِعَقْدِ السِّلْمِ بيْنَ مُلوكِها ... أكارِمُ حيٌّ في يدَيْكَ حَياتُها
فأصْدَرْتَ لِلأمْلاكِ مِنكَ أوامِرًا ... إذا نُطِقَتْ في الحَفْلِ طالَ صُماتُها
تَطاوَلُ أعْناقٌ وتَسْمُو نَواظِرٌ ... إلَيْها وَتُولِيهَا امْتِثالا ولاتُها
دَعَا بِهِمُ داعِي الأمانِ فأصْبَحُوا ... ودُنْياهُمُ لاَ تُتَّقَى حادِثاتُها
وإنّ حَجيجَ اللّهِ حَلُّوا بِمَكَّةٍ ... ولاَحَتْ لديْهِمْ دونَنا عَرَصاتُها
وما احْتَمَلُوا إلاَّ قُلُوبًا تَقَلّبَتْ ... فَما تَنقَضِي طَوْعَ النَّوَى زَفَراتُها
إذا رَامَتِ الحَجّاجُ رَمْيَ جِمارِها ... فنارُ الأسَى مَشْبوبَةٌ جمَراتُها
فلِلّهِ في مغْنَى الهِدَايَةِ أُسْرَةٌ ... يُعَرِّفُها مَعْنَى الرِّضَى عَرَفاتُها
تَطوفُ بِبَيْتِ اللهِ سَبْعًا وتَنثَنِي ... وقَدْ مُحِيَتْ أثْناءَهُ سَيِّئاتُها
ويُهْدَى عَلَى قُرْبِ المَزارِ سَلامُها ... بحَيْثُ النّبيُّ المجْتَبَى وَصَلاتُها
فَأهْلاً بِهَذا اليَوْمِ في المَوْقِفِ الذِي ... إذا قَصُرَتْ طالَتْ بِهِ وقَفاتُها

كَثيرٌ بمَذْخور الثوّابِ اهْتمامُهَا ... قَليلٌ إلَى ما خَلّفتْهُ الْتِفاتُهَا
وباتَتْ وقَدْ فازَتْ بأنْعمِ لَيْلَةٍ ... قَضَى فَضْلُهَا أن لا تُذَمَّ غَداتُهَا
فَهَنَّئْتَهَا طَوْعَ السُّعودِ مَواسِمًا ... قدِ اتّضَحَتْ آياتُهَا وإياتُها
تُحَيِّي كَما شاءتْ عُلاكَ وُفودُهَا ... فتَحْيَا بجَدْوى راحَتَيْكَ عُفاتُها
تُقَبِّلُ مِن مَوْلَى الخَلائِفِ يُوسُفٍ ... يَمينًا تَعُمُّ القاصِدينَ هِباتُهَا -101-
تُرينا مَن الصُّنْعِ الجَميلِ عوائدًا ... قَدِ اتصلتْ بالآمِلينَ صِلاتُهَا
وَبشْرَى بِهِ عيدًا غَدَتْ مِلَّةُ الهُدَى ... كَما عُوِّدَتْ تَعْلُو بِهِ كَلِماتُهَا
أمَولاَيَ هَلْ يُعْطِي الخلافَةَ حَقّهَا ... مَن المَدْحِ فِكْرٌ أعْجَزَتْهُ صِفاتُهَا
مَعَانٍ وألْفاظٌ بمَدْحِكَ تُجْتَلَى ... زواهرُهَا أوْ تُجْتَنَى زَهراتُهَا
سَنَا الزُّهْرِ ما قَدْ راقَ أمْ ورَقاتُهَا ... شَذَا الزَّهرِ ما قدْ رقَّ أمْ نفحَاتُهَا
وَبِالجُموعِ في ذَرَى القُبّةِ التِي ... بأوْجُهِهِمْ رَاقَتْ لَدَيْكَ جِهاتُهَا
يَميلونَ عُجْبًا بالثناءِ كأنّمَا ... تَدورُ بأكْواسِ المُدامِ سُقَاتُهَا
هَلِ اسْتَقْبَلوا أمْداحَهَا أمْ تَحمَّلتْ ... شَذا الزّهرِ أثْناءَ القَبُولِ رُواتُها
وهَل هذه الأفكارُ إلاّ ظَعائِنٌ ... هَوتْهَا مِنَ الأمْداحِ فِيكَ حُداتُهَا
فَللّهِ مِنهَا والمَحاسِنُ تُجْتَلَى ... حدائقُ مَدْحٍ تُجْتَنَى طَيّباتُهَا
بَقِيتَ لِأمْلاكِ البَسيطَةِ آيَةً ... بِشَمْسِ ضحَاهَا تَهْتَدِي نيّراتُها

وَقُلْتُ أُهَنّيءُ مَقامَهُ الكريمَ العَلِيّ اليُوسُفِيّ أسْماهُ اللّهُ بعيدِ الفطْرِ مِن عامِ سِتَّةَ عَشَرَ وثمانِمائَة ولمْ أُنْشِدْهَا بَسَبَب ثُبوتِ الشهْرِ أثناءَ اليَوْمِ لِتَجَهُّمِ المرقَبِ وتكاثُفِ السَّحابِ فيهِ فاقتَصرَ عَلى الصَّلاةِ آخر الوَقْتِ والخُطْبَةِ مِن غَيْرِ تَطْويلٍ واخْتُصِرَتِ البَيْعَةُ وَما سِوَى ذلِك مِمَّا جرَتْ بِهِ العادَةُ لِعَدَمِ الاسْتِعْدادِ والتَّأَهُّبِ

هَذي الكَواكِبُ قابَلَتْكَ سُعودُهَا ... ولَدَيْكَ في أوْجِ الكَمالِ صُعودُهَا

هذِي المَآثِرُ حَيْثُ قامَ خَطيبُهَا   يَرْتَـدُّ عَنْـهُ زيادُهَـا وَيَزيدُهَـا[200]
هَـذي محامِدُكَ التـي عـنْ مثلِهـا   يَثْنِـي العِنـانَ أمينُهَـا ورَشيدُهَـا[201] -102-
هذي المآمِلُ مـا يَطـولُ نُزوحُهَـا   إلاَّ وَيدْنـو كَيْـفَ شِئتَ بَعيدُهَـا
هَذِي المواهِبُ كُلّمَا سُئِلَ النّـدَى   ياتِـي بمُنهَـلِّ الغمائِـمِ جودُهَـا
هذي المكارِمُ كُلّمَـا بَخِـلَ الحَيَـا   أحْيَا الوُجودَ لَدَى عُلاكَ وُجودُهَا
هَذِي الخَلائِفُ يَمّمَتْكَ عَلى النّوَى   أرْسالُهـا ورَجَتْ نَـداكَ وُفودُهـا
مَا راعَ خَطْبٌ أوْ تفاقَمَ مُعْضِلٌ   إلاّ وأنتَ عِمادُهَـا وعَميدُهَـا
مـا بَـدَّلَتْ كلِماتِهَـا إذْ قُوبِـلَتْ   بعَواطِـفٍ مِـن وصْفِهَـا تَوْكيدُهـا
مـا أزْهَـرَتْ لِلْمَكْرُمَـاتِ حدائِـقٌ   إلاَّ غَـدَتْ يُمْنَـى يَـديكَ تَرودُهَـا
ما أخْلَفَ الأرْضَ الغَمَامُ وأمْحَلَتْ   إلاَّ وَجَـدْوَى راحَتَـيْكَ تَجودُهَـا
قُصِرتْ عَلَيْكَ الْمَكْرُماتُ وَمِنْكَ قدْ   راقَ الخَلائِـفَ فَوْقَهَـا مَمْدُودُهَـا
تَبْغِي ٱلْأعادِي في جَنابِكَ مَـوْرِدًا   فتَكُفُّهَـا عَـنْ ورْدِهَـا وتَذُودُهَـا
كَمْ أخْفَقَتْ مَسْعَى عِداكَ خَوافِقٌ   في الحَرْبِ قَدْ نُشِرَتْ عَلَيْكَ بُنودُها
لِلّـهِ دَوْلَـتُكَ التِـي لِجَلالِهَـا   خَضَعَتْ صَناديدُ المُلوكِ وَصِيدُهَـا
في حَرْبِهَا مَاضٍ لَدَيْكَ حُسامُهَـا   في سَلْمِهَـا مُسْتَقْبَـلٌ تَأْبِيدُهَـا
هَذي خِلافَةُ ناصِرِ الدِّيـنِ الـذِي   يَغْـزو وأمْـلاكُ السَّمـاءِ جُنودُهَـا
ولسَوْفَ يُبْذَلُ في جِهـادِ عُداتِهَـا   طَوْعَ المَكارِمِ والعُلَـى مجْهودُهَـا
ولسَوْفَ يُلْقَى كُلُّ بـاغٍ مُسْرِفٍ   يَصْلَى بنارِ الحَربِ وهْوَ وَقودُهَا
لَكأنْ بـهِ والحَرْبُ تُوقِـدُ لِلْعِـدَى   نـارًا بِمُنْهَـلِّ النَّجيـعِ خمُودُهَـا
لَكـأنْ بـهِ يَغْـزو كتائِبَهُـمْ وَقَـدْ   جَالَتْ جِيادُ النّصْرِ كيفَ يُريدُهَـا

---

(200) زياد بن مُعاوية (ابن أبيه) ويزيد لعلّه يزيد بن المهلّب، ولهُ خطب أو يزيد بن الوليد أو يزيد ابن هبيرة وكان خطيبًا.

(201) الرشيد والأمين ولده.

لَكَأَنْ بِهِ والرُّومُ عِنْدَ لِقائِهِ   لَمْ يُغْنِ عَنْهَا عَدُّهَا وَعَديدُهَا
يَرْتاعُ خِيفَةَ بَأْسِهِ مُرْتاحُهَا   وَيَخِفُّ في طَلَبِ النَّجَاةِ وَئِيدُهَا
وكَتَائِبِ الإِسْلامِ في أَعْقابِهِمْ   يَمْحُو مَعَالِمَ شِرْكِهِمْ تَوْحِيدُهَا
واليُوسُفِيُّ المُلْكِ لَوْلاَ أَمْنُهُ   في الأَرْضِ ما أَلِفَ الجُفونَ هُجُودُهَا
مَلِكٌ تَرى الأَمْلاكَ وَهْوَ يَطولُهَا   سَبْقًا لِغاياتِ العُلَى ويَسُودُهَا
ما شامَ في الأَقْطارِ قائِمَ سَيْفِهِ   إلاّ وَقامَ بعَدْلِهِ تَمْهِيدُهَا -103-
فارتَدَّ بَاغِيهَا وذُلِّلَ خَطْبُهَا   وانْقادَ مِن بعْدِ الإباءِ شَرُودُهَا
بِمَكارِمٍ لِلْمَعْلُواتِ يُنيلُهَا   ومَعالِمٍ لِلْمَكْرُماتِ يُشيدُهَا
وسَوابِقٍ يَحْلُلْنَ مُشْتَجِرَ القَنَا   غِيلاً فَتَزْأَرُ بالكُماةِ أُسُودُهَا
وَصَوارِمٍ ما جُرِّدَتْ في المُلْتَقَى   إلاّ وَهَامُ الدَّارِعينَ غُمودُهَا
عَجَبًا لهَا بِيضًا ومَا إن رَاعَهَا   خجل ويَبْدو في الوَغَى تَوْرِيدُهَا
وَذوابِلٍ خفت كَأَسْرابِ القَطَا   هِيمًا تحومُ وَفي النَّجيعِ وُرودُهَا
لَوْلاَ اشتِغالُ سِنانِهَا حَيْثُ النَّدَى   مِن كَفِّهِ يَهْمِي لأَوْرَقَ عُودُهَا
تُرْوَى المَعالِي عنْ عَواليهِ التي   ما راعَ زُرْقَ عُيونِهَا تَسْهِيدُهَا
فَتقودُ حَتْفَ المُعْتدِي لَحَظاتُهَا   وتُقَدُّ في حَلَقِ الدُّروعِ قُدُودُهَا
عَجَبًا لهَا طَوْعَ العَزائِمِ شُرَّعًا   لَمْ يَثْنِهَا عَن قصدِهَا تَقْصِيدُهَا
شِيَمٌ لأَنصارِ الرِّسالَةِ تَنْتَمِي   إنْ عُدِّدتْ لاَ ينقَضِي تَعْدِيدُهَا
للهِ آثارٌ لهُمْ وَمآثِرٌ   يَبْلَى الزمانُ ولاَ يَزولُ جَديدُهَا
فِبهِمْ أُبِيدَتْ في اليَمامَةِ أُمَّةٌ   غَصَّتْ بِهِمْ طوْعَ الضَّلاَلَةِ بِيدُهَا(202)
ولِيَوْمِ بَدْرٍ بَادَرُوا فاسْتأصلوا   فِئَةً تَمادَى كُفْرُهَا وَجُحُودُهَا(203)
لِجدالِهَا حُجَجٌ تُثيرُ جِلاَدَهَا   حَيْثُ الحُسامُ مُبِينُهَا وَمُبِيدُهَا

---

(202) اليمامة هي موطن بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب.

(203) يشير إلى دور الأنصار في غزوة بدر.

حَتَّى قَضَوْا طوْعَ الجِهادِ وَخَلَّفوا خُلَفـاءَ أُنْجِـزَ بالعُلَـى مَوْعُودُهَـا
كانُوا ظِـلالاً والهَواجـرُ تَلْتَظِـي قَدْ فاءَ فَوْقَ العالَميـنَ مَديدُهَـا
بِهِـمُ الخِلافَـةُ نُظِّـمَتْ أسْلاكُهَـا لَمَّا وهَـى بيَدِ الضَّلالِ فَرِيدُهَـا
وَأتَى عَدُوُّ الدّينِ يَرْجُو أن يُرَى عَن حَمْلِ ما قَدْ قَلَّدَتْهُ يَؤُودُهَـا
أعْلَوْا مَظاهِـرَ قُبَّـةِ الإسْلامِ إذْ قـامَتْ بِهِـمْ أطْنابُهَـا وعَمُودُهَـا
فئةٌ تَمائِمُهَا السُّيوفُ ومـا دَرَتْ لِلحَـرْبِ مَعْنًـى والسُّرُوجُ مُهُودُهَـا
ولِحَمْلِ أعْباءِ الوَفاءِ قدِ انْبَـرَى مِن قَبْلِ أنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ وَلِيدُهَا
تُتْلَـى وتُجْلَـى آيُهَـا وإياتُهَـا يُرْجَى ويُخْشَى وعْدُهَا ووَعيدُهَا[204] -104-
فلَهَا عَلى حُكْمِ المَكارِمِ وَالعُلَـى هِمَمٌ قَضَتْ أنَّ المُلوكَ عَبيدُهَـا
فمَعالِـمُ الإسْلامِ بعْـدَ عفائِهَـا في أرْضِ أنْدَلُسٍ بهِـمْ تَوْطيدُهَـا
يـا ناصِرَ الدِّيـنِ الـذِي أمْداحُـهُ وَيَهْدِي وَيُهْدَى قَصْدُهَا وقَصيدُهَـا
وَقَفَتْ بِبابِكَ مِن مَريـنٍ أُسْرَةٌ طَوْعَ الوَفاءِ فما تُضاعُ عُهُودُهَا
وافَتْكَ لا تَثْنِـي اعِنَّـةَ سَيْرِهَـا وَرجاؤُهَـا إذْ يَمَّمَـتْكَ يَقودُهَـا
فأنَلْتَ ما شاءَتْ مِن النِّعَمِ الَّتي يُرْجَى وانْ عَظُمَتْ لديْكَ مَزيدُهَا
واهْنَـأْ بعِيـدٍ عائِـدٍ لكَ بالمُنَـى ولْتَهْنَـإِ الدُّنْيـا لَـدَيْكَ مَزيدُهَـا
قد سَارَ شَهْرُ الصَّوْمِ أكْرَمَ ظاعِنٍ يُلْقِـي أحَـاديثَ العُلَـى وَيُعيدُهَـا
تَتناقَـلُ الرُّكْبـانُ منْهَـا كُلَّمَـا قـدْ لَـذَّ في أسْماعِهَـا تَرْديدُهَـا
هَيْهاتَ يَنْسَى مِن حِماكَ مَعاهِدًا ولهَـا عُهـودٌ ما يُـذَمُّ حَميدُهَـا
وأتاكَ عيـدُ الفِطْرِ أشْرَفَ قـادِمٍ راقَ المَكـارِمَ عِنْـدَهُ تَجْديدُهَـا
قد شَفَّـهُ شَوْقٌ لِحَضْرَتِكَ الَّتِـي بعَوائِـدِ الصُّنْعِ الجَميـلِ يَعودُهَـا
فَطَلَعْتَ في أُفْـقِ الخِلافَـةِ آيَـةً راقَتْ تَهائِمُهَـا بِـهِ ونُجودُهَـا
ولَدَيْكَ مِن أمَرَاءِ مُلْكِكَ أوْجُـهٌ غُـرٌّ تَـرُوقُ النَّيِّـراتِ سُعودُهَـا

(204) فيه لفّ ونشر مرتب، وإياة الشمس : ضوءها وشعاعها.

وَمَدَدت لِلتَّقْبِيلِ كَفًّا لَمْ تَزَلْ   تَنْهَلُّ فَوْقَ الآمِلِينَ عُهودُهَا
أولَيْتَ أَحْرارَ القَبائِلِ أَنْعُمًا   وَبَدَأْتَهَا وَنَدَى يَدَيْكَ مُعيدُهَا
فأتَتْ إِلَى تَجْديدِ بَيْعَتِكَ الَّتِي   هَاذِي مَلائِكَةُ السَّماءِ شُهودُهَا
جَعَلَتْ يَمينَكَ لِلْمَكارِمِ قِبْلَةً   فَلِذاكَ طَالَ رُكوعُهَا وَسُجودُهَا
وإِلَيْكَهَا مِنْ بَحْرِ فِكْرِيَ لُؤْلُؤًا   لَوْلاَ خِلاَلُكَ لَمْ يَرُقْ تَنْضيدُهَا
حَسْنَاءُ فالزُّهْرُ الكَواكِبُ تَنْثَنِي   عنْهَا وتَقْصُرُ في المَقاصِرِ غِيدُهَا
أَوَ لَيْسَ أَفْكارِي حَدائِقَ تُجْتَلَى   لاَ يَشْتَكِي مَحْلاً لَدَيْكَ مَجودُهَا[205]
لَوْلاَكَ مَا راقَتْ مَعانِيهَا وَلاَ   راقَتْ عَلَى جِيدِ الزَّمانِ عُقودُهَا
لَكَ دَوْلَةُ العِزِّ التِي قَدْ عَزَّ مَن   أَضْحَى مُوالِيهَا وخابَ حَسُودُهَا
يَدْعو لَهَا بالنَّصْرِ كُلُّ مُوَحِّدٍ   دامَتْ لَهَا الدُّنْيَا ودامَ خُلودُهَا
فعَلَى الخلائِقِ أَنْ تُطيلَ دُعاءَهَا   وعَلَى الذِي تَدْعُو لَهُ تَخْليدُهَا

وأنشدتُ في عيدِ الأضحَى منْ عام ستَّة عَشَرَ.
وثَماني مِئة بالمشْوَر السَّعيدِ مِنْ حَمرَائِهِ العَلِيّةِ وَقَدْ
ورَدَ عَلَى بابِهِ الكَريمِ جُمْلَةٌ وافِرَةٌ من أكابِرِ بَني مَرين
وسِواهُمْ مِنَ القبائِلِ بعْدَ الحادِثَةِ عَلى السُّلطانِ السَّعيدِ
لائذين بعِزِّ جَنابِه، مُتَمَسِّكينَ بأَوْثَقِ أسْبابِه، فَأَوْلاَهُمْ
أَيّدَهُ الله مَواهِبَ أَنْعُمِهِ وَآواهُمْ، وَوَفَّرَ نُزْلَهُمْ عِنْدَ
وِفادَتِهِمْ وَكَرَّمَ مَثْواهُمْ، فاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدّار، وقَرّ بحَضْرتِهِ القَرار[206]

كَواكِبُ عِزٍّ في ذَرَاكِ حُلولُهَا   تَلُوحُ وَلَكِن لَيْسَ يُخْشَى أُفُولُهَا

(205) مَجودها : منْ جيد بمعنى عطش.

(206) تشير هذه المقدّمة إلى فشل الممدوح في قلب النظام بالمغرب وإلىْ نهاية «السعيد» ولجوء من كان معه إلى غرناطة، أمّا نهاية السعيد وتاريخها فتوجد فيها روايات مختلفة فالسخاوي في الضوء اللامع =

وأنوارُ هَدْيٍ تُجْتَلَى حَيْثُ لِلْعِدَى ... عُيونٌ تَعامَى عَنْ سَناهَا كَلِيلُهَـا
وآيات نَصْرٍ لَيْسَ تَخْفَى إيَاتُهَـا ... وقَـدْ وَضَحَتْ لِلْمُهْتَديـنَ سَبيلُهَـا
وآثارُ مُلْكٍ ما دَجَى لَيْلُ مُعْضِلٍ ... مِنَ الـرَّوْعِ إلاَّ والـحُسامُ دَليلُهَا
مَآثِرُ مَن بالوَحْيِ قَدْ عَزَّ قَوْمُـهُ ... بِطَيْبَـةَ إذْ آوَى إلَيْهَـا رَسُولُهَـا
إمَامٌ لهُ القِدْحُ المُعَلَّى إذا ارْتَمَتْ ... قِـداحٌ وأعْـلامُ المُلـوكِ تُجيلُهَـا
شَفَى مُعْضِلَ الأيّامِ وَهْيَ عَلى شَفًا ... بِجَـدْواهُ إذْ أعيَـا الأُساةَ عَلِيلُهَـا
لهُ كيفَ شاءَتْهُ المَكـارِمُ والعُلَـى ... مَآثِـرُ في الأمْـلاكِ عَـزَّ مَثيلُهَـا
حَكَى يُوسُفٌ في الحسْنِ والمُلكِ يُوسُفًا ... فَغَرْناطَـةٌ مِصْرٌ وَجَـدْواهُ نِيلُهَـا
فأوْرَثَـهُ المُـلْكَ المُؤَثَّـلَ وَالعُلَـى ... وأنجَبَـهُ صِدّيقُهَـا وَخَلِيلُهَـا
فُروعٌ زَكَتْ في دَوْحَةِ النصْرِ بَعْدَما ... نَمتْهَـا لِأَنصارِ الـرَّسولِ أصُولُهَـا -106-
غُيوثٌ إذا مَا السُّحْبُ أخْلَفَ جَوْدُهَا ... لُيُـوثٌ وَمُلْتَـفُّ الذَّوابِـلِ غِيلُهَـا
لقَـدْ أنجَبُوا مَوْلًى تَـؤُمُّ جَنابَـهُ ... أكَارِمُ يَحْظَـى بالعُلَـى مُسْتَنِيلُهَـا
تُـرَدِّدُ أثْنـاءَ التَّرَحُّـلِ ذِكْـرَهُ ... حُـداةُ المَطايَـا إذ تَـهُبُّ قَبولُهَـا
فَما حَمَلَتْ رِيحُ الصَّبَا مِن ثَنائِهِ ... نَوافِـحَ إلاَّ واسْتَقَـلَّتْ حُمُولُهَـا

= (8 : 62) يذكر أن «السعيد» «تقَطَّر به فرسه في بعض الحروب بخندق وهو سكران فأُدْرِكَ به فَحُزّ رأسُه في محرّم سنة 816 وجيء به إلى أبي سعيد» وهذا التاريخ يوافق المذكور هنا، وجاء في إنباء الغمر لابن حجر : «وفيها (أي في سنة 814) كان السّعيد محمد بن أبي فارس عبد العزيز بن أبي سالم ابراهيم المريني يحاصر فاس وبها أبو سعيد بن أحمد بن أبي سالم، فهزَمَه أهل فاس بعد شهرين، وذلك في صفر منها، ووقع الافساد في الزروع، وقوي القوي على الضعيف، واشتد الغلاء، وكان الأردب عندهم بربع دينار، فارتفع بعد ذلك بأضعاف مضاعفة، ثم رجع السعيد إلى حصار فاس — وقد انتهبت الأعمال والنواحي — في ربيع الآخر، وحصرها نحوًا من عشرين يومًا، ثم هزموه، فتوجّه إلى سلا، ثم جمع عسكرًا، ورجع في شعبان، وحصر البلاد، وبنى مقابلَها مدينة سماها المنصورة، وانقضت السنة وهو على ذلك، ثم ملك البلد، ثم قام عليه ابن أبي حمّو موسى، وفرّ السعيد إلى تونس فهلك ببلد «العُنّاب» إنباء الغمر 7 : 28 — 29 أما الحسن الوزّان فيقول إن السعيد حاصر «مدينة فاس، بمساعدة بعض الجبليين من الأعراب، ودام الحصار سبعة أعوام، خرّب أثناءها قرى ومدنًا وقصورًا في جميع أنحاء المملكة، ثم تفشى الطاعون في جيشه، فهلك هو وفريقٌ من جنده، وذلك عام 816 للهجرة» وصف افريقيا ج 1 ص 210.

ومَا جُرِّدَتْ أسْيافُهُ يَوْمَ غارةٍ   وَتُغْمَدُ إلاّ في الكُماةِ نُصولُهَا
سَيَغْزُو أعادِيهِ بِشُهْبِ كَتائِبٍ   تُطاوِلُهَا شهْبُ الدُّجَى فَتَطولُهَا
تَحُلُّ دِيارَ الكُفْرِ مِنهَا سَوابِقٌ   تَجِلُّ عَنِ التّشْبيهِ حِينَ تَجُولُهَا
تَخوضُ إلَى الأعْداءِ بَحْرًا مِن الْقَنَا   سِراعًا وهَوْلُ الرَّوْعِ لَيْسَ يَهولُهَا
فتَرتاحُ خَيْلُ اللّهِ لِلمُلْتَقَى الذِي   يُجيبُ بِهِ دَاعِي الهُدَى ويُجيلُهَا
كأنْ بالجِيادِ الغُرّ ما أصْمَتَ العِدَى   ولاَ جَاوَبَ التَّكْبيرَ إلاّ صَهِيلُهَا
كأنْ بالظُّبا مَا أنْطَقَ الْهامَ في الوغَى   ولاَ أخْرَسَ النَّاقوسَ إلاّ صَليلُهَا
كأنْ بِالْقَنَا الخَطّيِّ ما قَصرَ العِدَى   ولاَ قَصَّرَ الأعْمارَ إلاّ طَوِيلُهَا
كأنْ بالبُنُودِ الحُمْرِ تَفْتَرِعُ الرُّبَى   كَمَا قدْ جَلا حُمْرَ السَّحابِ أصيلُهَا
كأنْ ببِلادِ الشِّرْكِ يحْتل أرْضَهَا   فيَعْتَزُّ بالفَتْحِ المُبينِ ذَلولُهَا
بِكُلِّ كَمّي في العَجاجَةِ سَيْفُهُ   يُجَلّي دَياجِي أفْقِهِ وَيُحِيلُهَا
خَفيفٍ عَلَى مَتْنِ الجَوادِ وَعَزْمُهُ   لهُ وَطْأةٌ يَكْفِي العَدُوَّ ثَقيلُهَا
وَذِي قِصَرٍ تُنْسي العَوامِلُ دُونَهُ   ويَقْصُرُ عَن مَرْماهُ في الحَرْبِ طُولُهَا
وَعَوْجاءَ مَهْمَا صُوِّبَتْ فَسِهامُهَا   ظَعائِنُ سَفْرٍ لَيْسَ يُرْجَى قُفُولُهَا
إذا ما ظُبَا الأعْرابِ يَوْمَ حَليمَةٍ   تَصولُ فَأسْيَافُ الجِهَادِ تَطُولُهَا(207)
فهاذِي التي لا عَيْبَ إلاَّ مَضاؤُهَا   وتِلكَ التي لاَعَيْبَ إلاَّ فُلُولُهَا
لَقَدْ كَلِفَتْ بالدَّارِعِينَ فَأصْبَحَتْ   يَروعُ جَواهَا أوْ يَرُوقُ نُحولُهَا
وهَامَتْ بِحُبِّ الْهامِ فَهْيَ بُثَيْنَةٌ   وَلَيْلَى تَفَانَى قَيْسُهَا وَجَميلُهَا(208)
لَئن صَدِئَتْ بالأمْنِ أفْئِدَةُ العِدَى   فَهاذِي التِي يَجْلُو صَداهَا صَقِيلُهَا -107-
تَرومُ عُداةُ الدّينِ شَأْوًا مُمَنَّعًا   وَقَدْ عَزّ مرْماهَا وأخْفَقَ سُولُهَا
ستُلْفِي الْقَنَا الخَطّيِّ في كَفّ يوسُفٍ   تُقيمُ صَغَا الهَيجاءِ حينَ يُميلُهَا

(207) يوم حليمة هو الذي قيل فيه : ما يومُ حليمة بسِر.

(208) اللف والنشر معكوس.

تَرى كُتْبَ الأعْداءِ يُسْقَى لَدَى الوَغَى   بريحٍ مِن النّصْرِ العَزيزِ مَهيلُهَا
يُبِينُ مَصوناتِ العَقائِلِ في ذَرَى   مَعاقِلَ أضْحَتْ لا يَبِينُ مُحيلُهَا
وَيُرْسِلُ لِلنصْرِ العَزيزِ كَتائِبًا   خِلاَلَ دِيارِ الكُفْرِ جاسَتْ خُيولُهَا
عَمائِمُهَا الأزْهارُ تَحْتَدِمُ الوَغَى   عَلَيْهَا ولكِن لاَ يُخافُ ذُبولُهَا
وقَدْ حَكتِ البِيضُ الرِّقاقُ جَداوِلاً   بِدَوْحٍ مِنَ السُّمْرِ العَوالي مَسيلُهَا
وجاءَتْ مَرِينٌ مِن أقاصِي بلاَدِهَا   فكانَ لَدَى مَوْلَى المُلوكِ حُلولُها
تَحُلُّ مَطاياهَا بهَا مِن جَنابِهِ   مَنَازِلَ عِزٍّ لَيْسَ يشْقَى نَزيلُهَا
فَيا موضِحًا مَعْنَى المَكارِمِ والعُلَى   وقِدْمًا لَوَى دَيْن الزمانِ مَطُولُها
نَدَى يَدِك العُلْيا رَجَتْ حينَ أقْبَلَتْ   فَحيًّا وأحْيَا بِشْرُهَا وقَبُولُهَا
فَجَلى دُجاهَا مِن مُحَيَّاكَ بِشْرُهُ   وَحَيَّا حِماهَا مِن جَداكَ هَمولُهَا
وإنَّ العُلَى والأمْنَ وَالحِلْمَ والهُدَى   وَبذْلَ النَّدى والفضْلَ مِمَّا تُنيلُها
تَعِزُّ وقَدْ هانَتْ لَدَيْهَا خُطوبُهَا   وتَعْلُو وقَدْ حُطَّتْ لَدَيْكَ حُمُولُهَا
فَكَمْ وارِدٍ منهُمْ عَلى بَابِكَ الذي   مُعَرَّسُهَا في رَبْعِهِ ومَقيلُهَا
فَتهْدِيهِ آمالٌ إلَيْكَ مآلُها   وتُهْديهِ أظْعانٌ إلَيْكَ رَحيلُهَا
ولِلهِ منهُمْ بَعْدَ حادِثَةِ النَّوَى   أماثِلُ قد أضْحَى لَدَيْكَ مُثُولُهَا
لَئِن هَاجَهَا بُعْدُ المَزارِ تَشَوُّقًا   كَما قَدْ شَجَى وُرْقَ الحَمَامِ هَديلُهَا
فَمَا لِحِمَى مَوْلَى الخَلائِفِ يوسُفٍ   عَديلٌ ولاَ عَنْهُ يُرامُ عُدُولُهَا
فَيا نَاصِرَ الدِّين الذي وَرِثَ العُلَى   عنِ الصَّحْبِ مِنْهُ سِبْطُهَا وَسَلِيلُهَا
خِلافتكَ العُلْيَا اسْتَقَلَّ عِمادُهَا   فَذل مُناوِيهَا وَعَزَّ قَبِيلُهَا
تُجاريكَ أمْلاكُ الزَّمانِ فَيَنْثَنِي   حَليفَ قُصُورٍ نَصُّهَا وَذَمِيلُهَا -108-
ومَنْ لِلدَّياجِي انْ تُنيرَ وأنْ يُرى   يُقاوِمُ أنوارَ الضُّحَى مُسْتَحيلُهَا
لَقَدْ جَهِلُوا ما حُزْتَ مِنَ شيمِ العُلَى   فَهانُوا وأشْقَى العَالَمينَ جَهُولُهَا
وهُنِّئْتَهَا طَوْعَ السُّعودِ مَواسِمًا   هُوَ الصُّنْعُ بالنَّصْرِ العَزيزِ كَفيلُهَا

وتَسْتَقْبِلُ الدنْيَا أوامِرَكَ التِي   نُطيعُكَ في إصْدارِهَا وَتُطيلُهَا
وبُشْراكَ بالأضْحَى ومُتّعْتَ بَعْدَهُ   بألْفِ لكَ الصُّنْعُ الجميلُ مُدِيلُهَا
طَلَعْتَ بأُفْقِ المُلْكِ صُبْحَ هِدايَةٍ   يُزيحُ الدَّيَاجي نُورهُ ويُزيلُهَا
مَدَدتَ إلى التقْبيلِ كَفًّا كَريمَةً   تُقيمُ صَغَا قُصَّادِهَا وَتُقيلُهَا
وأرْسَلْتَ مِن جَدْواكَ صوْبَ غَمامَةٍ   يُرَوِّي عَلَى حُكْمِ النَّدَى سَلْسَبيلُهَا
ووافَتْكَ أعلامُ الجِهَادِ فَراقَهَا   حَدائِقُ رِفْقٍ لَيْسَ يُخْشَى مُحولُهَا
لَقَدْ يَمَّمَتْ مَثْوَى العُلَى فأفادَهَا   صَنائِعَ يُرْضِي الآمِلِينَ جَمِيلُهَا
وحَلّتْ بمَغْنَى العِزِّ أزْكَى خَمِيلَةٍ   مِن الجُودِ لاَ يُخْشَى لَدَيْهَا خُمولُهَا
لَدَى مَلِكٍ تَغْدُو ظِلالُ أمانِهِ   وقَدْ فاءَ فَوْقَ العالِمينَ ظَليلُهَا
حَبَا بالعَطايَا فاسْتَقلَّ كَثيرَهَا   لهَا وعَلَى الآمالِ زادَ قَليلُهَا
فَما مِنهُمُ إلاَّ لِنعْماكَ شاكِرٌ   مُطيبُ أحاديثِ الثّناءِ مُطيلُهَا
وما مِنهُمْ إلاَّ وَلِيُّ مَجادَةٍ   يُطاوِلُ شهبانَ السَّماءِ أثيلُهَا
وخُذْهَا لحُسْنِ الوصْفِ تُبْدِي شَمائِلاً   تَروقُ فَتسْتَهْوِي العُقولَ شمُولُهَا
تُريكَ مَعانيهَا جِيادَ بَلاغَةٍ   نَداكَ بمَيْدانِ البيانِ مُجيلُهَا
تُقِرُّ لِيَ الآدابُ أنِّي زَعيمُهَا   وتَعْجزُ عن إدْراكِ شَأْوِي فحُولُهَا
وتَقْصُرُ عَن مَرْمَى حُلاهَا عقائِلٌ   جَلَتْهَا عَلَى صَفْحِ الزّمانِ عُقولُهَا
ولِمْ لاَ ومِن آثارِكَ الغُرِّ أنجُمٌ   ثَوابتُ لاَ يُخْشَى عليْهَا أُفُولُهَا
وَجَدْواكَ لِلأفكارِ مَعْنَى وُجودِهَا   فَيَهْدِي إلى جَزْلِ النّظامِ جَزيلُهَا
وَوَصْفُكَ آتيهَا بكُلِّ غَريبَةٍ   وَجودُكَ إن ضَلّتْ سَبيلاً دَليلُهَا
فَلازِلْتَ لِلأمْلاكِ وِجْهَةَ قَصْدِهَا   تُبَلِّغُهَا أقْصَى المُنَى وتُنيلُهَا -109-

**وأنشدتُ في عِيد الفِطْر مِنْ عام سَبْعَةَ عَشَرَ وثمانِي مِائة مُهَنِّئًا
مَقَامَهُ الكَرِيمَ أيَّدَهُ الله وَالرّكابُ العَلِيُّ قريبُ عَهْدٍ بِالإيَّاب
مِنْ فتحِ جَبَلِ الفتحِ أمّنَهُ الله وكُنْتُ لَمْ أنشِدِ الدَّالِيَّةَ قَبْلَ هَذا
فَنَظَمتُ هَذِهِ عَلى أسْلوبِهَا واتَّبَعْتُ في كَثيرٍ مِنَ المَعانِي طَرِيقَتَهَا**

هَذي الخِلافَةُ قد مَلَكْتَ قِيادَهَا ... واجَلْتَ في طَلَقِ السُّعُودِ جِيادَهَا
هَذي مَلائِكَةُ السَّمَاءِ تَنَزَّلَتْ ... بالنّصرِ تُنْجِدُ في الوَغَى أجْنادَها
هَذي البَشائِرُ قدْ رَفَعْتَ لواءَهَا ... وأقمْتَ بالصُّنْعِ الجَميلِ عِمادَهَا
هَذِي العَزائِمُ كُلّمَا أعْمَلْتَهَا ... أبْعَدْتَ في شأوِ العُلَى آمادَها
هَذي الكَواكِبُ تَسْتَقِلُّ سُعُودُهَا ... لكَ حَيْثُ تُطْلِعُ لِلعِدَى أضْدادَها
هِذِي الكَتائِبُ كلّما احْتَدَمَ الوَغَى ... أرسَلْتَ مِنْ غابِ القَنا آسَادَهَا
هَذِي الجُنودُ أطَلْتَ في سُحُبِ النَّدَى ... إنْهالَها وإلى العِدَى إنهادَها
هَذِي العِدَى أمّتْ نَواكَ عَلى النّوى ... لمّا نَوِيْتَ جَلاءَهَا وجِلادَها
هَذي الخَلائِفُ مِنكَ تَبْغِي نَصْرَهَا ... في المُعْضِلاتِ وتَرتَجي إنجَادَهَا
هَذي الوُفودُ تَؤُمُّ حَضرَتَكَ التي ... قدْ أوْرَدَتْ عَذْبَ المُنَى رُوّادَهَا
هَذِي أحاديثُ المَكارِمِ وَالعُلَى ... صحّحْتَ إذْ أرْسَلْتَهَا إسْنادَهَا
أتتِ الرِّفاقُ عَلَى النَّوَى فأنُلْتَهَا ... إرْفاقَهَا وأفَدْتَهَا إرْفادَهَا
وَفَدَتْ تُؤَمِّلُ مِنكَ أكْرَمَ مُنْعِمٍ ... فأنالَ أشْتاتَ المُنَى وأفادَها
لَمْ تَثْنِ عَنْ أوْصافِهِ قَوْلاً وَلاَ ... مَلَّتْ عَلى طولِ المَدَى تَرْدادَهَا
كَمْ رَوْضَةٍ لِلرِّفْدِ أيْنَعَ زَهْرُهَا ... قَدْ أظْفَرَتْ بالمُرْتَجَى مُرْتادَهَا
كَمْ سُنَّةٍ للجُودِ قَد جَدَّدتَها ... لَوْلاكَ لَمْ تَرْجُ العُفاة مَعادَهَا
كَمْ رَحْمةٍ نَشأتْ لَدَيْكَ سَحائِبُهَا ... أرْسَلْتَ طَوْعَ المَكْرُمَاتِ عِهادَها -110-
كَمْ حِكْمَةٍ بَهَرَ العُقولَ خَفِيُّهَا ... أوْرَيْتَ بالحُكْمِ الجَلِيِّ زِنادَهَا
كَمْ حجّةٍ لِلنَّصْرِ قامَ دَلِيلُهَا ... لمَّا أقمْتَ مِنَ القَنا مُنْآدَهَا

كَمْ آيَةٍ لِلفَتحِ عَزَّ مَثيلُهَا ... أطْلَعْتَ فِي أُفُقِ العُلَى وَقَّادَهَا
كَمْ عَادَةٍ لِلعِزِّ قَدْ عُوِّدتَهَا ... بالسَّيْفِ تُعْجِزُ مَن يَرُومُ عِنادَهَا
كَمْ عزمَةٍ يُنْجِي الأمينَ أمانُهَا ... لَوْ لَمْ يَفُتْ وَيَرى الرَّشيدُ رَشادَهَا
كَمْ صَوْلَةٍ لِلمُعْتَدينَ صِيالُهَا ... أفْنَى جُموعَ حُماتِهَا وأبادَهَا
كَمْ فتْنَةٍ أخْمَدتَها من بَعْدِ أنْ ... قدْ كان أوْقَدَهَا الضُلاَّلُ وَقادَهَا
هَذا الهُمَامُ العَادِلُ الأرْضى الذي ... قادَ الجُيوشَ إلَى العِدَى فاقتَادَهَا
مَدَّتْ بَأمْلاكِ السَّماءِ جُنودُهُ ... ظِلَّ الأمَانِ فواصَلَتْ إمْدادَهَا
لكَأنْ بأنْصارِ الهُدَى قدْ زَلزَلَتْ ... أرْضَ العُداةِ وَضَعْضَعَتْ أطْوادَهَا
لَكأنّ بأحزابِ الضّلالِ مَروعَةً ... بكَتائِبِ أخَذَتْ لهَا اسْتِعْدادَهَا
لكأنْ بهَا لمْ تاتِ طَوْعَ مُرادِهَا ... إلاَّ مَنَعْتَ مُرادَهَا ومَرادَهَا
لكأنْ بسَيْفِكَ قدْ كَفَى أعْدادَهَا ... إذْ كفَّهَا عَمَّا نَوَتْهُ وآدَهَا
لكأنْ بِهِ قدْ قَلَّلَ اسْتِقلاَلَهَا ... طَوْعَ الجِهادِ وبَدَّدَ اسْتِبْدادَهَا
لَكأنْ بأرْضِ العُدْوَتَيْنِ تُحِلُّهَا ... جُرْدًا تَعُمُّ هِضابَها وَوِهادَهَا
صالَتْ بإحْدَى الحسْنَيَيْنِ فَواصَلَتْ ... تأْويبَهَا فِي اللَّهِ أوْ إسْآدَهَا
حيْثُ الخُيُولُ تُريكَ مِنْ خُيَلاَئِهَا ... مَا يُورِدُ الحَرْبَ العَوانَ وِرَادَهَا
مَا جَنّدَتْ صِيدُ المُلوكِ جُنودَهَا ... إلاَّ وقدْ جَعَلَتْ بِكَ اسْتِنْجادَهَا
مَا أيْنَعَتْ لِلْمَكْرُماتِ حَدائِقٌ ... لَوْلاَ سَحابٌ مِن نَوالِكَ جادَهَا
والمَشْرَفِيَّةُ لَيْسَ يُنْجِدُ حَمْلَهَا ... ان لَمْ تُطِلْ شَرَفًا لدَيْكَ نِجادَهَا
بِيضٌ تَكادُ تَذوبُ طَيَّ غُمودِهَا ... حِقْدًا عَلى مَنْ خانَهَا أوْ كادَهَا
يَكْسُو النَّجيعُ مُتُونَهَا إن جُرِّدَتْ ... فكأنَّهَا مَا فَارَقَتْ أغْمادَهَا -111-
تَحْكِي جَداوِلَ حيْثُ أوْقَدَتِ العِدَى ... لِلحَرْبِ نَارًا واصَلَتْ إخْمادَهَا
وَذوابِلٍ صَدَرتْ نَواهِلَ بَعْدَمَا ... قدْ كانَ حَلاَّهَا الضَّلالُ وذَادَهَا
سُمْرٌ تُريكَ مِنَ الأسِنَّةِ أنْجُمًا ... والحَرْبُ تُخْفِي فِي العَجاجِ صِعَادَهَا

لِلّهِ أندَلُسٌ فكَم من عَزْمَةٍ … لَكَ مَهَّدتْ أقْطارَهَا وَبلادَهَا(209)

ولَطالَمَا أجْهَدتَ نفْسًا آثَرتْ … في اللّهِ طَوْعَ المَعْلُواتِ جِهادَهَا

وَخطبْتَ فَتْحَ العُدْوَتَيْنِ فَلَمْ تَدَعْ … خَطْبًا يَذودُ عَنِ العُيونِ رُقادَهَا

وَطرَقْتَ مَنْزِلَ طارِقٍ بِكَتائِبٍ … أحْلَلْتَ في أنجادِهِ أنجادَهَا

وَعَدَتْ بِهِ الأيّامُ بَعْدَ مِطالِهَا … فَوَفَتْ لَدَيْكَ وأنجَزَتْ مِيعادَهَا

رِيعَتْ جُموعُ حُماتِهِ فاسْتَنْصَرتْ … بِكَ واسْتجارَ جَميعُهَا مِمَّادَهَا

لَمَّا دَعا دَاعِي الرَّشادِ تَهَيَّأتْ … طَوْعًا لِمَا قَدْ شاءَهَا وأرادَها

عَادَتْ لِملكِكَ واسْتقامَتْ بَعْدَمَا … كانَتْ عَدَتْ إذْ خالَفَتْ مُعْتادَهَا

أنجَزْتَ بالرِّفْدِ المُؤَمَّلِ وَعْدَهَا … لَمَّا صَفَحْتَ ولَمْ تُجزْ إيعَادَهَا

فاتَتْ وقَدْ جَعَلَتْ يَمينَكَ قِبْلَةً … إذْ قابَلَ الصَّفْحُ الجَميلُ عِنادَهَا

وَمُعِزُّ دَوْلَتِكَ الكَريمَةِ لَمْ يَزَلْ … يُرْدِي بآسادِ العَرينِ نِقادَهَا(209م)

يُرْضِي خِلافَتَكَ التِي عَلْياؤُهَا … كَبَتَتْ بسَيْفِ عَلِيِّهَا حُسَّادَهَا

فَأذَلَّ عاصِيَهَا بِعِزِّكَ بَعْدَمَا … أضْحَى رِضاكَ مُؤَمَّنًا مُنْقادَهَا

واحْتَلَّ مِنْهُ المَعْقِلَ الأشِبَ الذِي … نَالَتْ بِرِجْعَتِهِ النُّفوسُ مُرادَهَا

جَبَلٌ سَما فإذا بَدَتْ أبراجُهُ … خِلْتَ البُرُوجَ بِأُفْقِهِ أندادَهَا

هَذا وَيا لِلّهِ حَضْرَتُكَ التِي … تُلْقِي لَدَيْكَ بِهَا المُلوكُ قِيادَهَا

سَامَتْ كمَا شاءَتْ لَهَا رُتَبُ العُلَى … شُهُبَ السَّماءِ فَطاوَلَتْ أبْعادَهَا

فَلْيَهْنِ كُلَّ مُتَمِّمٍ أرْجاءَهَا … يَرْجوكَ إنْ أَلِفَ العُلَى واعْتَادَهَا

واهْنَأْ بِعيدٍ بالمَسَرَّةِ عائِدٍ … قَدْ زارَها طَوْعَ السُّعُودِ وعادَهَا -112-

ولْيَهْنإِ الأعْيادَ مِنْكَ مَآثِرٌ … أضْحَتْ كَما تَبْغِي العُلَى أعْيادَهَا

اطْلَعْتَ بَدْرًا مِن مُحَيَّاكَ الذِي … مِنْهُ رَجَتْ شمسُ الضحَى اسْتِمْدادَهَا

---

(209) لك، كتب فوقها : قد، وكأنّها رواية.

(209م) النّقاد : صغار الغنم.

ومَـدَدْتَ لِلتَّقبِيـلِ كفًّـا طَالَمَـا بَـدَأَ المَكـارِمَ جُـودُهُ وأعادَهَـا
والعَبْـدُ يُلْقِـي في عُـلاكَ مَدائِحًـا حَلَّـى البَيـانُ بـدُرِّه أجْيادَهَـا
ما أحْضَرتْ مِنهَا البَلاغَـةُ نَقْدَهَـا إلاَّ ثـنَتْ عَـن قصْدِهَـا نُقَّادَهَـا
لوْلاَ نَوالُكَ أيُّهَا المَـلِكُ الـرِّضَى وَحُلاَ خِلاَلِكَ لمْ يُجِـدْ إنْشادَهَا
لَكِـنَّ رَاحـتَكَ الكَـرِيمَةَ بالنَّـدَى جـادَتْ غَمائِـمُ جُودِهَـا فَأجادَهَـا
ولَدَيْكَ مِنْ حِزْبِ الهِدَايَـةِ أُسْرَةٌ تُبْدِي لمُلْـكِكَ حُبَّهَـا وَوِدادَهَـا
حَلَّتْ لدَى مَوْلَى المُلوكِ مَعَالِمًـا قدْ وَثَّرتْ أيْدِي العَلاءِ مِهادَهـا(210)
مَـازِلْتَ تَحْرُسُهَـا بعَيْـنِ كَـلاَءَةٍ نـامَ الأنـامُ وقـدْ أطَـلْتَ سُهادَهَـا
فَحَمَيْتَ مِن قَصْدِ العِدَى أرْجاءَهَا وأنَـلْتَ أشتَـاتَ المُنَـى قُصَّادَهَـا
فَلأهْلِهَا بكَ صَوْلَـةٌ مَـا قابَـلَتْ أعْداءَهَـا إلاَّ كَـفَتْ أعدَادَهَـا
كُـلٌّ يَقُـولُ مُؤمِّنًـا وَمُؤَمِّـلاَ دَامَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَدُمْتَ عِمادَهَـا

وأنْشَدتُ في أضْحَى عامِ سَبْعَةَ عَشَر وثَمانِمائة بالحَضْرَةِ العَلِيَّة

هَنيئًا بهِ يا ناصِرَ الدّين مَوْسِمَـا يُغادِرُ أهْـلَ الشّرْكِ نَهْبًا مُقَسَّمَـا
وَبُشْراكَ طَوْعَ النَّصرِ والعِزِ والعُلَى بِمَا أبْرَمَ الصُّنْعُ الجَميلُ وأحْكَمَـا
حُبِـيتَ بِـهِ نَصْرًا عَزِيـزًا مُؤَبَّـدًا وفُزْتَ بـه صُنْعًـا جَميـلا مُتَمَّمَـا
وفتْحًـا مُبِينًـا واعْتِـلاءً مُخَلَّـدًا لِذِكْرِكَ في صَفْحِ الزّمان مُرَسَّمَـا
سَلَـكْتَ سَبيـلاً لِلمحَامِـدِ لاَحِبًـا وأوْضَحْتَ مَعْنًى لِلمكـارِمِ مُبْهَمَـا
وَبُوِّءْتَ مِن أفْقِ الخِلافَةِ مَظْهَـرًا يُطاوِلُ لمَّا أنْ سَمَا شُهُبَ السَّما
فقَدْ جَعَلتْهُ الأنْجُمُ الزُّهْـرُ مَطْلِعًـا إلَى مُرْتَقَى السَّبْعِ الطِّباقِ وَسُلَّمَـا -113-

---

(210) وثّرت : جعلته وثيرًا.

ومازِلْتَ تُرجوكَ الخَلائِفُ مانِحًا … نَدَى يَدِكَ العُلْيا عُلاً وَتَكرُّمَا
لِمَا جُزْتَهُ مِن رُتْبَةِ النَّجمِ مُعْلِيًا … بمَا حُزْتَهُ مِن شِيمَةِ الحِلْمِ مُعْلِمَا
بِكَ استَنْصَرَ الأمْلاكُ بَدْءًا وَعودَةً … فأنجَدَ كُلٌّ في رِضاكَ وأتْهَمَا
بأكْرَمَ مَن أهْدَى وأعْلَمَ منْ هَدَى … وأرْحَمَ مَن آوَى وأحْزَمَ مَنْ حَمَى
دَعَتْ مِنْكَ مَوْلًى مفْضِلاً مُتطَوِّلاً … فوالَيْتَ إنْعامًا وأوْلَيْتَ أنْعُمَا
ومَا أحْجَمَتْ إلاّ تَوَقتْك مانِعًا … وَلا أقْدَمَتْ إلاَّ تَلَقَّتْكَ مُنْعِمَا
ولاَ استَنْشَقَتْ رُوحَ الحَياةِ وقدْ جَرتْ … لَدَيْكَ رِياحُ النَّصْرِ إلاَّ تَنَسُّمَا
فكَمْ هِمَّةٍ نصْرِيَّةٍ راعَتِ العِدَى … وكَمْ ذِمَّةٍ مَرْعِيَّةٍ حاطَتِ الذِّمَا
سَتَتْرُكُ أرْضَ الشِّرْكِ وهْيَ بَلاَقِعٌ … وتُلْقِي عَلَيْهَا النَّقْعَ في الجَوِّ مِيسَمَا
بحَيْثُ تُراعُ الوَحْشُ أن تَصِلَ السُّرَى … بِبَيْدائِهَا والطَّيْرُ أن تَتَرنَّمَا
لَقَدْ خَطَبَ الخَطِّيُّ فَتْحَ بِلادِهِ … وخَاطَبَهُ الهِنْديُّ عَنكَ فَأفْهَمَا
فَلِلّهِ مِنْهَا إذْ تَحُلُّ حِلاَلَهُ … صَنائِعُ جَلَّتْ قَبْلُ أنْ تُتَوَهَّمَا
بكُلِّ كَمِيٍّ إنْ سَرَى أسَرَ العِدَى … وان حَلَّ مغنًى خِلْتَ ما فيهِ مَغْنَمَا(211)
وإن زارَ أرْضَ الشِّرْكِ عَفَّى طُلولَهَا … وحَكَّمَ فِيهِمْ سَيْفَهُ فَتَحَكَّمَا
وإنْ خَفَّ جَيشُ النصْرِ أوْ عادَ قافِلاً … فَيَكْلأُ في أعْقابِهِ مَن تَقَدَّمَا
ويُقْدِمُ لاَ يَثْنِي أعِنَّةَ عَزْمِهِ … بحَيْثُ يَهابُ اللَّيْثُ أنْ يَتَقَدَّمَا
ويُحْجِمُ عَن أن يَنْثَنِي وَهْوَ مُفْرَدٌ … بِحَيْثُ يَعافُ الجَمْعُ أنْ يَتَلَوَّمَا
فَلَمْ يَرْعَ في الأرْجاءِ إلاَّ تَأخُّرًا … ولَمْ يَرْضَ في الهَيْجاءِ إلاَّ تَقَدُّمَا
ولَوْلاَ ابْنُ نَصْرٍ ناصِرُ الدِّينِ يُوسُفٌ … لَمَا أعْلَتِ الأمْلاَكُ لِلعِزِّ مَعْلَمَا
ولاَ رَاعَ أحْزابَ الضَّلالِ جِهادُهَا … وقَدْ راقَ ثِغْرُ الثَّغْرِ عَنْهُ تَبَسُّمَا
ولاَ ارْتاحَتِ الخَيْلُ العِتاقُ إلى المَدَى … فَسامَتْ مَذاكيهَا البُروقَ تَلَوُّمَا
ولاَنْثَنَتِ السُّمْرُ العوَالِي لَدَى الوغَى … ذَوابِلَ في الأيْدِي تَروقُ تَنَعُّمَا

---

(211) خلتَ، كتب فوقها في الأصل : كانَ، وهذا يحصل للشاعر أحيانًا فيقترح كلمة في موضع أخرى.

أسِنّتُهَا في مُلْتقَى الحَرْبِ أنْجُـمٌ   تَجلّتْ فَجَلّتْ مِن دُجَى النَّقْعِ مُظْلِمَا -114-

هَوَيْـنَ لِيَجْعَلْـنَ النَّجيـعَ مَـوَارِدًا   كأنَّ طُيورًا في ذُرَى الجَوِّ حُوَّمَا

تُرَى حُمْرَهَا فَجْرًا يَرُوقُ وَزُرْقَهَا   تُحَييكَ في لَيْـلِ العَجَاجَةِ أنجُمَـا

وَمِن عَجَبٍ أنَّ السُّيوفَ جَداوِلٌ   تشُبُّ أُوارَ الحَرْبِ لا تَنْقَعُ الظَّمَا

إذا هِي سالَتْ في مَدَى النَّقْعِ خِلْتَهَا   تَشُقُّ مِنَ الخَطِّيِّ دَوْحًا مُنَعَّمَا

وَعَوْجاءَ لِلأغْراضِ يَسْبِقُ سَهْمُهَا   ويَكْلَفُ مِنْهَا بالقَصِيِّ إذا رَمَى

فَيُبْدِي لدَى النَّزْعِ الحَنينَ كَأنَّهُ   يُحاوِلُ إعْرابًا وإنْ كانَ أعْجَمَا

ولِلهِ مَوْلًى أُعْمِلَتْ عَزماتُهُ   لِتَحْرُسَ أيْقاظًا وتُوقِظَ نُوَّمَا

فأرْسَلَهَا سُمْرًا وأعْمَلَهَا ظُبًا   وفوَّقَهَا في مُلْتَقَى الحَرْبِ أسْهُمَا

ومَا لَقِيَ الأعْداءَ إلاَّ مُجَدّلاً   ولاَ اقتَحَمَ الهَيْجاءَ إلاَّ مُصَمِّمَا

وَلا احْتَمَلَ الهِنديَّ إلاَّ مُجَرَّدَا   ولاَ اعْتَقَلَ الخَطِّيَّ إلاَّ مُقَوَّمَا

وَلاَ يُنْهِدُ الأجْنادَ إلاَّ مُمَلَّكَا   ولاَ يُنجِدُ الأمْلاكَ إلاَّ مُحَكَّمَا

ولاَ يَسْتَجِدُّ العَزْمَ إلاَّ مُؤَيَّدًا   ولاَ يَسْتَجيدُ الطِّرْفَ إلا مطَهَّمَا

يَهُبُّ هُبوبَ الرِّيحِ حَتَّى كَأنَّهُ   تَجَسَّدَ مِن هَبَّاتِهَا وتَجَسَّمَا

إذا رامَ أمْلاكُ الزَّمانِ إلى العُلَى   نُهُوضًا وَسَبْقًا لِلنَّدَى وتَقَدُّمَا

فناصِرُ دِينِ اللّهِ أشْرَفُ مُنْتَدَى   وأكْرَمُ في صَحْبِ الرِّسالَةِ مُنْتَمَى

يُحَيِّيكَ بالبَدْرِ المنِيرِ إذا انتَهَى   كَمالاً ويَنْمَى لِلصِّحابِ إذا انْتَمَى

وأيْنَ مُحَيَّاهُ مِنَ الفَجْرِ إنْ بَدَا   وجَدْواهُ مِن صَوْبِ الغَمامِ إذا هَمَى

جَوَادٌ مَتَى ضَنَّ الْمُلُوكُ فَرِفْدُهُ   جَوَادٌ لَهُ خَصْلُ السَّبَاقِ إذا ارْتَمَى

رَأى جُودَهُ لِلقَاصِدِينَ مُؤَمَّلاً   فَأصْبَحَ مُغْرًى بِالْمَكَارِمِ مُغْرَمَا

فَيَرْوَى حَديثُ الجُودِ عَنْهُ مُسَلْسَلاً   وَسَلْسَالُهُ تَرْوَى بِهِ الأنْفُسُ الظِّمَا

لَهُ شِيَمٌ أعْلَتْ مَعالِمَ لِلهُدَى   بِهَا قَدْ أتَانَا مُحْكَمُ الذِّكْرِ مُعْلِمَا

لَهُ ذِمَمٌ مَن رَامَ بالغَدْرِ خَفرَهَا   أبَتْ أنْ يُرَى إلاَّ خَذُولاً مُذَمَّمَا -115-

يَغُضُّ جُفُوناً أوْ يَعُضُّ أنَامِــلاً ... عَلَى حَالَتَيْهِ هَيبَةً وتَنَدُّمَـا
فَمَا يَتَوَقَّى الْخَطْبَ إلاَّ تَخَيُّـلاً ... وَلاَ يَتَلَقَّى الْحَرْبَ إلاَّ تَوَهُّمَـا
ويُوسُفُ يُعْلِي لِلخِلاَفَةِ مَعْلَماً ... ويُلْبِسُهَا ثَوْباً مِنَ الْعِزِّ مُعْلَمَـا
إذَا رَاحَتِ الأبْطَالُ وَهْيَ عَوَابِسٌ ... مِنَ الرَّوعِ لاَ يَزْدَادُ إلاَّ تَبَسُّمَا
يُقِيمُ صَغَا الدِّينِ الْحَنِيفِ حُسَامُهُ ... إذَا مَا أَمَالَ السَّمْهَرِيَّ الْمُقَوَّمَا
خَلاَئِقُ لَوْ أُظْهِرْنَ لِلنَّجْمِ مَا ارْتَقَى ... وَلِلَّيْثِ مَا اسْتَشْرَى وَلِلْغَيْثِ مَا هَمَى
عَزَائِمُ لَوْ أُعْمِلْنَ لِلدَّهْرِ مَا اعْتَدَى ... وللبَدْرِ مَا اسْتَعْلَى وَلِلبَحْرِ مَا طَمَا
مَلاَمِحُ لَوْ اُطْلِعْنَ لِلصُّبْحِ مَا بَدَا ... وَللَّيلِ مَا أهْدَاكَ بَدْراً مُتَمِّمَا
وبُشْرَى بِهِ عِيدًا لِنَصْرِكَ عائِذًا ... وَهُنِّئْتَهُ يَوْمًا أغَرَّ وَمَوْسِمَا
أفَضْتَ مِنَ النَّعْمَاءِ فيهِ غَمَائِمًا ... تَجودُ الذِي وافَى عُلاكَ وَيمَّمَا
فكَمْ رَحْمَةٍ نَعْتَادُ مِنْهَا تَوسُّعًا ... وَكَمْ آيَةٍ نَزْدادُ فِيهَا تَوَسُّمَا
بَسطتَ إلَى التَّقبِيلِ رَاحَتَكَ التي ... تُؤَمِّنُ مُرْتاعًا وَتوجِدُ مُعْدِمَا
لقَدْ أصْبَحَتْ طَوْعَ النَّدَى مُتَوَجِّهًا ... لِمَنْ قَدْ رَجَى نَيْلَ المُنَى وَمُيَمِّمَا
وعَبْدُكَ يُلفِي فِي حُلاَهَا مَدائِحًا ... يَفُضُّ بهَا مِسْكَ الثَّنَاءِ مُخَتَّمَا
بِمَا هُوَ لِلأفْهَامِ أقْرَبُ مُرْتَقًى ... وأبْعَدُ فِي شَأوِ البَلاَغَةِ مُرْتَمَى
ومَا القَصْدُ إلاَّ أن يُقبِّلَهَا وَقَدْ ... صَرَفْتَ لَهُ وَجْهَ القَبولِ تَكَرُّمَا
لِيُبْدِي لَدَيْكَ المَدْحَ رَوْضًا مُفَوَّفاً ... ووَشْيًا يَرُوقُ النَّاظِرِينَ مُنَمْنَمَا
وَزَهْرًا نَضيرًا فِي رِياضِ بَلاَغَةٍ ... وَدُرًّا بأجْيَادِ الطُّروسِ مُنَظَّمَا
فَيا سَامِعًا مِن وَصْفِهِ كُلَّ معْجِبٍ ... يَرُوقُ ذَوِي الألْبابِ فَذًّا وتَوْأمَا
إذا أنتَ لَمْ يُقْنِعْكَ فِي الشّعْرِ وَصْفُهُ ... فَخُذْ مِنْهُ مَا نَتْلُوهُ فِي الذِّكْرِ مُحْكَمَا
وَرُجْعَى إلَى ذِكْرِ الحِجاز وَمَن بِهِ ... تَلا مُحْكَمَ الآياتِ حَيْثُ تَلَوَّمَا
ومَن طابَ ذِكْرًا حينَ حَلَّ بطَيْبَةٍ ... وَسارَ إلى بَطْحاءِ مَكَّةَ مُحْرِمَا
وأضْحَى كَما تَبْغِي العُلَى مُتَوَسِّلاً ... بِزَوْرَتِهِ فِي رَبْعِهَا مُتَوَسِّمَا - 116

وإنّ حَجيجَ اللّهِ عَادَ إلَى مِنًى وَطافَ بِبَيْتِ اللّهِ سَبْعًا وأحْرَمَا
وما كانَ للْقَصْدِ الحَميدِ مُخَيِّبًا فَطُوبَى لِمَن أضحَى لَدَيْهِ مُخَيِّمَا
فَمِن زَفَراتٍ رَجْعُهَا يُذْهِبُ الأسَى ومِنْ جَمَراتٍ رَمْيُهَا يَنقَعُ الظَّمَا
ومِن زَوْرَةٍ فازُوا بِهَا اليَوْمَ دُونَنَا لَدَى عَرَفاتٍ إذْ عَلَوْا مِنْهُ مَعْلَمَا
ولَمَّا سَرَى الرَّكْبُ الحِجازِيُّ لَمْ نَزَلْ نُرَدِّدُ لَوْ تُجْدِي عَسَى ولَعَلَّمَا
لَقَدْ عَمَرُوا طَوْعَ الهُدَى أرْبُعَ التُّقَى فَمَا صَوَّحَ المَرْعَى ولاَ أقْفَرَ الحِمَا
سَرَوْا وَظَلاَمُ اللَّيلِ يُضْمِرُ مِنْهُمُ إلَى مَطْلَعِ الإصْباحِ سِرًّا مُكَتَّمَا
وَضاقَتْ صُدُورُ البِيدِ عَنهُمْ كَأنَّهُمْ ظُنونٌ أبَى إيضاحُهَا أنْ تُرَجَّمَا
وزَمُّوا مَطايَا العَزْمِ تَبْتَدِرُ السُّرَى وتَسْتَقْبِلُ البَيْتَ العَتيقَ وَزَمْزَمَا
إذا سَمِعُوا ذِكْرَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ يَميلُونَ سَبْقًا نَحْوَهُ وتَقَدُّمَا
فَيا لَيْتَ شِعْرِي مَن لِسَمْعِي بِسَمْعِهِ وقَدْ هَيْنَمَ الحَادِي بِهِ وتَرَنَّمَا
هَنيئًا لِمَن آوَى لِعِز جَنابِهِ وَبُشْرَى لِمَن صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَا
ومَنْ خَلَّفُوا لِلْقَلْبِ أضْحَى مُسَلِّيًا بِهِمْ ولأحْكامِ القَضاءِ مُسَلِّمَا
قَضَوْا حَجَّهُمْ لَمَّا أقَمْنَا نُقيمُ مِنْ جِهادِ العِدَى فَرْضًا عَلَيْنَا مُحَتَّمَا
لَدَى مَلِكٍ إنْ ساجَلَ البَدْرَ وَالحَيَا تَجِدْ هَدْيَهُ أجْلَى وَيُمْنَاهُ أكْرَمَا
تُؤمِّلُ أمْلاكُ الزَّمانِ عَلَى النَّوَى مَواهِبَ نُعْماهُ فَلازالَ مُنعِمَا

إلى هَذهِ القَصيدَةِ انتَهَى تَقْييدُ العِيدِيَّات
المُهَنَّإِ بهَا مَوْلانَا أيَّدَهُ اللهُ وَنصرَهُ عَلى نَسَقٍ وهَي أقْرَبُ
مَنظُوم صَدَر عَنِّي لَتاريخ كَتْبِ هَذا ونُقَيِّدُ بَعْدَمَا يَقَعُ
لِليَدِ مِن مُبَيَّضاتِ الشّعْرِ الصَّادِرِ عَنِّي إنْ شاءَ اللهُ

-117-

وَمِمَّا وَجَّههُ إلَيَّ أيدهُ اللهُ فِي بَعْضِ أيَّامِ الصَّنِيعِ
أبياتًا فِي العَروضِ الدُّوبِيتِي وَأمَرنِي بنَظْم فيهِ عَلَى
حُروفِ المُعجَمِ فَلَمْ أرْفَعْ قَلَمًا عَنْهُ حَتى أتْمَمْتُه
مِنْ قُبَيْلِ الظُّهْرِ إلَى صَلاةِ العَصْرِ والمُوَجَّهُ مِن قِبَلِ
مَوْلانَا أيدهُ اللهُ مَا يَخْتَصُّ مِنْهُ بحَرفَي الفاءِ والقافِ
حَسَبَمَا يأتِي بَعْدُ[212]

قَلبِي كَلِفٌ بظَبْيَةٍ حَسْناءِ ... يأتِي وصْفُهَا بالرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ
كَمْ قد أطْلَعَتْ مِن غُرَّةٍ غَرَّاءِ ... يَلْتاحُ جمالُهَا لِعَيْنِ الرَّائِي
يا مَن لجُفونِ دَمْعِهَا يَنسَكِبُ ... ومَن لِضُلوعٍ جَمْرُها يَلْتَهِبُ
عُذَّالِي إذْ بُحْتُ بِوَجْدِي عَتَبُوا ... والشَّمْسُ عَنِ العُيونِ لاَ تَحْتَجِبُ
جِسْمِي خافٍ والقَلْبُ وَجْدًا خافِتْ ... لِعَهْدِ وِصالٍ قَدْ تَقضَّى فَآئِتْ
يَا لَيْتَ أُرَى فِي الحُسْنِ يَوْمًا بَاهِتْ ... مِمَّنْ حُسْنُها يُعْجِزُ وَصْفَ النَّاعِتْ
ما كُنْتُ أُطيقُ عَنْ حِماهَا لُبْثَا ... حَتَّى أُلْقِي الرِّكابَ فِيهِ حَثَّا
لَوْلاَ أنْ جَادَلِي النَّوالُ غَيْثَا ... مِمَّنْ تُلْفِيهِ فِي التَّلاقِي لَيْثَا
مِن غيثِ النَّدَى جُودًا وَغوثِ الرَّاجي ... وَمُسْعِفِ قَصْدِ الآمِلِ المُحْتاجِ
وَمُجْلِي الدُّجَى بنُورِهِ الوَهَّاجِ ... ومَوْلَى مُلوكِهَا أبِي الحَجَّاجِ
مَرآهُ يَلُوحُ لِلعُيُونِ صُبْحَا ... ثَنَاهُ كأزْهارِ الرِّياضِ نفحَا
حَمائِمُ فِكْرِي رَدَّدتهُ صَدْحَا ... غَرانِي الطُّروسِ قَلَّدَتْهُ وُشْحَا
أنصارَ الدِّينِ لِعُلاَهُ سِنْخُ ... عِقْبانُ وَغًى يوْمَ التَّلاَقِي فُتْخُ
ويُمْناهُ إذْ لِلقاصِدِينَ يَسْخُو ... شَرِيعَةُ جُودٍ لَمْ يَرُعْهَا النَّسْخُ

(212) الدوبيت : نوع من النظم مولّد، والكلمة فارسية معناها : البيتان.

هَـذا لَكِـنْ جَفَـا فُـؤادِي البُعْــدُ   فَلَيْسَ بِـهِ إلاَّ جـوًى أوْ وَجْـدُ
أيَنْجِـزُ يوْمًــا لِلتلاقِــي وَعْـــدُ   وَيُغْمَـرُ غَـوْرٌ لِلـرِّضَا أو نَجْـدُ
رَمَـى قَلْبِـي لِلبَيْـنِ سَهْـمٌ مُنْفِــذُ   فالوَجْـدُ عَلى جَميعِـهِ مُسْتَحْــوذُ -118-
فَلَيْسَ لَـهُ غَيْـرُ الـوِصالِ مُنْقِــذُ   ولا سِوَى مَوْلَـى الـوَرَى تَعَـوُّذُ
قَدْ فاقَ الوَرَى فِي منظَرٍ أوْ مَخْبَرِ   مَوْلًى هَدْيُهُ يَرُوقُ عَيْـنَ المُـبْصِرِ
يَلُـوحُ سَنَـاهُ كالصَّبَـاحِ المُسْفِــرِ   فَتَخفَى نجُومُ الأفْقِ حوْلَ المَظْهَـرِ
أنسَى مَن مَضَى وكُلِّ آتٍ أعْجَزا   وَعْدًا وَوعيـدًا مُخْلِفًـا أوْ مُنْجِـزَا
ما زَالَ لأوْصافِ الكَمالِ مُحْـرِزًا   وَمِـنْ رِفْـدِهِ لِكُـلِّ مُحْسِنٍ جَـزَا
مَوْلًى كالدَّهْرِ بالأعَادِي قدْ سَطَـا   أضْحَى مُنْعِمًا بالعَدْلِ فينَا مُقسِطًا
يُفيضُ عَلَى قُصَّادِهِ سُحْبَ العَطَـا   فَتُلْفِيهِـمْ وِرْدًا كـأسْرابِ القَطَـــا
مهْمَا نَظَـرتْ عيْـنُكَ لِي باللَّحْـظِ   أوْ فاتحْتَنـي بالكَـتْبِ أوْ باللَّفْــظِ
فكَـم حُظْـوَةٍ تُفيدُهَـا أوْ لحْــظِ   لِلفَـوْزِ مـنَ الدّنيَا بأوفَـى حَــظّ
أيا يُوسُفًا فِي الحسْنِ أوْ فِي المُلْكِ   نظامِـي كَـدُرٍّ رائِــقٍ فِي السِّلْكِ
أزيلُ بِهِ صَرْفَ الْخُطوبِ الْحُلْكِ   إذْ قلتَ أبو الحسَيْنِ عَبْدِي مِلْكِي
أنَـا المَمْلُـوكُ يَــا إمَـامَ العَــدْلِ   وَيَـا خزْرَجِـيَّ المُنْتَمَــى والأصْلِ
ويَا جامِعًا مَا للنّدى منْ شَمْـلِ   إذا لَمْ تكُنْ لِي فِي الزمانِ مَن لِي
دَمْعِـي وفُـؤادِي هائِـمٌ أوْ هَــامِ   يَهْفـو وَجْـدًا كَخافِـقِ الأعْــلامِ
جَفْنِـي وغَرامِـي دائِـمٌ أوْ دَامِ   كمِثْــلِ حُسامِ نَـــاصِرِ الإسْلامِ
وَجْـدِي مـا أنْ يأخُـذْهُ الإمْكَـانُ   هَلاَّ يُحْصِي شُهْبَ الدُّجَى حُسْبَانُ
وَالـحُبُّ أبانُـوا عِندَمَا قـدْ بَانُـوا   فآلَيْـتُ تَعـودُ بالـرِّضَى الأزْمَــانُ
بالقَلْبِ مِنَ الغَرامِ مَـالاً يُـحْصَى   فكَـمْ أمَـدٍ بَلَـغْتُ منـهُ الأقصَى
أبْديـهِ جَـوًى يَكِـلُّ عَنْـهُ الإحْصَا   مَعْنًى كَيْفَ شَاءهُ الهَوَى أوْ نَصًّا

ظَبْيٌ لاَ رِضًى إلاَّ بِمَا يَقْضِيهِ … وَلا قَصْدَ إلاَّ الَّذي يُرْضِيهِ

لِلصَّبْرِ حُسامٌ كلَّمَا أُنضِيهِ … يَفُلُّ الهَوَى مَا عَزْمُهُ يُمْضِيهِ

يا لَيْتَ زَمانًا قَدْ مَضَى يَرْتَجِعُ … والأُنسُ لهُ شَمْلٌ بِهِ مُجْتَمِعُ

طَمِعْتُ وَهَلْ في الحُبِّ يُجْدِي الطمعُ … أَوْ يُغْنِي الأَسَى مِنْ بعْدِهِ أَوْ ينفَعُ -119-

هذَا قَلْبِي صَبَا إلَيْهِ وَصَغَا … لَقَدْ بَلَغَ الغَرامُ منّي مَبْلَغَا

هَذا طَمَعِي لَوْ نالَ مِنْهُ ما ابْتغَى … فالدَّمْعُ طَمَا وَجَمْرُ وَجْدِي قَدْ طَغا

هَذا قَلْبِي وَخَصْرُهُ مُخْتَطَفُ … هَذَا شَوْقِي وَصُدْغُهُ مُنْعَطِفُ

شَمْلِي هَمِّي مُفْتَرِقٌ مُؤْتَلِفٌ … مِن مُعْتَدِلٍ وَحُكْمُهُ مُخْتَلِفُ

عَيْنِي تَرْجو خَيالَكُمْ يُطْرِقُهَا … مُنُّوا بِزَوالِ سَهَرٍ يُقْلِقُهَا

مازالَ حَشِيتُ شَوْقِكُمْ يُحْرِقُهَا … حَتَّى طَفِقَتْ دُمُوعُهَا تُغْرِقُهَا

جادَتْ فَحَكَتْ صَوْبَ الحَيا المُنْبَجِسِ … من كَفٍّ إمَامِ الغَرْبِ والأندَلُسِ

يُبْدِي نُورَ الصَّباحِ لِلْمُقْتَبِسِ … يَبْدُو أَسَدَ السَّرْجِ وبَدْرَ المَجْلِسِ

يجلُو هَدْيُهُ جِنْحَ الدُّجَى إذْ يَغْشَى … تُرْجَى كَفُّهُ سِلْمًا وحَرْبًا تُخْشَى

قَدْ أَعْيَا جَريرًا وَصْفُهُ وَالأعْشَى … فَكَيفَ يَفي نَظْمٌ بِهِ أوْ إنْشا

خُذْهُ أَدَبًا كالرَّوْضِ في رَيَّاهُ … أَحْيَاهُ بِغَيْثِ الجُودِ إذْ حَيَّاهُ

نَظْمًا شَرَّفَ العَبْدَ بِهِ مَوْلاهُ … بالصُّنْعِ الجَميلِ قَدْ حَباهُ اللّهُ

لهُ الرَّكْبُ يُحْدَى والفَيافِي تُطْوَى … عَنْ يُمْناهُ أخبَارُ العَطايَا تُرْوَى

مِن جَدْوَى يدَيْهِ كُلُّ ظامٍ يَرْوَى … يُلْقِي حَمدَهُ في السِّرِّ أوْ في النَّجْوَى

مَوْلًى بالجَميلِ يَشفَعُ الإجْمالاَ … ويُوضِحُ مِنْ كافِي النَّدَى الإكْمالاَ

بِهِ عَبْدُهُ قَد بَلَغَ الآمالاَ … فالجاهَ يُفيدُ لَحْظُهُ وَالمالاَ

مَوْلاَيَ الذِي يُهْدِي الوُجودَ الهَدْيَا … وَمَنْ وَصْفُهُ كُلَّ الوَرَى قَدْ أعْيَا

لَمَّا نِلتَ رُتْبَةَ الكَمالِ العُلْيَا … نالَ العَبْدُ ما أمَّلَهُ في الدُّنيَا

وَقُلتُ مُخَمِّسًا أبياتًا منْ قَصيدَة للشيخ الوَزير أبي عبْد الله ابْنِ الخَطيبِ رَحِمَهُ الله في غَرَضٍ يَظْهَرُ مِنهَا وَحَقُّهَا أن تكونَ مَعَ العِتابيَّاتِ وبِتاريخ اليَوْمَ الخامِس لرَجَب الفَرْدِ المبارك مِن عامِ أحَدَ عشرَ وثماني مائة بِمَا نصُّه[213]

-120-

لَئِن رَحَلوا عَنّي صَباحًا وَودَّعُوا فنارُ الجَوَى طَيَّ الجَوانِحِ أوْدَعوا
فَقلتُ ومَالِي في التَّصَبُّرِ مَطْمَعُ نَوَوْا سَفَرًا عَنّي الغَدَاة وأزْمَعُوا
فَيا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَهُمْ كيفَ أصْنَعُ

لِذِكْرِهِمُ عُدْ والحَديثَ بِهِمْ أعِدْ فَلَوْمُ وُشاتِي في الصّبابَةِ لَمْ يُفِدْ
فَيا عاذِلِي مَنْ جَدَّ في العَتْبِ لَمْ يُجِدْ ويَا لائِمِي أكْثَرتَ في اللَّوْمِ فاتَّئِدْ
فَهاذِي رُقًى في عِلَّتِي لَيْسَ تَنْفَعُ

مِن الشَّوْقِ أُهْدِيهَا إلَيْهِمْ رَسائِلاَ وأُبْدِي لَدَيهِمْ منْ غَرامِي وَسائلاَ
ودَمْعِيَ لَمْ يَبْرَحْ عَلَى الخَدِّ سائِلاَ لِغَيْرِ جُفُوني كُنْ إذَا كُنْتَ قائِلاَ
سَحابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَريبٍ تَقَشَّعُ

سَرَوْا بِركابٍ لِلظَّلاَلِ مُريحَةٍ وكَمْ من نُصوصٍ في هَواهُمْ صَريحَةٍ
وألْسُنِ دَمْعٍ مِن جُفُوني فَصيحَةٍ ومَالِيَ لاَ أبْكِي بِعَيْنٍ قَريحَةٍ
عَلى فُرْقَةِ الأحْبابِ تَهْمِي وَتَهْمَعُ

أيَا عاذِلِي كُنْ في المَحاسِنِ عَاذِرِي فَقَلْبِيَ مِنْهَا بَيْنَ ناهٍ وآمِرِ
فَها أنا صابٍ في الهَوَى غَيْرُ صَابِرِ فُؤادِيَ أعْيا صَدْعُهُ كُلَّ جَابِرِ
وَهَلْ جُبِرَتْ يَاقُوتَةٌ تَتَصَدَّعُ

(213) يوجد هذا التخميس أيضًا في مظهر النور الباصر من ص 192 إلى ص 198.

ذَكَرْتُ رُبُوعًا بالحِمَى وَمَعاهِـدَا   وأتْلَفْتُ قَلْبًا بالصَّبابَـةِ جاهِـدَا
فأصْبَحَ عَن نَهْجِ التَّصبُّرِ حَائِـدَا   لَضَيَّعْتُ قَلْبِي ثُمَّ أصْبَحْتُ نـاشِدَا

وَقَد قِيلَ أوْلَى بالخَسَارِ المُضَيِّـعُ

لَعَـلَّ هُيامِـي لِلأحِبَّـةِ شَافِعِـي   فَما كنتُ لَمَّا فيهِ خانَتْ مَطامِعِي
لِأكْتُمَ وَجْـدًا أظْهَرَتْـهُ مَدامِعِـي   أبوحُ بِمَـا أُخْفِي ولَـيْسَ بِنافِعِـي

ولكنَّها شَكْوَى إلَـى اللّـهِ تُرْفَـعُ

لَقَدْ أتْلَفَتْ قَلبِي المَشُوقَ يَدُ النَّوَى   فأصْبَحَ يُذْكَى في جَوانِحِهِ الجَوَى
هَواكَ عَلَى مَرِّ الزَّمانِ بِهِ ثَـوَى   أمالِكَ رِقِّي كَمْ أرانِي في الهَوَى -121-

أذِلُّ كَمَـا شاءَ الغَـرامُ وَأخْضَعُ

لِقَلْبِيَ في أيـدِي الغرامِ تَقَـلبُ   يُذادُ عَنِ العُتْبَى وانْ كانَ يُعْتَبُ
فهَا أنا ذَا أرْجو رِضَاكَ وأطْـلُبُ   وهَبْ أنَّنِي أذْنَبْتُ والعَبْدُ مُـذْنِبُ

فَلِي حَسَنَاتٌ في ذُنوبِيَ تَشْفَـعُ

عَلى البُعْدِ كَمْ أهْدَيْتُهَا لَكَ مِدْحَةً   عَساكَ تُسَنِّـي بالتَّقَـرُّبِ مِنْحَـةً
وإنّي مَتَى أذْكَـى بعَـادُكَ لَفْحَـةً   ودَادِي كَمِثْلِ العَنْبَرِ الوَرْدِ نَفْحَـةً

إذا أحْرَقَتْـهُ جَفْـوَةٌ يَـتَضَرَّعُ

بقُـرْبِكَ ظِـلُّ العِـز فَوْقِـيَ وَارِفُ   وَبُعْدُكَ فِيهِ دَمْـعُ عَيْنَيَ واكِـفُ
فَهَا أنا راجٍ في هَواكَ وَخائِـفُ   وَرأيُكَ بَيْنَ الحِلمِ والحُكْمِ واقِفُ

عَلَى أنَّ بَابَ الحِلمِ عِندَكَ أوْسعُ

أبيتُ عَلَى حُكْمِ الصَّبابَةِ مُغْرَمَـا   وأقْطَـعُ دَهْـرِي في عَسَى ولَعَلَّمَـا
مَشُوقًـا مُعَنًّـى مستَهامًـا متَيَّمَـا   أُعاتِبُ حَظِّي أمْ أكُـفُّ فإنَّمَـا

هُوَ اللّهُ يُعْطِي مَـا يَشاءُ وَيمْنَـعُ

مُنِعتُ المُنَى حَتَّى الخَيالَ لِحالِمِ   ونَيْلُ المعـالي بيْـنَ تِـلكَ المَعالِـمِ
فإن لَمْ يكُنْ صَرْفُ الزّمانِ مُسالِمِي   أسَلِّمُ أمْـرِي في الوُجـودِ لِعالِـمِ

أحاطَ بأمْرِي مِنْهُ مَرْءًى وَمَسْمَـعُ

إذا لَمْ يَكُنْ في حُكْمِهِ الدَّهْرُ مُنصِفِي   ولَمْ أُلْفِهِ فيمَا رَجَوْتُ بِمُسْعِـفِ
ولَمْ يُدْنِ أَيَّامَ الـرِّضَى والتَّعَطُّـفِ   سَأَرْفَـعُ أَمْـرِي لِلخَليفَـةِ يُـوسُفِ
فَيحْكُـمُ بالحَـقِّ المُبيـنِ وَيَصْدَعُ

هُو الظِّل ظِلُّ اللّهِ تَضْفو سُتُورُهُ   وَيغنِي عَنِ الصُّبْحِ المُبين ظهورُهُ
سَحابُ نَدًى بالجُودِ مَاجَتْ بحُورُهُ   شِهابُ نَدًى يَجْلُو الدُّجُنَّةَ نُـورُهُ
ولجَّــةُ جُــودٍ مَوْجُهَــا يَتدفَّــعُ

هوَ البَدْرُ في أُفْقِ الخِلاَفَةِ مُعْتَـلِ   هُوَ الرَّوْضُ كَم مِن مُجْتَنٍ إثْرَ مُجْتَلِ -122-
فَللّـهِ مِـن بحْـرٍ وبَـدْرٍ مُكَمَّـلِ   ولِلـهِ مِـن غـيْـثٍ ولَـيْـثٍ ومَعْقِـلِ
لمَنْ يَجْتَدِي أَوْ يَعْتَدِي أَوْ يُرَوَّعُ

صَفا فَـوْقَ أَمْـلاكِ البَسيطَـةِ ظِلُّـهُ   وأُفْـقُ النُّجـومِ النَّيِّـراتِ مَحَلُّـهُ
فها هُـوَ غـيثٌ قـد تتابَـعَ وبْلُـهُ   ودِيـوانُ مَجْـدٍ قـد تَواتَـرَ نقْلُـهُ
حَديثُ المَعالِي عنْهُ يُرْوَى ويُسْمَعُ

هُوَ المُلْكُ بالمَوْلَى ابْن نَصْرٍ شُفوفُهُ   هُوَ الـدَّوْحُ يَدْنُـو لِلعُفـاةِ قُطوفُـهُ
هُوَ الدَّهْرُ تَقضِي في العُداة صُرُوفُهُ   إذا انـتُضِيتْ آراؤُهُ وسُيُوفُـــهُ
لِحَرْبٍ فَقُلْ أيُّ الحسَامَيْنِ أَقْطَـعُ

إمَـامٌ تَعُـمُّ القاصِديـنَ هِباتُـــهُ   بِهِ الخَطُّ والخَطِّيُّ راقَتْ صِفاتُـهُ
فَقَـدْ أَبْـدَعَتْ يُمْنـاهُ أَوْ كَلِماتُـهُ   وان وَقَـفَتْ في حـادِثٍ عَزَمَاتُـهُ
فَقَـدْ أَمِـنَ الاسْلامُ مَـا يُتَوَقَّـعُ

أ ناصِرَ دِيـنِ اللّـهِ دُمْتَ مُؤَيَّـدَا   لِعَهدِ الصَّحابِ الأَكْرَميـنَ مُجَـدِّدَا
فَمَن ذا يُضاهِي مِنْكَ ذاتًا ومَحْتِدَا   سَبَقْتَ كَما اسْتَوْلَى الجَوادُ عَلَى المَدَى
فَلاَ سَابِقٌ في شَأْوِ مَجْدِكَ يَطْمَعُ

رَمَـيْتُ بِسَهْـمٍ لِلْبَلاغَـةِ مُنْفِــذِ   فَرَوْضُ نِظامِي مِن سَحابِكَ قَدْ غُذِي
أنا بِكَ من رَيْبِ الزمانِ تَعَوُّذِي   وأَنْتَ حُسامُ الدّينِ ناصِرُهُ الـذِي
تَذودُ العِدَى عَـن جانِبَيْـهِ وتَمْنَـعُ

أرَى الدَّهْرَ يا مَوْلاَيَ عَنِّي مُعْرِضًا وَسيْفُ نِظامِي في يَمينـي مُنْـتَضَا
ولفظِيَ تَشْرِيفِي بمَدْحِكَ قَدْ قَضَا وَمِثْلُكَ يُرْجَـى لِلقَبُـولِ وَلِلـرِّضَا
وعَبْـدُكَ أيضًا لِلصَّنِيعَـةِ مَـوْضِعُ

وكَتبتُ لمَولاَنا أيَّدهُ اللّهُ ونَصرَهُ وأعْلَى ملكَهُ وأظْهَرهُ، أبْياتًا معَ قصِيدةٍ وَلَها حِكايةٌ تفهَمُ مِن معْناهَا

-123-

إنَّمَـا الشّعْـرُ رغبَـةٌ وسُؤالُ ورَجـاءٌ تَدْنُـو بـهِ الآمـالُ
فـإذا كـنتَ مُسْعِفًـا كُـلَّ قَصْدٍ ومُنيـلاً في الدّهْـرِ مـا لاَ يُنـالُ
فلِـمَ النّظْـمُ يـا إمـامَ البَرَايـا أصْمَتَ النُّطْقَ مِنْ يَـدَيْكَ النَّـوالُ
فكـلاَمُ العبيـدِ حَمْـدٌ وَشكْـرٌ ودُعـاءٌ لربِّهِـمْ وابْتِهـالُ
أنْ يُديـمَ الإلاَهُ مِـنكَ إمَامًـا راقَ مِنْـهُ الجَمـالُ وَالإجْمـالُ
دُمْتَ لِلدّيـنِ نـاصِرًا مـنْ عِـداهُ تَـرْتجيكَ الـقُصَّادُ والأُمَّـالُ

ووَجَّهَ لي أيَّدَهُ اللهُ وشكَرَ نعْمتَهُ رُوميَّةً سُرِّيَّةً وَرِكَابُهُ العَلِيُّ بمَالَقَة في اليَوْمِ العَاشِرِ لِرَمضانَ العظيمِ عَامَ خمسَةَ عشرٍ وثمَاني مِائة وكتَبَ إلَيَّ قبْلَ وُصُولِهَا بسَاعَةٍ ما نصُّه وَمِن نظمِهِ

يـا طالِبًـا غُـرَّ الجيَـادِ السُّبَّـقِ شَمِّرْ لَها عن ساقِ جدّكَ والحَقِ
فإلَيْكَهَـا نَجْـلاءَ رائِقَـةَ الحُلَـى وَالـحُسْنُ بيْـنَ مُدَمْلَـجٍ ومُمَنْطَـقِ
مَهِّدْ لَهَـا أكْنَـافَ بِـرِّكَ إنّنـي آثَرْتُكُـمْ مِنْهَـا بِـرَوْضٍ مُونِـقِ
والوَعْـدُ مِنّـا عاجِـلاً فَتأهَّبَـنْ بعْدَ العِشاءَ تَحُلُّ دارِكَ فالْتَـقِ(214)

(214) لم ترد في ديوان ملك غرناطة.

ونوَّعَ القِطعَةَ بِمَقْلُوب هَذه عَلَى سَبيلِ المُداعَبَةِ والتَّأنِيسِ وكَتَبَ بِخطّ يَدهِ الكَريمَةِ

يـا طالِبًـا فِعْلَ الجِعالِ المُونِـقِ   شَمِّرْ لَهُ عَن راسٍ فَعْلِكَ وَارْتَقِ
وإلَيْكَهَـا لَقَّـاءَ رَبَّـةَ قَعْـنَبٍ   معْتـادَةً طَعْـنَ الكُلَـى بِالمَفْـرِقِ
فأقِـمْ لهَـا حَيثُ الذّوابِلُ تَنثَنِي   عَجْراءَ لاَ تخْشَى احْتِدَامَ المَـأْرِقِ
والوَعْـدُ مِنَّـا عاجِـلٌ فتَأهَّبَـنْ   وذَرِ السَّراوِلَ خَلْفَ بابِكَ وَالْتَقِ[215] -124-

وَطَلَبَ جَوابَهَا فارْتَجَلتُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلاَ تَوقُّفِ

مَوْلَـى المُلوكِ بمَغرِبٍ وَبِـمَشْرِقِ   عَن شُكْرِ ما أولاَهُ أعْجَزَ مَنْطِقِي
أهْدَى إلى المُلوكِ مِن مَنظُومِـهِ   دُرًّا ولكِـن مِثْلُـهُ لَـمْ يـنْسَقِ
وَافَـى لِيُعْلِمَنِـي بـأفْضَلِ مِنحَـةٍ   جادَتْ بهَا كَفُّ الكَريمِ المُشْفقِ
وأتَـى يُبَشِّرُنِـي بِرَائِقَـةِ الحُلَـى   فَطَفِـقْتُ بَيْـنَ تَشَوُّفٍ وتَشَوُّقِ
مَيَّادَةَ الأعْطافِ سَاحِـرُ لَحظِهَـا   يُرْمـي بسهْـمٍ لِلقُلـوبِ مُفَـوَّقِ
لِمْ لاَ يَفوقُ الشُّهْبَ نَيِّرُ وَجْهِهَا   وَسناهُ عَن بَدرِ الكَمـالِ المشْرِقِ
لِمْ لاَ يَرُوقُ الآنَ رَوْضُ مَحاسِنٍ   مِنهَا بِجُودِ نَدَى يَمينِكَ قدْ سُقِي
جاءَتْ بِهَا البُشْرَى فـأيُّ صَبابَـةٍ   تَخْفَى وأيُّ جَوانِـحٍ لـمْ تَخْفِـقِ
قَدْ كِدتُ أذْهَبُ لَوْعَةً لوْ لمْ تَجُدْ   بالوَعْـدِ أنَّـا عَـن قَـريبٍ نَلْتَقِـي
أنا في العَشِيَّةِ بَيْنَ قَلبٍ مُولَـعٍ   فيهَـا وَجَفْـنٍ لِلطَّريـقِ مُحَـدِّقِ
والعبْدُ يـمْسِي بيْـنَ فعْلٍ مُـرْسَلٍ   فِيهَـا وَقَـلبٍ بالصَبابَـةِ مُوثَـقِ
فاعْجَبْ لهُ يَرْتاحُ تحْتَ ضُلوعِـهِ   أوْ فوْقَهـا بِمقَيَّـدٍ وَبمُطْلَـقِ
فَتخالهُ مِثْلَ الجَوادِ لَـدَى الوَغَـى   حينًـا وَحينًـا يَرْتَمِـي أوْ يَرْتَقِـي

(215) لم ترد في ديوانه كذلك.

مَوْلاَيَ أَبْدَى مِن بديعِ جَمالِهَـا وَصْفًا ثَنَى قَلْبِي رَهِينَ تَـعَشُّقِ
لاَ شَيْءَ أشرفُ في الوُجودِ من التِي يَتَخَيَّـر المَوْلَـى الهُمـامُ ويَنْتَقِـي
وُفِّقْتَ لِلشكْرِ الجَميلِ وقـد أَتَتْ مِـن عِنـدِ مَوْلَـى نَـاصِرٍ لِمُوَفَّـقِ
لأَزالَ مَوْلانَـــا يجُودُ لعَبْــــدِهِ مِن قصْدِهِ الأَرْضَى بما هُوَ مُنتَقٍ(216)

وقلتُ فيما يظْهَر منهَا وَقَصَدتُ المداعَبَةَ وَالانبسَاط
في الثاني عشر لمحَرمِ عَام ثلاثة عشر وثمانمائة

-125- يـا إمامًا أبْـدَى الهِدايَـة شَمْسا تَتَدانَـى نُـورًا وتبْعُـدُ لَـمْسَا
مِلْكُ نعْماكَ يَرتجِي مِنكَ جُـودًا ظَـلَّ يُدْنِـي مِـن الْمآمِـلِ شُمْسَا
يَـا جَـوادَ المُلـوكِ إنّ جَـوادِي لَـيْسَ قلبِـي لبُعْـدِه يَتـأَسَّى
وَلِتعْـــويضهِ بـــأَحْسَنَ مِنْـــهُ أَصْبَـحَ العَبْـدُ يَرْتَجِـيكَ وَأَمْسَى
وَجوادٌ مَن حضرَةِ المُلْكِ يُهْـدَى حَيْثُمَا حَـلَّ حُلـةُ الجَـاهِ تُـكْسَى
مَقْصَدي أنْ يعَرّسَ اليَوْمَ عِنـدِي رائِقَ الوَصْفِ لَسْتُ أطْلُبُ عِرْسَا
مِثْل قاضِي القضَاة إذْ جَدَّ حَتّى فَـازَ بالمَرْكوبَيْـنِ مَعْنًـى وَحِسًّا
صَحَّ قَصْدِي لَدَيْكَ مَولاَيَ حَقًّـا لَـمْ يَدَعْ فِيهِ جُودُ كَفِّكَ لَـبْسَا
لاَ تُخيِّبْ مِن الجَدَى رَوْضَ فكْرٍ طَالَمَـا قَـد زَكَـا بنُعْمـاكَ غَـرسَا
أنتَ أعْلَى قَـدْرًا وأعْلَـمُ لكِـن ذَكَّرَ العَبْدُ مِنْكَ مَنْ لَيْسَ يَنْسَى

واتَّصَلَ بِي وأنا صُحْبَة الرّكابِ العَليِّ بِظاهر جَبَل الفَتحِ
فِي السَّفْرَةِ الثَّانيَّة خبَرُ ولاَدَةِ يُوسُف وَلَدِي أسْعَدَه الله
وَولاَدَتُهُ فِي الثّاني والعَشرينَ لِذِي قعْدَة عام خمسَةَ عَشَر وَثمانِمائة

(216) للشطر الأخير رواية أخرى كتبت في الطرّة وهي : بمَواهبٍ مِنْ جوده المتدفّق.

فقلْتُ أُعلِمُ مَوْلانَا أَيَّدهُ الله بذَلِكَ فَسمَّاهُ باسْمِهِ الشَّرِيف
ووَهَبَ ما يقْصُر عنْهُ لِسان الإِعْلامِ والتّعْريف، وذلك[217]

-126- وكذلكَ كَتبتُ لمقامِهِ الكَريمِ بالحَضْرةِ مُعْلمًا بوِلادَةِ ولدي
أبي الطّاهر هَداهُ الله وذلِكَ في يَوْمِ الأحَدِ قبْلَ صَلاَةِ الظهْرِ الثاني
لِصفر منْ عامِ سَبْعَة عَشر وثماني مِائة وبمُوافَقَةِ مايُهْ الأعْجَمِي فَسَماهُ
أيَّدهُ الله ووَهَبَهُ مِثْلَ أخيهِ شَكَر الله نِعْمته، وأبْقى عِنايَتَهُ وحُرْمَتَه

أَمَوْلاَيَ انّ العَبْدَ قدْ زادَ عنـدَهُ   خَديـمٌ لما شاءَتْ عُـلاكَ أَعَـدَّهُ
أتى وافِدًا مِن عَالَمِ الكَوْنِ راجِيًا   نداكَ الذي تسْتَمْطِرُ السُّحْبُ عهْدَهُ
مُشيرًا إلَى تَقبيـلِ كَـفّكَ ضارِعًـا   لِمُلْكِكَ في أنْ يُنْجِزَ النَّصْرُ وَعْدَهُ
يُثيـرُ سُرورًا في النفـوسِ بِكَوْنِـهِ   يُوَثِّـرُ مِنْكَ الجَـاهُ والعِزُّ مَهْـدَهُ
بتَسْمِيَةٍ يبْقَى مَدَى الدهْرِ ذِكْرُهَـا   يُشَرِّفُ مَوْلاَنَـا بـذَلِكَ عَبْـدَهُ

وَفي يَوْمِ سَابِعِه وجَّهتُ الوَلَدَ عَلَى العَادة إلى بيْن يَدَيْهِ وَكَتَبتُ مَعَهُ

مَمْلـوكُ نعْمـتِكَ التِـي   رَقَّتْ أبـاهُ وَجَـدَّهُ
وافَـى جنـابَكَ آمِـلاً   وَعُـلاكَ تُنْجِـزُ وَعْـدَهُ
ورَجَـا مَقـامَكَ آمِـلاً   في اسْمٍ يشرفُ عبْـدَهُ

وَبَيَّضْتُ لِمَن طَلَبَ ذَلِكَ

يَا ناصِرَ الإِسلاَمِ يا مَلِكَ الهُدَى   لاَزِلْتَ مَـنْصورَ اللِـواءِ مُؤَيَّـدَا
فُقْتَ المُلـوكَ الأَكْرَمِيـنَ مَآثِـرًا   فَبَلغتَ في شَأْوِ العُلَى أقصَى المَدَى

(217) بعد هذا بياض في الأصل، وكتب الناسخ في الطرة ما يلي :
«كذا وجدت البياض».

فَلأنتَ أسْماهُـــمْ وأسْناهُـــمْ إذا   طَالُوا وأنْجَزُ في المَكارِمِ مَوْعِـدَا
وأجَلُّهُـمْ قَـدْرًا وأشْرَفُهُـمْ حُــلاً   وأعَمُّهُـمْ رِفْـدًا وأنْدَاهُـمْ يَـدَا
إنَّ السَّحابَ وان تَتابَعَ جَوْدُهَـا   لَـمْ تَتَخِـذْ إلاّ نَـوالَكَ مَـوْرِدَا
أوَ لَيْسَ جودُكَ فوقَ عَبْدِكَ إذْ هَمَى   أضْحَى لأثْوابِ القَبُولِ مُجَـدِّدَا -127-
أوْلَيتِنِـي مَـا لاَ أقـومُ بشُكْـرِهِ   مِنْ أنْعُمٍ جَلَّتْ فَأرْغَمَتِ العِـدَى
وثَنَيْتَ بِي وَجْـهَ القَبولِ تَكَرُّمًـا   فَطَفِـقْتُ أهْـديكَ الثّنـاءَ مُـرَدّدَا
وَرَأيْتُ عَبْدَكَ «مُخْلِصًا» فَحَسِبْتُـهُ   فَالاً لِأوصافِ الخُلوصِ مُؤَكِّدَا(217م)
شَرَّفتَنِي وَرفَعْتَ ذِكْـرِي مُنْعِمًـا   لاَزِلْتَ يا شَرَفَ المُلوكِ مُخلَّـدَا

وفي مِثْـــلِ ذلِـــكَ

مَوْلاَيَ يَـا أعْلَى الـوَرَى منزِلَـهْ   عَبْدُكَ يَرْجُو نعْمَـةً مـنكَ لَـهْ
مِثْــلَ رَفيقَيْــهِ وَقَــدْ بُلِّغَــا   مـا أسْعَـفَ القَصْدَ وَمـا كَمَّلَـهْ
كِلاهُمَـــا فَـــازَ بمَـــا شاءَهُ   ولَـمْ يَنَـلْ عَبْـدُكَ مَـا أمَّلَـهْ
وإنَّ مَــوْلاَيَ الامَـــامَ الـــرِّضَا   يحْكُـــمُ في ذلِكَ بالمَعْدِلَـــهْ
وَرِفْـدُ مَـوْلاَيَ يَعُـمُّ الــوَرَى   سَحـائِبُ الجُـودِ بِـهِ مُرْسَلَـهْ
فَـلا تُخيِّبْ راجيًـا لَـمْ يَـزَلْ   في كُـلِّ حَـال وَارِدًا مَنْهَلَـهْ
وقَـدْ تَـوَسَّلْت بهَـادِي الــوَرَى   وَمُحْكَـمِ الذِّكْـرِ ومَـن أنْزَلَـهْ
لاَزِلْتَ تُبْدِي نَصْرَ دينِ الهُـدَى   في الحالِ والأزْمِنَـةِ المُقْبِلَـهْ(218)

(217م) هذا العبد «مخلص» لعلّه من أسرة «بنّيغش» وقد ورد في وثائق غرناطية اسم أبي الوداد مخلص بن أبي القاسم بن رضوان بنيغش، ويبدو أن هذا الأخير حفيد الأول، وعلى كل حال فقد كان رضوان بنيغش هو القائم بأمر دولة محمّد الصغير ولد يوسف الثالث. راجع كتاب محمد التاسع.

(218) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره نحو 5 أبيات، وفي الطرة : كذا في الأصل.

أبياتٌ لِمَوْلاَنا أَيَّدَهُ اللهُ ونصرَهُ أثْبَتُّها هُنا عَلى وجْهِ التَّشْريفِ بِمَا يَصْدُر عنْ ذاتِهِ الكَريمَةَ

قِفَا نَفَسًا عَلَى نَفْسٍ شَجِيَّهْ … يُعِيدُ حَيَاتَهَا رَجْعُ التَّحِيَّهْ[219] -128-
عَلَى إِثْرِ الرَّكَائِبِ يَوْمَ بَانُوا … بِحِينَ الحَيْنُ أَوْ تَدْنُو المَنِيَّهْ
فَوا أَسَفًا لِنَفْسٍ مِنْهُ ضَاعَتْ … يَقِلُّ فِدًى لَهَا كُلُّ البَرِيَّهْ
صَرِيعٌ بَيْنَ أَخْفَافِ المَطَايَا … بَعِيدُ الرُّشْدِ لاَ يَخْشَى تَقِيَّهْ
يُرَدِّدُ زَفْرَةً كَالجَمْرِ وَقْدًا … وَيُرْسِلُ عَبْرَةً تَحْكِي رَكِيَّهْ
فَداعِي اليَأْسِ لِلدَّعْوَى قَرِيبٌ … وَآمَالُ الرَّجَاءِ غَدَتْ قَصِيَّهْ
وَيَا طِرْفَ الصُّدُودِ أَلاَ كُبُوٌّ … وَيَا سَيْفَ الفِرَاقِ أَلاَ بَقِيَّهْ
وَيَا مَغْنَى السُّرُورِ وَكُلِّ أُنْسٍ … عُهُودُكَ عِنْدَنَا أَبَدًا وَفِيَّهْ
رَمانِي الدَّهْرُ عَنْ كَثَبٍ فَأَصْمَى … فُؤَادًا مَالَهُ بِسِوَاكَ نِيَّهْ
فُؤَادًا غَرَّهُ مِنْكَ التَّمَنِّي … وَنَفْسًا فِيكَ إِنْ عُذِلَتْ أَبِيَّهْ
وَكَمْ وَعْدٍ نَقَضْتَ وَكَمْ وَعِيدٍ … تَقَاضَتْهُ الجُفُونُ البَابِلِيَّهْ
وَأَظْهِرُ رَغْبَةً وَتَزِيدُ صَدًّا … فَيَا لَلَّهِ مِنْ هَذِي القَضِيَّهْ
كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ وَالدَّهْرُ سَاطٍ … مَهِيبَ الأَمْرِ مَحْمُودَ السَّجِيَّهْ
أُقَابِلُ عُسْرَهُ أَبَدًا بِيُسْرِي … وَآسُو جُرْحَهُ بِاليَزَنِيَّهْ
وَكَانَتْ فَلْتَةً فَالَتْ بِرَأْيِي … غَدَاةَ النَّفْسُ بِالعَلْيَا حَرِيَّهْ
فَرَاعَيْتُ الأَذِمَّةَ حِينَ ضَاعَتْ … وَآثَرْتُ الوَفَاءَ عَلَى الدَّنِيَّهْ
مُصَابًا لَمْ أُعِرْهُ الدَّهْرَ سَمْعًا … وَلَمْ أَقْرَعْ لَهُ أَسَفًا ثَنِيَّهْ
إِلَى أَنْ عَادَنِي مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ … خَيَالٌ قَدْ سَرَى لِلْعَامِرِيَّهْ

---

(219) وردت القصيدة وتخميسها في ديوان ملك غرناطة : 162 — 165.

تخميسها

بعَيْشِكُمَا دَعَا ذِكْرَ العَشِيَّةْ   وحُثَّا في رُبوعِهِمُ المَطِيَّةْ
وإن لَمْ تَنزلاَ تِلْكَ الثَّنِيَّةْ   قِفَا نَفَسًا عَلى نَفْسٍ شَجِيَّةْ
يُعيدُ حَياتَها . رَجْعُ التَّحِيَّةْ -129-

أبْعدًا والفُؤادُ لهُمْ مَكَانُ   أرَاهُمْ نَصْبَ عَيْنِي حَيْثُ كَانُوا
فَمُذْ بانُوا الصَّبَابَةَ قَدْ أبانُوا   عَلى اثَر الرَّكائِبِ يَوْمَ بَانُوا
يَحِينُ الحَيْنُ أوْ تَدْنُو المَنِيَّةْ

أحاديثُ الصَّبَابَةِ عَنهُ شاعَتْ   وبَعْدَ الكَتْمِ في الآفاقِ ذاعَتْ
وآمِنُ قلبِهِ بالخَفْقِ رَاعَتْ   فَواأسَفًا لِنَفْسٍ مِنْهُ ضَاعَتْ
يَقِل لهَا فِدَى لهَا كُل البَرِيَّةْ

مَشوقٌ دَمْعُهُ يُبْدِي الخَفايَا   ثَنَاهُ لِلْهَوَى حُسْنُ الثَّنايَا
فها هُوَ لَمْ يَدَعْ مِنْهُ بَقايَا   صَرِيعٌ بَيْنَ أخْفافِ المَطَايَا
بَعيدُ الرُّشْدِ لاَ يَخْشَى تَقِيَّةْ

يَهِيمُ بحُسْنِهِمْ كَلَفًا وَوُدًّا   فَيَنْثُرُ جَفْنُهُ لِلدَّمْعِ عَقْدَا
مُحِبٌّ لاَ يَزالُ يَهِيمُ وَجْدَا   يُرَدِّدُ زَفْرَةً كالجَمْرِ وَقْدَا
وَيُرْسِلُ عَبْرَةً تَحْكِي رَكِيَّةْ

لِقَلْبِي عِنْدَمَا رَحَلُوا وَجِيبُ   أنادِيهِمْ ومَا مِنْهُمْ مُجيبُ
أرَى دَهْرِي لَهُ شانٌ عَجِيبُ   فَدَاعِي اليَأسِ لِلدَّعْوَى قَرِيبُ
وَآمالُ الرَّجاءِ غَدَتْ قَصِيَّةْ

فَمَا لِلقَلْبِ بَعْدَهُمُ سُلُوٌّ   ولَيْسَ مِنَ الغَرامِ لَهُ خُلُوٌّ
فَيا بُعْدَ المَزارِ ألاَ دُنُوٌّ   وَيا طِرْفَ الصُّدودِ ألاَ كُبُوٌّ
وَيَا سَيْفَ الفِراقِ ألاَ بَقِيَّةْ

ألاَ يا مَكْنِسًا لِظباءِ إنْسٍ   حَويتَ مِنَ المَحاسِنِ كُلَّ جِنْسٍ

وَيـا أُفقًـا لبَهْجَـةِ كُـلِّ شَمْسٍ   ويا مَغْنَـى السُّرورِ وَكُـلِّ أُنْسٍ

عُهـودُكَ عِندَنـا أَبـدًا وَفِيَّـهْ

لَقَـدْ أَبْدَيْتُهـا حِكَمًـا وَحُكْمَـا   بـوَصْفِكَ دائِمًـا نَثْـرًا ونظْمَـا

أطَـلْتُ وَلـمْ أقصِّرْ فيـهِ لَمَّـا   رَماني الدَّهْرُ عَن كَثَبٍ فأَصْمَـا -130-

فـؤادًا مَـا لَـهُ بسواكَ نِيَّـهْ.

أَيَبْعَـدُ شخْصُهَـا والفِكْـرُ يُدْنِـي   وَتَبرأُ ساحَتِـي وَالْوَجْـدُ يُضْنِـي

وكُنْتُ أظُنُّ أنَّ الصَّبْـرَ يُغْنِـي   فُـؤادًا غَـرَّهُ مِـنْكَ التَّمَنِّـي

وَنـفْسًا فِـيكَ إنْ عُـذِلتْ أبِيَّـهْ

فكَـمْ لِلدَّمْـعِ مِـن دُرٍّ نَضِيـدِ   عَلَى ما مَرَّ مِنْ عَهْدٍ حَميـدِ

وَكَـمْ بهَـواكَ مـن قلبٍ عَميـدِ   وَكمْ وَعْدٍ نَقَضْتَ وكِـمْ وَعيـدِ

تَقاضتْـهُ العُيُـونُ البَابِلِيَّـهْ

فيـا بَـدرَ الدُّجَى حُسْنًا وحَـدًّا   وَيـا غُصْنَ النقَـى لينًـا وَقَـدًّا

أأقْـرُبُ لوْعَـةً فَتَزيـدُ بُعْـدَا   وأُظْهِـرُ رَغبَـةً وَتَزيـدُ صَدًّا

فَيـا للـهِ مِـنْ هَـذي القَضِيَّـةِ

بَنُـو الأمْـلاكِ ما بَلَغُـوا مَناطِـي   لَهُـمْ فَخْـرٌ إذا لَثِمُـوا بِساطِـي

فمـالَكَ كاسَ وَصْلِكَ لاَ تُعاطِـي   كَأنّـي لـمْ أكُـنْ والدَّهْـرُ سَاطِ

مَهيبَ الأمْـرِ مَحْمـودَ السَّجِيَّـهْ

إذا أبْـدَى العَبُـوسَ أراهُ بِشْري   صَباحًـا للـرَّكائِبِ حِيـنَ تَسْري

وإنّـي مُـذْ أطاعَ الدَّهْـرُ أمْـرِي   أُقابِـلُ عُسْرَهُ أبـدًا بِـيُسْرِي

وآسُو جُرْحَـهُ باليَزَنِيَّـهْ

لَئِـنْ كان الزَّمـانُ أطـالَ نأيِـي   فَهـا هُوَ مُظْهِـرٌ نَصْري وَهَدْيِـي

مُطيعًـا مُنْفِـذًا أمْـرِي ونَهْيِـي   وكانَتْ فَلْتَـةً فـالَتْ بِرأيِـي

غَـداةَ النَّـفْسُ بالعَلْيـا حَرِيَّـهْ

هيَ الأيَّامُ أمْرِي قدْ أطاعتْ   قدِ انقادتْ إلَى مُلْكِي وَطاعتْ
مَعالِمُهُ أقمْتُ وقدْ تداعتْ   فراعَيْتُ الأذِمَّةَ حيْثُ ضاعتْ
وَآثَرْتُ الوَفاءَ عَلَى الدَّنِيَّهْ

لَقَدْ نِلتُ العُلَى وِتْرًا وَشَفْعًا   وكانَ الخَفْضُ لِلأقْدارِ رَفْعًا -131-
أزاحَ وقدْ قَضَى لِلشَّمْلِ جَمْعًا   مُصابًا لم أعِرْهُ الدهْرَ سَمْعًا
ولمْ أقْرَعْ لهُ أسَفًا ثَنِيَّهْ

فَكمْ قدْ بتُّ رَهِينَ وَجْدِ   أُطِيلُ الفِكْرَ ذا قَلَقٍ وَسُهْدِ
أُراقِبُ خافِقًا مِن ظِلِّ بَنْدِ   إلَى أنْ عادَنِي مِن غَيْرِ وَعْدِ
خَيالٌ قَدْ سَرَى لِلعَامِرِيَّهْ

وَوصَلني منهُ أيَّد اللهُ مَقامَهُ أبياتٌ ثلاثَةٌ
في الثاني والعِشْرينَ لجُمَدَى الأولَى عَام اثْنَي عَشَر وثمانِمائة
نَصُّهَا

وتَزْعُمُ أنّي لاَ أبالِي بِهَجْرِهَا   وأنَّ الهَوَى منّي خِداعٌ لهَا يَجْري
فَلِمْ ذا يَصوبُ الدَّمْعُ والطَّرفُ شاخِصٌ   وأطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلَى لَهَبِ الجَمْرِ
مَنَعْتُ إذًا وَفْرِي وَخُنْتُ أذِمَّتِي   وسَالَمْتُ أعْدائِي وَلَمْ أكُ ذا أمْرِ[220]

تخْمِيسُ هَذِهِ الأبياتِ المشرَّفهْ
وَحَديقَةِ الزَّهْرِ المُفَوَّفهْ

إذا الأُفْقُ لمْ يَسْمَحْ بِرائِقِ بَدْرِهَا   أُعَلِّلُ قلبي المُسْتهامَ بِذِكْرِهَا
وَمِن عَجَبٍ أنّي مُطيعٌ لأمْرِهَا   وتَزْعُمُ أنّي لاَ أُبالِي بهَجْرِهَا
وأنَّ الهَوَى مِنّي خِداعٌ لهَا يَجْرِي

(220) لا توجد في ديوان ملك غرناطة.

وِدادِي عَلَى مَرِّ الجَدِيدَيْنِ خالِصُ ... لِـذلِكَ أَعْنَـاقُ الـوُشاةِ نَـواكِصُ
وإنْ قيـلَ إنَّ الـوُدَّ مِنّـيَ نـاقِصُ ... فِلِمْ ذا يَصوبُ الدّمْعُ والطَّرفُ شاخِصُ
واطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلَى لَهبِ الجَمْرِ
-132- سأمضِي وأبْدِي فيهِ حُكْمِي وحِكْمَتِي ... وَأُظْهِـرُ في الأَمَّـالِ آثـارَ نِعْمَتِـي
وإن لَمْ أُنِلْ عَبْدِي مُناهُ بِخِدْمَتِي ... مَنَعْتُ إذًا وَفْرِي وَخُـنْتُ أذِمَّتِـي
وَسَالَمْتُ أعْدائِي ولَمْ أَكُ ذا أمْرِ

وَمِنَ التَّذْيِيلِ عَلَى الأَبياتِ الرَّائِقَةْ
وَعِقْدِ الدرَرِ المُتَناسِقَـــةْ

وَظَبْيَةِ إِنْسٍ لَيسَ يُرْجَى وِصالُهَـا ... مَدَى الدَّهْرِ إِلاَّ بالتَّوَهُّمِ والفِكْـرِ
كَلِفْتُ بِهَا كالزُّهْرِ وَالزَّهْرِ في الرُّبَى ... لِمَا راقَ مِنْ بِشْرٍ ومَا رَقَّ مِنْ نَشْرِ
عَجِبْتُ لَهَـا والـوُدُّ مِنْهَا سَجِيَّـةٌ ... وَعَنْ خَبَرِي يُغْنِيكَ فِي حُبِّهَا خُبْرِي
تَقولُ بأنّي قَدْ سَلَوْتُ عَنِ الهَوَى ... ولاَ عُذْرَ فِي تَرْكِ اتِّبَاعِ الهَوى العُذْرِي
وتُخْبِرُ أَنّي ناظِـمٌ وصْفَ غَيْرِهَـا ... وَمَا شَعُرَتْ إنْ قلتُ في غَيْرِهَا شِعْرِي
وتَزْعـمُ أنّـي لاَ أبالِـي بِهَجْرِهَـا ... وأنَّ الهَوَى مِنّي خِداعٌ لَهَا يَجْرِي
فِلِمْ ذا يَصوبُ الدَّمْعُ والطرفُ شاخِصٌ ... وأطْوِي الحَشَا لَهْفًا عَلى لَهَبِ الجَمْرِ
مَنَعْتُ إذًا وفْرِي وَخُنْتُ أذمتِـي ... وسالَمْتُ أعْدائِي ولَمْ أَكُ ذَا أمْرِ
أَلَسْتُ المَسمَّى باسْمِ صِدّيقِ رَبِّهِ ... وَناصِرَ دينِ اللّهِ في الحادِثِ النُّكْرِ
ألسْتُ الذِي تَعْنُـو المُلوكُ لِعِـزِّهِ ... وتَرْهَبُـهُ فِي حَالَـي النَّهْـيِ والأَمْـرِ
أَلَسْتُ الذي تخشَى الكُماةُ نِزالَـهُ ... وترْهَبُ مِنْهُ البَطشَ بالبيضِ والسُّمْرِ
أَلَسْتُ الذي تَرْجـو العُفاةُ نَوالَـهُ ... وقد جادَهَا مِنْـهُ بِمُنْهَمِـلِ القَطْـرِ
فَلِمْ لاَ أُوفِّي العَهْدَ والفَضْلُ شيمَتِي ... وانَّ وفائِـي لاَ يُـرَوَّعُ بالغَـــدْرِ
وَعِزَّةُ مُلْكِي طَوعُهَـا كُـلُّ مـالِكٍ ... وأَيْنَ عُلاَ الشهْبانِ مِن رِفْعَةِ البَدْرِ

فَلا حُكْمَ إلاَّ كُنْتُ فيهِ مُحَكَّمًا ولاَ أمْرَ إلاَّ وهْوَ يَصْدُرُ عَنْ أمْرِي -133-

(221)

زَمانُ الرِّضَى أنْسَى القَطِيعَةَ والجَفا وأصْبَحَ لِلقصْدِ المؤمَّلِ مُسْعِفَا
وقَدْ راقَ شمْسُ الأُنْسِ فيهِ تَآلُفا فَمالَكَ والقلْبُ المَشوقُ قدِ اشْتَفى
تَذَكَّرتَ طَوْعَ الوَجْدِ لِلْبَيْنِ مَوْقِفا

نَعَمْ أنفسُ العشَّاق تَدْعُو لِرَبِّهَا وتَسْأَلُ أنفاسَ الصَّبا مِن مَهَبِّهَا
وقَدْ رَوَّعَ الهِجْرانُ آمِنَ سِرْبِهَا وما كُنْتُ لَوْلاَ مَن كَلِفْتُ بِحُبِّهَا
لأَذْكُرُ رَبْعًا لِلتَّصَابِي وَمأْلَفا

أُهِيمُ وانْ شَطَّ المَزارُ تَعَشُّقَا وأسْأَلُ عَهْدًا لِلوَفاءِ وَمَوْثِقَا
وَأُصْغِي إلى ذِكْرِ التّواصُلِ وَاللِّقَا وبالفِكْرِ لاَ أزْدادُ إلاَّ تَشوُّقَا
ولِلذِّكْرِ لاَ أرْتاحُ إلاَّ تَشَوُّفَا

تأمّلْتُ رَبْعًا للحَبيبِ وَمَعْلَمَا فَبُحْتُ وَهَل كانَ الغَرامُ لِيُكْتَمَا
وَهَلْ يالَفُ الصَبْرُ الفُؤادَ المُتَيَّمَا وَساجِمُ دَمْعِي مِن جُفونِيَ قَدْ هَمَا
وَبارِقُ قَلبِي فِي ضُلوعِيَ قدْ هَفَا

ومِمَّا أهاجَتْ عِندِيَ الشوْقَ والجوى طُلولٌ تُناجِينِي عَلَى البُعْدِ والنّوَى
فَأهْذِي بِذِكْرِ الحَيِّ مِنْ جانِبِ اللِّوَى لِأنْ جَدَّدَتْ عَهْدَ الصَّبابَةِ والهَوَى
لَدَى مَرْبَعٍ لِلصَّبْرِ وَالأُنْسِ قدْ عَفَا

وَبِي ظَبْيُ إنْسٍ تَيَّمَ القَلْبَ لَوْعَةً إذا رُمْتُهُ يحْكِي الكَواكِبَ مَنْعَةً
وَيحْسِبُ تَشبيهِي بِذلِكَ بِدْعَةً فَيُزْرِي بِنورِ البَدْرِ حُسْنًا وَرِفْعَةً
ويُخجِلُ غُصْنَ البَانِ لِينًا وَمَعْطِفَا

---

(221) بياض في الأصل لم ينبّه عليه الناسخ، ومقداره سطران، ولابدّ أنه يتعلق بتقديم للتذييل بعده وهو تذييل للشاعر على قطعة لمخدومه يوسف الثالث فيما يبدو.

أقــــولُ إذا أبصَرْتُــــهُ مُتَمَايِـــــلاً   مُنَعَّـمَ قــدٌّ يَتْـرُكُ الـجِسْمَ ناحِـلاً
مُحَيَّاكَ مَن أبْدَى بِهِ البَدْرَ كاملاً   ومَـن هَزَّ لِلعُـذّالِ قــدَّكَ ذابِــلاً
وَجـرَّدَ لِلـعُشّاقِ جَفْـنَكَ مُرْهَفَــا
ألاَ بِابِـي وَجْـهٌ يَـروقُ كَمالُـهُ   تطلَّـعَ في أُفْقِ الضُّلُّوعِ هِلاَلُــهُ
وإنَّ مَشُوقًـا قَـد سَبـاهُ جَمالُــهُ   لَقَـدْ رَقَّ وجْـدًا قَلْبُـهُ فتخالُــهُ -134-
فَتًى رامَ انْ يُخْفِي الصَّبَابَةَ فاخْتَفَى
ألاَ إنَّ في يُمْنايَ لِلبأْسِ والرَّجـا   مجالاً بِهِ القُصّادُ لاَ تَشْتَكِي الوَجَى
وَإنَّ الذِي في حُبِّهِ أتْرُكُ الحِجَى   حَكَى الزَّهْرَ والزُّهْرَ المُنيرَةَ في الدُّجَى
وَغُصْنَ النَّقَى لِينًا وَخَدًّا وَمَرْشَفَـا
أصرِّفُ في الهَيْجاءِ سَيْفًا ولَهْذَمَــا   وأبْذُلُ ما تَهْوَى النُفـوسُ تَكَرُّمَــا
فمالِي أنادِي الظَبْيَ واللّحْظُ قدْ رَمَى   أيا ساحِرَ الأجفانِ قلْ لِي مُنْعِمًا
أيُشفَى فُؤادٌ منْ هَواكَ عَلَى شَفَا
أهيمُ غرامًا شَاءَهُ المُلْكُ أوْ أبَـى   وأتْبَعُ فيـهِ مِـن خُضوعِـيَ مَذْهَبــا
فَيا عَجَبًا لِلْقَلْبِ منّـيَ أنْ صَبَــا   وَهاذِي مُلوكُ الأرْضِ شرْقًا ومَغْرِبَا
تُطَاوِعُ مِنِّي ناصِرَ الدِّيـنِ يُوسُفَــا
كَتَمتُ ولَكِن مَا عَلَى الشمْسِ كاتِمُ   وداءُ الجَوَى طَيَّ الجَوانِحِ دائِــمُ
وإنّي وفي مِلْكِي المُلـوكُ الأكارِمُ   إذا لاَمَنِي في حُبِّـهِ اليَـوْمَ لاَئِــمُ
أقولُ لهُ مَهْلاً فقَدْ بَرِحَ الخَفَــا

(222)

(222) بياض أيضًا في الأصل مقداره سطران، ولا بدّ أنّ الكلام فيه كان تقديما للأبيات المذكورة بعده، ويبدو من نَفَسها ولَفظها، ومن السّياق كذلك أنها ليوسف الثالث، ولكنّها لم ترد في ديوانه ؛ وهي والقطعتان بعدها في استهداء العسل من الشريف أبي العباس، والغالب أنّهُ أبو العباس ولد أبي القاسم الشريف السبتي المعروف. وكان من حاشية يوسف الثالث وخُدّام دولته.

أيا شَريفَ المُنْتَمى وَالّذي   أضْحَى إلَى الغَاياتِ سَبّاقَا
أيْنَ الذِي كُنّا عَهِدْنَاهُ قَدْ   أشْبَهْتَهُ وُدًّا وأخْلاقَا
يَا أبيَضَ الودّ وَحُلْوَ الجَنَى   وأكْرَمَ الخُدَّامِ أعْراقَا
ومِثْلُكُمْ يأتِي بِمَا شاءَهُ   مَقامُنَا أخْذًا وإطْلاقَا
ولَنْ تنالَ البِرَّ حَتَّى تَرَى   لَدَيْكَ مِمَّا شِئتَ إنفاقَا[223] -135-

(224)

أيا شَريفًا قَدْ نأتْ دارُهُ   وخُبْرُهُ طابَ وأخْبارُهُ
أفِضْ عَلى خُدَّامِنَا ما جَرَتْ   في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ أنْهارُهُ[225]

(226)

لَكَ في المَكارِمِ يا أبا العبَّاسِ   آثارُ برٍّ لمْ تَدَعْ مِن باسِ
وأبَرُّ طَعْمًا ما حَلاَ ذَوْقًا وَمَا   أضْحَى شِفاءً دائمًا للنَّاسِ[227]
وَلَدَيْكُمُ مِنْهُ كَثيرٌ فَابْعَثُوا   بالرَّائِقِ الألْوانِ والأجْناسِ
ولْتَتْرُكُوا مَقْلوبَهُ لغَريرَةٍ   ألِفَتْكُمُ مِنْ بعْدِ طولِ شِماسِ[228]

---

(223) اقتباس من الآية الكريمة : «لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون».

(224) بياض في الأصل مقداره سطران، وكان — كما نقدر — في التقديم للبيتين بعده.

(225) إشارة إلى قوله تعالى : وأنهارٌ من عسَلٍ مُصَفًّى.

(226) بياض في الأصل، مقداره سطران، وهو فراغٌ تُرِكَ لما تقتضيه الأبيات بعده من تقديم.

(227) يعني العسل، جَاء في سورة النحل : «يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس».

(228) مقلوب عسل هو لسع، والمقصود هنا معنى القرص، والغريرة المشارُ إليها لعلّها الجارية الرّومية التي أهداها السلطان يوسف الثالث إلى قاضي قضاة دولته الشريف أبي العباس، وهذا ما يُسْتفاد من شعر ابن فركون المتقدّم.

يُعْـزَى أبوهَـا لِلـذِي أشْبَهْتَـهُ   وَصْفًا بِـلاَ شَكٍّ ولاَ إلْبَـاسِ[229]
فَأَلِـفْتَ أنْـواعَ الحَـلاوَةِ دائِمًـا   في الحَالَتَيْـنِ الأَكْـلِ والإعْـراسِ
هَذا وَمُوجِبُهُ إِلَيْكُم مَا ارْتَضَتْ   عُلْيَاكَ مِنْ بِرٍّ وَمِنْ إينَاسِ

ووَجَّهَ إليَّ أيَّدَهُ اللهُ وَنَصرَهُ أبياتًا خمسَةً
دونَ قافِيَةٍ وَ أمَرَنِي بتَرْكيب قافِيَةٍ عَلَيْهَا
فأمْكَنَ فِيهَا مَا يُكْتَبُ بَعْدُ[230]

ومِمّا يُهيجُ الشَّوْقَ مِنِّي والبُكَا   وَميضٌ بأعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ مُذَهَّبُ /يُـرَدِّدُ /يَلُوحُ
تعرَّضَ مِن دُونِ المُصَلّى وَدونَهُ   مجالٌ لِأَيْدِي المُرْسَلاتِ ومَلْعَبُ /ومَعْهَدُ /فَسيحُ
بِليْلٍ كأنَّ الشُّهْب فيه فَوارِسٌ   يُسَلُّ عليهَا لِلبُروقِ مُـذَرَّبُ /مُقَلَّـدُ /صفيحُ
فَما بَيْنَ ثاوٍ قَدْ تَكَدَّرَ واختَفَى   وآخَرُ خَفَّاقُ الفُؤادِ مُلَـهَّبُ /مُسَهَّـدُ /جَريحُ
فإنْ يَكُ لَيْلُ الهَجْرِ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ   فَلِلْوَصْلِ وَجْهٌ بالصَّباحِ مُحَجَّبُ /مُـوَرَّدُ /صَبيحُ

تَمَامُهَـــا

يُرِيكَ التَّباشِيرَ التـي قَـد تألَّـقَتْ   فَراقَ مِـن الوَجْـهِ الأغَـرِّ وضوحُ -136-
فَيَحْسِبُهَـا مَـنْ يهْتَـدِي بِسنائِهَـا   عَزائِمَ تَغْدو في العِـدَى وَتَـرُوحُ
وإنَّ افَنت الـرّومِ ينقـادُ خاضِعًـا   كَما انقادَ مِنْ بَعْدِ الإباءِ جَموحُ
سَيَرْضَى بحُكْمِ السيْفِ مِنْهُ مسوِّفٌ   وَيسْمَـحُ بالمَـالِ العَـرِيضِ شَحيـحُ
وذَلِكَ سَهْـلٌ في مَشيئَـةِ قَـادِرٍ   يُنِيـلُ مَرامًـا مُرْتَجًـى وَيُبِيـحُ

(229) أي أن والد الجارية المذكورة من بني الأصفر، ويُسْتفاد منه أن لون الشريف كان أصفر.

(230) وردت الأبيات التالية للتقديم وكذلك تمامُها في ديوان ملك غرناطَة وقال في مقدّمتها : «ويحتمل أن تنظم على عدة قوافٍ تخيَّرنا منها هذه». ديوان ملك غرناطة : 21 — 22 وتوجد القصيدة أيضا منسوبة ليوسف الثالث في مظهر النور الباصر من ص 3 إلى ص 5.

أمَا نحنُ واللّهُ العَظيمُ بقصْدنَـا نُهَجِّرُ في نَصْرِ الهُـدَى وَنُرِيـحُ
بأفْئِـدَةٍ لاَ يَسْتَقِــرُّ قَرارُهَـا وهَـل بمُثِيرِ النَّقْـعِ تهْدأُ رِيـحُ
أنا اليُوسُفِيُّ النّاجِحُ القَصْدِ كُلَّمَا تُذُوكِـرَ قَصْدٌ لِلملُـوكِ نَجيـحُ
أنا اليُوسُفِيُّ النَّاصِرُ اللَّقَبِ الـذِي أُبِيـدُ ذَرارِيَّ العِـدَى وَأُبيـحُ
يُصَرِّحُ مَلْكُ الرُّومِ جَهْرًا بصُلْحِهِ وَبُرْهـانُ مَقْصودِي لديْهِ صَرِيـحُ
وهَل لِي إلَى غَيْرِ الحُروبِ تَطَلُّعٌ وَهَلْ لِي إلَى غَيْرِ الجِهادِ طُموحُ
وإنّ مَقامِــي لاَ مَقـامَ يَرُوقُـهُ فلَـيْسَ فُتُـورٌ أن تُقِـلَّ فتـوحُ -137-

(231)

---

(231) بياض في الأصل مقداره نحو 12 سطرًا ولا بدّ أنه مخصص لتركيب القوافي المذكورة، وكان حق الناسخ أن يثبت القوافي الأولى على النحو الآتي :

وممّا يهيج الشوق منّي والبكـا وميض بـأعلى الرقمتين مـذهب
تُعَرِّض............................ ....وملعب
بِلَيْل............................ ....مـدرّبُ
فَمَا............................ ....ملهّب
فإنْ............................ ....محجّب

والقوافي الثانية على النحو الثاني :

وممّا يهيج الشوق منّي والبكـا وميض بـأعلى الرقمتين يَلُـوحُ
تُعَرِّضَ............................ ....فَسِيحُ
بِلَيْل............................ ....صَفِيحُ
فَمَا............................ ....جَرِيحُ
فَإنْ............................ ....صَبِيحُ

وَمِنَ النَّسيبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِه
وَالغَزَل المتَبعِ قَويمُ مَذْهَبه
قُلْتُ بالمَنْزِلِ مِنْ نُبْلُه خارِجَ الحَضْرةِ
فِي الثَّانِي لِجُمَدَى الثَّانيَة مِن عَامِ خَمْسَة
عَشَر وَثماني مِائة في وَصْفِ عَشِيَّةٍ(232)

شمسُ العَشِيَّـــةِ آذَنتْ بغُروبِهَـــا ... كَالكَأسِ راقَ بهَا سَنَا مَشْرُوبِهَا
مُصْفَـرَّة تُبْـدِي النُّحـولَ عَلِيلَـــةً ... فكَأَنَّهَـا تَشكُـو فِـراقَ حَبيبِهَـا
فكَأَنمَـا هِـيَ في العَشيّ مُسافِـرٌ ... أَبقَتْ عَلَى مَرْآهُ بعْضَ شُحوبِهَـا
وكأنّهَـا عَـذْراءُ رِيـعَت فانثَـنَتْ ... وتَستَّرتْ في الحَيّ خَوْفَ رقيبِهَا
أَلْقَتْ عَلَى هَذِي البِطاحِ شُعاعَهَا ... فَطِرازُ خُضرَتهِـنَّ مِـن تَذْهِيبِهَـا
قابِـلْ مُحَيَّاهَـا بِنـورِ مُدامَـــةٍ ... حَمراءَ تُبْدِي النّـارَ مِن تشبيبِهَـا
مَا اعْتَلَّتِ الأجْسامُ إلاَّ قَبْـلَ أنْ ... مَصَحَتْ عَلَى الأَرْواحِ كَفُّ طَبيبِهَا
إنْ غابَتِ الشمْسُ المُنيرَةُ أطْلعَتْ ... بَدْرًا يَنوبُ سَناهُ عَـن مَحْجوبِهَـا
خُذْهَا مُعَتَّقةً على الرَّوْضِ الـذِي ... تُهـدِي أزَاهِـرُهُ نَـوَاسِمَ طِيبِهَـــا
مِنْ كَفّ مَيَّادِ المَعَاطِفِ سَاحِـرٍ ... هُـوَ لِلنَّواظِـرِ منتَهَـــى مَطْلوبِهَـــا
يَشْفِي نُفوسَ العاشقِينَ مِن الجَوَى ... فَيُزيـلُ مَـا تَلْقَـاهُ مِـنْ تَعْذِيبِهَـــا
وَالعـودُ يُسْمِـعُ صَوْتُـهُ في كَفِّـهِ ... مَا شاءَتِ العُشَّاقُ مِـن مَرْغُوبِهَـا
بـاحَتْ بِمَكْنُـونِ الهَـوَى أوْتـارُهُ ... فَشَفَتْ فُـؤَادَ غَرِيمِهَـا بِغَرِيبِهَـــا
بأنامِـلٍ لَـمْ تَـرْقَ مِنبَـرَ عُودِهَــا ... إلاَّ أبـاحَ الشُّرْبَ وعْظُ خَطيبِهَـا

(232) نُبْلُه : Nublo قرية من قرى غرناطة وكانت معدودة في عهد ابن الخطيب من قرى «مستخلص السلطان» وبها «الدار المعروفة بنبلُه» ولعل هذه الدار السلطانية هي التي سميت هنا بالمنزل، وسيذكر الشاعر «قصر نبْلُه» الذي كان يخرج إليه مخدومه يوسف الثالث للراحة والاستجمام، وفي الوثائق الغرناطية التي نشرها الاستاذ سيكو دي لوثينا تردّدَ ذكر «منهل نبله خارج الحضرة» انظر الاحاطة 1 : 125 ووثائق غرناطية : 71، 87، 88، 89.

وكأنّ يُمْناهُ تَخُطُّ لِكُلِّ مَنْ   تَرَكَ الخَلاعَةَ آن وَقْتُ وُجوبِهَا
فاعْجَبْ لآياتِ السُّرورِ وَجُدّ فِي   تَرْتيلِهَا وانْظُرْ إلَى تَرْتِيبِهَا -138-
نَطَقَتْ فَأهْلاً بِالذِي أبْدَتْهُ مِن   مَكْتُومِهَا المَشْروحِ أوْ مَكْتُوبِهَا
لاَ تَنسَهَا فَبِواجِبٍ أنْ يقْتَدَى   بأبِي نُواسٍ فِي مَحَلِّ خَصيبِهَا(233)
لاَ تَصْحُ عَنْهَا إنّ رَبّكَ قَد قَضَى   كَرَمًا وإنْعامًا بِمحْوِ ذُنوبِهَا

وَفي أوَّل شَوالٍ عَام تسْعَةٍ وَثماني مائَة
وَقَد سُئِلتُ ذلِك فَقلتُ ارْتجالاً لُزومِيَّةً

دعِ المِصْباحَ وانظُر يَا نَدِيمِي   لِشمسِ الكاسِ فِي اللّيْلِ البَهيمِ
وَلاَ تنْسَ الصَّبُوحَ إذَا تجَلَّى   لكَ الإصْباحُ عَن وَجْهٍ وَسِيمِ
وَحَيَّتْكَ الأزاهِرُ مِن رُباهَا   بمَا تُهْدِيهِ فِي طَيِّ النَّسيمِ
فَتُلْفِي كُلَّمَا حَيَّا صَباحًا   صَحِيحَ الوَجْدِ يُرْوَى عَنْ سَقِيمِ
تَنَعَّمْ كَيْفَ شِئْتَ بِهَا وَقُلْ لِي   هَلِ الجَنَّاتُ جَنَّاتُ النَّعِيمِ
وَغانِيَةٍ تُرِيكَ السّحْرَ حَقًّا   حَلالاً لَيْسَ بالسّحْرِ الذّمِيمِ
فَكَمْ فِي الرّوْضِ مِن زَهْرٍ نَثِيرٍ   وكَمْ فِي اللّفْظِ مِن دُرٍّ نَظِيمِ
خَلِيلِيَ دَعْ تَذَكُّرَ مَا تَقضّى   وما قَدْ مَرَّ مِنْ عَهْدٍ كَرِيمِ
وَلاَ تُرْسِلْ عُهُودَ الدّمْعِ مَهْمَا   تَذَكَّرْتَ المَعاهِدَ بِالغَمِيمِ
وَلاَ تُطِلِ التَّفكُّرَ وَاجْتَنِبْهُ   وَهاتِ الكأْسَ مِن كَفّ النَّدِيمِ
وَعَلّلْ قَلْبَكَ المُضْنَى وشَفّعْ   جَدِيدَ هَواكَ بالخَمْرِ القَدِيمِ
فَكَمْ فِينَا لِذلِكَ مِن مُدِيرٍ   لهَا ولِشُرْبِهَا كَم مِن مُدِيمِ
وَلاَ تَيْأَسْ مِنَ العَفْوِ المُرَجَّى   فَرَبُّكَ غافِرُ الذّنْبِ العَظِيمِ

(233) الخصيب والي مصر، وهو الذي مدحه أبو نواس بقوله .
أنت الخصيبُ وهذه مصرٌ   فتدفّقا فكلاكُما بَحْرُ

وَلَكِنَّ اعْتَمِدْ فِي كُلِّ أَمْرٍ   عَلَى مَا جَاءَ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ

-139-

ومِنَ المُرْتَجلاَتِ المُقْتَرحاتِ عَرُوضًا وَقافِيَةً
في ذي قِعْدَة عَام أَرْبَعةٍ وثماني مائة

أَصَوْبُ الحَيا جَادَ أَمْ دَمْعُ عَيْنِي   فَحَيَّا المَعاهِدَ بالرَّقْمَتَيْنِ
غَرامًا بِمَنْ سارَ وصفُ حُلاَهَا   مَسيرَ الكَواكِبِ في الخافِقَيْنِ
وَذَكَّرَنِي عَهْدَهَا بالحِمَى   سَنَا بارِقٍ لاَحَ بالأَبْرَقَيْنِ
وأنْ أطْلَعَتْ وَجْهَهَا مُشْرِقًا   طُلوعَ الصَّباحِ مِنَ المَشْرِقَيْنِ
نَعِمْتُ بِهَا تَحْتَ خَفْقِ الظِّلاَلِ   نَعِيمَ المُهَنَّإِ بالْجَنَّتَيْنِ
وَمَا خَمْرَةُ الكَأْسِ مَا بَيْنَنَا   بأعْذَبَ مِنْ خَمْرةِ المَرْشَفَيْنِ
وَكُنَّا كمَا شاءَ حُكْمُ الهَوَى   خَليلَيْنِ في القُرْبِ كَالفَرْقَدَيْنِ
وأمَّا وقَدْ بَعُدَ المُلْتَقَى   فَيا بُعْدَ مَا بيْنَ صَبْرِي وَبَيْنِي
إِلَى أَيِّ جَنبٍ أرِيحُ الفُؤادَ   ونَارُ الصَّبابَةِ في الجَانِبَيْنِ
ولَمْ أنسَهَا يَوْمَ سارُوا بهَا   نَشيدَةَ قَلبٍ وإنسَانَ عَيْنِ
وبُعْدُ الدّيارِ وشمْسُ النَّهارِ   يُذيبانِ قلبِيَ بِالجَمْرَتَيْنِ
أشارَتْ بِراحَتِهَا إذْ أراحُوا   فَمَا أشْوَقَ القَلْبَ للرَّاحَتَيْنِ
ألاَ عاذِرٌ لِيَ في مَطْلَبِي   إِلَى كَمْ أرَى العَذْلَ يَلْوِي بِدَيْنِ
صِفاتُ الكَمالِ وَسِرُّ الجَمالِ   أتَى مِنهُمَا الدَّهْرُ بالمُعْجِبَيْنِ
تُريكَ القَساوَةَ في قَلْبِهَا   وتُبْدِي لكَ اللِّينَ في المَعْطِفَيْنِ
فَفِي القَدِّ ثانِيَةٌ للْقَضِيبِ   وَفي الوَجْهِ ثَالِثَةُ النَّيِّرَيْنِ
إذا شِئْتَ زَهْرًا فَفِي الثَّغْرِ مِنْهَا   وَإِن شِئْتَ وَرْدًا فَفي الوَجْنَتَيْنِ
يَرُومُ جَناهَا حَليفُ الهَوَى   فَتَحْرُسُهَا أسْهُمُ المُقْلَتَيْنِ
تُصيبُ القُلوبَ إذَا مَا رَمَتْ   بِهَا عَنْ قِسِيٍّ مِنَ الحاجِبَيْنِ

وَفي مِثْـــلِ ذلِكَ
وقدْ سُئِلْتُ نظْمَ مُقاوَلَةٍ وَفي التّاريخِ(*)

مَا لقَلبِي يَصْبُو وَدَمْعِي يَصوبُ عِنْدَمَا بَانَ مَنْزِلٌ وَحَبِيبُ
تَرَكَ الوَجْدُ فِي فُؤادِي بَقايَا - عنْدَ ذكْرَاكَ فِي الدُّموعِ تَذُوبُ
لَيْتَ شعْرِي مَتَى يَعُودُ زَمانٌ قَدْ تَقَضّى بوَصْلِنَا وَيَؤُوبُ
أيْنَ لَيْلٌ نعِمْتُ فيهِ بلَيْلَى وعَلَيْنَا مِنَ النجُومِ رَقِيبُ
وَسْطَ رَوْضٍ حَكَى الشّمائِلَ مِنْهَا إنْ هَفَتْ شَمْألٌ وَهَبّتْ جَنُوبُ
فَهْيَ تحْكيهِ إذْ يَرُوقُ جَمالاً زَهْرُهُ أوْ يَميلُ مِنهُ قَضيبُ
إذْ لَهَا بَهجَةٌ وَحُسْنٌ عَجيبٌ وَجَمالٌ بادٍ وعَرْفٌ وَطِيبُ
مَنْطِقٌ لَيِّنٌ وَعَيْنٌ كَحِيلٌ وَقَوامٌ لَدْنٌ وثغْرٌ شَنِيبُ
وَعَذولٍ جَفَا وَللقَلبِ وَجْدٌ جَمْرُهُ في جَوَانِحِي مَشْبُوبُ
قالَ لِي أيَّ مَطْلَبٍ تَبْتَغِيهِ قلْتُ مَالِي مِنْ بَعْدِهَا مَطْلُوبُ
قال دَعْهَا وَسَلِّ قَلبَكَ عَنْهَا قلْتُ هَلاّ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
قالَ نقّلْهُ سَاعَةً عَنْ هَواهَا قلْتُ مَا فِيهِ للْوُجودِ نَصِيبُ
قال قدْ عَذّبَتْكَ هَجْرًا وَصَدًّا قلْتُ فيهَا يُسْتَعْذَبُ التعْذِيبُ
قال لِي قد تَمَنَّعَ العَطْفُ مِنْهَا قلتُ مَهْلاً فالعِطْفُ مِنهَا رَطِيبُ
قال هَلْ يُقْنِعُ المشُوقَ خَيالٌ قلْتُ لوْلاَ أنَّ الخَيالَ كَذُوبُ
قال مَاذا جَفَا فُؤادَكَ مِنهَا قلتُ سَهْمُ اللّحَاظِ وَهْوَ مُصيبُ
قال هَلْ طابَ بَعْدَهَا لَكَ عَيْشٌ قلتُ دونَ الوِصالِ كيفَ يَطيبُ
قَال هَل حالَ مِنْكَ بالبُعْدِ حَالٌ قلتُ حَالِي مَدَامِعٌ وَنحِيبُ
قال هَل تَنقَعُ الدُّمُوعُ غَلِيلاً قلتُ طَيَّ الضُّلُوعِ مِنْهَا لَهِيبُ

(*) المقاولة هي ضرب من الشعر الذي يستعمل فيه الحوار ومن اقدم أمثلته ما نجده في شعر وضاح اليمن وعمر بن أبي ربيعة.

قـالَ مـا رَقَّ مِـنْكَ بعْـدَ نَوَاهَــا   قــلتُ جِسْمٌ وأدْمُـــعٌ ونَسِيبُ
أصْبَحَ القـلبُ عاشِقًـا في حُلاَهَــا   فَلَــهُ طَـــيَّ أضْلُعِـــي تَقْلِـــيبُ -141-
كُلَّمَــا رَوَّعتْــهُ شَمْسُ ضُحاهَــا   بِغُــروبٍ لِلدَّمْــعِ منّــي غُـــروبُ

وَارْتَجَلتُ بأمْرِ مَولاَنَا الناصِرِ لدين الله أعْلَى الله مَقامَهُ
والبيْتُ الأوَّل من نظْمه في السَّادسِ عشر لجمدى الأولى عام 816

أمَا تُبْصِرُ الظَّلْماءَ قَدْ فَغَرتْ فَمَا   وصَارَتْ نجُومُ الأفْقِ تخَبطُ في عَمَى
تَمِيـلُ إلَـى نَهْـرِ النَّهَــارِ وتَنْثَنِـــي   كأنَّ طُيورًا تَقْصِدُ الـوِرْدَ حُوَّمَــا
إذا أشرَقَتْ في جِنحِهِ خِلتَ وَارِدًا   مِنَ الزَّنْـجِ يُبْـدِي ثَغْـرَهُ مُتَبَسِّمَــا
وَقَـدْ سَدَلَ الليْـلُ البَهيـمُ سُتـورَهُ   عَلَيْنَــا فكُنَّــا فيــهِ سِرًّا مكَتَّمَـــا
كأنَّ الدُّجَى يُلْقَى لدَيْهِ مِنَ الضُّحَى   حَديثٌ إذا أوْضَحْتَهُ عَـادَ مُبْهَمَــا
عَجبْتُ لهُ يُخْفِي حِمَى الأنْسِ عامِدًا   ونَيِّـرَةُ الصَّهْبــاءِ تُعْليــهِ مَعْلَمَـــا
وهَذِي كُؤوسُ الرَّاحِ يَبْدُو شُعَاعُهَا   وَلَوْلاَهُ لَمْ نُهْد السَّبيلَ إلَى الحِمَى
حَبابٌ يُريكَ الزَّهْرَ فَوْقَ غُصُونِـهِ   أو الدُّرَّ في مَثْنَى العُقودِ مُنَظَّمَــا
أنَرْعَى عَلَى البُعْدِ النجُـومَ وَبَيْنَنَــا   كؤوسٌ تُحيِّينَا عَلَى القُرْبِ أنجُمَا
أنَسْتَقْبِـلُ البَـدْرَ المُنيـرَ وَفَــارِسٌ   إذا مَا تَبَدَّى خِلْتَ بَدرًا مُتَمَّمَا(234)
جَميلٌ قـدِ انقـادَ الجَمـالُ لأمْـرِهِ   وَحَكَّمَــهُ في نَـــفْسِهِ فَتَحَكَّمَــــا
حَكَى السِّحْرَ لَحْظًا وَالغزالَ تَمنُّعًا   كَما أشْبَهَ الـغُصْنَ النَّضيـرَ تَنَعُّمَــا
يُديرُ مِنَ الأكْواسِ خمْرًا وَثَغْـرُهُ   يُديرُ كؤُوسَ الحُبِّ مَهْمَا تَبَسَّمَــا
إذَا مـا تَثَنَّـى أوْ تَغَنَّـى بِعُــودِهِ   أعـاذَ الخَلِيَّ القَـلْبِ صَبًّا مُتَيَّمَــا
فَيَـا غُصُنًــا في رَوْضِهِ متَمايِـــلاً   ويَــا طائِـرًا في دَوْحِـهِ مترَنِّمَــا

(234) لمخدوم الشاعر وممدوحه يوسف الثالث أشعارٌ في فارسٍ هذا، والمفهوم أنه كان من غلمان القصر.
راجع ديوان يوسف الثالث : 108، 135، 154، 156، 157.

تَلاعَبَ زَهْوًا بالعُقول وكيفَ لاَ   وَمَا السّحْرُ إلاَّ ما بِهِ قدْ تَكَلَّمَا

وَكَتَبْتُ مِنَ المحَلَّةِ بِظاهِرِ جَبَل الفَتحِ فِي الحادِي والعشرين لصفر من عام خمسة عشر وثماني مائة في السفرة الثانية -142-

هَل بَعْدَ طول تغرُّبي وفِراقِي   أَرْجُو اللِّقاءَ ولاَتَ حينَ تَلاَقِ
لَمَّا رَحَلْتُ عَنِ المَنازِلِ لَمْ يزَلْ   سُكْنَى الغَرامِ بقلبِيَ الخَفَّاقِ
يا حادِيَ الأظْعَانِ مالَكَ والسرَى   اللّهَ فِي الرَّمَقِ الذِي هُوَ باقِ
هِيَ دارُ أَحْبابِي وَمَوْضِعُ صَبْوَتِي   ومَحَلُّ جيرانِي ورَبْعُ رِفاقِي
جارَ الزَّمانُ بِبُعْدِهِمْ ولَعَلَّهُ   يَوْمًا يَجودُ بِعادَةِ الإشْفاقِ
مَا لِي ولِلشمْسِ المنِيرَةِ كُلَّما   تُبْدِي وَتُبْدِعُ بهْجَةَ الإشْراقِ
مَا راقَ عَيْنِيَ دُونَهُمْ حُسْنٌ وَلاَ   دَمْعِي عَلى حُكْمِ الصَّبابَةِ رَاقِ
بَخلُوا بِرَدِّ جَوابِ مَا راقَ النُّهَى   مِمَّا وشَتْ يمْناَيَ في الأوْراقِ
مَا بَالُهُمْ مَنَعُوا نَجائِبَ كُتْبِهِمْ   أن تَسْتَقِلَّ بأرْبُعِ العُشَّاقِ
ما بالهُمْ مِن بَعْدِ حادِثَةَ النَّوَى   لَمْ يحْفَظُوا عَهْدِي وَلاَ مِيثاقِي
يَا سائِلِي عَن شَرْحِ حالِيَ لَيْتَنِي   لوْ كُنْتُ أُلْقِي بَعْضَ مَا أنا لاَقِ
مَاذَا أقولُ وَطُولُ كتْبِيَ لاَ يَفِي   بحَديثِ مَا عِنْدِي مِنَ الأشْواقِ
وَكَتَمتُ ما أهْلُ الهَوَى نَطقُوا بِهِ   إلاّ قَليلاً ضاقَ عَنْهُ نِطاقِي

وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ

أحْبابَنَا هَلْ لَنَا بَعْدَ النَّوَى طَمَعُ   فِي القُرْبِ أوْ هَلْ زَمانُ الأُنْسِ يَرْتَجِعُ
إذا تَذَكَّرتُ ما بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ   يَكادُ قَلبِيَ مِن ذِكْراهُ ينْصَدِعُ
وَلَّتْ صباحًا رِكابُ القوْمِ مُسْرِعَةً   وَالدَّمْعُ ينزِلُ وَالأنْفاسُ تَرْتَفِعُ

مَا أَمَّلُوا لِلحِمَى رُجْعَى فَلَيْتَهُـمُ   لَوْ أَنَّهُمْ لجمِيلِ الصبْرِ قَدْ رَجَعُوا
مَا لِي ولِلصبْرِ أَسْتَجْدِي عَوارِفَـهُ   لَكِنَّـهُ سَنَـنٌ فِي الـحُـبِّ مُتَّبَـعُ -143-
كُنَّا كَما شاءَتِ الآمالُ فِي دَعَةٍ   وَالوَصْلُ متَّصِلٌ والشَّمْـلُ مُجْتَمِـعُ
فَفَـرَّق الدَّهْـرُ ظُلْمًـا بَيْنَنَـا وَغَـدَا   مَا كَانَ طَوْعَ يَدَيْنَا وَهْوَ مُمتَنِـعُ
مَا كانَ ظَنّي أَنّ القُـرْبَ يُعْقِبُـهُ   بُعْدٌ ولاَ انَّ طولَ الوَصْلِ يَنقَطِعُ
ما كُنْتُ أَحْسِبُ أَنّ الوَجْدَ يُذْهِلُنِي   كَمْ عاشِقٍ غَرَّهُ مِن قبْلِي الطَّمَعُ
يا مَنْ تَمَلَّكَنِي حُبًّا أَيَجْمل بِـي   صَبْرٌ وعَيْنِي عَلى مَرْآكَ لاَ تَقَـعُ
تَضيقُ فِي عَينَيَ الدُّنْيَا إِذا أَنا لاَ   أَراكَ فيهَا ورَحْبُ الأَرْضِ مُتَّسِعُ
مَن لِي بطَيْفِ خَيالٍ مِنْكَ يَطْرُقُنِي   إنّـي بـأَيْسَرِ حَـظٍّ مِنْـهُ أَقْتَنِـعُ
رامُوا سُلُوِّي عَن رَبْعٍ حَلَلْتَ بِهِ   هَيْهَاتَ ما دونهُ فِي العَيْشِ مُنتَفَعُ
مَن باتَ يَلْقَى الذِي أُلقاهُ منْ أَلَمٍ   فَلَيْسَ يَعْلَمُ ما يَاتِـي ومَـا يَـدَعُ

وَمنَ المامُور به فِي السَّفْرَة الأُولَى ونحْنُ بِظاهِرِ جبل الفتح في محرم عَامَ أَرْبَعَة عشر وثماني مائة

فَيـا عَـذُولَ صَباباتِـي أَلاَ زَمَـنٌ   يكْفِـي زَمانَـةَ قلْبِـي أَوْ يُداوِيهَـا
قَدْ يُجْتَلَـى حُسْنُهَـا لَـوْلاَ تَقَنُّعُهَـا   وَيجْتَنَـى زَهْرُهَـا لَـوْلاَ تَجَنِّيهَـا
أَنا الـذي حِيـنَ تُقْصِينِـي أُقَرِّبُهَـا   وَإِن أَساءَتْ بِـإِحْسانٍ أُجَازِيهَـا
إِنْ كان يُمْنَعُ طَرْفِي أن يُشاهِدَهَا   فَلَيْسَ يُمْنَعُ قَلبِي مِـن تَمَنِّيهَـا
أَلْقَـى هَواجِـرَ لاَ تَلْقَـى ظَهيرَتُهَـا   أَرْعَـى نجُـومَ لَيـالٍ لاَ تُراعِيهَـا
تَتيــهُ مائِلَــةً عَنّــي وَقائِلَــةً   أَنتَ الذِي قدْ أَلِفْتَ الهَجْرَ وَالتِّيهَا
فقُلْتُ عَلَّ خَيـالاً مِنك يَطْرُقُنِـي   قـالَتْ أَتطْلُـعُ شَمسٌ فِي دَيَاجِيهَا
عَنَّيْتِ قَلْبِـي بأَشْجـانٍ أُكابِدُهَـا   فَهَـلْ يَصِيرُ طَلِيقًـا مَن يُعانِيهَـا
وَكَيْفَ يَصْحُو الفَتَى مِن سُكْرِ خمْرَتِها   وقَـدْ سَقَتْـهُ غَوانِيهَـا أَوَانِيهَـا

وَمِنْ ذٰلِكَ وَهِيَ وَمَا ثبتَ مِنْ أمثالِهَا مِن العَاطِلِ والمحَالِ لِصِغَرِ السِّنّ عِند نَظْمِهَا وَفِي رَمَضَانَ مِن عَامِ ثمَانِيةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَة. -144-

وَما كنتُ أهْوَى رِبْعَ سَلْمَى وَإنّمَا ... أحِبُّ الحِمَى مِن أجْلِ مَن سَكَن الحِمَى
ومَا كُنتُ أدْرِي أنّ سَهْمَ لحَاظِهَا ... يُصيبُ فُؤادَ المُسْتَهامِ إذَا رَمَى
وقدْ كانَ قَلبِي يَحْذَرُ الحبَّ جُهْدَهُ ... وَ مَا كان ذاكَ الحِذْرُ إلاَّ لِيَسْلَمَا
إلَى أنْ بَدَا لِلقَلبِ لمَّا بَدَا لَهُ ... مُحيًّا يفُوقُ الشَّمْسَ فِي أُفْقِ السَّمَا
وَللهِ دُرٌّ راقَ مِنْ ثَغْرِهَا الذِي ... سَقانِي كُؤُوسَ الحُبِّ حِينَ تَبَسَّمَا
فَمَهْمَا رَنَتْ تَحْكِي غَزَالاً مُمَتَّعًا ... وَمَهمَا انثَنَتْ تَحْكِي قَضِيبًا مُنَعَّمَا
ويا لِغَرامٍ قد ثَوَى بجَوانحِي ... فَأنْجَدَ ما بَيْنَ الضُّلُوعِ وَأتْهَمَا
غَزَتْ قَلْبِيَ المُضْنَى المَشوقَ جُنُودُهُ ... فأصْبَحَ فِي أيْدِي الصَّبَابَةِ مَغْنَمَا
فَيا لَيْتَ سَلمَى تَبعَثُ الطَّيْفَ فِي الكَرَى ... لِتُرْوِي قُلوبًا بالصَّبَابَةِ حُوَّمَا
ويَا لَيتَهَا تُهْدِي سَلامًا مَعَ الصبَا ... لِيَنقَعَ قَلْبًا جمرُهُ قدْ تَضَرَّمَا
تَهُبُّ عَلَى جِسْمِي صَبَاهَا عَلِيلَةً ... فَيَبْرأُ مَا قَدْ كانَ مِنهُ تَألَّمَا
وَمَهْمَا هَمَى دَمْعِي وَصَوْبُ غَمامَةٍ ... فَواللّهِ مَا أدْرِي مَنِ الغَيثُ مِنْهُمَا
فَما بجُفُونِي غَيْرُ صَيِّبِ أدْمُعٍ ... ومَا بفُؤادِي غَيْرُ خَبْلٍ تَحَكَّمَا
وأظْهَرَ دَمْعِي ما بِقَلْبِي مِن الهَوَى ... وقدْ كان سِرًّا فِي ضُلوعِي مُكَتَّمَا
فإن لُمتُهُ أن باحَ بالحُبِّ لِلوَرَى ... فَيُنشِدُ هَلْ كانَ الغَرامُ لِيُكتَمَا
وَيا أيّهَا القَلبُ المَشوقُ إلى مَتَى ... تَبيتُ كَما شاءَ الغَرامُ مُتَيَّمَا
لَئِن مُنِعَ الوَصْلُ الذي فِيهِ راحَتِي ... فَمَا يُمْنَعُ المشتاقُ أن يَتَوَهَّمَا
سأطْمَعُ فِي وَصْلٍ وإنْ طالَ هجْرُهَا ... وأقْطَعُ دَهْرِي فِي عَسَى ولعَلَّمَا
وقدْ زَعَمَ الْواشُونَ أنّي تارِكٌ ... هَواهَا ومَرْآهَا وأصبِرُ عَنْهُمَا
فَظَنّتْ بأنّي قدْ سَلَوْتُ عَنِ الهَوَى ... وأنّي إذًا لاَ أسْهَرُ اللّيْلَ مُغْرَمَا -145-

وهَيْهاتَ يمْحُو الدَّهْرَ أوْ ينسَخُ العِدَى   لَهَا في حَصَاةِ القَلْبِ ما قَد تَرَسَّمَا

وَمِن ذلِكَ حَسبَما كُلِّفْتُهُ فِي أوَّل صَفَر مِن عَام تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَة

عُهُودُ غَرامِي لاَ تَزالُ جَدِيدَةً   وأرْبُعُ جِسْمِي عَافِيَاتٌ دَوارِسُ
فَمَن قاسَنِي فيمَا أُقَاسُ مِنَ الهَوَى   بِقَيْسٍ وَلَيْلَى أخطَأتْهُ المَقَايِسُ
إذَا جَنَّ لَيْلِي فالسُّهادُ مُلازِمٌ   لجَفْنِيَ والشوْقُ الحَثِيثُ مُوانِسُ
كَلِفْتُ بظَبْيٍ رائِعِ الحسْنِ لمْ يَزَلْ   يُرَوِّعُ قلبِي بالنَّوَى وَهْوَ آنِسُ
إذَا هُوَ أبْدَى لِلعُيُونِ جَمالَهُ   أراكَ مُحيًّا الشمْسِ والليْلُ دامِسُ
وَمَهْمَا بَدتْ يَوْمًا ذَوائِبُ شَعْرِهِ   أرَتْكَ ظَلامَ اللَّيْلِ واليَوْمُ شامِسُ
وَطَلْعَتُهُ بَدْرٌ يَروقُ كَمالُهُ   وَقامَتُهُ غُصْنٌ من البانِ مَائِسُ
فَبَدْرٌ ولَكِن في فُؤادِيَ طالِعٌ   وَظَبْيٌ ولَكن في ضُلوعِيَ كانِسُ
فَيُخْجِلُ شَمْسَ الأُفْقِ وَهْيَ مِنيرَةٌ   وَيُزْرِي بأسْدِ الغَابِ وَهْيَ عَوابِسُ
أأطْمَعُ يَوْمًا في جَنَى وَرْدِ خدِّهِ   ومِن فَوقِهِ حُورُ العُيُونِ حَوارِسُ
أأطْمَعُ ان أسْلُو عَنِ الحُبِّ سَاعَةً   وَبَيْنَ ضلُوعِي مِن هَواهُ وَساوِسُ
فإن رُمْتُ يَوْمًا عَن هَواهُ تَصبُّرًا   تُخادِعُنِي ألْحاظُهُ وَتُخالِسُ
مُحَمّدُ يا مَنْ هامَ قَلْبِي بِحُبِّهِ   ومَن في فؤادِي مِنْ هَواهُ مَقابِسُ(234م)
لَئِنْ غِبْتَ عَن عيْنِي وَطَيْفُكَ زائِرٌ   فَلاَ الوَصْلُ مَمْنوعٌ ولاَ القَلْبُ آيِسُ
ومَهْمَا هَمَى صَوْبُ الغمَامِ تَشابَهَتْ   دُمُوعُ جُفونِي والغيوثُ البَواجِسُ
فَجِسْمِيَ ذو سُقْمٍ وَجِسْمُكَ نَاعِمٌ   وَجَفْنِيَ ذُو سُهْدٍ وَجَفْنُكَ ناعِسُ
فإن سَهِرَتْ عَيْنايَ نادَيْتُ في الدُّجَى   الاَ بأبِي تِلْكَ العيُون النّواعِسُ

(234م) في ديوان يوسف الثالث : 34 ـــ 35 قصيدتان في التغزّل بمحمّد هذا، ويبدو أن يوسف هو الذي كلّف الشاعر بهذه القصيدة.

وَفي مِثْـلِ ذلِك

أتُرَى الخِلُّ إذْ نَأى أوْصَابِـي كَيفَ شاءَ الهَوَى إلَى أوْصابِي[235]
طالَمَا بِتُّ أشتَكِي نَارَ شَوْقِي وَهْيَ شَكْوَى جَوًى بغَيْرِ جَوابِ
وتذَكَّرْتُ عَهْدَ أُنسٍ تَقَضَّى لَمْ يَكن فيهِ زَنْدُ أُنسِيَ كَابِ
ثم نَادَيْتُ في الظَّلامِ ودَمْعِي بيْنَ جَفْنَيَّ دائِمُ التَّسْكابِ
هَلْ مُباحٌ بعْدَ الصُّدودِ وِصالِي أوْ مُتاحٌ بعْدَ البِعادِ اقتِرابِي
لِيَ قلْبٌ صادٍ إذَا رامَ وِرْدًا ذِيدَ عَن مَوْرِدِ الثغُورِ العِذابِ
لِي دَمْعٌ يُغْنِي عَنِ الغَيْثِ مَهْمَا أخْلَفَ الغَيْثُ مَعْهَدَ الأحْبابِ
وأنا الآن في نَعيمٍ مُقيمٍ بَعْدَ نُصْبٍ قد مَسَّنِي وَ عَذابِ
هُوَ شمْسِي وَطالَمَا قَدْ تَوارَتْ عَن جفوني يوْمَ النَوَى بالحِجابِ
غَرَّنِي مِن وصَالِهِ بخَيالٍ كَغُرورِ الصَّادِي بِلَمْعِ سَرابِ
جَنَّةٌ في عِذارِهِ لِيَ فيهَا إنْ أبيحَتْ طُوبَى وَحُسْنُ مآبِ
فإذا ما العَذُول رَامَ سُلُوِّي كانَ سَمْعِي عَنِ النصيحَةِ نابِ
يا هِلاَلَ الجَمالِ يا ابْنَ هِلالٍ يا هِلالاً يُزْرِي بأُسْدِ الغَابِ[236]
عُذِّبَ القَلْبُ إذْ نَأيْتَ وأضْحَى ذَا نَعيمٍ إذْ أبْتَ خَيْرَ إيَابِ
كَمْ سَقَتْنِي كُؤوسُ لحْظِكَ حَتَّى مِلْتُ وَجْدًا مَيْلَ الغُصونِ الرِّطابِ
دُمْتَ مَا لاَحَتِ الكَوَاكِبُ أوْ ما ضَحِكَ الرَّوْضُ مِنْ بكَاءِ السَّحابِ

---

(235) فيه جناس بين قوله أوصى بي، وأوصابي جمع وصب وهو التعب.

(236) للمدوح الشاعر يوسف الثالث قصيدة مطلعها :

يا هِلال الجمالِ يابنَ هِلالِ لكَ روحي كَما تشاءُ ومالي

وقد مهّد لها بقوله : «واقتضت الدّعابةُ الّتي لا حَقيقةَ لَها أنْ نظَمْنا في بعْضِ الأوقات» وقد ورد في وثائق غرناطة ذكر «القائد الأجل الأغرّ الأسنى المرفّع غالب ابن هلال» من أعيان غرناطة في هذا العصر، والغالب أنه هو المتغزّل به في شبابه. راجع ديوان يوسف الثالث : 97 — 98 ووثائق غرناطية : 28 — 29.

وَفِي مِثْلِ ذِلِكَ وَقَدْ سُئِلْتُهُ فِي التّاريخِ

ما لِي إذا هَبَّ عَليلُ الرِّياحْ ... يَرْوِي أحاديث غَرامِي صِحاحْ
وَمَا لِدَمْعِي إذْ كَتَمتُ الهَوَى ... بَاحَ بأسْرارِ غَرامِي صُرَاحْ
وأرّقَ الأجْفانَ يَوْمَ النَّوَى ... سَنَا وَمِيضٍ بالحِمَى قَدْ ألاَحْ -147-
وصرَّحَ الدمْعُ بسِرّ الهَوَى ... فكلَّمَا أُخفيهِ زادَ اتّضاحْ
فَدَمْعُ جفْنِي لمْ يَزَلْ صَيّبًا ... وزَنْدُ شَوْقِي لَيسَ يُلْفَى شَحاحْ
أأستَطيعُ الآنَ كتْمَ الهَوَى ... وقَدْ غَدا سِرُّ غَرامِي مُباحْ
هِمْتُ بظَبْيٍ لمْ يَزَلْ جفْنُهُ ... ذَا مَرَضٍ يُمْرِضُ مِنّا الصّحَاحْ
مِن قدّهِ ولحْظِهِ لمْ يَزَلْ ... يَفْتُكُ بالسُّمْرِ وَبيضِ الصِّفاحْ
فلحْظُهُ يُزْرِي بِبيضِ الظُّبَا ... وَقَدُّهُ يُزْرِي بِسُمْرِ الرِّماحْ
يَبْسِمُ عَن ثَغْرٍ شَنِيبٍ كَمَا ... تَبسِمُ في الرَّوْضِ ثُغورُ الأَقَاحْ
وقَدْ غَدَا لناشِقٍ عرْفُهُ ... يَحْكِي شَذا الزَّهْرِ إذَا الزَّهْرُ فاحْ
خَلَعْتُ في الحُبِّ عِذارِي فَهَلْ ... عَلَيَّ في خَلْعِ عِذارِي جُناحْ
لاَ يُعْذَلُ المُشْتاقُ في حُبِّهِ ... فالصّبُّ لاَ يُصْغِي إلَى قَوْلِ لاحْ(237)
يا قاتَلَ اللّهُ عَذُولاً جَفَا ... لمّا غَدَا في العَذْلِ ظُلمًا وراحْ(238)
كَيْفَ أطِيقُ الصبّرَ عَنْ حُبّهِ ... ورَبْعُ صَبْرِي قَدْ غَدا مُسْتَباحْ
لَيْسَ عَلَى الصَّبّ جُناحٌ إذَا ... يَخفِضُ في الحبِّ إليْهِ الجَناحْ
حَكّمتُهُ يقضِي بمَا يَرْتَضِي ... فَحُكْمُهُ انْ جارَ عِندِي صَلاَحْ
ظَبْيٌ إذا مَا عادَنِي ذِكْرُهُ ... أميلُ كالغُصْنِ إليْهِ ارْتِياحْ
يفْعَلُ في أهْلِ الهَوَى لَحظُهُ ... فِعْلَ الحُسامِ الصَّلْتِ يوْمَ الكِفاحْ
يَحْكِي قضِيبَ البانِ مَهْمَا انثَنَى ... ويُخْجِلُ البَدْرَ إذا البَدْرُ لاَحْ

(237) يشير إلى قول الشاعر : لا تعذل المشتاق في أشواقه.
(238) ياقاتل : رسمت في الأصل بدون قاف.

فالوَصْلُ لِي مِنهُ بُلُوغُ المُنَى والهَجْرُ لِي مِنْهُ حِمامٌ مُتاحْ
سَأرْتَجي بَعْدَ النَّوَى قُرْبَهُ فَقَدْ يَلِينُ الصَّعْبُ بعْدَ الجِماحْ
جَلَوْتُ أبياتِي في وَصْفِهِ كَما جَلَتْ زَهْرَ الرِّياضِ البِطاحْ
لعَلَّهُ يُطفِيءُ نارَ الجَوَى برِيقِهِ العَذْبِ البَرودِ القَراحْ
فالقَلْبُ يَصبُو نحْوَهُ كُلَّما هَبَّتْ نُسَيْماتُ الصَّبا بِالصَّباحْ

-148- وَمِنَ المُقْتَرَحاتِ في ذلِكَ العَهْدِ في مُحرَّم عَام تسعَة وتِسْعِينَ وسَبْعمِائة

خَليلَيَّ هَلْ أبصَرْتُما عاشِقًا مِثْلِي يَحِنُّ كَمَا حَنَّ الغَريبُ إلَى الأَهْلِ
خَلِيلَيَّ كُفّا عن مَلامَةِ هائِمٍ مَسامِعُهُ لَمْ تصْغِ يوْمًا إلى العَذْلِ
أَلَمْ تَعْلَما أنّي تملّكَنِي الهَوَى فوَاللهِ ما أمْسَى بغيْرِ الهَوَى شُغْلِي
كَلِفْتُ بِظَبْيٍ سَاحِرِ الجَفْنِ لَمْ يَزَلْ يَصُولُ عَلَى أَكْبادِنَا مِنهُ بالنَّبْلِ (*)
ومَا السّحْرُ عَن هارُوتَ يُرْوَى حَقيقَةً ولَكِنَّهُ يُرْوَى عنِ الأعْيُنِ النّجْلِ
فَكَمْ ذا تَلومانِي عَلى كَلَفِي بِهِ كَأن لَمْ يذُقْ طَعْمَ الهَوَى عاشِقٌ قَبْلِي
سَقَى عَهْدَ مَنْ أهْواهُ عَهْدُ مَدامِعٍ فَكَثْرتُهَا تُغْنيهِ عَنْ صَيِّبِ الوَبْلِ
وإنّ جفونِي كُلَّمَا بَخِلَ الحَيا تُحَيِّي بوَكّافٍ من الدَّمْعِ منْهَلِّ
أنادِي عَلَى حُكْمِ الصَّبابَةِ في الدُّجا ترفَّقْ عَسَى بَعْدَ القطيعَةِ مِن وَصْلِ (*)
ألاَ عَطْفَةٌ بعْدَ التَّباعُدِ والنَّوَى إلا عدَة بالوَصْلِ يوْمًا بِلاَ مَطْلِ (*)
اذا لَمْ تَكُنْ لِي أنتَ عَوْنًا عَلى الذي أُقاسِيهِ مِن حُبّي ووَجْدِي فَقُلْ مَنْ لِي

وفي مِثْلِ ذلِكَ وَهي ممّا يجبُ إلغاؤهُ لحداثةِ السّن عِنْدَ نَظْمِهَا في صفر سنة 799

هَلاَّ غَدا وَصْلُهُ مُباحَا كَمَا غَدا هَجْرُهُ مُتاحَا

(*) بالنبل، وصل، مطل : قوافٍ ناقصة في الأصل، وأمامها علامة الاستشكال هكذا.

أبْدِي دُجَى هَجْرِهِ فَهَلاً   يُطْلِعُ مِن وَصْلِهِ صَباحَا
هامَ فُؤادِي بظَبْيِ إنْسٍ   ألْحاظُهُ تُشْبِهُ الصِّفاحَا
ظَبْيٌ لَهُ أعْيُنٌ مِراضٌ   لَكِنَّهَا تُمْرِضُ الصِّحاحَا
قَدْ سَلَّ مِن لَحْظِهِ سُيوفًا   وهَزَّ مِنْ قَدِّهِ رِماحَا
كَمْ رَصَدَتْهُ العُيونُ مِنَّا   وكَمْ أطالَتْ لَهُ الْتِماحَا
يمْنَحُنَا ظُلْمَهُ وَيَغْدُو   يَمْنَعُنَا ظُلْمَهُ القَراحَا
مَن لِي بِهِ كُلَّمَا تَبَدَّى   طَارَ فُؤادِي لَهُ ارْتِياحَا
لَقَدْ أَلِفْتُ الهَوَى فَعَنِّي   تُرْوَى أحادِيثُهُ صِحَاحَا -149-
وَخُضتُ بَحْرَ الهَوَى ولَكِنْ   مَن رَامَ خَوْضَ البحَارِ طَاحَا
وَهِمْتُ فِي حُسْنِهِ فَلَمْ لاَ.   أخْفِضُ في حُبِّهِ الجَناحَا
وَان تَذَكَّرتُ مِلْتُ وَجْدًا   كأنَّنِي قَد شَرِبْتُ رَاحَا
وَكُلُّ وَاشٍ يَرُومُ صَبْرِي   جَنَّبتُ أقْوالَهُ اطِّرَاحَا
مَن لِي بِصَبْرٍ وَفي هَوَاهُ   غَدَا حِمَى الصَّبْرِ مُسْتَباحَا
كَتَمْتُ حُبِّي ودَمْعُ عَيْنِي   لَمْ يَسْتَطِعْ كَتْمَهُ فَباحَا
فَلَيْتَ قَلْبِي يَنالُ يَوْمًا   بِوَصْلِهِ فِي الهَوَى مستراحَا

وَمِنَ المُقْتَرَحاتِ قَرِيبًا مِنْ تارِيخِ مَا تَقَدَّمَ

فؤادِي عَلَى حُكْمِ الغَرامِ خَفوقُ   إذا هَمَّ انْ يَسْلُوَ فلَيْسَ يُطِيقُ
وَمهْمَا هَمَى دَمْعِي لِيَنقَعَ غلّتِي   تأجَّجَ ما بَيْنَ الضُّلوعِ حَريقُ
خَلِيلَيَّ هَلْ أسْلُو عَنِ الحُبِّ ساعَةً   وقَدْ صَدَّ خِلٌّ لِلفُؤادِ صَديقُ
سَقانِي كُؤوسَ الحُبِّ حَتَّى أمالَنِي   وشارِبُ كاسِ الحبِّ كَيْفَ يُفيقُ
قَسا قَلْبُهُ لَكِن عَلَى كُلِّ عاشِقٍ   فَواعَجَبًا والخَصْرُ مِنْهُ رَقيقُ
وقَلْبِي عَلَيْهِ كَيفَ شاءَ جَمالُهُ   وان قَلَّبَتْهُ الحَادِثاتُ شَفيقُ

فَيَا لَيْتَهُ يوْمًا يجودُ بوَصْلِهِ فإنّي في بحْرِ الغرامِ غَرِيقُ
وَلاَ عَجَبٌ فَالرّوْضُ بعْدَ ذُبولِهِ إذا جادَهُ الغَيْثُ الهَتُونُ يَرُوقُ
أنادِي إذا جَنَّ الظَّلامُ بهِ أمَا لِشَمْسِ الرّضَى بعْدَ الغُروبِ شرُوقُ
وإن لمْ تَجُدْ بالوَصْلِ صَبْرِيَ ذاهِبٌ وَصَدْرِيَ عَنْ حَمْلِ الغرَامِ يَضيقُ
تَرَفّقْ فَما لِي غيْرَ دَمْعِيَ مُنجِدٌ وَسُهْدِي أنيسٌ والظلامُ رَفيقُ
أُسَامِرُ نجْمَ الأُفْقِ والأُفْقُ رَوْضَةٌ تَفَتَّحَ فيهَا نَرْجِسٌ وَشقِيقُ
مُنَى القَلْبِ هَلاَّ لِلقَطيعَةِ آخِرٌ ولِلقُربِ منْ بَعْدِ البِعَادِ طَرِيقُ
ولَكِن إذا لمْ تَدْرِ مَا بي ولَمْ تَذُقْ غَرامِي ومَا ألقَى فَسَوْفَ تَذُوقُ
وأُنشِدُ لاَ أثنِي العِنَانَ تَشَفِّيًا كِلاَنَا عَلى حُكْمِ الغَرامِ مَشُوقُ

ومِنَ المُقْتَرحاتِ مِنَ المَقامِ الكَرِيمِ أسْماهُ اللهُ في أنْواعٍ شتَّى، حَسَبَمَا يَتَهَيَّأُ في الارْتجالِ ويَتأتَّى أمَرنِي مولاَنا أيّدهُ اللّهُ بنَظْمِ أبْياتٍ تُرْسَمُ في حَاشِيَةِ قِناعٍ بِتاريخ 17 صَفَر عَام 811 فَقُلْتُ

يَا مُعْجَبًا بصِفاتِي لِلّهِ مِنّي قِنَاعُ
كَهالَةٍ حَوْلَ بَدْرٍ يَروقُ مِنْهُ شُعَاعُ
شَمْلُ المحاسِنِ طرًّا لَهُ لَدَيَّ اجْتِمَاعُ
ومَا جَمَالِي بِبِدْعٍ إذْ راقَ مِنهُ ابْتِدَاعُ
بنَاصِرِ الدّينِ أضْحَى فِيهِ حَدِيثِي يُذَاعُ
لاَ زالَ لِلقَدْرِ مِنْهُ فَوْقَ النجُومِ ارْتِفاعُ

وَقُلْتُ

أحْسِنْ بِهِ مِن قِنَاعٍ راقَ العُيُونَ جَمَالاَ

حَوَى مِنَ الوَجْهِ بَدْرًا   فَاقَ البُدُورَ كَمَالاَ
أبْدَى عَلَى كُلِّ نَوْعٍ   تَهْوَى القُلُوبُ اشْتِمَالاَ
فَصَيَّرَتْهُ اخْتِيَالاً   خَيْلُ الجَمَالِ مَجَالاَ -151-
مِنْ خَالِصِ التِّبْرِ جَلَّتْ   صِفَاتُهُ أنْ تُنَالاَ
شَمْسُ الأصِيلِ حَكَتْهُ   لَوْنًا وَحُسْنًا وَحَالاَ
مِنْ نَاصِرِ الدِّينِ يَحْكِي   مَنَاقِبًا وَخِلاَلاَ
فَالجُودُ قَدْ مَدَّ مِنْهُ   عَلَى الوُجُودِ ظِلاَلاَ

وَقُلْتُ وَهْوَ عَرُوضٌ منْ أعَارِيضِ التَّوْشِيحِ

أنَا قِنَاعٌ لِي   بِحُسْنِيَ السَّبَقُ
فَالكَتْبُ عَنْ وَصْفِي   يَعْجِزُ والنُّطْقُ
رامَ اشْتِبَاهًا بِي   فِي شُهْبِهِ الأُفُقُ
فَفَاقَهُ ثَوْبِي   إنْ حُقِّقَ الحَقُّ
غَمَامَةٌ أبْدُو   طِرازِيَ البَرْقُ
وَالوَجْهُ لِي شَمْسٌ   أطْلَعَهَا الشَّرْقُ

ثمّ استَدعَانِي أعْلَى اللهُ مَقامَهُ إلَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَأمَرَنِي بِنظمِ أبْياتٍ في القِنَاعِ المسَمَّى وَبِتاريخ السَّادِسِ عَشَرَمِن رَجَبٍ مِن عَامِ اثْنَي عَشَرَ وَثَمَانِي مِائَة وان تَكون عشرة أبْيَاتٍ مُختَتَمَةً بعجُز البيت المشهورِ : وَساقَ الثريَّا في مُلاءَتِهِ الفَجْر [239]، فَقُلْتُ

هَلِ الأفْقُ تَبْدُو في مَطالِعِهِ الزُّهْرُ   أمِ الرَّوْضُ في أدْواحِهِ فُتِّحَ الزَّهْرُ
أمِ الوَصْفُ منّي حَيثُ لاَحَتْ مَحاسِنِي   تُنظِّمُ عِقدًا مِثلَمَا يُنَظَمُ الدُّرُّ

(239) لم أهتد الآن إلى صدر هذا البيت وصاحبه.

فَلاَ حُسْنَ إلاَّ مَا لِوَصْفِي يَنتَمِي وَلاَ وَصْفَ إلاَّ مَا بِحُسْنِي لَهُ ذِكْرُ
ومَا السِّحْرُ عنْ هَارُوتَ يُروَى حَقِيقَةً فَحُسْنِي الذِي يُعْزَى لِبابلِهِ السِّحْرُ
إذَا أنتَ قَد شاهَدتنِي واخْتبَرتَنِي وَحقَّقتَ وَصفِي صَدَّقَ الخَبَرَ الخُبْرُ -152-
لأنَّ الجَمالَ اليُوسُفيّ حَقيقةً بغَرْناطَةٍ دَعْ ما حَوَتْ قَبلَهُ مِصْرُ
وَمُبْدِعُ شَكلِي ناصِرُ الدِّينِ يُوسُفٌ فدَامَ لهُ التَّأييدُ وَالعِزُّ والنَّصْرُ
قِناعٌ كأنَّ الأُفقَ أبدَى سَحَابَهُ جَهَامًا فَحَلاَّهَا بِبَارِقِهِ التِّبرُ
يَرُوقُ شُعَاعٌ مِنهُ فَوْقَ بَيَاضِهِ فَمِن سُحْبِهِ ثَوْبٌ وَمِن تِبْرِهِ زُهْرُ
كَمَا لاَحَ نورُ الشَّمْسِ في رَوْنَقِ الضُّحَى وسَاقَ الثرَيَّا في مُلاءَتِهِ الفَجْرُ

وقُلْتُ كَذلِكَ

لِلّهِ مِنّي ثَوْبٌ عَجِيبٌ أَبدَى الجَمَالَ وأبْدَعَهْ
حَلَلْتُ فَوْقَ الرُّؤُوسِ أُفْقًا قَدْ أخَذَ البَدْرُ مَطْلَعَهْ
أحُفُّ بالوَجْهِ مِنهُ حَتّى تَحْسِبُنِي هَالَةً مَعَهْ
إن كنتُ أُفقًا فَالتِّبرُ مِنّي كَمْ بَارِقٍ فِيهِ أطْلَعَهْ
فَالزُّهْرَ أشبهْتُهَا اجْتِلاَءً وَالزَّهْرَ أحْكِي تَضَرُّعَهْ
يُوسُفُ النَّاصِرُ المرَجَّى شَرَّفَ قَدْرِي وَرَفَعَهْ
أبْدِي جَمَالاً لَدَى إمَامٍ وَالَى الجَمِيلَ وَأتْبَعَهْ
فَدامَ وَالدّينُ ذُو انتِظَارٍ بِهِ وَلازالَ في دَعَهْ

وفي مثلِ ذلِكَ قوْلِي

هِيَ الأشْيَاءُ مُبدِعُهَا أبُو الحجَّاجِ مَوْلاَنَا
تَزِيدُ حُلَى مَكَارِمِهِ لِحُسْنِ الوَصْفِ إحْسانَا

صَنائِعُ رَبُّنَا فيهَا جَميلَ الصُّنْعِ أَوْلاَنَا
كِتَاب الحُسْنِ رَاق وَقَدْ جُعِلتُ عَليْهِ عُنْوَانَا
وَصِرْتُ لِجِسْمِهِ رُوحًا وَفِي عَيْنَيْهِ إِنسَانَا -153-
يَروقُ التِّبْرُ في أُفُقِي وأطْلِعُ مِنْهُ شُهبَانَا

وفي مِثلِ ذلك

لِلّه مِنّيَ ثَوْبٌ تَرومُ فيهِ رُقومِي
كأنّمَا أنَا أُفْقٌ مُكَلّلٌ بالنُّجُومِ
وَقُضْبُ التِّبْرِ تَحْكي فِيهِ بَقَايَا الرُّجُومِ
مَنْ هامَ في حُسْنِ وَصفِي وَجْدًا فَغَيْرُ مَلُومِ
مَوْلاَيَ مُبْدِعُ شَكْلِي ومُثْبِتٌ لِرُسُومِي
فَمُلكُهُ دامَ مُرْقًى إلَى العُلَى وَالعُلُومِ

وفي مِثْلِ ذلِك أيْضًا

أنَا زَهْرٌ إذْ تُشْرِفُ أُنَا رَوْضٌ مُفَوَّفُ
كُلُّ عيْنٍ لِبَهْجَتِي بِحُلَى الحُسْنِ تَكْلَفُ
وَصِفاتِي كُلَّ الوَرَى أَعْجَزَتْ حِينَ تُوصَفُ
لَجمَالِي تَشَوَّقُوا وَلِحُسْنِي تَشَوَّفُوا
مُبْدِعِي مِن مُلوكِهَا نَاصِرُ الدِّينِ يُوسُفُ
مَلِكٌ دامَ حَمْدُهُ كُلُّ مَلْكٍ يُشَرِّفُ

وفي مثل ذلِك أيْضًا

أنَا ثوبٌ أُجْتَلَى كَجَهَامِ السُّحُبِ

أُفقِي سَمَاؤُهُ   كُلِّلَتْ بالشُّهُبِ
وَمِنَ التِّبْرِ سَنَا   بَرْقِهِ المُلْتَهِبِ
وَرُقُومِي زَهَرٌ   إثْرَ غَيْثٍ صَيِّبِ -154-
إنما حَاشِيَتِي   فَوْقَ قُضْبِ الذَّهَبِ
نَوْرُ رَوْضٍ قَدْ بَدَا   بأعَالِي القُضُبِ
يُوسُفٌ أَبْدَعَ لِي   كُلَّ وَصْفٍ مُعْجِبِ
نَاصِرُ الدِّينِ الذِي   لَمْ يَدَعْ مِنْ مَطْلَبِ

وَلمَّا شَرَعَ أَيَّدَهُ اللهُ في إعْلاءِ المَبْنَى المَاثِلِ الآنَ عَلَى بابِ الدار الكبيرَةِ أَمَرَنِي بِنَظمِ أبياتٍ تُكْتَبُ دائِرةً بالطَّبقة الثَّانيةِ فقُلْتُ حَسبَمَا اقْتَرحَهُ مَعْنًى وَقافيةً وَعَرُوضًا وَعَدَدَ أبياتٍ بِتاريخ الثَّاني لِشَعْبانَ عَام خَمسَةَ وثمَانِمائة[240]

بناصِرِ الدّين مَولَى الخلْقِ لِي شَرَفُ   فَلَيْسَ عَنِّي لِلأَبصارِ مُنْصَرَفُ
للهِ مِنّي مَبْنًى حُسْنُ بَهْجَتِهِ   لِكُلِّ قَلبٍ إذَا حَيَّا بِهِ شَغَفُ
وَمَصْنَعٌ معْجِبٌ بالصُّنْعِ مُتَّصِلٌ   بالعِزِّ مُنْفَرِدٌ بالحُسْنِ مُتَّصِفُ
كأنَّ مِنْ جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ مَنشَأَهُ   فهَذِهِ غُرَفٌ مِن فَوقِهَا غُرَفُ
كَالرَّوْضِ لَوْ لمْ يَكُنْ تَذْوَى أزَاهِرُهُ   والبَدْرِ لَوْ لَمْ يَلُحْ فِيْ وَجْهِهِ كلف

---

(240) في هذا وما بعدّه مادّة جديدة حول مباني الحمراء بغرناطة، ويمكن الاستعانة في تحديد موقع هذا المبنى بمثل هذا البيت :
قابلتُ بَحْرا من الصّهريج لُجَّتُه   كأنّها منْ نَدَى كَفّيه تُغْتَرِفُ
وبمثل هذين البيتين :
لَدَى ارتفاعيَ مَعْنَى الحُسْنِ مُتّفِقٌ   لَكِنْ بِسَاحَتِيَ الأنْظَارُ تَخْتَلِفُ
أسْتَقبلِ الرَّوْضَ إنْ هَبَّتْ نَواسِمُهُ   والقُضْبُ حَوْلِيَ بالأزْهَارِ تَنْعَطِفُ
وأسْتَقِلُّ وفي أُفقِي نُجُومُ هُدًى   فَهَذِه تُجْتَلَى أوْ تِلْكَ تُقْتَطَفُ
ولعلّ هذ كلّه ينطبق على ما يعرف ببهو قمارش المعروف ببرجه الشاهق وفيه البركة المسماة هنا بالصهريج وفيه فناء الريحان، وفيه القبة التي زَخارِفها على شكل النجوم.

لَدى ارْتِفاعِيَ مَعْنَى الحسْنِ متَّفِقٌ ... لِكِن بِسَاحَتِيَ الأنظارُ تَخْتَلِفُ
أسْتَقْبِلُ الرَّوْضَ إنْ هبّت نواسِمُهُ ... والقُضْبُ حَوْلِي بالأزْهارِ تَنْعَطِفُ
وأسْتَقِلُّ وَفي أفْقِي نُجُومُ هُدًى ... فهذِهِ تُجْتَلَى أوْ تِلْكَ تُقْتَطَفُ
تَحارُ في وصْفِيَ الأوْهامُ ذاهِبَةً ... لاَ تَسْتَقِل وَلاَ الأبصارُ تَنْصَرِفُ
يا مُبْصِرًا مِن جَمالِي ما يَرُوقُ حُلًى ... أقْصِرْ فَحُسْنُ صَفاتِي فَوْقَ مَا تَصِفُ -155-
حَلَلْتُ مِنْ بابِ دَارِ المُلْكِ مَنزِلَةً ... مِن دُونِهَا الشُّهُبُ في عَلْيائِهَا تَقِفُ
مَوْلاَيَ جَدَّدَ آثَارِي وأكمَلَ مَا ... قَدْ كَانَ أغْفَلَهُ مِن قبْلِهِ السَّلَفُ
هَذا وناصِرُ دينِ اللهِ أبْدَعَنِي ... كَما عَلِمْتَ وذاكَ العزُّ والشَّرَفُ
مَوْلَى الوُجودِ عَميدُ المُلْكِ يُوسُفُهُ ... ومَن تلافاهُ لمَّا راعَهُ التَّلَفُ
طِيقانِيَ الغرُّ مهْمَا حَلَّ مَظهَرُهَا ... لاَ قَصْرَ إلاَّ وَبالتَّقصِيرِ يَعْتَرِفُ
كأنَّهُ البَدرُ مِن مَغْنايَ هَالَتُهُ ... ولَفْظُهُ الدُّرُّ مَوْضوعِي لَهُ صَدَفُ
قابلْتُ بَحْرًا منَ الصَّهْرِيجِ لجَّتُهُ ... كأنَّهَا مِن نَدَى كفَّيْهِ تَغْتَرِفُ
لازالَ في غِبْطَةٍ مَوْصُولَةٍ أبَدًا ... مُخَلَّدًا فيهِ حتَّى تنشَرَ الصُّحُفُ

وأمَرَنِي كَذالِكَ أعْلَى اللهُ مَقامَهُ بِمَنْظُومٍ يُكْتَبُ بِطيقانِ الطَّبقة العلْيَا مِنْ هَذا المَبْنى في الخامِس عَشَر لِشعبان عَام خمسةَ عَشَر المذْكُور فَحذوْتُ حَذْوَ الأمْرِ الكَرِيمِ في ذلك غَرضًا وَعَروضًا وَقافِيةَ وَعَددَ أبْياتٍ

في الطاقَةِ الكبْرَى مِنْهُ

أحْرَزْتُ كُلَّ وَصْفٍ رائقٍ حَسَنٍ ... ما لَمْ يُنَلْ مِثْلُه في سالِفِ الزَّمَنِ
انْ حَلَّ مِن مَظهَرِي مَوْلاَيَ أفْقَ عُلاً ... فأيْنَ صَنْعاءُ أوْ سَيْفُ بنُ ذِي يَزَنِ
هذَا هُوَ المصنَعُ الأعْلى فَحُلَّ بِهِ ... طَوْعَ السُّعُودِ ودَعْ غُمْدانَ لِلْيَمَنِ
أوْ حَلَّ في مَظهَرِي عِنْدَ العَشِيِّ فمَا ... لِلشمْسِ دُونِيَ انْ تَهْدِي إلى سَنَنِ

وإنْ تَحَدَّثَ عَن وَصْفٍ كَرُمْتُ بِهِ   رَأَيْتَهُ مالِكًا يَرْوي عَنِ الـحَسَنِ[241]

أَصْبَحْتُ لِلزُّهْرِ وَالأَزْهـارِ مُجْتَمَعًـا   كَما غَدَتْ كَفُّهُ لِلجُـودِ والمِنَـنِ

هُـوَ الإمـامُ الـذي إحْسانُـهُ أَبَـدًا   وَحُسْنُـهُ سَنَـنٌ. هـادٍ إلَـى السُّنَـنِ

فإنَّ شُهْبَ الهُدَى لَوْلاَهُ مَا وَضَحَتْ   وإنَّ سُبْلَ النَّدَى لوْلاه لـمْ تَبِـنِ -156-

لَوْ كانَ فيمَا مَضَى وَضَّاحُ طَلْعَتِهِ   ما كانَ يُنْسَبُ وَضَّاحٌ إلَى يَمَنِ[242]

هَذَا هُوَ الناصِرُ المَوْلَى الهُمامُ فَدَعْ   ذِكْرَى أَمِينٍ وَمامُونٍ وَمُؤْتَمَـنِ[243]

لأزالَ والنّصْرُ من عُلْياهُ مُلْتَـمَسٌ   مُبَلِّـغَ الوَطَـرِ المَرجُوِّ في الوَطَـنِ

وَفي الطَّاقَةِ المشْرِفَةِ عَلَى الحَمراءِ المُقَابِلَةِ لِلكُبْرَى

هِـيَ العُلَـى دُونِـيَ مِنْهَاجُهَـا   والزَّهْـرُ مِـنْ ذِكْـرِيَ آراجُهَـا

ورَحْمَـةُ اللـهِ أنـا كُلَّمَـا   مَـدَّ يَـدَ الآمِـلِ مُحْتاجُهَـا (*)

وكعْبَـةُ الجُـودِ أنـا اليَـومَ إذْ   تَـقْصِدُ مَوْلَـى الخلـقِ أفْواجُهَـا

وَحَضْرَةُ الملكِ وَحَمْـــــراؤُهُ   حَـكَتْ بُـرُوجَ الأُفْـقِ أَبراجُهَـا

لَئِنْ عَـلتْ في أُفْقِهَـا مَصْنَعِـي   إكْلِيلُهَـا الرَّائِـقُ أَوْ تاجُهَـا

أو قَد سَمَتْ شُهْبُ سَمائِي التِي   مِن فَوْقِ بابِ القَصْرِ مِعْراجُهَـا

فكُـلُّ مَـنْ ضَلَّ سَبِيـلَ الهُـدَى   يَهديـهِ نحْـوَ الـقَصْدِ وَهَّاجُهَـا

وَكُـل مَـن أمَّـلَ سُحْبَ النَّـدَى   مِـن كَفِّـهِ يُرْويـهِ ثجَّاجُهَـا

---

(241) يورّى بمالك بن أنس والحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب من رجال الموطأ.

(242) وضَّاح اليمن : هو عبد الله بن اسماعيل أحد شعراء الدولة الأموية واشتهر بالتشبيب، ولُقّب بالوضاح لجماله.

(243) الأمين والمامون والمؤتمن ألقاب خلفاء عبّاسيين معروفين.

(*) مَدَّ يَدَ : في الأصل : مؤيّد، وهو تحريف.

وَفِي الطَّاقَةِ الثالِثةِ التِي لِيَمينِ الكُبْرَى

لِلّــهِ مِنّــي مَصْنَــعٌ يُجْتَلــى كَأنَّــهُ الشمْسُ بِأُفْــقِ العُــلاَ
طِيقانِــيَ الغُــرُّ إذا فُتِــحَتْ نَــالَ بِهَــا المُبْصِرُ مَـا أمَّــلاَ
أبْدَعَنِـي مَوْلَـى الـوَرَى يـوسُفٌ فَعَــزَّ مِقْــدَارِي بِــهِ واعْتَــلاَ
مُجَــدِّدًا لِلسَّلَــفِ المُــرْتَضَى مِن قَبْلِهِ مَـا كانَ قَـدْ أغْفَـلاَ
فَمَصْنَعِـي وَالـرَّوضُ مِـن تحتِـهِ لِلِـهِ مَـا أعْلَـى ومَـا أجْمَـلاَ
لاَ عَجَبٌ أن راقَ زَهْرُ الرُّبَـى فَجُـودُه الغَـيث مَتَـى أمْحَـلاَ
لـذاكَ قُضْبُ الـدَّوْحِ مِن تحتِـهِ لِسَجْـدَةِ الشّكْـرِ تُـرَى مُيَّـلاَ
وإن سَرَى فيـهِ نَسيـمُ الصَّبَـا مِنْ حَمْـدِهِ أهْـدَى الـذِي حُمّـلاَ

وَفي الطاقة الكبرى الرابعة التِي تشرف على الصّهريج

-157-

بِيُـوسُفٍ نَـاصِرِ دِيـنِ الهُـدَى أحْرَزْتُ فِي العَلياءِ أقصَى المَـدَى
لـمْ أعْـلُ دُونَ الأفْـقِ لَكِنَّنِـي أبْغِـي إلَـى أنجُمِـهِ مَصْعَـدَا
أُقابِــلُ الصَّهْرِيــجَ لَكِنَّــهُ مِن كَفِّـهِ قـدِ اسْتَمَـدَّ الجَـدَا
وَحَوْلِــيَ النَّهْــرُ وَلِكنَّــهُ لَـوْلاَ نـداهُ لـمْ يَـطِبْ مَـوْرِدَا
وَدُونِــيَ الــرَّوْضُ ولَكنَّــهُ لَـوْلاَ شَذاهُ لـمْ يَجِـدْ مُنْجِـدَا
ألْقَى سَنَا الأنجُمِ مِن وَجْهِهِ بِطلعَـةِ الصُّبْـحِ إذَا مـا بَـدَا
وَسائِـلَ النَّهْـرِ إذَا مَـا جَـرَى مِـنْ جودِ كَفَّيْـهِ بِبَحْـرِ النَّـدَى
لازالَ فِي نَصْرٍ وَفِي عِــــزّةٍ مُبَلّـغَ الـقَصْدِ بِرَغْـمِ العِـدَى

وَفِي الطاقَةِ الصّغْرَى الخامِسَةِ

أنا أسْمَى فِي الحُسْنِ قَدْرًا وأعْلاَ حَيْثُ أصْبَحْتُ لاَبْنِ نَصرٍ مَحَلاّ

إنمَـــا جَنّـــةُ العَريــفِ عَـــرُوسٌ وأنَــا تاجُهَــا الرَّفيــعُ المُحَـــلاًّ[244]
يُـوسُفٌ مُبْدِعِـي فَرائِـقُ وَصْفِـي بحُلَـى العِـزّ والكَمَـالِ تَحَلَّــى
وَجْهُـهُ إنْ بَـدَا بأُفْقِـيَ صُبْــحٌ لاَ يُضاهَــى سَنَــاهُ إذْ يَتَجَلَّــى
دامَ في غِبْطَـــةٍ وَطُـــول سُرُورِ يَقْدُم النّصْرُ جُنـدَهُ حَيْـثُ حَـلاَّ

وفي الطّاقَةِ الصّغْرَى أيْضًا السّادسَة

أنَــا لِلــحُسْنِ مَــرْقَبٌ مَشهـــورُ لاَحَ فِيـــهِ المُؤَيَّـــــدُ المَنْصُورُ
هُـوَ بَـدْرٌ لَـدَى المَحـاسِنِ مِنّـي وَلدَى الحَرْبِ فهْو لَـيْثٌ هَصُورُ
وقضَى لِـي إبْداعُــهُ انَّ وَصْفِـي قَصّرتْ عَن مَدَى حُلاَهُ القُصُورُ
أجِهَاتِـــي وَدُرُّ مَدْحِـــيَ فيهَـــا أمْ نحُـورٌ قَـدْ حُلّـيتْ وَخُصُورُ
حَيْثُ باهَتْ غُرُّ النجُومِ خِلاَلِـي وعَلَيْهَــا حُسْن الحُلَـى مَـقْصُورُ

وَفي الطَّاقة السَّابعَة ـ وَمَوضِعُ الثّامِنَةِ وَهُوَ المَدْخَلُ للمَصْنَعِ
نَظَمَ مَولاَنَا أيّدَهُ اللهُ أبيَاتًا كُتِبَتْ فِيهِ وَثَبَتَتْ فِي غَيْرِ هَذا ـ

-158-

فُقْتُ حُسْنًا وَبهجَـةً وَجَمالاًوعُلُـوًّا ان طَـــاوَلَ الشُّهْبَ طَــــالاَ
تُبْصِرُ العَيْـنُ مِـن جَنابِـيَ رَوْضًا تَخِذَتْـهُ خَيْـلُ الجَمَـالِ مَجَـالاَ
فَتَأمَّــلْ مِنّــي مَكانًـــا مَكِينًـــا وَجِـلاَلاً راقتْ حُـلاً وخِـلاَلاَ
وَبمَوْلَـى المُلـوكِ غَرْبًـا وَشَرْقًـا أبْهَــرُ الشُّهْبَ رِفْعَــةً وَمَنَـــالاَ
أخَــذتْ حِذْرَهَـا لَـدَيَّ احْتِفَـاءً بِجَنَابِـي لَمَّـا عَلَـوْتُ احْتِفَـالاَ

---

(244) جنة العريف أو جنان العريف ما تزال قائمة، وقد حُرّفت في اللسان الاسباني إلى Généralife.

وَلمَّا شَرَعَ أَيَّدَهُ اللهُ فِي تَجْدِيدِ القُبَّتَيْنِ الرَّائِقَتَي الشكْلِ خلْفَ هَذِهِ الدَّارِ الكُبْرَى وَإِحْياءِ رَسْمِهِمَا أَمَرَنِي بِنَظْمِ أَبْيات كُتِبَتْ دَائِرةً فِي إِحْداهُمَا وبتَارِيخِ الثَّامِنِ وَالعِشْرِينَ لِرَبيعِ الأوَّلِ عَام خَمْسَةَ عَشَر وَثمَانِي مِائَة فَقُلْتُ

لِلَّـهِ مِنِّـي مَصْنَـعُ ... يُبْـدِي الجَمَـالَ وَيُبْـدِعُ
مَوْلَـى الخَلاَئِـفِ يُـوسُفٌ ... بَـدْرٌ وأُفْقِـيَ مَطْلَـعُ
رَوْضُ المَحَـاسِنِ جَانِبِـي ... أَزْهَـارُهُ تَـتَضَوَّعُ
وَالزُّهْـرُ إِن ناجَيْتُهَـا ... أَلْقِـي الحَـدِيثَ فَتَسْمَـعُ
أنـا قُبَّـةٌ للصُّنْـعِ إِذْ ... أنـا لِلصَّنِيعَـةِ مَـوْضِعُ
قَابَلْـتُ مِثْلِـيَ فانْثَنَـتْ ... فِي نَيْـلِ وَصْفِـيَ تَطْمَـعُ
وتَـرى البُحَيْـرَةَ بَيْنَنَـا ... مِـرْآةَ هِنـدٍ تلْمَـعُ(245)
وبجودِ راحَـةِ يُـوسُفٍ ... هِـيَ لِلظِّمَـاءِ الـمَشْرَعُ
وَالـخَصَّةُ العُلْيَـا بهَـا ... كَـأْسٌ بكَـفٍّ يُرْفَـعُ(246)
والماءُ في جَنَبَاتِهَـا ... مُتَدَفِّـق مُتَدَفِّـعُ -159-
فكأنَّهَـا القَلْـبُ الـذِي ... شَمْـلَ المَكَـارِمِ يَجْمَـعُ
يَـا نَـاصِرَ الديـنِ الـذِي ... تحْنُـو عليْـهِ الأضْلُـعُ
أطْلَـعْتَ شَمْسِيَ بَعْدَمَـا ... غَـرُبَتْ كَـأنَّكَ يُـوشَعُ
جَـدَّدتَ رَسْمِـيَ إِذْ عَفَـا ... فأمِـنتُ مَـا يُتَوَقَّـعُ
لِيَعُـودَ بعْـدَ ذَهابِـهِ ... عَهْـدُ الشَّبَـابِ وَيَرْجِـعُ
لاَزِلْتَ تَفْتَـحُ لِلْـوَرَى ... بَـابَ القَبُـولِ وَتَشْرَعُ

---

(245) مرآة هند : هي ما يعرف في لساننا الدّارج بمراية الهند.

(246) الخَصّة : ضُبطت في الأصل بفتح الخاء، وهكذا ضبطت أيضا في رحلة ابن بطوطة، وهي النافورة وترسم الخصه بالسين أيضا وكأنها سمّيت هكذا لشبهها في الشكل بواحدة الخس المعروف.

وأمَرَنِي أعْلا الله مَقامَهُ بأبْيات تكْتَبُ
في سَمَايَةٍ اتخذَهَا لِاسْتِخْراج القِبْلَة فَقُلْتُ(247)

بحُلاَ يُوسُفِ وَغُرّ صِفاتِي يُهْتَدَى لِلصِّلات أوْ لِلصَّلاَةِ
فَلِهَاذِي سَيْرُ النَّدَى في النَّوادِي وَلِهَاذِي سيرَ الهُدَى في الفَلاَةِ

وقلْـــتُ

أنَا والمَوْلَى ابْنُ نَصْرٍ يوسُفٌ قِبْلَةُ الجُودِ وَقِبْلَةُ السُّجُودْ
فَكلاَنَا لِلْهُدَى لَكِنَّهُ يَهَبُ النَّائِل دونِي لِلوجُودْ

وقلْـــتُ

يَا عجبًا لِيُوسُفٍ يَهْتَدِي بالنجْمِ مِنّي وَهْوَ شَمْسُ الضُّحَى
أبْدَى كِلاَنَا الهَدْيَ لَكِنْ قَضَى أنْ أمْنَعَ الجُودَ وأنْ يَمْنَحَا

وقلْـــتُ

طَلَعْتُ نَجْمًا في سَمَاءِ اليَدِ يُهْدَى بِيَ الرَّائِحُ والمُغْتَدِي
حَتَّى ابْنُ نَصْرٍ وهْوَ قُطْبُ الهُدَى بالنّجْمِ مِنّي لَمْ يَزل يَهْتَدِي

وقلْـــتُ

وَمَا أنَا أهْدِي إمَامَ الهُدَى ولَكِنْ أشِيرُ لِمَعْنَى الصَّوابْ -160-

(247) لم أقف على كلمة سماية فيما رجعت إليه من مراجع ويبدو أنّها مخترع يشبه البوصلة أو أنّها نوع من الأسطرلاب.

فهَــا أنــا ذا صِلَــةٌ لــلصَّلاَةِ وَلِـي عائِـدٌ مِـنْ جَزيـلِ الثَّــوابْ

وقلْـــــتُ

يَـــا عَجَبًـــا لِمَـــنْ غَـــدَا يَهْـــدِي أئِمَّـــةَ الهُـــدَى
هَـــذا ابْـــنُ نَصْرٍ يُـــوسُفٌ بِقِبْلَتِـــي قَـــدِ اقْتَـــدَى

وقلْـــــتُ

كَفُّ مَـوْلاَي سَحَـابُ المُعْتَفِـي فأنَـا نَجْـمُ هُـدًى لِلمُقْتَفِـي
لاَ يُرى النَّجْمُ لَدَى سُحْبِ الحَيَا غَيْرَ في كَفِّ ابْن نَصْرٍ يُـوسُفِ

وأمَرَنِي أيَّدهُ اللهُ بِنظْمِ قِطْعاتٍ تكتَبُ في قَوْسٍ
اتخِذَت لمَقامِهِ الكَرِيمِ أسْماهُ اللهُ فَقلتُ بتَاريخِ 3 ذِي قعدة عام 814

أشْبَـهْتُ قَـوْسَ السَّمَـاءِ حُسْنَـا وأنجُـــمُ الأفْـــقِ أسْهُمِـــي
وَحُــزْتُ أقْصَى العُلَــى بأنِّــي لِنـــاصِرِ الدِّيـــنِ أنْتَمِـــي

وقلْـــــتُ

حَكَيْتُ سَنَا الأفْقِ في بَهْجَتِـي وَصُغْتُ كَوَاكِبَـــهُ لِـــي نِصَالاَ
وَمِن عَجَبٍ أنَّ وَجْهَ ابْـنِ نَصْرٍ صَبَــاحٌ وَيُطْلِـعُ مِنِّـي هِـــلاَلاَ

وقلْـــــتُ

رَأْيُ الخَلِيفَـــةِ يُـــوسُفٍ يَاتِـــي وَنَافِـــذُ أسْهُمِـــي

مِـــن فِكْـــرِهِ أَوْ كَفّـــهِ   لِـــيُصِيبَ شَاكِلَـــةَ الرَّمِـــي

وقلْـــتُ

تُصيبُ سِهَامِـي نحُـور العِـــدَى   وَتُدْنِـي سَرِيعًـا بَعيـدَ المَـــدَى
وَلِـمْ لاَ تُصيبُ وَقَــدْ فَوَّقَتْهَـــا   يَــدُ اليُوسُفِـيّ إمَـامِ الهُـــدَى

وقلْـــتُ -161-

لَئِن أصْبَحَتْ كفُّ مَوْلاَيَ أفقًـا   فإنِّـــي أطْلَـعْتُ فيـــهِ هِـــلاَلاَ
وتَنْـقَضُّ فيـهِ سِهَامِـي نجُومًـــا   لِرجْمِ العِدَى حَيثُ حَلُّوا حِـلاَلاَ

وابْتَدَعَ أيَّدهُ الله أقْداحًا حُمْرًا تَتخَلَّلُ بَعْضًا مِنهَا زُرْقَةٌ وَبعْضَهَا بَياضٌ وكُل ذلِكَ مِن نَوْعِ المَذْهَبِ المَالِقِي فَقلتُ في ذلِكَ بِتاريخِ التاسِعِ لرجَبِ الفَرْدِ من عامِ أرْبَعَةَ عَشَرَ وَثمَانِي مائة

يُـوسُفُ الأمْـلاك قَــدْ أبْدَعَنِـــي   حُمْـــرَةٌ مُعْجِبَـــةٌ في زَرَقِ
فَتخَـــالُ كُلَّمَـــا أبصَرْتَنِـــي   شَفَـقَ الفَجْـرِ بَـدَا في الأفُـقِ

وفي مثل ذلك

زُرْقَـــةُ لَونِـــي قَـــدْ بَـــدَتْ   تُشْبِـــهُ مَـــاءً في نَهَـــرْ
حَـــفَّتْ بِـــهِ الـــوَرْدُ وَقَـــدْ   طَفَـــا بِأعْـــلاهُ الزَّهَـــرْ

وفي ذلِـــك

يُـــــوسُفٌ أبْدَعَنِـــــي   بِالَّـــــذِي أوْدَعَنِـــــي

فَكَأنِّي قَمَرٌ   فِكْرُهُ أطْلَعَنِي

وفي ذلك

أبْدَعَنِي النَّاصِرُ ابْنُ نَصْرٍ   فَجِئتُ وَفْقَ اقتِرَاحِهِ
فَحُمْرَتِي فِي البَيَاضِ وَرْدٌ   أوْ زَهَرٌ فِي بِطَاحِهِ

وفي ذلك

أبْدَعَ حُسْنِي يُوسُفٌ   لَمَّا تَجَلَّى وَظَهَرْ
فحُمْرَتِي فِي ذَهَبِي   وَرْدٌ بِهِ حَفَّ الزَّهَرْ

وفي ذلك

جُودُ ابْنِ نَصْرٍ يُوسُفٍ   لِكُلِّ وَعْدٍ مُنجِزِ -162-
إذْ جَاءَ يَحْيَى عَبْدُهُ   بِمُعْجِبٍ بَلْ مُعْجِزِ

وفي ذلك

بِبَدائِعِ الحُسْنِ التِي   يَحْيَا فُؤادُ الْهَائِمِ
حَيَّا الخَلِيفَةَ عَبْدُهُ   يَحيَى بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ

وبتاريخ الثّاني لِرمَضان عَام سِتَّةَ عَشَر وَثمَانِي مائَة
أمَرَ أيَّدهُ الله بِنظْمِ مَقطُوعَاتٍ تكْتَبُ في طِيقانٍ
مَحْكِيَّةٍ بالجَصّ غيْرَ مُفتحَةٍ فقلتُ (*)

الوَرْدُ مِن شَأنِي ولَكِنَّنِي   أمْسَكْتُ عَن ذاكَ لِحَقٍّ وَجَبْ
إذا هَمَتْ راحَةُ مَوْلَى الوَرَى   وَلِلوِرْدِ أقْصَرتُ بِحُسْنِ الأدَبْ

ثانية

مالِي وَلِلوِرْدِ وبَحْرُ النَّدَى   لِكَفِّ مَوْلاَيَ انتَمَى وانتَسَبْ
والغَيْثُ مَا أخْلَفَ إلاّ هَمَا   فوقَ البَرَايَا جُودُهُ وانسَكَبْ

ثالثة

أنَا مَوْرِدٌ ما سُدَّ بَابِي دُونَ مَنْ   قَدْ شاءهُ بُخْلاً عَلَى وُرَّادِهِ
لكِنْ تُرِكْتُ لأنّ راحَةَ يُوسُفٍ   غَيْثٌ يَعُمُّ الخَلْقَ صَوْبَ عِهَادِهِ

رابعة

لَوْلاَ الحَياءُ مِن ابْنِ نَصْرٍ لَمْ أجِزْ   مَنْعَ النّوال الغَمْرِ عَنِ قُصّادِهِ
فَكأنَّنِي فَمُ صَامِتٍ عَن نطْقِهِ   أوْ جَفْنُ عَيْنٍ هائِمٍ بِرُقَادِهِ

خامسة

ان غُلّقَتْ طِيقَانُ قُبّتِي التي   تُبْدِي سَنَا وَجْهِ الصَّباحِ المشْرِقِ -163-

(*) يسمى هذا الضرب من الطيقان بالعربية : المشكاة. ومن وظائف الطاقات المفتوحة أن توضع فيها أواني الماء وأما في هذه المحكية فلا. انظر تحليلا ممتعا للطاقات في : أشعار عربية على جدران ونافورات الحمراء للأستاذ الكبير اميليو غرسية غومز ص 50 وما بعدها.

فالزَّهْـرُ أبْدَعُـهُ الـذِي بِكِمامِـــهِ   والمِسْكُ أعْبَقُـهُ الـذِي لم يُفْتَـقِ

سَادِسَـةٌ

عَجَبًا أَيُبْدِعُنِـي الخَليفَـةُ يـوسُفٌ   مَوْلَـى المُلُـوكِ بِمغْـرِبٍ وَبِـمَشْرِقِ
وَأرِيهِ رَاحَةَ مانِعٍ أوْ جَفْنَ مَـنْ   هُوَ نائِمٌ وَفَـمَ الـذِي لَـمْ يَنْطِـقِ

وَلمَّا حَصَلَ جَبل الفَتحِ في الإيَالَة النّاصِرِيَّة رحَلَ مَوْلاَنا أيَّدَهُ الله إلَيْهِ وأنَا صُحْبَةَ رِكابِهِ العَلِي ومَعي بَعْضٌ مِن الكُتَّابِ فَلَمَّا كُنَّا نَسيرُ في المَرْحَلةِ بَيْنَ سُهَيْل وَمَرْبَلَّةٍ لَيْلَةَ الجمعَةِ الرّابعِ وَالعِشرِينَ لجُمَدَى الأولى عَام سبعَة عَشَرَ وثمَانِي مِائة وقد ألقَتِ النجُومُ عَلَى البَحْرِ أشعَّةَ ألوارِهَا وأبْقَتْ قِطَعُ السُّحبِ حَوالَيْهَا تَخْييلاً مِن آثارِهَا وَسَألُوا مِنِّي وَصْفَ ذَلِكَ فَارْتَجَلْتُ مُقَطَّعَاتٍ حَفِظَهَا عَنِّي الفَقيهُ الكاتِبُ أبُو عَلي عُمَر بْنُ عُمَرَ وَمِنهُ قَيّدتُها هُنا بَعْدَ ذلِكَ وَكُلُّهَا مِن غيْر رُؤْيَةٍ وَلا رَوِيَّةٍ(248) الأولى مِنْ ذلكَ.

خَليلَـيَّ هَـذِي نجُـومُ الدُّجَـى   جَـوَارٍ جَـوَارٍ بَعُـدْنَ مَنَــالاَ
وقَـدْ أشْبَـهَ البَحْـرُ مِـرْآةَ هِنْـدٍ   تُـريكَ عَلَـى البُعْدِ مِنْهَـا مِثَـالاَ

الثّانِيَـة

أأبَا عَلِيٍّ صِفْ لَنَا الشُّهُبَ الّتِي   مَـازِلْتَ تَرْصُدُهَـا بِكُـلِّ طَرِيــقِ
إنْ قُلْتَ هُنَّ خَواتِـمٌ قُلْنَـا نَعَـمْ   لَكِــنْ بِأعْلاَهَــا فَصُوصُ عَقِيــقِ

(248) مربلة الواردة في هذه المقدمة ماتزال معروفة بهذا الاسم : MARBILLA وسهيل هي التي ينسب إليها الامام السّهيلي دفين مراكش واسمها اليوم Fuengirola.
ومن المفيد أن الطريق الذي ذكره الشاعر بين غرناطة وجبل طارق هو الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في رحلته. أما الفقيه الكاتب أبو علي بن عمر فلم أجد له ذكرًا فيما وقفت عليه.

الثالثة

وَقالُوا صِفْ لَنَا شهُبُ الدَّياجِي   لَدَى أُفُقٍ أطَلْتُ لهُ وُقُوفِي
فَقلْتُ هِيَ العُيونُ فَقِيلَ لكِن   عُيُونُ الزَّنْجِ مِن خِلَلِ السُّجُوفِ(249)

الرابعة

-164-

وَشُهْبٍ أشْبَهتْ حَلَقاتِ دِرْعٍ   عَلَى جَنَباتِهَا أَثَرُ النَّجِيعِ
وَقَدْ أَلْقَتْ بِمتْنِ البَحْرِ لَيْلاً   زَوَاهِرُهَا أَزَاهِرَ في رَبِيعِ

الخامسة

مَا بَالُ شُهْب الظَّلاَمِ حَاكِيَةٌ   شُهْبَ جِيادٍ ثَـنَتْ أعِنَّتَهَا
فَهْيَ وإنْ أَخفِيَتْ فَوَارِسُهَا   تَشْرَعُ في نقْعِهَا أسِنَّتَهَا

السَّادسة

أيُّهَا النَّاظِمُ صِفْ شهْبَ الدُّجَى   إنمَا أسْبابُهَا مِن سَبَبِكْ
فَحُلاَهَا في سَنَاءٍ وَسَنَى   وَعُلَى أو شُهْرَةٍ مِن أدَبِكْ

السَّابعة

كَأَنَّ الزُّهْرَ في أُفُقِ الدَّياجِي   أَزَاهِرُ لُحْنَ في خُضْرِ البِطَاحِ
تَأَمَّلْ إنَّهَا أسْرَارُ غَيْبٍ   تَضَمَّنَ كَتْمَهَا صَدْرُ الصَّبَاحِ

---

(249) خَلَل : كتب فوقها في الأصل : خلف.

الثامِنَـة

لِلّـهِ أسْفَارُنَـا مَـازِلْتُ أحْسِبُهَـا   حِينًا فَحينًا وَحُسْنُ الصَّبْرِ مِن عُدَدِي
وَالشُّهْبُ فِي أُفْقِهَا طِرْسٌ تَخطُّ بِهِ   صُفْرُ اليَرَاعَةِ أصْفَارًا مِنَ العَـدَدِ

التَّاسِعَـة

مَجَـرَّةُ الأفْـقِ نَهْـرٌ   وَالشُّهْبُ فِيهَـا حَبَـابُ
وَمَـا تَجَـزَّأ مِنْهَـا   هَـوَادِجٌ وَقِبَـابُ

العَاشِرَة

سِرْنَا إلَى الغَرْبِ حَيْثُ الشُّهْبُ مَائِلَةٌ   كَمِثْلِ مَن يَـرْتجي اللُّقيَـا وينتَظِـرُ
وَبيْنَنَا نِسْبَـةٌ في السَّيْـرِ وَاضِحَـةٌ   كَادَتْ تجمّعُنَا لَـوْ سَاعَدَ القَـدَرُ

وَسُئِلْتُ قَدِيمًا النَّظْمَ في شَمعَةٍ فَقُلْتُ مُرْتَجِلاً

ألاَ بأبِـي شَمْعَـةٌ قَـدْ حَـكَتْ   سَنَـا الشمْسِ لاَحَتْ بأفْكِهَـا -165-
كَخَـوْدٍ تَنَاثَـرَ مِـنْ عِقْدِهَـا   لآلِـىءُ في جِنْـحِ أحْلاَكِهَـا
وقَـدْ رَفَـعَتْ فَضْلَ أذْيالِهَـا   لِتَلْقُـطَ جَوْهَـرَ أسْلاَكِهَـا

وَقلـت

ألاَ بأبِـي شَمعَـةٌ تُزهِـرُ   لَهَـا نُقَـطٌ في الثَّـرَى تَقْطُـرُ
بِسُوسَنَةٍ قَدْ حَـكَتْ سُوسَنًـا(250)   غَـدَا فَوْقَهَـا لِلنَّـدَى جَوْهَـرُ

(250) في الأصل : بسوسنة، وكتبت فوقها الطرّة الآتية : «هي التي تعمل من الكاغد».

وَقلتُ

وللهِ منّي شَمْعَةٌ لاَحَ نُورُهَا فأخْجَلَ في جِنْحِ الدُّجَى الأنْجُمَ الزُّهْرَا
حَكَيت قَضيبًا قَدْ تَساقَطَ زَهْرُهُ وَلاَ عَجَبٌ أن تسقِطَ القُضُبُ الزَّهْرَا

وَحَضَرْتُ الوَليمَةَ المسَمَّاةَ بالثَّالثِ لبَعْضِ الأوِدَّاءِ في يَوْمِ ثَلْج أرْسَلهُ الأُفُقُ وَسُئِلْتُ وَصْفَ ذَلِكَ ارْتِجَالاً فَقُلْتُ وَهْيَ مِنَ النَّظْمِ القَدِيمِ(251)

وَمَجلِس أنسٍ راق خُبْرًا ومَخْبَرًا كَرَوْضِ الرُّبَى جادَتْهُ سُحْبُ الغمائِمِ
بِهِ كُلُّ محْمودِ الخِلال ممجَّدٍ يُبَخِّلُ في بَذل النّدَى كفّ حَاتِمِ
فأظْهَرَ منهُمْ كُلَّ بَدْرٍ مُتَمَّمٍ وأضْحَى إلَى شَمْسِ الضحَى أيَّ كَاتِمِ
مَتَى أرْسَلَتْ سُحْبُ الغَمَائِمِ دَمْعَهَا لَدَيْهِمْ أراهُمْ بَرْقُهُ ثَغْرَ بَاسِمِ
تَسَاقَطَ فيهِ الثَّلْجُ لِلأرْضِ مِثْلَمَا تَنَاثَرَ عِقدُ الدُّرِ مِن كَفّ نَاظِمِ
تَخَالُ ثِمَارَ الأرْضِ فِيهِ فَوَارِسًا بِخُضْرِ ثِيابٍ تحْتَ بِيضٍ عَمَائِمِ
فَتَحسِبُ أنَّ الأفْقَ دَوْحٌ تَلاَعَبَتْ بِأزْهَارِهِ في الجَوّ أيدِي النّواسِمِ
وَشادٍ لَهُ في الحُسْنِ أرْفَعُ رُتْبَةٍ تَرَى دُونَهَا أُفْقَ السُّهَا والنّعَائِمِ(252)
فَغَنَّى وَقَدْ أغْنَى عَنِ السحْرِ صَوْتُهُ وَمَال بِهِمْ مَيْلَ الغُصونِ النّواعِمِ
أتَوْهُ بمَا أرْضاهُ بذْأ وَعَوْدَةً فأبْصرَ مِنهُمْ كَيْفَ بَذْلُ المَكارِمِ -166-
وكانَ عَلى قَدْرِ المَحاسِنِ طَالِبًا فألْقَى عَلَيْهِ الجَوُّ بِيضَ الدَّرَاهِمِ

---

(251) الثالث : ثالث يوم العروس.

(252) السّها : كوكب من بنات نعش الصّغرى، والنّعائم من منازل القمر.

وَعُودٍ لَـهُ مَهْمَـا تَرَنَّـمَ سَاجِعًـا فَتَلْقَى الخَلِيَّ القَلْبِ حَالَةَ هَائِـمِ
يُميـلُ قلـوبَ العَاشِقِيـنَ صَبَابَـةً فَمِـن بَيْـن مُبْـدٍ لِلغَـرامِ وَكَاتِـمِ
وَمِن قبْلِ أن غَنَّى عَليْهِ مُهَفْهَفٌ عَلَيْهِ شَدَتْ في الرَّوْضِ وُرْقُ الحَمائِمِ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى مَا تَقَدَّمَ مِن المقْتَرحاتِ قَوْلِي لِتُكْتَبَ في حائِطِيٍّ حَريرٍ وهْيَ مِن مُرْتَجلاتِ النَّظْمِ القَديم وَالأبيَاتُ كَثيرَةٌ وَجَدتُ مِنْهَا ما ثَبتَ بَعْدُ وَأكْثَر المنظُومَاتِ مِنْ هَذا وَمَا تَقَدَّمَ من أمْثالِهِ دُونَ مُبَيَّضَة(253)

حَلَلْتُ كَمَا أَبْغِي بأسْعَدِ مَنْـزِلِ فَمَا أنا عَن شُهْبِ السَّماءِ بمَعْزِلِ
تفتَّـحتِ الألْـوانُ منِّـي أزاهِـرًا تُلاعِبُهَـا أيْـدِي جَنـوبٍ وَشمْـأَلِ
فَلُحْتُ كَمِثْلِ الزَّهْرِ والزُّهْرُ في الرُّبَى فَمِنْ مُجْتنٍ يأتي عَلَى إثْرِ مُجْتَلِ
تَكَامَلْتُ إحْسانًا وحُسْنًا فَمُبْصِري بِرَغْمِ الأعَادِي في سُرُورٍ مُكَمَّلِ
فَيا مُبْصِرًا منِّي المَحَاسِنَ وَالحُلَى أعِـدْ في جَمَالِي نَظْـرَةَ المتأمِّـلِ
فَيَا طَالَمَا أزْرَتْ صِفاتُ بَدَائِعِـي بِنُـورِ الضُّحَـى في أُفْقِـهِ المُتَهَلِّـلِ
إذا احْتفَلَ النّادِي وَرَاقَتْ صُدورهُ فَلِي رُتْبَةُ التَّصْدِيرِ في كُلِّ مَحْفِلِ
[إذَا] سُدِلَتْ حَوْلِي السُّتُورُ بِمَنْزِلٍ نَظَرْتُ لَهَا وَالشُّهْبُ دُونِيَ مِنْ عَلِ

(253) الحائطي أو الحيطي كما يقال اليوم، وهو في اصطلاح الأندلسيين والمغاربة عبارة عن الاستار التي تكون على الحيطان الداخلية للقبّة أو الغرفة.

وَمِنَ الإِخْوَانِيَّـاتِ

وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ المَنْظُومَاتِ

والذِي خوطِبْتُ بِهِ مِن النّظمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا -167-

لاَ أحْصِيهِ كَثْرَةً ولكِن لا أُثْبتُ هُنَا نظْمًا لِسوَايَ

إلاَّ مَا صَدَرَ مِنّي جوابٌ عَلَيْهِ

فَمِن ذلِكَ مَا كَتَبَ إلَيّ لأوّل انتحَالِي هَذِه الطَّرِيقَةِ الفَقِيهُ

الاسْتاذُ أبُو بَكْرِ بْنُ الأَيْسَرِ أبقاهُ اللهُ عَلَى جِهَةِ الاختبار لأجْلِ صِغَرِ

السّنّ وقدْ سَافَرَ مَولاَيَ الوَالِد وَصَلَ اللهُ عِزَّتَهُ لِمَوضِعِ قَضائِهِ مِنْ بَرجَةَ

فِي ذَلِكَ العَهْدِ وَبتَارِيخِ أوَّل رَبيعِ الأَوَّلِ عَام تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وسبْعِمِائَةَ

بِمَا نَصُّهُ

أَبُو الحسين سَلِيلُ السَّادَةِ البُلَغَا ... بَذَّ السَّوابِقَ فِي الشَّأوِ الذِي بَلَغَا

السِّحْرُ ذَلِكَ أمْ شِعْرٌ بَلَغْتَ بِهِ ... فَفُقْتَ مَن قَدْ عَشَا فِي السِّحْرِ أمْ نَبَغَا(254)

أعْجِبْ بِهِ يَافِعًا فِي السّنّ مُكْتَهِلاً ... فِي شِعْرِهِ صِبْغَةَ اللهِ التي صَبَغَا

أجِبْ بشَيْءٍ مِن المَنْظُومِ تَبْعَثُهُ ... فِي اليَوْمِ جَزْلٍ كَمَا أنَّ الفَنِيقَ رَغَا(255)

البَدْءُ والوَزْنُ مِنهُ والرَّوِيُّ كَذَا ... فكُلُّ مُصْغٍ لهُ نحْوَ الجَوابِ صَغَا

الشَّمْسُ أنتَ ومَن جَارَاكَ نَجْمُ دُجًى ... يَخْفَى إذا نُورُهَا مِن أفْقِهِ بَزَغَا

فَصابَحْتُهُ بِرسَالةٍ ثَبَتَتْ فِي غَيْرِ هذَا التَّقْيِيدِ

إذِ القَصْدُ الاتْيانُ بالنَّظْمِ دُونَ النَّثْرِ إلاَّ مَا

لاَ بُدَّ مِنْ إثْبَاتِهِ وَصَدَّرْتهَا بِمَا نَصُّهُ

أَهْلاً بِقِطْعَةِ شِعْرٍ راقَ مَنظَرهَا ... فكُلُّ قَلْبٍ إلَيْهَا قَدْ صَبَا وَصَغَا

(254) أي فقت المُسَمَّيْنِ بالأعشى والنابغة.

(255) الفنيق : الفحل المكرم من الابل.

عَقِيلَةٍ ذَهَبَتْ بالعَقْلِ حِينَ غَـدَتْ ... يُزْرِي سَنَاهَا بنُورِ الشَّمْسِ إنْ بَزَغَا
أَتَى بِهَـا أَوْحَـدٌ أضْحَتْ فَضائِلُـهُ ... تَكِـلُّ عَـن مُنتَهَاهَـا أَلْسُنُ البُلَغَـا
فَـلاَ بَنَانِيَ يَأبَى حَصْرَهَـا أَبَـدًا ... وَلاَ لِسَانِـي إذَا أَثنَـى عَلَيْـهِ لَغَـا
لَوْ أنَّ سَحْبَانَ قد جَارَى بَلاَغَتَهُ ... أَمْ رامَ مِنْهَا بُلوغَ البعْضِ ما بَلَغَا -168-
لاَزَالَ مَادَامَتِ الأيَّامُ صُبْحَ هُـدًى ... يَنالُ مَا يَبْتَغِي فِيمَنْ عَلَيْـهِ بَغَـا

وَخَتَمْتُ الرِّسَالَةَ بأَبْيَاتٍ نَصُّهَا

الاَ حَيِّهَا فِي حَيِّهَا أَوْجُهًا غُـرًّا ... فَإِنِّي لاَ أَنْسَى اغْتِرَارِي بِهَا غِرًّا
وَقُلْ لِيَ هَلْ تُوسِي زَمَانَةُ عَاشِقٍ ... بِعَـودَةِ أَيَّامِ الزمَـانِ الـذي مَـرًّا
تَقَضَّى كَمِثْلِ الطَّيْفِ ان زَارَ فِي الدُّجَى ... يُرَى عِندَمَا لاَحَ الصَّبَاحُ قدِ ازْوَرَّا
وَهلْ مَا زَجَتْ أنفَاسُ أَحْبَابِنَا الصَّبَا ... وَإلاَّ فَلِمْ رَقَّتْ وَلَمْ عَبَقَتْ نَشْرَا
أَيَا مَنْ لَصَبٌّ قَدْ غَدَا دُرُّ دَمْعِهِ ... عَلَى خَدِّهِ نَظْمًا وَفِي نَحْرِهِ نَثْـرَا
فَمُذْ خَالَهُمْ دُرًّا وَصارَتْ قِبَابُهُـمْ ... لَهُمْ صَدَفًا أَجْرَى مَدَامِعَـهُ بَحْـرَا
وممَّا أجدَّ الوَجْـدَ حُسْنُ عَقِيلَـةٍ ... تَفُـوقُ جَمَـالاً كُلَّ غَانِيَةٍ عَـذْرَا
فَيَـا حُسْنَهَـا مِـن رَوْضَةٍ أَدَبِيَّـةٍ ... غَدَا عَرْفُهَا شِحْرًا وَمَنْظَرُهَا سِحْرَا
لَقَـدْ راقَنِـي إجْمَالُهـا وجَمالُهَـا ... فأصْبَحْتُ مَشْغُوفًا بغُرتهَا الغَـرَّا
فَأَبْدَى مُحَيَّاهَا لِيَ البِشْرَ والرِّضَى ... وَوافَتْ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ بالبُشْرَى
وقَدْ راقَ لَوْن الحِبْرِ فَوقَ بَيَاضِهَا ... كَمَا رَاقَ لَوْنُ الخَالِ فِي وَجْنَةِ العَذْرَا
حَبَانِي بهَا ذُو الفَضْلِ والمَجْدِ والتُّقَى ... فَطاوَلْتُ بالشُّهْبَانِ مِن أُفْقِهَا البَدْرَا
لَئِنْ كَانَ فِينَا شَخْصُهُ يَطأُ الثَّرَى ... فَفَوْقَ الثُّرَيَّا مَجْدُهُ قَدْ عَلاَ قَدْرَا
يَـرُوعُ أَعَادِيَـهِ بِـغُصْنٍ يَرَاعِـهِ ... فَتَحْسِبُهَا فِي كَفِّـهِ صَعْدَةً سَمْـرَا
سَقَاهَا مُدَامَ الحِبْرِ حَتَّى اسْتَمَالَهَـا ... فَهَلْ سَجَدَتْ شُكْرًا كَمَا رَجَحَتْ سُكْرَا
لَكَ الفِقَرُ الغُرُّ التِي قَدْ حَبَيْتَنِـي ... بِهَا فأَنَا لاَ أشْتَكِي بَعْدَهَا فَقْـرَا

وقُدْت قَوافِي الشِّعْرِ طَوْعًا وحُكتَهَا فأَبْدَيْتَهـا زَهْـرًا وأطْلَعْتَهَـا زُهْـرَا
أتَتْ والنُّهَى تَصْبُـو إليهَا فإنَّهَـا تُطِيعُكَ مَهْمَا تُنفذُ النَّهْيَ وَالأَمْرَا
وَدُونَكَهَا مِنْ صَوْنِ عَقْلِي عَقِيلَـةً مِنَ النَّظمِ فَلْتَبْذُلْ لَهَا السَّمْحَ والبِشْرَا -169-

وَأطْلَعَ عَلَيْهَا جملةً مَنَ الطَّلَبَة حينَ وَصَلتْهُ فكَتَبَ إلَيَّ أحَدُهُمْ وَيتْلُوهَا شَيْءٌ مَن نثْرِهِ ترَكْتُ إثْبَاتَهُ مَعَ النَّثْرِ الذِي رَاجَعْتُهُ بهِ إثْرَ النَّظْمِ

نِظامُكَ سَيِّدِي فِي الحُسْنِ فَـرْدٌ وَلاَ عَـجَبٌ فـأنت إذًا فَريـدُ
هُوَ السِّحْرُ الحَلاَلُ وإنَّ قَوْلِـي مِـنَ الأَخْبَـارِ يَـعْضُدُهُ شَهِيـدُ
هُوَ البحْرَ الزُّلاَلُ فمَـن يَـرِدْهُ يَرِدْ بحْرًا بِـهِ نُظِـمَتْ عُقُـودُ
بحَظِّكُـمُ وَلفْظِكُـمُ اعْتِبَـارٌ فكَمْ سَمْعٍ وَكَـمْ بَصَرٍ تَقُـودُ
طَلاَئِعُهَـا بسَبْـقِكَ مُوذِنَـاتٌ فَيَـا لِلَّـهِ مَطْلَـعُكَ السَّعِيـدُ
وَكَـمْ أمَـلٍ سَتَبْلُغُـهُ قَرِيبًـا وَيخْدُمُكُمْ عَلى الرَّغْمِ الحَسُودُ

فَأَجَبْتُهُ مُرْتَجِلاً

زَمَـانُ وِصالِـهِ هَـلاَّ يَعُـودُ وكَيْـفَ وَطَيْفُـهُ مَـا إنْ يَعُـودُ
هو الظَبْيُ الذي أمْسَتْ جُفُونِـي تُسَهِّدُهَـا لَوَاحَظُـهُ الرُّقُـودُ
ألاَ بأبِـي عُهُـودٌ قَـدْ تَـقَضَّتْ فَهَـلْ دَهْـرٌ بعَوْدَتِهَـا يَجُـودُ
سَقَى عَهْدَ الأحِبَّةِ عَهْدُ دَمْعٍ إذا مَـا الغَيثُ أخْلَفَـهُ يَجُـودُ
فَفِـي تِـلْكَ المَعَاهِدِ سَانِحَـاتٌ ظِبَـاءٌ تُـرْهِبُ الآسَادَ غِيـدُ
ومِن تِـلْكَ البُدورِ بِهَا وُجُـوهٌ وَمِن تِـلكَ الغُصُونُ بِهَا قُـدُودٌ
وَرُبَّ عَقِيلَـةٍ مَلَـكَتْ فُـؤَادِي لَهَـا فِي حُسْنِهَـا شَأْوٌ بَعِيـدُ
لَقَـدْ عَـذُبَتْ مَوَارِدُهَـا وَساغَتْ فأضحَـى لِلظِّمَـاءِ بهَـا وُرُودُ

لَقَدْ نَقَعَتْ غَلِيلَ الشَّوْقِ لَمَّا   غَدا بَيْنَ الضُّلُوعِ لَهُ وُقُودُ
عَلَى حُكْمِ الوِدَادِ بِهَا حَبَانِي   صَدِيقٌ فِي فَضَائِلِهِ وَحِيدُ -170-
أَقَرَّ لَهُ العِدَى بِالفَضْلِ طُرًّا   وَهَلْ لِلشَّمْسِ إِن لاَحَتْ جُحُودُ
لَقَدْ زَانَ النِّظَامَ وَلَمْ يَزِنْهُ   وَرُبَّتَمَا يَزِينُ السِّلْكَ جِيدُ
فَدَامَ مَدَى اللَّيَالِي فِي سُعُودٍ   عَلَى رَغْمِ الحَوَاسِدِ لاَ تَبِيدُ

وَأَطلَعْتُ الشَّرِيفَ المُعَظَّمَ أَبَا العَبَّاسِ
الحسَنِي وَصَلَ اللهُ رِفْعَتَهُ عَلَى قَصَائِدَ
مِن نظْمِي فكَتَبَ لِي مَا نَصُّهُ(256)

تَبَارَكَ اللَّهُ مِن نجْلٍ قَدِ اجْتَمَعَتْ   مَحَاسِنُ الأَبِ فِيهِ وَهْوَ يَزْدَادُ
فَلاَ بَرِحْتُ أَرَى مِنكَ الذِي عَلِمتْ   عَنْ جَدِّه المُنتَقَى مِصْرٌ وَبَغْدَادُ(257)

المُرَاجَعَةُ عَلَى ذَلِكَ لُزُومِيَّة فِي آخِرِ رَجَب
الفَرْدِ مِنْ عَامِ تسْعَةٍ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمائة

سَمْعًا فإِنْ عُدِّدَتْ أَوْصَافُ مَجْدِكُمُ   لاَ يأْخُذُ الشُّهْبَ إِحْصَاءٌ وَتَعدَادُ
مِنَّا الصَّلاَةُ عليْكُمْ وَالسَّلامُ إِذَا   مَا كَان لِلذِّكْرِ فِي الأَفْوَاهِ تَرْدَادُ
وَالحقُّ مُرْتَقَى السبْعِ الطِّبَاقِ لكُمْ   لاَ زُخْرُفٌ شَادَهُ عَادٌ وَشَدَّادُ

---

(256) الشريف أبو العباس الحسني هو ولد أبي القاسم الشريف السبتي وترجمته وأخباره في الكتيبة الكامنة ونيل الابتهاج ونفح الطيب وجنّة الرضى، ووقع النقل عنه في المعيار للونشريسي، وفي مظهر النور الباصر جملة من شعره الذي قاله في المناسبات، وقد ولي خطّتي الكتابة والقضاء من عهد الغني بالله فمن بعده.

(257) يشير الشريف إلى شهرة جدّ والد الشاعر قاضي الجماعة أحمد ابن فركون.

تُزْهَى بِجَدَّيْكُمْ السِّبْطَيْن في مَـلإٍ ... مِـن الرِّسالـةِ آبــاءٌ وَأجْــدَادُ(258)
وتَجْتَلِي النُّورَ نُورَ اللهِ أوْجُهُكُـمْ ... وَيحرمُ الفَـــوْزَ كُفَّـــارٌ وَأضْدَادُ
إنَّ الرَّضِيَّ لَكُـمْ وَالمرْتَضَى نَسَبٌ ... يَزْدَانُ مَظْهَـرُهُ نُـورًا وَيَـزْدَادُ(258 م)
فَمَن يجَارِي مَداكُمْ والسَّبَاقُ بكُمْ ... لَـهُ مِـنَ العَالَـمِ العُلْـوِيّ إمْــدَادُ
مَالِي يَدانِ بشُكْرِي مِن نَدَى يَدِكُمْ ... رُحْمَى لهَا السُّحْبُ أكْفاءٌ وأنْدَادُ
لأزَالَ إجْمَالكُـمْ لِـي عُدَّةً أبــدًا ... تَتْــرَى بغَيْــرِ ثَنَــاهٍ منْـهُ أعْــدَادُ -171-

وَكَتَبْتُ إليْهِ أبْقَاهُ اللهُ وقَدْ وُلِدَ
لهُ مَوْلُودٌ في التَّاسِعِ لِرَجَبٍ مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وثَمَانِي مائَةَ

سَمعًا فقَدْ نطَقَ الـلّسَانُ المفْصِحُ ... بِبَشائِـــرٍ غَايَاتُهَــــا لاَ تُشرَحُ
فَالكَـوْنُ مـن طَـرَبٍ بهَـا مُتهَـلِّـلٌ ... وَمَلاَمِــحُ الدنْيَــا بهَــا تُتَلَقَّـــحُ
وَالأفْـقُ أبْـدَاهُ الظَّــلاَمُ حَديقَـــةً ... فَالزُّهْـــرُ أزْهَـــارٌ بـــهِ تَتَفتَّـــحُ
وَالرَّوْضُ يَرْفُلُ في غَلاَئِلِ سُنْدُسٍ ... غُصْنُ النَّقَـا مَـا بَيْنَهَـا يتَرَنَّـــحُ
يا مَن لهُ البَيْتُ العَتيـقُ وَزَمْـزَمٌ ... وَمِنًــى ومَكَّــةُ دَارُهُ وَالأبطَـــحُ
أهِيَ المَآثِـرُ حَيْـثُ قَامَ خَطيبُهَـا ... أمْ طِيبُ هَبَّاتِ الخمائِلِ يَنْفَـحُ
وَهِيَ المَفاخِرُ في النَّدَى أوْ فِي الهُدَى ... مُتَفَجِّـــرٌ لكَ فَجْرُهَــا المتَـــوَضِّحُ
لَـــوْ مَثَّلوهَـــا لِلوُفُـــودِ لآلِئًـــا ... لَتَختَّمُـــوا بنَظِيمِهَـــا وَتَوَشَّحُـــوا
حَيْثُ البُـدُورُ تَـوَدُّ في آفَاقِهَــا ... لَـــوْ أنَّهَـــا بسَنَائِهَـــا تَسْتَصْبِـــحُ
يَا وَافِدًا من عَالم الأكْوانِ هَـلْ ... رَوْضُ الوُجُودِ وَقَدْ أتَيتَ مُصَوَّحُ

---

(258) تزهى، وردت في الأصل ناقصة هكذا : هَى، والجدّان السبطان هما الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد ذكر الرّاعي الغرناطي أن أمّ السيد أبي المعالي كانت حُسَينية فكان شريفًا من الجهتين كما نصّ على أن أبا العباس هو شقيق لأبي المعالي ؛ وإذن فأمّهما معًا حسينية.

(258م) يشير إلى الشريف الرّضِي وأخيه الشريف المُرْتَضَى.

يَا صُبْحَ هَدْيِي سَاحِبًا ذَيْلَ العُلَى	تَشْدُو الرِّفَاقُ بِذِكْرِهِ وَتُسَبِّحُ
يا ابْنَ الذِي تَسْرِي الرِّكَابُ وَجَاهُهُ	ظِلٌّ ظَلِيلٌ وَالهَوَاجِرُ تَلْفَحُ
يَا سِبْطَ مَنْ حَازَ النُّبُوءَةَ والهُدَى	وَبِنُورِهِ غَصَّ الفَضَاءُ الأَفْيَحُ
هَلْ فِي مَكَانَتِهِ التِي قَدْ نَالَهَا	جِبْرِيلُ يَطْمَعُ أَوْ إِلَيْهَا يَطْمَحُ
إِنْ كُنْتَ مَبْغُومَ الجَوابِ فَإِنَّنِي	أَبَدًا أُنَادِي مُثْنِيًا وَأُصَرِّحُ
لِلَّهِ مِنْكَ مَنَاقِبٌ أَحْرَزْتَهَا	كَالشُّهْبِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ تُلَوِّحُ
أَوَ لَيْسَ وَالِدُكَ الَّذِي آثَارُهُ	أَحْلَى مِنَ الصُّبْحِ المُنِيرِ وَأَوْضَحُ
هَيْهَاتَ لِلشَّمْسِ المُنِيرَةِ هَدْيُهُ	والشَّمْسُ تَحجُبُهَا السَّحَابُ وَتُوضِحُ
أَوْ هَلْ تُجَارِي كَفَّهُ سُحُبُ الحَيَا	وَالطَّبْعُ أَكْرَمُ والسَّجِيَّةُ أَسْمَحُ
وَأَبو المَعَالِي عمُّكَ العَلَمُ الَّذِي	لِمَحَلِّهِ مَا لِلكَوَاكِبِ مَطْمَحُ(259) -172-
لَوْلاَ مَآثِرُهُ الكَرِيمَةُ لَمْ تَكُنْ	خَيْلُ اليَرَاعَةِ فِي مَدَاهَا تَجْمَحُ
هَذا وَجَدُّكَ أَوْحَدُ الدَّهْرِ الذِي	عَن جُودِهِ تُرْوى السَّحابُ الدُّلَّحُ(259م)
عَلَمٌ بِحَمْلِ العِلْمِ زَادَ تَوَاضُعًا	وَوَقَارُهُ أَعْلاَمَ رَضْوَى يَرْجَحُ
فَالحِلْمُ مِنْهُ سَجِيَّةٌ مَعْهُودَةٌ	والعِلْمُ مِنْهُ دِيمَةٌ تُسْتَمْنَحُ
فَاهْنَأْ بِهِ ولَكَ البَقَاءُ مُخَلَّدًا	وَالسَّعْدُ يَخْفِقُ وَالمَقَاصِدُ تَنْجَحُ
فَلِحُبِّكُمْ يَا آلَ بَيْتِ محمد	بَيْنَ الجَوَانِحِ كُلُّ قَلْبٍ يَجْنَحُ
أَوَ مَا بِذَاكَ اللَّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ	يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ العَظِيمِ وَيَصْفَحُ
وَإِلَيْكَهَا غَرَّاءَ رَاقَ جَمَالُهَا	فَالعَيْنُ مِنهَا فِي رِيَاضٍ تَسْرَحُ
أَلْفَاظُهَا وُرْقٌ لَدَى أَوْرَاقِهَا	بِالحَقِّ تَصْدَعُ أَوْ بِحَمْدِكَ تَصْدَحُ
لاَزِلْتَ يَا مَعْنَى الفَضَائِلِ آمِنًا	وَاللَّهِ يُعْطِي مَا تَشَاءُ وَيَمْنَحُ

(259) أبو المعالي هو أخو أبي العباس أحمد، وسيذكر أيضًا بعد قليل.

(259م) الدلّح جمع دالح، وهو السحاب الكثير الماء، وجدّ المولود هو الشريف أبو القاسم السبتي المشهور.

وَكَتَبَ إليَّ أخوهُ قَاضِي الجَمَاعَةِ الشَّرِيفُ المعظَّمُ أبو المعالي أبْقَى اللهُ حُظْوتَهُ وقَدْ تَقدَّمَ في ذلِكَ العَهْدِ للِكِتابَةِ السُّلْطَانيّةِ دُونِي مَن آثَرَهُ صَاحِبُ الخطَّةِ في الوَقتِ بهَا مَا نصُّهُ في مُحَرّم عَام خمسةٍ وثماني مِائة(260)

أَبَا الحُسَيْنِ الَّذِي أضْحَتْ مَحَبَّتُهُ ... لَـدَيَّ خَالِـدَةً فِي جَنَّـةِ الخَلَـدِ
اسْمَـحْ بِقَافِيَـةٍ رَقَّتْ سَلاَفَتُهَـا ... تَسْرِي مِنَ الرُّوحِ مسْرَى الرُّوحِ في الجَسَدِ
أَلَـيْسَ قَلبِـيَ ظَمْـآنٌ لِمَشْرَعِهَـا ... فإنَّـهُ شَبِـمٌ يَنْـدَى عَلَـى كَبِـدِ
واصْبِرْ فعمَّا قَرِيبٍ أنتَ وَارِدُ مَا ... تَهْوَى مِنَ العزِّ غَمْرًا غَيْرَ مَا ثَمَدِ
وَلاَ يَـهِضْكَ بتَـاخِير تَقَدُّمُهُـمْ ... إنَّ الفَـذَالِكَ تَاتِـي آخِـرَ العَـدَدِ
وَكَمْ جَـواد جِيَـادُ الخَيْـلِ تسْبِقُـهُ ... أولَى الرِّهَانِ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى الأَمَدِ
وَاللّهِ يَهْدِيكَ هَدْيَ الصَّالِحِينَ لِمَا ... فيهِ فَلاَحُكَ مِن تَقْوَى ومِن رَشَدِ -173-

---

(260) هو الشريف الحسني أبو المعالي محمد ولد الشريف السبتي، ذكر في ترجمة أخيه الواردة في نيل الابتهاج : 76 نقلا عن الكوكب الوقاد للحضرمي، ونقل المقري في النفح عن كتاب الفتح المنير للرّاعي حكايةً تتعلّق بهذا الشريف، وهي «أنّهُ كان قد ترك كبار الوظائف والرياسات، وتجرّد للعبادة، ولبس المرقّعة، وسلك طريق القوم، وكان من رجال الدين والعلم والتعظيم في قلوب أهل الدنيا والآخرة على جانب عظيم، يشار إليه بالأصابع» قال الراعي : «وكان اخوه شيخي وأستاذي أبو العباس أحمد قاضيًا.. فكان أخوه أبو المعالي لا يأكل في بيت شقيقه شيئا لأجل ذلك ولعيشه من خِدَم السلطان، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهمًا من عنده أشتري له به ما يأكل، وأقام على هذه الحالة سنين كثيرة» ثم انه مَرَّ ذات يوم بباب أحَدِ أصحاب الأشغال المخزنية وكان مطلوبا للمصادرة ومختفيا فنادى الشريفَ من شقة الباب مستنجدًا ببركته فقال له اذكر الذكر الفلاني، ومن ذلك اليوم فقد الشريف نوره الباطني فشكى إلى فقراء زاوية المحروق بغرناطة وحكى لهم ما وقع منه فأجابه أحدهم بأنه لقّن ذكرًا لم يكن له إذن في تلقينه فلا يعود إليه نوره أبدًا، «فكان كما قال، فانقطع وولي بعده قضاء الجماعة وعزل عن سخط وخدم الملوك وأكل طعامَهم وحالته أوّلاً وآخرًا مَعروفة بغرناطة» (نفح الطيب 5 : 198 ــ 199) ومهما يكن أمر هذه الحكاية فإنها تكشف عن أطوار حياة أبي المعالي وطبيعة ذلك المجتمع المضطرب وأثر أهل الزوايا فيه.

الجَـوابُ على ذلِكَ

أهَلَّ بالرَّوْضِ سِرْبُ الطَّائِرِ الغَرِدِ ... بمَا انتَضَى نَهْرُهُ مِن سَيْفِهِ الفَرِدِ
فَهزَّ مثنَى جَناحَيْـهِ وَحَثَّهُمَـا ... حَثَّ المُسَابِقِ لِلأَقْصَى مِن الأَمَدِ
عَهْدِي بِهِ وَارِدًا أكْوَاسَ غَادِيَةٍ ... تُقَسِّمُ الرَّاحِ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ
وَلَحْظُهُ يرْتَعِي المَرْعَى المَجُودَ بهَا ... وَجِيدُهُ يَزْدَهِي بالحَلْيِ وَالغَيَدِ
خَيَّلْتُهُ حِينَ أبْدَى لِي بَدَائِهَهُ ... أنِّي زُهِيتُ بعِقْدٍ مِنهُ منتَضِدِ
أوْ أنَّ عَارِفَةً وَافَى الشَّرِيفُ بهَا ... فأحْسَبَتْ أمَلِي بالعَدِّ والعُدَدِ
مَالِي وَلِلرَّوْضِ أسْتَهْدِي أزَاهِرَهُ ... وَالزُّهْرُ في أُفُقِ العَلْيَاءِ طَوْعُ يَدِي
حَسْبِي هَدِيَّةُ سِبْطِ المصْطَفَى شَرَفًا ... تَهْدِي وَتَنقُلُ مِن زَيغٍ إلَى رَشَدِ
ألا أجِيدُ قَرِيضِي وَهْوَ لِي عَضُدٌ ... لاَ يُنْهِضُ الرُّمْحَ إلاَّ شِدَّةُ العَضُدِ
ألاَ أرُدُّ خَصِيمَ القَوْمِ إذْ حَسَدوا ... وَقَدْ مَضَى عذْلُهُ بالبغْيِ وَالحَسَدِ
وَسَلَّ في حَرْبِ مَن عَادَى مَوَاضِيَهُ ... وهَزَّ كُلَّ قَوِيمِ القَدِّ مُطَّرِدِ
بصَالِحٍ من دُعَاءٍ يَرْتقِي صُعُدًا ... عَليهِ في طَلَبِ العَلْيَاءِ مُعْتَدِي
أقُولُ يَا نَاشِدَ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ... لَقَدْ كَفَتْكَ يَدَاهُ جُهْدَ مُجْتَهِدِ
أبُو المَعَالِي مَعَالِيهِ مُقَدَّسَةٌ ... في جَنَّةِ الخُلْدِ مِنْهُ فِكْرَةُ الخَلَدِ
قَصْدًا فَمَعْلَمُهُ لِلَّهِ عَالِمُهُ ... بكُلِّ مَا لَمْ يَنَلْهُ نَقْدُ مُنْتَقِدِ
يَدْعُو بنَا مَعْشَرَ الأبنَاءِ إنَّ لكُمْ ... لوالِدًا مُشْفِقًا لِلأَهْلِ وَالوَلَدِ
وَحَيْثُ يُهْدِيكُمُ أبْيَاتَهُ مِدَحًا ... فالشُّكْرُ ما بَيْنَ مَشْفُوعٍ وَمُتَّحِدِ
فَيَا عَمِيدَ بَنِي البَيْتِ الكَرِيمِ لَقَدْ ... أصْمَتَّ بالفَخْرِ رَغْمًا ألْسُنَ اللُّدَدِ(261)
وجِئْتَ بالشِّعْرِ فالشِّعْرَى بسَاحَتِهِ ... في جَمْعِ مُحْتَشِدٍ يَعْنُو لِمُنْفَرِدِ
مُمتَدَّةٌ في العُلَى أطْنَابُهُ فأنَا ... أدْعُو لِرَافِعِ عُلْيَاهَا عَلَى عَمَدِ

(261) عميد البيت أو الأسرة أو الأخوة يكون عادة هو الأكبر سنا، ولكنّ صاحب الكوكب الوقاد يقول أن أبا العباس أحمد هو أكبر الأخوين. نيل الابتهاج : 76

وأسْأَلُ اللهَ في طُولِ البَقَـاءِ لَـهُ   سُؤَالَ عَبْدٍ على مَـولاهُ مُعْتَمِـدِ -174-

ثُمَّ زادَ أبْقَاهُ اللهُ أبْيَاتًا عَلى أبْياته المُتقَدِّمة وأعادَهَا إليّ قاصِدًا التّأنيسَ

أبَا الحُسَيْنِ الذِي أضْحَتْ مَودَّتُـهُ   لَـدَيَّ خالِـدَةً في جَنَّـةِ الخَلَـدِ
باكِـرْ بِقافِيـةٍ زهْـراءَ صَافِيَـةٍ   تسْرِي مِنَ الرُّوحِ مَسْرَى الرُّوحِ في الجَسَدِ
أقولُ ان كَرَعَتْ نَفْسِي بمَشْرعِهَا   للهِ مِن شَبَمٍ يَنْدَى عَلى كَبِـدِ
تَغدو بهِ المُزْنَةُ الوَطْفَاءُ مُغْدِقَـةً   كَأنّما الرّسْلُ مِنْهَا شِيبَ بالبَـرَدِ
أرْوَى السُّراةَ أخُو الحَيّ الحِلاَلَ بِهِ   دأْبًا فَمَـا بَالُـهُ مِمَّـا اقتنَـوْهُ صَدِ
ألاَ أُنادِي بنـادِي القَـوْمِ وَاحَرَبّـا   يَا لَلرّجَالِ أمَا بالرَّبْعِ مِن أحَـدِ
اللّه في حُرْمَةٍ دانَتْ قُرَيْشُ بهَـا   وَمَـا جُوَارُهُـم فِيكُـمْ مُضْطَهَـدِ(262)
مُدُّوا يَدًا نحْوَهُمْ بالبَحْرِ طَافحَـةً   لاَ يَنثَنِي مَدُّهَا بالجَزْرِ عَنْ مَـدَدِ
أبَا الحُسَيْنِ رُوَيْدًا سَوْفَ تَنْهَلُ مِن   وِرْدِ الأمَانِي غمْرًا غَيْرَمَـا ثَمَـدِ(263)
وَتبلُغُ الغايَةَ القُصْوَى عَلَى مَهَـلٍ   إلَـى ذُرَى رُتَبِ العَلْيَـاءِ فَاتَّئِـدِ
فَـلاَ يَـهِضْكَ بتَـاخِير تَقَدُّمُهُـمْ   إنَّ الفَذَالِكَ تَاتِـي آخِرَ العَـدَدِ(264)
وكَمْ جَوادٍ جِيَـادُ السَّبْقِ تَقْدُمُـهُ   أولَى الرّهَانِ قَدِ اسْتَوْلَى على الأمدِ(265)
هَـذا عَلَى أنّهَـا الأقْـدَارُ رُبَّتَمَـا   تَاتِيكَ عَنْ كَثَبٍ طَوْرًا وعن بُعُدِ
فَحَسْبُكَ اللّهُ فِيمَا أنتَ نَاشِدُهُـمْ   فَاسْتَوْثِقَـنَّ بحَبْـلِ الوَاحِـدِ الأحَـدِ

(262) يشير الشريف إلى انتساب ابن فركون إلى قريش.

(263) الغمر : الكثير، والثمد : القليل.

(264) الفذالك جمع فذلكة، وهي قول الحاسب في آخر الحساب : فذلك كذا وكذا.

(265) أمد السباق : غايته، واستولى على الأمد : غلب على منتهاه وهذا من قول النابغة : سَبْقَ الجَوادِ إذا استَولَى عَلى الأمَدِ.

وَخصّ بالدُّرّ مَدْحَ المُصْطَفى وَكَفَى ... بِهِ عَتَادًا لِما تَرْجُوهُ مِنْ صَفَدِ[266]
وَكُنْ بِهِ في المَنالِ الصَّعْبِ مُعْتَضِدًا ... فَجاهُهُ المَوْئِلُ الأَحْمَى لِمعْتَضِدِ
واجْعَلْ شَفاعَتَهُ دُنْيا وَآخرَةً ... عِمَادَ مُسْتَمْسِكٍ في كُلِّ مُعْتَمَدِ
فإنّها عمْدَةُ اللّهِ التِي فزِعَتْ ... يَوْمَ المَعادِ إِلَيْهَا جُمْلَةُ العُمَدِ
مَنْ يسْتَنِرْ بِمَنارٍ من شَرِيعَتِهِ ... في مُدْلَهِمٍّ دُجَى لَيْلِ الضّلاَلِ هُدِي
وَفَازَ بالأَمْنِ في دَارِ السَّلاَمِ غَدًا ... مَن أَمَّ مَنْهَجَهُ الأَهْدَى ولَمْ يَحِدِ
فَصِلْ صَلاَتَكَ تَرْدَادًا عليْهِ تَنَلْ ... رُحْمَى الإِلاَهِ وَمَهْمَا تَسْتَزِدْ تُزَدِ
وَاللّهُ يَهْدِيكَ هَدْيَ الصَّالِحِينَ لِمَا ... فِيهِ فَلاحُكَ مِنْ تَقْوَى وَمِن رَشَدِ

وَكَتَبَ إليَّ أبقاهُ الله إثْرَما وَلِي مَولاَنا النّاصِرُ لدينِ الله الخِلافَةَ واظهَر عَلى عَبْدِهِ أثَرَ القبول وَفائح بتَبْليغِ الأَمَلِ وَالسُّول

أبا الحسيْن الذي أُخفِي مَحَبَّتَهُ ... في طَيِّ قَلْبِيَ أحْيانًا وَأبْدِيهَا
تُهْدِي إلَيْكَ مَعَ الأَرْوَاحِ إذْ نَسَمَتْ ... مِسْكَ السَّلامِ فَماذَا أنتَ تُهْدِيهَا
ان قُلْتَ دُرًّا وَياقُوتًا فَمَعْدِنُهُ ... كَمَا عَلِمتَ مَحُوزٌ تحْتَ أَيْدِيهَا
فاحْتَلْ لنفسِكَ فيمَا تُتْحِفَنَّ بِهِ ... كَلاًّ أوِ اسْتَرْشِدِ الأَعْلاَمَ تَهْدِيهَا[267]
الشَّمْسُ بالرَّبْوَةِ الحَمْراءِ مُشْرِقَةٌ ... كَمْ نِعْمَةٍ لِلْهُدَى لاَرَيْبَ تُسْدِيهَا[268]

---

(266) صَفَد : عطاء.

(267) استرشد، قد تكون : استرقد، كما يستفاد من قول أبي الحسين الآتي في جوابه : مشيرةٌ بالْتِماس الرِّفد من علمٍ. واسترفد : طلب الرفد والعطاء.

(268) الربوة الحمراء : يقصد بها قصر الحمراء، والشمس المشرقة عليها : الملك.

فَراجَعْتــــه بقَصيدةٍ لزُوميَّةٍ
مِثْل أبْيَاتِي المُتَقَدِّمَةِ

هِيَ الدّيَارُ فَمَـا تَبْدو بَوَادِيهَـــا ... إلاَّ اهْتَـدَى كُـلُّ هَيْمَـانٍ بِوَادِيهَـا

مَعَاهِدٌ قُدِّسَتْ أرْضًا فَقَدْ ضَمِنَتْ ... رِفْـدًا لِقَاصِدِهَـا وِردًا لصَادِيهَـــا

كَمْ قدْ دَعَتنا إلَى السُّقْيَا مَوَارِدُهَا ... وإنْ عَدَتْنَا عَنِ اللُّقْيَا عَوَادِيهَــا

أهْدَتْ بِطَيِّ صَبَاهَا مِن صَبَابَتِنَـا ... أمَانةً لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُؤَدّيهَـا

كَمْ قُلّبَتْ مِن قُلُوبٍ في أبَاطِحِهَا ... وكَـمْ تَشَكَّتْ نَواهَـا في نَوادِيهَـا

فالوَجْدُ جَدَّ بهَا لَوْ كَان يُنْجِدُهَا ... وَالصَّبْرُ لأذَتْ بِهِ لَوْ كانَ يُجْدِيهَا -176-

هَذَا وَإنَّا إلَى عَذْرَاءَ قَدْ وَفَـدَتْ ... تَرْتَـاحُ شَوْقًـا وَبـالأرْواحِ نَفْدِيهَـــا

عَقيلَةٍ قَـدْ تَجَلَّى حُسْنُهَـا فَجَـلاَ ... مِرآةَ فِكْرِي فَلَيْسَ الدَّهْرُ يُصْدِيهَا

تَخْتَـالُ مَوْشِيَّـةَ الأبْـرَادِ رُبَّتَمَـا ... وَشَى بهَـا وَشْيُهَـا لَـوْلاَ تَهَادِيهَـا

نَادَيْتُهَـــا جُــودِي وَمُبْتَـــذَلٌ ... فِينَا نَداهَا كَمَا قـدْ عَزَّ نادِيهَـا

إنّ المُنَادَى هوَ المَطْـوُلُ واعجَبًـا ... مَابـال هَاتِـيكَ مَمْطـولٌ مُنَادِيهَـا

لِلِهِ هَادٍ إلَى قَصْدِ السَّبِيلِ هَـدَى ... أفْكَارَ فِكْـرِي بمَـا مِنهَـا يُهَادِيهَـا

أرْواحُنَـا جَعَـلَتْ ذُخْـرًا مَحَبَّتَهَـا ... تُرِيحُهَـا يَـوْمَ يُبْدِيهَـا تُنادِيهَـــا

شَرِيفَةُ المُنتَمَى في الآخريـنَ أتَتْ ... وأحْـرَزَتْ منتَهـى العَلْيَـا مَباديهَـا

صَدَّتْ طَوِيلاً ولكِن عِنْدَمَا رَضِيَتْ ... أضحَى إلى مُرْتَضَى اللُّقْيَا تَصَدِّيهَا

سِبْطُ النبيّ حَبانِي مِن عَقَائِلِـهِ ... بِبِنْتِ فِكْرٍ يَرُوقُ السمْعَ شادِيهَـا

مُشِيرَةٌ بالْتِمَاسِ الرِّفْدِ مِنْ عَلَـمٍ ... مَا ضَلَّتِ الخَلْقُ قَصْدًا وَهْوَ هَادِيهَا

قَدْ لاَحَ بالرُّبْوَةِ الحمراء شَمسَ هُدًى ... فَلَيْسَ يَخْفَى عَنِ الأبصَارِ بَادِيهَـا

فَمَا قَبَضْنَا اللُّهَى لَـوْلاَ مَكارِمُهَـا ... ولاَ بَسَطْنَـا يَـدًا لَـوْلاَ أيَادِيهَـا

هذِه الخِلاَفَةُ قَـد أعْلَى مَعالِمَهَـا ... فأيْـنَ مَهْدِيُّهَـا منـهُ وهَادَيهَـا

هذي البَلاَغَـةُ انْ وافَتْ كَتائِبُهَـا ... يكُـفُّ قُسُّ إيَادٍ بَـطْشَ أيْدِيهَـا

هذي السَّماحَةُ إنْ جَفّتْ مَوارِدُهَا ... من كَفٍّ حاتِمِهَا تَنْدَى غَوادِيهَا
هذي المَعارِفُ انْ ضَلّتْ كَواكِبُهَا ... أشِعَّةُ الصُّبْحِ تَهْديهَا وَتُهْدِيهَا
هذي العُفاةُ إذا تَغْدُو مُؤَمّلَةً ... هذي العُداةُ إذا يَبْدُو تَعَدّيهَا
يَجُودُهَا سَيْبُهُ طَوْعًا وَيُرفِدُهَا ... يَرُدُّهَا سَيْفُهُ قهْرًا وَيُرْدِيهَا
سنَا تَهَلُّلِهِ بَادٍ لِسائِلِهِ ... إنَّ البُروقَ غَوَادِيهَا تُعَادِيهَا
فكلُّ بَارِقَةٍ للْجُودِ يُبْدِعُهَا ... وكُلّ شارِقةٍ لِلبَشْرِ يُبْدِيهَا
هَل نِعْمةٌ أوْ يَدٌ تَاتِي وقَدْ سَلَفَتْ ... إلاَّ ونَاصِرُ دينِ اللهِ مُسْدِيهَا
المُنْعِمُ المَلِكُ الأعْلَى الذِي وكَفَتْ ... كَفَّاهُ جُودًا وَقَدْ كُفَّتْ أعَادِيهَا
ثَنى لبَذْلِ النَّدَى في الخَلْقِ راحَتَهُ ... فظَلّ رائِحُهَا يُثْنِي وَغَادِيهَا(268م)
لأزالَ مَوْلاَيَ يُبْدِي مِن مَكارِمِهِ ... ما يُبْهِجُ الدِّينَ والدنيَا تَمادِيهَا
حَمائِمُ الفكْرِ في رَوْضِ النِّظامِ غَدَتْ ... صَوادِحًا بالنَّدَى تَرْوِي صَوادِيهَا

وكتَبَ إليّ أيّام إقامَتِنا جميعًا بمَالَقَة صُحْبَةَ الرّكابِ العَلِيّ أسمَاهُ اللّهُ في شأنِ الزّيارَةِ وَتجْدِيدِ المَوَدّةِ وَبِتاريخ اليَوْمِ الثّاني عَشَر لِشَعْبان من عَامِ ثلاثَة عَشَر وثمانمائة(269)

حَيَّا حِمَى الرَّوْضِ البَلِيلْ ... نَفَسٌ أبَلَّ بِهِ العَليلْ
فَتشَوّقت بكلَيْهِمَا ... نَفْسُ الخليلِ إلَى الخَليلْ
يا لَيْتَ شِعْرِيَ هَلْ إلى ... لُقْيَا الأحِبَّةِ مِن سَبِيلْ
وَطَنٌ وحَيٌّ جَامِعٌ ... وَنَوًى تَشَعَّبَ بالقَلِيلْ
مَا هَكَذا عَهْدُ الألَى ... عَهْدِي بِهِمْ في كُلِّ جِيلْ

(268م) انظر قوله هذا مع أنّ أبا تمّام يقول :
تعَوّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتّى لَوْ أنّهُ ... ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أنامِلُهْ
(269) راجع ما تقدم في موضوع مقام السلطان بغرناطة في التاريخ المذكور.

مَاذا عَدَا عَمَّا بَدَا   مِن زَوْرَة تَشْفِي الغَلِيلْ

تَعْتَادُ خَيْمَ أُولِي الحِمَى   في بُكْرَةٍ أوْ في أصيلْ

فَقِفِ المَطِيَّ عَلَى الحِمَى   تُحْي بهَا الرَّسْمَ المُحِيلْ

فَراجَعْتُهُ عَلَى ذَلك مِن غيْر رَوِيَّةٍ وهْي لزُومِيَّةْ

حَدِّثْ عن الطَّلَلِ المُحِيلْ   مِن بَعْدِ حَادِثَةِ الرَّحِيلْ

حَيْثُ الرَّكَائِبُ نُزَّعٌ   لِلوِرْدِ وَالظِّلِّ الظَّلِيلْ

وَالجُودُ أنقَهُ لِلعَلِيلِ   بِهِ وأَنْقَعُ لِلْخَلِيلْ(269م)

كَم مِن نُفوسٍ عِندَهُ   تَرْتَاحُ لِلنَّفَسِ البَلِيلْ -178-

هَذا وَ لِلوَطَنِ الذِي   فِيهِ المُعَرَّسُ وَالمَقِيلْ

شَرَفٌ سَمَا فَوْقَ السُّهَا   بالنَّاصِرِ الكَافِي الكَفِيلْ

وَبيُوسُفٍ غَرْناطَةٌ   مِصْرٌ وَمِن جَدْواهُ نِيلْ

وَالوَجْدُ نَحْوَ بطاحِهَا   كُلَّ القُلُوبِ غَدا مُمِيلْ

لَوْلاَ الجَوَى طَيَّ الجَوَا   نِحِ مَا غَدَا دَمْعٌ يَسِيلْ

لَوْلاَ التعَلُّلُ باللِّقَا   ءِ لَمَا اشْتَفَى القَلْبُ العَلِيلْ

لَوْلاَ فَتَاةٌ أعجَزَتْ   لَفْظَ المُطِيبِ أوِ المُطِيلْ

لَمْ أدْرِ مَا مَعْنَى السُّلُوِّ   إذًا عَنِ الرَّسْمِ المُحِيلْ

تُهْدِي وتَهْدِي إذْ أتَتْ   غَرَّاءَ وَاضِحَةَ الدَّلِيلْ

لِلَّهِ مَا جَاءَتْ بِهِ   مِن مَنْطِقِ العَرَبِ الأصِيلْ

لِلَّهِ مَا حَازَتْهُ في   العَلْيَاءِ مِن شَرَفِ القَبِيلْ

تَجْلُو كَتَائِبَ كُتْبِهَا   بمَدَى البَلاَغَةِ أوْ تُجِيلْ.

(269م) كذا في الأصل، ولعلّها : الجَوّ.

وَلَهَا الهَوادِي اسْتَشْرَفَتْ   فَهَدَتْ إِلَى قَصْدِ السَّبِيلْ
فِهيَ العَقِيلَةُ تَنتَمِي   لِعُلاَ عَلِيٍّ أَوْ عَقِيلْ[270]
ولأَوْحَدِ الدَّهْرِ الشرِيـ   ـفِ المَاجِدِ العَلَمِ الجَليلْ
لِلهِ مِنهُ مُحْرِزٌ   وَصْفَيْ مُنِيبٍ أَوْ مُنِيلْ
أَهْدِي لَهُ جَزْلَ النّظَا   مِ وَقَدْ حَبانِيَ بالجَزِيلْ
أَلْفَاظُهُ كَمْ مِـ   ـنْ كَثِيبٍ لِلعُصَاةِ بِهَا مَهِيلْ
ولَكَمْ يَرُدُّ بِعَدلِهِ   لِلْبَغْيِ مِنْ جَيْشٍ فَلِيلْ
وَمِنَ القُلوبِ بِوَعظِهِ   يُدْنِي القَصِيَّ وَيَسْتَمِيلْ
وَيَراعُهُ كَالصَّعْدَةِ السَّمْـ   ـراءِ والسَّيْفِ الصَّقِيلْ
يَا ابنَ الذِي بِخِلاَلِهِ   قَدْ بشَّرَتْ صُحُفُ الخَلِيلْ[271] -179-
قُلْ مُنْعِمًا مَا شِئْتَهُ   فَلأَنْتَ لِي نِعْمَ المُقِيلْ
عُذْرًا بِمِثْلِكَ يَهْتَدِي   مَن حَادَ عَن أَهْدَى سَبِيلْ
قَصْدِي المُثُولُ لَدَيْكَ يَا   مَنْ جَلَّ فِينَا عَن مَثِيلْ
مَا بَيْنَ شارِقَةِ الصَّبَا   حِ وبَيْنَ جَانِحَةِ الأَصِيلْ
فِي حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ   لِيَ حالَةٌ لاَ تَسْتَحِيلْ
فَمِنَ الزِّيَارَةِ بَعْدَهَا   هَيْهَاتَ أَطْلُبُ مِن بَدِيلْ
أُزْجِي المَطِيَّ لِحَيِّكُمْ   بِالوَخْدِ مِنْهَا وَالذَّمِيلْ
يَا مَنْ يُقِيمُ صَغَا الفَضَا   ئِلِ وَالفَوَاضِلِ أَنْ تَمِيلْ
لَوْلاَ القَوَافِي لَمْ أَكُنْ   فِي الوَصْفِ أَقْنَعُ بِالْقَلِيلْ
فَلْتُبْدِ مَا عَوَّدْتَنِي   مِنْ عَادَةِ الصَّفْحِ الجَمِيلْ

(270) فيه جناس، وعلي هو ابن أبي طالب وعقيل أخوه.

(271) يشير إلى الآية الكريمة : «إنّ هذا لَفي الصُّحُفِ الأولَى صُحُفِ إبراهِيمَ».

وَعِندَمَا ارْتَسَمتُ فِي كُتَّابِ المَقَامِ العَلِي فِي اليَوْمِ الرَّابِعِ وَالعِشْرِين لِصِفَر مِن عَام ثَمانِيَةٍ وثَمَانِي مِائَة كَتَبَ إلَيَّ مُهَنِّئًا بذلكَ الفَقيهُ القاضي أَبو عَبْدِ الله الأُلْيُري(272)

هَنيئًا يَا سَلِيلَ أُولِي النَّجابَهْ   بمَا قُلِّدتَ مِن سَامِي الكِتَابَهْ
ويَهْنيهَا فقَدْ ظَفِرَتْ بِكُفْءٍ   حَوَى مِن كُلِّ مَعْلُوَةٍ لُبَابَهْ
أَرَاكَ اللَّهُ فيهَا ما تَمَنَّى   مِنَ النِّعَمِ الجِسَامِ المسْتَطَابَهْ
وَزَادُكَ بَعْدَهَا جاهًا عَظيمًا   تَنَالُ بِهِ الخِطَابَةَ وَالحِجابَهْ

فَأَجَبْتُهُ بِقَصيدَةٍ نَصُّهَا

-180- بمَا أُثْنِي عَلَى تلكَ المَثابَهْ   فَأَرْضَى بالإنَالَةِ والإنَابَهْ
ونَظْمُكَ مَا وَفَيْتُ لَهُ بحَقٍّ   سِوَى رُوحِي مُقابِلَةً ثَوابَهْ
أَتَى بعَقيلَةٍ راقَتْ جَمَالاً   فَقَدْ هَامَ الفُؤادُ بِهَا صَبَابَهْ
كَلِفْتُ بِهَا فَرَكْبُ الوَجْدِ لَمَّا   رَأى كَلَفِي أَنَاخَ بِهِ رِكَابَهْ
فَهَا حُبِّي وَهَذا فَرْطُ شَوْقِي   وَلاَ شَوْقَ اليَزيدِ إلَى حَبَابَهْ(272م)

---

(272) يبدو أن هذا «الفقيه أبا عبد الله الأُلْيري» هو المترجم به في نيل الابتهاج هكذا : «محمد بن علي بن عبد الملك الأُلْيُري الغرناطي، شُهِرَ بابن مليح، قاضي غرناطة، وقع النقل عنه في شرح التحفة لابن عاصم» وكان حيًّا عام اثنين وثلاثين [وثمانمائة]» وهو الوارد ذكره في المغيار كما يلي : «كان القاضي أبو عبد الله الأليري أيام استخلافه قضاء الجماعة بحضرة غرناطة يُغْلِظُ على من فهم منه اللَّدَدَ من اليهود» ولعلّه هو نفسه الذي خاطبه الشاعر البسطي بعَددٍ من قصائده. راجع كتابنا : البسطي آخر شعراء الأندلس : 110 — 114 وفي برنامج المنتوري نقرأ هذه الترجمة : «ومنهم الشيخ المفتي المقرىء الحاج الأصلح أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن مالك بن أحمد الرعيني الأُلْيُري. مولده في ليلة الخميس لسبع مضين من شهر ربيع الأول عام تسعة وعشرين وسبعمائة وتوفي في ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام اثنين وثمانين وسبعمائة» وهذا متقدم في التاريخ، ولعلّهُ هو صاحب شرح البردة المخطوط، وثمّة أُلْيري آخر معاصر لشاعرنا هو أبو عثمان سعد الأُلْيري المترجم في برنامج المجاري والوارد ذكره مرارًا في ديوان يوسف الثالث. راجع أيضًا ما كتبناه في المقدمة.

(272م) اليزيد : في الأصل المخطوط : المزيد، وهو تحريفٌ لهُ نظائر في نسختنا الوحيدة، والإشارة هنا إلى هيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بالجارية المغنية حبابة حتى مات كمدًا بعد موتها. راجع الأغاني.

فَيَا لِلَّهِ مِنْهَا بِنْتُ فِكْرٍ   تُبَلِّغُ كُلَّ ذِي أَمَلٍ طِلاَبَهْ
وَيَا للّهِ مَنْ أَبْدَى حُلاَهَا   تُشِيرُ إلى هَنَائِي بالكِتَابَهْ -181-

(273)

قَرَّتْ بِكَ الدُّنْيَا وَعَيْنُ العُلَى   وَكُلُّ عَيْنٍ عَائِنٍ عَانِيَهْ

-182- **فَارْتَجلتُ جَوابَهَا مَعَ مُوَصِّلِهَا**

وَلَزِمْتُ في الرّوي حَرفًا غَيْرَ الذِي التَزمَهْ

مَرَّتْ بِرَبْعِي لِلنَّدَى غَادِيَهْ   رَائِحَةً بِأُفْقِهِ غَادِيَهْ
فأَشْبَهَتْ زَهْرَ الرُّبَى نَفْحَةً   وأَخْجَلَتْ زُهْرَ العُلَى بَادِيَهْ
حسْنَاءُ أَبْدَاهَا وَلِيُّ الهُدَى   فأَصْبَحَتْ لِنَهجِهِ هَادِيَهْ
حَمائِمُ الفِكْرِ لَدَى رَوْضِهَا   بِمَدْحِهِ أَوْ حَمْدِهِ شَادِيَهْ
صادِحَةٌ بِهِ وإنْ لَمْ تَزَلْ   لِلْوِرْدِ في مَشْرَعِهَا صَادِيَهْ
يَقْفُو بَنُو الآدَابِ آثارَهَا   مَا الرَّكْبُ إلاَّ تابِعٌ حَادِيَهْ
هذَا هُوَ النَّظْمُ الذِي قَصَّرُوا   عنهُ وَلَمَّا يَقطعُوا وَادِيَهْ
حَسُودُهَا التقْصِيرُ نَادَى بِهِ   وَلَوْ غَدَا يَدْعُو لَهَا نَادِيَهْ
أَوْدَتْ بِهِ وأَظْهَرَتْ وُدَّنَا   عَادِلَةً في حُكْمِهَا عَادِيَهْ
أَتَى بِها الشَّيْخُ المُفِيدُ الذِي   نُفُوسُنَا لِنَفْسِهِ فَادِيَهْ(274)

(273) بياض في الأصل، وفي الطرة ما نصه : «بياض هنا قدر ورقة وجدتها مفقودة في الأصل المنتسخ منه» ويبدو أن هذه الورقة المفقودة تشتمل على القطعة أو القصيدة التي لم يبق إلا البيت الأخير منها.

(274) ليس في القطعة ما يستفاد منه معرفة هذا الشيخ المفيد الذي هنأ الشاعر بمنصبه فأجابه بهذه القصيدة.

ضَمّنتَهَا مَعنَى هَنائِي بمَا ... بِهِ أقَامَ الدَّهْرُ مُنْآدِيَهْ
ومَا بِهِ النَّاصِرُ مَوْلاَيَ قَدْ ... أبْدَى عَلى الأيّامِ إنْجَادِيَهْ

وكَتَبَ إلَيَّ الفَقيه أبُو القَاسِمِ بْنُ حاتِمِ المَالَقِي ويُعْرَفُ أيضًا بابْنِ البَنَّاءِ وَهُوَ شاعِرٌ مُفْلِقٌ وَقَدْ تولّى قضاءَ جَبل الفَتْحِ الوِلاَيَةَ التي ظَهَرَ فِيهَا منْ سوءِ رأيِه، مَا قَضَى لِمبْنَى عِزِّهِ بِسُقُوطِهِ ووَهْيِهِ

وَهُوَ الآنَ بَعْدَ خُطوبٍ فادِحَةٍ مُقيمٌ بسبتة[275]

أدارُهُمْ هَذِهِ المِسْكِيُّ رَيَّاهَا ... حَيَّاهُمُ اللّهُ مِن قَوْمٍ وَحَيَّاهَا
لَمْ تَدْرِ طِيَّةَ نَفْسٍ هَاجَهَا قَلَقٌ ... حَتَّى إذا سَكَنَتْ فيهَا عَرَفْنَاهَا
وَهْيَ القُلوبُ إذا حَلَّ الغَرامُ بِهَا ... تَخْفَى وتَظْهَرُ أطْوارًا سَجايَاهَا -183-
يَا صَاحِبَيّ وَمَا سِرِّي لِغَيْرِكُمَا ... والْحُرُّ إنْ أُودِعَ الأَسْرَارَ أخْفَاهَا
إن تَبْرَحَا أوْ تُقيمَا لَسْتُ مُنتَقِلاً ... إيّايَ كانَ السُّرَى يَعْنِي وَإيَّاهَا
ألْقَتْ عَصاهَا بِبُسْتَانِ الجَمَالِ يَدي ... فَما عَصاها مِن الآمَالِ أقْصَاهَا
لاَ تَلْحَيَانِي فَما في سَلْوَتِي طَمَعٌ ... وَلاَ فُؤادِي مَعَاذَ اللّه يَرْضَاهَا
مَتَى رأى غَيْرَهَا مُسْتَحْسَنًا بَصَري ... حَتَّى تَظُنَّا بأنَّ الغَيْرَ أنسَاهَا
أوْفاهُ لِي بِعُهُودِ الغَادِرِينَ فَمٌ ... أنَّى وَلِي مِنْ عُهودِ الحُبِّ أوْفَاهَا
وإنَّ منْ أنَا مَعْرُوفُ الغَرامِ بِهَا ... لَمطْمِعٌ حُسْنُهَا فِي نَيْلِ حُسْنَاهَا
لَمْ أنسَ لَيْلَتَنَا بالجِزْعِ إذْ غَفَلَتْ ... مِنَ الوُشاةِ عيُونٌ كُنتُ أخشَاهَا
أردتُ أُوقِدُ مِصْبَاحًا فَبَادَرَنِي ... حَطُّ اللِّثَامِ فَأغْنَانِي مُحَيَّاهَا
ورُمْتُ أُهْدِي لَهَا صِنْفَيْنِ مِن دُرَرِي ... فأخجَلَتْنِي ثَنَايَاهَا ونجْواهَا
وكُنتُ أعْدَدتُ ألْفاظَ العِتَابِ لَهَا ... فَأدْهَشَتْنِي فَلَمْ أظْفَرْ بإحْيَاهَا

---

(275) راجع ما كتبناه في المقدمة عن هذه الشخصية الأدبية.

رُحْمَى لِمُنْتَجِلِي الآدابِ مِنْ دَهَشٍ ... يُعيدُ أعْتَى حُمَاةِ القَوْمِ أعْيَاهَا
قالَتْ أظُنُّكَ مَسْحُورًا فقلتُ لَهَا ... أفعَالُ مَنْ كُحِلَتْ بالسِّحْرِ عَيْنَاهَا
قالَتْ وأعْوَزَكَ الرَّاقِي فقلتُ لهَا ... شَكْوَى يُعالِجُهَا مَن قَدْ تَجنَّاهَا
قالَتْ وَهلْ تَعْرِفُ الجانِي فَقلتُ لَهَا ... رامٍ إذَا قَصَدَ الأكْبَادَ أصْمَاهَا
قالتْ أتَيْتَ بِألْغَازٍ فَقلْتُ لَهَا ... لَعَلَّ أُخْتَ المَهَا فَكَّتْ مُعَمَّاهَا
فاسْتَضحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ خَلِّ عَنْكَ وَقلْ ... عن صُورَةٍ نَسْتَلِذُّ العَيْنُ مرْآهَا
فَقلتُ في الشَّمْسِ مَا نبغي مَتى طلَعَتْ ... قالتْ فإنْ هِيَ غابَتْ غابَ مَعْنَاهَا
فقُلتُ والبَدْرُ أيْضًا فهْوَ يخْلُفُهَا ... قالَتْ وَلَوْ دامَ بَدْرًا رُبَّمَا ضاهَاهَا
فَقلتُ وَالرَّوْضُ ما تَخفَى نَضارَتُهُ ... قالَتْ علَى أنَّهَا تَشْرِينُ يَنْعَاهَا
فقُلْتُ والظبْيُ لاَ تُنْسَى مَحاسِنُهُ ... قالتْ حَكَيتَ ولَكِن مَن حَكَى تَاهَا
فقُلْتُ إيَّاكِ أعنِي لاَ سِوَاكِ بمَا ... [قَدْ قُلْتُ] قالتْ لَقَدْ أُنسِيتَ أسْمَاهَا :
أبَا الحسَيْن بنَ فُرْكُونٍ، فَقُلْتُ لَهَا ... جَوْفُ الفَرَا جعَلَتْهُ الصَّيْدُ مَأْواهَا(275م) -184-
فَتًى أجازَ لـهُ التَّقْديمَ وَالِدُهُ ... إنَّ الأسُودَ تَرَى الأشْبَالَ أشْبَاهَا
شارَكْتُ بالعَيْنِ غيْرِي في مَحَاسِنِهِ ... واخْتَصَّ قَلْبِي بأرْقَاهَا وأبْقَاهَا
تَبْلَى اللَّيالِي ومَا قَدْ حاكَ مِنْ حُلَلٍ ... مَا حاكَ في الصَّدْرِ أنَّ الدَّهْرَ أبلاهَا
أبْكَارُ أفْكَارِهِ في حَلْيِ راحَتِهِ ... عرائسٌ وَكَراسِي الطِّرْسِ مَجْلاَهَا
المِسْكُ في طَيِّ كافُورٍ بَطَائِقُهُ ... فَيُسْتَدَلُّ عَليْهَا قَبْلَ مَرْآهَا
سَفائِنٌ في بُحُورِ العِلْمِ جَارِيَةٌ ... باسْمِ المُهَيْمِنِ مُجْرَاهَا ومُرْساهَا
«تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبَانِ مِن لَبَنٍ» ... بهَا يُباهِي عُقُودَ الدُّرِّ مَنْ بَاهَى(276)
لَوْ كانَ إكْلِيلُهَا إحْدَى المَنازِلِ لَمْ ... يكنْ عَلَى البُعْدِ مِن مَرْقَى ثُرَيَّاهَا(276م)

(275م) إشارة إلى المثل : كل الصّيد في جوف الفرا.
(276) الشطر الأول مضمّن، وتمامه :
تِلْكَ المَكارِمُ لا قَعْبانِ مِنْ لبنٍ ... شيبا بماءٍ فَعادا بعْدُ أبْوالا
(276م) الإكليل منزلة من منازل القمر وكذلك الثريا.

وَقائِلٍ قالَ لِي كَيفَ اهْتَدَيْتَ لَهَا ... أظُنُّ مُنْجِبَهَا إيَّاكَ أهْدَاهَا
فَقُلْتُ مَا الشرْطُ أنْ يَحْظَى بِمُتَّصِفٍ ... مَنْ عَرَّفَتْهُ صِفاتُ الحُسْنِ أحْظاهَا
وَرُبَّ عَبْدٍ يُرَجِّي أنْ يُكاتِبَهُ ... مَوْلاَهُ نَالَ مِنَ الآمَالِ أرْجَاهَا
أبَا الحُسَيْنِ وَقَدْ نَادَيْتُ مِنْ كَثَبٍ ... لأنَّ ذَاتَكَ رَبْعُ القَلْبِ مَثْواهَا
أبَا الحُسَيْن ومَالِي في المَدِيحِ يَدٌ ... لأنَّ عُلْيَاكَ أعْيَتْنِي قُصَارَاهَا
مَا كفُّ عَامِلةٍ في الطِّرْسِ عَامِلَةٌ ... مَا تَرْتَضِيهِ قُرَيْشٌ حَلْيَ مَوْلاَهَا
وإنَّمَا هِيَ بالذِّكْرَى مُفاتَحَةٌ ... مَوَدَّةٌ لَكَ أُولاَهَا وَأُخْرَاهَا
وخِطْبَةٌ بِنتَ فكْرٍ لَوْ طَلَبْتَ لَهَا ... كُفْؤًا لأعْيَاكَ مَوْجودًا وأعْيَاهَا
فَلَنْ تُجِيبَ إلَى وَصْلِ مُنَادِيهَا ... مِنْ حَيْثُ تَهْوَاهُ بَل مِن حَيثُ يَهْواهَا
يَفْنَى الزَّمانُ وَلِي نَفْسٌ مُحَلَّأَةٌ ... عَنِ المَوارِدِ أصْفَاهَا وأحْلاَهَا
نَضْحًا إذا لَمْ يكُنْ غَمْرٌ وَلاَ ثَمَدٌ ... تَحْيَى الزرُوعُ إذَا مَا الطَّلُّ غَذَّاهَا
أبَا الحُسَيْن أبُوكَ النَّدْب جَرَّأنِي ... عَلَى العُلَى بَأيادٍ منهُ أوْلاَهَا(277)
لَوْلاَهُ لَمْ أدْرِ مَا مِقْدارُ قَافِيَةٍ ... لَمْ تُحْقرِ الدُّرُّ واليَاقُوتُ لَوْلاَهَا
لَكِنْ هَدَتْنِي هَدَاياهُ إلَى نَظَرٍ ... مُمَيِّزٍ بَيْنَ دُنْيَاهَا وَقُصْوَاهَا
وَمَا بِقاعُ المَهَا إلاَّ رِقَاعُكُمُ ... لَوْ قَدْ تَقَضَّتْ لُبَانَاتِي بِلُبْنَاهَا -185-
أمسَيْتُ قَيسًا وَطَاوَلْتُ الدُّجى سَهَرًا ... فَهَلْ يُرَى مُصْبِحًا لَيْلِي بِلَيْلاَهَا

• قَد تكُونُ أبْقَى الله سَيدي لبَعْضِ الحَوادِث أسْبَابْ • والمَنَازِلُ مِن مُقْتَضَيَاتِهَا الأبوابْ • واني لَمْ أزَلْ مِن يوْم فَصلْتُ عَن الحَضْرَةْ • مطَالعًا بالخَيَالِ مِن ذلِكَ الجَلاَلِ الحَسَنِ الخِلاَلِ روْضًا ذَا نَضْرَةْ • والعَيْنُ تشْتَاقُ للحَقيقَةْ • وقاضِي الكَلَفِ بذلك الخَلَفِ الطاهِر السَّلفِ قد سجَّلَ ثُبُوتَ الوَثيقَةْ • وَالقَلْبُ رهْنُ الوِدادْ • وبعْدُ الشُّقَّةِ لَمْ

(277) والد شاعرنا أبي الحسين هو أحمد بن فركون الشاعر الكاتب القاضي المعروف، ويفهم من كلام هذا الأديب أنه تخرج في الأدب بوالد أبي الحسين.

يُبْقِ حِيلَةً إلاَّ حيلَةَ القَلمِ والمِدَادُ • لِكنّي كلمّا أردت الطواَفَ مَنَعَتْنِي هيبَةَ الحَرَمْ • فإِن أعرضْتُ تعرَّضَ لي منشِدُ« بأَبِهِ اقتَدَى عَدِيٌّ فِي الكَرَمْ» • وانْ جَيْشَ اليَاسُ قابَلتُهُ مِن كَتَائِب مَكْتُوبَاتِ أبيكَ بالخَمِيسِ الهَازِمْ • وأقمْتُ على بُطْلانِ حُجّةِ القُنُوطِ البُرْهَانَ اللازِمْ • وَانْ أطلَّ الطَّمَع من ثَنِيَّة الهَلَعِ قال الرَّأيُ الحازِمْ • أو كنتَ مِثْلَ حَازِمْ • فَلَوْ رَأيتَنِي وأنا بَيْنَ صَفَّيْ هَاذَيْنِ الوَصْفَيْنِ المتَضادَيْنِ واقِف • وَكأنّي لدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ ناقِفْ • لبَادَرْتَ لِنُصْرَتِي بِدَارَ المنجدِ المثاقِفْ • ورُبَّمَا نَابَ الأثَرُ عَنِ العيان في المعْرِفَهْ • ومِن ثمَّ جازَ البيْعُ عَلَى الصِّفَهْ • وقَدْ تبيَّنَ فيمَا سَبَقْ • سَبَبَ الطمَعِ في شِرَائِيَ التَّمْرِ بالنَّبَقْ • فإن رأى سَيِّدي ان يشْرعَ لِحَاسِدِي مِن تَنفُّقِ كَلامِهِ نَصْلاَ • وَيصل على البِعَادِ حَبْلَ الوَارِدِ وَصْلا • ويتّبعَ في المُراجعَةِ سَلَفًا كَرِيمًا وأصْلاَ • ويأخُذَ بضَبْعِ هَذا الوَارِدِ البَاقِلي فَيَرْفَعَهُ إلَى ثُرَيَّا القَبُولِ مِنَ الثَّرَى • ويَقْرِيَهُ بمَا تيسَّرَ مَن الْجَوابِ «فَما الخِصْبُ للأضيَافِ انْ يَكْثُرَ القِرَى» • [فَعَلَ]إن شَاء الله. والسلاَمُ على الأصْلِ والفرع • سلاَمَ الوُجُوب والطبْعِ • مِن فلاَنِ.

عُـنْـوَانُــــهَا

إلَـــى عِمَـــادِ الأدَبِ الأوْفَـــرِ أَبِـي الحسيْنِ بْـنِ أَبِـي جَعْفَـرِ
بِبَـيْـتِ كتَّـاب الرَّئـيسِ الـذِي مَحَلُّهُ [أسْمَـى مِـ] نَ الجَعْفَـرِي
بـحِضْرَةِ ابْـنِ الأحْمَـرِ المقـتَضِي بِعِـــزِّهِ ذُلَّ بنِــــي الأصْفَـــرِ -186-
لاَزالَ وَالأمْـــــــدَاحُ تنْتابُــــــــهُ مُنْتَشِقًـا مـــن مسْكِهَــا الأذْفَـرِ
ومُسْتمِـــدًّا عِلْمَــــهُ مِـــن أبِ لـمْ يُغْمَطِ الفَضل ولـمْ يُكْفَـرِ

فأجْبْتُهُ بِقصيدةٍ يتْلُوها شيءٌ مِنَ النَّثرِ
لمْ يَقَعْ لِلْيَدِ الآنَ وَفِي آخر شعبَان أحَد عشر وثمَانمِائة

جَادَ الغَمَـامُ رُبَـى نَجْـدٍ وحيَّاهَــا فَالـرَّكْبُ لاَ يَهْتَـدِي إلاَّ بِرَيَّاهَـا

مَا ضَلَّ حَـادِيهِمُ إلاَّ هَدَتْهُ لَهَـا   نَـواسِمٌ عَطَّـرَ الأَرْجَـاءَ مَسْرَاهَـا

هَـبَّتْ صبَاهَـا بلقْيَاهَـا مُـبَشِّرَةً   فكُلُّ قَلْبٍ صَبَا وَجْدًا لِذِكْرَاهَـا

ذِكْرَى لَهَا انْعَطَفُوا فوْقَ الرِّحَالِ فَمَا   مَـالَتْ بأَعْطافِهِـمْ إلاَّ مُحَيَّاهَـا

لِلهِ أَفْئِـدَة في القُـرْبِ رَاحَتُهَـا   لِلْوَجْـدِ طَاعَتُهَا بالبُعْـدِ شَكْوَاهَـا

ورُبَّ سَاحِـرَةِ الألْحَـاظِ فَاتِنَـةٍ   ما كُنتُ أعْرِفُ مَعْنَى الحُبِّ لوْلاَهَا

لَمَّا انْثَنَتْ وَثَـنَتْ عَنَّا مَحَاسِنَهَـا   مـا كَـانَ أعْدَلَهَا قَدًّا وَأعْدَاهَـا

مَنْ هامَ فيهَا بعَيْنِ الفِكْرِ أبصَرَهَا   وَفِي الكَرَى زَارَهَا والوَهْم ناجَاهَا

هَذِي مَعاهِدُ مَنْ هَامَ الفؤَادُ بِهَا   لِلـهِ فيهَـا عُهُـودٌ قَـدْ ألِفْنَاهَـا

انَّـا لنُلْقِي حَديثًا مِـنَ صَبَابَتِنَـا   فيَـاَ نَسِيـمَ الصَّبَـا بلِّغْـهُ إيَّاهَـا

وَلاَ تُجِبْ بكَـلاَمٍ فالنَّـواسِمُ مَـا   هَـبَّتْ عَلى رَبْعِهَـا إلاَّ عَرَفْنَاهَـا

مَا راقَ إلاَّ بِمَرْءاهَا [الصَّباحُ] وَلاَ   رَقَّتْ نَواسِمُـهُ إلاَّ بَرِياهَـا

لِلزُّهْـرِ بَهْجَتُهَـا لِلزَّهْـرِ نفْحَتُهَـا   لِلبَـدْرِ طَلعَتُهَـا لِلسِّحْـرِ مَرْآهَـا

لِلـدُّرِّ ألفَاظُهَـا لِلبَـرْقِ مَبْسِمُهَـا   لِلْغُصْنِ مَعْطِفُهَـا لِلظَّبْـيِ عَيْنَاهَـا

لَمْ يُرْقَبِ البَدْرُ إلاَّ مِن مَطالِعِهَا   لَمْ يُعْرَفِ الفَجْرُ إلاَّ مِن مُحَيَّاهَا

فَلَيْتَهَا حِينَ تُبْـدِي صُبْحَ غُرَّتِهَا   تَهْدِي فَتَاهَا فَفي لَيْلِ الهَوَى تَاهَا

وعاذِلٍ رَاعَنِـي أنْ بتُّ ذا قَلَـقٍ   أُسائِلُ الشُّهْبَ عَن لَيْلَى وَأرْعاهَا -187-

فقَـالَ مـالَكَ والشُّهْبَـانُ تَرْقُبُهَـا   فقلتُ فِيهِنَّ مِنهَـا خِلتُ أشبَاهَـا

فقالَ قدْ أتلَفَتْ مَنكَ الفؤادَ أسًى   فَقلتُ ان أتْلَفَتْـهُ فهْـو مَثْوَاهَـا

فقَـالَ مَالَكَ وَالأطْـلاَلَ تَنْشُدُهَـا   فقُلْتُ هِـمتُ بمغْنَاهَـا لِمَعْنَاهَـا

فَقالَ قَدْ هِمْتَ مِنْ بعْد السُّلُوِّ بِهَا   فقَـلت لَـمْ تَثْنِنِـي إلاَّ ثَنَايَاهَـا

فقالَ هَلْ لَكَ في أحْلَى سَنًى وَحُلاً   فقلتُ دَعْ غَايَةً أبْعَدتْ مَرْمَاهَـا

فقالَ لِي غَـادَةٌ تُـنْسِيكَ بَهْجَتَهَـا   فَقلتُ مَهْلاً فإنِّي لَسْتُ أنسَاهَـا

فَقالَ غادِيَةٌ لِلْفِكْرِ قَـدْ نَشَأَتْ   فَقلْتُ مَا أحْوجَ الظَّامِي لِسُقْيَاهَـا

فَقَالَ اهْدَاكَهَا مَن عَزَّ مُشْبِهُـهُ   فقـلْتُ لِلَّـهِ هَـادٍ مِنْـهُ أهْدَاهَـا
فَقالَ مِنْ بَحْرِهِ أَلْقَى بهَـا دُرَرًا   فقـلْتُ أَبْدَعَهَـا نَظْمًـا وَأَبْدَاهَـا
فقال عهْدِيَ بالآدابِ قَـدْ تَلِـفَـتْ   قُلْتُ ابْنُ حاتِمٍ الأَرْضَى تَلاَفاهَا
فقـالَ قَـدْ كانَتِ الآدابُ عاطِلَـةً   فقلْتُ هَذا الذِي بالسِّحْرِ حَلاَّهَا
كَذاكَ جِنْحُ الدُّجَى كَمْ فيهِ مِن سُدَفٍ   ومَا أَتَى ابْـنُ جَـلاَ إلاَّ وَجَلاَّهَـا(*)
هَذِي قَوافٍ عَلَى اسِّ النَّسِيبِ إلَى   خِطاب عُلْياك قَدْ شَيَّدْتُ مَبْنَاهَـا
أَقُول يَاراكِبَ الوَجْناءِ أَيْـنَ بِهَـا   تَخُبُّ تبغِي مِـن آلامَـالِ أقصَاهـا
إنْ كَنتَ تَهْوَى مِنَ الآدابِ أَرْفَعَهَا   قَـدْرًا وأَحْفَلَهَـا حـالاً وأَحْفاهَـا
يَمِّمْ عَلَى ظَماٍ مَثْوَى ابْن حاتِمِهَا   تَفُـزْ بأَعْذَبِهَـا وِرْدًا وَأَحْلاَهَـا
مَن يعْشُ لِلزُّهْرِ مِنْهَا حِينَ يُطْلِعُهَا   يجِـدْ زُهَيْـرَ قَوافيهَـا وأَعْشَاهَـا
واسْئَلْ عُلاَهَا تُنِلْ كَفَّيْكَ نائِلَهَـا   إنَّ المكَـارِمَ بَعْضٌ مَن سَجَايَاهَا
هَذِي القَوافلُ تَاتِيهَـا لِتَظْفَـرَ مِـنْ   تِـلْكَ القَوافِـي بأَحْلاَهَا وأَجْلاَهَـا
رِكَابُهُمْ صَدَرتْ عَنْهَا وقَدْ وَرَدَتْ   مَـوارِدًا مِـنْ عَطَايَاهَـا مَطايَاهَـا
تُبْدِي الجَمَالَ وَتُولِينَا الجَمِيلَ فَمَا   أحقَّهَـا بالعُلَـى حَقًّـا وأَوْلاَهَـا
خُذْهَا أَبَا قاسِمٍ حَسْناءَ لَيْسَ لَهَا   كُفْؤٌ سِوَى مَن أَرَتْ كَفَّاهُ حُسْنَاهَا
تُبْدِي الجَوَابَ وقَدْ كِدنَا نَذوبُ جَوًى   لَـوْلاَ مَـوارِدُ آدابٍ وَرَدْنَاهَـا -188-
ولْتَصْفَحَن كَرَمًا فالعُذْرُ أَوْضَحُ مِنْ   نَارِ القرَى يهْتدِي السَّارِي لِمَغْنَاهَا
إنَّ المحَامِـدَ أَلْفـاظٌ ومَـا وَرَدتْ   عَلَى المَسامِـعِ إلاَّ كُنْتَ مَعْنَاهَـا
وإنَّ أَمْـداحَ مَولاَنَـا وَخِدْمَتَـهُ   قد تشْغل الفِكْرَ إلاَّ إن تَعاطَاهَا
وكيـفَ لاَ يَتعاطَى كُـلَّ آوِنَـةٍ   مَا يُكْسِبُ المُنْجَدِيْنِ المَالَ والجَاهَا
فَنـاصِرُ الدِّيـنِ تَسْتَجْلَـى مَناقِبُـه   وَلَيْسَ يُفْـرَغُ فِي العَلْيـاءِ مَرْقاهَـا
أَحْلَى مُلُوكِ الوَرَى هَدْيًا وأَكْثَرُهَا   نَـدًى وأَرْفَعُهَـا قَـدْرًا وأَعْلاَهَـا
لِذاكَ قَصَّرتُ عَن رَدِّ الجوابِ عَلَى   شِعْرٍ سَنَاهُ سَنَى الشِّعْرَى بِهِ بَاهَى

(*) السُّدَف : الظُّلَم، وابنُ جَلا : الصَّباح.

للحُسْنِ منهُ ولِلإِحْسَانِ كَمْ مِنَحٍ ... مُسْتَحْسَنٍ قَصْدُهَا الأَرْضَى وَمَنْحَاهَا
لأَزَالَ نَاظِمُهُ حَتَّى يُبَلِّغَ مِن ... مَرَاتِبِ العِزِّ أسمَاهَا وأَسْنَاهَا
ودامَ يَهدِي بمَا يُهْدِي الأَنَامَ فَفِي ... طُولِ البَقَاءِ لَهُ نَسْتَوْهِبُ اللَّهَ

وكَتَب إلَيّ الفَقيهُ القاضِي أبُو الفَضْل ابْنُ جَماعَةَ حفِظَهُ اللَّهُ أبياتًا فيمَا يَظهَرُ مِنْهَا(278)

أَبُعْدًا ومَا أَزْمَعْتُ سَيْرًا ولاَ شَحْطًا ... ونَأْيًا ولمْ يَنْأَ المَزارُ ولاَ شَطَّا
وَصَوْبَ بَيَانٍ وانثِيَالَ بَلاَغَةٍ ... ورَوْضُ ودَادِي يَشْتَكِي المحْلَ والقَحطَا
وَكَمْ رمْتُ بَثَّ الوُدِّ ثُمَّتَ عَاقَنِي ... قُصُورِي فَما أَعْمَلْتُ فِي بَثِّهِ خَطَّا
ولمَّا تَنَاهَى الوُد بِي واسْتَفَزَّنِي ... وَأَوْرَى زِنَادُ الشَّوْقِ في مُهْجَتِي سقْطًا(278م)
خَطَبْتُ بِهَذِي منكَ بِكْرًا فَرِيدَةً ... جَعَلْتُ لَهَا حِفْظِي وتَكْرِمَتِي شَرْطَا
فَيَا حُسْنَهَا لَوْ آثَرتْ بِوصالِهَا ... ونِلْتُ نَفِيسَ الدُّرِ مِن لَفْظِهَا لَقْطَا
فأنت الذي فُقتَ الأَنَامَ بَرَاعَةً ... وأضْحَى إِيَاسٌ عَنْ ذَكَائِكَ مُنْحَطًّا
فَنَظْمٌ تَوَدُّ الزُّهْرُ نَاصِعَ دُرِّهِ ... عَلَى نَحْرِهَا سِمْطًا وفِي أُذْنِهَا قُرْطَا
ونَثْرٌ يَوَدُّ الزَّهْرُ رَوْنَقَ حُسْنِهِ ... إذَا لَقِيتَ مِن وابِلٍ هَاطِلٍ قِسْطَا -189-
وخَطٌّ يُبَاهِي الرَّوْضَ غِبَّ حَيَائِهِ ... فإنْ خطَّ فَالوَشْيُ اليَمَانِيُّ قَدْ خَطَّا(279)

---

(278) ورد ذكر الفقيه القاضي أبي الفضل ابن جماعة في نيل الابتهاج وأزهار الرياض خلال ترجمة الفقيه الشران، وفي المصدرين المذكورين نقرأ الحكاية الآتية : «ذُكِرَ أنه لَمَّا صُرِفَ الفقيه أبو الفضل ابن جماعة عن رياسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة بها، وولي مكانه صاحب الترجمة أبو عبد الله الشرّان، لقي بعض رؤساء الدولة ابن جماعة يومًا، فقال له : إن السر الذي عهدناه في الحضرة غاب عنها بغيبتك، فقال له : وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع وأخذتم الشر المكرّر» نيل الابتهاج : 312 وأزهار الرياض : 134.

(278م) الود : كُتِب فَوقها : الحب، وكأنّها اقتراح حتى لا تتكرّر كلمة الود.

(279) يشير إلى جمال خط أبي الحسين ابن فركون، ونتأكّد من هذا الوصف بمشاهدة مخطوط مظهر النور الباصر الذي كتبه كلّه بخطّه.

فأنتَ فَريدُ العصْرِ غيْرَ مُنَـازَعٍ   ومُنْكِرُ ذَا عيْنَ الحقِيقَةِ قدْ غَطَّا

فكتبتُ عَلى ظَهْرِ بطاقتِهِ مُرتجلا في التاسِعَ عشرَ لِجُمدى الآخرة عام تسعَةٍ وثمَاني مائة

فتاةٌ بِرَبْعِي رَحْلُهَـا سَحَرًا حُطَّـا   ولِلَّيْلِ فَوْدٌ بالصَّباحِ قـدِ اشْمَطَّـا
فَلـوْ جِئْتُهَـا بالبَـدْرِ تاجًـا مُكَلَّـلاً   بِدُرِّ الـدَّرَارِي أوْ بِجَوْزائِهِ قُرْطَـا
وأهْدَيْتُهَا وُشْحًا منَ البَرْقِ مُذْهَبًا   ونَظَّمْتُ مِن زُهْرِ النُّجومِ لَهَا سِمْطَا
لَمَا كنتُ قَدْ وفِّيتُ بَعْضَ حُقُوقِهَا   ولاَ كانَ عَدْلاً مَا وَهَبْتُ وَلاَ قِسْطَا
وإنَّ أبَاهَا في ذَوِي النَّظمِ أوْحَدٌ   فَلوْ نُظِمُوا عِقْدًا لَكانَ لهُ وُسْطَى
ولـوْ أنصَفَ الدَّهْرُ الأبِيُّ قِيَـادُهُ   وَعَوَّضَتِ الأيَّامُ مِن قَبضِهَا بَسْطَا
ورَامَتْ بالاسْتِحْقَـاقِ إعْـلاءَ قَـدْرِهِ   لَمَا كانَ عن أعْلَى المراتِبِ مُنْحَطَّا
أمَـا هـذِهِ أبْكَـارُ أفكَـارِهِ التـي   تَجَلَّتْ فَلَمْ تَرْضَ النجُومَ لَهَا رَهْطَا
تَرامَتْ بـدُرِّ اللَّفْظِ أبْحُرُ فِكْـرِهِ   وحَلَّتْ لَدَيْهِ الطِّرْسَ تحسِبُهُ شَطَّـا
فَدونَكَ زُهْرَ الأفْقِ فَاسْتَجْلِ نُورَهَا   وَدونَكَ زَهْرَ الروْضِ فلتجنِهِ لَقْطَا
أبَا الفَضْلِ لا تَسْتَبْطِ حَظًّا من العُلَى   سَتَبْلُغُ مَا أمَّلتَ مِنهُ وإن أبْطَـا
فَفي حُكْمِكَ الآدابُ مُلِّكْتَ رِقَّهَا   وهَلْ مانِعٌ من ذاكَ واللّهُ قدْ أعْطَى
ودونَكَهَا مِن خالص الوُدّ قَلبُـهُ   لميثَاقِهِ قدْ أحْكَـمَ العَقْـدَ والرَّبْطَـا

وكتَبْتُ إليْهِ أسْتَدْعِي مِنْهُ جوابًا اختِبارًا لِقريحَتِهِ بتَاريخ السَّادِسِ والعِشْرينَ لجُمَدى الآخِرَة عام 809

-190-

جُفونٌ بهَا ما إنْ يُلِمُّ رُقادُهَـا   لَهَا أمَلٌ في الطَّيْفِ لوْلاَ سُهَادُهَا

مَدامِعُهَا تُذْكِي جَوَى القلبِ كُلَّمَا ... تُعاهِدُهُ الذِّكرى تَجُودُ عِهَادُهَا
وإنَّ التي قدْ هِمْتُ فيهَا صَبابةً ... جَديدٌ إذا يَبْلَى الزّمانُ وِدادُهَا
هِيَ الشَّمْسُ في أُفْقِ الفُؤادِ طُلُوعُهَا ... هِيَ الظَّبْيُ مَا بَيْنَ الضُّلوعِ مرادُها
لقَدْ جُمِعَتْ فيهَا المَحاسِنُ كُلُّهَا ... فَصَحَّ بأشْتَاتِ الجَمَالِ انفِرادُهَا
لقدْ رقَّ جسْمِي مِن هَواهَا فَلَيْتَهَا ... يَرِقُّ لِحَالِ المسْتَهَامِ فُؤادُهَا
رسائِلُ وجْدِي صَفْحَةُ الخَدِّ طِرْسُهَا ... ودَمْعِي كَما شَاءَ الغَرامُ مِدادُهَا
متَى بَعُدَتْ عنّي أثيرٌ مَحَلُّهَا ... لَدَيَّ وَفي قَلْبي وَثيرٌ مِهادُهَا
فَيا أيُّهَا القَلبُ المقلَّبُ في الجَوَى ... بمَثْواكَ سُكناهَا فكيفَ بعَادُهَا
ويَا مَعْشَرَ العذَّالِ كُفُّوا فإنَّهَا ... نُفوسٌ تَساوَى غَيُّهَا وَرَشَادُهَا
دَعُوهَا تَهِمْ وجْدًا بسَلْمَى فإنّهَا ... إذا خُيِّرتْ في الدَّهْرِ فهْيَ مُرادُها
تَميلُ بهَا الذِّكْرى إلَى زَمَنٍ مَضَى ... عَلَى اللهِ في الرُّجْعَى إليْهِ اعتِمَادُهَا
نَعَمْ دَوْلَةُ العُشَاقِ هاذِي وإنّني ... كَمَا قدْ عَلِمْتُمْ رُكْنُهَا وَعِمَادُهَا
ألاَ بأبِي تِلكَ العُهودُ التِي انقضَتْ ... أَيُرْجَى وَقَدْ مرَّتْ إلَيْنَا مَعادُهَا
ولَكِنَّهَا الأيَّامُ تبْخَلُ بالمُنَى ... عَزِيزٌ عليْهَا أن يُنالَ قِيادُهَا
فكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا بوَجْهِ نَديمِنَا ... وَشَمْسِ حُمَيَّا الكاسِ يُجْلَى سَوادُهَا
ونحنُ عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ نُديرُهَا ... مُشَعْشعةً في الكَاسِ يَبْدو اتِّقَادُهَا
وجالَتْ جِيادٌ لِلكُؤوسِ سَوابِقٌ ... أقيمَ بمَيْدانِ السُّرورِ طِرادُهَا
فَفي أُفْقِ الحَالاَتِ لاَحَتْ بدُورُهَا ... وفي طَلَقِ اللَّذّاتِ جالَتْ جِيادُهَا
فَيا ليتَهَا يَوْمًا تَجودُ بعَوْدَةٍ ... وَيُمْكِنُ مِن بَعدِ النِّفَارِ انقِيَادُهَا
وَلَوْلاَ ابنَةُ الفِكْرِ التي وردَتْ ضُحَى ... عَلَيَّ وفي رَوْضِ البيَانِ ارْتِيادُهَا
لَمَا رامَتِ السُّلْوانَ نَفْسُ مُتَيَّمٍ ... فَغَيْرُ التَّسَلِّي دِينُهَا واعْتِقادُهَا
ومِنْ شأنِهَا بذْلُ المودةِ دائِمًا ... ومَا الوُدُّ إلاَّ ذُخْرُهَا وعَتادُهَا -191-
أبَا الفَضْلِ بَادِرْ بالجَوابِ ضحَى غَدٍ ... فإنَّ بكَ آلآدابَ وَارِ زِنَادُهَا

وَوَجْهُ بهَا مِن خِدْرِ فِكْرِكَ غَادَةٌ تَـرُوقُ جَمَـالاً لاَيُـرَامُ عِنَادُهَـا
فإنّ المَعَانِـي كُلَّمَـا رُمْتَ نَظْمَهَـا لِيَسْبِقَ في شَاوِ المَعَالِي جوَادُهَـا
أزَاهِـرُ نَثْـرٍ أيْـنَ مِنهَـا زُهَيْرُهَـا جَواهِرُ نظمٍ أيْنَ مِنها زِيادُهَـا[279م]
فَمـا هـذِهِ إلاّ سِهَـامُ بَلاَغَـةٍ إذا سُدِّدَت للرَّمْـيِ بَـانَ سَدادُهَـا
ومَـا هـذِهِ إلاّ غُصُونُ يَراعَـةٍ إذا ثُقِّفَتْ بالكَتْبِ خِيفَتْ صِعَادُهَا
ومَـا هَـذِهِ إلاّ سُيُـوفُ بَراعَـةٍ بعَاتِقِ مَن يُهْدِي جَوابِي نِجادُهَـا

وَكَتَبَ إلَيَّ بعْدَ ذلِكَ مَعَ نَثْرٍ في معْنًى أجَبْته عَلَيْهِ

يـا أوْحَـدًا فـاقَ الأنَـامَ ذَكَـاءَ وَعَـلاَ السُّهَـا مِقْـدَارُهُ وذُكَـاءَ
أحْيَـيْـتَ لِـلآدابِ أيَّ مَعَاهِـدٍ فَغَدَتْ بكُمْ ما ان تَخَافُ عَفاءَ
أطْلَعْتَ مِن شُهُبِ النِّظامِ زوَاهِرًا أضْحَتْ لَها وَرَقُ الطُّرُوسِ سَماءَ
للـهِ مـنْكَ بِطاقَـةٌ بَـلْ رَوْضَةٌ غَيْنـاءُ تُـنْسِي الـرَّوْضَةَ الغَنَّـاءَ
كالـدُّر لَفظًـا والمُدامَـةِ فَعْلَـةً والشَّمْسِ تُشْرِقُ بهجَـةً وَضِيَـاءَ
جَرَّرْتُ حِينَ فَهِمْتُ فَحْوَى نَظْمِهَا ذَيْلِي بِهَـا مِـن حُسْنِهَا خُيَـلاَءَ
لِلّـهِ مـنْكَ جَلاَلَـةٌ قُرَشِيَّـةٌ أرْبَتْ عَلَى شُهُبِ السَّمـاءِ عَـلاَءَ
نَسَبٌ شَرِيفٌ قَـد تَصَحَّحَ مَتْنُـهُ فالفَجْـرُ مَـنشُورٌ عَلَيْـهِ لِـواءَ
أأبـا الحُسَيْنِ انْعَـمْ بمَـا أُوتِيتَـهُ مِـن أنْعُـمٍ بَهَـرَت سَنًـا وسَنـاءَ
وبَقِـيت تصْعَـدُ والزّمـانُ مسَاعِـدٌ حتَّـى تسامي الطَّرْفَ والجَـوْزَاءَ(*)

فأجَبْتُهُ وفِي الثالِث لرجَب عَامِ تسعَة وثماني مائة

أهْـلاً بهَـا بكْـرًا أتَتْ عَـذْراءَ تَجْلُـو عَلَيْنَـا غُـرَّةً غَـرّاءَ -192-

(*) الطَّرْف : كوكبان يقْدُمانِ الجبهة، سُمِّيا بذلك لِأنَّهما عينا الأسد، ينزلهما القمر. (القاموس).
(279م) زياد هنا هو النابغة الذبياني.

أَلْفاظُهَا تُنسِي الجِيادَ تَسابُقًا   لِمَدَى الإجادَةِ والسُّيوفَ مَضاءَ
أبصَرْتُهَا سَحَرًا وكانتْ قدْ أتَتْ   رَبْعِي كَما شَاءَ الوِدادُ مَساءَ
مَا كنتُ أدْرِي أنَّ ليْلاً مُطْلِعٌ   من قبْلِ انْ ورَدَتْ عَليَّ ذُكَاءَ
لَكِنَّنِي ما نِلتُ مَنحَ وَصالِهَا   حَتَّى بدَا نُورُ الضُّحَى وأضاءَ
وَافَتْ لبَسْطِ العُذْرِ في النظمِ الذِي   فَاقَتْ حُلاَهُ الغَادَةَ الحَسْنَاءَ
مَهْلاً أبَا الفَضْلِ الذي في فَضلِهِ   وَوِدَادِهِ تَرَكَ الأنَامَ وَرَاءَ
مَا شِيمَتِي ذمُّ الصَّدِيقِ وإنَّمَا   أهْدِيهِ شُكْرًا دائِمًا وَثنَاءَ
وإذَا جفَانِي مَن وَثِقتُ بوُدِّهِ   كان الجزاءُ السَّمْحَ والإغْضَاءَ
ما إنْ يُعَامِلنِي بسُوءِ قَطِيعَةٍ   إلاَّ بَذَلْتُ مَوَدَّةً ووَفَاءَ
هَذا فكيْفَ بمَن أنالَ وِدَادَهُ   مَحْضًا ومَدَّ خُلُوصَهُ أفْيَاءَ
كَذَّبْتُ نَفْسِي إنْ أنا قدْ سُمْتُهُ   بَعْدَ الإطَالَةِ في الثَّنَاءِ هِجَاءَ
عَجَبًا يُقالُ أساءَ في مَنظُومِهِ   خِلٌّ أنالَ خَلِيلَهُ مَا شَاءَ
مَن جاءَ يَنْسُبُ لِي كَلاَمَ إسَاءَةٍ   فهُوَ الذِي قَدْ قالَهُ وَأسَاءَ
نَظْمِي الذِي طَلَبَ الجوابَ ضحًى عَلى   جِهَةِ التَّأنُّسِ لاَ التَّعَنُّتِ جَاءَ
هَذا وَشِعْرُكَ مَا عَلِمْتُ حَدِيقَةٌ   تُبْدِي مَحَاسِنُهَا سَنًا وَسنَاءَ
تُنسِي شَمائِلُهُ الشَّمَائِلَ كُلَّمَا   وافَتْ تَعُودُ الرَّوْضَةَ الغَنَّاءَ
هَيْهَاتَ لاَ تَخفَى مَعَانيهِ التي   رَقَتْ ورَاقَتْ بَهْجَةً وَضِيَاءَ
لاَ تَحْفِلَنَّ بِمَن أتَى مُتعَرِّضًا   لِلْقَولِ لاَ يَثْنِي العِنَانَ حَيَاءَ
فَلِذِكْرِ خَصْلِكَ لاَ أزالُ مُرَدِّدًا   وبِشُكْرِ فَضلِكَ أعْمُرُ الأندَاءَ
شَيَّدتُ مَبْنَى الوُدِّ في قَلْبِي فَلَنْ   يخْشَى عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ عَفَاءَ

-193-

وكَتَبْتُ لِلْفَقيهِ أبي عَبْد اللّه بْن الأكْحَل وَقَدْ وجَّهَ إليّ بشَيْءٍ منَ التِّينِ الدُّنْقَالِ عَلى سَبيلِ المُداعَبَة وكانَ في ذلِكَ العَهْدِ مَعَ كتّاب المَقام وفي الثّالِث لِصَفَر عام تسْعَة وثماني مائة(280)

وصَلَتْنِي تُحْفَةٌ ⁂ تُجْتَلَى فَوْقَ الطَّبَقْ
مِن بَنَاتِ الزِّنْجِ قَدْ ⁂ نُظِّمَت عَلَى نَسَقْ
أُجْلِسَتْ فِيهِ عَلَى ⁂ فُرُشٍ مِنَ الْوَرَقْ
ظُلِّلتْ وُجوهُهَا ⁂ بِرَيَاحِينِ الحَبَقْ
أُلْبِسَتْ أجْسَامُهَا ⁂ حُلَلاً مِنَ الْغَسَقْ
بِرُقُومٍ قَدْ بَدَتْ ⁂ في دُجَاهَا كَالشَّفَقْ
ذَاتَ لَوْنَيْنِ كَمَا ⁂ يُجْتَلَى حُسْنُ الحَدَقْ
بِمَحَاسِنٍ أتَتْ ⁂ فِرَقًا بَعْدَ فِرَقْ
كُلَّمَا قَدْ رُمِقَتْ ⁂ حسنُهَا أحْيَا الرَّمَقْ
مِن صَديقٍ مَن يَقُلْ ⁂ فِيهِ ذُو الفَضْلِ صَدَقْ
عَاجِزٌ عَن شُكْرِهِ ⁂ كُلُّ ذِي لَفْظٍ نَطَقْ
لِنَدًى أوْ لِعُلًى ⁂ أوْ لِجَمْعِ مَا افْتَرَقْ
عَوِّذُوا مُهْدِيَهَا ⁂ بالتِي تَتْلُو الفَلَقْ

---

(280) أبو عبد الله ابن الأكحل من بيت كان أهله يتولّون الخطط. انظر الاحاطة 3 : 204. أما الدنقال فهو كما يبدو من وصفه تينٌ أسود مخطّط، وقد ورد ذكره أيضا في الروض المتون لابن غازي.

فأجابَ بأبْياتٍ حَقُّهَا الإلْغاءُ

كَتَب إلَيَّ عنْدَ الوُقوفِ عَلَيْهَا الفقيهُ الكاتِبُ أبُو القاسِم ابْن أحمد بنْ أبي القَاسِمِ بْن قُطْبَةَ رحمَهُ الله ما نَصُّهُ[281]

-194- قَسَمًا يَا سَيِّدِي بالدُّجَى ومَا وَسَقْ
وبمَنْ سَوَّى الوَرَى كَيفَ شَاءَ مِنْ عَلَقْ
وَبآياتٍ أرَى في جميعِ مَا خَلَقْ
مَا سِواكَ شَاعِرٌ كُلَّمَا جَارَى سَبَقْ
جامِعٌ مِنَ العُلَى كُلَّ مَعْنَى افْتَرقْ
لاَ وَلاَ كَقِطْعَةٍ رَاقَ مَعْنَاهَا وَرقْ
وَفَدَتْ مِنْ عِنْدِكُمْ مِثْلَ عِلْقٍ اتَّسَقْ
تَصِفُ التِّينَ وَقَدْ وَصَلَتْكَ في طَبَقْ
قَدْ حَكَتْ ألْوانُهَا قِطَعًا مِنَ الغَسَقْ
بخُطُوطٍ فَوْقَهَا كَبيَاضٍ وَشَفَقْ
مِنْ خَلِيلٍ قَلْبُهُ لكَ بالوُدِّ صَدَقْ
مُغْرَمٍ بالجُودِ فِي مُغْتَدَى ومُغْتَبَقْ
انْ يكُنْ أهْدَاكَ مَا زانَهُ نُورُ الحَبَقْ
فَلَقَدْ أهْدَيْتَهُ دُرَرًا عَلَى نَسَقْ
وَحُرُوفًا ابْهَجَتْ طَرْفَ كُلِّ مَنْ رَمَقْ

(281) أبناء قطبة متعدّدون، ترجم ابن الخطيب وغيره لبعضهم وكلهم كانوا من النابغين في الأدب، وقد نبغ أحدهم في الشعر وهو صغير، فدعاه ابن الخطيب : الصبي الشاعر، وألحق بديوان الكتّاب من أجل ذلك.
الكتيبة الكامنة : 296 والاحاطة 2 : 250 والدرر الكامنة4 : 167 ونثير فرائد الجمان : 318 وريحانة الكتاب. وراجع تراجم أعلام هذه الأسرة في المصادر المذكورة.

وفُنونَ الحسْنِ قَدْ جُمِعتْ عَلَى فِرَقْ
يَالَهَا مِن قِطعَةٍ سَحَرَت والسِّحْرُ حَقْ
دُمْتُمَا فِي عِزَّةٍ كُلَّمَا بَرْقٌ خَفَقْ
وَالدَّياجِي عَسْعَسَتْ وَبَدَا ضَوْءُ الفَلَقْ
وانثَنَى غُصنُ النَّقَا بَيْنَ حُلَّةِ الوَرَقْ

فَراجَعْتُهُ لِلْحِينِ بمَا نَصُّهُ وَبتَاريخِ العَاشِرِ لِرَبيعِ الآخِرِ عَام ثمَانِيةٍ وَثمَانِمَائة

طَيْفُهَا حِينَ طَرَقْ عَاقَنِي عنهُ الأَرَقْ -195-
بتُّ مِن شوْقِي لَهَا بَيْنَ سُهْدٍ وَقَلَقْ
وغَرَامٍ وَضَنًى ولهيبٍ وَحُرَقْ
وَحَدِيقَةٍ بِهَا مُتِّعَتْ مِنَّا الحَدَقْ
بنتُ فِكْرٍ جُلِيَتْ مِثلمَا يُجْلَى الفَرَقْ
سَكَّنتْ قلبًا لَهَا طَارَ وَجْدًا وخَفَقْ
نَقَعتْ مَا كانَ فِي لاَعِجِ الشّوْقِ احْتَرَقْ
أجْمَعَ الحسْنُ عَلَى أنْ حَوتْهُ وَاتَّفَقْ
فَضَحَتْ نَوْرَ الرُّبَى أخْجَلَتْ نُورَ الشَّفَقْ
فاحْمِرَارُهُ حَيًا واصْفِرارُهُ حَنَقْ
دُرُّهَا نُضِّدَ مِنْ طِرْسِهَا فَوْقَ السَّرَقْ
لَفْظُهَا وُرْقٌ شَدَتْ بَيْنَ هَاتِيكَ الوَرَقْ
بكَ يَا ابْنَ قُطْبَةٍ لُؤْلُؤُ الفَضْلِ اتَّسَقْ
أيُّ فَرْعٍ مِنكَ فِي دَوْحَةِ المَجْدِ بَسَقْ
فَلِسَاني لَمْ يَزَلْ شاكرًا مَتَى نَطَقْ

بَحْــــرُ نَظْـــــمٍ لِـــــعَصًى ... مِـــن يَــــرَاعِكَ انفلَـــــقْ
جبْرُهَـــــا يَـــرُوعُ مَـــــا ... في السَّبَـــاقِ مِـــن زَرَقْ
وَرَئِيسُنَـــــا بِــــــهِ ... سُوقُ نَظْمِنَـــــا نَفَـــــقْ
جَـــدْوَلُ النِّظَـــامِ مِـــنْ ... بَحْـــرِ عِلمِـــهِ دَفَـــقْ
هَدْيُـــــهُ أجْلَــــى إذَا ... لاَحَ مِـــن نُـــور الفَلَـــقْ
وَسَحَـــابُ رِفْـــدِهِ ... لِلعُفَـــاةِ قَـــدْ بَـــرَقْ
دُمْتَ بَـــدرًا يُهْتَـــدَى ... بِسَنَـــاهُ في الـــغَسَقْ

-196- وقلْتُ مُخاطبًا مَن حضرتُ لَيْلَةً في إعْراسِهِ وَطَلبَ منّي الحاضِرونَ وَصْفَهَا

يَا وَحيدَ النَدَى وقُطْبَ المَعَالِـي ... زَاحَـمَ الشُّهْبَ مُرتَقَـاكَ العَالِـي
لُـحْتَ كالشمْسِ بَهْجَـةً وَعَـلاَءً ... فاقتِـرابُ السَّنَـى وبُعْـدُ المَنَـالِ
والذِي حُزتَ يقْصُرُ الوَصْفُ عَنْهُ ... مِن جَميلِ الحُلاَ وَغُرِّ الخِـلاَلِ
شِيَـمٌ تَـقْصُرُ الأمَاجِـدُ عَنْهَـا ... بِحُلاَهَـا جِيدُ المَكَـارِمِ حَـالِ
وَأوانُ الإمـلاَكِ أسْعَـدُ آتٍ ... بُوجُـوهِ القَبُـولِ وَالإقبَـالِ
قَـدْ نَعِمْنَـا فِيـهِ بِلَيْلَـةِ أُنْسٍ ... عَرَّفتنـا عَـوَارِفَ الإفْضَالِ
لَسْتُ أنْسَى الإحْسَانَ والحسْنَ مِنْهَا ... شَفَـعَتْ لِـي الجَمَـالَ بالإجْمَـالِ
وأفـادَتْ سَمْعِـي وكَفِّـي غِنَـاءً ... وغِنًـى رَاقَنِـي ونَعَّـمَ بَـالِ
صَوْتَ شَادٍ عَلى تَرَنُّـمِ عُـودٍ ... يَهَبُ السُّولَ مِنـهُ قَبْـلَ السُّؤالِ
عُـودُهُ ناطِـقٌ بغَيْـرِ لِسَانٍ ... بخَفِّـي الضَّمِيـرِ دونَ مَقَـالِ
نَغَمـاتٌ عَـنِ المَرينـيِّ تُـرْوَى ... وهْـيَ بالمَوْصِلِـيِّ ذاتُ اتِّصالِ[282]

(282) المريني نسبة إلى بني مرين، ويبدو أنه كان من أعلام الموسيقى في الأندلس والمغرب، والموصلي هو إسحاق المعروف.

ولَكَـمْ رَاقِصٍ يَـرُوقُ انعطافًـا   كَـقَضِيبٍ في دَوحِـهِ مَيَّـالِ
طَرَبًـا مَـالَ عطْفُـهُ وتَثَنَّـى   كالرُّبَى في يَـدِ الصَّبَا والشَّمَـالِ
وأنَـارَتْ لِلشَّمْـعِ فيهَـا نُجـومٌ   تُجْتَلَى عِنـدَ نَقْصِهَا في اكْتِمَـالِ
كُلُّ قَلْبٍ مِنَّـا بهَـا في اشْتِغَـالٍ   كُلُّ جِسْمٍ مِنهَـا رَهِيـنُ اشتِعَـالِ
وكَـأنَّ الـذي تسَاقَـطَ منهَـا   زَهَرُ الروْضِ بَيْـنَ فَـيْءِ الظِّـلاَلِ
لاَ تُوَفِّـي بَـعْضَ الـذِي رُمْتُ مِن وَصْـفِ حُلاَهَا رَوِيَّتِي وَارْتِجَالِي
فاقبَـلِ العُـذْرَ انَنِـي مُسْتَقِـلٌّ   هِبَـةَ النَّـفسِ عِنْدَهَـا والْمَـالِ
شيمَةُ الفضلِ لمْ تَزَلْ مِنكَ تُرْجَى   ولَـدَيْكَ القَبُـولُ رَحْبُ المَجَـالِ
قدْ أنلْتَ الجميعَ كُلَّ جميـلٍ   نِـلتَ مَـا تبتَغي مِـنَ الآمَـالِ

-197- وكانَتْ بَيْني وبَيْنَ الفَقيهِ أبي زكَرّيَا يَحيَى بْن السَّرَّاجِ مِن أهْلِ رُنْدَةَ مُكَاتَبَاتٌ أيَّامُ القِراءَةِ إلَى أن زَلَّتْ بِهِ قَدَمُه، وَخانَتْهُ هِمَمُه، ونَزعَ أيَّامَ فتنَةِ الرَّئيسِ البائِسِ الواصِلِ إلى جبَلِ الفتحِ إلَيْهِ، ثمّ اسْتَقَرّ أخيرًا بفَاسٍ وَبِهَا وافَتْهُ مَنِيَّتُهُ، أعَاذَنَا الله مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ، فمِن ذلِكَ مَا خَاطَبْتُهُ بهِ في آخر ذِي الحجَّةِ من عَامِ ثَمانِيةٍ، وهِيَ وكَثِير مِمَّا تقدَّم وَما يَاتِي إنْ شاءَ الله مِنَ العَاطِلِ، والتَّوارِيخُ دَالَّةٌ علَى السّن في أوْقاتِ نَظْمِهَا فالعُذْرُ ظَاهِرٌ في الانحِطَاطِ عنِ الجَزالَةِ(283)

ألاَ حَدّثَانِـي بِاللّقَـا يَـا خَلِيلَيَّـا   وَلاَ تُوسِعَا وَعْدِي مِطَالاً .وَلاَ لَيَّا
ألَمْ تَعْلَمَا أنّي عَلَى القُرْبِ والنّوَى   أُحافظُ ذاكَ العَهْدَ رَعْيًا لهُ رَعْيَـا
وأنّي لاَ أسْلُو وَإنْ بَعُدَ المَـدَى   وإنْ أكثَرَ الوَاشُونَ لاَ أقْبَلُ الوَشْيَا
لَئِنْ أرْشَدَ اللُّوَّامُ قَلبِي لِسَلْـوَةٍ   فَهَيْهَـاتَ إنَّ الرشْدَ أحْسِبُـهُ غَيَّـا
وأنّـى لقَلبِـي بالتَّقَـلّبِ عَنْهُـمُ   كَمَا زَعَمَ العُذّالُ وَهْيًا لَهُمْ وَهْيَا

---

(283) راجع ما كتبناه في المقدّمة حول يحيى السراج هذا.

هُمُ نَصبُ عَيْنِي كُلَّمَا بَخِلَ الحيَا ... تُحَيِيهِمُ بالغَيْثِ أدْمُعُ عَيْنَيَّا
وَللهِ منهُمْ نَسْمَةٌ حَاجِرِيَّةٌ ... لَهَا ارَجٌ مِن نحْوِهِمْ عَاطِرُ الرَّيَّا
ولمْ أنْسَ لمَّا استَشْرَفَتْ ظَبَيَاتُهَا ... وَقَدْ عُدتُ نِسيًّا في المَعَاهِدِ مَنسِيًّا
وَكَم مِن فُتُونٍ في فُتُورِ جُفُونِهَا ... ومِن أسْهُمٍ مَهْمَا رَمَتْ تُحسِنُ الرَّمْيَا
وَتُبْدِعُ إذْ تُبْدِي جَمَالَ صِفَاتِهَا ... فَتَسْبِي قُلُوبَ العَاشِقِينَ بها سَبْيَا
بِغُرٍّ ثَنَايَا قَدْ تَنَثْنِي لِحُبِّهَا ... فَأَعْطَيْتُ قَلبِي دُونَ شَرْطٍ وَلا ثُنْيَا
حَمِدتُ لِدَهْرِي مَوْقِفًا جالتِ الصَّبَا ... بأرْجَائِهِ سَقْيًا لأيَّامِهَا سَقْيَا
جَرَتْ نُشُرًا ما بَيْنَنَا وتسَحَّبَتْ ... بُرُودَ بطَاحٍ تُبْدِعُ النَّشْرَ والطَّيَّا
ولكِنْ أنَا الظَّمْآنُ حينَ تَقَلَّصَتْ ... ظِلاَلٌ رَشَفْنَا وِرْدَهَا شَفَةً لَمْيَا -198-
حمَى الصَّبْرُ منّي جانِبًا مُتَمَنِّعًا ... غَزَتْهُ الظُّبَا لمَّا رأى ذلكَ الظَّبْيَا
أبَادَ دُمُوعِي يَوْمَ أبْدَى صَبَابَتِي ... فَبحْتُ بِسِرٍّ لم يزَل مَيِّتَ الأحْيَا
وَرُمْتُ اكتِتَامَ الحُب بعْدَ بِعَادِهَا ... ومن يرُمِ الغَايَاتِ لاَشَكَّ أنْ[يَعْيَا]
وأحْيَيْتُ لَيْلِي حِينَ حَيًّا نَسيمُهَا ... وَعَزَّ مَرامُ النَّوْمِ في ذِلِكَ [ ]
فَمن لِعَليلٍ لَمْ يَزل مُتَعَلِّلاً ... بِعَرْف نسِيمٍ مِن حِمَاهَا إذا [ ]
وقفتُ بمَغنَاهَا وَفَيْضُ مَدامِعِي ... كَمِثْلِ الحَيَا اسْقِي بهَا ذلِكَ الحَيَّا
وَحَلَّيتُهُ نَظْمًا منَ الشّعْرِ رَائِقًا ... وَمِن أدْمُعِي نَثْرًا فأحْسِنْ بِهِ حَلْيَا
فَمَنْ لِي وجَمْرُ الشَّوْق بَيْن جَوانِحِي ... ومَاءُ المَآقِي قدْ طَما بَيْنَ جفْنَيَّا
إذَا جَنَّ لَيْلِي جُنَّ قَلْبِي وأنْثَنِي ... أقَلِّبُ قَلْبًا خافِقًا بَيْنَ جَنْبَيَّا
لأنّ لِيَ القلْبَ المُقَلَّبَ بالأسَى ... سَيَحيَا بمَا يُهْدِيهِ مِن فِكرِهِ يَحْيَى
حَبِيبٌ حَبَانِي بالرسَائِلِ دَوْحَةً ... تَفَيَّأتُ ظِلَّ الأنْسِ في رَوْضِهَا فَيَّا
فأنّسَ حتّى لمْ يَدَعْ لِيَ وَحْشَةً ... وأوْرَدَ حتّى لم يدَعْ كَبِدًا ظَمْيَا
وممّا أجدَّ الوَجْدَ حُسْنُ عَقيلَةٍ ... كَعَذْراءَ جاءتْ وهْيَ تَمْشِي عَلى استِحْيَا
فمِن نُورِ مرْآهَا سَنَا «سُرَّ مَن رأى» ... ومِن وشيِهَا صَنْعَاءُ إن أحْسَنَتْ وَشْيَا

فأحْيَا فُؤادِي حُسْنُ مُخْجِلَةِ الضُّحَى ... فَقَلبِي قَدِ اسْتَحْيَا وَصُبْحِي قد اسْتَحْيَى
جَلوْتُ بهَا وَجْهَ العَقيلَة وصْفُهَـا ... يُقَصِّرُ عن إدْرَاكِهِ كُلُّ مَنْ أعْيَا
فأيْنَ نُجُومُ الأُفْقِ من ذِلكَ السَّنَا ... إذا اجْتَلَتِ الأبصَارُ رُتْبَتَهَا العُلْيَا
فَيالَيْتَ هذَا القَلْبَ تُوسَى كُلُومُهُ ... بزَوْرَةِ خِلٍّ أحرَزَ المجْدَ أوْ سيًّا
وَحُبُّ أبيهِ المَاجِد العَلَمِ الرِّضَى ... يَدينُ بِهِ مَنْ يقصِدُ الدِّينَ والدُّنْيَا
فمَن شَاءَهُ لِلعِلْمِ ألْفَى إمَامَهُ ... يُجَلِّى لهُ في كُلِّ مُشْكِلَةٍ هدْيَا
وَمَنْ حَلَّ مَثْواهُ يجْدهُ مَثَابَةً ... بهَا يَرِدُ العَافُونَ مُسْتَعْذَبَ السُّقْيَا
وأمَّا إذَا ألْقَى مِنَ الذِّكْرِ آيَةً ... فَدُونَكَ مَا تَبغِيهِ من غَايَةٍ قُصْيَا
فَلِلَّهِ دُرُّ اللَّفْظِ إن نَصَّ خُطْبَةً ... وَلِلَّهِ بَحْرُ الحِفْظِ ان فَسَّرَ الوَحْيَا -199-
تَراهُ مَعَ الأحيَانِ شَمْسَ هِدايَةٍ ... وشَمْسُ الضحى لِلمُجْتَلِي أبْدَعُ الأشيَا
ألاَ يا أخِي مَن لِي بشكْرِ هَدِيَّةٍ ... بَعَثْتَ بهَا لاَزِلْتَ بالشُّكْرِ مَجْزِيَّا
وحَقِّكَ ما ألبَسْتُ لِلفخْرِ قَبْلَهَا ... كَمَلْبِسِهَا الضَّافِي شِعَارًا وَلاَزِيَّا
سَجِيَّةُ مَن يُنمَى لأكْرَمِ مَعْشَرٍ ... وَشيمَةُ مَن يُلْفَى رَضِيًّا ومَرْضِيًّا
لكَ اليَدُ خَطَّتْ في المَهارِقِ حِكمَةً ... وحُكْمًا فَمامُورًا غَدَوتُ وَمنْهِيَّا
أقُومُ لدَيْهَا مُطْنِبًا في ثَنائِهَا ... مَدَى الدّهرِ لاَ ألْفَى عَنِ الشكْرِ مَثْنِيًّا
وأجْعَلُ مَثْوَى رُنْدَةٍ مُتَوَجَّهَا ... إذا شِئْتُ أمْرًا(283م) من مَرامِيَ مَقضِيَّا
وأخطُبُ لِلآدابِ غُرٌّ عقَائِلٍ ... تَفُوقُ حُلاهَا بُحْتُرِيًّا وَطَائِيَّا
فَتَرتَاحُ مِنّي الرُّوحُ حَتَّى كأنَّنِي ... أطيرُ لمَغْنَاهَا بِملْءِ جَنَاحَيَّا
حَنينًا لِمَنْ أهْدَى الأمَانِيَّ كُلَّهَا ... فَمَا بَقِيَتْ أُمْنِيَّةٌ لِي سِوَى اللُّقْيَا

(283م) أمرًا : كُتِبَ فوقها : حَتْمًا، أي أنها رواية، وتخيير، وذلك أنّه يقال : أمر مقضي وحتم مقضي، والاثنان في القرآن الكريم.

وَهَنَّأَتْ بَعْضَ الأوِدَّاءِ بِبِنْتٍ وُلِدَتْ لَهُ

هَنيئًا بهَا طَوْعَ السَّعادَةِ وافِـدَهْ   تُريكَ مِنَ الصُّنْعِ الجَميلِ عَوائِدَهْ
أمَا حَقُّهَا واللهُ يكْلأُ مَجْدَهَا   بأن تُصْبِحَ الآمالُ طُرًّا مُساعِدَهْ
وأن تَغْتَدِي الشَّمْسُ التِي عَمَّ نُورُهَا   تُقِرُّ بأوْصَافٍ لَهَا غَيْرِ واحِدَهْ
فَمِن رِفْعَةٍ فَوْقَ الثرَيَّا مَكانُهَا   ومِنْ حَسَبٍ شَادَ الكَمالُ مُعاهِدَهْ
ومِن والِدٍ لِلهِ مَنْشأُ فَضْلِهِ   إذا جَدُّهُ الأرْضَى حَمِدْنَا ووَالِدَهْ(284)
عَلَى نَسَقٍ أحْسِنْ بِهِمْ وَبِعِقْدِهِمْ   إذَا مَا نَظَمْنَا بالثَّنَاءِ فَرائِدَهْ
فأهْلاً بهَا مِن عالمِ الكَوْنِ فَذةً   مُمَجَّدَةً قَدْ طَاوَلتْ كُلَّ ماجِدَهْ
وبُشْرَى بهَا بُشْرَى لأُمٍّ وَوالِدٍ   خِلالُهُمَا في الدَّهْرِ بالفَضْلِ شَاهِدَهْ
وإنِّي لطَلاَّعُ الثَّنَايَا بشُكْرِهِمْ   لِيَ السَّبْقُ في آمَادِهِ المُتَبَاعِدَهْ
ولَكِن بمَا أثْنِي وأُفْصِحُ فيهِمُ   ولَوْ أنَّنِي جارَيْتُ قُسَّ بْنَ سَاعِدَهْ -200-
وعِندِي وُدٌّ ليْسَ يَبْلَى جَدِيدُهُ   وَحَيْثُ غَدَتْ أسْبابُهُ مُتعاضِدَهْ
ووَاللهِ ما وفَّيتُ حَقَّ أُخُوَّةٍ   مَحَبتُهَا في ذاتِهِ مُتَزايِدَهْ
فجازَاكَ عَنِّي يَا أخِي خَيْرَ [ما] جَزَى   إلاَهٌ غَدَتْ ألْطافُهُ مُتعاضِدَهْ

(284) لم يفصح الشاعر عن اسم صديقه هذا.

وابْدَأُ عَلى جِهَةِ التَّبَرُّكِ بِقَصيدَةٍ كُنتُ نَظَمْتُهَا (285)

في الجَنابِ النَّبَوِيِّ الكَرِيمِ نَفَعَ اللهُ بالقَصْدِ وَقَدْ أَطَلَّ

مَوْسِمُ عام ثَمَانِيَةَ عَشَرَ وثمانِمِائَةْ

وسمَّيْتُـــهَا

الحَديقَةُ النَاضِرَهْ

والحَدَقَةُ النَّاظِرَهْ، وهْيَ

تهادَتْ قُبَيْلَ الصُّبحِ والركْبُ نُوَّمُ ... ونَجْمُ الدُّجَى بالأُفْقِ لاَ يَتَلَـوَّمُ
فَمَا الشُّهْبُ في نَهْرِ النَّهَارِ وقَدْ جَرتْ ... لِمَوْرِدِهَـا إلاّ الْقَطَـا وهْـيَ حُـوَّمُ
تَفتَّحَ زَهْرُ الزُّهْرِ في رَوْضِ أُفْقِهَا ... فَمُدّ لِيَجْنِيهَا مِنَ الفَجْرِ مِـعْصَمُ
كأنَّ الدُّجَى والفَجْرُ تحتَ ذُيولِـه ... مُحَجَّـلُ أطْرافِ القَوائِمِ أدْهَـمُ
ولمَّا تَهاوَتْ شُهْبُهُ أوْضَحَ السُّرَى ... سَنَا الفَجْرِ حَيثُ الرَّكْبُ سِرٌّ مُكَتَّمُ
يَلُـوحُ وَيخْفَـى تـارَةً فَكأنَّـهُ ... وقَدْ حَلّ صَدْرَ البِيدِ ظَنٌّ مُرَجَّمُ
لَئِنْ غَارَ نَجْمُ الأُفْقِ أوْ غابَ نُورُهُ ... فَقَدْ طَلَعَتْ لِلأَوْجُـهِ الغُرِّ أنْجُـمُ
فَيا صَاحِبَيْ نجْوَايَ هلَ لِي مُنْجِدٌ ... وَسُلْطَانُ وَجْدِي في الفُؤادِ مُحَكَّمُ
رَعَى اللّهُ قلبًا قَلَّبَتْهُ يدُ النَّـوَى ... لـهُ بيْـنَ هَاتـيكَ القِبَـابِ تَلَـوُّمُ
يَطيـرُ خُفوفًـا نحْوَهَـا فَيُمِيلُـهُ ... هَوًى في خيَامِ الظّاعِنِينَ مُخَيِّـمُ
أَيخْفَى جَوًى قدْ ضُمِّنَتْهُ جَوانِحي ... وَدَمْعُ جُفُونِي عَن ضَميري مُتَرْجِمُ
كأنَّ الحِمَى لمَّا اسْتَهَلَّتْ مدامِعي ... كَمـيٌّ علَـى أعْطَافِـهِ يَقطُـرُ الـدَّمُ -201-
فأُرْسِلُ منهُ كُلّمَا أخْلَفَ الحَيَـا ... سَحابًا يَفُوقُ الغَيْثَ والغَيْثُ مُسْجَمُ
وآثارُ وَقْعِ الدَّمعِ في عَرَصاتِهَـا ... يُـوَشِّي رُبَـى أطْلاَلِهَـا وَيُنَمْنِـمُ
وكَمْ صَادِرٍ قادَتْهُ نَغْمَـةُ صَادِحٍ ... فَمَـا عـادَ إلاّ والخَلِـيُّ مُتَيَّـمُ

(285) لا أرى معنى لقوله : وأبدأ، وحقها أن تكون : وأختم، فهذه القصيدة النبوية تأتي في ختام التهاني والمدائح.

خَلِيلَيَّ إنِّي كُلَّمَا هِمْتُمَا بِهِ ... لأَعْجَبُ أنْ يُشْجِي الفَصِيحَيْنِ أعْجَمُ
وَرَكْبٍ مُفَدًّى بالنُّفُوسِ أمَالَهُمْ ... حَثِيثُ سُرَاهُمْ لاَ الرَّحِيقُ المُقَدَّمُ[286]
تَحمَّلَ مِن أهْلِ العَزائِمِ أُسْرَةً ... فمُنْهِدُ جَيْشٍ لِلغِوَارِ وَمُقْدِمُ
يَجُرُّ القَنَا مِن خلفِهِ فيُرَى لَهَا ... عَلَى الرَّمْلِ خَطٌّ بالحَوافِرِ مُعْجَمُ
تَلوحُ ويُخْفِيهَا مُثارُ عَجَاجِهَا ... كَما انسَابَ في خُضْرِ الأَبَاطِحِ أرْقَمُ
فهَلْ مُنْجِدٌ بالصَّبْرِ وَالرَّكْبُ مُنْجِدٌ ... كَما شاءَهُ العَزْمُ الحَثِيثُ ومُتْهِمُ
إذَا اسْتَقْبَلَ الحَادي المَطايَا مُرَجِّعًا ... فمَا الرَّوْضُ أوْ مَا الطَّائِرُ المتَرَنِّمُ
يُرَدِّدُ ذِكْراهُمْ سُرورًا كَأنَّهُ ... بذلِكَ يَنْعَى مَن أقامَ وَيَنْعَمُ
أرى الدَّهْرَ بَيْنَ الأخْذِ والتَّرْكِ للسُّرَى ... يُصَرِّحُ لِي مِن بَعْدِهِمْ ويُجَمْجِمُ
ويَلقَى هَوَى نَفْسِي جُنودَ عَزائِمِي ... فَيَهْزأُ بِي طَوْعَ المُقامِ وَيَهْزِمُ
وإنَّ الذي ألْغَى السُّرَى وهْوَ قادِرٌ ... لمُغْرًى بمَا لاَ يَنْفَعُ المرْءَ مُغْرَمُ
تُقَيِّدُهُ أوْزارُهُ ولَوِ اهْتَدَى ... لَسَارَ كَمَا يَسْرِي الجَوادُ المطَهَّمُ
وتَمْنَعُهُ أعْمالُهُ ولَوِ اتَّقَى ... مَضَى مِثْلَمَا يَمْضِي الحُسامُ المُصَمِّمُ
أحُجَّاجَ بَيْتِ اللَّهِ فُزْتمْ بِزَوْرَةٍ ... حباكُمْ بها طَوْعَ السَّعادَةِ مَوسِمُ
وقَدْ وُجِّهَتْ فِيهِ إلَى اللَّهِ أوْجُهٌ ... يَلُوحُ عَلَيْهَا لِلْكَرامَةِ مِيسَمُ
رَحَلْتُمْ ومَنْ خَلَّفْتُمُوهُ لِغَيِّهِ ... مُهَوِّنُ رَيْبِ الحَادِثَاتِ مُهَوِّمُ
فَيا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ مِمَّنْ تَخَلَّفُوا ... وعاجُوا عَنِ القَصْدِ الحميدِ وأحْجَمُوا
أقامُوا وَقدْ سِرتُمْ فَمَا الرَّأْيُ بَعْدَكُمْ ... رَشيدٌ وَلاَ العَزْمُ المؤَمَّلُ مُبْرَمُ
لَقَدْ عَرَّفَتْكُمْ فَضلَهَا عَرَفاتُهُ ... وضَمَّكُمُ البَيْتُ العَتيقُ وَزَمْزَمُ
وألْفَيْتُمُ شَتَّى الأمَانِيِّ في مِنًى ... وعِنْدَ وُجُودِ المَاءِ يلغَى التَّيَمُّمُ -202-
فَبُشْرَى لِمَنْ قَدْ حَلَّ فِيهِ مُؤَمِّلاً ... مَواهِبَ رُحْمَاهُ وهَيْهَاتَ يُحْرَمُ
وَشَنَّ جُيُوبَ الصَّبْرِ شوْقًا إلى الذي ... لهُ انشَقَّ بَدْرُ الأُفْقِ وَهْوَ مُتَمِّمُ

(286) يعني بالرَّكْب ركب الحاج الأندلسي، والرّحيق المُقَدّم : الخمر المصَفّاة.

وَزَارَ فِتَـاءٌ لِلفَنَـاءِ بَطَيْبَـةٍ   فكَانَ لهُ فيهَا عَلَى اللّهِ مَقْدَمُ

ومَنْ شاقَهُ حَادِي الرَّكَائِبِ كُلَّمَا   تَقَدَّمَهَا يَحْدُو بِهَا ويُهَيْنِمُ

بِدارًا لِمثْوَى خيْرِ مَنْ وَطِيء الثَّرى   فَرَكْبُ السُّرى قَصْدَ الحِجَازِ مُيَمِّمُ

فَلَوْلاَ حُلول بَيْنَ قَبْرٍ ومِنْبَرٍ   لمَا رابَ تاخِيرٌ ورَاقَ تَقَدُّمُ

فَلِلهِ مَا أَهْدَاكَ مِن أُحُدٍ وَقدْ   تَرفَّعَ مِنهُ لِلْهِدَايَةِ مَعْلَمُ

مَشَاهِدُ قَدْ شَاهَدْتَ منهَا مَعَاهَدًا   يُجَدِّدُ ذِكْرًا عهْدُهَا المُتَقَدِّمُ

تَراءتْ فمَا نورُ التَّباشِيرِ خامِدٌ   وَلاَ أوْجُهُ البُشْرَى بهَا تتَجَهَّمُ

فمَا حلَّهَا إلاَّ بهِ مُتَوَسِّلٌ   إلَى اللّهِ في أرْجائِهَا مُتَوَسِّمُ

وصَرَّحَ بالشكْوَى فَنُودِيَ سامِعٌ   إجابَتُهُ حَتْمٌ وأُمِّلَ مُنْعِمُ

فَرَافِعُ طَرْفٍ دُونَهَا مُتَضَرِّعٌ   وبَاسِطُ كَفٍّ عِنْدَهَا مُتَظَلِّمُ

جُوَارُكَ يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ مأْمَنٌ   ومُعْتَصَمٌ مِنْ فَادِحِ الخَطْبِ يَعْصِمُ

ثَرَى قَدْ هَدَى لِلرُّشْدِ كُلَّ مُضَلَّلٍ   وأَثْرَى بِهِ طَوْعَ السَّعَادَةِ مُعْدِمُ

مَحَطٌّ لِأَوْزَارِ العُفَاةِ ومَرْحَلٌ   وَقَصْدٌ لِطُلاَّبِ الرِّضَى وَمُيَمَّمُ

ألاَ يا رَسولَ اللّهِ دَعْوَةَ نَازِحٍ   لهُ في النَّوَى والقُرْبِ فكْرٌ مُقَسَّمُ

يَرَاكَ بمَكْنُونِ الضَّمِيرِ فَقَلْبُهُ   عَلَيْكَ وما حَلَّ المَنَازِلَ يَقْدُمُ

أنا المُذْنِبُ الجَانِي وأنتَ شَفيعُهُ   ومِثْلُكَ مَن يُرْجَى ومِثْلِيَ يُرْجَمُ

بمَاذَا عَسى أثْنِي عَلَى المُصْطَفَى الذِي   أتَى فيهِ نَصُّ الذِّكْرِ والذِّكْرُ مُحْكَمُ

وفائِدَةِ الأَكْوَانِ يقضي ابتِداؤُهَا   بأَنَّ بِهِ الوَحْيَ المُنَزَّلَ يُخْتَمُ

وأَهْدَى مِنَ الآياتِ كُلَّ عجيبَةٍ   هَدَتْ لسَبيلِ الرَّشْدِ والرُّشدُ مُبْهَمُ

تُنيرُ فيعْلو الخَافِقِينَ مَنارُهَا   ويجْلو سَنَاهَا الخَطْبَ والخطْبُ مُظلِمُ

فَمَن ذَا يَعُدُّ الشُّهْبَ وَالعَدُّ مُعْجِزٌ   ومَن ذا يرومُ البَحْرَ والبَحْرُ مُفْعَمُ -203-

كَريمٌ قَضَى حُبِّي لَهُ بعْدَمَا جَنَتْ   يَدِي أنَّني في جَنَّةِ الخُلْدِ مُكْرَمُ

فمَالِيَ إذا لاَقَيْتُ رَبِّي وَسيلَةٌ   سِوَى أنَّنِي أرْجُو وأنِّي مُسْلِمُ

ومَا ضاقَ عَفْوُ اللّهِ عن مُذْنِبٍ وإنْ   تعَاظَمَ منْهُ الذَّنْبُ فالعَفْوُ أعْظَمُ

أيا رَب إنَّ العَبْدَ بالْبَابِ وَاقِفٌ   يَخَافُ وَيَرْجُو فَهْوَ يَدْنُو ويُحْجِمُ
يُفَكِّرُ في الرُّجعَى إلى اللّهِ نادِمًا   فَيَوْمَ التَّنَادِي لا يُفِيدُ التَّنَدُّمُ
ومُجْرِي جِيادٍ للبَطَالَةِ هَلْ لَهُ   مُجِيرٌ غَدًا مِن نارِهِ وهْوَ مُجْرِمُ
ألاَ عَطْفَةٌ نحْوَ المَتَابِ لَعَلَّهَا   تُؤَكِّدُ أسْبَابَ النَّجَاةِ وتُبْرِمُ
فأُصْبِحَ مِنْ قَوْمٍ أنابوا لِرَبِّهِمْ   فأجْرَوا دَمًا في دَمْعِهِمْ حينَ أجْرَمُوا
وأُكْتَبَ مِن قَوْمٍ إلَى اللّهِ أسْلَمُوا   وُجوهَهُمُ طَوْعًا وفي الأمْرِ سَلَّمُوا
لَعَلِّيَ أحْظَى بالجِنَانِ كَرَامَةً   وقَدْ رَدَّدَتْ هَل مِن مَزِيدٍ جَهَنَّمُ
فيَا أيُّهَا المغْرُورُ إنّكَ قادِمٌ   عَلَى عَمَلٍ قَدَّمْتَهُ أوْ تُقَدِّمُ
أيَا عَجَبًا لِلمَرْءِ يَفْرَحُ بالذِي   ألَمَّ مِنَ الدُّنْيَا وَلاَ يَتَألَّمُ
إذا أنتَ لمْ تُوثِرْ هواكَ تجَلُّدًا   فَصَبْرُكَ أقْوَى والطَّرِيقَةُ أقْوَمُ
أتَرْكَنُ لِلدنْيَا وأنتَ بِفِعْلِهَا   خَبيرٌ لِبِيسَ المَرْءُ مَن لَيْسَ يَحْزِمُ
أتَغْتَرُّ أن أهْدَتْكَ زَهْرَةَ حُسْنِهَا   مَتَى لَذَّ يَوْمًا شَهْدُهَا وهْوَ عَلْقَمُ
تُفِيدُكَ عِلْمًا بالتَّجارِبِ كُلَّمَا   تَحُطُّ وتُعْلِي وهْيَ بالحَالِ تُعْلِمُ
تُوَلّيكَ إن وَالَيْتَهَا خُطَّةَ الأسَى   فَحَتَّى مَتَى تَصْغِي وَلاَ تَتَعَلَّمُ
إذا نَفَذَ المقدورُ أصْمِتَ كاهِنٌ   وَرُدَّ بِهِ عمَّا ادَّعَاهُ مُنَجِّمُ
أمِنْ بَعْدِ ما لاَحَ المَشِيبُ بِلِمَّتِي   صَبَاحًا هَدانِي لَيْلُهُ وهْوَ مُظْلِمُ
تَجَهَّمَ وَجْهُ الأُنسِ وَهْوَ بِمفْرَقِي   أزاهِرُ في خُضْرِ الرُّبَى تَتَبسَّمُ
لِعِمَّتِهِ في الفَوْدِ فَضْلُ ذُؤَابَةٍ   علَى لِمَّةٍ كادَتْ بهَا تَتَلَثَّمُ
هُوَ الوَارِدُ المَرْغُوبُ عَنْهُ فكُلَّمَا   ألَمَّ بفَوْدٍ وفُؤَادُهُ يَتَألَّمُ -204-
جوادٌ ولمْ يُسْأَلْ وَفِيٌّ ولمْ يَعِدْ   مُرَدِّدُ وَعْظٍ وهْوَ لا يَتَكَلَّمُ
ومِن بَعْدِ مَا مَرَّتْ ثَلاثُون حِجَّةً   وَسَبْعٌ يُرامُ الأُنْسُ أوْ يُتَوَهَّمُ(287)

---

(287) اعتمدنا على هذا البيت وتاريخ القصيدة في تحديد التّاريخ الذي ولد فيه الشّاعر ؛ راجع المقدّمة ؛ ومرمى الأشد هي الأربعون سنة.

وقارَبْتُ مِن مَرْمَى الأشَدِّ رَمِيَّـةً	تُقَرْطِسُهَا مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ أسْهُمُ
وصَوَّحَ مَرْعًى لِلشَّبِيبَةِ مُـخْصِبٌ	وأيُّ شَبابٍ مُونِقٍ لَيْسَ يَهْـرَمُ
أُعَلِّـلُ بالبُهْتَـانِ قلبًـا مقلبًـا	وَأُلْزِمُ مِنهُ النفسَ ما لَيْسَ يَلْزَمُ(287)
وأُصْغِي لأقْـوامٍ يُقيمُـونَ ألْسُنًـا	تُجادِلُ في صِدْقِ المَقالِ وتَخصِمُ
بَنِي زَمنٍ سَامُوا أباهُـمْ زَمانَـةً	فمَالَكَ في أفْعَالِهِمْ كَيفَ تَحْكُـمُ
لقد أعرَبُوا اسْمَ المَكرُمَاتِ وبَدَّلُوا	فلاَ فاعِلٌ يُجزَى وَلاَ فِعْلَ يُجْزَمُ
وأغْتَرُّ بالدُّنْيا وان كُنتُ نِلْتُهَـا	وأصْبَـحْتُ في أثْوابِهَـا أتَنَعَّـمُ
وَجُدْتُ وَلاَ مَنٌّ بمَا مَلَكَتْ يَدِي	وَرَبِّي يَـدْرِي مـا بِـهِ أنَـا مُعْلِـمُ
عَلَى حُبِّهِ والحُبُّ في العَفْوِ مُطْمِعٌ	كمَـا قـال إنِّـي للثَّلاثَـةِ مُطْعِـمُ(*)
فَلَوْ عِلِمَ العُـذَّالُ كُنْـهَ مَحَبَّتِـي	لأقصَرَ عَـن عَذْلِـي وُشَاةٌ ولُـوَّمُ
ولكِن إذا لمْ أحْظَ يومًا بَـزَوْرَةٍ	يَطِيبُ بِهَا في طَيْبَـةٍ لِـي مُخَيَّـمُ
فمَا شهُبُ العليَـاءِ حَوْلِـي مُنِيـرَةٌ	تَرُوقُ ولاَ بَحْرُ المَكَـارِمِ مُفْعَـمُ
ولاَ البُرْدُ مَوْشِيُّ الحَواشي مُنَمْنَمٌ	وَلاَ الثوْبُ مسْدولُ المَعَاطِفِ مُعْلَمُ
ولاَ السَّيْفُ مَصْقُولُ الغِرارِ ولاَ الهُدَى	رَحِيبٌ لِيرْتـاحَ الجَـوادُ الـمُسَوَّمُ
ولاَ الدِّرْعُ فَضْفَاضٌ ولاَ الرمْحُ ذابِلٌ	قَدِ اطَّرَدَتْ مِنهُ الكعُوبُ مُقَـوَّمُ
ولاَ الرَوْضُ ممْطُورُ الجَوانِبِ مَائِدٌ	مُمَنَّـعُ أرْجـاءِ الجِـلاَلِ مُنَعَّـمُ
ولاَ الظَّبْيُ مصْقُولُ التَّرائِبِ إنْ ثَنَى	إلى قصْدِهِ الجِيدَ انْثَنَى وهْوَ ضَيْغَمُ
فَمَا رابَ مِنْهُ جِيدُهُ وهْوَ مُتْلَـعٌ	ولاَ راقَ مِنْهُ اللَّحْظُ وهْوَ مُنَوَّمُ
لعَلِّي بهَا أحْظَـى فألْحَقَ بالأُلَـى	ويُحْسَبُ قَصدِي حِينَ أُحْسَبُ مِنْهُمُ
وأنَّى يَخيبُ القَصْدُ والأكْرَم الذي	يجودُ بِمَـا شاءَ العُفَـاةُ وَيُنْعِـمُ

(287) هذا هو متعلَّق قوله : أينَ بَعْدِ.. وَمِنْ بَعْد..

(*) إشارة إلى الآية : ويُطعِمونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكِينًا ويَتِيمًا وأسيرًا.

وكَيفَ وحُبّي للنَّبيّ مُحَمَّدٍ ﷺ(*) لهُ في حَصَاةِ القَلْبِ خَطٌّ مَرسَّمُ -205-
ألا يا رسُولَ اللهِ في النفسِ حاجَةٌ وجاهُكَ قدْ يُرْجَى لمَا هُوَ أعْظَمُ
رَجَوْتُ وأرْجأْتُ الأمورَ تَيقُّنًا بأنَّ قَضَاءَ اللهِ أمْرٌ مُحَتَّمُ
فَيا سَائِلاً عمَّا أكنَّتْ جَوانِحِي ومَا في ضَميري لَمْ يَفُهْ لِي بهِ فَمُ
سَأحْظَى بمَا أمَّلتُهُ إنَّ مَدْحَهُ بمَا نَيْلُهُ يُعْلِي المَراتِبَ يُعْلَمُ
إذَا لمْ تُحِطْ بالسِّرّ عِلْمًا فَعَدِّ عَنْ مَلاَمِي فإنَّ اللهَ أعْلَى وَأعْلَمُ
ودَعْنِي فأمْرُ اللّهِ جَلّ جَلالُهُ لَهُ مِن وراءِ الغيْبِ سِرٌّ مُكَتَّمُ
أتَسْتَحقِرُ الدُّنْيا وتَسْتَعْظِمُ الذِي تُؤمِّلُهُ مِنْهَا ورَبُّكَ أكْرَمُ
وَكِلْنِي لِمدْحِ المصْطَفَى المُرسَلِ الذي بهِ اللّهُ يَعْفُو عن ذُنُوبِي وَيَرْحَمُ
يُخَلِّدُ فِكْرِي فيهِ كُلَّ عَجيبَةٍ تُخَطُّ عَلَى صَفْحِ الزمَانِ وتُرْسَمُ
ويَنْزِعُ عَن قَوْسِ الإجادَةِ سَهْمَهُ عَساهُ بِحَظٍّ في الشَّفاعَةِ يُسْهَمُ
لَعَلَّ ذُنُوبًا في فُؤادِي خَلَّفَتْ كُلُومًا يُداوِيهَا الكَلامُ المُنَظَّمُ
فكَمْ قَسِمَاتٍ لِلهِدايَةِ تُجْتَلَى وكَمْ نَفَحاتٍ للرِّضَى تُتَنَسَّمُ
علَيْكَ سَلامُ اللهِ ما يَمَّمَ الوَرَى حِمَاكَ ومَا صَلَّوْا عَلَيْكَ وسَلَّمُوا

(*) جرت عادة ناسخ هذا الديوان أن يكتب التصلية فوق الاسم النبوي الشريف، ولم تطاوعني يدي على حذفها هنا، وهذا يجرّني إلى الحكاية التّالية : ذكر ابن بشكوال أن الفقيه الأندلسي أبا عبد الله بن فرج كان ينشد قول حسان رضي الله عنه :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وأجَبْتُ عَنْهُ.

هَكَذا :

هَجَوتَ مُحَمّدا ﷺ وأجبتُ عَنهُ.

فكان يقال له : ليس يتّزن هكذا، فكان يقول : أنا لا أترك الصلاة على النبي ﷺ. قال ابن بشكوال : لقد يعجبني ما كان يفعله، نفعه الله بنيته في ذلك.

تكملة ابن الأبار : 500.

وَمِمَّا حَقُّهُ أنْ يُلْحَقَ بِمَا تَقَدَّمَ من قصائِدِ
التَّهانِي اليوسُفِيَّةِ المتقدِّمَةِ قَبْلَ هَذا
قَصيدَةٌ نَظَمْتُهَا فِي هَناءِ المَوْلَى المْنعِمِ السُّلْطَانِ
أبِي الحجاجِ النّاصِرِ لدينِ اللّهِ رَحْمَةُ اللهِ عليْهِ ورضوانُهُ
وقَدْ احْتَل رِكَابُهُ بِقَصْرِ نُبْلُه خَارِج حَضرَتِهِ
آيبًا مِن وِجْهَتِه الأولَى إلَى المنَكّب وَشَلوْبانِيَة
بتَاريخ اليَومِ الثّامِنِ عشرَ لِربيعِ الأوَّل عام ثمانيَة
-206- **عَشَر وثمانِي مائة[288]**

لِمَن الرَّكائِبُ نَحْوَ رامَةَ تَرْتَمِي ... مِنْ بَعْدِ طُولِ تأمُّلٍ وتَلَوُّمِ
عُوجًا كأمْثالِ القِسِيِّ ضَوامِرًا ... مهْمَا ارْتَمَيْنَ يُصِبْنَ شَاكِلَةَ الرَّمِي
يَحْمِلْنَ من أهْلِ الصَّبابَةِ أسْرَةً ... كلِفَتْ بِرَبْعٍ لِلغَرامِ ومَغْلَمِ
مِن كُلّ يَقْظَانِ الفُؤادِ حَديثُهُ ... يَزَعُ المَنامَ عَنِ العُيُونِ النُّوَّمِ
مِن كُلّ مُنفَرِدٍ بمَجْموعِ الهَوَى ... مُغْرًى بأشْتَاتِ المحَاسِنِ مُغْرَمِ
مُتَوَسِّدٍ فَوْقَ الرّواحِلِ بالحِمَى ... مُتَوَسِّلٍ في رَبْعِهِ مُتَوَسِّمِ
مُتأمّلٍ لِبعَادِهِ مُتَألّمِ ... ومُسَلّمٍ لغَرامِهِ مُسْتَسْلِمِ
هُنّ الحنايَا لاَ الحطايَا إذْ رَمَتْ ... مِنْهَا إلَى الغَرضِ القَصِيِّ بأسْهُمِ
ومَعاهِد الأنْسِ التِي وَقَفَتْ بهَا ... لِلصَّبْرِ حَلَّتْ كُلَّ عَقْدٍ مُبْرَمِ
مَا بَالُهَا إن أُرْشِدَتْ لِسُلُوِّهَا ... لاَ تَنْتَهِي ولأهْلِ عُذْرَةَ تَنْتَمِي
تُزْجِي عُهُودَ الدَّمْعِ مِن أجْفانِهَا ... وجْدًا بذِكْرَى عَهْدِهَا المتَقَدِّمِ

(288) راجعْ ما تقدّم في شأن قصر نُبْلُه، أما وجهة يوسف الثالث إلى المنكّب فقد كانت في أول شهر ربيع الأول من عام 818 هـ وقد نظم الملك الشاعر قصيدة في هذه الوجهة (ديوانه : 112 ــ 114) وعاد من هذه الرحلة في التاريخ الذي ذكره الشاعر هنا، وقد كان هذا الملك يتردّد مثل أسلافه على المنكب للراحة والاستجمام في قصر القلعة أو لتجهيز دعاة الفتنة إلى المغرب. راجع ما كتبناه في المقدمة، وكذلك عملنا : المُنَكّب في العهد الاسلامي.

لَمْ تُنْكِرِ الحَيَّ الحِلاَلَ وإنَّمَا … بِهُيَامِهَا عَرَفْتُهُ بَعْدَ تَوَهُّمِ
وعَقِيلَةُ الحَيَّيْنِ تُوقِفُ رَكْبَهَا … فالقَوْمُ بَيْنَ تَأَمُّلٍ وَتَأَلُّمِ
مَالُوا عَلَى الأَقْتَابِ حِينَ تَأَمَّلُوا … فالرَّكْبُ بَيْنَ تَوَسُّدٍ وتَوَسُّمِ
أَتْبَعْتُهَا نَظَرِي غَدَاةَ تَمَنَّعَتْ … فالطَّرْفُ بَيْنَ تَمَنُّعٍ وَتَنَعُّمِ
يُذْكِي بِمُحْمَرِّ الدُّمُوعِ صَبَابَتِي … فالقَلْبُ بَيْنَ تَضَرُّجٍ وَتَضَرُّمِ
كَمْ وقْفَةٍ حَتَمتْ عَلَيْهِ بالهَوَى … فالوَجْدُ بَيْنَ تَحتُّمٍ وتَحكُّمِ
وَالشَّمْسُ تَبْدو في السَّحَابِ وتَخْتَفِي … فالأُفْقُ بَيْنَ تَغَيُّبٍ وَتَغَيُّمِ
وَالطَّيْرُ تَشْدُو والحَدائِقُ تَنْثَنِي … فالدَّوْحُ بَيْنَ تَرَنُّحٍ وتَرَنُّمِ
وَالغَيْثُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ فَوْقَ الرُّبَى … فالسُّحْبُ بَيْنَ تَجَمُّعٍ وتَجَهُّمِ
والزَّهْرُ قَدْ شَقَّ النَّسِيمُ جُيُوبَهُ … فالرَّوْضُ بَيْنَ تَبَسُّمٍ وتَنَسُّمِ
كَثَنَاءِ يُوسُفَ الذي شَرَعَ النَّدَى … فالجُودُ بَيْنَ مُؤَمِّلٍ ومُيَمِّمِ
مَلِكٌ إذَا تُلِيَتْ مآثِرُ مُلْكِهِ … فالدُّرُّ بَيْنَ مُنَضَّدٍ ومُنَظَّمِ -207-
يُسْتَفْتَحُ النَّادِي بِذِكْرِ خِلالِهِ … فالوَصْفُ [بَيْنَ] مُقَدَّسٍ وَمُقَدَّمِ
كَمْ حِكْمَةٍ نَادَتْ سُيُوفَ جِهَادِهِ … هَذِي العِدَى قَدْ أَجْهَدَتْ فَتَحَكَّمِي
كَمْ هِمَّةٍ نَحْوَ الكَوَاكِبِ تَرْتَقِي … يَوْمَ الطِّعَانِ ولِلْمَوَاكِبِ تَرْتَمِي
بِمَرُوعِ غَرْبٍ للسَّوابِقِ يَنْتَهِي … ومُثِيرِ حَرْبٍ للبَوَارِقِ يَنْتَمِي
من سائِقٍ يَهْدِي العُدَاةَ إلَى الرَّدَى … أَوْ سابِقٍ فَذَّ الشَّيَاتِ مطَهَّمِ
فإذا اسْتَنَارَت لِلسُّيُوفِ بَوارِقٌ … في الرَّوْعِ أجْلَتْ كُلَّ خَطْبٍ مُظْلِمِ
وإذا تَجَلَّتْ للأَسِنَّةِ أَنجُمٌ … في النَّقْعِ أَبْدَتْ كُلَّ مَعْنًى مُبْهَمِ
والحَرْبُ ان عُقِدَتْ لَهَا رَايَاتُهُ … لِلْكُفْرِ حَلَّتْ كُلَّ عَهْدٍ مُبْرَمِ
يَقضِي بأَمْرٍ في المُلُوكِ مُحَكَّمِ … يَمْضِي بِعَزْمٍ كالحُسامِ مُصَمِّمِ
ما ظُلِّلَتْ لُجَجُ السَّوابِغِ في الوَغَى … إلاَّ بِأَدْواحِ القَنَا المُتَحَطِّمِ
ما جُرِّدَتْ بِيضُ الظُّبَا في المُلْتَقَى … إلاَّ لأَنْ كُسِيَتْ بِمُحْمَرِّ الدَّمِ

يا مُنجِدَ الأَمْلاَكِ بالعَزْمِ الـذي ... أَبدَى السَّبيـلَ لِمُنْجِـدٍ ولمُتْهِـمِ
هذِي العِدَى تَرْجُو نَدَى يَدِكَ التي ... هِيَ مَوْرِدُ الظامي وَكَنْزُ المُعْـدِمِ
لَـمْ يَجْنَحُوا لِلسِّلْـمِ إلاَّ بعْدَمَـا ... أَلْقَتْ لكَ الدُّنْيَا يَـدَ المُسْتَسْلِـمِ
كَـمْ أُمَّةٍ أَمَّـتْكَ بَعْـدَ خِلاَفِهَـا ... لِتنـالَ عَفْـوَكَ تُحْفَـةً في المَقْـدَمِ
فأنَلتَهَا مِن حِلْمِكَ النعْمَـى التـي ... ظَفِرتْ بِهِنَّ يدُ المُسيءِ المُجْرِمِ
أَمَّنْتَهَـا فالقَـوْمُ بيْـنَ مُهَـوِّنٍ ... لِلخَطْبِ فِـي دَعَـةٍ وبيْـنَ مُهَـوِّمِ
أَوْلَيْتَهَـا مِـن جُـودِكَ النِّعَـمَ التِـي ... جَلَّتْ فَلاَ عَدِمَتْ وُجودَ المُنْعِـمِ
هـذا وَيـا للـهِ وجْهَـتُكَ التِـي ... أعلـتْ لديـنِ اللّـهِ أشرَفَ مَعْلَـمِ
أَعْمَلتَهَـا طَـوْعَ السُّعُـودِ رَكائِبًـا ... تَسْرِي وتَنتَقِـلُ انتِقـاَلَ الأَنْجُـمِ
وحَلَلْتَ فَوْقَ البَحْرِ أَمْنَعَ مَعْقِـلِ ... حَيْثُ الكَواكِبُ تَرْتَقِي أوْ تَرْتَمِي
قَدْ قابَلَ الكَفَّ الخَضيبَ كأنَّـهُ ... أَبَدًا يُشيـرُ لَهَـا بِكَـفٍّ مُسَلِّـمِ[289]
-208- وأَقَمْتَ بالقَصْرِ الـذِي بنُجـودِهِ ... يُلْفَى الأَمَـانُ لمنجِـدٍ أَوْ مُتْهِـمِ[290]
فَتَرى الثَّنِيَّـةَ دونَ مَظْهَـرِ أُفْقِـهِ ... تَلْقَـى رِيـاحَ الجَـوّ فاغِـرَةَ الفَـمِ
ثُمَّ انتقَلْتَ لِضَفَّـةِ الـوادِي الـذي ... مِنْهُ تُمِـدُّ البَحْـرَ راحَـةُ مُنْعِـمِ[291]
طَارَدتَ فيهَـا كُـلَّ أَطْـلَسَ شَارِدٍ ... مَتَهَـيِّبٍ نحْـوَ المَنِيَّـةِ مُقْـدِمِ

(289) الكفّ الخضيب : اسم نجم معيّن، وقد سبق شرحه، والشاعر يصف هنا ذلك «القصر المفتّح الطيقان، المحكم الاتقان» كما يقول ابن الخطيب، ويقول في تشبيهه : «كأنّه مبْردٌ واقف، أوْ عَمودٌ في يد مثاقِف، قد أخذَ من الدّهر الأمان، وتشبّهَ بِصَرْحِ هامان، وأُرْهِفَت جوانبُهُ بالصّخْر المنحوت، وكادَ أنْ يصلَ بيْنَ الحوتِ والحوتِ» أي بين الحوت الذي هو السمك والحوت الذي هو برج في السماء، وقد كان القصر المذكور على شاطىء صخري عال داخل في البحر. راجع كتابنا في المنكّب.

(290) أَوْلِمُتْهِمِ : كتب إلى جانبها في الأصل : وَلِمُتْهِمِ، وكأن الشاعر يقترحها قافيةً أُخْرَى.

(291) يفهم من هذا البيت أن قصر نُبْلُه كان يقع على ضفّة وادي شنيل أو جدول من جداوله، ولعلّه من أجل ذلك يدعى الموقع في الرسوم الغرناطية : منهل نُبْلُه ويبدو أنّهُ هو القصر السلطاني الذي كان يخرج إليه الغني بالله للنزهة، وفيه يقول ابن زمرك :

يَـا قَصْرَ شِنِّيـلٍ وَرَبْـعُكَ آهِـلٌ ... والرَّوْضُ مِنْكَ عَلَى الجَمالِ قَدِ اقْتَصَرْ
لِلّـهِ بَحْـرُكَ والصَّبَـا قَـدْ سَرَّدَتْ ... مِنْـهُ دُرُوعًا تَحْتَ أعْـلاَمِ الشَّجَـرْ

وقَدِ انْثَنَيْتَ لِحَضْرَةِ المُلْكِ الَّتِي مَا وَصفُ غُرّ خلالِهَا بِمُكتَمِ
وَافَيْتَهَا فاهْنَأ بأَسْعَدِ وِجْهَةٍ وقَدِمْتَهَا فَاهْنَأ بأَسْعَدِ مَقْدَمِ
مَوْلاَيَ لاَ تُحْصَى خِلاَلُكَ فِي العُلَى إلاَّ بآيَاتِ الكِتَابِ المُحْكَمِ
فإلَيْكَهَا طَوْعَ البَلاَغَةِ آثَرَتْ حُكْمَ البِدَارِ إلَيْكَ دونَ تَلَوُّمِ
جَاءتْكَ مِنْ حُرّ الكَلاَمِ بِلُؤْلُؤ مَا بَيْنَ فَذٍّ للنّظَامِ وَتَوْءَمِ
فَبَقِيتَ مَا سَارَ الحَجِيجُ إلَى مِنًى واحْتَلَّ بالبَيْتِ العَتِيقِ وَزَمْزَمِ

ولَمَّا ظَهرتِ العَمرَة البُرْطُقَالِيّةُ بِبَحْرِ الزُّقَاقِ وأقامَتْ أيَّامًا بَمرْسَى الجَزِيرَةِ ثمَّ كانَ بَعْدَ ذلِكَ اسْتِيلاَؤُهَا عَلى سَبْتَة أعادَهَا اللهُ عاقَهُ رَحمَهُ اللهُ عنِ الخُروجِ بِنَفْسِهِ لِقَصْدِ مُدافَعتِهَا مَرَضٌ شَديدٌ فُتِحَتْ مِن جِسْمِهِ مواضِعُ بالحَدِيدِ بَعْدَ أيَّامٍ كَثِيرَة فَقلتُ في وسَطِ جُمَدى الثَّانية من عامِ ثَمانِيَة عشَرَ وثَمَانِمائة وَظُهورُ الأجْفانِ وعَدَدُها مائتانِ وأرْبَعَةٌ في السَّادِسِ والعِشرين لجُمَدى الأُولَى مِنْهُ(292)

بُشْرَى بمَقْدَمِهَا الاسْلاَمُ يَبْتَهِجُ بهَا سَبِيلُ العُلَى والعزّ يُنْتَهَجُ
مَواهِبُ في الوَرَى جَلتْ مَواقِعُهَا فَقَلَّ أنْ تُبذَلَ الأرْواحُ والمُهَجُ

(292) هذا نصٌّ جديد في موضوع استيلاء البرتغاليين على سبتة، والعمرة أو العمارة تطلق على المجموعة الكبيرة من الأجفان الحربية، أما الجزيرة فهي الجزيرة الخضراء؛ وثمّة نصّ آخر ورد عند ابن حجر العَسْقلاني في إنباء الغمر 7 : 151 قال : «وفيها (أي في سنة 816) أخذ الفرنج سبتة، وكان السبب في ذلك أن أحمد بن أبي سالم المريني نزل عنها لابن الأحمر صاحب غرناطة، فانتقل ما كان فيها من العُدَد والأسلحة والذخائر إلى غرناطة، ثم اتفقت الفتنة المتقدم ذكرها في سنة 814 بين السعيد وقريبه أبي سعيد إلى أن قتل السعيد، وأعقب ذلك الغلاء والوباءُ بمدينة فاس والغرب كلّه، فولّى السعيد على سبتة (في الأصل فاس وهو سبق قلم) رجلا سامهُمْ سوء العذاب، ثم أرسل أبو سعيد إليها رجلاً من أقاربه يقال له صالح بن صالح، فتناهى في الظلم، وفشا فيهم الموت، وبلغ ذلك الفرنج، فَعَمّروا عليهم عدّة مراكب، فحضّ صالح أهل الجبال وأنزلهم على البلد فرجع الفرنج إلى جزيرة بين سبتة وجبل الفتح تسمى طرف القنديل فأقاموا بها، فطال الأمر على أهل الجبال، وظنّوا أن الفرنج رجعوا إلى بلادهم، وقلت على أهل الجبال الازواد فتفرقوا، فبلغ ذلك الفرنج فنازلوا أهل سبتة، فقاتلوهم فغالبوهم بالكثرة، وملكوا منهم الميناء، فخرج المسلمون بأهلهم =

لَطْفٌ منَ اللَّهِ قَدْ عمَّ الوُجُودَ فَمَا ... جَاءَتْ بأَمثالِهِ الأَعْصَارُ والحِجَجُ
فَضْلٌ مِنَ اللهِ قدْ حُيَّتْ فَوَاضِلُهُ ... فَقَصَّرتْ في مَدَى أوْصافِهِ الحُجَجُ -209-
لذلِكَ الدّينُ وَالدُّنْيا قَدِ ابتَهَجَا ... كِلاَهُمَا راقَ مِنْهُ المَنْظَرُ البَهِجُ
واستَشْرَفَتْ أوْجُهُ البشْرى تَرُوقُ سَنًى ... بالبشْرِ والفَرَحِ الآتِي بِهِ الفَرَجُ
بِحَيْثُ أفْقُ المَعالِي رَائِقٌ بَهِجٌ ... بِحَيْثُ رَوْضُ المَعَانِي عاطِرٌ أرِجُ
والدَّوْحُ مُنْعَطِفٌ وَالزَّهْرُ مُبْتَسِمٌ ... والغُصْنُ مُعْتَدِلٌ والنَّهْرُ مُنْعَرِجُ
الشُّهْبُ تَحْكِي يواقِيتًا مُنظَّمَةً ... حُمْرًا تَضَمَّنَهَا مِن لَيْلِهَا سَبَجُ
ولِلقُلُوبِ هُدُوٌّ بالأمَانِ كَمَا ... بالشُّكْرِ ألسِنَةُ القُصَّادِ تَخْتَلِجُ
ما ذاكَ إلاَّ لِبُشْرَى صِحَّةٍ وَرَدَتْ ... بالنُّجحِ لِلدّينِ والدنْيا بهَا لَهَجُ
بُعْدًا لهُ ألَمًا أمْسَى يُلِمُّ بمَنْ ... بهِ السَّبيلُ لِنَصْرِ الدّينِ مُنْتَهَجُ
أهْلاً بمَنْ أعْمِلَتْ في فَتْحِهِ يَدُهُ ... للهِ مِن فَرَجٍ وافَى بهِ فَرَجُ
مَولاَيَ كُلُّ لِسانٍ شَاكِرٌ نِعَمًا ... جلَّتْ وكُلُّ فُؤادٍ بالمُنَى لَهِجُ
ما كانَ عبْدُكَ يَسْتَدْعِي تَصَبُّرَهُ ... إلاَّ وعَن قَلبِهِ للصَّبْرِ مُنْعَرَجُ
ما كانَ عبْدكَ يستَدْنِي مَآمِلَهُ ... إلاَّ تَرامَتْ بهِ طَوْعَ الأسَى لُجَجُ
حَتَّى غَدا البُرْءُ يَجْلُو الحَادِثاتِ كَمَا ... يَجْلُو ظَلاَمَ الدُّجَى مِن صُبْحِهِ البَلَجُ
وَإنْ ألَمَّ بمَوْلاَنَا الرِّضَى ألَمٌ ... كَمْ أزمَةٍ عِنْدَمَا تشْتَدُّ تَنفَرِجُ(293)
هذِي المَنَاهِلُ لاَ عَلٌّ وَلاَ ثَمَدٌ ... هَذِي المَنَاهِجُ لاَ أمْتٌ ولاَ عِوَجُ
هَذِي الحَوَادِثُ لاَ عَيْنٌ وَلاَ أثَرٌ ... هَذِي الأحَادِيثُ لاَ ذَنْبٌ ولاَ حَرَجُ
فاليُسْرُ مقتَبِلٌ والعُسْرُ مُنْتَقِلٌ ... والسِّتْرُ مُنْسَدِلٌ والدَّهْرُ مُبْتَهِجُ

= وأموالهم وما قدروا عليه، فدخل الفرنج البلد في سابع شعبان من هذه السنة، ونقلوا ما كان بها حتى الكتب العلمية، وكان بها منها شيء كثير إلى الغاية، ونقلوا ما وجدوا بها من الرخام والآلات والأمتعة حتى الأنوال وتركوها قاعًا خرابًا، ومع ذلك فهي بأيديهم فلا قوة إلا بالله» راجع أيضًا ما كتبناه في الموضوع في مقدمة الديوان.

(293) أخذه من مطلع المنفرجة : اشتدي أزمة تنفرجي.

فالخَلْقُ تَحْمَدُ من أولَى الجَميلِ وقَدْ … سُرُّوا بناصِرِ دينِ اللهِ وابْتَهَجُوا
هَذا وإنّ وَلِيَّ الكُفْرِ أرْسَلَهَا … سُفْنًا لِنَارِ الوَغَى في مَائِهَا وَهَجُ
هذَا العَدُوُّ الذِي وافَتْ مَرَاكِبُهُ … لِلحرْبِ يَرْفَعُهَا مِن بَحْرِهَا ثَبَجُ
أقَامَ في صَدْرِ مَرْسًى لاَ حَراكَ لَهُ … كأنَّهُ الصَّدْرُ مِنْهُ ضَيِّقٌ حَرِجُ(294)
أتَى بقَوْمٍ قَدِ استَهْواهُمُ أمَلٌ … يعْتادُهُمْ هَوَسٌ يَقْتادُهُمْ هَوجُ
كأنَّهُمْ كُلَّمَا هَمُّوا بمَنْزِلَةٍ … لِوَقْعِ سَيْفِ الهُدَى في هامِهِمْ هَوَجُ -210-
واليوسُفِيُّ الحُلَى أهْلاً بهِ مَلِكًا … أشِعَّةُ الصُّبحِ عَن مَرءاهُ تَنْبَلِجُ
هَذَا الجِهَادُ فَلَوْلاَ ما ألَمَّ بِهِ … من التألمِ ما انحطُّوا ولاَ عرَجُوا
فكُلُّ طَرْفٍ إلَى مَرْمَاهُ مُنْصَرِفٌ … وكُلُّ طِرْفٍ إلى لُقياهُ مُنزَعِجُ
كأنْ بمَوْلاَيَ قَدْ خفَّتْ كَتائِبُهُ … إلَى العِدَى وَصَبَاحُ العَزْمِ مُنْبَلِجُ
كأنْ بأسْيافِهِ بِيضًا مَضارِبُهَا … حُمْرُ الحُلَى بِرقابِ الصُّفْرِ تَمتَزِجُ
كأنْ بأعْلامِهِ تَعْلُو مَعَالِمَهَا … يَسُدُّ دُونَ الأعَادِي أيَّةً نَهَجُوا
ولِلقُلوبِ سُكُونٌ مِن مَهَابَتِهِ … ولِلحُرُوبِ عَلَى أعْدائِهِ رَهَجُ
وهُزّجُ الخيْلِ قَد غَنَّتْ صَواهِلُهَا … بحَيْثُ لاَ رَمَلٌ يُغنِي وَلاَ هَزَجُ
وَفِي العَوامِلِ زُرْقٌ مِنْ أسِنَّتِهَا … لَمْ تَدْرِ أعْيُنُهَا مَا الغُنجُ وَالدَّعَجُ
مَواقِفٌ لَجَّتِ الحَرْبُ العَوَانُ بِهَا … وحَاكِمُ السَّيْفِ مَرْفوعٌ بِهِ اللَّجَجُ
مَوَارِدٌ لاَ تَعَافُ الخَيْلُ مَشْرَعَهَا … ومَاؤُهَا بِدَمِ الأعْداءِ مُمْتَزِجُ
وَالفَتْحُ أبْهَجَتِ الدنيَا حَدائِقُهُ … فَمِن نَواسِمِهَا يُستَنشَقُ الأرَجُ
يا شَمْسَ هَدْيٍ بأفْقِ المَعْلُواتِ بَدَتْ … عَنْهَا غَمائِمُ نَقْعِ الحرب تَنفَرِجُ
يَا حُجَّةً قَامَتِ الدنْيَا بِصِحَّتِهَا … فِي طيِّهَا حُجَجُ الأمْلاَكِ تَنْدَرِجُ
أخْفَيْتَ ذِكْرَ المُلُوكِ الأكْرَمينَ وقَدْ … تَخْفَى إذَا وَضَحَتْ مِنْ شَمْسِهَا السُّرُجُ
ولَمْ تَزَلْ مُظْهِرًا في كُلِّ آوِنَةٍ … مِنَ المَكارِمِ مَا يُنْسِي الألَى دَرَجُوا

(294) المرسى المذكورة هي الجزيرة الخضراء.

فَدُمْتَ يَا مَلِكَ الاسْلَامِ صُبْحَ هُدًى   مَعْنَى وُجُودٍ وأَمْلَاكُ الوَرَى هَمَجُ

ولمَّا استَقَل رَضِيَ الله عَنْهُ مِن مَرَضِهِ
وتمَكَّنتْ راحَتُهُ قُلْتُ في هَنائِهِ بذِلِكَ
في العاشِرِ لِرجب عامَ ثَمانيةَ عشَرَ وثَمَانِ مِائَة

أراحَتْ فُـؤادًا لديْهـا مَشُوقـا   غَـداةَ قَضَتْ مِـنْ هواهَـا حُقُوقـا -211-
وَحَيَّـتْكَ زُهْـرًا بأُفْـقِ الخُـدُورِ   وَزَهْـرًا نَضيـرًا ورَوْضًا أنيقَـا
حُلاً يَرْجِعُ الطَّرْف عنْهَا كَليـلاً   إذا لَـمْ يَجِـدْ لاخْتِـلاَسٍ طَرِيقَـا
فمَـا هِـي أبقَتْ لفِكْـرٍ مَجَـالاً   وَلاَ تَـرَكَتْ لخَيَـالٍ طُرُوقَـا
ولَـمْ تَـدَعِ السِّربَ إلاَّ مَرُوعًـا   ولَـمْ تَتْـرُكِ القَـلْبَ إلاَّ مَشُوقَـا
يَهِيـمُ فُـؤادِي بتَذْكَارِهَـا   وَيمْنَعُـهُ وجْـدُهُ أن يُفيقَـا
وَقَـدْ فُـوِّقَتْ لِـلأسَى نَحْـوَهُ   سِهَامٌ فَلَمْ يُلْـفَ مِنهَـا مُفيقَـا
أعَيْنِـيَ اهْـدَيْتِ قَلْبِـي الجَـوَى   مَعًا جُرْتُمَـا فِي غَرامِـي فَذوقَـا
فَهَـذَا عَليـلٌ يُسيـلُ الدُّمـوع   وهـذي المَدامِعُ تُذْكِي الْحَرِيقَـا
فَلِمْ ذَا نَهَتْ غَيْثَهَـا أنْ يَصُوبَ   ومَـا مَنَـعَتْ رَبْعَهَـا أنْ يَشُوقَـا
أبَتْ لِـيَ إلاَّ غَرامًـا وَوَجْـدًا   وجسْمًـا نَحيـلاً وقَلْبًـا خَفُوقَـا
وَعَيْنًا تحَـامَتْ بحَـار الدُّمـوعِ   وإنسَانُهَـا ظَـلّ فيـهِ غَريقَـا
فَـأيُّ جَـوادٍ بِمُحْمَرِّهَـا   غَـدا فِي مدَاهَـا جَـوادًا سَبوقَـا
يُسائِـلُ عَمَّـن ثَـوَى بالعَقيـقِ   وإنسَانُهَـا ظَـلّ فيـهِ غريقَـا(294م)
وأيُّ قُلُـوبٍ هَـوَتْ إذْ هَـوَتْ   فَخَفَّتْ حَنينًـا وطَـارَتْ خُفُوقَـا
أخَـافَتْ عِـداهُ وقَـدْ أمَّـنَتْ   حِمَـاهُ وقَـدْ رَتَقَتْهَـا فُتُوقَـا

(294م) هكذا ورد هذا الشطر مكررا، ولا شك أنه حصل سهو للناسخ فكتبه في محل شطر آخر.

إِمَـامٌ إِذَا مَـا تَجلّـى سَنَـاهُ ... يُـرَى كُـلُّ مَـلْكٍ لَدَيْـهِ صَعِيقَـا
لَـهُ فِي الخَلاَئِـقِ آثَـارُ عَـدْلٍ ... تَسوءُ العَـدُوّ وَتُـرْضِي الصَّدِيقَـا
لَـهُ فِي المَآثِـرِ شأْوٌ بَعيـدٌ ... فَمَـن ذَا يُؤَمِّـلُ مِنهُـمْ لَحُوقَـا
لَـهُ فِي المَحَامِـدِ آيَـاتُ صِدْقٍ ... جَلَـتْ بَاطِلاً ظَلّ عَنْهُ زَهُوقَـا
لَـهُ فِي المَكَـارِمِ أَخْبَـارُ جُـودٍ ... فَيُوسعْـنَ عَـدْلاً ويُفرجْـنَ ضِيقَـا
كَرِيـمُ الفِعَـالِ صَحَابِيُّـهُ ... يُـرَضّي عَلِيًّـا بـهِ أَوْ عَتِيقَـا(295)
وَيُنمَـى لأَنصَارِ دِيـنِ الهُـدَى ... فَيَـا نَسَبًـا فِي المَعالِـي عَرِيقَـا -212-
فُـرُوعٌ زكَتْ مِن أُصُول كِـرَامٍ ... فَطَـابَتْ مَحـلاًّ وَطَـالَتْ بُسُوقَـا
وَفَـاقَ المُلُوكَ الأُلَى فِي العُلَـى ... ولَـيْسَ بِبِـدْعٍ لَهُـمْ أَن يَفُوقَـا
وكَيْـفَ ومَـازَالَ لِلْمَعْلُـوَاتِ ... وَبَـذْلِ المَكَـارِمِ صِنْـوًا شَقِيقَـا
وَقَـامَ بِأَعْبَـاءِ حِمْـلِ الوَفَـاءِ ... ومَـا كَـانَ مَـلْكٌ سِواهُ مُطِيقَـا
وَقَـدْ جَـرَّدَ اللَّـهُ مِـن عزْمِـهِ ... لأَن يَنْصُرَ الدّينَ سَيْفًا ذَلُوقَـا(295م)
فَمَـا كَـتَبَ النَّصْرُ إِلاَّ خَدِينًـا ... ولاَ جَعَـلَ العِـزَّ إِلاَّ رَفِيقَـا
فأَصْبَـحَ لِلدِّيـنِ كَهْفًـا مَنِيعًـا ... وَرُكْنًـا شَدِيـدًا ومبْنًـى وَثِيقَـا
يَسُلُّ سُيُوفًـا وَيَرْمِـي نُصُولاً ... فَتَهْـدِي نُجُومًـا وَتُبْـدِي بُرُوقَـا
وَغَنَّـى بِـدَوْحِ القَنَـا صَاهِـلٌ ... تُـرِيكَ حُـلاهُ الجَـوَادَ العَتِيقَـا
يَخَـالُ دِمَـاءَ العِـدَى قَهْـوَةً ... يُجِيـدُ صَبُوحًـا بِهَـا أَوْ غَبُوقَـا
أَعَـدَّ لِـذَلِكَ رَأْيًـا مُصِيبًـا ... وحَزْمًـا مَنِيعًـا وَعَزْمًـا سَبُوقَـا
فأَرْهَفَ مِن سَيْفِهِ النَّصْرُ غَرْبًـا ... وَسَدَّدَ مِن سَهْمِـهِ العِـزُّ فُوقَـا
فَيَـا يُوسُفِـيَّ الحُلَـى والصِّفَـاتِ ... فَعَـالاً كَرِيمًـا وَقَـوْلاً صَدُوقَـا
يَجُـورُ التَّأَلُّـمُ فِيمَـنْ غَـدَا ... حَلِيمًـا كَرِيمًـا رَحِيمًـا شَفِيقَـا

---

(295) علي هو ابن أبي طالب وعتيق هو أبو بكر الصدّيق.

(295م) يقترح الشاعر في القافية : ذلوقا وذليقا، وكلاهما صحيح

وكُنَّا نُراقِبُ بَدْرَ الدُّجَى   ونَلْحَظُ للهَدْي مِنهُ بَرِيقَا
وُكنَّا نُشاهِدُ شَمْسَ الضَّحَى   تَرُوقُ جَمَالاً وتُهْدِي شُرُوقَا
فَصَارَ تَعَلُّلُنَا بالأمَانِي   وطُولِ الدُّعَاء فَرِيقًا فَرِيقَا
فَلاَ نُرْسِلُ اللحْظَ إلاَّ تَوَارَى   وَلاَ نُمْسِكُ الدَّمْعَ إلاَّ أُرِيقَا
فَيَا نَظْرَةً عَهِدَتْ نَضْرَةً   فَلَمْ تُلْفِ في الرَّوْضِ غُصْنًا وَرِيقَا
وَيَا أُفُقًا طَالَمَا قَدْ أَنَارَ   فَلَيْسَ لِشُهْبَانِه أن تَرُوقَا
إلَى أن تَدَارَكَ باللُّطْفِ مَنْ   يُقِيلُ العِثَارَ ويُنْجِي الغَرِيقَا
ومَنّ بِرَاحَةِ مَوْلَى الوَرَى   فأضحَى مُفِيضًا نَدَاهُ مُفِيقَا
فَمِنْ ألمٍ بَعْدَمَا قَدْ أَلَمَّ   بعلْيَاهُ حَلَّ مَكَانًا سَحِيقَا -213-
وَمِنْ زَمَنٍ قَد أتَى باسِطًا   يدَ العُذْرِ مِنْهُ رِضًى لاَ عُقُوقَا
وقَدْ أَذْنَبَ الدّهْرُ لكِنَّهُ   أَبَى الحِلْمُ عَن ذَنْبِهِ أنْ يَضِيقَا
ويَا راحَةً أقبَلَتْ بالسُّرور   أَدَارَتْ عَلَى القَوْمِ مِنْهُ رَحِيقَا
هَنيئًا لَنَا وَلدِينِ الهُدَى   شِفَاءٌ أنَالَ الأمَانِي حَقِيقَا
وإنَّ عِدَاكَ لَتُبْدِي زَفِيرًا   وتُسْمِعُ مِمَّا لديْهَا شَهِيقَا(296)
وَهُمْ أثَرَ العَدْلِ عَفَّوْا فقَدْ   بَدَا رَسْمُهُ كَيْفَ شَاءُوا مَحِيقَا
فَحَاقَ بِهِمْ سَيِّءُ المَكْرِ لَمَّا   غَدَوْا أهْلَهُ وارْتَضَوْا أنْ يَحِيقَا
وقَدْ فَرَّقَ السَّيْفُ مِنهُمْ جُمُوعًا   وقَدْ جمَعَ السَّيْبُ منهُم فُرُوقَا
أمَوْلاَيَ خُذْهَا تعِيرُ النّجُومَ   سَنَى والنَّواسِمَ تُذْكَى خَلُوقَا
فَتُبْدِي امْتِدَاحَكَ دُرًّا نَظِيمًا   وتُهْدِي ثَنَاءَكَ مِسْكًا فَتِيقَا
وإنَّ خِلاَلَكَ شُهْبٌ تَجَلَّتْ   ورَاقَتْ بأُفْقِ المَعَالِي شُرُوقَا
فَوَصْفُ حُلاَهَا إذَا رُمْتُهُ   يُقَيِّدُ مِنِّي لسَانًا طَلِيقَا
وكَمْ قَادَ لِي شَارِدَاتِ القَوافِي   فَذَلَّلْتُ مِنْهُنَّ بُزْلاً وَنُوقَا

(296) لديها، يقترح الشّاعر في محلها أيضًا : دهاها.

وَقَيِّدَهَــا بَعْدَمَــا قَادَهَــا ... فأهْـلاً بــهِ سَائِقًـا أوْ مَسُوقَـا
بَقِيتَ تُجَـرِّدُ سَيْـفَ اعْتِـزامٍ ... يُـرَى لِدِمَـاءِ الأعَـادِي مُرِيقَـا
ودُمْتَ تُنيلُ المُنَـى مَـن غَـدَا ... لَـدَيْكَ بِنَيْـلِ المَعَالِـي خَلِيقَـا

وفي المُوفّى ثَلاثَينَ لرَجَبٍ عَام ثَمَانيةَ عَشَر وَثمَانِ مائَة المذكُور وُلِدَ لهُ وَلدُهُ عَبْدُ اللهِ الذي اسْتأثَرَ اللهُ بهِ بَعْدَ ذلكَ بِيَسيرٍ زَمَنَ الوَبَاءِ فَقلتُ في الهَناءِ بذلِكَ مُرْتَجِلاً مِن غيْرِ رَوِيَّةٍ[297]

هَنيئًا هِيَ الآمَالُ حَيَّتْ بِنُجْحِهَـا ... بَشائِرُهَـا لأَحَتْ أشِعَّـةُ صُبْحِهَـا -214-
وَإلاَّ فَمَا بَالُ المَجَّرَةِ قد غَـدَتْ ... تَفَتَّحُ زَهْرُ الزُّهْرِ فِي رَوْضِ جُنْحِهَا
ومَا لطُيُورِ اليُمْنِ قد سَنَحَتْ ضُحًى ... وَرَاقَ عَلَى الأفْنَانِ تَرْدِيدُ صَدْحِهَا
ومَا لِلنَّسِيمِ اللّدْنِ يُذْكَى كَأنَّـهُ ... يُخَيِّمُ فِي بَانِ الخِيَامِ وَطَلْحِهَـا
ومَـا ذَاكَ إلاَّ أن تَطَلَّـعَ نَيِّـرٌ ... مَلاَمِحُـهُ تَنْـأى البُـدورُ بِلمْحِهَـا
أَنَارَتْ بِهِ الأَقْطَارُ لمّا غَدا بِهَـا ... لِتأْمِيلِ أهْلِيهَـا وتـأمين سَرْحِهَـا
فنُورُ الهُدَى لَمْ يَحتَجِبْ عِنْدَمَا بَدَا ... ونَارُ القِرَى لَمْ تَخْبُ مِنْ بَعْدِ قَدْحِهَا
كأنِّي بِهِ يُعْلِي مَعَالِمَ للنَّـدَى ... تُصَرِّحُ جَدْوَاهُ بإعْـلاءِ صَرْحِهَـا
كأنّي بِهِ والكَـفُّ مِنْـهُ غَمَامَـةٌ ... تَجُودُ لَدَى مَنْعِ الزّمانِ بِمَنْحِهَـا
كأنّي بِهِ تَكْفِي الأعَـادِيَ كَفُّـهُ ... وَقَدْ صَافَحَ الأبطَالَ مُرْهَفُ صَفْحِهَا
كأنّي بِهِ والـرومُ تَرْهَبُ بَطْشَهُ ... ونَارُ الوَغَى تَرْمِي بِمَشْبُوبِ لَفْحِهَا
وقدْ حلّ مِنْهَا فِي رِضَاكَ مَعَاقِلاً ... كَفِيلٌ لَهَا الصّنْعُ الجَمِيلُ بفَتْحِهَـا
تَـدُورُ بهَـا غُرُّ الجِيَـادِ كَأنّمَـا ... غَدَتْ سِرْبَ أرْءامٍ تَهَادَتْ لِسَرحِهَا

(297) لقد عظم وجد يوسف الثالث بعد وفاة ولده عبد الله المذكور فرثاه بعدد من الأشعار انظر ديوانه : 86، 105، 123، 124.

فمَا زُهِيَتْ بالخَيْلِ راقَتْ صُفُوفُهَا ... ولِكِنَّهَا حَسْنَاءُ بـاهَتْ بُوُشحِهَـا
وَكَمْ لَكَ مِن صَفْحٍ يُبيحُ دِمَاءَهُمْ ... يُرَوِّي أديمَ الأَرْضِ مُنْهَلُّ سَفْحِهَا
كأنَّ سُيُوفَ الهِنْدِ أنهَارُ دوْحَـةٍ ... تُهَيَّـأُ أرْواحُ العُـدَاةِ لِسَبْحِهَـا
ومَا نَقَعَتْ نَـارَ الحُـروبِ وإنَّمَـا ... جَدَاوِلُهَـا شَبَّتْ لَواعِـجَ بَرْحِهَـا
إذَا ما النَّجيعُ احْمَرَّ فَوْقَ فِرندِهَا ... حَكَى وَجْنَةَ العذْراءِ مِن تَحتْ رَشْحِهَا
فَمَا تَرْتَجِي إلاّ نَدَى كَفِّ يُوسُفٍ ... إمَامِ المُلُوكِ الأَكْرَمِينَ وَسَمْحِهَا
فَللـهِ مِنْهَـا راحَـةٌ ناصِرِيَّـةٌ ... تعَوَّدَتِ الأَمْلاَكُ عَادَةَ صَفْحِهَا
أمَوْلاَيَ يا مَنْ [قَدْ] حَبَا اللّهُ كَفَّهُ ... بأعْلَى أسَانيدِ النَّدَى وأصَحِّهَا
نَـوَاسِمُ أفكَـارِي تُذيعُ مَدَائِحًا ... تَعَطَّرَتِ الأَرْجاءُ مِن طِيبِ نَفْحِهَا
فَهَذِي قَوافِي الشِّعْرِ أعْذَبْتُ وِرْدَهَا ... ومَن رامَهَا ضَنَّتْ عَلَيْهِ بِنَضْحِهَا
رأتْ بمَغَانِي المُلْكِ إذْ سَرَحَتْ بهَا ... مَغَانِيَ لاَ ياتِي البَلِيغُ بشَرْحِهَا
فَصَاغَتْ مِن النظْمِ البَلِيغِ قِلاَدَةً ... ومَوْلَى الوَرَى يُصْغِي اسْتِمَاعًا لِمَدْحِهَا
وقَدْ عَلِمَتْ مِنْهَا القَلاَئِدُ أنَّهَا ... قَلاَئِدُ حَلَّى حُسْنُهَا جيدَ فَتْحِهَا(297م)
فَهَنَّئْتَهَا بُشْرَى تَعُودُ بكُلِّ مَا ... تُؤمِّلُهُ الأَيَّامُ مِن فَوْزِ قِدْحِهَا

(297م) في هذا البيت تورية بكتاب «القلائد» ومؤلّفها «الفتح».

وفِي العَشْرِ الأُخر لِشَهْرِ شَعْبَانَ مِن العَامِ احْتَفَلَ
فِي عقِيقَةِ هَذا المَوْلودِ وإعْذَار أخَوَيْهِ وعَقْدِ
البَيْعةِ لِوَلِيّ عَهْدِهِ وَمُتولِّي الأمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أيَّدَه
الله عَلَى الخَاصّة والعَامَّة بمَا قدُمَ العَهْدُ بمِثْلِه
واسْتَدْعَى لِذلِكَ أكَابِرَ أهْلِ البلاَدِ النَّصْرِيَّةِ
وآثَرهُم برفِيعِ الثِّيَابِ وَفَاخِرِ الكُسَا ونَظَمَ خُدّامُ
بابِهِ مِن الشعَراءِ فِي ذلِكَ قَصائِدَ فأنشَدَتْ بِقبَّةِ
الريَّاضِ قَصيدَةٌ أُعْجِبَ بهَا رَحْمةُ الله
ورَضْوانُهُ عَلَيْهِ

سَلِ البَانَ عَنْهَا أيْنَ بَانَتْ رِكَابُهَا ... ولِمْ رُفِعَتْ فَوْقَ المَطِيِّ قِبابُهَا(298)

وَلِمْ تَرَكَتْ مِنَّا قُلوبًا مَشُوقَةً ... يُقلِّبُهَا طَوْعَ الغَرامِ التِهَابُهَا

يُهَيِّجُهَا الحَادِي فَتَبْهِجُهَا السُّرى ... إذَا مَا انْتَحاهَا شَجْوُهَا وانتِحَابُهَا

ويُذْكِرُهَا عَرْفُ الصَّبا زَمَنَ الصِّبَا ... فهَلْ نَفَحَاتُ الطِّيبِ فُضَّتْ عِيَابُهَا

وإنّي وإنْ كُنت الأبِيَّ قِيادُهُ ... لَيَقْتادُ قَلْبِي وُدُّهَا وَحِبَابُهَا(298م)

إذا انعَطَفَتْ مُرْتاحَةً أوْ تَمَنَّعَتْ ... فَإعْتَابُهَا يُرْجَى ويُخْشَى عِتابُهَا

خَلِيلَيَّ أيُّ الحَالَتَيْنِ مُرِيحَةٌ ... نَواهَا وَقَدْ عَزَّ اللِّقَا أوْ مَآبُهَا

إذَا لمْ تَفُزْ مِنْهَا العُيُونُ بنَظرةٍ ... فَسِيَّانِ عِنْدِي بُعْدُهَا واقتِرابُهَا -216-

وَهلْ نافِعِي بَعْدَ النَّوى قُربُ دَارِهَا ... إذَا كانَ مَسْدولاً علَيْهَا حِجابُهَا

أُمَهِّدُ بالأطْمَاعِ جانِبَ قُرْبِهَا ... وهَلْ غَيْبَة إلاّ ويُرْجَى إيَابُها

وقدْ أتَّقِي في القُرْبِ حَادِثَةَ النَّوى ... وهَل جَيْئَةٌ إلاّ ويُخْشَى ذهَابُها

ألاَ خَلّيانِي والصَّبَابَةَ إنَّهَا ... كِرامُ نفوسٍ في الهَوَى لَذَّ صَابُهَا

---

(298) كتب في الطرة : النّسيب.

(298م) حِبابُهَا : حُبُّهَا.

ومُـرَّا بأطْـلالِ العُـذَيْبِ فإنَّهَــا — قُلوبٌ غَدا عَذْبَ الوُرُودِ عَذابُهَـا
وَقُولاَ لِمَن تَحْمِي الكُمَاةُ خِيامَهَا — ومَن صحَّ لِلعُرْبِ الكِرامِ انتِسابُهَا
ومَن قَوْمُهَا قد بَانَ في بَذْلِهَا النَّدَى — وَنَيْلُ المَعالِي طَبْعُهَا واكتِسابُهَـا
حَكَتْ فئةٌ تُنْمَى لِخِدمَةِ يُوسُفٍ — تَرفَّـعَ ناديهَـا وَعَـزَّ جَنَابُهَـا(298م)
بأنِّي عَلى تِلْكَ العُهُودِ التِي انقَضَتْ — لَـدَيَّ تَسَاوَي بَدْءُهَـا واعْتِقابُهَـا
وأنِّي عَلَى حفْظِ الوِدَادِ وان نَأتْ — بِيَ الدَّارُ أوْ شَطَّتْ بِسَلْمَى رِكَابُهَا
أُنَادِي طُلولاً لاَ تُجيبُ وقَدْ أبَى — جَوَى القَلْبِ إلاَّ أنْ يُرَدّ جَوَابُهَا
وتخطُبُ أفْكَارِي زِيَارَةَ مَـن أبَتْ — خُطُوبُ اللّيَالِي أنْ يُرامَ خِطَابُهَـا
كَـأنّ البِـلاَدَ النَّاصِرِيَّـةَ رامَهَــا — عَـدُوٌّ فراعَتْـهُ امْتِنَاعًـا صِعَابُهَـا(299)
ألاَ بـأبِي تِـلْكَ المَعاهِـدُ إنَّهَـا — يُوَفَّـى بهَـا لِلآمِلِيـنَ طِلاَبُهَـا
فَتَنْهَلُّ سُحْبٌ لاَ تُغِبُّ سِجَالُهَـا — وتَطْلُـعُ شُهْبٌ لاَ يَروعُ غِيابُهَـا
فأنْجُمُ هَدْيٍ مـا يَبِيـنُ بأُفْقِهَـا — وَحَصْبَـاءُ دُرٍّ مَـا يُقِـلُّ تُرابُهَـا
وأيُّ عُهُـودٍ لاَ تَجـودُ عِهادُهَـا — وأيُّ حُظُـوظٍ لاَ تُنَـالُ رِغَابُهَـا
خِلالٌ لَهَا مِن حضرَةِ الملكِ الرضَى — خلاَلٌ لهَا الأخْطَارُ هان ارْتِكَابُهَا(300)
كأنَّ مُتُونَ العِيسَ آفاقُ أنجُمٍ — تَجَلَّتْ وَفِي سُحْبِ الخُدورِ احْتجَابُهَا
إذَا ما هَدَى قَصْدَ النَواظِرِ نورُها — تَنَاهَى مِنَ النَّقْعِ المُثَارِ ضَبَابُهَـا
مَتَى طَلَعَتْ رَاعَ القُلوبَ اطِّلاَعُهَا — وإن غَرُبَتْ رَابَ النُّفوسَ اغْتِرابُهَا
فَسَارَتْ وقَدْ راقَ الدُّجُنَّةَ جِنْحُهَا — ومَدَّتْ عَلى الأُفقِ الجَنَاحَ عُقَابُهَـا
إلَى أن بَدَتْ حُمْرُ السّحابِ كَوَجْنَةٍ — جَلَتْ خَجَلاً إذْ حُطّ عنْهَا نِقَابُهَا -217-
وشَابَتْ مِن اللّيْلِ البهيمِ مَفارِقٌ — يَروقُ مِنَ «الكَفّ الخضيبِ» خِضَابُهَا

(298م) كتب في الطرة : تخلص أول.

(299) كتب في الطرة : تخلص ثان.

(300) كتب في الطرة : تخلص ثالث.

وإنَّ حُسامَ الفَجْرِ يُعمِلُ دونَهَا شَباهُ ويابَى أن يُعادَ شَبابُهَا

وَقدْ طَلَعَتْ شمْسُ الصَّباحِ كأنَّهَا مُحَيًّا ابْن نَصْرٍ والبُنُودُ سَحَابُهَا[301]

إمَامٌ لَهُ حِلمٌ وعِلمٌ ونائِلٌ فَقُل لِعُفاةِ الجُودِ أيْنَ ذَهَابُهَا

إذَا صالَ لَمْ يُجْدِ اللّيُوثَ مَصالُهَا وإنْ صَابَ لَمْ يُغنِ الغيُوث مَصابُهَا[301م]

فَهلْ هِيَ إلاَّ رَحْمَةٌ عَمَّتِ الوَرَى بحَيثُ بِحَارُ الجُودِ فَاضَ عُبَابُهَا

وهلْ هيَ إلا دَوْلَةٌ يُوسُفِيَّةٌ خِلافَتُهَا سِرُّ العُلَى ولُبَابُهَا

وهَلْ هِيَ إلاَّ آيَةٌ ناصِرِيَّةٌ تَطَلَّعَ في أفْقِ الجَلاَلِ شِهَابُهَا

وهَلْ هِيَ إلاَّ هِمَّةٌ خَزْرَجِيةٌ تُصافِحُ عُلْوِيَ النجُومِ هِضابُهَا

فَلِلَّهِ مِنْ أبْنَاءِ نَصْرٍ خَلائِقٌ إلَى الخَزْرَجِ الأرْضَيْنَ يُنْمَى نِصَابُهَا[302]

تُضيءُ بأنْوارِ الرِّسالَةِ مِنْهُمُ وُجُوهُ كِرامٍ أنجَبَتْهَا صِحَابُهَا

نُجومٌ ومِن نُور الوجوهِ شُعاعُهَا غُيوثٌ ومِن سُحْبِ الأكُفِّ انسِكابُهَا

بُدُورٌ بِآفَاقِ السُّروجِ طُلوعُهَا أُسُودٌ ومُلْتَفُّ الذَّوابِلِ غابُهَا

سُيُوفُ حُمَاةِ الدِّين عَزَّتْ رِقاقُهَا بِهِمْ وطُغاةُ الدِّينِ ذَلَّتْ رِقابُهَا

ومُنْفَرِدٍ بالعِزِّ أحْسبَ جُودُه مَقاصِدَ إنْ عُدَّتْ يَعِزُّ حِسابُهَا[303]

بكَفٍّ يَرُوقُ المُعْتَفِينَ اسْتِلاَمُهَا ولَكِن يَرُوعُ المُعْتَدِينَ اسْتِلاَبُهَا

رَحِيبُ مَجَالِ العَفْوِ إلاَّ عَنِ العِدَى فأوْطَانُهُمْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ رِحَابُهَا

بِهِ انقَادَ عَاصِيهَا وَقُدَّتْ صِعَادُهَا وخَابَ مُوالِيهَا وَهَانَتْ صِعَابُهَا

فكَمْ رَايَةٍ بالنّصْرِ قَدْ صَحَّ عَقْدُهَا وَأعْقَبَ إنْ حَلّتْ عُراهُمْ عُقَابُهَا

وَسَبْتَةُ لمَّا حَلَّهَا المُشْرِكُ الذِي لَهُ مِن يَدِ التوْحيدِ حَلّ اغْتِصابُهَا[304]

---

(301) كتب في الطرة : تخلص رابع.

(301م) في الأصل : اللّيوث، وهو تحريف أو سهو من الناسخ، والغُيوث جمع غيث.

(302) كتب في الطرة : ذكر بني نصر أبناء الأنصار.

(303) كتب في الطرة : ذكر السلطان رحمه الله وبعض وصفه.

(304) كتب في الطرة : ذكر سبتة أعادها الله والتحريض على غزوها.

دَعَتْكَ لِنصْرِ الدّينِ مِنهَا قَبائِلٌ … يَهونُ إذا تَرْجو عُلاَكَ مُصَابُهَا
فَمَا رَاعَهَا إلاَّ إليْهَا انتِهاؤُهَا … وَقدْ راقَ أحْزاب الضُّلاَلِ انتِهابُهَا -218-
تُقيمُ حَوالَيْهَا وتَدْعوكَ نَاصِرًا … لِيُخْشَى ثَواهَا حيْثُ يُرْجَى ثَوابُهَا
فَمَا لَذَّ لوْلاَ ان رجَتْكَ طَعَامُهَا … وَلاَ ساغَ لوْلاَ ان دَعتْك شَرابُهَا
ومَهْمَا دَعَتْ يَوْمًا سِوَاكَ مُؤَمِّلاً … تَوانَى وكَمْ غرَّ الظَّمَاءَ سَرابُهَا
فكَمْ مِن جُموعٍ دُونهَا قد تَشَعَّبَتْ … لتَحْيَا وقدْ حَيَّا النُّفوسَ انشِعابُهَا
لَقَدْ أقفرتْ مِن سَاكِنِيهَا دِيارُهَا … ولَمْ يَابَ للكُفْرِ اعْتِمَارًا يَبابُهَا
كأنّي بِهَا قدْ سَدّ عَزْمُكَ ثُلْمَهَا … وفُتِّحَ بالنَّصْرِ المُؤَزّرِ بَابُهَا
كأنّي بهَا والكافِرُونَ عِصَابَةٌ … تُشَقُّ عَصَاهَا أو يُحَلُّ عَصَابُهَا
كأنّي بِمَنْ آوَتْهُ مِن زُعَمائِهَا … وقَدْ بَانَ مِنْهَا زَعْمُهَا وَكِذابُهَا
وقدْ أفْرَدَتْ عَن جَمْعِهِ مَنْ أتَى بهَا … إلَى رِحْلَةٍ مَا ان يُرَجَّى إيَابُهَا
فَما بَالُهُ يبْغِي لَدَى صَحْبِهِ العُلَى … وقَدْ نُضِيَتْ عَن عَاتِقَيْهِ ثِيابُهَا
ثُغُورٌ بَدَتْ مِثْلَ الثغُورِ بَواسِمًا … وقَدْ أعْذَبَتْ وِرْدَ المَنايَا عِذابُهَا
فَلِلّهِ مِنهَا حَيْثُ تَرْشُفُهَا الظُّبَا … ثُغُورًا وما غَيْرُ النّجيعِ رُضَابُهَا
ولِمْ لاَ تُذَادُ الآنَ يا مَلِكَ الهُدَى … بَسَيْفِكَ عَن غَابِ الأُسُودِ ذِئابُهَا
فإن رامَ أهْلَ الكُفْرِ قصْدًا وأعْمَلُوا … مَكَائِدَ كَفُّ البَغْيِ مِنهُمْ تَبابُهَا
سَتُنْقِذُهَا بالرَّغْمِ مِنْهُمْ وأهْلَهَا … بِهِمْ نَشَبَتْ ظُفْرُ المَنَايَا ونابُهَا
وهَل مَلِكٌ يُرْجَى سِوَاكَ لنَصْرِهَا … وهَلْ غَيْرُ ما تَرْضَى عُلاَكَ طِلاَبُهَا
فَجَنْدْ جُنُودَ النّصرِ تَبْتَدِرُ الوَغَى … وقدْ رَاعَ مِن نَارِ الحُروبِ الْتِهَابُهَا
إذَا زأرَتْ في مَوْقِفِ الحرْب أُسْدُهَا … فَلَمْ تَرْضَ إلاَّ بالنَّجيعِ غِضابُهَا
فَتُفْصِحُ بالنّصْرِ العَزيزِ صِفاحُهَا … وتُعْرِبُ عَن نَيْلِ الأمَانِي عِرابُهَا
بِحَيْثُ وُقودُ الحرْبِ رَاعَ ضِرامُهَا … بِحَيْثُ وُفودُ العُرْبِ راقَ ضِرابُهَا
بِحَيْثُ سُيُوفُ الهِنْدِ تحْكِي جَدَاوِلاً … ولَمْ يَطْفُ إلاَّ بالنَّجيعِ حَبَابُهَا

بحَيثُ القَنَا الخَطِّيُّ في حَوْمَةِ النّدَى   تُجَدِّلُ عُبَّادَ الصَّلِيبِ صِلاَبُهَا
بحَيثُ العَوالي والعَجاجُ يَحُفُّهَا   نُجُومٌ جَلَتْهَا في دُجَاهُ حِرابُهَا -219-
أسِنَّتُهَا نَابَتْ عَنِ الشُّهْبِ كُلَّمَا   دَجَا لَيْلُهَا وَهْيَ الحَمِيدُ مَنابُهَا
سَتَسْقِي الأعَادِي لِلْمَنِيَّةِ أكْؤُسًا   فَتَصْحُو نَشاوَاهَا وتَسْلُو طِرابُهَا
سَتُوسِعُ أيدِي المُسْلِمينَ مَغَانِمًا   نِهَايَةُ ما تَبغِي المَعالِي نِهَابُهَا(305)
ولولاَ مُلِمٌّ لِلتَّأَلُّمِ لَمْ يَكُنْ   لَدَى صَوْلَةِ البَازِي يَصِيدُ غُرابُهَا(306)
ألاَ في سَبِيلِ اللّهِ ما لَقِيتُهُ مِنْ   تألُّمِهَا نَفْسٌ جزِيلٌ ثَوابُهَا
فَباللّهِ في الخَطْبِ المُلِمِّ اعْتِصامُهَا   وفِي اللّهِ طَوْعًا صَبْرُهَا واحْتِسَابُهَا
وَكَمْ سَهِرَتْ مِنَّا عُيونٌ دُمُوعُهَا   يُقَلِّبُ حَبَّاتِ القُلوبِ مُذابُهَا
ونَرْفَعُ لِلهِ الأكُفَّ ضَرَاعَةً   فَكَمْ دَعَواتٍ لاَ يُرَدُّ مُجابُهَا
إلى أنْ أرَانَا اللُّطْفَ في ذَاتِكَ الّتِي   فَدَتْهَا البَرايَا شِيبُهَا وَشَبابُهَا
لأذْنَبَتِ الأيامُ فيمَا أتَتْ بِهِ   وها هِيَ مَقْبُولٌ لَدَيْكَ مَتَابُهَا
ولِمْ لاَ وقَدْ جاءَتْ بأيْمَنِ صِحَّةٍ   يَصِحُّ بهَا عمَّا يَرِيبُ اجْتِنَابُهَا
ولِلهِ مِن بُشْرَى أتَتْكَ بِوافِدٍ   تَجلّى عَلى حُكْمِ السُّعُودِ شِهَابُهَا(307)
مَخائِلُهُ دَلَّتْ علَى مَا وراءَهَا   وبَعدَ رَذاذِ السُّحبِ يُرْجَى انسِكابُهَا
فَلَوْ أخَذَتْ منهُ النجُومُ خِلاَلَهَا   لمَا كانَ في نَهْرِ النَّهَارِ احْتِجابُهَا
وأبْصَرَ مَرْآهُ التَّبابِعَةُ الأُلَى   لَمَا كان بالتِّيجانِ قَبْلُ اعْتِصابُهَا
وَعُذْرًا فإنِّي فيهِ وفَّيْتُ قَبْلَهَا   مَعانِيَ راقَ السَّامِعِينَ اقتضابُهَا
ولِلهِ إعْذارٌ أتَاكَ صَنِيعُهُ   بآياتِ صُنْعٍ لَيْسَ يَخْفَى عُجابُهَا
أقَمْتَ بِهِ لِلدِّينِ أكْرَمَ سُنَّةٍ   تَرُوقُ بلبَّاتِ المَعالِي حِقابُهَا(308)

---

(305) نهابها جمع نهب.
(306) كتب في الطرة : ذكر التألّم وتمكّن الراحة بعده.
(307) كتب في الطرة : ذكر المولود المتقدم ذكره.
(308) الحِقاب : ما يتعلّق به الحلي.

وأضْفَيتَ للرِّفْدِ العِمِيمِ مَـلابِسًا … يَروقُ عَلى الأعْطَافِ مِنًا انْسِحابُهَا
وأرْسلْتَ فيهِ الخَيْلَ قُودًا سَوابِغًـا … يُسَكِّنُ مُرْتَـاعَ القُلـوبِ اضْطِرابُهـا
هِيَ المُرْسَلاَتُ الغُرُّ لَوْلاَ انقِيادُهَا … لَصحَّ إلَى الرِّيحِ العَقيمِ انِتِسابُهَـا
طَلائِعُ شُهْبٍ قَدْ حَكَيْـنَ طَوَالِعًـا … مِنَ الشُّهْبِ في أُفْقِ العَجَاجِ ارْتِقابُهَا
فَتُفْرِجُ عَنْهَا الحَرْبُ شُهْبًا مُنيـرَةً … إذا كانَ بالنَّقْعِ المُثارِ احْتِجابُهَـا -220-
وصاعِدَةٍ في الجَوِّ ألْـقتْ ذُيُولَهَـا … فَراقَ بآفـاقِ السَّحـابِ انِسحابُهَـا
تحِـنُّ إلَيْهَـا الذّابِـلاَتُ فَتَرْتَمِـي … فُرُوعًا يُرينَا الأصْلُ كَيفَ اجْتِذابُهَا
إذَا ثَبَـتَتْ رَاقَ العُيُـونَ ثَباتُهَـــا … أو انقَلَبَتْ رَابَ النُّفوسَ انقِلاَبُهَـا
كأنَّ طُيُورًا في ذُرَى الجَوّ حَوَّمَتْ … وثَـابَتْ لأوْكَـارٍ بِهِـنَّ وِثَابُهَـــا
تُقيـمُ إذا لاَقَـى الأمَـانَ ارْتِياعُهَـا … ورُبَّتَمَـا عَنْهَـا ثَنَاهَـا ارْتيابُهَـــا
إذا أخْطَأَ الخَطِّيُّ يَهْدِيـه خَطُّهَـا … ومَا كانَ يَأبَى أنْ يُصيبَ صَوابُهَا
إذَا اعْتَمَدَتْ قَوْسُ السَّماءِ عَمُودَهَا … لِرَمْيٍ فَسَهْمُ السَّعْـدِ يُدْنيـهِ قَابُهَـا
ولِلّهِ مِـنْ نَجْلَيْكَ شِبْلاَنِ أقْدَمَـا … لأمْرٍ حَمَى عَن مِثلِهِ الأُسْدَ غَابُهَا(309)
رُوَيْـدًا فَلَـوْلاَ سُنَّـةٌ نَبَوِيَّـةٌ … يُلَقَّـى ثَـوابَ الصَّابِريـنَ مُثَابُهَـــا
وَشيمَةُ فَضْلٍ راقَتِ القَوْمَ مِنهُمَـا … فَيَرْجُـو عُلاَهَـا مُعْذِرٌ ويَهابُهَـا(309م)
لَسُلَّتْ مِنَ البِيضِ الرِّقاقِ صِفاحُهَا … وهُزَّتْ مِنَ السُّمْرِ الطِّوالِ كِعابُهَا
عَلَى أنَّ نُورَ الشَّمْعِ يُذكيهِ قَطُّهَا … ويَنشَأُ عن بَرْيِ اليراعِ اكْتِتَابُهَـا
وهَـلْ قَهْـوةٌ حتّـى يُـزاحَ فِدَامُهَـا … وهَلْ مِسْكَـةٌ حَتَّـى يُزالَ إهَابُهَـا
ولَـيسَ اقتِـرابُ المَشْرفِيَّـةِ نافِعًـا … لَدَى الحَرْبِ إلاَّ أنْ يَبينَ قِرابُهَا
فلَمْ يُرْضِ لَوْلاَ الصَّقْلُ مِنْهَا فِرِنْدُهَا … ولَمْ يمْضِ لَولاَ الشَّحْذُ مِنْهَا ذُبابُهَا
فَهُنِّئْتَهَـا بُشْرَى تَـوضَّحَ بِشْرُهَـا … فَأهْدَى اجْتِلاَبَ النَّيِّراتِ اجْتِلاَبُهَـا

(309) كتب في الطرة : ذكر الأميرين عند الاعذار.

(309م) عُلاهَا : كتب فوقها : حلاها. أي أنهما قراءتان.

وبيْعَةَ عِزٍّ أحْكَمَ الصُّنْعُ عَقْدَهَا   وجاءَ بمِيقَاتِ السُّعُودِ كِتَابُهَا[310]
ولاَيَةُ عَهْدٍ يَصْحَبُ الفَتْحُ قَصْدَهَا   ويُفْسَحُ لِلنَّصْرِ العَزِيزِ جَنابُهَا
دَعَوْتَ لَهَا أهْلَ البِلاَدِ فَأَهْطَعَتْ   وُفُودٌ بِهَا سَبْقًا تَرامَتْ رِكَابُهَا
لِحَضْرَة مُلْكٍ أعْذَبَتْ مَشْرَعَ النَّدَى   وقَدْ شُرِعَتْ للوَارِدِينَ قِبابُهَا
أتَتْهَا شُعُوبٌ منهُمُ وَقبائِلٌ   فَغَصَّتْ بِهِمْ أعْلاَمُهَا وشِعابُهَا
تَخَيَّرْتَ لِلإِسْلاَمِ خَيْرَ مُؤَمَّلٍ   لِبَيْعَتِهِ راقَ الُوفُودَ انتِدابُهَا
فَلِلهِ مَا أسْمَى خِلافَتَكَ التِي   تَخيرُّهَا طَوْعَ العُلَى وانتِخابُهَا -221-
وإنَّ مَرِينًا أمَّلَتْكَ لِنَصْرِهَا   وقَدْ جَدَّ مِنْ سُمْرِ الرِّماحِ لِعابُهَا[311]
حُلُولَ الجِلاَلِ النَّاصِرِيَّةِ قَصْدُهَا   وَحَمْدُ الخِلاَلِ اليوسُفِيَّةِ دأْبُهَا
كأنِّي بِهَا والصُّنْعُ مِنْكَ حَليفُهَا   وقَدْ ذَهَبَتْ أضْغَانُهَا وَضِبابُهَا[311م]
وقدْ نَهِلَتْ في جودِ كَفٍّ تَسَحَّبَتْ   بأفْقِ المَعالِي في نَداهَا سَحابُهَا
ودونَ إمَامِ الهَدْي رائقَةَ الحُلَى   تَفُوقُ خِلاَلَ الغَانِياتِ كَعابُهَا[312]
تَهادَتْ قَوافِيهَا فأصْبَحَ مُهْدِيًا   كَتائِبَ للنظْمِ البَدِيعِ كِتابُهَا
إذَا ارْتَابَ قَوْمٌ انَّهَا الزُّهْرُ في العُلَى   أوِ الزَّهْرُ في الأدْواحِ يُذْكَى مَلاَبُهَا[313]
تَلُوحُ فَيسْتَهْوِي النُّفوسَ ارْتياحُهَا   ويَذْهَبُ عَنْهَا شَكُّهَا وارْتيابُهَا
فهَذي التِي تُعْطِي البَلاغَةَ حقَّهَا   ويدْفَعُ خَطْبَ النَّاقِدِينَ خِطابُهَا
منَ العُرْبِ تُسْتَحْلَى حُلاهَا وَيُجْتَلَى   لُغامُ مَطايَا لفظِهَا لاَ لُغابُهَا[314]

(310) كتب في الطرة : ذكر أخذ البيعة وولاية العهد.

(311) كتب في الطرة : ذكر مرين وطلبها منه.

(311م) ضِباب جمع ضب، وهو هنا الغل والغيظ، ومنه قول سابق البربري :

وَلاَ تَكُ ذَا وَجْهَينِ يُبْدِي بَشَاشَةً   وَفِي صَدْرِهِ ضَبٌّ مِنَ الْغِلِّ كَامِنُ

(312) كتب في الطرة : الخاتمة على عادة الشعراء.

(313) المَلاب : ضرب من العِطْر.

(314) اللّغاب : الإعياء. ولغام المطية هو الزّبَد الذي يكون على مَلاَغِمِها.

وليْسَتْ قَوافِي الشّعْرِ إلاَّ رَكائِبٌ   تَضِلُّ فيَهْدِيهَا مِنَ المَدْحِ هابُهَـا
بَقيتَ ومِن كَفَّيْكَ سُحْبُ مَواهِبٍ   تجودُ فَيُجْـدِي الآمِليـنَ انسِيابُهَـا
فكَمْ دَعوَة مِنهُمْ لعُلْياكَ أُخْلِصَتْ   ومَا كانَ يُلْفَـى خائبًا مُسْتَجابُهَـا

وفِي آخر صَفَر مِن عَام تِسْعَةَ عَشَر وثمَان مائَةْ
ورَدَ الخَبَر عَلى الحَضرَةِ بِوَفاةِ طاغِيةِ رغُونِ
المُلَقّبِ بالإفَنْتِ عمِّ صَاحِب قَشْتالَةَ ووَصيِّه
وَهُوَ المُتغلّبُ قبْلُ عَلى مَعْقِل انتَقيْرة والصَّخْرَةِ
وغيرِهِمَا مِن حُصُونِ الغَرْبيَّةِ أعادَهَا اللَّهُ
فَقلتُ أهَنِّئُهُ رَحمَةُ الله علَيْهِ بذَلِكَ(316)

هُوَ النَّصرُ لاَ وانٍ ولاَ مُتماكِثُ   رَكائِبُـهُ طَـوْعَ السُّعـودِ حَثـائِثُ
هُوَ الفَتْحُ عَزّتْ أرْضُ أنْدلسٍ بهِ   وذَلَّ المُناوِي والْعَـدُوُّ المُنَـاكِثُ -222-
هُوَ العِزُّ لاَ يَفْنَـى مُرَدَّدُ ذكْـرِهِ   مُخَلَّـدُهُ في صَفْحَـةِ الدَّهْـرِ لابِثُ
هُوَ الصُّنْعُ قدْ جَلَّتْ مَواقِعُه التِي   بهَا اللَّهُ للدّنيا ولِلدّيـنِ غـائِثُ(317)
عَظائِمُ قَـدْ جَـلَّتْ فَـذَلتْ لِعِزِّهَـا   طُغَـاةٌ بُغَـاةٌ للْعُهُـودِ نَـواكِثُ
أُصيبَ إفَـنْتُ الـرُّومِ فَارْتـاعَ قوْمـهُ   وأضْحَتْ بِطاحُ الرُّشْدِ وهْيَ أواعِثُ(318)
تَجَـرَّعَ صابَ المَوْتِ لاَدَرَّ دَرُّهُ   فأيْدِي المَنَايَا كَيْفَ شَاءَتْ عوابِثُ
أصابَتْهُ مِن صَرْفِ الزَّمَانِ مُصيبَـةٌ   بهَا المَوْتُ عاثٍ في حِمَاهُ وعَائثُ

---

(315) الهاب : الصوت الذي تحدى به الابل.

(316) رغون : أرغون ARAGON والافنت EL INFANTE وأنتقيرة ANTEQUERA والصّخرة : صخرة عبّاد ZAHARA. والغربية تطلق على ما يقع غرب غرناطة، ومقابلها : الشرقية.

(317) غائث : يقال غاث الله البلاد يغيثها، وأغاث أيضًا.

(318) أواعث : المواضع الكثيرة الوحل.

سِهَامٌ مِنَ الأَيَّامِ فيهِ نَوافِذٌ ... [وَفي] عُقَدِ السِّرْبِ المَرُوعِ نَوافِثُ

لَئِنْ أَمَّنَتْ مِنهُ الحَوادِثُ قَابِلاً ... عُهُودَ صُرُوفِ الدَّهْرِ فَهْيَ نَكائِثُ

وَهلْ مِثْلُهُ بَحْرَ العَظائِمِ عَابِرٌ ... لِيَنجُو وَمِنْ سَيْفِ المَنِيَّةِ عابِثُ

وَهَى رُكْنُ عُبَّادِ الصَّلِيبِ بِمَوْتِهِ ... فَها هُوَ مِن بعْدِ العُلَى مُتَقَاعِثُ(*)

تَقَدَّمَ يَقْفُو في الجَحِيمِ سَبِيلَهُ ... لِمنتَحِلِي الإشْراكِ رَكْبٌ أشاعِثُ

فَقَدْ راقَتِ الدُّنْيَا جَمالاً وبَهْجَةً ... وقدْ أخصبَتْ مِنْهَا بطاحٌ عَثاعِثُ(*)

عَجائِبُ لاَ الأَيَّامُ أَحْدَثْنَ مِثْلَهَا ... ولاَ الدَّهْرُ عَنْهَا في القَدِيمِ يُحادِثُ

يَقول لِسانُ الدَّهْرِ والكُفْرُ صامِتٌ ... هَلُمُّوا فإِنِّي عَنْ عُلاَهَا مُحَادِثُ

سُعُودُ إِمَامٍ لَمْ تَزَلْ عَزَماتُهُ ... لَدَيْهِ عَلى النَّصْرِ العَزِيزِ بَواعِثُ

هُمامٌ إذا طالَتْ رِماحُ جُنُودِهِ ... زَكَتْ عَنْهُ أَخْبارٌ وَطابَتْ أَحَادِثُ

أَبِيٌّ إذا جَدَّتْ سُيُوفُ جِهَادِهِ ... فَهُنَّ بِهَامِ المُعْتَدِينَ عَوابِثُ

ولِيُّ نَدًى يَنْهَلُّ صَيِّبُ جُودِهِ ... فَينهلُّ ظَمْآنٌ ويَطْعَمُ غَارِثُ(319)

حَليف عُلاً تَبغِي النُّجومُ تَوَصُّلاً ... لَهَا وَهْيَ دُونَ القَصْدِ مِنْهَا لَوابِثُ

بِهِ يَهْتَدِي سارٍ ويَنْجَحُ مَقْصَدٌ ... ويَقفُو سَبيلَ الرُّشْدِ فيهِ مُبَاحِثُ

فإنْ بَاحَثَتْ فيهِ المَعَالِي خَلاَئِفًا ... مَضَتْ فَلَهُ بالفَضْلِ تَقْضِي المَباحِثُ

تَدُلُّ عَلَى العَلْيَاءِ مِنْهُ مَخَايِلٌ ... عَلَيْهِنَّ مِصْدَاقُ الفِراسَةِ بَاحِثُ

لِمَا عَزَّ وَهَّابٌ وبالسَّيْفِ دَافِعٌ ... وَفِي الحَرْبِ مَنَّاعٌ وللجَيْشِ بَاعِثُ -223-

فَوَفَّى حُقُوقَ المَكْرُمَاتِ وَطَالَمَا ... وَفَى بعُهُودِ المَجْدِ والدَّهْرُ نَاكِثُ

وَرَدَّ جُنُودَ الشِّرْكِ وهْيَ عَوابِثٌ ... وَأَرْدَى أُسودَ الغَابِ وَهْيَ دَلاَهِثُ(320)

فَلا العزْمُ مفْلُول ولاَ الرأْيُ فَائِلٌ ... ولاَ الحَزْمُ مَخْذُول ولاَ الخَطْبُ كَارِثُ(321)

(*) متقاعِث : مُستَأْصَل، عَثاعث : مُجدِبة.

(319) غارث : جائع.

(320) دلاهث : الجريئة المقدمة.

(321) كارث : الشاقّ على الانسان.

حُلّى قصّرتْ عَنْهَا القَياصِرَةُ الأُلَى ... بِمَعْنَى انفِرَادٍ لَيْسَ ثانٍ وثَـالِثُ
أَتَطْـلُبُ أمْـلاَكَ الزَّمَـانِ مَنالَهَــا ... وَقدْ أذْعَنَتْ سَامٌ وَحامٌ وَيَـافِثُ
فَيَا ناصِرَ الاسْلاَمِ والواهِبَ الذِي ... تَـؤُمُّ ظِمَـاءٌ جُـودَهُ وغَـوارِثُ
تَهَنَّأْ عَلَى حُكْـمِ السُّعُـود فإنَّـهُ ... قَديمٌ مِن الصُّنْعِ الجَمِيلِ وَحادِثُ
حُبِيتَ بهَا بشرَى فَحلّتْ عَلى النَّوى ... لـديْكَ وأفـواجُ السُّرور حَثَـائِثُ
كأنْ ببِلاَدِ الشِّرْكِ بالسَّيفِ قَدْ عَفتْ ... وبَـانَتْ خَبايَـا عَنْدَهَـا وَخَبـائِثُ
وقـدْ عُمِـرَت بالمُسْلِمِينَ مَشاعِـرٌ ... ولُمَّتْ مِنَ الدِّين الحَنيفِ مَشاعِثُ(322)
كأن بالـذي ألقَـى بِسَبْتَـةَ رَحْلَـهُ ... وقد فَرَّقَ المِقْدارُ ما هُوَ حارِثُ(323)
سَيُفْـرِجُ عَنْهَـا والأُنُـوفُ رواغِـمٌ ... وقدْ كُفيتْ مِنهُ خُطُوبٌ كَوَارِثُ
ويَـقْصِدُ أرْضًا لاَ تُقِـلُّ ركَابَـهُ ... وكَيفَ وأسْبابُ النّجَاةِ رَثـائِثُ(324)
تُـرَدُّ جُنُـودٌ عِنْدَهَــا وَكَتَــائِبٌ ... ويُكْفَى خُطُوبٌ بَعْدَهَا وَحَـوادِثُ
ورأْيٌ رَاهُ فَهْــوَ مِنْــهُ بِظِلْفِـــهِ ... عَلَى حَتْفِهِ كَيفَ اقتَضَى الغَدْر بَاحِثُ
فأفْعالُهُ في النَّجْـمِ حِيـنَ يَرُومُهَـا ... حـدائِث عَهْـدٍ وَالعُهُـودُ نَكَـائِثُ
كَفَى اللّهُ مَن فيهَا [عَلَيْهِ] تَطاوَلتْ ... أرَاذِلُ مِـن أحْزابِــهِ وأخَـابِثُ
إذا خَفِيَتْ في ظلْمَةِ النَّقْعِ هَامُهُمْ ... أشِعَّةُ بيضِ الهِندِ عَنْهَا بَـواحِثُ
فَتُرديهِ أُسْدٌ مِـن جُنُـودِكَ طَالَمَـا ... تَحَيَّزَ عَنْهَـا وَهْـوَ لاَهٍ ولاَهِثُ(325)
يُؤَمِّـلُ فِعْـلاً وَهْـوَ للحَـقّ رافِضٌ ... يُحاولُ قَوْلاً وهْوَ في النّطْقِ لاَفِثُ(*)
ورِثْتَ مِن الصَّحْبِ الكِرَامِ مَآثِرًا ... سَبَقْتَ لهَا حَيْثُ المُلوكُ لَـوابِثُ
حُبِيتَ بِهَا قِدْمًا كمَا شاءَتِ العُلَى ... وآثـارُ أهْـلِ المَعْلُـواتِ حَـدائِثُ

(322) مشاعث : الأمور المتفرقة.

(323) حارث : جامع.

(324) رثائث : خلقة.

(325) لاهث : من اللهث بمعنى العطش.

(*) لافث وألفث : أحمق.

لَئِنْ دَرَجَ الأَعْلَـوْنَ أَبْنَـاءُ قَيْلَـةٍ ... بِحَيْثُ رِياضُ المَكْرُمَاتِ أَثَـائِثُ(326) -224-

فَوارِثُهُم مَنْ أَنْهِدَتْ مِـنْ جُنُـودِهِ ... فَـوارِسُ والبِيضُ الرّقَـاقُ فَـوارِثُ(*)

إذا ما قَضَى الجُودُ المُؤَمَّلُ نَحْبَهُ ... ولِلعَهْدِ فِي التَّعْصِيبِ والفَرْضِ ناكِثُ

ولاَ طَلَبٌ إلاَّ عَنِ المَنْحِ حاجِزٌ ... ولاَ سَبَبٌ إلاَّ لَـهُ المَنْـعُ فـارِثُ(*)

تُؤَمِّـلُكَ الـقُصَّادُ بَـدْءًا وعَــوْدَةً ... فَـلاَ وَارِدٌ إلاَّ لِرُحْمَــاكَ وَارِثُ

لِتُرْوَى بِحُكْمِ الجُودِ عَنْ واكِفِ الحَيَا ... عَنِ البَحْرِ عَنْ جَدْوَى يَدَيْكَ الأَحَادِثُ

وَهَبْتَ وقَدْ أَمَّنْتَ غائِلَةَ العِـدَى ... فَلَمْ يُرْجَ مَأمُولٌ ولَمْ يُخْشَ حادِثُ

أَمَـوْلاَيَ خُذْهَـا لِلثَّنَـاءِ حدِيقَـةً ... كأَنَّ النَّسِيمَ اللَّدْنَ بالمِسْكِ مَائِثُ(327)

وجَدَّتْ جِيادُ الحَمْدِ مِنْكَ فِراقَها ... مَلاَعِبُ فِي أُفْقِ العُلَى ومَعَـابِثُ

فَسارَتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ أَخْبارُ وَصْفِهَا ... وفِي ضِمْنِهَا المَجْدُ المُؤَثَّلُ مَـاكِثُ

وأَهْدَتْ مِنَ الأَفْكَارِ أَبْكَارَهَا التي ... تَهادَتْ ولَم يَفْتَضَّهَا قَبْلُ طَـامِثُ

وحسَّنَ فِكْرِي نَظْمَ كُـلِّ عَجِيبَـةٍ ... فَها هُوَ حَسَّانٌ وجُـودُكَ حَـارِثُ(*)

قَصرَتُ عَلَيْهَا الفِكْرَ حَتَّى تَقَاصَرَتْ ... مَثَـانٍ لَـدَى إِنْشَادِهَــا ومَثَـالِثُ

ولَمْ لاَ يَرُوقُ السَّامِعِينَ حَدِيثُهَـا ... ومَنْظُومُهَا فِي عُقْدَةِ السِّحْرِ نَـافِثُ

ولَمْ لاَ وَمِن جَدْوَاكَ صَوْبُ غَمامَةٍ ... مِنَ البِشْرِ تُزْجِيهَا بُرُوقٌ حَثَـاحِثُ

وأَنتَ الذِي تُولِي المَكارِمَ والنَّدَى ... وتُقدِمُ جَيْشَ النصْرِ والشِّرْكُ رائِثُ(*)

فَـأَقْسَمَ عِـزُّ الـنَّصْرِ أَنَّكَ وَارِثٌ ... بِلاَدَ العِدَى طُرًّا ومَا هُوَ حَانِثُ

(*) فوارث : قواطع، فارث : قاطع.

(326) أثائث : الملتفة المرتفعة. وأبناء قيلة هم الأنصار من الأوس والخزرج.

(327) مائث : مختلط.

(*) الإشارة إلى حسّان بن ثابت والحارث الغسّاني.

(*) رائث : مبطىء متخاذل.

ولمّا عادَ رِكابُهُ العِليُّ من مَالَقَة المحْروسَة
واسْتَقَل بقصْر نُبلُه مُتلوّمًا بِهِ أيَّامًا للراحَةِ
وَالصَّيْدِ في يَوْمِ الخميسِ الخامِسَ عشَر لِشعْبَان
عام تسْعَة عَشَر وثمَان مائة وقدْ أمَرَ جُنْدَ حَضْرَتِهِ
بتَلَقِّي وِليّ عَهْدِهِ وإيصالِهِ إلى حَمْرائه
العَلِيَّةِ وعَرّجَ هُوَ إلى حَيْثُ ذكِرَ فقلتُ -225-

لَعمرك ما يَثْنِي الرِّكَابَ تَـرَبُّصُ ... وَشَمْسُ سُراهَا مِن دُجَى البِيد تخلُصُ
سَرَتْ وبُدُورُ الأَوْجُهِ الغُرّ فَوْقَهَـا ... لهَا مِن سِرار البُعْدِ لِلْقُرْبِ مَخْلَصُ
تُقولُ وَقَدْ رابَ الشُّحُوبُ وُجُوهَهَا ... هَـلِ الـذَّهَبُ الابريـزُ إلاَّ المخلَّصُ
رَحلْنَا بهَا طَوْعَ النَّوى نَقْطَعُ الفَلاَ ... وشِرْعَتُهَـا طَـوْعَ المُقـامِ تُـرَخِّصُ
وجاءتْ لِمَعْنَى الجَمْعِ أحْرُفُ سَيْرِهَا ... ولَـيْسَ ذُنـوبٌ عِنْدَهَـا فَتُمَـحَّصُ
وَقدْ ظَنّتِ البَيْـداءَ رَوْضًا مُفَوَّقًـا ... يُغنّي الصَّدَى من جانِبَيْهَا فَترقُصُ(328)
فَيا طالِبًا في الرَّكْبِ أيْسَرَ لَحْظَةٍ ... عُمومًا ومَعنَى القصْدِ فيهَا مُخَصَّصُ
أَلَمْ يَانِ لِلشّخْصِ الذي خفِيَ اسْمُهُ ... عَنِ الوَهْمِ أنْ يَرْعاكَ وَالركْب يشْخَصُ(329)
سَلِ القومَ عنْهُ والهَوَى حيْثُ أصْبَحَتْ ... جِيـادُ أمانيـهِ تَـخُبُّ وَتَقْـلُصُ(330)
تَـؤمُّ سُرَاهَـا والصَّبابَـةُ خَلْفَهَـا ... فَـتسْري بجِسْمٍ قَلْبُـهُ مُتَـرَبِّصُ
إن اسْتَيأسُوا مِن وُدِّهِ طَوْعَ بُعْدِهِ ... فَقدْ خلَصُوا مِنْهُ نَجِيًّا وأخْـلَصُوا(*)
فلِلِهِ كَمْ وَجْناءَ خَفَّتْ بمُثْقَـلٍ ... عَلاَ مَتْنَهَا طَاوِي الحشَا مِنْهُ أخْمَصُ(331)
عَزِيزٌ علَيْهَا أنْ تَرى أرْبُعَ الهَوَى ... وأطْلاَلُهَا للوَحْشِ والطّيْرِ مَفْحَصُ(332)

(328) رَقْص الابل : ضرب من سيرها كالخبب.
(329) شخص الركب : سار إلى مكان بعيد.
(330) الخبَب والقلوص : ضربان من السير.
(331) أخمص : دقيق البطن.
(332) مَفْحَص : موضع افراخ القطا وغيره من الطير.
(*) هذا من قوله تعالى في سورة يوسف : «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا».

وآثارُهَـا تُخْفِـي مَواقِـعَ أدْمُـعٍ ... تُهينُ مَصُونَ الدُّرِّ مِنْهَا وَتُـرْخِص

كأنّ الذي مالتْ بِهِ سِنَةُ الكَـرَى ... لدَى أخرَيَاتِ الليْلِ في الرّحْلِ أوْقصُ[333]

كأنَّ نُجومَ الأفْقِ أزْهَـارُ دَوْحَـةٍ ... عَلَى قَطْفِهَا بَاتَتْ يدُ الفَجْرِ تَحْرص

كـأنّ ظَـلاَمَ اللّيـلِ فيـهِ غَدَائـرٌ ... ثُلاَثٌ عَلى هامِ النُّجومِ وتُعْـقَصُ

كأنّ الضُّحَى إذْ طالَ لَيْلَي مُغْـرَمٌ ... كَمثلِي يُرَجّى القُرْبَ والقُرْبُ مُعْوِصُ[334]

كأنّ السُّرَى للْمُلْتَقَى ظِلُّ داجِـرٍ ... إذا طَلَعَتْ شَمْسُ الضّحَى يَتَقلَّصُ

كـأنّ تَوانيهَـا نسيبٌ وحَثُّهَـا ... لمَدْحِ الامَـامِ اليُوسُفِـيّ تَخَـلُّصُ

فإنَّ سَحَابَ الأفْقِ والغَيثُ مُسْبَلٌ ... لمجْموعُ جُودٍ من نَـداهُ مُلَـخَّصُ

تُؤمِّلُـهُ الأمْـلاكُ مَثْنَـى وَمَوْحَـدًا ... وقدْ مَحضُوا فَضْلَ الوِدادِ وأخْلَصُوا -226-

فتُوسِعُهُـمْ طَـوْلاً خِلاَفَـتُكَ التـي ... لهَا الفَضْلُ أجْلَى والمَودةُ أخْلَصُ

لقدْ لاَذَ مَن آوَى لخِدْمَةِ يوسُفٍ ... بجانِب عـزٍّ لـمْ يَرُعْـهُ تَنَـقُّصُ

وَهذِي بِلاَدُ الغَرْبِ مَادَتْ بأهْلِهَا ... فَباسِطُ أمْنٍ عِندَهَـا ومُقَـلِّصُ[335]

أتَرْجُـو أمانًـا مِـنْ سِواكَ وإنّـهُ ... لأبعَدُ مِن نيْلِ النُّجـومِ وأعْـوَصُ

ومَـن أمَّـلَ العُقْبَـى لَـدَيْكَ فَضِدّهُ ... يُرَدُّ عَلى الأعقَـابِ مِنْـهُ وينْـكَصُ

وَظَـنّ الـذي نـاواكَ لاَ دَرَّ دَرّهُ ... بـأنَّ لذِيـذَ العَـيْشِ لاَ يَتَنَـغَّصُ

فَـلاَ أفْـقَ إلاَّ جَـوّهُ مُتَغَيِّـمٌ ... ولاَ دَوْحَ إلاّ ظِلُّـهُ مُتَقَـلِّصُ

لأقْدَمَ حَتَّى مالَـهُ عنْكَ مَهْـرَبٌ ... وأحْجَمَ حَتَّى مَالَهُ مِنْكَ مَخْـلَصُ

ومَنْـزِلِ عـزٍّ جِئتَـهُ فَخِلاَلُـهُ ... مَجالٌ لأفْراسِ الجهادِ ومَقْنَصُ[336]

فَكَمْ قَنصٍ مَدَّ الخُطَا مُتَرامِيًا ... إذا مَا رَمَى لَمْ يُخْطِهِ المُتَقَنِّصُ[337]

---

(333) الأوقص : القصير العنق.

(334) مُعْوِص : صعب.

(335) مادت، يقترح الشاعر أيضًا : ماجت.

(336) مقنص أي موضع قنص وصيد، وهو هنا يشير إلى قصر تُبُلُه.

(337) المتقنّص : الصائد.

وكَمْ جارِحٍ يَسْتَقْبِلُ الطَّيْرَ جارِحًا   إذا وَثَبَتْ في جَوِّهَا يَتَغَمَّصُ(338)

لهُ عَوْدَة بعْدَ النّزوعِ فإنَّهُ   أبِيٌّ وَفِيٌّ لِلمَوَدّةِ مُخْلِصُ

يَمُدّ جَناحَيْ عَزْمِهِ وهْوَ مُعْجَبٌ   بِعِطْفَيهِ شَثْنُ الكَفِّ افْتَخُ أقبَصُ(339)

لِعَيْنيْهِ في جَوِّ السَّماءِ تَقَلُّبٌ   بِهِ لِظِلالِ الأمْنِ عَنْهَا تَفَلُّصُ

وَتَنْحطّ أحْيَاناً إلى الأرْضِ يَرْتَجِي   نَجاةً فَيَثْنِيهَا الجَوادُ المُقَلَّصُ(340)

وَذُو أرْبَعٍ لاَ تَخْتَفي عَنْهُ كُلَّمَا   يُفَتِّشُ عَنْهَا في الرَّوَابِي ويَفْحَصُ

وَطِرْفٌ يَفوقُ الطَّرْفَ سَبْقًا إذَا ارتَمى   تَرَى عَيْنَهُ قَبْلاَءَ في الرَّوْعِ تَشْخَصُ(341)

أغَرُّ بَعيدُ الخَطْوِ يُنْمَى لِلاحِقٍ   لهُ في المَدَى جِدٌّ وجيدٌ مُنَصَّصُ(342)

يُجيلُ الامَامُ المُرْتَضى مِنْهُ سابَقًا   لهُ مُطْرِبٌ مِن ذِكْرِ عُلْياهُ مُرْقِصُ

فمَن مِثْلُهُ والأنْجُمُ الزُّهْرُ دونَهُ   إذا مَا عَلاَ أُفْقَ العُلَى مِنهُ أخمَصُ(343)

وإنْ عُدّ آلَ المُلْكِ صيتًا وَرِفْعَةً   وَجُودًا يَعُمُّ المجْتَدِي ويُخَصّصُ

فإنّ وَليّ العَهْدِ أرْفَعُ مَظْهَرًا   فَلَيْسَ عَلَى نَيْلِ العُلَى مِنْهُ أحْرصُ

هِلالٌ بِأُفْقِ المُلْكِ رَاقَ فَنُورُه   يَزيدُ كَمالاً والأهِلةُ تَنْقُصُ -227-

أتَى فتَلَقَّتْهُ الوُفُودُ وَفَوْقَهَا   ظِلالٌ مِن الآلآءِ لاَ تَتَقَلَّصُ

وَسُرُّوا فمَا صَفْوُ الحَياةِ مُكَدَّرٌ   لَدَيهِمْ وَلاَ العَيْشُ الهَنِيُّ مُنَغَّصُ

فَهُنِّئْتَ أن وَافَيتَ حَضْرَتَكَ التي   لدين الهُدَى فيهَا البِنَاءُ المَرَصَّصُ

وهُنِّئتِ الدنيَا قُدُومًا غَدَتْ لهُ   تُحَرِّكُ عِطْفَيْهَا سُرُورًا وتُرْعِصُ(343م)

وَدُونَ إمَامِ الهَدْيِ مِنْهَا قِلاَدَةٌ   يَرُوقُكَ مِنْهَا الجَوْهَرُ المُتَخَلِّصُ

---

(338) يتغمّص : يثِبُ.

(339) أقبص : كبير الهامة.

(340) المُقلّص : الطويل القوائم.

(341) تشخَصُ : يرفع عينه إلى أعلى.

(342) لاحق : اسم فرس معروف، ومنصص : مرفوع.

(343) أخمص : خصر القدم.

(343م) ترعص : تهتز.

أَتَتْكَ عَلَى قُرْبِ المَـدَى عَرِيبَّـةً   لَبِيدٌ بَلِيـدٌ عَـنْ حُلاَهَـا وأحْـوَصُ(*)
فأغْلَيْتَ مِنهَا القَدْرَ وَهْوَ مُخَفَّضٌ   وأغْلَيْتَ مِنهَا السَّوْمَ وهْوَ مُرَخَّصُ
فَلاَ زَالَتِ الدنْيَا تُخَلِّدُ ذِكْرَ مَـا   تُجِيرُ بـه مِـنْ خَطْبِهَـا وتُخَلِّصُ

وكَبا بِهِ رَحِمَهُ اللهُ فَرَسٌ ورِكَابُهُ العَلِيُّ مُقِيمٌ بِوَلْجَرْ من سَفْحِ جَبَل شُلَيْر في يَوْمِ السَّبْت السَّادِسِ لِجُمَدَى الثَّانِيَةِ عَام تسْعَة عَشر وثمَان مِائة فارْتَجَلْتُ لِلحِينِ أُهَنِّئُهُ بالسَّلاَمَة(344)

هَنِيئًـا لِدِيـنِ الهُـدَى الأَشْرَفِ   سَلاَمَـةَ نَـاصِرِهِ يُـوسُفِ
هَنِيئًـا وبُشْرَى لِغُـرِّ الجِيَـادِ   ولِلسَّمْهَـرِي ولِلمَشْرِفِـي
جَرَى القَدَرُ الحَتْمُ ثُمَّ انثَنَى   وقَـالَ لَـهُ الصُّنْـعُ مَهْـلاً قِـفِ
تَرامَـى الجَـوادُ عَلَـى غَفْلَـةٍ   ولَـمْ تَثْنِـهِ هِـزَّةُ المَعْطِـفِ
فَعَنْ أعْطَفِ الخَلْقِ مَـا بالُـهُ   تَرامَـى سَرِيعًـا ولَـمْ يَعْطِـفِ
ولَكِـن لَـهُ العُذْرُ فِيمَـا أتَـى   فَلَمْ يَكْبُ وَهْنًـا ولَـمْ يُسْرِفِ
عـلاَ مَتْنَهُ مِـنْكَ مَوْلَـى هُمَـامٌ   رَءُوفٌ عَطُـوفٌ كَرِيـمٌ وَفِـي
لَهُ راحَـةٌ بَـاتَ يُـرْوَى النَّـدَى   عَنِ البَحْرِ عَـن سُحْبِهَـا الوُكَّـفِ
لَـهُ طَلْعَـةٌ لَوْحَكاهَـا الضُّحَـى   لَمَـا ظَـلَّ مِنـهُ السَّنَـا يَخْتَفِي -228-
وسَاجَلَهَـا النَّجْـمُ لَـمْ يَحْتَجِبْ   وأمَّلَهَـا البَـدْرُ لَـمْ يُـخْسَفِ
فَـرامَ لِيَشْكُرَهَـا نِعْمَـةً   بِغَيْـرِ السُّجُـودِ فَلَـمْ يَكْتَـفِ

(*) لبيد والأحوص شاعران معروفان.

(344) يدّل هذا الكلام على أن الشاعر جمع هذا الديوان بعد وفاة ممدوحه، وولجر : اسم قرية تقع خارج غرناطة في سفح جبل شلير، واسمها اليوم GUEJAR أمّا جبل شلير فهو جبل الثلج المشرف على غرناطة المسمّى : Sierra Nevada.

فَمدَّ إلَى سَجْدَةِ الشُّكرِ كَفًّا وقدْ راعَهُ هائِل المَوْقِف
ولكِنْ سَلِمْتَ فَراقَ الوُجودَ مَقامٌ عَن الجُودِ لمْ يَصْدِفِ
فَللهِ بُشْرَى أَتَتْ عِنْدَهَا فكانَ الزَّمانُ بهَا مُتْحَفِي[345]
لَقد لهجَ العَبْدُ مِنْ أجْلِهَا ولوْ بَذَلَ الرُّوحَ لمْ يُنْصِفِ
ولأَزالَ رَوْضُ المُنَى يُجْتَنَى بِظِلِّ عنايَتِكَ الأَوْرفِ
ومُتِّعتَ بالصُّنْعِ إذْ لمْ يَكُنْ لِمَوْعِدِ نَصْرِكَ بالمُخْلِفِ

وكتَبَ لِي رَضِيَ اللهُ عنْهُ وأنَا بَيْنَ يَدَيْهِ بَيْتَ شِعْر عَلَى سَبِيلِ الانبِسَاطِ فِي الخَامِسِ والعِشرينَ لمحَرَم عَامِ عشرينَ وَثمانِ مائة وأمَرنِي بالتّذْيِيل عَلَيْهِ وهُوَ

لاَ تُنكِرُوا الشّعْرَ عَلَى خدِّهِ فالوَرْدُ لاَ يَخْلو مِنَ الشّوْكِ[346]

فَقُلْتُ مُذَيلا ولمْ ألتزِمْ الوَاوَ قَبْلَ حَرْفِ الرَّوِي

وخُضْرَةُ الزُّمُرُّدِ المنتقَى زانَتْ بَياضَ الدُّرِّ في السِّلْكِ
وطَلْعَةُ الفَجْرِ تَرَى نُورَهَا مُمْتزِجًا بالظّلَمِ الحُلْكِ
والسَّيْفُ لَولاَ أنْ علاَهُ الصَّدا حينًا لمَا كَفَّ عَنِ الفَتْكِ
والدَّمُ ان راقَ فَمُحْمَرُّهُ تَنْشَأُ عنْهُ دُهْمَةُ المسْكِ
والذَّهَبُ الابريزُ لاَ يُجْتَلَى رونَقُهُ إلاَّ مَعَ السَّبْكِ
فَلْتقصِرُوا لاَ تَطْلُبُوا سَلْوَتِي عنْهُ وَلاَ لِحُبّهِ تَرْكِي

(345) يقترح الشاعر للقافية أيضًا : مسعفي.

(346) المفهوم أن البيت المذكور من نظم يوسف الثالث ولكنه لم يرد في ديوانه.

فاسْتحْسَنَ ذلِكَ وقَالَ أريدُ أنْ تُوطِي عَلي
البَيْتِ المَذْكورِ وتَلتَزِمَ حَرْفَ الوَاوِ قَبْلَ حَرفِ
الرَّوِي وكأنَّ ذلِكَ مُتَّصِلٌ بِمَا تَقَدَّمَ فَقلتُ

وَمُعْلَـمُ الشـوْبِ يَـروقُ النُّهَـى   طِـرازهُ في جَـوْدَةِ الحَـوْكِ
يابَهْجَـةَ الـحُسْنِ التِـي طَالَمَـا   دَعَـوْكِ بالسّحْـرِ وحَلَّـوْكِ
يا لِحْيَةً عَابُـوا بهَـا مَـنْ بَـدَتْ   في خَـدّهِ وَقبْـلُ حَيَّـوْكِ
أحْيَيتِهِـمْ بنَظـرَةٍ عِنْدَمَـا   تَوقّفُـوا عِشقًـا ونَـادَوْكِ
هَدَيْتِهِـمْ إلَـى سَبيـلِ بهَـا   أفْئِـدَةَ الـعُشَّاقِ أهْـدَوْكِ
لاَ تُنْكِـروا الشَّعْـرَ عَلى خَـدِّهِ   فالـوَرْدُ لاَ يخْلـوا مِـن الشَّوْكِ

وفي خلاَلِ ذلكَ نَظَم أبياتًا في القافِيَةِ
ولزّمَ الياءَ قَبْلَ حَرفِ الرَّوِيّ وَهِيَ

مَـن ذا يُجيـرُ الصَّبَّ ياراحَتِـي   باللّـهِ مِـن سِحْـرٍ بعَيْنَـيْكِ
مَالِـي عَلَـى الهِجْرانِ مِـن قُـدْرَةٍ   مَـا لَـمْ تُراجِعِـي بِلبّـيْكِ
أحْيَـيْتُ آمالِـي بِتَذكَارِكُـمْ   والذكْـرُ لاَ يُغْنِـي عـنْ يْكِ(347)

فَقُلْتُ وأمَر رَحِمهُ اللّهُ بسِياقِ آخِر لفْظَةٍ في النّظم

يـا طَلْعَـةً رائقَـةَ المجْتَلَـى   مَـنْ أنْـبتَ الشَّعْـرَ بخَـدَّيْكِ
أوْ جَعَـلَ الـغُصْنَ إذَا يَنْثَنِـي   يَفْضَحُـهُ مَائِـلُ عِطْفَـيْكِ
رَضيتِ لِـي هَجرًا وبُعْدًا وهَـلْ   مِـنْ عَـاشِقٍ يَـرْضَى بِحالَـيْكِ

(347) لا توجد هذه الأبيات في ديوان ملك غرناطة ؛ والكلمة الأخيرة في البيت الأخير حذف منها حرف النون.

كَثُرتِ مِن صَدّي بِمِقْدَارِ مَـا عِنـدِي إذًا مِـن قِلّـةِ ...ـلِكِ[348] -230-

ثم انتقلتُ لَسَقِيفَةِ الكُتُب لإقامَةِ رَسْمِ الخِدْمَةِ وإنفاذِ ما صَدَرَ عَنهُ رَحِمَهُ اللهُ مِن إمْضاءِ أوَامِرِهِ ونَواهيهِ فَوجَّهَ عِلجًا صغيرًا بالبَيْتِ وأمَر أنْ أنظِمَ تَذييلاً عَلَيْهِ ومَن حضَر مِن الكُتّابِ الذينَ معِي في الخِدمَةِ فَقالَ مَن تَحَلّى بِنَظْمِ الشّعْر مِنهُمْ ما رُبّمَا لَمْ يَجِيءْ وفْقَ اختِيارِهِ فَقلتُ

لاَ تُنْكِـروا الشّعْـرَ عَلَـى خَـدِّهِ فالـوَرْدُ لاَ يَخلُـو مِـن الشّوْك
يَافِتْنَـــةَ الـــعشّاقِ لكِنهُـــمْ بالأنْـــفُسِ العِلْيَـــةِ فَـــدَّوْكِ
يـا نَظَراتِ اللّحْـظِ مَـا أنصَفـوا لَـوْ أنهُـمْ بالسّحْـرِ حَلَّـوْكِ
أهْـــدَوْا لِمَغْنَـــاكِ تَحِيَّاتِهِـــمْ ثُـمَّ اسْتَقَلُّـوا حِيـنَ حَيَّـوْكِ
قُلُوبَهُـــمْ أهْـــدَوْكِ إذ للْهَـــوَى هَدَيْتِهِـــمْ سَاعَـــةَ أهْـــدَوْكِ
سامُوكِ نَـقْصًا في كَمَـالِ الحُلَـى إذْ هُـمْ بِبَـدْرِ الأفْـقِ سَمَّـوْكِ
كَمْ عاهَدُوا أنّكِ شَمْسُ الضُّحَى وَصَفْقَـــةَ الأيْمَـــانِ أعْطَـــوْكِ
بَـرُّوا إذَا مَـا أقسَمُـوا انَّـهُ حَـقٌّ ومَـا حَـقُّكِ وَفَّـوْكِ
تَمَايَـلَتْ عِطْفَـاكِ زَهْـوًا فَمَـا أشُكُّ أنَّ الخَمْـرَ عَاطَـــوْكِ
فَيَـا نفـوسًا قَـدْ أهَـاجَ الجَـوَى غَرامُهَـــا بالـــوَصْلِ أحيـــوْكِ

وعُذْرًا فِي إثْبَاتِ هَذا الهَذَر فَليسَ فيهِ ما يقَيّدُ لِمكَانِ استِعْجَالِ نَظمِهِ فِي ساعَةٍ واحدَةٍ دُونَ مُبَيّضة ولا نَظَرٍ ولاَ تنقيح فَلاَ خفَاءَ بانحَطَاطِهِ عَنِ الجزالَةِ عَلى ما يَقْتَضِيهِ نظم المقترحَات وإنمَا أثْبَتُهُ تشَوّقًا إلَيْهِ رَحِمهُ اللّهُ وتذكّرًا لِمَا أسْدَى مِن النّعْمَة ورفَعَ مِنَ الرُّتبَةِ وخصَّ بِهِ مِن المزيّة وأظْهَرَ من برّه وتَقْدِيمِهِ عَلى كلّ صِنفٍ تعلق بخدْمة بَابه. نضَّر اللهُ وجْهَهُ

(348) لم يكتب من الكلمة إلا آخرها، وهي واضحة.

ووجّهَ لِي بَيْتَيْنِ لِسَقِيفَةِ الكُتبِ
في الثاني لشَعْبان مِنْ عَامِ ثمَانِيةَ عَشَرَ وثمَانِ مائَةْ

تَركْتُمُ مُهْجَتِي نَصْبًا لأعيُنِكُمْ ... وقَدْ عَمَرْتُمْ فؤادًا مُوحِشًا خرِبَا
لَعَلَّ عيْنًا أصابَتْنَا فَلاَ نَظَرَتْ ... أَوْ وَاشِيًا قَالَ فيمَا بَيننَا كَذِبَا(349)

وطلَبَ التَّذْييل علَى لسَانِه فارتجلتُ مِن غير تَوَقُّفٍ(350)

مهلاً فإن سِهَامَ العَيْنِ حينَ رَمَتْ ... ولمْ تُصِبْ نَالَ مِنها المُعْتَدِي وَصَبَا
بعْدًا لقائِلِ زُورٍ فاهَ مِقْوَلُهُ ... بِمَا يُؤَكِّدُ مِنَّا لِلرِّضَى سَبَبَا
أتَى لِيُخْفِي الرِّضَى مِنَّا فأظْهَرَ مِنْ ... سِرِّ الإرادَةِ ما قدْ كانَ مُحْتَجِبَا
ألقَى أحاديثَ لَكِن لَسْتُ أسْمَعُهَا ... إلاَّ لِذِكْرَى لهَا قَلبِي صَغا وَصَبا
رامَ القَطيعَةَ حيْثُ البَغْيُ شِيمَتُهُ ... لاَزالَ مِن بَغْيِهِ قَصْدًا ولاَ أَرَبَا
وكَيْفَ والحِلْمُ منّي آيَةٌ طَلَعَتْ ... بِمَظْهَرِ العَدْلِ تُبْدِي مِنْهُ ما احْتَجَبَا
وكيفَ والفَضْلُ منّي شيمَةٌ شَرُفَتْ ... تُجيرُ مَن لَمْ يَزَل لِلصِّدْقِ مُنتَسِبَا
لنَا الوَفاءُ الذِي تأبَى مَكارِمُنَا ... أن تَسْتَرِدَّ مِنَ الأفْضَالِ مَا وَهَبَا
وكُلُّ أمْرٍ إذا جَلَّتْ مَواقِعُهُ ... فالصَّبْرُ باليُسْرِ تَقْضِي عِندهُ عَجَبَا
وكُلُّ مَلْكٍ إذَا فَدَّى خِلاَقَتَنَا ... ما كانَ يقضِي لَهَا الحَقُّ الذي وَجَبَا
أنَا الإمَامُ الذي تُرْجَى مَكارِمُهُ ... لِلهِ مِنهَا خِلاَلٌ فَاقَتِ السُّحُبَا
أنا الهُمَامُ الذِي تُخْشَى عَزائِمُهُ ... في الحَرْبِ انْ كَتَّبَ الأجْنَادَ أوْ كَتَبَا

(349) ورد البيتان مع بعض الأختلاف عما هنا في ديوان ملك غرناطة : 12 — 13.

(350) هذا التذييل الذي نظمه ابن فركون على لسان يوسف الثالث، ورد منسوبًا إلى هذا الملك في ديوانه : 12 — 13 مع التقديم الآتي : «كذلك ممّا نظمناه في النسيب». ويبدو أن فركون الذي جمع ديوان مخدومه تنازل عمّا نظمه على لسان مخدومه ونحَلَه إياه، وهذا يذكّرنا بما قيل عن الكاتب ابن عبد ربه ونَحْلِه بعض شعره لمخدومه الأمير الموحدي أبي الربيع سليمان.

فكَيْفَ تُخْفَرُ عِنْدِي ذِمَّةٌ ثَبَتَتْ لَدَيَّ أخبارُهَا طَبْعًا ومُكْتَسَبَا
لاَ دَرَّ دَرُّ امْرِىءٍ يُرْدِيهِ مَذْهَبُهُ كَلاَّ ولاَ نَالَ قَصْدًا أيَّةً ذَهَبَا
واللَّهُ يَكلأُنا مِنْ عَيْنِ ذِي حَسَدٍ رَمَى فَعَادَ عَلَيْهِ السهْمُ مُنقلِبَا
حَتَّى يبِيدَ العِدَى طُرًّا وَيُنْجِزَهُ وَعْدًا كَرِيمًا لِنصْرِ الدِّينِ مُرْتَقَبَا -232-

وكَتبتُ إليهِ رَحمَةُ الله عليْهِ فيمَا يَظْهَرُ منْهَا

أمَوْلاَيَ الذي فاقَتْ يَدَاهُ غَمامَ الأُفْقِ في المِنَنِ الجَسيمَهْ
رواحِلُ عبْدِ نُعْماكَ استَقَلّتْ لوِجْهَتِهَا ومَا بَرحَتْ به مُقيمَهْ
ولَوْلاَ سُنّةُ الإمْلاَكِ أضْحَتْ مَنَاهِجُهَا صِباحًا مُسْتَقيمَهْ
عَلَى أنَّ التي أُلْقَتْ لَدَيْهَا أزِمَّتَهَا مُهَذَّبَةٌ وَسيمَهْ
ولكِنْ خِدْمَتِي شَرَفِي وذِكْرِي لَدَى مَوْلاَيَ مَوْهِبَةٌ عَظيمَهْ
ولَوْ عُوّضْتُ مِن نظَرِي إلَيْهِ بعِزّ الدَّهرِ لاَ أرْضَى نَعيمَهْ
فَقَصْدُ العَبْدِ إنعَامٌ بإِذنٍ فكَمْ لِعُلاَكَ مِن نعَمٍ عمِيمَهْ
أُحَلُّ بهِ لَدَى أعْلَى مَقامٍ أقيمُ وَظائِفَ الخِدَمِ الكَرِيمَهْ

مَبْدأُ قَصيدَة

مَا للسُّرَى دَعَتِ الرّكَابُ حَثيثَهَا حَيْثُ الصَّبَا قَدْ نَازَعَتْكَ حَديثَهَا
هَيمًا إذا عزَمَتْ فكُلُّ مُهَنَّدٍ ذكْرٍ يُؤمّلُ مُنْجِدًا تانيثَهَا
تُهْدِي إلَيْكَ مَعَ الصَّبَاحِ تَحِيّةً يَهْدِي شَذَا الزّهْرِ الأنيقِ بُعُوثَهَا
حَيْثُ الهَوَى يُلْقِي حَبائِلَهُ التِي ما وَاصَلَتْ أيْدِي السُّلُوِّ رَثيثَهَا
وكَتِيبَةُ الأشْوَاقِ رَدَّ مُغيرَهَا صَبْرٌ ألَمَّ بهَا فكَانَ مُغيثَهَا
والصّبْحُ قَدْ لَقِيَ الظّلاَمَ بعِمَّةٍ لَيَلُفَّهَا مِن فَجْرِهِ ويَلُوثَهَا

أهـلاً بِهَبَّـاتِ المَـواسِمِ كُلَّمَـــا سَكَبَتْ عَلى محْلِ القُلوبِ غُيُوثَهَا
إنْ حَدَّثَتْ أخْبَارَ مَن سَكَنَ الحِمَى أَلْقَتْ لَـدَيْكَ قَديمَهَـا وَحَديثَهَـا
فَكأنَّمَـا أخْبَـارُ دَوْلَـةِ يـوسُفٍ نَسْتَقْبِـلُ اسْتِينافَهَـا وَحُدُوثَهَـا

-233- ولمَّا تُوفي أخوهُ الأميرُ أبو الحَسَن عَلِيٌّ الذي كان لَقَبُهُ مُعِزَّ الدَّوْلةِ بالحَضْرَةِ ورِكابهُ العليُّ بوَلْجَر، وكان تِلكَ اللَّيْلَةِ رَاحِلاً إلى الخروبَة فعرَّجَ رَحِمَهُ الله إلَى الحمْراء لمُوارَاةِ شَقيقِهِ المَذْكور، وبعْدَذلِكَ خرَجْنَا في العِشاءِ الآخِرَةِ إلى قَرْيَةِ هَمَدَان ثمَّ إلَى الخَرُّوبَةِ مِن قُرى مُلْتُماسَ بَعْدَ مَرْحَلَتَيْن، فَقُلْتُ أعَزِّيهِ ونَظَمْتُهَا عَلَى ظَهْرِ الفَرس أثْناءَ الطَّرِيقِ إلى مَرحَلَة وادِي النِّيبَل مِنْ أحْواز الحمَّة، وحَقُّ هذِهِ والتي بعْدَهَا أن تُثْبَتَ في المَراثِي لِكِنْ أثبتُّهُمَا هُنَا كَوْنُ هذهِ خاطَبْتُهُ بهَا رَضيَ الله عنهُ وقدَّسَ رُوحَهُ والثَّانية نظمتُهَا عن أمْرِهِ(351)

عَزاءً فإنَّ الخَطْبَ قَدْ جلَّ مَوْقِعَا وَصَبْرًا وان لَمْ يُبْقِ للصَّبْرِ موضِعًا(352)
تـأسَّ أميـرَ المُسْلِميـنَ فإنَّـهُ وُرُودُ سَبيـلٍ لـمْ يَـزَلْ مُتَوقَّعَـا

(351) سيذكر الشاعر فيما بعد تاريخ وفاة شقيق ملك غرناطة معز الدولة أبي الحسن علي، ولم يشر الشاعر إلى سبب وفاته، ويبدو أنه مات حتف أنفه، وقد كان لموته أبلغ الأثر في شقيقه الملك، ورثاه بعددٍ من المراثي (ديوانه : 106، 167، 170) وممّا قاله في أحدها :
كُـنْتَ دُنْيـايَ هـا أنـا حَـيْثُ قيـلَ أبـو دُلَـف
يلمح إلى قول
إنّما الدنيـا أبـو دلـف بين باديـه ومحـتضَرهْ
فـإذا مَـا وَلّـى أبَـو دُلَـف ولت الدنيـا على أثـرهْ
وقد خلّف هذا الأمير ولدًا سيعتلي عرش غرناطة في ظروف عصيبة وهو السلطان أبو النّصْر سعد المستعين بالله جد آخر ملوك غرناطة.
وولجر الواردة في المقدمة تقدم ذكرها، أما الخروبة فهي Algarrobo من إقليم مالقة، وقرية همدان من قرى غرناطة واسمها اليوم Alhendin وملتماس (أو منتماس) هي Bentomiz ووادي النيبل Nivar ورد ذكره أيضًا في كتاب التبيان للأمير عبد الله الزيري.
(352) عزاءً فإن، يقترح الشاعر أيضا : عزاء فهذا.

تَعزَّ إمَامَ الأكْرمينَ فإنَّ في ... بَقائِكَ فينَا للحَوادِثِ مُرْدَعَا
فإنَّ عَليًّا قَدْ قَضَى اليَوْمَ نَحْبَهُ ... فلمْ نَلْقَ مِثْلَ اليَوْمِ أدْهَى وأفْظَعَا
وإنَّ عَليًّا مَنْ عِلِمْنَا كَمالَهُ ... فَلاَ تُنْكِرُوا أنَّا نهيمُ تَشَيُّعَا(353)
فَيا نَجْمَ أفْقٍ قَدْ هَوَى بِيَدِ النَّوى ... ومَا كانَ إلاَّ لِلهدايَةِ أُطْلِعَا
ويا غيثَ سُحْبٍ طَالَمَا جادَ بالنَّدَى ... فَرَوَّى جَنابًا قدْ ذَوَى حينَ أقْلَعَا
ويَا بَدْرَ تَمٍّ ضَمّهُ التُّرْبُ مَغْرِبًا ... وكانَ لهُ أفْقُ المَكارِمِ مَطْلِعَا
وعَهْدِي بِبَدْرِ التَّمِّ يسْمُو إلَى العُلَى ... فمَا بالُهُ في التُّرْبِ أصْبَحَ مُودَعَا
رَحَلْتَ فَمَا خَلَّفْتَ إلاّ مُرَوَّعًا ... مَشُوقًا مُعَنًّى مُغْرَمَ القَلْبِ موجَعَا
نأيْتَ فمَا ودَّعْتَ إلاَّ مُتَيَّمًا ... رهينَ أساهُ مُسْتَهامًا مُفَجَّعَا -234-
فَيا حَسْرَةً جَلَّتْ مَواقِعُ خَطْبِهَا ... ويَا عثْرَةً ما إنْ يُقالُ لَهَا لَعا
وانَّ مُحَيًّا لاَحَ في مَظْهَرِ العُلَى ... تَوارَى فأضْحَى بالتُّرابِ مُقَنَّعَا
وانَّ جَمَالَ الوَجْهِ غَيَّرَهُ البِلَى ... ويا طَالَمَا أبْدَى الجَميلَ وأبْدَعا
لَقَدْ وَضَعُوا في التُّرْبِ مَن كانَ كلمَا ... تُجاريهِ شَمْسُ الأفْقِ أسْنَى وأرْفَعَا
لَقَدْ كانَ صَدْرَ المَعْلُواتِ وقلْبَهَا ... لِذلِكَ ضَمَّتْهُ الصَّفائِحُ أضْلُعَا
عَلِمْنَا بأنّ الوَجْدَ أوَّلُ وافِدٍ ... غَداةَ نَوَى عنَّا الرَّحيلَ ووَدَّعَا
سَألْنَاهُ عَهْدًا بالبَقاءِ فَمَا وَفى ... ورُمْنا جَوابًا للنّداءِ فمَا وَعَى
وقَفْنَا عَلى الأطْلاَلِ وَهْيَ بَلاَقِعٌ ... نُسَاجِلُ فيهِنَّ الحَمامَ المُرَجَّعَا
ولاَ جِسْمَ إلا أنْ يَذوبَ صَبابَةً ... ولاَ قَلْبَ إلاّ أنْ يَحِنَّ ويَنْزَعَا
أنَرْكَنُ لِلسُّلْوانِ بعْدَ بعَادِهِ ... ولَمْ يُبْقِ فيهِ موقِعُ الخَطْبِ مَطْمَعَا(354)
لأفْنِي قُوَى الصَّبْرِ الجَميلِ فراقُهُ ... ولكِنَّهُ أبْقَى سُهَادًا وأدْمُعَا
فَيا لَيْتَ شِعْرِي مَن أراهُ مُؤدِّيًا ... إلَيْهِ سَلاَمِي حينَ ولَّى مُوَدِّعَا

---

(353) يورّي بالامام علي والشيعة.

(354) موقع، يقترح الشاعر أيضًا : فادح.

دَعاهُ الرَّدَى حَتّى أجابَ نِدَاءَهُ   وأسْرَى بِهِ رَيْبُ المَنُونِ فأسْرَعَا

أجابَ مُنَادِيهِ غَداةَ دَعابِهِ   وكَمْ نَطَقَ الدَّاعِي فَلَبَّاهُ مُسْرِعَا

تأهَّبَ للمَوْتِ الذِي جاءَ وافِدًا   ومَا هابَ انْ يَلْقَى العَوالِيَ شُرَّعَا

فكَمْ هَزَّ فِي الحَرْبِ العَوانِ حُسامَهُ   وأرْسَلَ يقْفو إثْرَهُ الرُّمْحَ مُشْرَعَا

سَلُو عَنْهُ فِي الهَيْجَاء أرْضَ شُقُورة   وقَدْ أصبَحَتْ مِنهَا المَعاهِدُ بَلْقَعَا

وفِي جَبَلِ الفَتْحَينِ كَمْ جَدَّ عَزْمُهُ   سِباقًا إلَى دَاعِي الهُدَى وتسَرُّعَا

سَيلْقَى لدى الرَّحْمَانِ فَضْلَ جِهَادِهِ   شَفيعًا كَمَا يُرْضِي النَّبِيَّ مشَفَّعَا

فَقَدْ كانَ فِي العَلْيَاءِ أرْفَعَ مَظْهَرًا   وأكْرَمَ آثارًا وأعْذَبَ مَشْرَعَا

إلَى أن أثارَ الدَّهْرُ كامِنَ حِقْدِهِ   فَعَمَّى جِلالاً مِن حِماهُ وأرْبُعَا

فَعُذْنَا بِطولِ الذِّكرِ لوْ كان مُجْدِيًا   ولُذْنَا بحسْنِ الصَّبْرِ لَوْ كانَ مُقْنِعَا

لَقَدْ حسَدتْ زُهْرُ النجُومِ خِلالَهُ   فأبْدَتْ إلَى عَلْيائِهِنَّ تَطَلُّعَا -235-

رَمَتْهُ عَلَى عَمْدٍ سِهَامُ عُيُونِهَا   فمَا أخْطأتْهُ حَيْثُ لمْ نُلْفِ مَدْفَعَا

فإنَّا إلَى اللَّهِ العَظِيمِ وإنَّنَا   لرَحْمَتِهِ نَرْجُو مَآلاً ومَرْجِعَا

لَأذْنَبَتِ الأيَّامُ فيمَا أتَتْ بِهِ   ولكِنَّهَا أبْقَتْ إلَى العُذْرِ مَوْضِعَا

إذا هِيَ أبقَتْ ناصرَ الدّينِ يوسُفًا   فَقَدْ شَيَّدَتْ للدِّينِ رُكْنًا مُمَنَّعَا

فَلاَ أذْهَبَتْ صُنْعًا جَميلاً أفادَهُ   خُلُودًا ولاَ هَدَّتْ لِعُلْيَاهُ مَصْنَعَا

ولاَ صَدَعتْ للدّينِ شَملاً قَضَى بأنْ   يَقُومَ بأمْرِ اللَّهِ عَنْهُ ويَصْدَعَا

ولاَرُوِّعَ السِّرْبُ الذِي هُوَ آمِنٌ   ولاَبُدِّدَ الشَّمْلُ الذِي قد تَجَمَّعَا

ودامَ بمَنْ حَطَّ الرّكابَ .بِطَيْبَةٍ   ومَن طَافَ عِندَ الحجر والرُّكنِ أوْسَعَى

ولأزالَ بالعَلْياءِ .وَالعِزِّ مُفْرَدًا   وقدْ حَازَ أشْتَاتَ المَكَارِمِ أجْمَعَا

سَألْنَا لَهُ اللَّهَ البَقَاءَ مُخَلَّدًا   وحاشَى وَكلاّ أن يُخَيِّبَ مَن دَعَا

وأمَرني رَحمَهُ الله بِنَظْمِ أبْيَاتٍ لِتُكْتَبَ عَلَى تَاريخِ لحْد هذَا الأميرِ، ثمَّ ظهَرَ لهُ أن يُكْتَبَ غَيْرُهَا عَلَى لِسانِه، ولمْ تُكْتَبْ هذِهِ فَقلْتُ ووَفاتُهُ لَيْلَةَ الأحَدِ الرّابعَ عشَر لجُمدى الثَّانية مِن عامِ تسْعَة عشَر وثمَانِمائَة(355)

سَقَى الغَيْثُ يَومَ النّوَى تُرْبَهُ ... فَقَدْ كانَ يَوْمَ النَّدى تِرْبَهُ

وكانَ حُسَامًا لِحَرْبِ العِدَى ... ففَلَّتْ أكُفُّ الرَّدَى غَرْبَهُ

وكانَ غمامًا يُحَيّي الوُجودَ ... ويُحْيِي فَقَدْ مَنَعَتْ سَكْبَهُ

وكانَ سَمَاءً لِنورِ الهُدَى ... فَقَدْ قَلَبَتْ لِلثَّرَى قُطْبَهُ

وكانَ امانًا لمنْ أمَّهُ ... فَمَا بالهَا رَوَّعَتْ سِرْبَهُ

وكانَ لِقُصَّادِهِ مَوْرِدًا ... فأمْسَى وقد كَدَّرَتْ شِرْبَهُ

وكانَ لدولَةِ مَولَى المُلوكِ ... مُعِزًّا تَوَدُّ العُلَى قُرْبَهُ -236-

وكانَ تَهَابُ العِدَى بَطْشَهُ ... فَمَا لِلَّيالي أتَتْ حَرْبَهُ

رَسَا عَلَمًا لِلْهُدَى والنَّدَى ... فأضحَى وقد زَلْزَلَتْ شِعْبَهُ

هَوَى نَجْمُهُ مِن سَمَاءِ العُلَى ... مُنيرًا فكَانَ الثَّرَى غَرْبَهُ

فَلَوْ أنصَفَ الأفُقُ مِنْ بَعْدِمَا ... هَوَى لَمْ يَبِتْ مُطْلِعًا شهْبَهُ

ولَوْ أنصَفَ الغَيْثُ حَيًّا حِمَى ... فَتًى لَمْ يزَل مُرْسِلاً سُحْبَهُ

فَيا لِضريحٍ ثَوَى عِندَهُ ... غَداةَ أناخَ بِهِ رَكْبَهُ

هُوَ القَبْرُ ضُمِّنَ مَن لمْ يَزَلْ ... مِنَ القَصْرِ لاَ يَرْتَضِي رحْبَهُ

أبَعْدَ عَلِيٍّ تَرَى الدَّهْرَ قَدْ ... زَهَا مُظْهِرًا في الوَرَى عُجْبَهُ

وفَى لِلّيالي فَخَانَتْ عُلاَهُ ... وأعْتَبَهَا فَارْتَضَتْ عَتْبَهُ

فَسَلْ بالحِمَى عَنْ عَلِيٍّ وقَدْ ... حَماهَا لِمَا اعْتَمَدَتْ سَلْبَهُ

---

(355) توجد القصيدة الأخرى المشار إليها في ديوان ملك غرناطة : 169 ويفهم من قول الشاعر : «ثم ظهر له أن يكتب غيرهَا على لسانه» أن تلك القصيدة ليست من نظم يوسف الثالث ولكنها قُدّمَتْ في ديوانه بما يلي : «وممّا أصدرناه ونظمناه ليرسم على لحد أخينا رحمه الله».

وجـاءَتْ بكُـل أبـيٍّ القيَـادِ فَذَلَّــلَ مــن عَزْمِــهِ صَعْبَــهُ

وأبْرَأهَــا إذْ شَكَتْ مُــعْضِلاً مِـن الخَـطْبِ والتَمسَتْ طِبَّــهُ

هُـوَ المُـلْكُ قَدْ نَـوَّمَتْ جَفْنَـهُ هُـوَ العِـزُّ قَـدْ قَلَّـبَتْ قَلْبَـهُ

فهَاذِي الامَـارَةُ تُبْـدِي النَّحـيبَ عَلَيْــهِ غَـداةَ قَضَى نَحْبَـهُ

فَمِــن أعْيُــنٍ فَقَــدَتْ حُسْنَــهُ ومِــن أضْلُــعٍ ضُمِّـنَتْ حُبَّـهُ

أصِنْـوَ الامَـامِ الهُمَـامِ الـذي إذا عَـنَّ أمْـرٌ كَفَـى خَطْبَـهُ

لَقَدْ نَهَبَتْكَ يَـدُ المَـوْتِ مِـنْ حِمَـى مَن تَهابُ العِدَى نَهْبَـهُ

فمَـا اعْتَمَـدَ الصَّبْـرَ مِن بَعْدِهَـا سِوَى لِيُطِيـعَ بـهِ رَبَّـهُ

سَقاكَ مِن الغيْثِ مَا قَدْ حَكَـى تَنـاؤُكَ زَهْـرَ الرُّبَـى غِبَّـهُ

فكَمْ مَوْرِدٍ لَمْ تَزَلْ في الجِهَـادِ تَعـافُ عَلَـى ظَمَـإٍ شُرْبَـهُ

إلَـى أن تُبَلِّـغَ ديـنَ الهُـدَى لَـدَى المُلْتَقَى في العِـدَى إرْبَـهُ

لَكَ اللّــهُ كَـمْ ذا تَلَقَّيْتَهُـمْ فأيَّـدْتَ في حَرْبِهِـمْ حِزبَـهُ

سَلُوا جَبَلَ الفَتْحِ عَـن فَتحِـهِ وقَـدْ أمَّـلَ المُعْتَـدِي غَصْبَـهُ -237-

سَلُوا في شُقُورَةَ أهْلَ الجِهَـادِ وقَـدْ سَلَّ في بابِهَـا عَضْبَـهُ

قَضَى اللّهُ ان نَالَ أقصَى العُلَـى وهـا هُـوَ ذا قَـدْ قَضَى نَحْبَـهُ

لِيُسْكِنَـهُ جَنَّـةً أُزْلِـفَتْ وأنـزَلَ في وَصْفِهَـا كُتْبَـهُ

فكَـمْ رَحَمَـاتٍ حَـمتْ لَحْـدَهُ وكَـمْ حسَنـاتٍ مَـحَتْ ذَنْبَـهُ

وفيمَا حَقُّهُ أنْ يُلحقَ بمَا تَقدَّمَ

قَبْلُ مِنَ العِيدِيَاتِ عَلى التَّوالِي

أنشَدتُهُ رضوَانُ اللهِ عَلَيْهِ في عِيدِ الفِطْرِ

مِن عَامِ ثمَانيَةَ عَشَرَ وثمَانِي مائة بِحَضْرتهِ العَلِيَّة

حَـفَّتْ مَلائِكَـةُ السَّمـاءِ جُنُـودَا بِكَتـائِبِ نَشَرَتْ عَلَـيْكَ بُنُـودَا

تُنْهِي إِلَيْكَ بَشائِرَ الفَتْحِ التي ... تُلْقِي لَدَيْكَ لِوَاءَهَا المَعْقُودَا

وَتَسُوقُ أَحْزابَ الضّلالِ إِلَى الرَّدَى ... سَبْقًا وقَدْ سُمْتَ القُلُوبَ وَئِيدَا

وتُثِيرُ سُحْبَ النَّقْعِ مِنْ وَقْعِ الظُّبَا ... فَوْقَ الدُّرُوعِ بَوَارِقًا وَرُعُودَا

وتُكاثِرُ الأَعْدَاءَ مِنْكَ عَزائِمٌ ... فَتُعِيدُ جَمْعَهُمُ أَقَلَّ عَدِيدَا

وَرَكائِبُ الانجادِ والاتْهامِ قَدْ ... مَلأَتْ لَدَيْكَ تَهائِمًا وَنُجُودَا

والحَرْبَ تَشْعَلُ نارَهَا حَيْثُ اغْتَدَتْ ... لاَ تَرْتَضِي إِلاَّ عِداكَ وَقُودَا

والرَّوْعُ ان شَبَّتْ عُداتُكَ جَمْرَهُ ... سَامَتْهُ أَنْهارُ السُّيُوفِ خُمُودَا

كَحَلَ العُيُونَ بِإِثْمِدٍ مِنْ نَقْعِهِ ... فَكَأَنَّ عَادًا إِذْ عَدَتْ وَثَمُودَا

أَنِسَتْ بِعِزِّ النَّصْرِ غُرُّ كَتائِبٍ ... أَضْحَى بِهَا جُنْدُ العَدُوِّ شُرُودَا

سَتُزِيرُهَا أَرْضَ العُدَاةِ وللْقَنَا ... أَجَمٌ وقَدْ زَأَرَتْ لَدَيْكَ أُسُودَا -238-

حَيْثُ الظُّبَا قَدْ هِمْنَ فِي هَامِ العِدَى ... حَتَّى تَرَكْنَ عَمِيدَهَا مَعْمُودَا

حَيْثُ الوِرَادُ الغُرُّ تَبْتَدِرُ الوَغَى ... هِيمًا تُؤَمِّلُ فِي النَّجِيعِ وُرُودَا

حَيْثُ القِسِيُّ مَحَارِبٌ أَضْحَتْ لَهَا ... هَامُ الأَعَادِي رُكَّعًا وسُجُودَا

حَيْثُ العَزائِمُ فِي المَيادِينِ التي ... قَادَتْ إِلَيْهِنَّ الجِيَادَ القُودَا

حَيْثُ النَّدَى والحِلْمُ يُنْجِزُ مَوْعِدًا ... لِلْمَكْرُمَاتِ وَلا يُجِيزُ وَعِيدَا

حَيْثُ العُلَى واليُوسُفِيُّ يُنِيلُهَا ... جُودًا فَلاَ عَدِمَتْ لَدَيْهِ وُجُودَا

مَلِكٌ مَوَاقِعُ سَيْفِهِ أَوْ سَيْبِهِ ... تَكْفِي عَدُوًّا أَوْ تَكُفُّ حَسُودَا

جَمَعَ الفواضل والمَحَامِدَ والعُلَى ... والبَأْسَ والخُلُقَ الرِّضَى وَالجُودَا

وثَنَى صُدُورَ الذّابِلاتِ إِلى العِدَى ... فأَقامَ مِنهَا ما انْثَنَى تَأْوِيدَا

تَخْتَالُ مائِلَةَ المَعاطِفِ كُلّمَا ... عَطَفَ الكَمِيُّ قَوَامَهَا الأُمْلُودَا

لِلّهِ مِنْهُ عَزائِمٌ وَمَكَارِمٌ ... غَادَرْنَ أَحْرَارَ المُلُوكِ عَبِيدَا

تَرْجُو مَواهِبَهُ التِي قَدْ أَصْبَحَتْ ... ظِلاًّ عَلَى أَرْجَائِهَا مَمْدُودَا

وهَّابُ مَا فَوْقَ البَسِيطَةِ لَمْ يَدَعْ ... لِلْمَنْعِ إِلاَّ العَذْلَ والتَّفْنِيدَا

سَبَّــاقُ غَايَــاتِ المَكَــارِمِ كُلَّمَــا　　جَارَى المُلُـوكَ الأَكْرَمينَ الصِّيـدَا

لَمْ يَرْمِ أَغْراضَ المَحامِدِ وادِعًـا　　إلاّ وبَــذَّ الطَــالِبَ المَجْهُـــودَا

نظَمَتْ حُلاَهُ المَكْرُمَاتُ فَلَمْ تَزَلْ　　دُرًّا عَلَــى لَبَّاتِهَــا مَــنْضُودَا

نصَّتْ مَناقِبَـهُ العُلَــى واسْتَشْرَفَتْ　　لِمَنَــالِ أَدْناهَــا ونَصَّتْ جِيــدَا

هذِي مَآثِرُهُ تَفُوقُ مَدَى العُلَـى　　أبـدًا صُعُـودًا أَوْ تُفيـدُ سُعُـودَا

وقَبائِـلٍ تَرجُـو عَزائِـمَكَ التِـي　　قَـادَتْ ملائِكَـةَ السَّمـاءِ جُنـودَا(356)

ما عارَضَتْ نَظَرًا جَميلاً يَقتَضِي　　حُكْمًـا ولاَ رأيًـا لـدَيْكَ سَديـدَا

عَدَلُوا عَنِ النَّهجِ القَويمِ وضُلِّلُوا　　لَـوْلاَ هُـداكَ وفَارَقُـوا التَّسْدِيـدَا

فَبِصُبْحِ هَدْيكَ يَهْتَدِي فَلَقُ الضُّحَى　　والفَجْرُ قَـدْ فَلَقَ الظَّلاَمَ عَمـودَا

ان قَلَّصَتْ عنْهَـا ظِـلاَلُ مـواهِبٍ　　أنشأْتَ مِنْهَـا العَـارِضَ المَمْـدُودَا -239-

فاصْرِفْ لهَا وجْهَ العَزيمَةِ مُنْعِمًـا　　وأَزِلْ ضَغائِــنَ بَيْنَهَــا وَحُقـــودَا

وأَقِمْ صَغَا الاسْلاَمِ في الوَطَنِ الذِي　　أضْحَـى يُطِيـعُ مَقـامَكَ المَحْمُـودَا

في السِّلْمِ أَوْ في الحَرْبِ مُلْكُكَ ناصِرٌ　　يُرْجَـى مُفيـدًا أَوْ يُخـافُ مُبيــدَا

جَنـحَتْ لِسَلْـمِكَ أُمَّـةٌ أَرْسالُهَـا　　أَمَّتْ جَنابًــا بالعُفَــاةِ مَـرُودَا(357)

سَلْـمٌ أنـامَتْ مِـن ظُبَـاكَ نَواظِـرًا　　أُجْهِدْنَ قَبْلُ ومَـا عَرَفْـنَ هُجُـودَا

أَهْلاً بهَا ما جُرِّدتْ في المُلْتَقَـى　　إلاَّ ارْتَضَتْ هَامَ الكُماةِ غُمُـودَا

لَمْ يثْنِهَا عَن قَصْدِهَا خَجَلٌ وقَدْ　　راقَـتْ بــهِ وَجَناتُهَــا تَوْرِيـــدَا

فأَرَحْتَهَا مِـن جَهْدِهَـا لِتُجيرَهَــا　　طَـوْعَ الجِهَـادِ وتَبْـذُلَ المَجْهـودَا

فَلِـذَاكَ قَـدْ أَيْقَـظْتَ كُـل مُهَـوِّمٍ　　لَمَّــا أَنَـمْتَ الصَّارِمَ المَغْمُــودَا

ومَنَعْتَ أندَلُسًا وقَـدْ رامَ العِـدَى　　انْ يُوسِعُوا جَمْعَ العِدَى تَبْدِيدَا(358)

---

(356) لعله يعني القبائلَ المغربية الموالية لمخدومه.

(357) كُتِبَ في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي : «ذكر انعقاد السلم مع ملكي قشتالَة ورَغون». ومرودا : مقصودا.

(358) كُتِبَ في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي : «ذكر رجوع العمرة (أو العمارة) البرطقالية عن جبل الفتح والبلاد الأندلسية ودخولها سبتة أعادها الله».

خاضُوا البِحَارَ لهَا وعَزْمُكَ دُونَهَا ... فَثناهُـمُ وَحَمَـى الفَـلاَ والبِيـدَا

قَصُرتْ خُطاهُمْ عن مَنالِ قُصورِهَا ... والنَّصْرُ قَـدْ مَـدَّ الطِّوال المِيـدَا

أَقفَرْتَ من أَهْلِ الضَّلاَلَة أَرْضَهَـا ... ومَـلأْتَ آفـاقَ السَّمـاءِ بُنُـودَا

وَجَلَوْتَ مِن آياتِ عَزْمِكَ أَنْجُمًا ... فارْتَـدَّ شَيْطـانُ الضلاَّلِ مَرِيـدَا

وثَنى عِنـانَ القَصْدِ عَنْهَا بَعْدَمَـا ... وافَـى طَرِيقًـا حَادَ عنهُ طَرِيـدَا

واحْتَلَّ بالوَطَنِ الـذي لـمْ يَتَّخِـذْ ... عُلْياكَ رُكْنًا في الخُطوبِ شَدِيـدَا

سُحْقًـا لِمَـن لـمْ يَنتصِرْ بِمُؤَيَّـدٍ ... لـمْ يَلْوِ طَـوْعَ وفَائِـهِ مَوْعـودَا

مالِي أَرَى التَّثْلِيثَ وهْوَ ضَلاَلَـةٌ ... يَمْحُـو الهُـدَى ويُكاثِرُ التَّوْحيـدَا

مـا لِلنِّقَـاد تَـرُدُّ آسَادَ الشَّرَى ... طَوْعًـا وتَقْتَـنِصُ الظِّباءَ الغِيـدَا[359]

فكأَنَّهَـا لـمْ تَـدْرِ أَنَّكَ نـاصِرٌ ... بالسَّيْـفِ تُرْهِقُهَـا لَـدَيْكَ صعُـودَا

هـذا عَـدُوُّ الدِّيـنِ حَـلَّ بسَبْتَـةٍ ... لِيَنـال شأْوًا في الضَّلاَلِ بَعِيـدَا[360]

أَلْقَى لَدَيْهَا رَحْلَـهُ إِذْ لـمْ يَكُـنْ ... عَن مَوْرِدِ الدِّينِ الحَنيفِ مَـذُودَا

والآنَ لمَّـا ان دَعَـتْكَ لِنَصْرِهَـا ... جَعَـلَتْ مَقـامَكَ عُـدَّةً وَعَدِيـدَا

فأَخفْتَ عُبَّادَ الصَّلِيبِ بهَـا وقَـدْ ... صُلِّبَتْ عَلَى رَيْبِ الحَوادِثِ عُودَا

قصْدًا إِلَيهَا أَيُّهَـا المَلِكُ الـرِّضَى ... لِتَـرَى القَنـا بصُدورِهَـا مَـقْصُودَا

سَتُعيدُهَـا وتُنيـل كُـلَّ مُوَحِّـدٍ ... أَمْنًـا وتُـوسِعُ قُطْرَهَـا تَمْهِيـدَا

لَمْ تُنهِضِ الرَّايَاتُ رأيَكَ مُنجِدًا ... إِلاَّ تَقَـدَّمَ هادِيًـا وَرَشِيـدَا[361]

يَا مُنْعِمًـا مـازالَ جُـودُ يَمِينِـهِ ... لِحُلَـى المَكـارِمِ مُبْدِئًـا وَمُعِيـدَا

ولِّيتَ عَهْدَ المُسْلِميـنَ مُحَمَّـدًا ... فَسَلَـكْتَ قَصْدًا لِلعَـلاَءِ حَمِيـدَا

وَدَعَوْتَ قَاصِيَـةَ البِـلاَدِ فأَهْطَـعَتْ ... تُلْقِي لَدَى البَابِ الكَرِيمِ وُفُـودَا

(359) النِّقاد : صغار الغنم.

(360) كُتب في طرة المقطع الذي يبدأ من هذا البيت ما يلي :
«التحريض على جهاد من بسبتة».

(361) منجدًا، يقترح الشاعر أيضًا كلمة : ناصِرًا، وفي البيت تورية بالهادي والرشيد العباسيين.

صَدَرتْ نواهِلَ بعْدَمَا قـدْ راقَهـا ... في مَنْهَلِ الرِّفْدِ العَميـمِ وُرودَا
هـذا وَعيـدُ الفِطْرِ أسْعَدُ قـادِمٍ ... وافَـاكَ مُتخِـذًا خِـلالَكَ عيـدَا
وتَرَحَّلَ الشهْـرَ الكريـمُ مُؤَكِّـدًا ... لَكَ مِن رضاهُ مواثِقًا وعُهُـودَا
أرْضاهُ أنْ قـامَتْ عُـلاكَ بِحَقِّـهِ ... تُبْدِي رُكُوعًا أوْ تُطيلُ سُجودَا
وأتَلْتَ هـذا اليَوْمَ زائـدَ مِنحَـةٍ ... فَشَأوْتَ مَرْوانًا وطُلْتَ يَزيـدَا(361م)
جَمَّعْتَ أشْرافَ الجنودِ فَحالفُوا ... جُودًا وجَـدًّا لاَيَـزالُ جَديـدَا
أفْضَتْ إلَى البَابِ الكريمِ وُفودُهَا ... فـأَفَضْتَ بَحْرَ نَـوالِكَ المَوْرُودَا
فَاهْنـأْ بِهِ عيـدًا أغـرُّ مُحَجَّـلاً ... طَوْعَ السُّعُودِ ومَوْسِمًا مَشهُـودَا
وإليْكَهَـا عَـذْراءَ رائِقَـةَ الحُلَـى ... حَسْنـاء مائِلَـةَ المَعَاطِـفِ رُودَا
جَمَـعَتْ معَانِـيَ للبَلاغَـةِ كُلَّمَـا ... نُظِمَتْ لأن تَـدَعَ الفَريـدَ فَريـدَا
فَجلَوْتُهَـا ولَطالَمَـا قَـدْ صُنْتُهَـا ... لِلوَصْفِ مِنْكَ قَلائِـدًا وعُقُـودَا
ولَكَمْ هَدَتْنِي مِنْكَ غُرُّ مَنـاقِبٍ ... إنْ رُمْتُ قَصْدًا أوْ نَظَمتُ قَصيدَا
أوْلَيْتَنِي النُّعْمَى التِي أنَا شاكِـرٌ ... والشُّكْرُ يَضْمنُ مِن نَداكَ مَزيـدَا
لاَزِلْتَ في المُلْكِ العَزيزِ مُهَنَّئًـا ... فَتْحًـا ونَصْرًا دائِمًـا وَخُلـودَا

-241-

وأنشَدتُهُ بالقَصْرِ المُسَمَّى بالمُحْدَثِ
مِن مالَقَةَ في عيدِ الأضْحَى مِن عامِ ثمَانيةَ
عَشَرَ وثمَانِ مائة وقدِ استَدعَى فُقهاءَهَا
وَجُندَهَا وأشيَاخهَا لإقامَة مَا جَرتْ بهِ العَادَةُ
في حَضْرَتِهِ مِنَ البيْعَةِ وَالإطْعَامِ واحْتفَلَ في ذلِك(362)

بشرى بعيدٍ أتَى وَالنّصْرُ يَقْدُمُـهُ ... ورائِـدُ العـزّ يَسْتَدعيـهِ مَقْدَمُـهُ

(361م) مروان ويزيد من الأمويين، فشأَوْتَ : فسبقت، وطلْت : مطاوع طاوَلَ.
(362) تقدم ذكر القصر المحدث.

عِيدٌ يَعود بِمَا شاءتْ عُلاَكَ فَقَدْ   سَمَا بِعِزّكَ لِلْعَلْيَاءِ مَوْسِمُهُ
فالنّصْرُ قَدْ بَهَرَ العَلْيَاءَ مَصْنَعُهُ   والصُّنْعُ قَدْ أَبْهَجَ الدُّنْيَا مُتَمَّمُهُ
هذا هُوَ الفَتْحُ قدْ راقَتْ مَطالِعُهُ   واسْتَشْرَفَتْ مِن ثَنَايَا العَزْمِ أَنْجُمُهُ
هذا هُوَ الصُّنْعُ قادَتْهُ العُلَى فَعَلاَ   بِيُوسُفٍ مَلِكِ الأَمْلاَكِ مَعْلَمُهُ
فانْهَضْ يُحَيّيكَ أَبْهَاهُ وأَبْهَرُهُ   سَنًى وأَوْثَقَهُ عقْدًا وأَحْكَمُهُ
فالدّينُ سَيْبُكَ مُجْدِيهِ. ومُوجِدُهُ   والكُفْرُ سَيْفُكَ مُفْنِيهِ ومُعْدِمُهُ
حُكْمٌ يُجَدّدُهُ القَصْدُ الحَميدُ فَمَا   يَبْلَى عَلى كَثْرَةِ التَّرْدَادِ مُحْكَمُهُ
وإنّ مَالَقَةَ الغَرَّاءَ حَلّ بِهَا   مَوْلَى الخلائِفِ والأَمْلاَكُ تَخْدُمُهُ
لَهُ وإنْ عَظُمُوا قَدْرٌ تُعَظّمُهُ   وَصْفٌ تُقَدّسُهُ ذِكْرٌ تُقَدّمُهُ
تَرْجُو نَدَاهُ وتَخْشَى بأْسَهُ فإذا   ما جَدّ في عَزْمِهِ يُرْجَى تَكَرُّمُهُ
فَيَقْبُضُ السَّيفَ حَيْثُ الرّزْق يَبْسُطُهُ   كَبارِقِ السُّحْبِ يُزْجِيهَا تَبَسُّمُهُ
كَم مَقصَدٍ حينَ ضَنَّ الدّهْرُ جَادَ بِهِ   فَعَمَّتِ المُنْعِمَ الوَهَّابَ أنعمُهُ
فَكُلُّ مَلْكٍ وان جَلَّتْ مواهِبُهُ   يُمْنَاهُ كَعْبَتُهُ رُحْمَاهُ زَمْزَمُهُ
مَا رُدّ عَنْ أَمَلٍ إلاّ ولاَذَ بِهِ   فالمَنْحُ يوجِدُهُ والمَنْعُ يُعْدِمُهُ
يَكْسُوهُ ثَوْبَ اعتِلاَءٍ غَيْرَ مُنتَهَجٍ   حَتّى يَرُوقَ عَلَى عِطْفَيْهِ مُعْلَمُهُ
وَسَبْتَةٌ حَلّ جُندُ الكَافِرين بِهَا   فأَصْبَحتْ وأَقاصِيهَا مُيَمَّمُهُ
يا هَلْ يُجَدّدُ عهْدٌ في مَعَاهِدِهَا   مَضَى حَميدًا وهَلْ يَبْلَى مُذَمَّمُهُ[363] -242-
وهَلْ لِمَعْقِلِهَا إنْ لَمْ تُلِمَّ بِهِ   رُجْعَى وَلِلشّرْكِ أَحْزابٌ تُيَمّمُهُ
نادَتْكَ يا مَلِكَ الدّنيَا لتُوضِحَ ما   ظَلّ العَدُوُّ قُبَيْلَ الفَتْحِ يُبْهِمُهُ
واسْتَنْشَقَتْ مِنْكَ ريحَ النصْرِ حينَ غَدَا   مُسْتَقْبَلُ الفَتْحِ يُهْدِيهِ تَنَسُّمُهُ
هذِي أحادِيثُهُ وافَتْكَ مِن كَثَبٍ   لِمَظْهَرِ الدّينِ تُعْلِيهِ وتُعْلِمُهُ
حيثُ القَبائلُ تَدْعُو مِنكَ ناصِرَهَا   وتَرتَجيكَ لِشَمْلِ الدّينِ تَنظِمُهُ

(263) يجدّدُ : في الأصل، يُجَدُّ،وهو سهو من الناسخ.

لِلقُطْرِ تَفْتَحُهُ لِلأَمْنِ تَمْنَحُهُ ... لِلعِزِّ تُوفِدُهُ لِلنَّصْرِ تُقدِمُهُ
لِلمُلْكِ تُنْجِدهُ لِلرِّفْدِ تُوجِبُهُ ... لِلدِّينِ تُوجِدُهُ لِلْكُفْرِ تُعْدِمُهُ
لِلأَجْرِ تُحْرِزهُ لِلوَعْدِ تُنْجِزُهُ ... لِلْجَيْشِ تُنْهِدُهُ لِلرُّشْدِ تُلْهِمُهُ
كَمْ دَرَّهَا الكُفْرُ عَنْهَا حينَ تَقْصدُهَا ... كالطَّيْرِ تُمْنَعُ عَذْبَ الوِرْدِ حُومُهُ(364)
وما دَجَى لَيلُ خَطْبٍ في مَعاهِدهَا ... إلاّ انجلَى بصَباحِ العَزْمِ مُظْلِمُهُ
رأيٌ تُصيبُ إذا الرَّاياتُ قَدْ نُشِرَتْ ... لَدَيْكَ شاكِلَةَ الأَغْراضِ أَسْهُمُهُ
قَدْ أَقسَمَ النَّصْرُ أن يحْتَلَّ أَرْبُعَهَا ... والنَّهْبُ لاَ يَسَعُ الأَيْدِي مُقَسَّمُهُ
والبَحْرُ مِن رَهَجٍ يُبْدِي تَجَهُّمَهُ ... والمَوْجُ عن ثَبَجٍ يفْتَرُّ مَبْسِمُهُ
وبارِقُ السَّيْفِ مِنْ يُمْنَى يَدَيْكَ إذَا ... تَجهَّمَ الرَّوْعُ يَجْلوهُ تَبَسُّمُهُ
كَمْ قائِمٍ بجزيلِ النّصْرِ قائِمُهُ ... ومُعْرِبٍ عَن جميلِ الصُّنْعِ أعْجَمُهُ
يَخْطُو لِيَخْطُبَ في حَفْلِ العِدَى عَجَبًا ... ما راقَ أَسْمَاعَهُمْ إلاَّ مُصَمِّمُهُ
هَيْهَاتَ يَشْمَخُ فيهَا بَعْدَمَا أُنِفَتْ ... لِلْكُفْرِ أنفٌ وَسيْفُ النَّصْرِ يرْغِمُهُ
وهَلْ يَقودُ وَلِيّ الكافِرينَ سِوَى ... مُغْرَاهُ بالقَدِّ في الهَيْجاءِ مُغرَمُهُ(365)
ان ساقَ حِزْبَ العِدَى لِلحَرْبِ غادَرَهُ ... نَهْبًا وقدْ راقَ في مَغْنَاهُ مَغْنَمُهُ
وكَيفَ لاَ يَرْتَضِي حُكْمَ الهَوانِ وقَدْ ... هَوَى لهُ الأَسْمَرُ الخَطِّيّ يَخْصِمُهُ
دَارِكْ بهِ رَمَقَ الاسْلاِمِ فهو عَلَى ... شَفًا وإنَّ بهِ يُشْفَى تَأَلُّمُهُ
كَمْ عامِلٍ عَمِلتْ أَيْدِي الكُماةِ بِهِ ... مَا الدّهْرُ في صُحُفِ العَلْياءِ يَرْسُمُهُ
قامَتْ عَلى سَاقِهَا الحَرْبُ العَوانُ فَمَا ... ثَنَتْهُ لمَّا انثنَى فيهَا مُقَوَّمُهُ -243-
ومُرْسَلٍ قَيَّدَ الأَسْماعَ مِنْ طَرَبٍ ... كأنَّهُ طائِرٌ يُشْجِي تَرَنُّمُهُ
تحِلّهُ القَوْسُ عِنْدَ الرَّمْيِ أَبْهَرَهَا ... كأنَّ صَدْرًا بهِ ظَنٌّ يُرَجِّمُهُ(365م)

---

(364) دَرَّهَا : كذا في الأصل، ولا معنى لها.

(365) بالقَدّ : بالقطع.

(365م) ومرسلٍ : نعت لمنعوت محذوف هو السهم، والأبهر في الأصل عرق مستبطن الصلب إذا انقطع لم يبق صاحبه.

وسابِقٍ في مَجالِ الرَّوْعِ مُتَّئِدٍ يَخْتالُ حَيْثُ العِدَى زَهْوًا مُطَهَّمَهُ
لِلْبَرْقِ في سُرْعَةٍ لِلنَّارِ في لَهَبٍ لِلرِّيحِ في قُوَّةٍ يُعْزَى مُجَسَّمُهُ
إذا عَلاَ البَطَلُ المَرْهُوبُ صَهْوَتَهُ فَجمعُهُمْ ظَلَّ يُثْنِيهِ تَقَدُّمُهُ
أَوْ جَرَّ مِن خَلْفِهِ الخَطِّيَّ تَحْسِبُهُ صِلاً تُقَدِّمُهُ في القَفْرِ ضَيْغَمُهُ
نامَ العَدُوُّ ولَيْلُ الأَمْنِ يَكْنُفُهُ بِهَا وقَدْ راقَهُ فيهَا تَلَوُّمُهُ
ولَوْ تَجَلَّى صَباحُ العَزْمِ مِنْكَ إذًا لاَسْتَيْقَظَتْ بَعْدَ هَدْءٍ منه نُوَّمُهُ
وَسَوْفَ يَكْبُو بِهِ طِرْفُ العزيمَةِ إذْ يُجْرِيهِ في طَلَقِ التَّقْصِيرِ مُجْرِمُهُ
إِنَّ الفِرارَ وإن سُدَّتْ مَذاهِبُهُ يُسْلِيهِ عَن وطَنٍ بالرَّغْمِ يُسْلِمُهُ
كأَنْ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَحْتَلَّ حِلَّتَهَا يَثْنِيهِ وَاهِي القُوَى عنْهَا تَوهُّمُهُ
كأنْ بمَعْقلِهَا يُلْقِي مُمَنَّعُهُ يَدًا ويَرْتاحُ بالبُشْرَى مُنَعَّمُهُ
ويُظْهِرُ الدَّهْرُ ما يُمْناَي تَكْتُبُهُ لِلفَتْحِ عَنْكَ وكانَ الدَّهْرُ يَكتُمُهُ
تَبُثُّهَا في أقاصِي الخافِقَيْنِ بِمَا تَخُطُّهُ يَدُكَ العُلْيَا وتَرْسُمُهُ
فانْهَضْ وَعَزْمُكَ يَثْنِي قَصْدَ ساكِنِهَا مُخَيِّمًا حَيْثُ مَغناهَا مُخَيَّمُهُ
لاَ يُضْمِرُ الدَّهْرُ مَعْنَى الفَتْحِ عنْكَ وقَدْ تَوَضَّحَ الآنَ طَوْعَ النَّصْرِ مُبْهَمُهُ
وإِنَّ عبْدَكَ يُبْدِي الدُّرَّ مِن كَلِمٍ في مَدْحِ عُلْيَاكَ أَفْكارِي تُنَظِّمُهُ
لَوْلاَ نَداكَ وما أَوْلَيْتَ مِن نِعَمٍ ما راقَ مِنْهُ فُرَادَاهُ وتَوْأَمُهُ
فَخُذْ حَديقَةَ طِرْسٍ والثَّناءُ بِهَا مِسْكٌ يُفَضُّ بِأَمْداحِي مُخَتَّمُهُ
واهْنَأْ بِهِ مَوْسِمًا جَلَّتْ مَواهِبُهُ وراقَ في أُفُقِ العَلْياءِ مِيسَمُهُ
لازالَ مُلْكُكَ لِلأَمْلاكِ يُنْجِدُهَا في كُلِّ ما أَحْكَمَتْ عَهْدًا يُحَكِّمُهُ
ودامَ رأيُكَ لِلرَّاياتِ يَعْقِدُهَا والنَّصْرُ لا يَنْثَنِي عَنْهَا مُحَتَّمُهُ -244-

وأنشَدْتُهُ بِقُبّةِ مَشْوَرِهِ مِنْ حَضْرَتِهِ
العَلِيَّةِ عَلى العَادَةِ يَوْمَ عِيدِ الفِطْرِ
عَامَ تسْعَةَ عَشَرَ وثَمان مائَة وقَدْ
تحَرَّكَ السُّلْطانُ أبو عَلِي مِن مراكُش لمحَارَبَةِ
أخيهِ السُّلْطان أبي سَعيد صاحِب فاسٍ
وانتصَر كِلاَهُمَا بِهِ رَحِمَهُ الله وَوَرَدَتْ
رُسُلُهَمَا عَلى حَضْرَتِهِ في ذلِكَ ما نَصُّهُ(366)

بعُـلاَكَ صَدَّقَتِ المُلـوكُ رَجاءَهَـــا ... وبعَـدْلِ ملكِكَ مهَّـدَتْ أَرْجاءَهَـــا
وبكَ ارْتَقَى الإسْلاَمُ أرفعَ مَظْهَـر ... وبكَ ارْتَضَتْ كلِماتُــهُ إعْلاَءَهَـــا
ولكَ المُسَمَّى في الخِلاَفَةِ كُلّمَـا ... أَتَتِ المُلـوكُ وعـدّدتْ أسماءَهَـا(367)
وإذا سَمَـتْ هِمَـمٌ لإدْراكِ العُلَـى ... جَلَّتْ خِلاَلُكَ أن تَنـالَ سَماءَهَـا
تُشْفَى بكَ الأيَّامُ وهْيَ عَلَى شَفًا ... فتُزيـلُ مُعْضِلَهَـا وَتُبْـرِىءُ دَاءَهَـا
وحَـوادثٍ جَـلَّتْ مَواقِـعُ خَطْبِهَـا ... بَصَباحِ عَزْمِكَ قَدْ جَلَوْتَ مَساءهَا
أوَ لَسْتَ يا مِلِكَ الهُدَى مِن أسْرَةٍ ... قَـدْ أَوْرَثَتْ شِيَـم العُلَـى أبْناءهَـا
أخْبَارُهُـمْ طـابَتْ بَطَيِّبَـة كُلَّمَـا ... حَلُّـوا لإفْنَـاءِ العُـداةِ فِناءَهَـا
وكَفاهُـمُ أنَّ الخِلاَفَـةَ بعْدَهُـمْ ... لَـوْلاَ عُـلاَكَ لَفـارَقَتْ أكْفاءَهَـا
للــهِ مــنكَ خِلاَفَــةٌ نَصْرِيَّــةٌ ... تَدْعُو الخَلاَئِقُ أن يُطيـلَ بَقاءَهَـا
أوَ ما خِلاَفَتُكَ الكَريمَـةُ رَحْمَـةٌ ... قَـدْ مَـدَّتِ الرُّحْمَـى بهَـا أفْياءَهَـا
أوَ مـا خلاَفَـتُكَ العَلِيَّـةُ آيَـةٌ ... تُهْدِي إلى شمْسِ الضُّحَى لألآءَهَا

(366) لا ذكر لأخي أبي سعيد المدعو هنا بالسلطان أبي علي فيما وقفنا عليه من مصادر ؛ والمعروف من أخوته أبو فارس عبد العزيز وأبو عامر عبد الله، وقد وليا الملك قبل أبي سعيد، وتوفيا قبل هذا التاريخ. راجع جذوة الاقتباس : 417، 450.

(367) يقول إن ممدوحه هو الخليفة اسمًا ومسمّى وغيره ليس لهم من الخلافة إلاّ الاسم.

فتُعيرُ طَالِعَةَ الضُّحَى أنوَارَهَا ... وتُفيدُ سَارِيَةَ الحَيَا أنواءَهَا
لكَ هِمّةٌ طَوْعَ النَّدَى وعَنِ الردَى ... جَعَلَ الوفاءُ حِباءَهَا وإباءَهَا -245-
ولكَ الصّفاتُ الغُرُّ كَاثَرتِ الحَصَى ... عَدَدًا فَمَنْ ذا بالِغٌ إحْصاءَهَا
ولكَ المَآثِر دونَهَا الشَّمْسُ التي ... تَهْدِي وتُهْدِي لِلوَرَى أضْواءَهَا
ولكَ المَناقِبُ لَوْ أعارَتْ هَدْيَهَا ... شُهُبُ الدُّجَى مَا فَارَقتْ عَلْياءَهَا
ولكَ الكَتائِبُ ما جَمَعْتَ لِحَادِثٍ ... أعْدادَهَا إلاَّ كَفَتْ أعْداءَهَا
ولكَ العَزائِمُ كُلّمَا أمْضَيْتَهَا ... في الحَرْبِ أمَّلَتِ السُّيوفُ مَضاءَهَا
ولكَ الفُتوحُ إذا طَوتْ أبْطالُهَا ... أرْضَ العِدَى نَشَرَتْ عَلَيْكَ لِواءَهَا
لَكَأنْ بسَبْتَةَ والعِدَى قَدْ خَلّفُوا ... مِنْهَا الدّيَارَ وعَطَّلُوا افنَاءَهَا
لكَأنْ بأرْبُعِ سَبْتَةٍ وجموعُهَا ... فَوْضَى وقد ملأ الفِرَارُ فَضاءَهَا
هَاذِي العِدَى تَجْلُو الكَتائِبَ في مَدًى ... كَتَبَتْ يَدُ الأقدارِ فيهِ جَلاَءَهَا
هاذِي رِياحُ الحَرْبِ هَبّتْ عِندَهُ ... هُوجًا ولَمْ تُرْسِلِ عَلَيْهِ رُخاءَهَا
وقَفَتْ وقَدْ قَضَتِ السُّيوفُ بأنّهَا ... للنَّهْبِ وانتَظَرتْ لَدَيْكَ قَضاءَهَا
نَضَتِ الرَّواحِلَ عندَمَا قَدْ أُنضِيَتْ ... فنَأتْ وقَدْ ضَمِنَتْ لَدَيْكَ فَناءَهَا
سَيُرَى مَقامُكَ في مَقامِ جِهَادِهِ ... والخَيْلُ قَدْ أبْدَتْ بهِ خُيَلاَءَهَا
حيْثُ الأسِنَّةُ أنجُمٌ مُنْقَضَّةٌ ... في الحَرْبِ تَقْضِي أن تُريقَ دِماءَهَا
فلَرُبَّ طَعْنَةِ ذِي قَناةٍ يَلتَقِي ... صَدْرُ الكُماةِ بِصَدْرِهِ نَجْلاَءَهَا
وجِيادِ سَبْقٍ أتْلَعَتْ أجْيادَهَا ... وَظُبَا فَوارِسِهَا تَرُوعُ ظِباءَهَا
وَطَليعَةٍ شَنّتْ عَلَيْهِمْ غَارَةً ... بَثَّ الرَّدَى بِفِنائِهِمْ شَعْواءَهَا
وَمُدَمِّرٍ أعْداءَهُ قَدَّ الطُّلَى ... مِنهَا وقَادَ إلى الرَّدَى أحْياءَهَا
ما لاَحَ بَرْقًا في سَماءِ عَجاجَةٍ ... الاَّ وَجَلَّى نُورُهُ ظَلْماءَهَا
ما راعَتِ البَطَلَ الكَمِيَّ مُلِمَّةٌ ... إلاَّ وأصْبَحَ مُفْرِجًا غَمّاءَهَا
فأَزِرْ عَلَى حُكْمِ العَزائِمِ أرْضَهَا ... أسَدًا إذا زارَتْ أبَتْ إرْضاءَهَا

وجيَادَ نَصْرٍ كُلَّمَا أرْسَلْتَهَا ... تَرَكَتْ مَيادِينَ السَّبَاقِ وراءَهَا
قَدْ قَلَّبَتْ كَيفَ ارْتَضَتْهُ كُماتُهَا ... قَلْبَ الفَلاةِ وَضَعْضَعَتْ أحْشاءَهَا -246-
تُذْكِي العُيونَ عَلَى الأعَادِي كُلَّمَا ... أطْلَعْتَ فِي أُفْقِ الجِهَادِ ذُكاءَهَا
تُلْوِي أعِنَّتَهَا وتُرسِلُهَا وَقَدْ ... رَفَعَتْ مِن النَّقْعِ المُثارِ لِواءَهَا
وَصَوارِمًا تَجلُو العِدَى عَن حَيِّهَا ... إذْ أحْكَمَتْ أيْدِي القُيُونِ جِلاَءَهَا
فكأنَّهَا أنْهَارُ دَوْحٍ أُرْسِلَتْ ... وَجَداوِلُ الأغْمادِ تُمْسِكُ ماءَهَا
فتَرى الأعَادِي كُلمَا قَدْ أوْقَدُوا ... للحَرْبِ نَارًا يمَّمَتْ إطْفاءَهَا
ما بالُهَا تُرْدِي الكمِيَّ ولمْ يَزَلْ ... إمْضاءُ عَزْمِكَ سابقًا إنْضَاءَهَا
صَدَرتْ نَواهِلَ مِنْ صُدُورِ عِداكَ إنْ ... أوْرَدتَ مُنهَلَّ النَّجيعِ ظِماءَهَا
وأجِزْ إليْهَا المُنْشآتِ كأنَّهَا ... نُجُبٌ تُواصِلُ للنجاةِ نَجاءَهَا
تَسْرِي كأنَّ رَواحلاً قَدْ أنضِيَتْ ... فَجَعَلْنَ أصْواتَ الرِّياحِ حُداءَهَا
يا طالَمَا حَمِدَتْ حُلاَكَ جِلاَلَهَا ... قِدْمًا فَصَيَّرتَ الجَوازَ جَزاءَهَا
هذا وفاسٌ ما يفُوزُ بمُلْكِهَا ... إلاَّ الذِي وَلَّيْتَهُ بيْضاءَهَا
هَذِي مَرينٌ أنتَ وجْهَةُ قَصْدِهَا ... لمَّا رَمَتْ بِخِلاَفِهَا خُلَفاءَهَا
هذِي مَرينٌ يمَّمَتْكَ لِنَصْرِهَا ... لمَّا دَعَتْ خُلَفاؤُهَا خُلَفاءَهَا
وثَنَتْ عِنانَ القَوْلِ فيكَ فَواصَلَتْ ... لِعُلَى مَقَامِكَ حَمْدَهَا وثَناءَهَا
إنَّ الذي وَفَّى مَقَامَكَ حقَّهُ ... مَحَضَتْ لهُ طَوْعَ الوِدادِ وفاءَهَا
فَلِذاكَ نادَتْ مِنكَ ناصِرَهَا الرِّضَى ... لِتُجيبَ طَوْعَ المَكْرُمَاتِ نِداءَهَا
ما حَقَّقَتْ مَرْجوَّها بكَ إذْ دَعَتْ ... إلاَّ شَفَتْ بَرجائِهَا بُرَحَاءَهَا
وقُلوبُهَا ما شَفَّهَا بَرْحُ الأسَى ... إلا وكَانَ نَدَى يَدَيْكَ شِفاءَهَا
لِلَّهِ كَمْ والِيْتَهُنَّ مَوَاهِبًا ... جَعَلَتْ لَهَا صِيدُ المُلوكِ وَلاَءَهَا
ولَكَمْ أيَادٍ طَوَّقَتْ أعْناقَهَا ... قَضَتِ المَكارِمُ فيهِمُ إسْدَاءَهَا
ولَكَمْ ظِلاَلٍ لِلأمانِ تَقَلَّصَتْ ... فَمَددتَ فيهَا مُنعِمًا أفْياءَهَا

فاهْنأْ بعزِّ خِلافَةٍ أمْلاكُهَا   أضْحَتْ عَلَى حُكْمِ الوَفاءِ وِفاءَهَا -247-

وبِنَجْلِكَ المتَنسِّكِ الأرْضَى الذِي   نالَ العُلَى وتَحمّلَ اسْتِقْصاءَهَا

بِوِلاَيَة العَهْدِ التِي قدْ أُحْكِمَتْ   كيفَ ارْتَضاهَا اليُوسُفِيُّ وشاءَهَا

فِي حَضْرَةِ المُلكِ التّي لجَنابِهَا   تُزْجِي الرّكابُ سِراعَهَا وبِطاءَهَا

حَجٌّ الُوفودِ وحُجّةِ الأمْصارِ إذْ   قَدْ أوْجَبَتْ إلْقاءَهَا ولِقاءَهَا

بمشَيّدٍ علْياءَهَا ومُشَدّدٍ   أعْضادَهَا ومُسَدّدٍ آراءَهَا

إن رامَ قُطْرٌ أنْ يُضاهِيَهَا انْثَنى   كالشَّمْسِ لَوْ رامَ السُّهَى إخْفاءَهَا

دارُ السَّلامِ لَو. اسْتَقَلَّتْ هَذِهِ   مازارَ مَنْصُورُ الألَى زَوْراءَهَا(368)

ومُعَدُّ مِصْرٍ لوْ أعَدَّكَ مُنْعِمًا   ما كَانَ يُخْلِفُ نِيلُهَا بَطْحاءَهَا(369)

ولوِ اسْتَمَدَّ الأفْقُ جُودَكَ آمِلاً   ما فَارَقَتْ سُحُبُ الغَمامِ سَخاءَهَا

هلْ يوسُفٌ إلاَّ كَيُوسُفَ عِزَّةً   ومَحاسِنًا تُهْدِي النُّجومُ رُوَاءَهَا(370)

تَهْدِي وتُهْدِي العِزَّ شِيمتُهُ التي   أبْدَتْ سَناهَا لِلوَرَى وسَناءَهَا

مَا اسْتَقْبَلَتْ شتَّى الوُفودِ جَنابَهُ   إلاَّ وَقابَلَ بالقَبُول هناءَهَا

ما يَمّمتْ إلاَّ ظِلاَلَ نَوالِهِ   فأَفادَهَا البُشْرَى غدَاةَ أفاءَهَا

لمْ لاَ تُؤَمّلُهَا الوُفودُ خِلاَفَةٌ   نَصْرِيّةٌ جُعِلَ الوُجودُ فداءَهَا

فَلْيَهْنِهَا عيدٌ يَعودُ بنَصْرِهَا   ويُعيدُ فِي دَرْكِ الرَّدَى أعْداءَهَا

وسُعودُ أنجُمِهَا تَمُدُّ شُعاعَهَا   مِن أفْقِهَا وتُفيدُنَا أضْواءَهَا

بُشْراكَ قَدْ أحْرَزْتَ في مَيْدانِهَا   سَبْقًا مُعَلاَّهَا وحُزْتَ عَلاَءَهَا

ولَكَ الهَناءُ بِمَقْدَمِ العِيدِ الذِي   أَلْقَى أزِمَّةَ سَيْرِهِ تِلْقاءَهَا

وافَى وأيّامُ الصّيامِ قَدِ انقَضَتْ   فأَتَى بِقُرْبٍ يَقْتَضِي إقصاءَهَا

---

(368) دار السلام والزوراء : بغداد، والمنصور هو أبو جعفر الخليفة العباسي مؤسس بغداد.

(369) معد مصر : هو أبو تميم معد الملقب بالمعز العبيدي، وإليه تنسب القاهرة المُعِزّية.

(370) يوسف الأول هو ممدوح الشاعر، ويوسف الثاني هو نبي الله، وهو عزيز مصر كما ذكر في القرآن الكريم وإلى هذا يلمّح الشاعر.

وَدّتْ وقدْ كَلِفتْ بِوُدّكَ لوْ ثَنتْ ... رَكْبَ السُّرى واسْتأنَفتْ إبْقاءَهَا
مَوْلاَيَ لوْلاَ جُودُ كَفّكَ لمْ أُجِدْ ... إبْدَاعَ أمْداحِي ولاَ إبْداءَهَا
فإلَيْكَ وصْفًا لمْ تَلُحْ شُهُبُ الدُّجى ... إلاَّ وباهَى حُسْنَهَا وبَهَاءَهَا
هَذِي المَناقِبُ يسْتَمِيلُ سَماعُهَا ... قوْمًا اداَرتْ فيهِمُ صَهْبَاءَهَا -248-
هَذِي المدائِحُ واللُّهَى قَدْ أنطَقتْ ... لِتَرُوقَ في رَوْضِ النُّهَى وَرْقاءَهَا
هَذِي الفُحُولُ الغُلْبُ دُونَ مَرامِهَا ... إنْ سابَقوا لَمْ يَسْبِقُوا عَذْرَاءَهَا
يُلْقى لَدَيْكَ العَبدُ مِنْهَا فَذَّةً ... والمَدْحُ مِنْكَ مُحَسِّنٌ حَسْناءَهَا
يَسْتَوْقِفُ الشّعْرَى دُوَيْنَ مَرامِهَا ... صِيتًا ويَسْبِقُ وادِعًا شُعَراءَهَا
لَوْلاَ نَوالُكَ مَا أجادَ لِسانُهُ ... إنْشادَهَا أوْ فِكْرُهُ إنشاءَهَا
فَلقدْ تَفوقُ السُّحْبَ كَفُّكَ عِندَمَا ... تُزْجِي حَيَاهَا أوْ تُفيدُ حِباءَهَا(370م)
فإلَيْكَهَا غَرَّاءَ رائِقَةَ الحُلَى ... حَيَّتْ وقدْ أبْدَتْ لَدَيْكَ حَياءَهَا
فَحَصَتْ عنِ المعْنَى الشّرودِ فأعْجَزَتْ ... كَيفَ اقْتَضَى إعْجابُهَا فُصَحاءَهَا
عَرَبِيّةً ارْسَلْتُ مِنْ إعرابِهَا ... خَيْلاً تُقابِلُ بالصَّهيلِ رُغاءَهَا
لاَزِلْتَ شَمْسًا والملوكُ كَواكِبٌ ... يُبْدى ظُهورُكَ لِلْوُجودِ خَفاءَهَا
والخَلْقُ في دَعَةٍ وعِزُّكَ صارِفٌ ... ما شاءَ صَرْفُ الدَّهْرِ ممَّا ساءَهَا
تَدْعُو لِنصْرِكَ مَن قَضَتْ أحْكامُهُ ... كَرَمًا وَفضْلاً أنْ يُجيبَ دُعاءَهَا

وأنشَدتُهُ في عيدِ الأضْحَى مِن عامِ تِسعَة عَشَرَ وثماني مائة المذْكورِ، وَقد وَصَلَ العبَّاسُ بن غَمَراسَن ووَلَدُ اللُّبَابي مِن قِبَلِ السُّلْطان أبي سَعيدٍ مُسْتنصِرًا بهِ عَلى أخيهِ أبي عَلي المتوفَّى أثناءَ إقامَتِهمَا بالحَضْرةِ قَتيلاً بعْدَ هزيمَةِ الْجَرّث عليْهِ بظاهِرِ فاسٍ، وقُبِضَ عليهِ بعْدَ ذلِكَ وَسيقَ لِمصْرعِهِ بَيْنَ يَدَيْ أخيهِ، وكانَ رَسُولهُ قد انصَرَفَ صُحْبَةَ قاضِي الجَماعَة وجازَ البحْرِ قَبْلَ ذلك بِيَسيرٍ، وهذهِ القَصيدة

(370م) عندمَا : يقترح الشاعر أيضًا : كُلّمَا

آخر ما أنشَدتُ بيْنَ يَديْهِ بلفْظِي وَتَضَمَّنَتْ وصْفَ المَيْزِ وعَرْضِ جُندِهِ قَبْلَ العيدِ ومَا تَظاهَرَ بهِ مِن السّلاحِ والخُيولِ والعُدَدِ التِي قَدُمَ العَهْدُ بمِثْلِهَا[371] -249-

تحَيّيكَ من شُهْبِ الجيادِ طَلائِعُ	كمَا وَضَحَتْ بالأُفْقِ شُهْبٌ طَوالِعُ
تَرُوقُ عِداهَا في المَدَى أوْ تَرُوعُهَا	مَـدارِكُ سَبْـقٍ عِنْدَهَـا ومَـدارِعُ
يَطولُ إذا اشْتَـدّ النّزالُ وُقوفُهَـا	فَمَـا جُـثَثُ الأعْـداءِ إلاّ مَراتِـعُ
تُرِيقُ دَمَ الأبطـالِ أيْـدِي كُماتِهَـا	فتَثنِي الهَـوادِي والنّواصِي نَـواصِعُ
ثَنَتْ عزْمَهَا نَحْوَ الجِهَادِ فَـوارِسٌ	بهَـا لِثَنَـاءِ المَعْلُـواتِ فَـوارِعُ
إذا ما دِيَارُ الكُفْرِ جاسَتْ خِلالَهَا	بـدَارًا فَمعْمـورُ البِـلاَدِ بَلاقِـعُ
وتَحْكِي ظِبَاءَ القَفْرِ فهْـيَ رَوائِـدٌ	إذا أتْلَـعَتْ أجيادَهَـا وَرَوائِـعُ
وقَدْ جَلّلَتْ أجْسَادَهَا مِن قَتَامِهَـا	جِلاَلٌ وَمِن نسْجِ الحَديدِ بَراقِـعُ
كأنَّ سِماتِ الأوْجُهِ الغُرِّ فَوْقَهَـا	بُـدُورٌ وآفـاقُ السُّروجِ مَطالِـعُ
تُظَلِّلُهَـا الأدْرَاعُ سُحْبًـا لِتختَفِـي	ونُورُ الضُّحَى تحتَ الغَمائِمِ سَاطِعُ
دُرُوعٌ تَـرُوقُ النّاظِريـنَ كأنَّهُـمْ	لدَيْهَا الظِّمَاءُ الهِيمُ وهْـيَ مَشارِعُ
إذَا نازَعَتْ شَمْسُ الصَّباحِ شُعاعَهَا	رمَتْهَـا سِهَـامٌ للغَمَـامِ نَـوازِعُ
فَتِلْكَ عيُونُ السُّحْبِ قَدْ نَظَرَتْ لَهَا	ومِن خَشيَةٍ سالَتْ لَهُنَّ مَدامِـعُ(*)
ومُذْ خَفقَتْ أعْلاَمُ نَصْرِكَ أخْفَقَتْ	مَساعٍ وخَابَتْ لِلعَدُوِّ مَطامِـعُ

(371) العباس بن غمراسن : لم نقف له على ذكر، والمفهوم أنه كان من رجال دولة أبي سعيد عثمان المريني، أمّا ولد اللّبابي فهو الحاجب أبو محمد عبد العزيز بن محمد اللّبابي، وهو الذي خان ملكه وفعل فعلته التي كانت سببا في تعجيل نهاية بني مرين. انظر ترجمته وأخباره في الضوء اللامع 4 : 233 ــ 234 وجذوة الاقتباس 2 : 451 وإنباء الغمر7 : 427 ووصف افريقيا : 318 وبيوتات فاس : 46 والاستقصا 4 : 94 وحُرّفت فيه كلمة اللبابي إلى الملياني، ومايزال درب اللّبابي موجودًا بفاس باسفل حومة المنية قرب زقاق الماء ؛ وقاضي الجماعة في التقديم يقصد به قاضي غرناطة، وكان ملوك بني نصر يوجهون صاحب هذه الخطة سفيرًا إلى المغرب وممّن سفر لهم القاضي النُّباهي والقاضي الشريف أبو القاسم السبتي ؛ وينبغي أن يكون قاضي الجماعة في التاريخ المذكور هو الشريف أبو المعالي ولد أبي القاسم المذكور.

(*) في الأصل : لها المدامع.

فَخافٍ لَدَى حُمْرِ البُنودِ وخائِفٌ ... وخاشٍ أُذَى زُرْقِ النُّصولِ وخاشِعُ
مَواقِفُ عَرْضٍ تُطْلِعُ السُّمرُ عِندَها ... نُجومًا لَهَا في الدَّارِعينَ مَواقِعُ
كذلِكَ بِيضُ الهِنْدِ وَهيَ جَداوِلٌ ... مَصارِفُهَا لِلمُعْتَدِينَ مَصارِعُ
وقَدْ حُلِّيتْ عوجُ القِسِيِّ فَنازِلٌ ... بِهَا يَبْتَغِي الحَرْبَ العَوانَ ونازِعُ
إذا حُنِيَتْ فَوْقَ الرُّبَى فَأَهِلَّةٌ ... لَهَا فَوْقَ أجرامِ السَّحابِ مَطالِعُ(372)
يُجيبُ صَهيلَ الصَّافِناتِ حَنينُهَا ... فَتَرْتاحُ نَحْوَ المُلْتَقَى وتُسارِعُ
كأنَّ انسِكَابَ الغَيْثِ وَقْعُ سِهامِهَا ... إذا ما تُوالِي رَمْيَهَا وتُتابِعُ
وقَدْ تَنْثَنِي مِن غيْرِ حَربٍ كأنَّهَا ... لَدَى نازِعيهَا حينَ رُدَّتْ وَدائِعُ
فَمَا اسْتَرْسَلَتْ إلاّ غُيوثٌ سَواجِمٌ ... وَلاَ جُرِّدَتْ إلاّ بُروقٌ لَوامِعُ
ولا انعَطَفَت إلاّ غُصونٌ نَواعِمٌ ... ولاَ نَطَقَتْ إلاّ حَمامٌ سَواجِعُ
ولما عرَضْتَ الجَيْشَ أعرَضَتِ العِدَى ... عَنِ الحَرْبِ وارْتاعَتْ لِمَا هُوَ واقِعُ
لَقَدْ جَنَحَتْ للسِّلْمِ طَوْعًا فَمالَهَا ... تُطاوِلُ وَالدُّنْيَا لَدَيْكَ تُطاوِعُ
وَقُبَّتُكَ الغَرَّاءُ لِلّهِ عِنْدَهَا ... مَنازِهُ حُسْنٍ تَجتَلَى ومَنازِعُ
طَلَعْتَ بمَرْقاهَا فكُلُّ مُمَلَّكٍ ... لَدَيْهَا يُوالِي حَمْدَهُ ويُوادِعُ
فَلِلْجُنْدِ والجُرْدِ العِتاقِ أمامَهَا ... مَلاَعِبُ تَستَهْوِي النُّهَى ومَراجِعُ(372م)
لَدَى مَلِكٍ قَدْ أصْبَحَتْ عَزَماتُهُ ... تَقودُ المُلوكَ الصِّيدَ وهْيَ خَواضِعُ
وَهَلْ شَرَفُ الأملاكِ إلاَّ إذا أتَتْ ... تُقَبِّلُ يُمْنَاهُ بهَا وتُبايِعُ
وتخْطُبُ مِنهُ نَصْرَهَا في الذِي بِهِ ... تُطالِبُهُ مِن أمْرِهَا وتُطالِعُ
لَقَدْ جُمِعَتْ أجْنادُهُ وهْوَ دونَهَا ... يُدافِعُ أحْزابَ العِدَى ويُمانِعُ
فَجَمْعٌ بأنْواعِ المَحاسِنِ مُفْرَدٌ ... وفَرْدٌ لأشْتاتِ المَكارِمِ جامِعُ
وأنَّى تُجارِيهِ المُلوكُ وإنَّهُ ... لَيَسْبِقُ آمادَ العُلَى وهْوَ وادِعُ

(372) أجرام : يقترح الشاعر أيضًا : مَرْكوم.

(372م) فَلِلْجُنْدِ : في الأصل : فَلِلْحُودِ، وهو تحريف.

قَـدِ اتَّضَحَتْ لِلْمُهْتَدِيـنَ شَعائِــرٌ   بِهِ وَلِدِينِ اللّهِ قـامَتْ شَرائِـعُ
وأنّـى تُدانيـهِ وقائِـمُ سَيْفِـهِ   لهُ في العِدَى طَوْعَ الجِهَادِ الوَقائِعُ
مِنَ الخَزْرَجِ الأَرْضَيْنَ تُرْتاحُ مِنْهُمُ   إلَى العِز أَقْيالٌ وتَسْمُو تَبابِعُ
تَكُفُّ خُطوبَ الدَّهْرِ حيثُ أكُفُّهَا   هَوامٍ بِمُنْهَلِّ النّوالِ هَوامِعُ
فَمَا جَدَّ إلاَّ ما انتضَتْ عَزَماتُها   ولاَ جادَ إلاَّ جَوْدُهَا المُتَتابِعُ
فَطامٍ بمُلتَفِّ القَتامِ وَطامِحٌ   وهامٍ بوَكّافِ الغَمامِ وَهامِعُ
لَقَدْ أوْرَثُوا المجْدَ المؤثَّلَ ناصِرًا   يَقومُ لِحِفْظِ الدّينِ والدّينُ هاجِعُ
خِلاَفَتُه العُلْيا . وكُلُّ خَليفَةٍ   لِعُلْيَاهُ مُنْحازٌ لِرُحْماهُ فازِعُ
فَطولِبَ وهّابٌ وأُمِّلَ مُنعِمٌ   وَخُوطِبَ مُرْتاحٌ ونُودِيَ سامِعُ
وبُلِّغَ مأمُولٌ وأسْعِفَ قاصِدٌ   وأمِّنَ مُرْتاعٌ وَرُدَّ مُنازِعُ
بِعَزْمٍ لهُ مِنْ عِزَّةِ المُلْكِ سائِقٌ   وحُكمٍ لهُ مِن سابِقِ الحِلْمِ وازِعُ -251-
وإنَّ وَلِيَّ الكُفْرِ بالفِكْرِ طالَمَا   يُنازِلُ أحْزابَ العِدَى ويُنازِعُ
وإنَّ رِماحَ اليُوسُفِيِّ بِحَرْبِهِ   دَوامٍ وأجْفانُ العُداةِ دَوامِعُ
هُمامٌ يُزيرُ الحَرْبَ أسْرًا زَئيرُهَا   دَليلٌ عَلَى النّصْرِ المُؤزَّرِ قاطِعُ
عَلَى الرَّوْعِ مِقْدامٌ وفي الوعدِ صادقٌ   ولِلْمالِ وهّابٌ وبالحَقِّ صادِعُ
فَجدٌّ لِصَدْرِ الدينِ شَافٍ وشارِحٌ   وَجودٌ لأبْوابِ المكارِمِ شارِعُ
وعَزْمٌ كما هزَّ المهنّدَ ضاربٌ   وَرأْيٌ كَمَا قدْ فَوّقَ السَّهْمَ نازِعُ
فَيا مَلِكَ الدُّنْيا بِعَدلِكَ شُيِّدَتْ   مِنَ الدّينِ أعْلامٌ وقامَتْ مصانِعُ
مَقامُكَ محْمودٌ وعَدْلُكَ شامِلٌ   وَظِلُّكَ مَمدودٌ وجَهْدُكَ ذائِعُ
وحِزْبُكَ مَنْصورٌ وَعِزُّكَ قاهِرٌ   وَجودُكَ مَبْذولٌ وحِلْمُكَ واسِعُ
وكَفُّكَ بَحْرٌ والخَلاَئفُ(*) تَرْتَجي   نَداهَا فَطامٍ بالنّوالِ وطَامِعُ
فَلاَ مُعْتَلٍ إلاَّ لِعِزّكَ خاضِعٌ   ولاَ معْتَدٍ إلاَّ لِحُكْمِكَ راجِعُ

(*) كذا في الأصل، ولعلّها : والخلائق.

وَلاَ مَـلَكٌ إلاَّ بِـنَصرِكَ مُـرْسَلٌ ... وَلاَ مَـلِكٌ إلاَّ لِمُلْـكِكَ تابِـعُ
دَعَتْكَ مُلوكُ الغَرْبِ والكُلّ مِنهُـمُ ... بـأَيْسَرِ حَـظٍّ مِـنْ قَبـولِكَ قانِـعُ
وقامَتْ بأَعْباءِ الحُروبِ ولَمْ تَقُـمْ ... رُبَـى عَزْمِهَـا إلاَّ ورأيُكَ فَـارِغُ(*)
وقَدْ أُشرِبَتْ مِنْكَ القُلوبُ مَهابَـةً ... فَمـا مِنهُـمُ إلاَّ مُطيـعٌ وَسَامِـعُ
لَقدْ عَزَّ مَن والَى مَقامَكَ مِنهُـمُ ... فَكَـفَّ المُناوِي واتّقـاهُ المُنـازِعُ
فَلاَ السِّرْبُ مُرْتاعٌ ولاَ الخَطْبُ فاجِىءٌ ... وَلاَ المُلْكُ مَسْلوبٌ ولاَ الدَّهْرُ فاجِعُ
أَيُـذْنِبُ دَهْـرٌ أَوْ يُلِـمُّ بِحَـادِثٍ ... يَرُوعُ ومِنْ جَدْواكَ شافٍ وشَافِعُ
قَضَى اللّهُ أَنَّ الأمْرَ كَيفَ تُريدُهُ ... ولَيْسَ لِمَا قَـدْ شاءَهُ اللـهُ دافِـعُ
فللـهِ يَـوْمٌ في المَـواسِمِ باهِـرٌ ... أنيـقُ المحَيَّا رائِـقُ الحُسْنِ رائِـعُ
حَلَلْتَ بِهِ الايوانَ والحَفْلُ دونَـهُ ... تَفـيضُ عَلَيْهِـم مِـن نَـداكَ يَنابِـعُ
ودارَتْ حَوالَيْكَ الجُنـودُ كأنهَـا ... كَواكِبُ سَعِدٍ قَدْ جَلَتْهَا المَطالِـعُ
فَلِلـهِ منهَـا حَضْرَةٌ كل وافِـدٍ ... وقَدْ حَلَّهَا في جنَّةِ الخُلْدِ راتِـعُ -252-
وَهُنِّئْتَـهُ عيـدًا أقَـمتَ صَنيعَـهُ ... وقَـدْ عظُـمَتْ لِلّـهِ فيـهِ صَنائِـعُ
وهاكَ التي رَقَّتْ وراقَتْ مَحاسِنًا ... بَدائِـهُ مِـن تِلْقائهَـا وَبدائِـعُ
لِتُلْقِي لَدَى مَوْلَى الخلاَئِفِ يُوسُفٍ ... مِنَ القَوْلِ ما تُصْغِي إلَيْهِ المَسامِعُ
ولَوْلاَكَ ما غَيْثُ الاجَـادَةِ هامِـلٌ ... لَـديّ ولاَ رَوْضُ البَلاَغَـةِ يانِـعُ
فَدامَتْ لَكَ الدنْيَا ومُلْكُكَ ناصِرٌ ... وِمِـن دونِ عُلْيـاهُ مُطيعٌ وطَائِـعُ
ولِلْقَصْدِ إسْعـافٌ وللرِّفْـدِ طـالِبٌ ... ولِلوَعْـدِ انجازٌ وللسَّعْـدِ طالِـعُ
إلَى أن تَنالَ المُلْكَ غَرْبًا ومَشْرِقًا ... فَيُـدْرِكُ مامُـولٌ ويَقْـرُبَ شاسِعُ
وإنّي لأرْجُـو اللّـهَ حَتّـى كأنَّنِـي ... أرَى بِجَميلِ الظَّنِّ ما اللهُ صانِعُ

(*) رُبَى عَزْمِهَا : لا معنى لها، ولعلّها تحريف : رَحَى حَرْبِهَا.

وكانَ رَضيَ اللّهُ عنهُ قد اشتَدَّ بهِ المرضُ الذي قَضَى عَلَيْهِ
وهُوَ قد شَرَعَ في حَرَكَةِ تَوْجيهِ السُّلْطانِ أبي يُوسف
يَعقُوبُ أيَّدَهُ اللّهُ وتَوجَّهَ عَلى ما بهِ من الألِمِ إلَى المُنكَّبِ لِيُباشِرَ
بنَفْسِهِ إجازَتهُ مِنهَا فانفَذ اللهُ عز وَجَل حُكْمَهُ في وَفاتِهِ
بَعْدَ جَواز السُّلْطانِ بأرْبَعةِ أيّام فُجاءَةً وأصْبَحَ ميتًا يوْمَ
الأرْبعاءِ التّاسعِ والعِشرينَ لِرَمَضان عام تسْعَةَ عَشَر وثمانمائة
بَعْدَ أن كانَ أمَرَ بالتّأهُّبِ لإقامَة ما جَرَتْ بِهِ العَادَةُ مِن
رَسْمِ العِيدِ بالطَّعامِ وغَيْرِهِ فأعْدَدتُ هَذِهِ وحَالَ ما جَرَى بهِ
القَدَرُ دُونَ إنشَادِهَا(373)

بُشْرَى بوَعْدٍ لِنصْرِ الدينِ مرْقُوبِ ... أتَى بهِ مُلْكُ يَعْقوبَ بْن يَعْقوبِ(374)
وَلَّيْتَـهُ المُـلْكَ والأعْـداءُ رَاغِمَـةٌ ... ومُلْكُهَـا بَيْـنَ مَغْلوبٍ ومَسْلـوبِ
وهَبْتَـهُ العِـزَّ فارْتَـاعَتْ لِمقْدَمِـهِ ... فَمُلْكُـهُ بَيْـنَ مَوْهـوب ومَرْهـوبِ
أنْلتَـهُ مِـن نَـدَى كَفَّـيْكَ صَيِّبَـةً ... تَجُـودُهُ بَيْـنَ تَشْرِيـقٍ وتَغْـرِيـبِ -253-
كَثَّـرتَ سَائِلَـهُ إذْ جُـدتَ ماحِلَـهُ ... فَـرَوْضُهُ بَيْـنَ مَطْلـولٍ وَمَطْلـوبِ
شَرَعْتَ بابَ النّدى للْقاصِدين فكمْ ... مِن مَوردٍ بيْنَ مَشْرُوعٍ ومشْرُوبِ
مَكارِمٌ ردَّدَ الرُّكبانُ حيثُ سَرَوْا ... حَديثَهَـا بَيْـنَ إدْلاَجٍ وتَـأويبِ

(373) جاءَ في الضوء اللامع 10 : 283 : «وأرسل ابنُ الأحمر يعقوبَ المريني إلى فاس فلم يتمّ له الأمر» وقد وردت هذه الجملة ضمن ترجمة من أسماه السخاوي يعقوب بن عبد الله الجاناتي الفاسي أحد الخارجين على أبي سعيد عثمان المريني، وتشتمل هذه الترجمة على فذلكة تاريخية ذُكر فيها أسماء عدد من أولاد بني مرين الذين أرسلهم الواحد تلو الآخر يوسف الثالث ومَنْ خلَفه لإثارة الفتنة في المغرب ؛ أما تاريخ وفاة يوسف الثالث فقد ورد أيضًا مكتوبًا في رخامة قبره كما يلي : « قبضه الله سبحانه لِمَا أعدّ له من الكرامة، وحباهُ به من النّعيم في دار المَقامة، صبح يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لرمضان المعظّم عام عشرين وثمانمائة» انظر كتاب ل. بروفنسال : Inscriptions Arabes d'Espagne. pp. 169 - 173

(374) يحتمل أن يكون يعقوب والده أو جدّه الأعلى أي يعقوب بن عبد الحق.

يتْلُونَ مِن حَمْدِهَا ذِكْرًا مُرَدَّدُهُ ... راقَ النُّهَى بيْنَ ترتيلٍ وتَرْتيبِ
كَمْ ألسُنٍ رَدَّدَتْ من قَبْلِ وجْهَتِهِ ... حَديثَهُ بَيْنَ تَرْغيبٍ وتَرْهيبِ
تُومِي وتُفصِحُ بالأمْرِ الذي اعتَقَدَتْ ... والسِّرُّ ما بَيْنَ مَكْتومٍ ومَكْتُوبِ
فتَهْتَدِي منهُمْ الأفْكارُ نازِعَةً ... لِقَصْدِهَا بَيْنَ تحقيقٍ وتغْليبِ
حَتّى أزلتَ ولِلأبصارِ تَبْصِرَةٌ ... بمخبَرِ الصّدْقِ أخبَارَ الأكاذيبِ
أرْسَلتَ سابِقَ حَزمٍ غَيْرَ مُتَّئِدٍ ... هَزَزْتَ صارِمَ عَزْمٍ غَيْرَ مَقْرُوبِ
فَلاَ يَرُوعُ حُسامٌ غَيْرُ مُنصَلتٍ ... وَلاَ يَرُوقُ سِنانٌ غَيْرُ مَخْضُوبِ
هَذِي مَرِينٌ وأشْياخُ القبائِلِ قَدْ ... شكَتْ بمَا نالَهَا مِن طولِ تثْريبِ[375]
أهْدَتْ لبَابِكَ مِن أبْنائِهَا زُمَرًا ... قُلوبُهَا هدأتْ من بَعدِ تَقْلِيبِ
أفْعَالُ مَوْلًى غَدا كِسْرَى بمَن لهُمُ ... قَدِ انتَمَى بَيْنَ مَغلُولٍ ومَغْلُوبِ
مَن لمْ يَقِسْ بِبَني نَصْرٍ مُلوكَ هُدًى ... ما نورُ شَمْسِ الحِجَى عَنْهُ بمَحْجُوبِ
كَمْ دافَعَ الخَطْبَ مِنهُمْ مِن وَلِيٍّ نَدًى ... طَلْقِ المحَيَّا إلَى العَلْياءِ مَخْطُوبِ
إن استَقَلَّتْ ببَذْلِ الجُودِ راحَتُهُ ... لِلْقاصِدِينَ اسْتَقَلتْ كُلَّ موْهُوبِ
حَمَى الحَقيقَةَ مِنْهُ أرْوَعٌ بَطَلٌ ... راعَ العِدَى فَحِمَاهُ غيْرُ مَقْرُوبِ
كَمْ مُعْتدٍ بَعْدَ نَصْرِ الأوْلياءِ غَدَا ... خِيامُهُ بيْنَ تَقْوِيضٍ وتَطْنِيبِ
كَمْ فَعْلَةٍ آثَرُوهَا قَبْلَ أن نَطَقُوا ... ومَوْعِدٍ أنجَزُوهُ غَيْرَ مَضْرُوبِ[376]
لاَ كالذِي لمْ يَفُهْ يَوْمًا بمَكْرُمَةٍ ... ولمْ يعِدْ قَطُّ إلاَّ وَعْدَ عُرْقُوبِ
ولاَ كَيَعْقُوبَ إذْ طالَتْ خِلاَفَتُهُ ... بِمَا اسْتَحَقَّتْهُ مِن فَرْضٍ وتَعْصيبِ[377]
أنهَجْتَهُ سُبْلَ آباءٍ لَهُ دَرَجُوا ... حَتّى استَقَلّ بأمْرٍ غَيْرِ مغْصُوبِ
هَلْ في مُلوكِ الوَرَى أسْمَى وأشْرَفُ مِنْ ... مَلْكٍ لِمَا نالَ مِنْ نعْماكَ مَنْسُوبِ -254-

---

(375) في الأصل : أشياخ القبائل، بدون الواو العاطفة.

(376) غير مضروب : يقترح الشاعر أيضًا : غير مكذوب.

(377) طالت : يقترح الشاعر أيضًا : صالت.

وهــذِهِ نِسْبَــةٌ أغْنَتْــهُ رِفْعَتُهَـــا ... عَن شُهْرَة اسْمٍ وإفْصاحٍ بتَلقيبِ
أرْكَبَتْـهُ البَحْـرَ قَصْدًا أن تُبلغَــهُ ... مِن صَهْوة المُلْكِ أسْنَى كَلّ مَرْكوبِ
والرّيحُ بالسُّفْنِ قَدْ جَدّتْ كَما لَعِبَتْ ... أيْدي السُّرَى وسَطَ البَيْداءِ بالنِّيبِ
تَعْلُو وتَنحَطّ حيْثُ الهُوجُ تَمنَحُهَا ... قصْدَ الصَّوابِ لتَصْعيــدٍ وتَصْويبِ
كأنَّهَـا الجُـرْدُ لاَ تَلـوِي أعِنَّتَهَـــا ... إلاَّ إلَـى خببٍ في إثْـرِ تَقْــريبِ
في السِّلْمِ تَختَالُ كالخَيْلِ العِرابِ وفي ... حَرْب الأعَاجِمِ تاتِـي بالأعاجِـيبِ
كأنّ خافِقَةَ الأعْـلامِ مـا رُفِـعَتْ ... إلاّ عَلَى عَلَمٍ في البحْرِ مَنصُوبِ
وكَمْ جِيادٍ إذا جالتْ نَمَيْتَ إلَى ... جَمْرٍ أمامَ هُبوبِ الرّيحِ مَشْبُوبِ
جَلَبْنَ كُـلّ كَمِـيٍّ لِلْجِهَـادِ وقَــدْ ... أحْرَزْنَ حُسْنَ شِياتٍ غيْرَ مَجْلوب
هذا وقدْ جاءَ عيدُ الفِطْرِ يَشْكُرُ مَا ... أوْلَيْتَ وافِدَهُ مِن فضلٍ مَوْهُــوبِ
وكانَ مِن قَبْلُ شَهْرُ الصَّومِ مُلتمسًا ... لَـدَيْكَ رتْبَـةَ تَقْريــظٍ وتقــريبِ
كَم صُمْتَ واليَوْمُ قَدْ شبّتْ هَواجِرُهُ ... وقُمْتَ وَاللّيْـلُ مَسْدُولُ الجَلابِـيبِ
واللّهُ قَد ضاعَفَ الأجْرَ الجَزيلَ بِمَا ... ألَمَّ مِن ألَمٍ في اللَّوْحِ مَكْتُوبِ
خُذْهَا مُجَدّدَةً عَهْدَ الشَّبابِ وقَدْ ... أغْنَى مَديحُكَ عَنْ وَصْفٍ وتَشْبيبِ
فَمَدْحُ مَوْلاَيَ قَدْ رَاقَ النّظامُ بمَا ... إحْسانُهُ زَادَهُ مِـن حُسْنِ تَهْـذيبِ
كَذلِكَ الرَّوْضُ إن مَرَّ النّسيمُ بِهِ ... زَهَا بمَا نالَهُ من نفحَةِ الطّـيب
لاَزِلْتَ تسْتقبلُ العُمْرَ الجَديدَ ومَا ... يَمُـرُّ مِنـهُ عَطـاءٌ غَيـرُ مَـحْسُوبِ

وأسْرَيْنَا بِتابُوتِهِ تِلكَ اللّيْلَة فوصَلنا الحَضْرَة ضُحَى يَوْمِ العِيدِ، ولَمْ يَشْعُر أحَد مِن أهْلِ البَلدِ، لاشْتِغالِهِم بصَلاةِ العيدِ، حَتّى استَقَرّ الجَميعُ بالحمراء، وعِندَ ذلِك شرعْنا في بيعَةِ وليّ العَهْدِ أيّدهُ اللّهُ ومُواراةِ المَوْلَى المُنعِمِ رَحمَةُ اللّهِ ورِضوانُهُ

عَلَيْهِ، وفِي أَوَّل يوْمٍ أَجْلِسَ ولِيُّ عهْدِهِ بقبّة مَشوَرِهِ حيثُ جَرَتْ عادَة السَّلامِ قمتُ بَينَ يَدَيْهِ مُنشِدًا هذِهِ القَصيدَةَ فِي هَنائِهِ بالمُلْكِ وَرِثاءِ والِدِهِ قَدسَ اللهُ رُوحَهُ وَبرّدَ ضَرِيحَهُ(378)

أَخَطْبٌ هَوى بالنَّيِّراتِ مِنَ العُـلاَ ... وبُشْرَى بِهَا وَجْـهُ الزَّمَـانِ تَهَلَّـلاَ
قَضَى نَحْبَهُ مَوْلَى المُلوكِ وأعْمَلتْ ... رَكَائِبُـهُ حَتَّـى المَعَـادِ تَرَحُّـلاَ
وفازَ ابنُهُ الأَرْضَى وحافِظُ عَهْـدِهِ ... بمَا حَازَهُ من مُلْكِ آبائِهِ الأُلَـى
عَلَى صِغَرِ السِّنّ اسْتَقَلَّ بِرُتبَـةٍ ... تَحَمَّـلَ مِـن أعْبَائِهَـا مَـا تَحَمَّـلاَ
لَقَدْ كانَ صُبْحُ اليَومِ أغْبَرَ داجِيًا ... فَعـادَ بِمَـن أَبْقَـى أَغَـرَّ محَجَّـلاَ
فإن غَابَ نُورُ البَدْرِ أَوْ مَنَعَ الحَيَا ... نَداهُ فهَذا البحْرُ والفَجْـرُ يُجْتَلَـى
وإنْ غَرُبَ النَّجْمُ الذي كانَ يُهْتَدَى ... بِهِ فَمُحَيَّا الصُّبْح قَد لاَحَ مُقْبِلاَ
وإنْ صَوَّحَ المَرْعَى وخَفّ قطِينُـهُ ... فهَذَا هُوَ الروْضُ الذي راقَ مُجْتَلاَ
وإنْ كانَ وادِي النِّيلِ جَفَّ معِينُهُ ... فهَذا هُوَ النّيلُ الذِي يُنبتُ الكَلاَ(379)
وإنْ كان لَيْلُ الخَطْبِ مِن بعْدِهِ دَجَا ... فَقَدْ طَلَعَتْ شمسُ الهِدايَة وانجَلَى
وإن كانَ فِينَا الرُّزْءُ قَدْ جَلّ مَوْقِعًا ... فهَذَا الذي جَلَّى دُجَاهُ بمَا جلاَ
وإن ضَلَّتِ الأيَـامُ قصْدَ سَبيلِهَـا ... فخُذْ للْهُدَى مِنْهُ سبيـلاً مُـوَصّلاَ
أَحَقا ثَوى تحْتَ الثّرى مَلِكُ الوَرَى ... وأَوْرَدَهُ المِقْـدارُ للحَتْـفِ مَنْهَـلاَ
ومَن راقَ مِنهُ العِلمُ والحِلمُ والتُّقى ... ومَن أَسْبَغَ النُّعْمَى عَلَيْنَـا وأجْـزَلاَ
ومَن سَدَلَ السّتْرَ الجميلَ تَـفَضُّلاً ... ومَـدَّ علينَـا مِنْـهُ سِجفًـا مُظَلِّـلاَ

---

(378) هذا النص يحسم الخلاف الواقع بين المؤرّخين حول من خلف يوسف الثالث في الملك أما التكتّم على وفاته فقد كان ضروريا ليتم الاستعداد لبيعة ولده ولي عهده.

(379) يشير إلى وادي شنيل الذي كان أدباء غرناطة يعدونه كألف نيل لأن الشين في أوله ترمز إلى الألف بحساب الجمل.

إذا لَجَأ الدّينُ الحَنيفُ لِنَصْرِهِ ... رَأى رأيَهُ كَهْفًا مَنيعًا ومَوْئِلاَ
إذا ضَعْضَعَ الأيّامَ واقِعُ حادِثٍ ... رَسَا عَلَمًا فَوْقَ الكَواكِبِ قَدْ عَلاَ
إذا عَزَّ خَطْبٌ أوْ تَفاقَمَ مُعْضِلٌ ... وَجَدْناهُ رُكْنًا مُسْتَقِلاًّ ومَوْئِلاَ
أيُوسُفُ هَلْ مِن عَطْفَةٍ تُرْتَجَى لأن ... يَنالَ بِكَ الإسْلاَمُ ما كانَ أمَّلاَ(380) -256-
فإنْ لاَحَ نُورُ البَدْرِ واسْتَرسَلَ الحَيَا ... غَدَا كَفُّهُ أنْدَى ومَرْآهُ أجْمَلاَ
سَيَبْلُغُ في حَرْبِ العِدَى كُلَّ غَايَةٍ ... يُرَى القَدَرُ الجَارِي بِهِ مُتَكَفِّلاَ
كأنّي بِهِ قَدْ أرْسَلَ الخَيْلَ في الوَغَى ... فأوْرَدَهَا بَحْرَ النّجيعِ وأنْهَلاَ
كأنّي بِهِ مَاضِي العَزِيمَةِ في العِدَى ... إذا خَفَّتِ الخَيْلُ انثِناءً تَمَهَّلاَ
كأنّي بِهِ والبِيضُ تَخطُبُ فيهِمُ ... بفَصْلِ خِطابٍ حَيْثُ طبقْنَ مَفْصِلاَ
كأنّي بِهِ والحَرْبُ تَرفَعُ دونَهُ ... عَوامِلَ قَدْ أضحَى لهَا النَّصْرُ مُعْمِلاَ
تَرَى وَجْهَهُ طَلْقَ الأسِرَّةِ كُلّمَا ... أفَادَ العَطَايَا باسِمًا مُتَهَلِّلاَ
يَخف إلَيْهِ الوَفْدُ في طَلَبِ النَّدَى ... فَيَرْجِعُ مَمْلوءَ الحَقائِبِ مُثْقَلاَ(380م)
وجادَ لأهْلِ العِلمِ عَزَّ جَنابُهُمْ ... فَلاَ عَمَلٌ إلاَّ غَدا مُتَقَبَّلاَ
وجَدَّد في آلِ النبيّ مَراسِمًا ... بهَا أحْرَزَ المجْدَ الرَّفيعَ المؤَثَّلاَ
وصابَحَ أعْلاَمَ الجِهَادِ بِرِفْدِهِ ... فأصْبَحَ غيْثًا في البَسيطَةِ مُرْسَلاَ
وهِذِي الرَّعايَا قَدْ رَعاهَا تَلطُّفًا ... فَمَا أخْصَبَ المَرْعَى وما أبْدَعَ الكَلاَ
حَبا بالعَطايَا والكُسَا أوْلِيَاءهُ ... فأوْرَدَهُمْ بَحْرَ المَكارِمِ سَلْسَلاَ
وحَلَّوا بهَا النَّادِي فَمَا زَهَرُ الرُّبَى ... بأبْدَعَ مِنهَا في العيونِ وأجْمَلاَ
وأمْطَى مِن الغرّ الجِيادِ سَوابِقًا ... مَحاسِنُهَا تَسْتَوقِفُ المُتأمِّلاَ
فأرْسَلَ مُرْتاحًا وأهْدَى مُجَلِّيًا ... وأمَّنَ مُرْتاعًا وحَلَّى مُعَطَّلاَ(*)

(380) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقدار صفحة كاملة تركت بيضاء.

(380م) الحقائب : في الأصل الخفائف، وهو تحريف.

(*) المُرتاح : هو الخامس في ترتيب خيل السباق، والمجلّي هو الأول.

فهاهُـمْ لَدَيْـهِ شاكِريـنَ لِنعمَـةٍ أَحَلّتْهُـمْ دَوْحَ المُنَـى مُتَهَـدّلاَ
وحَيُّوا مِن المَوْلَى الامَامِ محمـدٍ كَريمًـا حَليمًـا مُنْعِمًـا مُتَـفَضّلاَ
أمـولاَيَ مولاَنـا أَبـوكَ أنالَنِـي مِن العزّ ما سامَ النّجُـومَ تَنَـزُّلاَ
وأوْلَى مِن النّعْماءِ ما كانَ عاقِدًا عَلَيّ بـهِ عَقـدَ الـوَلاَءِ مُسَجَّـلاَ
وجَرَّرْتُ ذيْلَ العُجْبِ إذ كنتُ عِندَهُ أباهِي بأمْداحِي جَريـرًا وأخطَـلاَ
ولوْ كانَ يُفْدَى بالنُّفوسِ وسابَقَتْ لِتَلْقَى المَنايَا دونَـهُ كـنتُ أَوَّلاَ
وأنتَ ابنُهُ الأرضَى ووارِثُ مُلكِهِ سَقَيْتَ رِياضَ الفِكْرِ منّي فأخْصَلاَ -258-
وقدْ كانَ مَرْعَى النّظْمِ عِندِي مُصوِّحًا فَرَوَّيْتَهُ من بَعْدِمَا كانَ أمْحَـلاَ[381]
وأوْلَيْتَنِي النّعْمَى التي جَلّ قَدْرُهَا وألْبَسْتَنِي الأثْوابَ رائِقَـةَ الحُـلاَ
وَطَوَّقْتَنِي طَوْقَ الحَمامِ فكيفَ لاَ أجيدُ هَديـلاً فَـوْقَ دَوْحٍ تَهَـدَّلاَ
أوارِثَ أنْصارِ النّبـيّ وصَحْبِـهِ ومَن بهِمُ الدّينُ الحَنيفُ تَجَمَّـلاَ
بمَاذا عَسَى أثْنِي عَلَى قوْمِكَ الألَى وقـدْ ورَدَ القُـرْآنُ فيهم مـفَصّلاَ
ولَكِنّنِـي أبْـدِي نِظامِـي قِـلادَةً تُريكَ مِـن الألْفـاظِ دُرًّا مُـفصَّلاَ
فـلازلتَ مَنصُورًا رَشيـدًا مُؤَيّـدًا عَليًّـا رَضِيًّـا واثِقًـا مُتَوَكِّـلاَ
ونَحْنُ عَبيدُ النّاصِرِ المِلكِ الرّضَى أبيكَ الذِي وَالَى الجَميلَ وأفْضَلاَ
وأنتَ هُوَ السّتْرُ الذي فاءَ ظِلُّـهُ فَلاَ زالَ سِتْر اللهِ فَوقَكَ مُسْبَلاَ[382]

والشيءُ يُذْكر بالشّيء كان مَوْلاَيَ الوالِدُ أبْقاهُ الله
قَدْ سافَرَ بَعْدَ إنشَادِي هذه القَصيدة لمَوْضِعِ قَضائِهِ وبالقرْبِ
من وفاةِ مَوْلودٍ تُوفّي لهُ فكتَبَ إلَيّ ما نصُّه :

أريتُ في آخِر لَيْلَةِ السَّادِس والعِشرين مِن شَوّال عَام عِشرين وثَمان مائة، كأن ولدي

(381) عندي : يقترح الشاعر أيضا : منّي، فَرَوَّيْتَهُ : في الأصل : فروّضته، وهو تحريف.
(382) ستر الله : يقترح الشاعر أيضًا : ظل الله.

أبا العُلى المتوفَّى بالمرية، عَن غيْرِ إذْنٍ فِي سَفَر أمّه بِهِ، قدْ أمْسَكَهُ شيْخٌ بديع الصّورَة، مُثّل لِي أنهُ جَدّي قاضي الجماعَةِ رحمَةُ الله عَليْهِ فدعَانِي تَفَجُّعِي وتَذكّرِي وتحَزُّنِي أن نظمتُ فِي قافِيةٍ كانَ ولدِي أبو الحسَين، أعزهُ الله وأسْعَدَهُ، قَدْ أطْلَعَنِي عَلى بَدائِعِهَا، ولمْ تُمَكّنِي الأيَّامُ أنْ أسْتَوفيَهَا وأن أُرَدّدَ النَّظَرَ إليهَا فقلت[283]

يمِينًا بمَـنْ راقَتْ سَماواتُهُ العُـلاَ لَقَدْ زهيَتْ أقمارُهَـا بـأبِي العُـلاَ
فمَا اليَوْمُ إلا كاسِفَ الشّمْسِ بَعْدَهُ ولاَ اللّيْلُ إلاَّ داجِيَ الجنْحِ أَلْيَلاَ
وأُكْفِيَتِ القَوْراءُ مِن هالَةِ الدُّجَى عَلَيْـهِ فَلَـمْ يمْكِنْـهُ أنْ يتَهَلّـــلاَ
وذلِكَ فِي مَرْأى عُيـون تَجُـودُهُ بأجْوَدَ من صَوْبِ الغمَامِ وأنهَـلاَ -259-
عَلَى الرغمِ منّي حيلَ بَيْنِي وبَيْنَهُ ولَـمْ ألـقَ إلاّ خِدْعَـةً وتَحَيُّــلاَ
جَفانِي أخِلاّئِـي غَـداةَ وداعِهِـمْ فلَمْ أشْهَـدِ التّوْديـعَ إلاَّ تَخَيُّــلاَ
تُريحُ العَشايا جاهِـدًا وأنَـا الـذِي أكابِدُ مِن خطْبِ الجَديدَيْنِ مُعْضِلاَ
فمَا الذاهِلُ الباكِي ذَهَابًا وجيئَـةً بأذْهَبَ منّي فِي المَرامِي وأذْهَـلاَ
وما مَرْبَعٌ مسْتَوْحِشٌ مِن أنـيسِهِ بأوْحَشَ مِن صَدْرِي مَلاَذًا ومَوْئِلاَ
ولاَ ذَاكِرٌ مِن وَحْشٍ وَجْرَةَ مُطْفِلاً بأذْكَر منّي طِفْلِي الرَّائِقَ الحُـلاَ
تبدّلَ مِن أوْجِ الثّرَيّا إلى الثّرَى فَلِلّـهِ مَدْعَـاهُ عُـلاً وتَنَــزُّلاَ
مَلائِكَـةُ السبـعِ الطّبـاقِ تَحُفُّـهُ رَكائِبَ يَتْلُو آخِـرُ القَـوْمِ أوّلاَ
بَكَتْ أسفًا عنِي وأمسَيْتُ مُبْعَـدًا بأقْربِ مَفْقودٍ من الأهْلِ مُثكَـلاَ
فلَمْ تَكْلَفِ الآمالُ بَعْدَ أبِي العُلَى بشَيْءٍ يَـروقُ الناظِـرَ المُتَأمِّــلاَ
وأقْصَفَتِ النَّكْبَـاءُ قَـدّ قَوامِـــهِ فأنّـى لِغُصْنِ البَـانِ أن يَتَمَيَّــلاَ
وألحَفَنِي التهْجيـرُ غَيْـمَ ظَهِيـرَةٍ فمالِـي ولِـلأوْداحِ أنْ تتَهَــدَّلاَ
وحَقَّتْ لِيَ الأنْباءُ صِدْقًا وطالَمَـا كَلِفْتُ بتَرْجيـمِ الظّنـون تعَلُّــلاَ

(383) سبق للشاعر أن ذكر أن والده كان قاضيا في برجة أما زواج هذا القاضي من المرية فلأنّ أصل أسرة ابن فركون من هذه المدينة.

ومَا أنا في الشّكْوَى بأوّلِ مَن شَكا   ولاَ أنا في البَلْوَى بأوّلِ مُبْتَلَى
عَذيرِيَ مِنْ عَتْبِ الذِي قد صَدَقْتُهُ   شُؤُونَ مُصَابِي مُجْمَلاً ومَفصَّلاَ
يَرُومُ التّهَدّي ثم يُلقِي عِنانَهُ   ويَثْنِي انثِناءَ البَكْرِ قَدْ ضَلَّ مُجْفِلاَ
وطالَ سُؤالِي بيْنَ غَيْبٍ ومَشْهَدٍ   وقَدْ صَمَّ سَمْعًا أنْ يُنادَى ويُسْألاَ
وَقُطّعَتِ الأسْبابُ فالوَصْلُ قَدْ أبى   بَلاَغًا إلَى ما أبتِغِي وتَوَصُّلاَ
وغَرْناطَةٌ وضَّاحَةُ الغُرَرِ التي   تُباهَى بهَا أُفْقُ المرِيَّةِ مُجْتَلَى
تُمَهّدُ لِلزُّلْفَى طِرافًا مُمَدَّدًا   وتُلْقِي مِن الرُّحْمَى وفاءً مُظَلَّلاَ
فماذا عدَا عمَّا بَدا في ابْنِيَ الذي   رَأى في الفَلاَ زُهْرَ الكَواكِبِ أُفَّلاَ
وأرجاءَ أرْجامٍ وأسْنِمَةٍ سَمَتْ   عَلى مَلأٍ لاَ يَسْتَطِيعُ التَّأمُّلاَ
فدِ اسْتَوْحَشُوا إلاَّ مِن الرحْمَةِ التِي   تُعَرِّفُهُمْ طُولَ المُقامِ تَطَوُّلاَ(384) -260-
فَدُمْتَ إذا تُمْلِي تُجَلِّي بسابِقٍ   تَسامَى فَسَمُّوْهُ الأغَرَّ المُحَجَّلاَ
فَتُصْدِرُ عَنْكَ الوفْدَ هادٍ دليلُهُ   وتُورِدُ بَحْرًا لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَ

وفيما حَقُّهُ انْ يَتّصِلَ بمَا تقدّمَ مِن الإخْوانيّاتِ :
لمَّا وُلِدَ لِي الوَلَدُ أحْمد، حَفظَهُ الله، الذي لمْ يبْقَ بقَيدِ
الحياةِ بهذا العهْدِ مِن إخْوانهِ غيْرُهُ، ولعَلهُ يبقَى بفَضلِ الله
ومَوْلِدُهُ ليْلَةَ السَّبْتِ السَّابعِ لرجَب عام عشرين وثمان مائة
كَتبتُ لمَوْلانا أبي الحجّاج رحمَهُ الله ساعَتئِذٍ(385)

أمَوْلاَيَ إنَّ العبْدَ قَدْ زادَ عِنْدَهُ   خَديمٌ لمَوْلاَيَ الرِّضَى المُتَمَسِّكِ(385م)

(384) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره صفحة تركت بيضاء، وقد كانت تشتمل على 23 بيتًا حسب سطور المخطوطة.

(385) سبق للشاعر أن أشار إلى ولده يوسف الذي سمّاه باسم مخدومه، راجع ص   أما ولده أحمد المذكور فقد سمّاه باسم والده القاضي السالف الذكر.

(385م) المتمسك : كذا في الأصل، ولعلها : المُتَنَسِّك، وقد سبق له ان اسْتَعْمَلَها في نعت الأمير محمّد ولي عهد يوسف الثاث. راجع ص

أَتَتْ عبْدةُ المَولَى الهمَامِ بِهِ فَمِن ... كلاَ طَرَفَيْهِ صَحَّ حُكمُ التمَلُّكِ
بَقيتَ ومِن رُحْماكَ لِلخَلْقِ رَحْمَةٌ ... تَلوذُ بِحَجٍّ مِن نَداهَا ومَنْسَكِ

وأعْمَلَ ركَابَهُ ثانِي يَوْمٍ مِن وِلاَدَتِهِ إلَى قَصْرِ نُبْلُه، وأنا صُحْبَتَه عَلى العَادَةِ، ثم تَشاغَلَ يَوْمَ عَقيقَتِهِ عَن تسْمِيَتِهِ بِحَادث، تَوْجيهِ الوزير أبي عبد الله القَبائِلِي إلى المغرب، فَتوهَمتُ أنَّ ذلكَ لِموجبٍ يَظْهَرُ مِن المَنْظومِ، فكتَبتُ إلَيْهِ هَذِهِ الأبيَات فسماهُ ووَهَبَهُ ما جَرتْ بِهِ عادَتُه لِمَن تَقَدَّمَهُ مِن إخْوَتِهِ[386]

أنا عبْدُ مَوْلاَيَ الخِليفَة يُوسُفٍ ... خَبَرٌ بِهِ رَسْمِي يَصِحُّ وَيَكْتَفِي
هذا هُوَ العِزّ الّذي أحْرَزْتُهُ ... وبِهِ رَقَيْتُ إلَى المَحَلِّ الأشْرَفِ -262-
لَوْلاَ سَحَابٌ جاءَنِي مِنْ جُودِهِ ... ما كانَ رَيْبُ الحادِثَاتِ بِمنصِفِ
لاَ أرْتَجِي إلاَّ نَدَاهُ فَرِفْدُهُ ... لَوْلاَهُ ما كانَ الزّمانُ بِمُسْعِفِ
مَوْلاَيَ إنّيَ عَبْدُ نِعْمَتِكَ التِي ... وكَفَتْ لَدَيْهِ فَكُلُّ مُعْضِلَةٍ كُفِي
وَلَدِيّ مَوْلودٌ يُرَجّى عَادَةً ... عَوّدتَهَا لمُؤمِّلٍ مُسْتَعْطِفِ
وقّعْ لعَبْدِكَ باسْمِهِ فالقَصْدُ أنْ ... تتَجدّد النُّعْمَى بِكَتْبِ الأحْرُفِ
لا أقتَضِي طَلَبًا سِوَى هذا الذي ... هُوَ عِزّتِي وعِنايتِي وتَشَرُّفِي
لأأرْتَجِي عَرَضًا فكَمْ مِن نعْمَةٍ ... أوْلَيْتَهَا بتَلَطُّفٍ وتَعَطُّفِ
لا أبْتَغِي أرَبًا فكَم مِن مقصَدٍ ... أسْعَفْتَ مِن قَبلِ السُّؤالِ المُعْتَفِي
ومتَى بَقيتُ ونعْمَةُ المَوْلَى عَلَى ... مَمْلوكِهِ فبواجِدٍ لاَ أكْتَفِي

(386) هذا الذي يدعوه الشاعر بالوزير أبي عبد الله القبائلي لعلّه ولد الحاجب أحمد القبائلي الذي كانت نهايته على يد مخدومه أبي سعيد عثمان المريني. انظر بخصوص الحاجب المذكور وولده وحفيده : إنباء الغمر 4 : 258 ــ 259 والضوء اللامع : 2 : 47 وجذوة الاقتباس 1 : 125 ــ 126 وروضة النسرين : 38، 40، 41 والاستقصا 4 : 86 ــ 88. ويبدو أن هذا القبائلي كان بسبب ما حصل لعائلته من صنائع يوسف الثالث المسخرين لخدمة سياسته المخرّبة. وراجع بالمُناسبة خبر سفارة عبد الرحمن ولد الحاجب القبائلي إلى محمد المستغني بالله أخي يوسف الثالث في نثير فرائد الجمان ص 397.

لَكِــنْ بِشــانٍ بعْــدَهُ وبثــالِثٍ   لهُمَـا عَلى نسَقٍ بغيْــرِ تَوقّــفِ[387]
هـذا يَطولُ فــأيُّ مــالٍ طائِــلٍ   بصِلاَتِ عبْدِكَ أوْ عَوائِـدِهِ يَفِــي
عُـدْ باسْمِـهِ مُتَألِّمًــا مِــن مَنْعِــهِ   يُشْفَى بمَا مِنهُ مَنَـحْتَ وَيَكْتَفِــي
مــا عُــذْرُهُ إنْ عابَــهُ إخوَانُــهُ   أو فَاخَرُوا بالعُرْفِ مَن لَمْ يُعْرفِ[388] -263-

أسَيِّـدِيَ الــذي فيــهِ أوَالِــي   ثَنائِـي مــا غَـدا يُـرْوَى الثَّنــاءُ
هَنيئًــا والهَنــاءُ لنَــا جَميعًــا   بمَوْلــودٍ يَحِــقُّ بِــهِ الهَنــاءُ
بأيْمَــن طائِــر وافَــى إلَيْنَــا   مِـنَ المَلإِ الكِـرامِ كَمــا نَشاءُ
كـأنَّكَ بـهِ يُوالَـى الـفَضْلُ مِنـهُ   كَمــا والَيْتَــهُ ولَكَ البَقــاءُ
ويَرْقَـى مُرْتَقــاكَ فعَــنْ قَــريبٍ   يكُــونُ لَــهُ عَلى ذَاكَ اسْتِــواءُ
تَقَــرُّ بِــهِ العُيــونُ ويُرْتَجيــهِ   ذَوُو الأمَـالِ لاَ خــابَ الرَّجــاءُ
مَخايِـلُ سُؤْدِدٍ في المَهْـدِ لاَحَتْ   تأمَّــلْ مــا عَلى هــذَا غِطــاءُ
لَقَـدْ كَــرُمَتْ أواصِرُهُ وطَــالَتْ   وعُــدّ فَمَــا لَهَــا بَعْــدُ انتِهــاءُ
أبُــو الحسَيْــن وقُــلْ كَريمًــا   عَلَيْــهِ المجْــدُ وقْــفٌ والعَــلاَءُ
بَقيتَ لنَـا كَمـا تَهْـوَى المَعالِـي   عَظيـمَ القَـدْرِ مَـا طَلَعَتْ ذُكَــاءُ
دَعَوْتُ لكَ الإلَــهَ دُعــاءَ صِدقٍ   وأرْجـو أن يُجابَ لَـي الدُّعــاءُ

سَيِّدي أبقاكُم الله، سنحَ لِلخاطِر ما تَرَوْنَ مِمَّا لاَ يُباع ولاَ يُبْتاع • وإنهُ حَاشَى -264-
ذِكْرِكُمْ فيهِ لَمِن سَقَطِ المَتاع • وطالَمَا عنْهُ مكَثْت • وعَهِدْتُ أن لاَ أعودَ
فَنَكثْتُ • حُبًّا عَلِم الله لِمَا أحْبَبْتُمْ • ولداعي المَجْدِ فيهِ أجَبْتُم • وقدْ عَجّلتُ الكَتْبَ
لسَيّدي تَخفيفًا عَلَيْهِ • ثمّ غلَبَنِي الشّوْقُ فنهَضتُ نَحو الجِنانِ إليْه•لتعْلَموا أنّي لمْ أضيّعْ

(387) لكن، في الأصل : لكان، وهو سهو من الناسخ.
(388) بعد هذا البيت بياض في الأصل مقداره صفحة ونصف، ويبدو ممّا يلي أن ما كان فيهما يتعلق بتهنئات بهذا المولود.

واجبًا في جنابِكُمُ العالي • ولأشغلني شاغل عَن قصدِ تِلْكَ المَعَالِي • فعُرِفْتُ أنّ الوَقْتَ مَعْمورٌ بما شَغَّفَ الباطِنَ مِن تَضْييع الخدّام • والتّفريطِ في حالِ قُرةِ العَيْنِ عافاهُ الله ووَقاهُ من جميع الآلآم • ولاَ بُدّ ان شاءَ الله مِنْ زيارَتِكُمْ هُنالك • والسّلوكِ إلَيْكُمْ عَلَى أوْضَحِ المسَالِكِ • والله عز وجل يَصل إسْعادِكُمْ • ويَفْسَحُ في الخَيْرِ والعافِيَة آمَادَكمْ • والسلام عليْكُمْ ورحْمَةُ الله وبَركاتُه • مِن مُكْبِر قَدْرِكُمْ • ومُوالِي حَمْدِكُمْ وشُكْرِكُمْ • أحْمد الشريف لَطَفَ الله به(389)

فَرا جعْتُهُ بديهَةً عَلى مَنْظومِه

بِحُـبِّـكَ لِـي اعْتِــلاقٌ واعْتِــلاَءُ　　فـدَامَ لِقَـدْرِكَ السَّامِـي العَــلاَءُ(390) -265-

(391)

وكَأنْ بـهِ يَرْقَـى المَنابِـرَ صاعِـداً　　فَتَـراهُ يَصْدَعُ كُـلَّ لَيْـلٍ يُظْلِــمُ
وكَأنْ بِهِ والحَرْبُ تَزْجُرُ خَيْلَهَـا　　لِعُدَاتِهَـا وَهْـوَ الهُمـامُ المُقْـدِمُ
وكـأنْ بـِهِ تَـغْشُو الوُفـودُ لِبَابِـهِ　　ونَوالُـهُ بَيْـنَ العُفَــاةِ مُـقَسَّمُ
يَا صَفْوَةَ الأبْرَارِ يا شَرَفَ الوَرَى　　يَهْنِيكَ مِنْ نَجْلِ السَّعـادَةِ مَقْـدَمُ
نَجْلٌ وقُلْ نَجْمٌ فكَمْ مِنْ مـارِدٍ　　بِشِهابِهِ إنْ طـافَ نَحْـوَكَ يُرْجَـمُ

(389) هذه تهنئة لأبي الحسين ابن فركون بمولوده أحمد المذكور، وصاحب التهنئة كما يبدو من رقعته هو الشريف أبو العبّاس أحمد ولد أبي القاسم المعروف بالشريف السبتي والغرناطي، وقد كان زميلا وصديقا حميمًا لأبي الحسين، وبطاقة الشريف تدل على الاهتمام البالغ لأبي الحسين بشأن مولوده إذ كان يخشى أن يموت كما مات أولاده الآخرون، ومن هنا كان توبيخه للخدم على اهمالهم وانشغاله بسبب ذلك عن لقاء صاحبه.

(390) بَعْدَ هذا ورقةٌ بيضاء يبدو أنها تشتمل على مراجعة ابن فركون الّتي لم يبق إلاّ مطلعها، وربما كانت تشتمل كذلك على أول التهنئة الآتية.

(391) لم يصلنا أوّل هذه القصيدة ويبدو أنّها في تهنئة ابن فركون بمولوده المذكور.

فَيِّءٌ لَهُ خَيْلَ الوَغى فَلِمِثْلِهِ ، الخَيْلُ تُسْرَجُ لِلْجِهادِ وتُلْجَمُ
بَشَّرَ بِهِ البِيضَ المَواضِيَ أَنَّها تُمْضِي الوَقائِعَ في الغَداةِ وتَحْكُمُ
بشَّر بِهِ صُفْرَ اليَراعِ بأنَّها تُغْنِي عَنِ الخَطِّيِّ فيمَا تَرْسُمُ
بَشِّرْ بِهِ الأَطْرَاسَ أَنَّ جَمالَها سَيفوقُ حُسْنَ الرَّوْضِ وَهْوَ مُنَمْنَمُ
أَوَ لَيْسَ نَجْلاً لِلّذي أَفْعالُهُ في المَجْدِ والقَصْدِ المُسَدَّدِ تُجْزَمُ
عَلَمُ الكَتائِبِ والكِتابَةِ والنّدَى صَدْرُ الزَّمانِ ونورُهُ المُتَوسَّمُ
فَذٌّ رَئيسٌ ماهِرٌ لِبَيانِهِ حُجَجُ البَلاغَةِ والبَيانِ تُسَلِّمُ
عَلَمٌ بأنْواعِ المَعارِفِ عارِفٌ حَبْرٌ لأَسْرارِ الحَقائِقِ مُلْهَمُ
صَدْرٌ بِجَمْعِ المَعْلواتِ مُتَيَّمٌ صَبٌّ بأَصْنافِ المَكارِمِ مُغْرَمُ
مُعْدٍ عَلَى المالِ العُفاةَ فما يُرَى بِفِنائِهِ وَفْقَ المَجادَةِ مُعْدِمُ
لَوْ كانَ لِلأَزْهارِ نِعْمَةُ حُسْنِهِ مَازالَ زَهْرُ الرَّوْضِ وَهْوَ مُنَعَّمُ
أَوْ كانَ لِلْبَدْرِ المُنيرِ بَهاؤُهُ مَازالَ بَدْرُ الأُفْقِ وَهْوَ مُتَمِّمُ
أَوْ كانَ لِلدَّهْرِ المُمَنَّعِ عِزُّهُ لَمْ يُلْفَ شاكٍ في الوَرَى مُتَظَلِّمُ
جَمَعَ العَلاءَ مُهَوِّناً لِسُهادِهِ ما يَقْتَنِي ذُخْرَ العَلاءِ مُهَوِّمُ
وأَفادَ حَتّى لِلسِّلاحِ بَيانُهُ فالْبِيضُ تَنْثُرُ والذّوابِلُ تُبْرِمُ
إنْ هَزَّ ذابِلَهُ وخَطَّ يَراعُهُ لَمْ يُدْرَ أَيٌّ بالمَقاتِلِ أَعْلَمُ
مِنْ [ذِرْوَةِ] الشَّرَفِ الأَصيلِ المُنْتَمَى مِنْ خَيْرِ حَيٍّ في القَبائِلِ يُعْلَمُ
[البَيْتُ يَعْـ] ـرِفُ قَدْرَهُمْ وَسُتُورُهُ وكَذا رُبَى عَرَفاتِهِ عَرَفَتْهُمُ(392)

(392) بهذا تنتهي النسخة الوحيدة الموجودة من هذا الديوان.

الفهارس

فهرس الأعلام(*)

* ابن نصر (يوسف) : 7، 9، 10، 23، 28، 39، 42، 53، 55، 65، 72، 85، 98، 114، 160، 161، 162، 163، 212، 218.
* ابن هلال : 147.
* أبو بكر الايسر : 168.
* أبو الحجاج : (يوسف الثالث) : 19، 153، 206، 262.
* أبو الحسن (شقيق يوسف الثالث) : 66، 80، 233.
* أبو الحسن (ولد السلطان يوسف الثالث) : 61.
* أبو الحسين (ابن فركون) : 168، 173، 175، 176، 184، 185، 185، 192.
* أبو زكرياء يحيى بن السراج : 197.
* أبو السرور مفرّج (القائد) : 27.
* أبو سعيد (السلطان عثمان المريني) : 99، 245، 249.
* أبو الطاهر (ولد الشاعر ابن فركون) : 127.
* أبو العباس (أحمد بن أبي سالم المريني) : 38.
* أبو العباس (الشريف الحسني) : 136، 171.
* أبو عبد الله الأكحل : 193.
* أبو عبد الله الأليري : 180.
* أبو عبد الله القبائلي : 262.
* أبو الْعُلَى : 260.
* أبو علي (أخو السلطان أبي سعيد) : 245 249.
* أبو علي عمر بن عمر (من كتاب يوسف الثالث) : 164.
* أبو فارس عبد العزيز الحفصي : 37.
* أبو الفضل بن أبي جماعة : 189، 190، 192، 193.
* أبو القاسم بن أحمد بن أبي القاسم بن قطية : 194.
* أبو القاسم بن حاتم المالقي : 183، 188.
* أبو المعالي (الشريف الحسني) : 172، 173.
* أبو نواس : 139.
* أبو زيد خالد (القائد) : 11، 22.
* أبو يوسف يعقوب (متسلطن مريني) 253.

(*) يشتمل هذا الفهرس على الأعلام الواردة في الديوان والاحالات المذكورة هنا هي على صفحات المخطوط المسجلة في طرر المطبوع.

* بنو مرين : 14، 52، 86، 88، 105، 106، 108، 222، 247.
* أحمد الشريف (أبو العباس) : 264.
* أحمد (ولد الشاعر ابن فركون) : 262.
* افنت الروم (فرناندو) : 47، 222.
* الأندلس : 11، 81، 105، 112، 222، 240.
* الأنصار : 13، 20، 81، 84، 94، 95، 99، 104، 212.
* بلقيس : (ملكة سبأ) : 68.
* تجين : 88.
* حاتم (الطائي) : 41.
* حازم : 186.
* حسان (ابن ثابت) : 66.
* الخصيب (ممدوح أبي نواس) : 139.
* الخطيب (ابن) : 120.
* تبّع : 43.
* ذبيان : 38.
* الرئيس البائس (؟) : 59، 87.
* الرشيد (الخليفة هارون) : 2، 28.
* الرضي (الشريف) : 171.
* الروم : 103، 137.
* سحبان : 38، 168.
* سعد : (ابن عبادة) : 6، 29.
* السعيد (محمد بن عبد العزيز المريني) : 50، 51، 53، 54، 55، 59، 65، 84، 85، 95، 96، 99، 106.
* سلمى (اسم رمزي) : 21، 145.
* سليم (اسم قبيلة) : 20.
* شدّاد : 171.
* الطائي (أبو تمام) : 20.
* طارق (ابن زياد) : 68، 95، 112.
* الطريفي (الحاجب) : 55.
* طيء (قبيلة) : 20.
* عاد : 171.
* عامر (ولد السلطان السعيد) : 54 (انظر أيضا ص. 88).
* عامر (قبيلة) : 20.
* العباس بن غمراسن : 249.
* عبد الله (ولد يوسف الثالث) : 214.
* عبس : 38.
* العزّى (اسم صنم) : 13.
* عطاء (إبن واصل) : 73.
* علي (أبو الحسن المريني) : 71.
* علي (أخو السلطان يوسف الثالث) : 234.
* الغني بالله (محمد الخامس) : 13، 71.
* فارس (أبو عنان) : 71.
* قريش : 175.
* قس (ابن ساعدة الايادي) : 2، 38، 200.
* قيس بن سعد : 2، 13، 29، 74.
* قيصر : 43، 66.
* كسرى : 66.
* المتنبي : 20.
* محمد (صلى الله عليه وسلم) : 117، 173، 180، 205.
* محمد (ولي عهد يوسف الثالث) : 258، 241، 258.
* مخلص (من عبيد يوسف الثالث) : 128.
* المرتضى (الشريف) : 171.

* المستنصر (أبو العباس أحمد بن أبي سالم) : 40.
* المسعود (ولد السعيد المريني) : 62 (انظر أيضا ص 88).
* المعز (معز الدولة أبو الحسن) : 72.
* المعز بن باديس : 72.
* معز الدولة (أبو الحسن شقيق يوسف الثالث) : 67، 234.
* ملك العدوتين (يوسف الثالث) : 17، 70.
* المنصور (العباسي) : 248.
* موسى (ابن نصير) : 95.
* الناصر (عبد الرحمن) : 6.
* الناصر (يوسف) : 6، 7، 9، 12، 16،، 23، 28، 31، 33، 36، 43، 46، 47، 48، 49، 53، 54، 55، 57، 59، 77، 81، 85، 90، 103، 111، 115، 123، 127، 133، 151، 152، 154، 156، 157، 160، 162، 176، 177، 189، 206، 236، 262.
* يحيى (السراج ؟) : 74.
* يحيى بن عبد الدائم : 163.
* يوسف (النبي) : 106.
* يوسف (ممدوح الشاعر) : 1، 3، 5، 7، 8، 10، 12، 19، 21، 24، 28، 31، 34، 37، 39، 42، 43، 47، 48، 56، 57، 61، 64، 70، 71، 76، 81، 85، 87، 90.
* يوسف (ولد الشاعر ابن فركون) : 126.
* واصل (ابن عطاء) : 73.
* ولد اللبابي (الحاجب) : 249.

فهرس الأماكن(*)

* افريقية (تونس) : 37.
* أنتقيرة : 222.
* بارق : 7، 93.
* بدر : (غزوة) : 104.
* بر العدوة : 51.
* برجة : 168.
* البلاد الغربية (المغرب) : 99.
* بلاد العدوتين : 94.
* بلاد الغرب : 227.
* البيضاء (المدينة البيضاء) : 97.
* تازة : 53.
* تلمسان : 68.
* تونس : 38.
* جبل شلير : 228.
* جبل الفتح (جبل طارق) : 50، 51، 53، 54، 55، 66، 67، 69، 70، 71، 87، 93، 95، 110، 142، 144، 164، 183، 237.
* جنة العريف (جنان العريف) : 158.
* الحجاز : 116.
* حصن المتلين (المكلين) : 32.
* الحمة : 234.
* الحمراء (غرناطة) : 18، 225، 234، 235.
* الخروبة : 234.
* دار السلام (بغداد) : 248.
* رامة : 91.
* رغون (أرغون) : 222.
* رندة : 46، 198، 200.
* الروم : 38، 16، 8.
* الرياض السعيد : 11، 27.
* رياض السيد (بمقالة) : 96.
* الريف (اقليم بالمغرب) : 54.
* الزوراء (بغداد) : 48.
* سبتة : 218، 224، 240، 242.
* السبيكة (في غرناطة) : 14، 30.
* سهيل (مكان بالاندلس يسمى اليوم Fuenjerola) 164.
* الشام : 18.
* شقورة : 80، 238.

* يشتمل هذا الفهرس على أسماء الأماكن الواردة في الديوان والاحالات المذكورة هي على صفحات المخطوط المسجلة في طرر المطبوع.

* شلوبانية : 206.
* شمانه (شمينة) : 66.
* شقورة : 80.
* صخرة عنّاد : 46، 222.
* طنجة : 54.
* طيبة : 29، 116، 203، 245.
* العذيب : 28، 93.
* الغرب (المغرب) : 65، 84، 85، 89، 91، 97، 101.
* غرناطة : 3، 18، 57، 106، 260.
* الغميم : 19.
* فاس : 59، 97، 198، 247، 249
* فاس الجديد : 54.
* قبة المشور (حمراء غرناطة) : 41، 90، 245، 255.
* القدس : 37.
* قرية واد : 8، 10.
* قشتالة : 222.
* قصر نبله : 206، 225، 262.
* مالقة : 16، 17، 50، 57، 61، 84، 86، 96، 98، 124، 178، 225، 242.
* مجمع البحرين : 51، 67، 88، 112.
* المحدث (قصر بمالقة) : 17.
* مربلة : 164.
* المشور السعيد (بحمراء غرناطة) : 41، 106.
* مصر 18، 37، 106، 248.
* المغرب : 59، 84.
* مكة : 6، 101، 116.
* ملتماس : 234.
* منى : 93، 117.
* المنكّب : 206، 253.
* نبله : 138.
* نجد (الحجاز) : 7، 23.
* النيل : 106.
* همدان (قرية غرناطية) : 234.
* الهند : 30.
* يثرب : 6.
* اليمامة : 104.
* يوم حليمة : 107.
* وادي مالقة : 16.
* وادي النيل : 234.
* وجدة 260.
* وجر : 228، 234.

فهرس الأشعار(*)

أول المطلع	القافية	عدد الأبيات	الصفحات
مقامُكَ	مُهَنّأ	37	20 — 19
يا أوحدا	وذكاء	10	192 — 192
أهْلاً	غرّاء	21	193 — 192
بُعُلاَكَ	أرْجَاءَهَا	97	249 — 245
أسَيِّدِي	الثَّنَاءُ	11	264 — 264
بِحُبِّكَ	الْعَلاَءُ	1	264 — 264
حَادِيَهَا	مَذْهَبُ	54	6 — 4
مَا لِلْمَدَامِعِ	يَلْتَهِبُ	38	40 — 39
أمِنْهَا	رَقِيبُ	27	45 — 44
فِي فِتْيَةٍ	الأَحْسَابِ	17	
شَمْسُ ٱلْعَشِيَّةِ	مَشْرُوبِهَا	19	139 — 138
مَا لِقَلْبِي	وَحَبِيبُ	22	142 — 141
أتُرَى	أوْصَابِ	17	147 — 147
أنَا ثَوْبٌ	السحب	8	155 — 154
وَمَا أنَا	الصَّوَابْ	2	161 — 160
الْوِرْدُ	وَجَبْ	2	163 — 163
هَنِيئاً	الْكِتَابَهْ	4	180 — 180
بِمَا أثْنِي	وَالإنَابَهْ	7	181 — 181
سَلِ الْبانَ	قِبَابُهَا	136	221 — 216
تَرَكْتُمْ	خَرِبَا	2	232 — 232
مَهْلاً	وَصَبَا	16	232 — 232

(*) مرتب على حروف الهجا ؛ أما الاحالات فهي على صفحات المخطوط المسجلة في الطرر.

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
سَقَى	تُرْبَهُ	34	238 — 236
بُشْرَى	يَعْقُوبِ	44	255 — 253
سَلْ	وَأَقَلَّتْ	24	54 — 53
مَعَالِمَ	نَجَحَتْ	33	63 — 61
لِمَنْ أَوْجُهٌ	قَسِمَاتُها	62	102 — 99
بِحُلَى	للصَّلاةِ	02	160 — 160
مَابَالُ	أَعِنَتَهَا	02	165 — 165
هُوَ النَّصْرُ	حَثَائِثُ	65	225 — 222
مَا لِلسُّرَى	حَدِيثَهَا	9	233
آثَارَ	في الدُّجَى	48	80 — 78
هِيَ الْعُلَى	آراجُها	08	157 — 157
بشرى	يبتهج	44	211 — 209
أمِنْ بَارِقٍ	نَازِجِ	41	8 — 7
تَجَلَّى	الشَّرْحِ	58	69 — 66
مُحَيَّاكَ	وَمَطْمَحُ	65	93 — 90
وَمِمَّا	يَلُوحُ	17	137 — 136
مَالِي	صِحَاحْ	25	148 — 147
هَلاَّ	مُتَاحَا	16	150 — 149
يَا عَجَبًا	الضُّحَى	02	150 — 150
أَبْدَعَنِي	اقتراحِهْ	2	162 — 162
سَمْعاً	لاَ تُشْرَحُ	30	173 — 172
هَنِيئاً	صفحِهَا	28	216 — 214
أَجِلْهَا	وانْقِيَادَا	53	11 — 9
هَنِيئاً	الْمَقَاصِدَا	11	23 — 22
يَمِيناً	يُجْدِي	21	27 — 26
نَسِيمُ الصَّبَا	وَقْدُهُ	71	30 — 27
هَنِيئاً	النَّدَى	35	32 — 30

أول المطلـــع	القـــافية	عدد الأبيات	الصفحـــات
إِلَيْنَا	بِالْمُرَادْ	7	32 ـــ 32
أَيَارَحْمَةَ	الْبِلاَدْ	31	34 ـــ 32
عَسَى	وبعيدُهُ	34	35 ـــ 34
هُوَ النَّصْرُ	قِيَادَهُ	34	48 ـــ 47
أُذَكِّرُ	عِنْدَهُ	4	58 ـــ 58
هَذِي الْكَوَاكِبُ	صُعُودُها	75	106 ـــ 102
هَذِي الْخِلاَفَةُ	جِيَادُهَا	76	133 ـــ 110
أَمَوْلاَتِي	أُعِدَّهْ	5	127 ـــ 127
مَسْلُوكُ	وَجْدَّهْ	3	127 ـــ 127
يَانَاصِرَ	مُؤَيِّدَا	10	128 ـــ 127
بِيُوسُفِ	الْمَدَى	08	158
أَنَا	لِلسَّجُودْ	02	160
طَلَعْتُ	وَالْمُغْتَدِي	02	160
يَا عَجَبَا	الْهُدَى	02	161
تُصِيبُ	الْمَدَى	02	161
أَنَا	وُرَّاده	02	163
لَوْلاَ	قُصَّادِهِ	02	163
نِظَامُكَ	فَرِيدُ	06	170
زَمَان	يعود	13	107
تَبَارَكَ	يَزْدَادُ	02	171
سَمْعاً	وَتَعْدَادُ	09	171
أَبَا الْحُسَيْنِ	الْخَلَدِ	07	173
هَلْ بِالرَّوْضِ	الفَرْدِ	21	174
أبا الحسين	الخَلَدِ	22	176 ـــ 175
جُفُونٌ	سُهَادُهَا	30	192 ـــ 191
هنيئا	عوائده	13	201 ـــ 200
هَنِيئاً	وَالْبِشْرَا	40	4 ـــ 2
هِيَ الْهَضْبَةُ	وَنَهَارُهَا	30	37 ـــ 35

أول المطلع	القافية	عدد الأبيات	الصفحات
ألاَلَيْتَ شِعْرِي	أَذْكُرُ	26	43 ــ 41
نَاصِرَ الدِّين	شَارَهْ	21	55 ــ 54
هَنِيئاً	عَشَائِرُ	59	86 ــ 84
وَتَزْعُمُ	يَجْرِي	3	133 ــ 132
وَظَبْيَةٍ	والفكر	15	133 ــ 133
هَلِ الْأُفْقُ	الزَّهْرُ	10	153 ــ 152
أَنَا لِلْحُسْنِ	المنصور	05	158 ــ 158
زُرْقَةٌ	في نهر	02	162 ــ 162
أَبْدَعَ	وظَهَرْ	02	162 ــ 162
أَلاَ حَيِّهَا	غِرَّا	19	169 ــ 169
جود	منجز	02	163 ــ 162
سَلْ	أُنْسَهَا	32	38 ــ 37
نَفَرَتْ	كَوَانِسْ	68	72 ــ 69
يَا إِمَاماً	لَمْسَا	10	126 ــ 125
لَكَ	بَاسِ	7	136 ــ 136
عُهُودُ	دَوَارِسْ	17	146 ــ 146
لعمرك	تخلص	54	227 ــ 226
أَمِنْ بَارِقٍ	مَضَى	51	78 ــ 75
هَنِيئاً	الْخُطَا	62	75 ــ 72
أَبُعْداً	شَطَّا	11	189 ــ 189
فَتَاةٌ	اشْمَطَّا	14	190 ــ 190
بُدُورٌ	وَرُبُوعُها	31	17 ــ 16
بَدْرٌ بِقُبَّتِكَ	وَمُطْلِعُهُ	31	44 ــ 43
أَنَاصِرَ	السَّمْعَا	29	53 ــ 51
هَذِي	طَلاَئِعُهَا	57	99 ــ 96
أَحْبَابَنَا	يَرْتَجِعُ	14	144 ــ 143
يَا مُعْجَباً	قِنَاعُ	6	151 ــ 151
لِلّهِ	وَأَبْدَعَهْ	8	153 ــ 153

أول المطلع	القافية	عدد الأبيات	الصفحات
لِلّهِ		16	160 — 159
وَشُهْبِ	النَّجِيعِ	02	165 — 165
عَزَاءً	مَوْضِعَا	45	234 — 234
تُحَيِّيك	طَوالِعُ	77	253 — 250
أَبُو الْحُسَيْنِ	بَلَغَا	06	168
أَهْلاً	صَغَا	06	169
قِفْ	مَوْقِفِ	70	26 — 23 ، 129
أَلَمْ	تأسُّفِ	22	58 — 57
أَنَا	مُفَوَّفُ	06	154 — 154
بِنَاصِرِ	مُنْصَرَفُ	18	156 — 155
كَفٌّ	لِلْمُقْتَفِي	02	161 — 161
وَقَالُوا	وُقُوفِ	02	164 — 164
هَنِيئاً	يُوسُفِ	09	228
أَنَا	وَيَكْتَفِي	15	262
لَكَ الْهَدْيُ	وَمَشْرِقَا	62	88 — 86
هُدًى	شَارِقِ	70	96 — 93
يَاطَالِباً	وَالْحَقِّ	4	124 — 124
يَاطَالِباً	الْمُونِقِ	4	124 — 124
مَوْلَى الْمُلُوكِ	مَنْطِقِ	17	125 — 125
أَيَا شَرِيفَ	سَبَّاقَا	5	135 — 135
هَلْ بَعْدَ	تَلاَقِ	13	143 — 143
فُؤَادِي	يُطِيقُ	15	151 — 150
يوسف	فِي زَرَقِ	2	162 — 162
إِنْ عُلِّقَتْ	المَشْرِقِ	2	162
عَجَباً	وَبِمَشْرِقِ	2	164 — 164
أَلْبَاعَلِيِّ	طريق	2	164 — 164
			196 — 194

أول المطلــع	القــافية	عدد الأبيات	الصفحــات
أراحت	حقوقا	63	214 — 211
إِلَيْكَ	مُتَهَلِّلَهْ	32	2 — 1
مَا لِلرَّكَائِبِ	سُؤَالَها	108	116 — 115
لَوْ وَجَدْنَا	مَسِيلاَ	6	48 — ~~48~~ 158
أُصْبِحَ	غَلِيلاَ	30	50 — ~~48~~ 159
هَنَاءٌ	تَتَهَلَّلِ	52	61 — 59
مَوْلاَيَ	المُتَهَلِّلِ	43	82 — 80
كَوَاكِبُ	أُفُولُهَا	80	109 — ~~106~~ 220
إِنَّمَا	الآمال	6	124
مَوْلاَيَ	لَهْ	8	128
خَلِيلَيَّ	الأَهْلِ	11	149
لِلّهِ	الْعُلاَ	8	157
حَكَيْتُ	نِصَالاَ	2	161
لَئِنْ	هِلاَلاَ	2	162
خَلِيلَيَّ	مَنالا	2	164
حَلَلْتُ	بِمَعْزِلِ	8	167
حَيَّا	الْعَلِيلْ	8	178
حَدَّثْ	الرَّحِيلْ	36	179
يَا وَحِيدَ النَّدَى	الْعَالِ	20	197
أَخْطَبٌ	تَهَلَّلاَ	74	256
يَمِيناً	الْعُلاَ	52	260
هَنَاءٌ	لِلْمُتَوَسِّمِ	34	19 — 17
تَنَاؤُكَ	لِلنَّاسِمِ	23	41 — 40
هُنِّئْتَ	أَنْجُمَا	30	51 — 50
هَنِيئاً	مُقَسَّمَا	93	117 — 113
دَعِ الْمِصْبَاحَ	الْبَهِيمِ	14	139 — 139
أَمَا تُبْصِرُ	فِي عَمَى	16	142 — 142

أول المطلـع	القـافية	عدد الأبيات	الصفحـات
وَمَا كُنْتُ	الْحِمَى	21	146 ــ 145
لِلَّهِ	رُقُومِي	06	154 ــ 154
أَشْبَهْتُ	أَسْهُمِي	02	161
رَأْيُ	أَسْهُمِي	02	161
بِبَدَائِعِ	الْهَائِمِ	02	163
وَمَجْلِسٍ	الْغَمَائِمِ	14	167 ــ 166
تَهَادَتْ	لاَ يَتَلَوَّمُ	117	206 ــ 201
لِمَنِ	وَتَلَوُّمِ	55	208 ــ 2
بُشْرَى	مَقْدَمُهُ	64	240
أمولاي	الجسيمة	8	233
أَلاَ يَا مَشوقاً	بالْحُسْنَى	36	22 ــ 21
صَرَفَ	وَسِنانُهْ	74	66 ــ 63
أَصَوْبَ الْحَيَا	بالرَّقْمَتَيْنِ	19	140 ــ 140
هِيَ	مَوْلاَنَا	06	154 ــ 154
أَحْرَزْتُ	الزَّمَنِ	12	157 ــ 156
يُوسُفٌ	أَوْدَعَنِي	02	162 ــ 162
إِنَّ الَّتِي	نَوَاهَا	44	57 ــ 55
أَدَارُهُمْ	وَحَيَّاهَا	50	186 ــ 182
جَادَ الْغَمَامُ	بِرَيَّاهَا	50	187
قِفَا	التحِيَّهْ	18	129 ــ 128
فَيَا عَذُولَ	يُدَاوِيهَا	9	144 ــ 144
أَلاَ حَدِّثَانِي	لِيَا	47	198 ــ 196

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

الحاج محمد باحنيني : المملكة المغربية.
ليوبولد سيدار سنغور : السنغال.
هنري كيسنجر : الولايات المتحدة الأمريكية.
محمد الفاسي : المملكة المغربية.
موريس دريون : فرنسا.
عبد الله كنون : المملكة المغربية.
نيل أرمسترونغ : الولايات المتحدة الأمريكية.
عبد اللطيف ابن عبد الجليل : المملكة المغربية.
إدغارفور : فرنسا.
محمد إبراهيم الكتاني : المملكة المغربية.
إيميليو كارسيا كومز : المملكة الإسبانية.
عبد الكريم غلاب : المملكة المغربية.
أوطودو هابسبورغ : النمسا.
عبد الرحمان الفاسي : المملكة المغربية
جورج فوديل : فرنسا.
عبد الوهاب ابن منصور : المملكة المغربية.
محمد عزيز الحبابي : المملكة المغربية.
هوان كسيانغ : الصين.
محمد الحبيب ابن الخوجة : تونس.
محمد ابن شريفة : المملكة المغربية.
أحمد الأخضر غزال : المملكة المغربية.
عبد الله عمر نصيف : المملكة العربية السعودية.
عبد العزيز بنعبد الله : المملكة المغربية.
أحمد عبد السلام : الباكستان.
عبد الهادي التازي : المملكة المغربية.
فؤاد سركين : تركية.
محمد بهجة الأثري : العرق.
عبد اللطيف بربيش : المملكة المغربية.
محمد العربي الخطابي : المملكة المغربية.
بيرناردان كانتين : الفاتكان.
عبد المنعم القيسوني : مصر.

المهدي المنجرة : المملكة المغربية.
أحمد الضبيب : المملكة العربية السعودية.
محمد علال سيناصر : المملكة المغربية.
كونستنتان تساتسوس : اليونان.
أحمد صدقي الدجاني : فلسطين.
محمد شفيق : المملكة المغربية.
اللورد شالفونت : المملكة المتحدة ابريطانية العظمى.
محمد المكي الناصري : المملكة المغربية.
عبد اللطيف الفيلالي : المملكة المغربية.
أحمد مختار أمبو : السنغال.
أبو بكر القادري : المملكة المغربية.
الحاج أحمد ابن شقرون : المملكة المغربية.
عبد الله شاكر الكرسيفي : المملكة المغربية.
جان برنار : فرنسا.
أليكس هالي : الولايات المتحدة الأمريكية.
روبير أمبركجي : فرنسا.
عز الدين العراقي : المملكة المغربية.
أليكسندر دومارانش : فرنسا.
دونالد فريدركسن : الولايات المتحدة الأمريكية.
عبد الهادي بوطالب : المملكة المغربية.
إدريس خليل : المملكة المغربية.
رجاء غارودي : فرنسا.
عباس الجراري : المملكة المغربية.
بيدرو راميرزفاسكيز : المكسيك.
الحاج أحمد أحيجو : الكامرون.
بوريس بيتروفسكي : الاتحاد السوفياتي.
محمد فاروق النبهان : المملكة المغربية.
عباس القيسي : المملكة المغربية.
عبد الله العروي : المملكة المغربية.
عبد الله الفيصل : المملكة العربية السعودية.

الأعضاء المراسلون

الفونصودي لاسيرنا : المملكة الإسبانية
روني جان دوبوي : فرنسا
ريشارد ب ستون : الولايات المتحدة الأمريكية
شارل ستوكتون : الولايات المتحدة الأمريكية

أمين السر الدائم : عبد اللطيف بربيش
أمين السر المساعد : محمد العربي الخطابي

المدير العلمي
مصطفى القباج

مطبوعات
أكاديمية المملكة المغربية

I — سلسلة «الدورات»

* «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نوفمبر 1981.
* «الماء والتغذية وتزايد السكان، القسم الأول»، بحوث موضوع الأكاديمية، أبريل 1982.
* «الماء والتغذية وتزايد السكان، القسم الثاني»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نوفمبر 1982.
* «الامكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، بحوث موضوع دورة لأكاديمية، أبريل 1983.
* «الالتزامات الخلقية والسياسية في غزو الفضاء»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، مارس 1984.
* «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أكتوبر 1984.
* «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية» دورة أبريل 1985.
* «حلقة وصل بين الشرق والغرب : ابو حامد الغزالي وموسى بن ميمون» دورة نونبر 1985.
* «القرصنة والقانون الأممي» دورة الأكاديمية، أبريل 1986.

II — سلسلة «التراث»

* «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة، عضو الأكاديمية، الرباط 1984.
* «الماء وما ورد في شربه من الآداب»، تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، عضو الأكاديمية، مارس 1985.
* «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، عضو الأكاديمية، القسم الأول من الجزء الأول، أبريل 1986.
* «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، عضو الأكاديمية، القسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1987.

III — سلسلة «المجلة»

* «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأفتتاحي، فيه وقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الاثنين 5 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل 1980.
* «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأول، فبراير 1984.
* «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثاني، فبراير 1985.
* «الأكاديمية»، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثالث، نوفمبر 1986.

IV — سلسلة «الندوات»

* «فلسفة التشريع الاسلامي»، ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.

أكاديمية المملكة المغربية
طريق زعير، الرباط (كلم 6,4) ص.ب 1380
الربــاط ــ المغــرب

رقم الايداع القانوني بالخزانة العامة وحفظ الوثائق 1987/266

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء